

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر 2 / أبو القاسم سعد الله



كلية اللغة العربية وآدابها واللغات والشرقيات
قسم اللغة العربية وآدابها

صُورَةُ الْجَزَائِرِ فِي الْمُتَخَيَّلِ السَّرْدِيِّ لَدَى الْكُتَّابِ الْفَرَنْسِيِّينَ
وَكِتَابَاتِ الْجَزَائِرِيِّينَ بِاللِّسَانِ الْفَرَنْسِيِّ بَيْنَ 1830-1962م

*The image of Algeria in the narrative imagination of
French writers and the writings of Algerians in the French
language between 1830-1962*

رسالة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في اللغة العربية وآدابها
تخصص أدب مقارن وعالمي

إشراف

أ.د. / عبد القادر بوزيدة

إعداد

حورية موالفي

لجنة المناقشة

رئيسة	جامعة الجزائر 2	أستاذة التعليم العالي	أ.د. خولة طالب الإبراهيمي
مشرفا ومقررا	جامعة الجزائر 2	أستاذ التعليم العالي	أ.د. عبد القادر بوزيدة
عضوا مناقشا	جامعة الجزائر 2	أستاذة التعليم العالي	أ.د. مليكة بن بوزة
عضوا	جامعة الجزائر 2	أستاذة التعليم العالي	أ.د. رشيد كوراد
عضوا	جامعة تيزي وزو	أستاذ التعليم العالي	أ.د. بعيو نورة
عضوا	جامعة المدية	أستاذ التعليم العالي	أ.د. سليم حيولة

السنة الجامعية 1445هـ-2024م

Ministry of Higher Education and Scientific Research

University of Algiers 2 / Abu Al-Qasim Saadallah



Faculty of Arabic Language, Literature, and Oriental Languages

Department of Arabic Language and Literature

***The image of Algeria in the narrative imagination
of French writers and the writings of Algerians in the
French language between 1830-1962***

A Thesis Submitted in Fulfillment of the Requirements for the Degree of
Doctorate in Arabic Language and Literature

Comparative and World Literature

Presented by

Houria Moualfi

Supervisor

Pr : Abd el Kader Bouzida

Board of Examiners:

Khaoula Taleb Ibrahim	professor	University of Algiers 2	presidente
Abd el Kader Bouzida	professor	University of Algiers 2	raporter
Rachid Kourad	professor	University of Algiers 2	examiner
Malika Benbouza	professor	University of Algiers 2	examiner
Nora Bayou	professor	University of Tizi Ouzou	examiner
Salim Haoula	professor	University of Medea	examiner

2023 - 2024

إهداء / عرفان

...هُم، كما أراهم، سُرُجُ الأَرْضِ،
جَدَّتِي الصَّابِرَةَ عَلَى المَهَانَةِ،
كَيْمَا تَرَبِّي يَتَامَى
عَلَى كَتْفَيْهَا حَمَلَتِ الأَحْجَارَ ...
أُمِّي المَجَاهِدَةَ تَحَدَّتِ الاسْتِعْمَارَ،
فَعَذَّبَتْ بِالمَاءِ وَالكَهْرِبَاءِ ...،
وَاهْتَزَّتْ لِآلامِهَا السَّمَاءَ!
أَبِي المَجَاهِدُ، حَارِبِ الاسْتِعْمَارِ
مَعَ جَيْشِ التَّحْرِيرِ حَتَّى النِّصْرِ،
وَكَلَّ حَرَّ كَرِيمٍ، نَاضِلٍ فِي سَبِيلِ مَبْدَأِ جَلِيلٍ
فِي كُلِّ عَصْرِ.

شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

يسرّني جدًّا أن أعبّر عن أسمى معاني العرفان وجميل الامتنان

لأستاذي الفاضل "عبد القادر بوزيده"

المشرف على هذا العمل في الدكتوراه كما في الماجستير،

ولولا إرشاداتكم ونصائحكم ما بلغ نهايته وغايته.

وعميق التقدير لمن ساعدني يوما وشجّعني لإتمامه،

عائلي وأصدقائي، وأساتذتي في كل طور، وزملائي

في تخصص الأدب المقارن والعالمي،

وخالص الاحترام للأساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة.

فشكرا وألف شكر لكم أستاذي وللجميع.

مقدمة

تعد قضية الاستعمار ومقاومة الاستعمار من المسائل التي ركزت عليها الدراسات المقارنة المعاصرة، بعد أن ظهرت في البيئات التي عرفت أشكال الغزو والهيمنة. وهو أدب انبثق عن الحركة الاستعمارية التي امتدت في العالم، وبلغت أوجها التوسعي في القرن التاسع إلى غاية تفكيك الإمبراطوريات الاستعمارية العظمى في القرن العشرين، ومناهضة السياسة الإمبريالية وانعكاساتها المتعددة الأوجه على الشعوب المستعمرة، وهو الإطار الذي تضمنه مؤلف ألبير ممي " Albert Memmi صورة المستعمّر وصورة المستعمِر " Portrait du colonisé et Portrait du colonisateur.

استند المنظّرون الغربيون مع ماريوس - آري لوبلون Marius-Ary Leblond ، ورولان لوبال Roland Lebel ، وأوجين بيجارنيسكل Pujarniscle في بداية القرن العشرين لتأسيس جمالية خاصة بهذا الأدب لتبرير التدخل العسكري في العالم إلى مفهوم "الاستعماري" في تصنيف وترسيم الأعمال السردية التي تزعم معرفة جيّدة بطبيعة الأهلي النفسية وحالته الاجتماعية، مستبعدين تلك المفعمة باستيهامات الاستشراق الرومانسي والألوان المحلية النادرة والتصورات العجيبة، والديكورات الغريبة وغير المألوفة التي راجت في القرن التاسع عشر، غير أنها كانت المهد الذي تربي فيه الأدب الاستعماري الحديث. أضاف بعدها منظّرون يساريون من العالم الثالث أمثال إدوارد سعيد Edward Saïd، هومي بهابها Homi Bhabha، Gayatri Chakravorty Spivak، الذين درسوا في الجامعات الغربية في النصف الثاني من القرن العشرين مصطلح "ما بعد الاستعمار" للرد على السردية الاستعمارية وخلصها خطابها المتعالي، وتأسيس لنظرة مغايرة هي نظرة المستعمّر نحو المستعمِر.

وفي هذا السياق سعت هذه الدراسة الموسومة "صُورَةُ الْجَزَائِرِ فِي الْمُتَخَيَّلِ السَّرْدِيِّ لَدَى الْكُتَّابِ الْفَرَنْسِيِّينَ وَكِتَابَاتِ الْجَزَائِرِيِّينَ بِاللِّسَانِ الْفَرَنْسِيِّ بَيْنَ 1830-1962" إلى استجلاء تمثيلات الآخر المختلف في المتخيل السردية ذي التعبير الفرنسي، ورصد صورة الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي، من خلال الاشتغال على بيان أنطولوجيا الاختلاف الثقافي والحضاري،

وخطاب الغيرية والإقصاء. يتمحور إطار الاشتغال فيها حول أنساق التمثل والتصور والتخيل، والكشف عن كرونوتوب الواقع النمطي المختزل الذي تلبس بالجزائر المستعمرة، وكل أنواع الكرونوتوب، حسب باختين، التي تمارس حضورها اللافت في الأعمال الإبداعية الدائرة في فلك الاستعمار ومقاومة أجهزته ومناهضة الإمبريالية الغربية. وتتبع تلك التي جعلت الجزائر محور الاهتمام ونصا سرديا متخيلا، وعنيت برسم الإنسان مستعمرا ومستعمرا، فتمّ التعامل المزدوج مع هذا "الآخر" ناظرا ومنظورا.

مجال البحث هو الأدب وعلاقته بالمجتمع والتاريخ، لاسيما التلاحم بين السرد والتاريخ بالتعرض إلى رصد التمثيلات الثقافية جنبا إلى جنب مع مراحل التطور التاريخي للظواهر اللصيقة بها، وعرض اتجاهات الأدباء الإيديولوجية في تباينها أو اتقاقها، وإلقاء الضوء على أبرز السمات المرسومة في إطار إعادة تشكيل المكان والزمان والإنسان على نسق جديد، وتحطيم أسس البنى التقليدية القديمة وتحليل مختلف الأبعاد السياسية والاجتماعية التي واكبت مسيرة المجتمع الجزائري المنظور في ظل الاحتلال الفرنسي. وعلى هذا النحو تركز مقارنة الصورة على الجزائر المتخيلة، والمنظور التاريخي وهو زمن الاحتلال الفرنسي. فهي في الوقت ذاته تتراوح بين ثنائية الموضوعاتية والتاريخية، ولهذا امتدت حدود الفضاء الزماني والمكاني على حقبة الاستعمار الفرنسي للجزائر من 1830-1962، وركزت حدود الموضوع على تحليل الأبعاد والمظاهر المختلفة في علاقاتها المتداخلة.

اعتمدت الإشكالية على مسألتين محورتين هما: الاهتمام الشديد بصورة الجزائر في الحقبة الاستعمارية، وتجليات هذه الصورة في السرود المكتوبة باللسان الفرنسي لدى الفرنسيين والجزائريين. وتتطوي تحتها تساؤلات عديدة، وهي: ما المتخيل الذي غذى التمثيلات السردية الفرنسية حول الجزائر؟ وما الأبعاد المختلفة لهذه الصورة المرسومة عن هذا البلد خلال الاستعمار؟ وما مصدر الصور النمطية التي تكررت في النصوص السردية؟ من هم الأدباء

الذين تبوّأوا قيم النظام الاستعماري من الطائفتين: المستوطنون الأوروبيون من ناحية والجزائريون (الأهالي المتطوّرون خاصة) من ناحية أخرى؟ كيف تجلت الصورة المضادة في روايات الجزائريين (الأهالي)؟ ما مدى إسهام أعمال الجزائريين في تطوّر الرواية في هذه الفترة، وما أثر الثقافة والاحتكاك بين القيم الجزائرية والثقافة الفرنسية في ميلاد الرواية الفرانكوفونية واحتضانها إشكالية الهوية والانتماء؟ وما الملامح العامة والخطوط المميّزة لهذه الأعمال السردية المصوّرة للجزائر؟

وللإجابة عليها استعانت الدراسة بالمنهج التاريخي الذي فرض نفسه لاستقراء مسارات الصورة المكوّنة عن البلد المنظور/الجزائر، وتطوّراتها وأبعادها باختلاف مراحلها. واستخدام آليات النقد الثقافي في استخلاص الأنساق الثقافية المضمرة والظاهرة والمهيمنة وآليات المقارنة، واللجوء، أحيانا، إلى الوثائق التاريخية والإثنولوجية والسياسية لفهم خلفية التّصوّر والتمثّل، وكشف الطاقة الجماليّة المبتوثة في النّصوص الإبداعية المختارة.

اهتمت الدراسة بحقبة الاحتلال الفرنسي للجزائر التي مرت بمرحلتين تاريخيتين هامّتين، القرن التاسع عشر والقرن العشرون، تناولت كل مرحلة الأعمال السردية المكتوبة باللغة الفرنسية المهيمنة آنذاك، وتجلت فيها صورة الجزائر والمجتمع عند كُتّاب ينتمون إلى ثلاث فئات متباينة ظهرت على الساحة الأدبية حسب الترتيب الزمني: في البدء كانت أعمال فرنسيي المتربول في القرن التاسع عشر؛ وهم أدباء العبور والدعاية الذين أيدوا أطروحة الاستعمار واستغلال البلاد؛ فأصبح إنتاجهم مصدرا أساسا ومعينا لا ينضب لمن جاء بعدهم يعتمدون على تلك الصور الجاهزة في سرودهم، وهم فرنسيّو الجزائر الذين شدوا الرحال إلى الجزائر أفواجا من أنحاء أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وفي الأخير أتى دور الجزائريين، وهم نخبة مثقفة من الأهالي الذين ردّوا على المستعمرين في القرن العشرين، فرسموا، بلغة المستعمر، صورة أخرى عن الجزائر وناقشوا مختلف القضايا.

سارت الخطة المتّبعة وفق ترتيب منطقيّ ارتأته العلاقة النسقية بين حلقات العناصر الأساسية التي تربط المضامين بتطور مراحلها التاريخية. واشتملت على مقدمة تعرضت للخطوط العامة للبحث، وتمهيد يتكون من مبحثين، ودراسة تطبيقية في مساءلة نصوص المدوّنة تحتوي على بابين، يضمّ كل باب فصلين، وينقسم كل فصل إلى مبحثين، ويتصدّر كل باب وفصل توطئة وينتهي بخلاصة، لتصل الدراسة إلى المحطة الأخيرة وهي الخاتمة، وقد توزّع جميعها كما يلي:

احتوى التمهيد على مبحثين، فالمبحث الأول عنوانه: "مفاهيم نظريّة: في مفهوم الصورة المقارنيّة"، خُصص لعرض الجهاز المفاهيمي بشيء من التفصيل، فتطرّق إلى شرح أهم المصطلحات وتحديد المفاهيم التي لها صلة بالموضوع المدروس بالوقوف على مصطلح الصورة وعلاقته بحقل الأدب المقارن، وإشكاليّة الآخر في مجال السرد التخيلي. والمبحث الثاني عنوانه: «جذور صورة الشرق التاريخية في وعي الغرب»؛ وألقى الضوء على ثنائية الشرق والغرب وتوتر العلاقة بين القطبين المتعارضين، وأثر ذلك في ميلاد الاستشراق وفي تمثيل الشرق سردياً، والجزائر على وجه التخصيص.

حمل الباب الأول عنوان: "صورة الجزائر في القرن التاسع عشر من 1830-1900، سُرد فرنسيي المتروبول في سياق السّياحة الاستعماريّة"، واهتم بكتابات الأدباء الرحّالة الاستعماريين الذين رافقوا الجيش الفرنسي في خرجاته وغزواته العسكرية وحملاته التوسعية في أطراف البلاد، وكيف سخّروا قلمهم من أجل مساندة المشروع الرأسمالي الاستعماري. فأما الفصل الأول فعنوانه: "الجزائر في السرد الرحلي"، تعرض إلى تحليل صورة الجزائر في أدب الرحلات السياحية التي تلت الغزو العسكري، فكانت السرد الرحلية بمثابة المصادر الأولى للرؤى والتصورات النمطية التي رسخت فكرة فضائل الاستعمار ولعنة المستعمر المتخلف. المبحث الأول: «صورة الجزائر في مرآة الرحلة الاستشراقية»، تناول أثر الاستشراق الرومانسي الغربي

في كتابات الرحالين الفرنسيين الأولين عن الجزائر، واستثمار بعض المفاهيم كاللون المحلي والغرائبي والعجائبي لشد اهتمام المتلقي. والمبحث الثاني بعنوان «الأبعاد الأنتروبولوجية في سرود الرحلات»، وتتمثل في الأبعاد الثقافية والاجتماعية والسياسية.

وأما الفصل الثاني فعنوانه: "الجزائر في السرد القصصي والروائي"، بين مدى استفادة الكتاب الرحالين من نصوص الرحلة والسيرة الذاتية، في تأليف قصص وروايات تُشيد بمزايا الاستعمار وتُشيد أسطورة الأهلبي "الطيب المتوحش". المبحث الأول عنوانه: «سرديات أدب الغزو والسياحة الاستعمارية»، رصد الصور النمطية التي حاصرت الجزائر وحصرتها في التخلف، وتجليها في السرد المستلهمة من مذكرات الرحلة. عنوان المبحث الثاني: «مغامرة البحث عن الذات في الآخر والتماهي مع المكان "الهنالك"». ووفقا لمقولة رامبو Je est un autre تناول محاولة الأدباء الفرنسيين البحث عن ذواتهم في مناخ الجزائر الغرائبي، من أجل تحقيق هويّتهم السردية في الآخر (الجزائري).

وحمل الباب الثاني عنوان: "صورة الجزائر في القرن العشرين 1900-1962، إشكالية الهوية والانتماء" واتخذ الفصل الأول اسم: "الجزائر في روايات فرنسيي الجزائر، الرواية الاستيطانية". جاء عنوان المبحث الأول: «استيعاب الجزائر المستعمرة مختلف الثقافات الأوروبية الوافدة»، وطرح مسألة الهوية وإشكالية الانتماء عند الأدباء المستوطنين (المتجزئين، والمتوسطين) الذين قرروا أن يكونوا جزائريين بالتبني لتمييزوا عن فرنسيي المتروبول. والمبحث الثاني بعنوان: «صراع الهويّات وصناعة الثقافة في ظلّ النظام الاستعماري». كشف عن واقع المجتمع الاستعماري المتأزم في ظل الثقافة وصدام الهويات، والصراع بين الأوروبيين المختلفي الجنسيات أنفسهم حول الامتيازات وتهميش الأهالي.

وأتى الفصل الثاني بعنوان: "الكتابة بلغة الآخر في الرواية الأهلية، صورة المُستعمر بلغة المُستعمر". سلط الضوء على نتاج الجزائريين الأهالي المتأثرين بالثقافة الفرنسية نتيجة تعلّمهم

في مدارس الاستعمار، فاستخدموا لغته لتوضيح موقفهم وموقعهم في المجتمع الاستعماري الجديد. كان عنوان المبحث الأول: «الرواية الإدماجية في سياق الدعوة إلى التّطبيع والولاء لإيديولوجيا الاستعمار»، بيّن مدى انبهار بعض الكتاب المحليين بالثقافة الغربية، والإفصاح عن رغبتهم في الاندماج للمطالبة بالمساواة في الحقوق مع الأوروبيين، وتمسّك آخرين بثقافتهم وشخصيتهم. وكان عنوان المبحث الثاني: «الرواية الوطنية الملتزمة؛ بعث الوعي الوطني وإثبات الهوية الجزائرية»، رسم واقع الأهالي المتردّي في ظل الاستعمار واتساع دائرة التهميش والعنف، ووصف المأساة التي أفضت إلى إعلان التمرد وتبني خيار الثورة المسلحة. وفي النهاية خاتمة شارحة للنتائج المتوصل إليها، وقائمة المصادر والمراجع وفهرس المحتويات مع التذييل بملحق وملخص.

تأتي أهمية هذه الدراسة في التصدي لحقبة مهمّة من تاريخ الجزائر الحديث، وهي الاستعمار الفرنسي، وما ترتب عنها من تحولات جذرية في البلد على كل المستويات، انعكست على وجود الأمة الجزائرية كلها وحياة المجتمع برمته، والتركيز على استقصاء تجليات الصورة التي صنعتها السردية الاستعمارية، ثم المحلية عن الجزائر المستعمرة، وتبلورت على المستويين الإيديولوجي والجمالي.

اجتمعت عوامل عدة، ذاتية وموضوعية، ساهمت في تشكيل الأهداف المرجوة من إنجاز هذا العمل، أهمها:

- الرغبة الملحة في تناول موضوع في مضمار علم الصورة يتعلق بالجزائر المستعمرة والصراع الحضاري بين الجزائري والفرنسي من أجل الاستيلاء عليها أو البقاء فيها؛ فكان أن استقر الأمر على إنتاج الكتاب الفرنسيين، وإنتاج الجزائريين (الأهالي) ردا على كتاب الاستعمار.
- بيان أسباب ظهور هذه الصورة وتكرارها وتطورها نتيجة للمتغيرات السياسية والثقافية.

- الكشف عن تمظهرات الفضاء التاريخي والجغرافي الثاوية في نصوص المدونة المختارة،
وفهم القيم السياسية والاجتماعية والثقافية السائدة.

- إبراز الجوانب المجهولة في مجال تمثيل الجزائر في نظر المستعمر والمستعمر على السواء.
- عدم وجود دراسة تغطي مراحل الحقبة الاستعمارية كلها في الإنتاج السردى.

- لملمة وجمع المادة المتفرقة والمبثوثة في الدراسات والبحوث المنجزة حول صورة الجزائر عند
الكتاب الفرنسيين في المتخيل السردى، والجزائريين باللسان الفرنسي في عمل واحد، ونفض
الغبار عن بعض النصوص المهملة في الرفوف، أو القديمة التي بخس حقها من التحليل والنقد.

- التعرض للنصوص الروائية التي قدمها الجزائريون كونهم رعايا فرنسيين آنذاك، في إطار
الرد بالكتابة باعتبارها أنجزت في عهد الاستعمار، بالنظر إلى ظروف تكوين مجتمع جزائري
جديد في فضاء هجين وغير متجانس، حيث برز كتاب من جنسيات متباينة وثقافات متعددة،
فضمت حركة "المتجزئين" و"مدرسة الجزائر" نخبة من المثقفين الفرنسيين من أصول أوروبية
مختلفة وجزائريين. فقد كانت إيزابيل إبرهارد فرنسية من أصل روسي، وإيمانويل روبلس إسباني
الأصل، وألبير كامو من أم إسبانية وأب فرنسي، وإليسا راييس (روزين بومنديل) جزائرية من
أصل يهودي، وبول أشار من مالطا، وغابريال أوديزيو من أصل إيطالي، وأندري روسفلدر
يهودي من أصل ألماني، وعبد القادر فكري جزائريا عربيا مسلما، ومولود فرعون جزائريا أمازيغيا
مسلمًا، وطاوس عمروش من أسرة جزائرية أمازيغية مسيحية، واشترك جميعهم في استخدام
الآليات نفسها هي المتخيل السردى واللسان الفرنسي.

- إثراء المكتبة الجامعية بمرجع في مبحث علم الصورة، يضاف إلى ميدان الأدب المقارن
الذي لا يزال مجال البحث فيه قليلا والاشتغال ضئيلا في الجزائر.

تألفت المدونة من النصوص السردية المكتوبة بالفرنسية، أصلية في معظمها وقليل منها
مترجم، أو بنقل مقاطع نصية من صفحات بعض الدراسات عند الضرورة القصوى لغياب
المصدر، إذ حاولت هذه الدراسة الإلمام بأكبر قدر من الأعمال، فأحاطت بمذكرات الرحلة إلى

الجزائر التي سجل فيها أدباء العبور خلاصة انطباعاتهم ونظراتهم، ودونوا ذكرياتهم العابرة عن المناطق التي زاروها، إذ كان لهذه المذكرات الأولى، ذات النفس الروائي، الفضل الكبير في تمهيد السبيل لتأليف القصص والروايات المستوحاة من تلك الرحلات السياحية التي تعرفت على عمق تراب الجزائر؛ بتعبير آخر تحوّلت سرود الرحلات المشرّبة بطروحات استشراقية غريبة، فيما بعد، إلى القالب القصصي والروائي، وأثّرت، بشكل أوسع، في تطور الروايات المستلهمة من وضع الجزائر الاستعماري في القرن العشرين.

أدى هذا التطور، بحكم مرونة الرواية وانفتاحها على كل القضايا والفضاءات، إلى تنوع اتجاهاتها حسب الإيديولوجيا المتبنّاة في كل مرحلة، منذ الغزو العسكري والاحتلال، إلى سياسة الاستيطان، ثم الإدماج الثقافي بين طوائف المجتمع الاستعماري المتعارضة، والتي كانت بالنسبة، للنخبة الجزائرية، أحد ثمار المدرسة الفرنسية الحديثة، وعاملا من عوامل الوعي الوطني الثوري المناهض للاستعمار والتشبث بالتراث الثقافي الجزائري. ومن الطبيعي أن تكون هنالك اختلافات في الآراء والرؤى بين الكتاب، نظرا لانتمائهم إلى دوائر مختلفة وتيارات متصادمة.

تلك هي النقاط المحوريّة التي شكلت أساسيات موضوع الدراسة. علاوة على ذلك وردت بعض المصطلحات وأسماء الأعلام الغربية بالحرف العربي واللاتيني تسهيلا للقارئ. والاستعانة أحيانا أخرى بالجدول لتوضيح بعض المسائل وما فيها من فروقات والمقارنات بينها. مع الإشارة إلى أن النصوص الأجنبية المترجمة التي لم يُذكر أصحابها في المتن أو الهوامش، حقوق محفوظة تدخل في صميم هذا البحث.

فيما يخصّ المراجع يذكر أن هناك دراسات سابقة بالفرنسية والإنجليزية تطرقت إلى صورة الجزائر المستعمرة في الإنتاج السردى ذي التعبير الفرنسي عند الكتاب الفرنسيين والجزائريين، ولكنها جاءت جزئية واقتصرت على كتاب الاستعمار فقط أو على الجزائريين، ولم تغط كل مراحل حقبة الاحتلال كما هي الحال في هذه الدراسة، منها:

- Alain. Calmes. Le roman colonial en Algérie avant 1914.
- Charles Tailliar, L'Algérie dans la littérature française, Essai de bibliographie méthodique et raisonnée, 1925.
- Ahmed Lanasri, La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres - Genèse et fonctionnement.
- Fadhila Yahiaoui, Roman et société coloniale, Dans l'Algérie de l'entre-deux-guerres.
- Sakina Messaâdi, Les Romancières coloniales et la femme colonisée, Contribution à une étude de la littérature coloniale en Algérie.

- أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياها، 2012.

وهذا بالإضافة إلى أعمال أخرى باللغتين العربية والأجنبية (الفرنسية والإنجليزية)، ودراسات منشورة وغير منشورة، ورقية وإلكترونية، ورسائل جامعية ومقالات عديدة، تناولت مرحلة تاريخية، أو شخصيات، أو موضوعات أدبية معينة كنماذج تطبيقية، تناولت بالدرس صورة الجزائر وأحوال سكانها في فترة الاحتلال الفرنسي. وقد تم الاستعانة بها قدر المستطاع في إعداد هذه الأطروحة التي يستحيل أن يتم لها الكمال على غرار كل الدراسات والأبحاث، إذ اعترضتها مصاعب جمة ومتاعب كثيرة في الحصول على بعض المصادر والمراجع، والنصوص السردية المصنفة في خانة الكتب النادرة. خاصة تلك المنشورة في الصحف الفرنسية الاستعمارية متسلسلةً. وكذا بسبب فقدان النسخ الأصلية في المكتبات الجامعية والمكتبات العامة الحديثة حينما مثل أعمال جيل الرواد الجزائريين، وحينما آخر كان العثور على النسخ المترجمة التي لا تُغني عن الأصل بسبب قلها كبيرا، وكذا مشاكل عدم إعادة النشر كونها أعمالا ظرفية مرتبطة بزمن الاستعمار وفقدت بريقها وشعبيتها في البلدين المعنيين، فرنسا والجزائر بالخصوص. ومما زاد الأمر تعقيدا جائحة كورونا التي كانت وراء الأبواب المغلقة في وجه أي نشاط دراسي أو بحث علمي، فطال الوباء الأقارب منهم الوالدة رحمهم الله. لذلك ستظل هذه الدراسة في انتظار باحثين متمكنين مستقبلا لإثراء بعض النقاط الواردة باقتضاب والتوسع فيها، فهي بمثابة بذور لمشاريع تصلح لتتحول إلى دراسات أوسع.

تمهید

توطئة

المفهوم الذي يتعلق بموضوع هذه الدراسة هو الصورة الذهنية في سياق العلاقة بين الذات والموضوع، وهو مفهوم متعدد الاختصاصات والدلالات، يستعمل في مختلف الحقول العلمية والمعرفية لاسيما العلوم الإنسانية والاجتماعية، كعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والفلسفة والأنثروبولوجيا ومجال الإعلام والاتصال... هناك من يُؤثر استعمال كلمة "تصور"، بمعنى تخيل وتوهم، ويدل على النشاط الباطني الذي يقوم به العقل أو الذهن. يقول أيمن منصور ندا: «مصطلح التصور يغنينا عن استخدام مصطلح "الصورة الذهنية" كما يستخدمه البعض، فالتصور لا يكون إلا ذهنيا أو عقليا، ولا يوجد تصور غير ذهني، وبديهي أن المصطلح الذي يكفي لذاته ويكتفي بذاته أفضل من المصطلح الذي يحتاج إلى مصطلحات أخرى لتوضيحه أو لتمييزه عن غيره»¹. ويرى أحد الدارسين «أن هناك فرقا بين الصورة والتصوير والتصور، فالصورة إحدى ظواهر الطبيعة وهي إما حقيقة أو خيال- والتصور مرور الفكر بهذه الحقائق يتصفح صورها- والتصوير إبراز هذه الصور إلى الخارج بشكل فني، فالتصور إذن هو العلاقة بين الصورة والتصوير وأداته الفكر فقط، وأما التصوير فأداته الفكر واللسان واللغة»²، وهكذا يختلف المفهوم حسب مجالات استخدامه وأهدافه.

يتعلق التصور بالأحاسيس والإدراكات التي يعيد العقل تشكيلها في لحظة معينة عن شيء ما أو شخص. «فالتصور عند علماء النفس، هو حصول صورة الشيء في العقل، وعند المناطق، هو إدراك الماهية من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات»³. والتصورات «هي

¹-أيمن منصور ندا، الصور الذهنية والإعلامية، عوامل التشكيل واستراتيجيات التغيير، المدينة برس، القاهرة، 2004، ص 20، 21. منتدى سور الأزيكية. www.Books4All.net

²-الحوماني، الصورة والتصور والتصوير، مجلة الرسالة، المجلد الثاني، العدد 64، بتاريخ 24-09-1934، ص 31. المكتبة الشاملة الحديثة.

³-جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ج1، ص 281.

المعاني العامة المجردة [...] المستمدة من التجربة، كتصور معنى الإنسان أو معنى الحيوان، أو معنى النبات، أو غيرها»¹. وهناك استعملات مرادفة لمعنى التصور، مثل الصورة النمطية^{2*}، والتعميمات النمطية، والقوالب الجامدة، والأحكام الجاهزة préjugés والتتميط والقولبة. ولكن ما المقصود بالتصور الذهني أو الصورة الذهنية في العلاقات الإنسانية؟ هو جملة من الانطباعات الناتجة عن العواطف والأحاسيس تحولت، مع مرور الوقت، إلى أفكار ثابتة لأسباب عدة منها الظروف السياسية والاجتماعية.

1- علم الصورة في الأدب المقارن: الصورة المقارنة l'image comparatiste

أولت الفلسفة الغربية، منذ عصر الإغريق، عناية كبيرة بمسألة الآخر، وحل الفلاسفة الغربيون على مدار التاريخ هذا المفهوم، فحاولوا تحديد مفهوم "الآخر" الذي يعني الأجنبي. وامتدت مساحة الاشتغال على الصراع الثنائي، "الأنا والآخر"، في العصر الحديث إلى الأدب؛ فاهتم الباحثون في الخمسينيات من القرن العشرين بدراسة صورة الأجنبي وتجلياتها³، سميت اصطلاحاً في ثمانينيات القرن العشرين علم الصورة L'Imagologie.

علم الصورة المقارن l'imagologie comparée، هو علم يبحث في صور الآخر، وفي كيفية تمثيل الأجنبي، محاولاً معرفة الخصائص التي تميزه عن الأنا، وتحديد علاقاته الإنسانية معه سلبيًا وإيجابيًا^{4**}. وهي أيضاً ترجمة للآخر وللذات

¹ - جميل صليبا، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

² * أول من استخدم مصطلح "الصورة النمطية" هو الكاتب الصحفي الأمريكي والتر ليبمان Walter Lippmann في كتابه "الرأي العام" Opinion publique سنة 1922.

³ - Daniel-Henri Pageaux, la littérature générale et comparée, Collection Cursus, série "Littérature", Armand-Colin Editeur, Paris, 1994. p. 59.

⁴ ** ركزت معظم دراسات الصورة على الجوانب السلبية بسبب عدم دقتها، وارتباطها بالتعصب والتمييز العنصري والتعميمات الخاطئة. [ينظر أيمن منصور ندا، الصور الذهنية والإعلامية، ص 41، 42، 43].

في الوقت نفسه¹؛ فنفي الآخر وعدم الاعتراف به يعني بالضرورة نفياً للذات، ويدل على عدم الإقرار بالتعدد الذي يؤكد وجود الأنا.

ويمثل البحث في صور الشعوب، حسب بيشوا وروسو، اتجاهاً حديثاً في الأدب المقارن². فهو يعنى بدراسة الآخر وتحليل ثقافته، من خلال الوقوف على مظاهر حياته العقلية والاجتماعية والسياسية كما تتجلى في الأعمال الأدبية. ولعل أهم عمل يستحق الذكر هو كتاب "عن ألمانيا 1810" للكاتبة الفرنسية السيدة جرمان دو ستايل Madame de Staël التي حاولت تصحيح الانطباع السيء، الذي رسخ في ذاكرة الفرنسيين عن ألمانيا برهة من الزمن؛ وبذلك عادت الطريق لدراسات أخرى أثرت الساحة الأدبية في هذا المجال.

ظهر علم الصورة في فرنسا على يد المقارنين الفرنسيين الذين قدموا جهوداً طيبة للتعريف به في بداية القرن العشرين، لكنها كانت أقرب إلى التاريخ وعلمي النفس والاجتماع، وركزت على سرد تاريخ الأدب أكثر من تحليل للأعمال الأدبية. في عام 1930 ظهر مؤلف "الكتّاب الفرنسيون في هولندا"³، ورسالة جورج أسكولي G.Ascoli "بريطانيا العظمى أمام الرأي العام الفرنسي في القرن السابع عشر". بدأت دراسة الصورة (الأجنبي) عملياً مع جان ماري كاري J.M.Carré في كتابه "صورة بريطانيا في الأدب الفرنسي" و"الكتّاب الفرنسيون والسراب الألماني" في 1947، ثم يأتي بعده ماريوس فرانسوا غويارد Guyard في مقاله "الأجنبي كما نراه" عام 1951⁴. كما تجلت في أطاريح أخرى مثل "صورة بريطانيا 1914-1940" عام 1954، وميشال كادو M.Cadot عن "صورة روسيا في الحياة الثقافية الفرنسية

¹ Pageaux, la littérature générale et comparée, op.cit. p.65.

² -كلود بيشوا واندري ميشال روسو، الأدب المقارن، ترجمة وتقديم أحمد عبد العزيز، مكتبة الأنجلو المصرية، 2001، ص144.

³ -دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997، ص14.

⁴ Pageaux, La littérature générale et comparée, op.cit. p.59.

1839-1856¹ عام 1967. وازدهر في التسعينيات من القرن العشرين مع دانييل هنري باجو D.H.Pageaux، الذي نظّر لهذا العلم في كتابه "الأدب العام والمقارن"، موضحة العلاقة بين الثقافة الناظرة والثقافة المنظورة؛ وألح على ضرورة الانفتاح على دراسة الصور التي تقدم الآخر (الأجنبي)، إلى جانب إسهامات جان مارك مورا J.M.Moura. وانتقل بعدها إلى بلدان العالم فوسع مجاله واختلفت أهدافه.

تكمّن مهمة الصورة الأدبية في رصد انطباعات الأنا نحو الآخر، وإبراز نوع العلاقات التي تحكم "هنا وهناك"؛ وتبيين مدى تقاربها أو تنافرها، بغض النظر عن تطابقها مع الحقيقة والواقع، فتكشف عن المضامين المضمرة في العمل الأدبي وعن إيديولوجيتها² المغلّفة. إنه أدب موجه إلى المتلقي المنتمي إلى مجتمع الأنا الناظر؛ فأحيانا «يمكن أن يتموضع الكاتب مكان المتلقي بأريحية، إذ هناك تواطؤ كبير بينهما»³ ضد الآخر. إن الصورة التي يرسمها الأنا عن الآخر تأتي جزئية أحيانا أو منحازة. وهي نظرات ذاتية خاطفة مثل تصوير حوادث عابرة أو مشكلات فردية أو مسائل محدودة النطاق، ربما عرفها من خلال مطالعته للكتب والمذكرات. فالباحث في النص الصوري يهتم بنظرة الأنا (الناظر) التي تقوم غالبا على الأوهام والخيالات بقدر ما يهتم بصورة الآخر (المنظور إليه).

تشارك دراسة الصورة مع بعض الفلسفات الاقتصادية كالماركسية، والعلوم الإنسانية، مثل الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا، التي تهتم «بتقافة الغير والهوية والمثاقفة،

¹-كلود بيشوا وأندري ميشال روسو، الأدب المقارن، م س، ص144.

²-إيديولوجيا: أول من صك هذا المصطلح هو المفكر الفرنسي أنطوان دستوت دي تراسي عام 1794. [ينظر: لايمان تاورسارجنت، البيوتوبية، ص117].

³-ينظر الرابط التالي: <http://www.cafe.umontreal.ca/genres/n-voyage.html>.2018-02-08.21:25

والتنافر والاستلاب الثقافي، يستفيد منها الباحث المقارن من أجل مقابلة الصورة الأدبية مع شهادات متوازية انتشرت عبر الصحافة والسينما... الخ»¹. وما يهم الناقد المقارن في دراسة الصورة الأدبية، هو البعد الأجنبي في مختلف جوانبه، وبصفة خاصة ما تثيره التعابير من الانزياح الخيالي الناتج عن اختلاف الثقافات، على حد تعبير باجو الذي يقول «إن الصورة تعبير، أدبي أو غير أدبي، عن فرق دال بين منظومتين من الواقع الثقافي. إننا نجد، مع مفهوم الفارق، البعد الأجنبي الذي يؤسس لكل فكر مقارني»². وهذا الانفتاح الواسع على الحقول الثقافية الأخرى، غير الأدبية، هو ما جعل بعض النقاد يتمسكون بفكرة إبعاد علم الصورة عن الأدب، ويدعون إلى إلحاقه بالعلوم المعرفية. ولكن قد يستفيد علم الصورة الأدبية من هذه الحقول الثقافية في دراسة صورة الآخر، فلا يمكن أن يقتصر عمل الأدبيين على المبادلات الأدبية وحسب، لأن «النشاط الأدبي هو أيضا نشاط اجتماعي»³. وقد بين باجو، في مختلف بحوثه في هذا المجال، ارتباط صورة الأجنبي الوثيق بالسياق الثقافي؛ ويؤكد على قيمة المعطيات التاريخية والسياسية في تمثيل الآخر.

1.1- مصادر تشكيل صورة الآخر (الأجنبي)

لما كانت الصورة لا تنشأ من فراغ، فلا بد أن يستند تكوين صورة الآخر إلى وسائط كثيرة ومصادر مختلفة، ذات أبعاد اجتماعية وسياسية واقتصادية، أهمها الرحلات والأسفار. ينتقل الفرد من فضاء مألوف إلى فضاء أجنبي في إطار زمني ومكاني، ناقلا منظومته الثقافية إلى مجتمع الآخر، فيحصل من هذا التفاعل بين منظومتين مختلفتين منظومةً أخرى مركبة من هذا التفاعل كنتاج للديناميكية الثقافية. ففي قطار الرحلة يبحث الرحالة عن عالم أجنبي، وحضارة

Pageaux, la littérature générale et comparée, op.cit. p.62.

Pageaux, la littérature générale et comparée. op.cit. p.60.

Daniel. Henri Pageaux, Recherches sur l'imagologie : de l'histoire culturelle à la Poétique, Revista de Filologia Francesa.8. Servicio de Publicaciones.Univ. Complutense, Madrid,1995. p.138.

<https://revistas.ucm.es/index.php/THEL/index>

-1

-2

-3

تحمل ثقافة مختلفة، وفلسفة روحية، وعن أفكار وقيم أخرى. يرصد الأشياء والمناظر الطبيعية والمظاهر الاجتماعية، ويبحث عن رؤية تمكنه من التعرف على الآخر "الأجنبي" وترجمتها وفق التصور الذي استقر في ذهنه. وهذا ما جعل "باجو" يرى أنه من الغلط إبعاد أدب الرحلة في الدراسات المقارنة لأنها تحول الفضاء الأجنبي إلى كلمات جميلة وصور رمزية بديعة، فالرحالة، في هذه الحال، «مقارني والمقارني رحالة»¹.

تجسدت صورة الآخر في مؤلفات كتاب الرحلة الذين جابوا البلدان لأغراض مختلفة. ومهما يكن من سبب، فقد خلفت هذه الرحلات الاختيارية أو الاضطرارية، مادة وافرة في مؤلفات الرحالين عن أشياء رأوها عيانا أو أخذوها سماعا، فلا تخلو النصوص الرحلية من المتعة والفائدة العلمية التي توفرها الإثنوغرافيا المهمة بأحوال الإنسان والمجتمعات.

2.1- أنماط صورة الآخر (الأجنبي) واتجاهاتها

تُقدّم صورة الآخر، انطلاقا من مبدأ التأثير والتأثر، وفق أنماط متنوعة، فقد تتناول صورة شعب في أدب شعب آخر²، حصل بينهما علاقة، تجسد التفاعل في نتاجهما الأدبي، فتتمظهر صورة الشعب المتأثر في أدب الشعب المؤثر، مثل صورة بريطانيا أمام الرأي العام الفرنسي في القرن السابع عشر، أو صورة مصر وبعض البلاد العربية الأخرى في رواية مارك توين Twain بعنوان The Innocents Abord

¹ Voir: La littérature comparée, 5-voyages et voyageurs.

<https://www.universalis.fr/encyclopedie/litterature-la-litterature-comparee/5-voyages-et-voyageurs>. Consulté le : /24-10-2018.10 :30

² عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغربية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط2013، ص 58.

وقد تكون صورة شعب في أدب كاتب أجنبي¹، مثل صورة إسبانيا عند فكتور هوغو. وصورة شعب في شكل أدبي معين لدى شعب آخر².

تسير دراسة صورة الآخر (الشعوب)، حسب زاوية الناظر والمنظور إليه، في اتجاهات مختلفة، فهناك الاتجاه الأفقي، ويتناول صورة شعب عند شعب آخر ينتميان إلى نفس الثقافة أو الحضارة مثل، صورة ألمانيا في الأدب الفرنسي، أو يتساويان في المستوى الحضاري أو يتقاربان، مثل صورة أمريكا في الأدب الأوربي والعكس. والاتجاه الرأسي، ويتمثل في صورة شعب "متخلف" في أدب شعب "متحضر"، مثل صورة العربي في الأدب الإنجليزي، أو صورة الإفريقي في الأدب الأوربي. والاتجاه العكسي، ويدرس صور دول متحضرة في أدب دول متخلفة³. والاتجاه الطباقى، وقد ارتبط هذا الاتجاه بدراسات ما بعد الاستعمار، التي بشر بها فرانز فانون، واشتغلت على تفكيك السردية الاستعمارية ونقد السياسة الغربية. فالقراءة الطباقية⁴ * Contrapuntal Reading حسب إدوارد سعيد: «ينبغي أن تدخل في حسابها كلتا العمليتين: العملية الإمبريالية، وعملية المقاومة لها. ويمكن أن يتم ذلك بتوسيع قراءتنا للنصوص التي تشمل ما تم ذات يوم إقصاؤه بالقوة»⁵. وهو شكل من أشكال التعبير عن التنديد والرفض أطلق عليه الأسترالي بيل أشكروفت "الرد بالكتابة" في كتابه The Empire Writes Back 1989.

¹ - عبد المجيد حنون، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

² - م ن، ص 59.

³ - عبد المجيد حنون، م س، ص 59، 60.

⁴ * القراءة الطباقية Contrapuntal Reading: مصطلح إنجليزي مستعار عن الموسيقى، يعني المزج بين لحنين مختلفين، "حيث يشير إلى العلاقة بين المواضيع (على سبيل المثال العلاقة بين "دا دا دا دوم" الشهير في السيمفونية الخامسة لبيتهوفن واستكشافها اللاحق). استخدمه إدوارد سعيد - وكان عازفا للبيانو - في الثقافة والإمبريالية (1993) وصف العلاقة (في ما يسميه الأرشيف الثقافي) بين السرديات الموضوعية في المراكز الحضرية، أو على الأقل في الريف، في الدول الاستعمارية المهيمنة مثل إنجلترا وفرنسا، والمستعمرات التي تعتمد عليها القوى العظمى في ثروتها". [ينظر الرابط التالي:

[www.oxfordreference.com/view/10.../authority

⁵ - إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط4، بيروت، لبنان، 2014، ص7.

3.1- مواقف الذات في تشكيل صورة الأجنبي: الصورة النمطية

تظهر صورة الأجنبي حسب رؤية الذات للآخر وطريقة تفاعلها معه؛ فتعدد زوايا النظر إليه وفق خلفية سياسية معينة وسياق تاريخي وصراع فكري وثقافي معينين. وقد وضع "باجو" تصنيفا شرح فيه مواقف الذات إزاء الأجنبي، فذكر ثلاثة مواقف أساسية تتحكم في كتابة الغريبة¹، تتمثل في حالات ذهنية، تتوزع بين الاعتقاد بتفوق ثقافة الأجنبي (الهوس)، والذعر منه وازدراء ثقافته (الرهاب)، والتكامل بين الثقافة النازرة والثقافة المنظورة² (التألف).

فأما الهوس (manie) فهو شعور الأنا بالإعجاب بالأجنبي والانبهار بنموذج الآخر، مما يعني تقزيم الذات، والانتقاص من شأن الثقافة النازرة، اعتقادا بتفوق الثقافة المنظورة. «يقوم فيه تقديم الأجنبي على وهم أكثر مما يقوم على صورة»³. ويظهر هذا الهوس بجلاء عند الكتاب الفرنسيين إزاء الثقافة الإسبانية في القرن الثامن عشر. يقول باجو: «إن الرومانسية كانت بالنسبة لفرنسا العصر العظيم للإسبانية، وبشكل أوسع، عصر الغرائبية "الشرقي". حول هذه النقطة، يقوم فيكتور هوغو، في ديوان الشرقيات، بالانتقال من إسبانيا إلى الشرق الأوسط الحالي، يرسم خطوط فضاء الرومانسية الحلبي (وما بعد الرومانسية) بامتياز»⁴. وكذا أدباء المستعمرات الأوروبية المنبهرين بثقافة المستعمر (لدى شعوب آسيا وإفريقيا المستعمرة)، يستخدمون لغته أداة للتعبير عن أفكارهم ومواقفهم، وتبني ثقافة الآخر والتفاني في خدمتها؛ حيث تحاول الذات أن تذوت ثقافة الآخر، وتقلده تقليدا أعمى يجعل حضورها كنائيا⁵.

¹ - دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، مرجع سابق، ص 220.

² Pageaux, La littérature générale et comparée, op.cit. p.71.

³ - دانييل هنري باجو، م س، ص 108.

⁴ Daniel. Henri Pageaux, Un aspect des relations culturelles entre la France et la péninsule ibérique: L' exotisme. p.464. <https://dialnet.unirioja. 1223237.pdf>

⁵ -سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ت، ص 159.

وأما الرهابُ (فوبيا الآخر phobie) «فإنه، عكس الهوس، يؤدي إلى اعتبار الواقع الأجنبي متدنياً مقابل تفوق الثقافة الأصلية»¹. فالصورة التي قدمها الفرنسيون مثلاً عن إسبانيا تنبئ عن الازدراء الشديد بعد تنامي التوتر بين البلدين في القرن التاسع عشر. يشير باجو إلى «إن الغرائبية الإسبانية في فرنسا ظهرت للوهلة الأولى كظاهرة خاصة جاءت لتبيين الفروق الدقيقة، بل وحتى تشويهه، ما يسمى بـ "العلاقات"، و"المبادلات" في الأمور الأدبية والثقافية»².

والتألف (philie)، هي النظرة الإيجابية للثقافتين الناظرة "la culture regardante" والمنظورة "la culture regardée"، دون شعور مبالغ فيه بتفوق إحدهما على الأخرى. إنما يتم التعايش والتكامل بينهما، في جو من الحوار الراقي والجدل الهادئ والمبادلة النافعة، بلا تقديس (الهوس) ولا تدنيس (الرهاب). فتبنى العلاقة الثقافية بين مختلف الشعوب على أساس مبدأ التسامح الإنساني الذي ينطوي على معاني المودة والندية والتناظر والثنائية. ويبقى «التسامح هو الحالة الوحيدة للتبادل الواقعي والثنائي»³. وهي الرؤية الوحيدة التي تسمح بتجاوز الحواجز الوهمية التي صنعتها النظرة الفوقية أو الدونية، والتطلع إلى التحاور، في فضاء من التألف والانسجام، يغيب فيه مبدأ التفاضل، وإشاعة التسامح بين مختلف الأمم.

ثم تأتي اليوتوبيا utopie⁴، وترمز إلى البلد الطيب⁵. تتناول فكرة التعايش بين البشر في وحدة إنسانية متجانسة. وهي رؤية مثالية تتوق إلى محو الفوارق الاجتماعية التي تكرسها الإيديولوجيا بالمفهوم السلبي. ربط الفيلسوف الماركسي مانهايم عام 1929 بين الإيديولوجيا

¹ Pageaux, La littérature générale et comparée, op.cit. p.71.

² Daniel. Henri Pageaux, Un aspect des relations culturelles entre la France et la péninsule ibérique: L' exotisme, op.cit. p.460.

³ Pageaux, La littérature générale et comparée, op.cit. p.72.

⁴ وهو مصطلح يوناني الأصل مركب من لفظين، ومعناه "لا مكان" ويدل على المدينة الفاضلة. صاغه أول مرة المفكر الإنجليزي توماس مور Moore Thomas في كتابه "يوتوبيا" عام 1516.

⁵ -لايمان تاورسارجننت، اليوتوبية، مقدمة قصيرة جداً، تر: ضياء ورّاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، 2016، ص10.

والبيوتوبيا بوصفها علاقة جدلية بين السلطة والشعب. فقد أُطلقَ الإيديولوجيا على معتقدات السلطة الحاكمة، وأطلق البيوتوبيا على من أملوا بالإطاحة بالنظام من المقهورين، وكشف عن مدى ارتباطهما بالفعل الاجتماعي، وتناقضاتهما في التعامل مع الآخر¹. اقتبسهما عنه الفيلسوف الفرنسي بول ريكور عام 1975 فعدهما قطبي المتخيل الجمعي في تكوين صورة الآخر، وسمى العلاقة بينهما "المتخيل المضاعف"². ويرى أنهما يحملان جانبين، فالجانب السلبي في الإيديولوجيا يتمثل في تشويه الواقع (الديستوبيا) Dystopie³، والجانب الإيجابي في الإيديولوجيا تبرير الأوضاع ومحاولة إدماج الأفراد في هوية الجماعة.

واشتغل عليهما جان مارك مورا من بعد في دراسات الاستعمار وما بعد الاستعمار، معالجا مسألة العلاقة بين المتخيل الجمعي والعمل الأدبي من هاتين الزاويتين المتعارضتين (الإيديولوجيا والبيوتوبيا)، اللتين يميزهما وجود «توتر اجتماعي حاد بينهما»⁴، ولدى ريكور «هو توتر بين ادعاء الشرعية الذي تتقدم به السلطة والاعتقاد بالشرعية الذي يتقدم به المواطنون»⁵. ذلك أن وظيفة الأولى (الإيديولوجيا) في المجتمع إدماجية تثبتيّة للنظام الاجتماعي السائد، أما الثانية (البيوتوبيا) فوظيفتها تقويضية تشويشية لهذا النظام، غايتها تعديل الصورة النمطية المهيمنة، وإعادة بناء صورة جديدة للآخر الأجنبي بما يحفظ له غيريته⁶ وتميزه. إنها علاقة

¹ - لايمان تاورسارجنت، البيوتوبية، م س، ص 118، 119.

² - Voir: Paul Ricoeur, L'idéologie et l'utopie: deux expressions de l'imaginaire social [article], num_2_1, 1984. https://www.persee.fr/doc/chris_0753-277.

³ *ديستوبيا: عكس البيوتوبيا، وتعني المكان السيء، أو المدينة الفاسدة. أول من صاغه هو الفيلسوف الإنجليزي جون ستيوارت ميل عام 1868، استثمر هذا المصطلح في الأدب والسينما للتعبير عن فساد النظام الاجتماعي. مثال على ذلك رواية جورج أورويل "1984".

⁴ - عبد القادر بوزيدة، صورة الآخر ودلالاتها في الدراسات المقارنة L'imagologie، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر 2/أبو القاسم سعد الله، كلية الآداب واللغات، العدد 26، ديسمبر 2015، ص 26.

⁵ - بول ريكور، محاضرات في الإيديولوجيا والبيوتوبيا، تر: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، لبنان، 2012، ص 61، 62.

⁶ - عبد القادر بوزيدة، صورة الآخر ودلالاتها في الدراسات المقارنة، م س، ص 27.

صراع بين ما هو كائن في الواقع وما سيكون في العالم المتخيل. وهكذا يلاحظ وجود تعالقٍ وثيقٍ بين هذه المفاهيم الثلاثة، الإيديولوجيا واليوتوبيا والديستوبيا في العمل الأدبي.

4.1-العناصر المكونة لصورة الآخر

تتكون صورة الآخر، وفق نموذج التركيب المتصاعد، طبقاً لدرجة التعميم والتدرج، كما حدده باجو، من الكلمة، والعلاقة التراتبية، والسيناريو.

إن الصورة-الكلمة هي العنصر الأساس ضمن معجم يحتوي على «مخزون من الصور الأولية» [...] مخزون محدود ومتباين، في الغالب، من الكلمات»¹ تكون صورة الأجنبي المختزلة من لغة الآخر استخدمتها الذات الناظرة في فترة زمنية معينة. ويمكن «أن نميز بين كلمات أساسية وكلمات مبتكرة، بين منظومتين معجميتين» [...] فكلمات البلد المنظور غير المترجمة تنقل واقعا أجنبيا» [...] وهذا العنصر غيري لا يتبدل»². ويتوسل النص الصوري في وصف الآخر (الآخر المتخيل) بلغة رمزية تمثيلية «لما هو موجود أو تقديم ما يمثله»³. بعض هذه الكلمات تجمع بين النمطية والأسطورة، انبثقت من معجم ذي بعد ثقافي واجتماعي متخيل. لذا يرى باجو أن «الصورة لغة ثانية، إلى حدود معينة، وهي لغة ثانية موازية للغة التي يتكلم بها (الأنبا)، تتعايش معها، وتطابقها بصورة من الصور، لتعبر عن الآخر، وتقول شيئاً آخر»⁴. يتشكل الواقع بكل أبعاده منسوجاً بخيوط الوهم والتخيل.

¹ Pageaux, Recherches sur l'imagologie, op.cit. p.136.

² Pageaux, La littérature générale et comparée, op.cit. p.64.

³ إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، من تصدير، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2006،

ص 71.

⁴ Pageaux, La littérature générale et comparée, op.cit. p.61.

وفي العلاقة التراتبية تتحدد «المعارضات الكبرى التي يتشكل منها النص الصوري النمطي»¹؛ فتتبين العلاقة الهرمية بين الثنائيات الضدية، يتمظهر فيها الآخر بشكل لاتناظري *asymétrique*، في الإطار المسمى عند باختين *chronotope*²*. يتقابل الأنا والآخر، في فضاء «يكتب عنه وفق سياق من الأسطورة»³، وفي زمن أسطوري هو زمن الآخر (خارج الزمان). فتبدو الثقافة الناظرة المتفوقة مقابلة للثقافة المنظورة المتدنية. و«قد ينظر إلى وصف جماعة ما بأنها إثنية باعتباره شكلا مستنزفا ومهينا من أشكال التمييط الثابت التي تتطوي على النعرة العنصرية»⁴.

وتعني كلمة سيناريو⁵*، توظيف معجم متخيل، ذي مرجعية ثقافية، يجمع بين النمط والأسطورة، في صياغة صورة الآخر، وليس مجرد سرد للتاريخ، أو نقل حوادثه الحقيقية، فبين النمط والأسطورة علاقة وثيقة جدا إلى درجة التداخل الذي يجعل الفرق بينهما يكاد يكون معدوما.

2- علم الصورة والسرد: سردية الآخر كإيديولوجيا

يضطلع السرد عبر آلياته الجمالية كالمونولوجيا والديالوجيا (الحوارية) بتجسيد مختلف الإيديولوجيات المتعارضة، «فالإيديولوجيات تقتحم النص باعتبارها مكوناته الأولية، لأنه لا يمكن بناء نص روائي إلا من خلال هذه المادة الأولية، كما أنها حين تدخل النص لا تتمتع بالقوة نفسها التي لها في الواقع، فهي محاصرة بوجود

¹ Pageaux, Recherches sur l'imagologie : de l'histoire culturelle à la Poétique, op.cit. p.143.

² * كرونوتوب: مصطلح رياضي باختيني، معناه ترابط الزمان والمكان في السرد الروائي (الزمان)، وهو البعد الرابع للمكان.

³ Pageaux, La littérature générale et comparée, op.cit. p.67.

⁴ - سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، م س، ص 21.

⁵ * السيناريو: كلمة إيطالية مأخوذة من "scéna" معناها المنظر، ومنها اشتقت كلمة سينما.

بعضها إلى جانب بعض»¹. فالنظرة الإيديولوجية يبطنها النص وتغلّفها الحلة الجمالية (الحيلة الثقافية)²*. وبين الحوادث المروية والحيل الجمالية، تقبع سردية الآخر في نصوص الأنا السارد المفتون بذاته (بول ريكور)؛ ويتعمد إقصاء الغير وقتله خطابيا ورمزيا (قتل الآخر altrucide) بمفهوم ج. دولوز. ويظهر الآخر، بشكل استبعاديّ واستعلائي، في النصوص التي تعتمد على ضمير المتكلم "أنا"؛ «فمن طريق توضع [موضعة] objectivation كلام الآخرين (إيديولوجياتهم)، يمكن للكاتب طرح الأسئلة على الآخر ويظهر ضعفه ويكشف عن حدود تصوراته»³ النمطية والقبلية.

ويحفل علم الصورة بدراسة نماذج بشرية مختلفة، ذات رمزية ثقافية وتاريخية، نقلت من صميم المجتمع مثل، المرأة البغي والبخيل، أو انتقلت من أدب إلى آخر عن طريق التأثير والتأثر. بعضها واقعي له وجود فعلي، وبعضها الآخر متخيل، نمط الآخر، وحبسه في قبو التحنيط وعلب التجميد (الصور الجامدة)، في فترة معينة تأثرت بمجريات الحوادث التاريخية.

1.2-دراسة الآخر بين الصورة الأدبية والصورة الثقافية: النص كوثيقة أنتروبولوجية

طرح المفكرون الغربيون (الأمريكيون) في النصف الثاني من القرن العشرين مفهوما جديدا، منذ أن بدأوا الاشتغال، تحت مظلة العولمة، في مراكز الدراسات الثقافية، ألا وهو مصطلح "النقد الثقافي"⁴* * المنتمي إلى حقل الاستشراق-وفق إ. سعيد- ليكون بديلا للأدب المقارن في

¹-حميد لحداني، النقد الروائي والإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1990، ص26.

²*الحيل الثقافية: مصطلح يستخدم في النقد الثقافي. يراجع (دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي) لسمير الخليل، ص160.

³-حميد لحداني، النقد الروائي والإيديولوجيا، م س، ص36.

⁴**النقد الثقافي: ظهر هذا المصطلح على يد الأمريكي "فنست ليتش" V.B. Leitch، في مواجهة المنهج الشكلاني البنوي دراسة النص خارج الأدب، وربطه بالمحيط الثقافي الذي أنتجه.

صيغته التاريخية (دراسة التأثيرات)، بحجة عدم دقة هذا المصطلح الشائع الذي كان محل نقد (أزمة الأدب المقارن لريني ويليك)، أو امتدادا له لتوسيع نطاقه ليشمل كل المجالات الثقافية الإنسانية كما رأى "هنري ريماك". فمنهم من فضل تبني المصطلح الجديد، لقدرته على استيعاب جميع أنواع الخطاب الثقافي؛ وهذا ما يرفضه أنصار الأدب المقارن، باعتباره ظهر في فرنسا استجابة لنسق ثقافي (الاتجاه التاريخي)¹، المتمثل في نمو الوعي القومي، وتمجيد الثقافة الأوروبية على حساب الثقافات الأخرى. وظهر في روسيا استجابة لسلطة الوعي الاجتماعي (الاتجاه الماركسي)²، وفي أمريكا نتيجة لسلطة الوعي الإنساني³، حيث تلتقي الثقافات المهيمنة بالثقافات غير المهيمنة، أما في ألمانيا فقد كان نتيجة سلطة الوعي الفردي (الاتجاه الرومانسي)⁴. فكل اتجاه من اتجاهات الأدب المقارن، انطلق أصلا من خلفية ثقافية أولا، يحكمها المكان الذي نشأت فيه. وكان هذا الاختلاف أو هذا التنوع في الحقيقة، من دواعي التفكير في تبني مصطلح النقد الثقافي، ليتلاءم مع المتغيرات التي شهدتها الساحة العالمية.

إن النص، في منظور النقد الثقافي وعاء يحمل منظومة ثقافية. لذا نجد «نقاد الثقافة يطبقون المفاهيم والنظريات على الفنون الراقية والثقافة الشعبية⁵*»⁶؛ ويوسعون الاشتغال ليشمل كلا من الأدب الرفيع والفنون الأخرى الشفاهية كالأساطير، والوسائط الاتصالية

¹-حيدر محمود غيلان، الأدب المقارن ودور الأنساق الثقافية في تطور مفاهيمه واتجاهاته، مجلة دراسات يمنية، العدد 80، دت، ص 83.

²-حيدر محمود غيلان، الأدب المقارن ودور الأنساق الثقافية في تطور مفاهيمه واتجاهاته، م ن، ص 90.

³- م ن، ص 96.

⁴- م ن، ص 180.

⁵*مثل التراث الشعبي من الحكايات والأمثال والأغاز والأحاجي.. وغيرها من عناصر الثقافة الشفاهية الميدان المفضل للأنثروبولوجيا، واشتغلت عليه المدرسة البنوية فيما بعد.

⁶-أرثر أيزابجر، النقد الثقافي: تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، 2002، ص 30.

كعروض التلفزيون والسينما والزي والطبخ... الخ¹. وقد شكل علم الصورة، ميدانا خصبا لرصد البنى الثقافية للمجتمعات، وتفكيك الخطاب الرمزي من خلال الصور الاستعارية الذهنية.

كما أن الصورة الثقافية l'image culturelle تستعين في دراسة الآخر أيضا بالعلوم الإنسانية الأخرى مثل، علم النفس والتحليل النفسي وعلم الاجتماع والسيما، إذ يقرأ النص كوثيقة إنسانية (أنثروبولوجية)²، لتفكيك منظومة القيم الثقافية المضمرة في الخطاب (النص الثقافي) داخل اللغة الواحدة والثقافة نفسها، ورصد مظاهر الاختلاف بدل مظاهر الائتلاف (المقارنة الخلفية)³ في سياق أنطولوجيا التعدد والاختلاف بين لغتين وثقافتين مختلفتين. والغاية من ذلك «دراسة ظواهر التعدد الثقافي، والتبادلات الثقافية، والتداخلات الثقافية، وعلاقة النصوص الأدبية بأنساقها الثقافية المرجعية»⁴. وتسعى الصورة الثقافية، في حقل النقد الثقافي، على ضوء النظرية النسوية والتفكيكية وتحليل الخطاب...، إلى تعرية الخطاب الشمولي، ونقد الخطاب الإمبريالي وتقويض مرجعيته، عن طريق الانفتاح على الآخر وقبول التعدد، والوعي بالثقافات الأخرى، دون إلغاء الخصوصية الذي تنادي به العولمة.

والحصيلة، إن مفهوم الصورة متعدد المعاني caractère polysémique، ومفهوم ديناميكي متجدد، يواكب سيرورة التحولات المعرفية التي تشهدها المجتمعات الإنسانية باستمرار. وعلم الصورة ميدان يهتم في الأدب المقارن بدراسة مظهرات الآخر "المنظور" في خطاب الأنا "الناظر"، ويرصد علاقة تشكيل الغير بالوعي التاريخي، وتفكيك خطابها الثقافي (الإيديولوجي). ومن أمثلة ذلك دراسة صورة الشرق في المتخيل الغربي، وبيان كيفية تجلي الشرق العربي والإسلامي في وعي الغرب، وهذا موضوع المبحث الثاني.

¹-سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، م س، ص 133.

²-Pageaux, La littérature générale et comparée, op.cit. p.68.

³-سعيد أراق بن محمد، الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014، ص 72.

⁴-سعيد أراق بن محمد، م ن، ص 75.

توطئة

يعود تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب إلى الحروب الصليبية التي دامت قرونا عددا. حروب طويلة دارت بين حضارتين متعارضتين خلفت خسائر جسيمة. وبين الهزيمة والنصر، كانت الكفة تميل أحيانا إلى الصلح إلى غاية إجلاء الصليبيين من الشرق. ولكن على المستوى النفسي، تركت هذه الصدمات جروحا عميقة في المعسكرين، لم يطو آثارها النسيان. فبقيت الأحقاد دفينية، والضغائن ساكنة في الوجدان إلى الآن. أما على الصعيد الثقافي فقد تبلورت كل هذه الهواجس في الكتابات الغزيرة التي خطتها أيادي المؤلفين، حفظوا فيها مخزونا من التاريخ المشترك، وصفحات من السجال والجدال. وأما على الصعيد الحضاري فقد انقلبت الموازين، ليتبادل الشرق الإسلامي والغرب المسيحي الأدوار وفقا لسنن الارتقاء والانحدار في سلم حياة الأمم والحضارات.

1- الشرق والغرب: تأسيس لمفهوم الآخر من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة

في خضم تلك الصراعات الضارية، بأبعادها المتشابكة الدينية والسياسية والاقتصادية التي تأجج أوارها بين مختلف الطوائف والطبقات في سبيل التاج؛ كان الشرق ملتقى الحضارات المتباينة، وفضاء تمازج الأجناس وتواشج الأعراق. مر على ربح تاريخه ألوان مختلفة من الثقافات والشخصيات؛ فأفاد الأوروبيون من الحضارة العربية الإسلامية، وتبدى أثر هذا الاحتكاك الحضاري في كتبهم وخطاباتهم المليئة بالعناصر المتخيلة عن الشرق، وظهر كيف كانت الأسطورة تتعايش والحقيقة التاريخية في تلك الحقبة من التاريخ الثقافي الأوروبي¹ وفي سعيهم الحثيث للتعرف على الإسلام والمسلمين عن كثب. «وقد ظهر الطراز الأولي من الدراسات الإسلامية الكلاسيكية كخطاب غربي حول الإسلام بدءا من القرون الوسطى. حتى

¹ -ريتشارد سودرن، صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، تر: رضوان السيد، دار المدار الإسلامي، ط2، لبنان، 2006، ص97.

إن «التخصص» في الإسلام أو «الإسلاميات» أصبح جزءا عضويا من العلم ومن الإيديولوجيا وثقافة المجتمع الأوروبي»¹. فكانت تلك الدراسات بداية أولى للملاحم الاستشراقية.

تجسدت هذه العلاقات المتضادة في خطب رجال الكنيسة الصليبية والأشعار والملاحم دفاعا عن المسيحية، كالأناشيد التي صورت همجية الشرق الوثني، منها «أنشودة أنطاكية» للكاتبين Richard le Pèlerin et Graindor de Douai، و«أنشودة رولان» التي تناولت الصراع الديني بين المسلمين (الكافرين) والمسيحيين (المؤمنين). وكان «معظم هذه الأناشيد الصليبية تقدم صورة وهمية عن المسلمين "Sarrasins"²؛ فقد وُصفوا بأنهم وثنيون، وكفرة أجلاف بلا إيمان ولا قانون أو جناء»³. وقصص مستوحاة من الحروب الصليبية مثل، «غزو بيت المقدس» للكاتبين المذكورين سابقا، وغزو القسطنطينية للكاتب Guillaume de Tyr. منذ هذه اللحظة تأسس مفهوم الآخر المختلف في الوعي الغربي الذي كرسه الفكر الصليبي، فصنع للشرق صورة نمطية مبنية على الخيال والأسطورة و«الكوميديا الإلهية» لدانتي أليغييري Dante خير مثال. «ففي العصر الوسيط تحديدا، أي في زمن المبادلات الثقافية الأكثر فعالية، تشكلت في الوعي المسيحي (الشعوري واللاشعوري) القوالب النمطية الذهنية عن الإسلام»⁴، حفزها سوء استقبال الكنيسة للآخر المسلم، ومن مظاهر ذلك قيامها بترجمة سيئة للقرآن، مشروع تحمس له بطرس المجل الذي أشرف على أول ترجمة للقرآن إلى اللاتينية.

في مجال كتابة الآخر (العرب والمسلمين)، صنعت تلك الصراعات كتابا غربيين مارسوا الدعاية السياسية والدينية للمشروع الصليبي، و«لقيت جميع الأعمال التي أعطت صورة قاتمة

¹ - أليسكي جورافسكي، الإسلام والمسيحية، تر: خلف محمد الجراد، عالم المعرفة، 1996، ص 37.

² * سارازين: تعني عبيد سارة، نسبة إلى سارة زوجة النبي إبراهيم. ويقصد بها العرب، وهم نسل إسماعيل ولد هاجر أمة سارة.

³ - Valerio Vittorini, L' image du monde arabe dans la littérature française et italienne du XIXe siècle: analogies, différences, possibles influences, Thèse de doctorat de IIIe cycle en co-tutelle internationale Littérature comparée, Université Nice Sophia Antipolis, 2015. p.41.

⁴ - أليسكي جورافسكي، م س، ص 58.

عن المحمدين استقبالا جيدا»¹ في أوروبا كلها. في طليعتهم مؤرخو الأحداث ورحالون قاموا برحلات للسياحة أو الحج وأسرى مسيحيون أوروبيون، كتبوا سيرهم الذاتية وسجلوا معاناتهم في أعمالهم. فأقدم رواية إنجليزية تتعلق بالأسر في العالم الإسلامي كانت بين سنتي 1577 - 1579، وهي رواية شعرية للكاتب "George" Gascoigne، عنوانها "A Device of a Mask for the Right Honorable Viscount Mountacute"، وأول رواية فرنسية تعود للأسير هنري دي ليسدام "Henri du Lisdam" سنة 1608 بعنوان: "L'Esclavage du brave Chevalier François de Vintemille"²، أما الثقافة الإيطالية فقد نظم Ludovico Ariosto قصة شعرية مستلهمة من أنشودة رولان الفرنسية في 1532 سماها "رولان الغاضب Roland Furieux"، تناول فيها تنافس رجلين أحدهما أوروبي والآخر مسلم على فتاة أوروبية جميلة، أشار فيها إلى التعايش بين القطبين المتعارضين للإسلام والمسيحية³، وملحمة "القدس المحررة" للكاتب تاسو في 1580، تحدثت عن الحملة الصليبية الأولى، و"رحلة إلى القدس" للكاتب أولجياتو عام 1647⁴.

ومهما يكن من أمر، فقد صوروا كلهم اللقاء التاريخي والديني المتصادم بين الشرق والغرب في هذه الحقبة الحرجة، ووصفوا المجتمع الشرقي ثقافيا وجغرافيا وتاريخيا، وتناولوا حياة أهله ومعتقداتهم، في صور مركبة اختلطت فيها الحقيقة بالافتراء، فتباينت مواقفهم بين الإعجاب بالثقافة الشرقية واحتقار الإسلام والمسلمين. «وبشكل عام، فإن صورة الإسلام المتكونة آنذاك، وهي مزيج متناقض لمعارف موضوعية مع تشويهات خطيرة، ضمت في الوقت ذاته تصورات في منتهى الخيالية (الفانتازيا) والتوهم، حيث هيمنت بشكل ثابت راسخ لمدة تاريخية طويلة على

¹ Valerio Vittorini, op.cit. p.69.

² بلقاسم قرياش، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671- 1830)، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف أ: بوغفالة ودان، جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، السنة الجامعية، 2015 - 2016، ص113.

³ Valerio Vittorini, op.cit. p.54.

⁴ Henri Ternaux-Compans Bibliothèque asiatique et africaine: ou, Catalogue des ouvrages relatifs à l'Asie et à l'Afrique, Arthus Bertrand Librairie, Paris, 1841, p.185.

عقل الإنسان الأوروبي ومنطقه ومداركه تجاه الإسلام وحضارته»¹. ازداد الاهتمام بالشرق في الوعي الديني والفلسفي الأوروبي، منذ تأسيس كرسي للدراسات الإسلامية بصدور قرار مجمع فيينا في 1312، من خلال الانكباب على دراسة الثقافة الشرقية، ثم دراسة العلاقات بين الشرق والغرب، وترجمة الكتب بشكل انتقائي ومشوّه²؛ فكان الشرق ميدانا خصبا للدراسات في كل الحقول المعرفية، قصد فهم واستلهاهم آليات القوة ومبادئ التفوق التي وصل إليها الشرقيون. وتعود أول ترجمة لاتينية لقصة "حي بن يقظان" لابن طفيل من قبل بيكوديو ميراندولا إلى تلك الفترة.

وتجلى الصراع الميداني في عرض البحر المتوسط بين القوتين العظميين العثمانية والإسبانية في الأدب، وأضحى الموضوع المفضل لدى الأدباء الأوروبيين، ولا سيما الإسبان والفرنسيين، ووجدت مخيلتهم الخلاقة مجالا للتنفيس عن انزعاجهم من تضيق العثمانيين الخناق عليهم، فاندفعت أقلامهم ترسم صورة بغیضة عن الأتراك المسلمين.

في عصر الكلاسيكية الذهبية «وصل النشر بين 1560 و1700 إلى ما لا يقل عن ثلاثين رواية عن "الشرقيين" وخمس عشرة تمثيلية بين تراجيديا أو تراجيكوميديا، تضاف إلى قصص الرحلات التي تضاعفت في 1660»³، دار معظمها حول فترة ازدهار الإمبراطورية العثمانية turcophilie، وأخبار ما جاورها من المسلمين كالفرس والعرب، تناول رسم شخصيات نافذة، سلاطين وأمراء ووزراء وقادة عسكريين، واهتم قسم منها بتصوير حياة الحريم ونمط عيشهن في السرايا في قالب أسطوري نمطي turcomanie. في التراجيديا على سبيل المثال، ظهرت مسرحيات فرنسية كلاسيكية تهتم بتيمات شرقية إسلامية، وتتناول ظاهرة الاستبداد الشرقي، مستلهمة أحداثها السياسية من التاريخ العثماني في عهد سليمان القانوني الذي انفتح

¹ - أليسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية، م س، ص 59.

² - أليسي جورافسكي، م ن، ص ن.

³ Valerio Vittorini, L' image du monde arabe dans la littérature française et italienne..., op.cit. p.70.

على الغرب، استهدفت أفراد الحاشية والعائلة المالكة. كتب Mairet "سليمان أو مصرع مصطفى" 1630. وكتب راسين عن مقتل بايزيد في باجزات "Bajazet" 1672. وركزت حول دور "خرم" زوجة السلطان سليمان في هذا الصراع المتأجج من خلال تمثيلية السلطانة "La Soltane" عام 1561 للكاتب G. Bounin. وفي التراجيكوميديا مثلا كتبت الأنسة دو سكوديري Georges de Scudéry عن إبراهيم باشا " Ibrahim ou l'illustre Bassa " 1641-1644. أما بيير كورناي Corneille فقد استوحى مسرحية "Le Cid"¹ السيد 1637 من ثقافة إسبانيا الأندلسية، تدور أحداثها في إشبيلية، وتشير إلى الحروب التي خاضها الإسبان المسيحيون مع الموريسكيين. وقد استمر مسار الكتابة الغربية على هذا النحو من الهوس المرضي في تمثيل الشرق إلى عصر الأنوار الاستشراقي، الذي بشر بطلوع فجر الاستعمار الحديث.

2.1- الاستشراق: الوجه الآخر للاستعمار

بعد ما حقق الغرب تقدمه الفكري والعلمي واستتم قوته، عاوده الشوق إلى الشرق المفقود بشيء من الحنين؛ حيث «إن سكان أوروبا المعاصرة ورثوا عن أسلافهم من القرون الوسطى مجموعة عريضة وراسخة من الأفكار حول الإسلام، التي كانت تتغير تدريجيا مظاهرها الخارجية فقط، تبعا لتغير الظروف في أوروبا ذاتها، وتبعا لطبيعة علاقاتها ومواقفها المستجدة نسبيا مع البلدان الإسلامية وثقافتها الحديثة»². أنشأوا مؤسسات علمية سياسية، تختص بدراسة أحوال الشرق، فتكالبت الأمم المتعاضمة ضده تخطط للانقضاض عليه، عرفت بالدراسات الاستشراقية أو الاستشراق.

عكف المستشرقون الغربيون على النباش في تراث العرب والمسلمين وتعلم لغتهم مستعينين بالعلوم الإنسانية الحديثة مثل الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا، فاخترعوا شرقا جديدا، حسب إدوارد

¹ Le Cid كلمة عربية تعني السيد، وقد احتفظت بأصلها العربي في اللغة الإسبانية.

² -أليسكي جورافسكي، الإسلام والمسيحية، م س، ص 59.

سعيد، مستمدا من سرود ألف ليلة وليلة، بعد ترجمتها إلى الفرنسية. صار الشرق نصا أسطوريا في القرن الثامن عشر، ولعبة أعيد تركيب قطع غيارها وفق أوهام الغرب، لإخضاع الشرق للصورة الجديدة المختلقة.

يرى المفكر الفرنسي "مارسيل بوزار" أن كثيرا من المستشرقين¹* درسوا الإسلام ليحاربوه، وقدموا صورة عامة وغير دقيقة عن ثقافة الشرق. يقول في كتابه "الإسلام اليوم": «إن الاستشراق كان في الأصل أحد الفروع العلمية المرتبطة بالعلوم الاستعمارية في فرنسا وفي بريطانيا العظمى وفي البلاد الواطئة، فقد كان المطلوب إجمالا فهم العقلية فهما جيدا لتسهيل الإدارة للشعوب الإسلامية»². فالاستشراق، إذن، امتداد للحرب الصليبية، وسليل الحركة الاستعمارية التي شنّها الغرب على الشرق في بداية العصور الوسطى، وسعى لاستكمال رسالته عن طريق الغزو الثقافي بتميط صورته. وهذا التصور النمطي المشوه عن الإسلام، لم يتشكل بسبب ضعف معرفة الأوروبيين بهذا الدين وحسب.

2-العلاقات الجزائرية الغربية: الجزائر في الوعي الغربي قبل الاحتلال الفرنسي

1.2-صورة الجزائر في المتخيل السردي الأوروبي والأمريكي

لفتت الجزائر أنظار الغربيين إبان الحروب الصليبية وعانت سواحلها من التحرشات العسكرية، وانشغلوا بغزوها بعد إجلاء العرب المسلمين من الأندلس نهائيا. تمخض عن هذه الأحداث التي استهدفت العرب والمسلمين توجه أدبي جديد في إسبانيا سمي (أدب حب العرب المورو، أو أدب الإعجاب بالمورو)³***littérature maurophile*. اهتم هذا الأدب بتصوير

¹*الاستشراق ليس كله شر على الشرق، بل كان لبعض المستشرقين الفضل في إحياء التراث العربي الإسلامي، ودراسته دراسة علمية موضوعية.

²-ينظر: علي بن براهيم النملة، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1993، ص16.

³**ظهر أدب حب المورو في النصف الثاني من القرن السادس عشر على يد الكاتب مونتيمايور في رواية "ديانا"، كما تجلّى في القصائد الغنائية الجديدة والمسرحيات. ينظر كتاب: مرآة الشرق، آن دوبرا وإيميلي بيشرو، ترجمة محمد عبد الفتاح السباعي.

مسلمي الأندلس، خاصة بعد حروب الاسترداد تصويرا عدائيا. تمثله رواية "ابن سراج والجميلة جارييف" لمونتيمايور سنة 1562، و"حروب غرناطة الأهلية" لبيريز دو هيتا 1595، وأعمال أخرى شعرية ومسرحية تظهر العربي المسلم عدوا محاربا، مثل مسرحية "الأمير الماثبر" لبييرو كالديرون¹. تعرض الكتابُ الإسبان في أعمال كثيرة إلى العلاقات الثنائية بين العرب المسلمين والإسبان المسيحيين، وتحدثوا عن الجزائر موطن أجداد بعض الموريسكيين الذين استوطنوا الأندلس بعد الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية.

ظهر وصف الجزائر بجلاء في كتب الرحالين هايدو Diego de Haëdo (طبوغرافيا الجزائر وتاريخها العام 1608) ودييغو دي ستادو (تاريخ الجزائر تحت السيطرة التركية 1612)، ومالمور Marmol (وصف إفريقيا 1667) وفانتير دي بارادي (ملاحظات عن الجزائر 1789)². ومن الآباء البيض التثليثيين³* الإسباني فرانشيسكو خمينيز الذي زار الجزائر ووهران التي كانت تحت الحكم الإسباني في عهد الباي مصطفى بوشلاغم وتولى عملية افتداء الأسرى الإسبان، وقدم عملا قيما عن رحلته في خمسة مجلدات⁴، فغدا مصدرا لغيره من الرحالين المهتمين بتسجيل تاريخ الجزائر وطبيعتها. تجلت صورة مدينة الجزائر في بعض القصص والروايات، أبرزها رواية "دون كيشوت" للكاتب الإسباني ميغيل دو سرفانتيس Cervantès عن العرب والمسلمين 1615. ففي قصتي "الحياة في الجزائر" و"معتقات الجزائر"، يصف الموريسكيين بأبشع الأوصاف، ويرسم بعض ملامح المجتمع الجزائري في العهد العثماني، منتقدا رموز ثقافته وتقاليده. وفي قصة "الأسير Cautivo"، يقدم تجربته في الأسر بالجزائر بين عامي 1575-1580.

¹- ينظر كتاب: آن دوبرا وإميلي بيشرو، تر: محمد عبد الفتاح السباعي، مرآة الشرق، دار الصفاة للنشر والتوزيع والدراسات، يناير 2015، دون رقم الصفحة. موقع كتب غوغل.

²-احميده لعميرواي، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا)، شركة دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2003، ص 12-14.

³*الآباء التثليثيون: مذهب ديني مسيحي، يتخذ من التثليث عقيدة.

⁴-احميده لعميرواي، م ن، ص 11.

ارتبطت صورة الجزائر في المتخيل الغربي بالعلاقات الاقتصادية الواسعة، والزيارات الرسمية المتبادلة بين الجزائر والدول الأوروبية في عصر النهضة من جهة. وبأعمال القرصنة في عهد رياس البحر، وعمليات افتداء الأسرى المسيحيين الأوروبيين من قبل رجال الكنيسة، والحملات التي كانت تشنها الدول الأوروبية من حين إلى آخر. وقد تجلّى هذا الوضع المتوتر بوضوح، رغم الاستقرار النسبي، في الكتابات التي ألفها الغربيون، لاسيما الفرنسيين. جاؤوا إلى الجزائر سفراء وقناصل لتمثيل بلدانهم، أو رحالين وأدباء وعلماء باحثين، وحتى مبشرين مسيحيين وجواسيس من قبل ملوكهم، أو الذين وقعوا أسرى في الحروب التي دارت بين الجزائريين وإحدى الدول الأوروبية المعادية أو الغازية، كل أولئك كانوا شهود عيان على مجريات الأحداث، نقلوها حسب منظوراتهم، وخلفياتهم الدينية والسياسية والثقافية.

ظهر على هامش الصراع البحري في البحر المتوسط، أعمال غريبة كثيرة تروي تعرض السفن الأوروبية للقرصنة، واختطاف قراصنة جزائريين بحارة ومسافرين مسيحيين. شكلت هذه القصص مصدرا أساسيا يكشف تطور العلاقات بين الطرفين، وعدت وسيلة لمعرفة تمثلات الجزائر في المتخيل السردى الغربى آنذاك.

كانت بريطانيا، المنافس المباشر لفرنسا، حريصة على إقامة علاقات ودية مع الجزائر، تحكمها اتفاقيات الصداقة ومعاهدات السلام. ولكن سفنها كانت تتعرض للقرصنة ويحتجز طاقمها في سجون الأسرى. روى وليام ديفيس W.Davies، الطبيب الحلاق، الذي كان قد اختطف من سفينة بريطانية في سنة 1597، عن المكان الذي أسر فيه، ووصف موقع مدينة الجزائر، والتحصينات المحكمة التي تحميها ضد الغزاة¹. ونشرت ماريا مارتين سنة 1808 قصة أسرها بمدينة تنس، حيث مكثت أها خمس سنوات، وتطرقت إلى وصف حياة الأسرى والسكان

¹ -وليم سينسر، الجزائر في عهد "رياس البحر"، تع: عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006، ص51.

الأصليين¹. كما نجد وصف الجزائر في مصادر إنجليزية² مثل، "L'Egypte, la Barbarie et la Libye du Beled el djerid" عام 1670 للأسكتلندي جون أوجليبي John Ogilby. وقد ألف الرحالة الإنجليزي الدكتور توماس شاو T. Shaw الذي كان كاهنا بالوكالة في الجزائر، أثناء رحلته إلى الشرق بين سنتي 1720 و1732، في وصف الجزائر في كتابه "جولات في إيالات متعددة من بلاد البربر والشرق"، قدم أوصافا دقيقة وتفاصيل عن بلاد البربر، عن ريفها ومنتجاتها وآدابها العربية، وقليلًا من المعلومات عن الحياة السياسية والإدارية³. وأعمال أخرى نكرها كتاب "الجزائر في كتابات الإنجليز" لأبي القاسم سعد الله.

وسار الألمان على خطى جيرانهم الأوروبيين، فسعوا إلى الاستفادة من مؤلفات غيرهم عن شعوب شمال إفريقيا بترجمتها، ونقلوا ما سمعوا من مواطنيهم الذين زاروا المنطقة، وأضافوا أعمالا أخرى في وصف الجزائر قبل الاحتلال منهم سيمون بفايفر الذي أسر عام 1825 في كتاب "رحلات وسنوات أسري الخمس في الجزائر"، وأثناء الاحتلال. جمعها أبو العيد دودو في كتابه "الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855"⁴. أما دول شمال أوروبا فأكثر الكتب عن الجزائر والأسرى المسيحيين كانت مترجمة⁵.*

كتب جيمس ويلسن ستيفنس عن الأسرى الأمريكيين (1785-1797)، تضمن تاريخ الجزائر ووصف أرضها وسكانها، وسرد قصص أمريكيين وقعوا أسرى لدى

¹-بلقاسم قرياش، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830)، م س، ص 118.

²-صالح بن قربة وآخران، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 109-111.

³-احميدة لعميراوي، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني، م س، ص 10.

⁴-يراجع: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.

⁵*نشر في هولندا رواية لفتاة أسيرة مجهولة الاسم بعنوان "تهب أمستردام" سنة 1693، وقصة "اليهودي الحقيير" لأسير مجهول. ينظر: بلقاسم قرياش، م س، ص 124.

قراصنة جزائريين¹، ومذكرات القنصل الأمريكي وليام شالر 1816-1824م². قدم شالر تحليلاً علمياً لوضعية الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي، ووصف جغرافيا الجزائر وتاريخها، وهاجم سياسة الحكام الأتراك ضد الأهالي. كما أشار إلى العلاقات الثنائية بين الدولتين منها الحرب البحرية التي انتهت لصالح أمريكا 1815.

2.2- الجزائر في المتخيل السردى الفرنسي

في سياق العلاقات الثنائية بين الجزائر العثمانية وفرنسا، تناول بعض الكتاب المؤرخين والعاملين في السلك الدبلوماسي الظروف السياسية في الجزائر أثناء الحكم العثماني. دخلت هذه العلاقات السياسية التاريخية، والصلات الثقافية بين الطرفين دنيا الفكر والعلم، فظهر عدد لا بأس به من مذكرات الرحلات الاستكشافية لعلماء طبيعة فرنسيين زاروا شمال إفريقيا "بلاد البربر" Barbarie، قاموا بعملية مسح جغرافي للمنطقة، رصدت ما تزخر به الجزائر من مظاهر عمرانية وطبيعية وثقافية، مثل رحلة الأب هيرون Héron إلى بلاد البربر عام 1660، ورحلة في إيالتى تونس والجزائر Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger، في السواحل البربرية بأمر من الملك بين 1724 و 1725 للكاتب Peyssonnel، ثم Desfontaines بين 1783 و 1786، تلتها رحلة إلى بلاد البربر Voyage en Barbarie، وهي عبارة عن رسائل لعالم الطبيعيات بوارى L'abbé Poiret نشرت سنة 1789، تحدث فيها عن تاريخ الجزائر الثقافي، معبرا عن انبهاره بمظاهر الطبيعة بأسلوب انطباعي يقترب شيئا ما من الموضوعية³ دون تعمق في الوصف. دفعت المواجهات العنيفة في بداية القرن الثامن عشر بعيد الكتاب

¹-يراجع: جيمس ويلسن ستيفنس، الأسرى الأمريكان في الجزائر 1785 - 1797، تر: علي تابلت، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، 2007.

²-يراجع: وليام شالر، مذكرات قنصل أمريكا بالجزائر 1816-1824، تع: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

³- Charles Taillart, L'Algérie dans la littérature française, Essai de bibliographie méthodique et raisonnée, LIBRAIRIE ANCIENNE EDOUARD CHAMPION, Paris 1925, p.6. Urn : nbn:de:gbv:3:5-13965. Visual Library.

إلى تخليدها في أعمال أدبية، في مقدمتها قصص الرحلات، مثل رحلة نيكولاي N. de Nicolay في 1568 "Les quatre premiers livres des navigations et pérégrinations orientales"، وصفوا الجزائر وأهلها وصفًا خياليًا، متأثرين بشكل كبير بعوالم الملاحم القديمة عن شجاعة البحارة المسلمين وغلاظة قلوبهم، وتعطشهم للدماء، وفرض مبالغ باهظة للإفراج عنهم إلا أن تدخل رجال الدين. وصفوا حالاتهم النفسية المتدهورة، ووضعياتهم البائسة في المعتقلات الجزائرية. ومن قصص الأسرى، كتب Jean-François Regnard قصة أسره وسجنه في الجزائر عام 1731، وميلودراما "أسرى الجزائر Les captifs d'Alger" للكاتب Bernos في 1817.

ومنهم من كتب أعمالًا أدبية من وحي مدينة الجزائر قبل الاحتلال، مثل ميلودراما من ثلاثة فصول للكاتب Cuvelier de Trie "أله امرأتان؟ أو القراصنة البربريون A-t-il deux femmes?ou Les Corsaires Barbaresques" عام 1803. وميلودراما "فرنسيون بالجزائر" Les Français en Alger للكاتب Dumaniant في 1804. وكتب Rougement روجمون "Arlequin à Alger" في 1807. ولم تُستثن الكتابة النسوية في المشاركة في أعمال تتناول تيمات جزائرية، منها رواية السيدة برتليمي هادو Barthélemy-Hadot "وارثو الدوق دوبيون، أو فرنسيون في الجزائر" Les héritiers du duc de Bouillon في 1816¹.

علاوة على ذلك، سُلط الضوء على شخصيات مرموقة في الجزائر المحروسة، على رأسهم الدايات²، احتواه كتاب "هدايا داي الجزائر" Les présents du Dey d'Alger لصاحبه سيمون Simon عام 1825³. ما يوحى بالاهتمام المفرط بممتلكات الداي، والهدايا التي كانت تقدم له، في شكل ضرائب فرضتها الجزائر على الدول الأوروبية. تنم عن نية التجسس على خزينة الدولة الجزائرية التي أسالت لعاب القادة الفرنسيين، طمعوا في كنوزها وأغرقتهم بالتخطيط العسكري

Charles Taillart, L'Algérie dans la littérature française, in marge, op.cit. p.4.

Charles Taillart, ibid. p.5.

Ibid. p.4.

-1

-2

-3

للاستيلاء عليها لإنقاذ اقتصادهم المنهار؛ وهذا غيض من فيض مما كتب الغربيون لتشويه سمعة الجزائر، وتحطيم أسطورة هيبتها في البحر المتوسط.

وخلاصة القول، لقد حددت الكتابات الاستشراقية نوعية العلاقات بين الشرق والغرب، وأكدت أثر العلاقات التاريخية في ترسيم صورة الشرق في المتخيل الغربي، وكشفت عن الصورة التي كرسها الاستشراق الغربي عن العالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية، والاستشراق الفرنسي ضد الجزائر، فاستمرت إلى حقبة الاحتلال، تؤدي دورها في تنميط صورة الجزائر والجزائريين، ظهرت تجلياتها في نصوص المتخيل السردي الفرنسي، لاسيما في السرد الروائي كما سيعرض لاحقا.

الباب الأول

صُورَةُ الْجَزَائِرِ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ

من 1830-1900

سُرُودُ فَرَنْسِيّ الْمَثْرُوبُول

فِي سِيَّاقِ السِّيَّاحَةِ الْاِسْتِعْمَارِيَّةِ

الفصل الأول

صُورَةُ الْجَزَائِرِ فِي السَّرْدِ الرَّحَلِيِّ

- إفريقيا المحتضرة تنقرض بواسطة مخالبتنا.
- هناك شعب يتأوه جميعه ويسأل عن الطعام.
- المجاعة في وهران، المجاعة في مدينة الجزائر،
- هذا ما تفعله لنا فرنسا الرائعة هذه. ! إنهم يقولون.
- لا ذرة ولا خبز. العشب يرعون.
- والعربي مرعوب قد أصابه الجنون.
- نلتقي امرأة خلف حفرة ما، تجلس القرفصاء،
- وتتناول الطعام بمظهر غريب.

فكتور هوغو: "البؤس" من ديوان "السنون الحالكة" 1898

Les Années funestes

توطئة

تناول المبحث الثاني من التمهيد عينة من المصادر الغربية التي اهتمت بالعالمين العربي والإسلامي، في إطار اللقاء الثقافي الطويل الذي أوجده الصراع الحضاري المتأزم بين الشرق والغرب. وخلال الحداثة الأولى ظهرت تمثلات الشرق الجديد وأعيد تعريفه وتحديده في عديد المؤلفات الغربية، أولها كتابات الرحلة التي اتّسمت بها المرحلة الأولى من المواجهة والاحتكاك. فقد تجلت في تلك الرحلات المختلفة صورة الشرقيين وثقافتهم وعقليتهم منذ العصور الوسطى، وسعى الكتاب الرحالون إلى بث صور وهمية عن الشرق الهجري وحكامه الطغاة، وحضارته القديمة البائدة، وحاجة شعوبه، من ثمة، إلى التربية والتعليم والتمدين. غدت هذه العناصر المتخيلة الإحساس بالغرائية، ثم تبلور أدبيا في كتابات الأدباء والكتاب في القرن التاسع عشر، ليدعم الخطاب الاستشراقي في بعض توجهاته الفكر الاستعماري، الذي أقرّ هذه الثوابت، وفرضها على العالم لتسويغ بسط نفوذه على بلدان الشرق المخدول.

سارعت فرنسا في العصر الحديث إلى الانقضاض على الجزائر بتأثير تصورات أدب الأفكار أو الفكر الاستشراقي المتعصب الذي ركز على مفهوم الاستبداد الشرقي ومدنية الغربي¹. وتحت ضغط نداءات بعض المثقفين والسياسيين الملحة منهم بوتان وتونير²، الذين تعالت أصواتهم للتعجيل في مسألة احتلالها لإنقاذها من سلطة القراصنة، وانتشالها من غياهب التخلف والضعف، ومن قاع الانحدار والركود الذي سببه الأتراك.

¹* مثله في عصر الأنوار مونتيكيو في 1721 برسائل فارسية Les Lettres persanes، وفولتير 1739 Voltaire في مسرحية التعصب أو محمد النبي le Fanatisme ou Mahomet le Prophète، والتنوع العرقي عند Cuvier كوفيهيه 1817. ألف فولتير (1694- 1778) عن التسامح الديني ودافع عن النبي محمد في كتبه "أخلاق الأمم" 1751 و"بحث في العادات" 1765، إلا أن الغربيين أخذوا ما يتوافق مع مبادئ المركزية الأوروبية.

²* ينظر: أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط3، الجزائر، دت، ص34.

مورست الكتابة الرحلية الإثنولوجية عن طريق الجهود التي قام بها العلماء الغربيون تحت غطاء العلم وحب الاستطلاع والبحث والاستقصاء؛ فكانت سلاحا معرفيا في يد السلطة الفرنسية لأجل خدمة إيديولوجيا الاستشراق والاستعمار. برزت، في بداية الاحتلال، كتابات المؤسسة الاستعمارية¹ التي حكمت البلاد بالقوة. وشكلت الصحف والمذكرات واليوميات والرسائل والتقارير العسكرية والإدارية، أهم مصادر للمعلومات التي وثقت ما قام به الفرنسيون في الجزائر لتبرير السيف المسلط على رقاب الشعب الجزائري باسم تمدينه، والممارسات الوحشية التي نُفذت ضد المناهضين للاحتلال من أول أمره باسم تأديبهم وتعزيزهم كالنفي والإعدام؛ فطالت الشيوخ والمرابطين مثل الشيخ ابن زعمون، والشيخ سيدي السعدي، والحاج محي الدين، والشيخ مبارك²، ووصفوا المشكلات التي عرقلت خطط التوسع الاستيطاني³ في أراضيه، وكتبوا عن الجزائر أرضا وتاريخا.

يأتي على رأس قائمة المنشورات الإعلامية، صحيفة "Estafette d'Alger" في 1830، وصحيفة الراصد الجزائري "Moniteur Algérien"، في 1832؛ وحوليات بيليسيه 1836، ومذكرات بيجو 1837، وكتابات الجنرال أوجين دوما 1845 في وصف التقاليد والأماكن كالتل والصحراء ومنطقة القبائل، ودراسات فايسات وبوفون⁴، وغيرها من الأعمال التي أثرت الكتابة وغذت مخيلة الأدباء الرحالين في تأليف سرود رحلاتهم. يقول أوجين دوما في مقدمة كتابه

¹ - نشر السياسيون والعسكريون الفرنسيون في مطلع الاحتلال مؤلفات غزيرة جدا عن الجزائر في ميادين شتى منها:

-Alger tel qu'il est, ou tableau statistique, moral et politique de cette régence, par M. D. G. Trapani, ex-agent diplomatique résident à Alger. Paris, 1830, in-8.

-Alger : Tableau du royaume et de ses environs, etc., par M. Renaudot, ancien officier de la garde du consul de France à Alger. 4e édition. Paris, 1830, in-8.

-Précis historique et administratif de la campagne d'Afrique, par le baron Denniée, intendant en chef de l'armée d'expédition. Paris, 1830, in-8.

² - ينظر: أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، م س، ص 85.

³ قال دوتوكفيل مؤيدا هذه الجرائم في كتابه "عمل عن الجزائر 1841": "أعتقد أن قانون الحرب يسمح لنا بتخريب البلاد ويجب علينا القيام بذلك إما عن طريق تدمير المحاصيل في وقت الحصاد، أو في جميع الأوقات من خلال القيام بهذه المداهمات السريعة التي نسميها غزوات، والتي تستهدف الاستيلاء على الرجال والقطعان".

⁴ Voir : Livres de l'Algérie ancienne, numérisés en mode texte par Alain Spenatto. Mise à jour le 31

Décembre 2009. Consulté le: 12-01-2019.15:00

"الصحراء الكبرى": «في نهاية القرن الماضي، كتب العالم هيرين Heeren هذه الجملة: "كانت إفريقيا دائماً الجزء من العالم الذي أثار فضول الرجال أكثر من غيره ، دون أن يتمكنوا من تمزيق الحجاب الغامض الذي كان يلفها"¹. إن هذه النتيجة التي خلص إليها الألماني هيرين في كتابه الموسوم "De la politique et du commerce des peuples de l'antiquité"، عن السياسة والتجارة في إفريقيا في القرن الثامن عشر، وهو في ركن مكتبه، كانت حافزا حرك فضول الرحالين الغربيين في القرن التاسع عشر نحو خوض مغامراتهم في فك أسرار القارة السمراء واستكشاف كنوزها لنزع الحجاب الحاجز عنها.

¹ Eugène Daumas, Le grand désert, ou Itinéraire d'une caravane du Sahara au pays des Nègres (royaume de Haoussa) / et Ausone de Chancel, Le Sahara Algérien, Imprimie et Librairie Centrales de Napoléon Chaix, Paris, 1848.p.III. Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

1- الخلفية الإيديولوجية للرحلات الفرنسية

ما إن بسطت المؤسسة الاستعمارية سلطتها على إيالة الجزائر، غداة الحملة البحرية الفرنسية لطرد القراصنة الأتراك، ووضع حد لعهد الاستبداد الداخلي التركي على الأهالي، باختراع حجج تذرّع بها الفرنسيون وأذاعوها لتبرير الغزو العسكري، حتى تضاعف عدد الرحلات إليها أضعافا مضاعفة أكثر من رحلات قبل الاحتلال لتحقيق مآرب شتى، انبثق جميعها من الرؤية الاستشراقية ذات التوجّه الاستعماري. استند الغزاة في هذا المضمار إلى مفاهيم جيوسياسية ودينية نحو، «رسالة إلهية، ورسالة النظام والسلام، ورسالة الحضارة (أو الرسالة الحضارية)، والرسالة الدينية»¹.

في البدء كانت رحلات كبار القادة العسكريين الفرنسيين المؤيدين للغزو، والضباط القامعين جهاد الأهالي ضد الوجود الفرنسي بالأراضي الجزائرية، بهدف تكثيف الجهود لإخماد الثورات المشتعلة²* هنا وهناك، رافقتها رحلات العلماء الطبيعيين والأنثروبولوجيين والإثنولوجيين، ومنهم الضباط السانسيميونيون وأشهرهم أنفونتان وأوربان،³* الذين حملوا مشروعا استعماريًا. ثم تعززت برحلات المبشرين وكان من بينهم علماء ومفكرون، قصد تهيئة أجواء عملية الغزو الثقافي والتتصيري، ثم تلتها بعد إعلان نفوذها المطلق في العقد الثاني من الاحتلال الاستيطاني، رحلات رجال الأعمال والمهمّشين والمنبوذيين والمغامرين لتعميرها بالأوروبيين. أما رحلات الرسّامين،

¹ Xavier Marmier, *Lettres sur l'Algérie*, Arthur Bertrand, Editeur, Paris, 1847. Pp.81,82.

²* تُراجع رسالة الجنرال دي سان أرنو إلى م. دي فوركيد، 25 مايو 1851.

³**التيار السانسيميوني، هو تيار اشتراكي، ظهر في النصف الأول من القرن التاسع عشر بأوروبا على يد سانسيمون، وخلفه أنفونتان. من أعضائه فورنال وبراكس وإيميل بارو وتوماس أوربان الذي أسلم وسمى نفسه إسماعيل. دخل الجزائر سنة 1837، ودعا إلى إشراك الأهالي في بناء الجزائر الفرنسية، عمل مترجما لقادة فرنسا، ثم تقلد مناصب مختلفة في الإدارة الاستعمارية. ينظر: [مصطفى عبيد، الفكر الاستعماري السانسيميوني في مصر والجزائر 1833-1870، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013. بتصرف].

مثل أوجين دولاكروا وهوراس فيرني وشاسيريو وبولونجي؛ والكتاب الصحفيين، مثل لويس فويو¹ Veuillot والأدباء فكانت للقيام بالدعاية لاستراتيجية الغزو الحضارية، من أجل استكمال مشروع الاستيطان بالسيف والمحراث (شعار الجنرال بيجو)؛ لتقترن السياسة بالفن والأدب، كما خطط لها منظرو الاستعمار في الدراسات الأنثروبولوجية. ثم ما لبث أن صارت الجزائر، في الاستشراق الفرنسي، مُلهمة المثقفين من الأدباء والفنانين وأضحت، بعد ضياع مصر من قبضة نابليون شرق فرنسا المفضل.

يطلق على الأعمال السردية التي تنتج عن ظروف الرحلة وأخبارها وأحداثها مذكرة الرحلة أو قصة الرحلة، وتندرج ضمن أدب الرحلة كجنس أدبي مستقل. و«تعتبر الرحلة وقصة الرحلة (أو المذكرات)، في ممارستها والتعبير الأدبي عنها، عن لحظة ثقافية معروفة جيدا، هي لحظة التقاء الإنسان مع العالم الخارجي، وسيطرته الواضحة على العالم، وقدرته اللامحدودة على وصف العالم وفهمه، واعتقاده بسيادته، ورهانه الدائم على إمكانية تحويل المجهول إلى معلوم ومفهوم»². ويعكس هذه الرؤية الثقافية الرحالون الغربيون الذين جابوا أقطار الشرق في مرحلة الرومانسية الحالمة، والكتاب الفرنسيون المعروفون باسم "أدباء العبور" الذين زاروا الجزائر في العهد الاستعماري. وصفوها بشعارات دعائية «إفريقيا أرض الميعاد»³ و«إفريقيا الفرنسية»⁴ وإفريقيا الإفريقية، وبلاد البرابرة (تيوفيل غوتيه) و«المستعمرة الجزائرية»⁵؛ وتظهر مدى إسهام النخبة الفرنسية المثقفة في إنتاج أدب الرحلات باعتباره «جزءا من ميراث الاستشراق، وما يتضمنه هذا الأدب لا يمكن فصله عن الركاب الفكري الهائل للمؤسسة الاستشراقية»⁶، التي أنجبت الشرق

¹ -إراجع كتاب لويس فويو : Les Français en Algérie: souvenirs d'un voyage fait en 1841

² - دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، م س، ص48.

³ - Alexandre Dumas, Le Véloce ou Tanger, Alger et Tunis, Éditions Le Joyeux Roger, Montréal, 2006. p.445.

⁴ - Eugène Fromentin, Sahara et Sahel, in préface, Librairie Plon, Paris, 1887. p. iv.

Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

⁵ - Xavier Marmier, Lettres sur l'Algérie, op.cit, p.36.

⁶ -سعد محمد رحيم، سحر السرد، دراسات في الفنون السردية، دراسات نقدية، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق،

سوريا، 2004، ص145.

المفترض واخترقت أجواءه الآلة الاستعمارية. واختلق الأنا الغربي المتعالي الآخر (الشرقي)، ليروّض عقله على مبادئ مدنيّته.

عرفت الكتابة عن الجزائر، في بداية الغزو، تكاثرا في العدد وتنوعا في الشكل، فتراوحت بين مذكرات ويوميّات ورسائل، واستنساخا للرؤية الإيديولوجية المهيمنة نفسها. كتب الرحالون الفرنسيون، بمختلف طبقاتهم واهتماماتهم في السياسة والاجتماع والعلم والأدب، في إطار موضوع الرحلة، نقلوا مشاهداتهم للطبيعة الجميلة، ومعايشتهم للجزائري ثقافة وسلوكا، مذ أن وطئت أقدامهم أرض الجزائر. ظهر أدب الرحلات وازدهر في الجزائر المستعمرة عبر أعداد معتبرة من المؤلفات، التي أنتجها الأدباء الرحالون، الذين كتبوا منذ اللحظة الحاسمة، التي أتاحت اللقاء بين المستعمر القادم من المركز بالمستعمر، مترعين بخلفياتهم الفكرية والمذهبية، لتصوير هذا البلد الجميل والغريب، ووصف سحر طبيعته، وأسلوب حياة سكانه البسطاء، ومن ثمة تحويله إلى نص وموضوع وجمالية، ودعوات إلى السفر أطلقها الرومانسيون الغربيون الذين حلموا بمناخ غرائبي^{1*} وجو عجائبي^{2**} في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تجاه البلدان البعيدة والحضارات القديمة في آسيا وإفريقيا. وبهذا المفهوم فإن «الغرائبية، ليست خاصة بمكان أو شيء ولكنها سمة تميز وجهة النظر إليهما والخطاب حولهما»³. فالمكان أو الكائن المنظور إليه غرائبيّ، فقط، من وجهة نظر ذاتية انطلقت من حلم خياليّ، فتحوّل إلى خطاب مؤسس على رؤية إيديولوجية يراد بثّها

^{1*} الغرائبي l'exotique، كلمة يونانية exotikos معناها الغريب، أي وقوع أمر غريب وغير مألوف، لكنه ممكن الحدوث. ظهرت عند الشاعر بلوت Plaute، ثم الشاعر الفرنسي رابلي Rablais. والغرائبية exotisme مصطلح استشرافيّ، شاع استخدامه عند المستشرقين في وصف البلدان البعيدة وشعوبها. نقلا بتصريف عن المقال التالي:

Leonid Heller, « Décrire les exotismes: quelques propositions », Études de lettres [En ligne], 2-3 | 2009, mis en ligne le 15 septembre 2012, consulté le 14 novembre 2018. URL: <http://journals.openedition.org/edl/447>

^{2**} العجائبي، وقوع أمر عجيب مستحيل الحدوث.

³ Jean-François Staszak, Qu'est-ce que l'exotisme ? [Article] in L'exotisme, Le Globe. Revue genevoise de géographie, tome 148, 2008. p.7.
[3412_2008_num_148_1 www.persee.fr/issue/globe_0398-](http://www.persee.fr/issue/globe_0398-3412_2008_num_148_1)

عن الآخر. ويُعدّ الغرائبيّ أحد ثوابت الأنتروبولوجيا الأوروبية وإيديولوجيا الغرب المهيمن على الساحة الدولية.

1.1-السياحة الأدبية: النخبة المثقفة في رحلة البحث عن الحلم الشرقيّ

سجلت نصوص رحلية متعددة بعد الغزو، الذي غطى الثلثين الأخيرين ونيفا من القرن التاسع عشر، حضور أصحابها إلى الجزائر، من خلال سرديات يتعالق فيها الغرائبيّ والعجائبيّ. وما جعل هذه النصوص تصطبغ بصبغة أدبية هو اعتمادها على عنصر التخيل، فاستندت إلى السرد التخيليّ في رواية الوقائع ووصف الأمصار وصفا يتواءم مع هيمنة الإيديولوجيا الغربية. أتى الأديب الرخالة من المتروبول، منساقا وراء النسق الثقافيّ المهيمن وقتئذ، وهو النسق السياسي الاستعماري والمركزية الأوروبية؛ مدفوعا بالحافز الذاتي الذي نشأ عن حبّ المغامرة والرغبة في استجلاء سمات الغرابة في كل شيء. يتغنّى بالجزائر بوصفها الفضاء الجغرافيّ الواسع والمجهول، والمكان البعيد (الهناك)، والمختلف عما يَعْرِف، وغير المألوف، من خلال استثمار مفهوم "شعرية الجغرافية" البشرية والطبيعية.

يروى تيوفيل غوتيه¹، بنوع من الاستغراب المضحخ بالتعالي والمبالغة في وصف المرئيات سنة 1845، فيقول: «ذهبنا، مدة ساعتين، إلى الجزء الآخر من العالم، من إفريقيا الغامضة، والتي هي على مسيرة يومين من فرنسا، ضمن هذه الأعراق السمّر والسود التي تختلف عنّا في الزيّ والعادات والدين، كما يختلف النهار عن الليل، في حضن هذه الحضارة الشرقيّة التي نسميها بلاد البرابرة برياطة جأش تميزنا...»².

¹* تيوفيل غوتيه Théophile Gautier (1811-1872) أديب فرنسي، مؤسس مذهب الفن للفن في الأدب الفرنسي، جاء إلى الجزائر عام 1845 في إطار سياسة الدعاية للاستعمار فأقام فيها شهرين. جمع ميشال ليفي قصص رحلاته عام 1865، ونشرت في عنوان واحد "بعيدا عن باريس".

² Théophile Gautier, Loin de Paris, Michel Lévy frères, Libraires Editeurs, Paris, 1865. p.20.

تنمّ القطعة السردية السابقة عن نظرة قبلية استعلائية عند غوتيه، وليست وليدة لحظة المعاينة والمشاهدة المباشرة. ففُربُ المسافة الجغرافية بين فرنسا والجزائر، المقدره فقط ب«مسيرة يومين»، يجعلها السارد مسافة رمزية بعيدة، هي «الجزء الآخر من العالم»، فضاء وحشيّ بعيد عن المدنية وخارج المعتاد في الزمان والمكان. في البداية وصفَ الجزائر، التي يطلق عليها إفريقيا، بالغموض والغرابة، وحصر مظاهر الاختلاف في اللون واللباس والعادات والتقاليد والدين. اعترف بانتمائها إلى حضارة الشرق، ونسبها إلى "بلاد البرابرة" التي دخلها حذرا متهيّبا، باعتبارها مختلفة عن مقاييس حضارته الغربية. يعني أنه اختلاف ثقافي بين الشرق والغرب، ولكن الأنا الناظر يرى الآخر بعيون ذاتية، ووجهة نظر غرائبية نابعة عن خلفية استعمارية.

يستعين الكاتب الرحالة، عادة، بالكتيبات¹ والخرائط التي وضعها العلماء والجغرافيون الغربيون عن طبوغرافيا الجزائر وكتب الرحلات التي مست الجوانب الطبيعية والإنسانية والاجتماعية قبل الاحتلال وخلالها، دليلا يهتدي به لإنجاز خطاب رحلته المعلومة، خطوط بدايتها ونهايتها وزمنها وغايتها، متأملا ربوع المنطقة التي اختار أن يكتب عنها في سياق أسطوري وفكر إيديولوجي موجّه للمتلقى الغربي. يصف، بإعجاب وانبهار وهوس، طبيعتها الخارجية الخلابة. وينظر، بتوجس ورهاب، وحيطة وحذر، إلى الجزائري بوصفه الآخر، أو ذلك الأهلي المختلف عرقا ولغة ودينا، والمتخلف ثقافة وفكرا ودنيا. يكشف في تمثلاته عن الوجه العجائبي والجانب الغرائبي في الزمان والمكان، سواء كان المكان مفتوحا أم مغلقا، داخليا أم خارجيا على طريقة السرديات الملحمية القديمة. يتفاعل مع الواقع المتخيل أحيانا، كأنه صور تمثيلية لحياة من كوكب آخر. يقول ألكسندر دوما: «منذ هوميروس إلى عهدنا، لم تكف إفريقيا عن كونها أكثر بلد روعة، والتي في عيون الرحالين والفلاسفة يجب أن تتضاعف جاذبيتها، مقارنةً بعالمنا خاصة، الذي صار أكثر واقعية، يصبح من سوء حظه شيئا فشيئا حزينا»².

Voir: F. Gomot, Guide du Voyageur en Algérie, L'Annuaire de 1844.

Alexandre Dumas, Le Véloce ou Tanger, Alger et Tunis, op.cit. p.1.

-1

-2

كانت مسألة شعريّة الرحلة في القرن التاسع عشر ذات أهميّة بالغة نظرا لعدد الكتاب الرحالين المتزايد، وتعدد الانطباعات ووجهات النظر وزواياها؛ لأن زاوية الرؤية هي التي تسمح للكاتب بأن يؤكد أصالته¹. لجأ الكُتّاب أحيانا كثيرة إلى أحكام جاهزة وصور نقلوها عن كتب سابقة؛ يستوي في إقحام القوالب الجاهزة كل الذين دوّنوا رحلاتهم منذ اللحظة التاريخية الأولى من العهد الاستعماري. قُدمت ذكرياتها وقصصها بذاتية شديدة للمتلقي الغربي لإقناعه بأنها حقائق واقعية، وللجزائري(المنظور) ليقبل الصورة التي صنعتها له مخيّلة (الأنا) الناظر، ويرضى بها دون جدال، «فلا جدوى من أن يفكر أو يعمل خارج هذا الإطار»² المرسوم له سلفا. حتى تثبّت عليه فكرة أن «الأسطورة هي قصّة الشعوب التي ليس لها تاريخ»³.

2.1.1- الحلم بالأمصار البعيدة: البحث عن اللون المحلي إقرار بالاختلاف الثقافي

افتتن الرّحّالون الفرنسيّون بالجزائر المستعمرة ذات الثقافة المجهولة، والطبيعة الجميلة التي لا تغيب عنها الشمس. وأول ما استوقف الكاتب الرحالة، وهو ينطلق في جولته السياحية الاستكشافية، هي جغرافيا المكان الجديد الذي نزل به ضيفا لأول مرة، سواء في الساحل أو في التل أو في الصحراء. يقول فرومنتان منشياً بذوق الاكتشاف: «هناك لذة لا تقاوم في القول عن بلد شاهده قليلٌ من الناس: لقد شاهدته»⁴.

نالت المدن الجزائرية، والواقعة على السواحل القسط الأوفر من الاهتمام في برنامج تلك الرحلات المثيرة، بفضل حركة الملاحة البحرية، ونشاط الموانئ والسفن، وإنشاء خطوط سكة الحديد. منها الجزائر ووهران وعنابة وسكيكدة وبجاية، وكذا المدن التاريخية العريقة، والداخلية العتيقة مثل، قسنطينة والبليدة والمدية ومعسكر وتلمسان، وغيرها من المناطق الجبلية والسهول

¹ Roxana Monah, Un voyage qui n'en est pas un : éléments d'une poésie du voyage chez Eugène Fromentin, Cadernos de Literatura Comparada, N° 30 – 6/ 2014, Instituto de Literatura Comparada Margarida Losa, Université "Al. I. Cuza" Iasi.p.97.www.ilcml.com

² -سعد محمد رحيم، سحر السرد، دراسات في الفنون السردية، م س، ص145.

³ Eugène Damas, Le grand désert, ou Itinéraire d'une caravane du Sahara au pays des Nègres (royaume de Haoussa), in préface, p.x.

⁴ Eugène Fromentin, Une année dans le Sahel, op.cit. p.265.

والهضاب. ولا تقل المناطق الصحراوية استقطاباً للرحالين المستكشفين، باعتبارها فضاء رهيباً ومجهولاً بالنسبة إلى الرجل الأوروبي. فجاءت أعمالهم معبأة بالخيال الخلاق للصور الخارقة للعادة ولللسن المألوفة، مشحونة بالإثارة والاستفزاز، زاخرة بالدهشة والفضول نحو ذلك البعيد "الهناك"، الموسوم أنتروبولوجياً بمفاهيم آخريّة، «غيرية جغرافية»¹ و«جغرافية غرائبية»²، لترسيخ الأحكام النمطية الجاهزة التي أسسها الخطاب الاستشراقي.

كتب الرسام والكاتب فرومنتان عن أول زيارة له إلى الجزائر عام 1846، في إحدى مراسلاته إلى صديقه بول باتيار أثناء إقامته بالبليدة، يعبر عن إعجابه بهذا البلد الذي يوحى له بغرائبية الشرق وسحره، التي لطالما قرأها في كتب الاستشراق الغربي: «وداعاً، وداعاً، إنّه جميل، إنّه جميل! كل شيء جميل حتى البؤس، وحتى وحل النعال»³. في زيارة سنة 1852، يقول في كتابه "عام في الساحل": «كل شيء يسحرني في هذا البلد»⁴. وهكذا يستسلم الكاتب الرحالة لغواية الغرائبيّ، ويكتب عنه في سياق جاذبيّ، من أجل استفزاز المتلقي الغربيّ، وفتح شهيته لمعرفة المزيد من الأخبار مستعينا بسحر الاستعارة. يقول فانسون كوفمان: «أنجح الرحلات هي تلك التي عُهد بها إلى سحر الاستعارة»⁵.

مثل الرّحالون الفرنسيون الأوائل المدرسة الاستشراقية. وكان ذوق الغرائبي والعجائبي وحب المغامرة المغناطيس السحري الذي يجذب الكتاب إلى أن يشدوا الرّحال إلى الجزائر، لزيارة مختلف مدنها والتعرف على سكانها ومعايشة يومياتهم ورؤية جمال مناطقها الشاسعة ذات التضاريس

Jean-François Staszak, *Qu'est-ce que l'exotisme ?* op.cit. p.11. _1

Ibid. _2

Eugène Fromentin, *Lettres de jeunesse*, , Biographie et notes, par Pierre Blanchon (Jacques André Mérys), Librairie Plon-Nourrit et Cie, Imprimeurs-Éditeurs, 8, Rue Garancière, Paris, 1909. p.171. _3

Eugène Fromentin, *Une année dans le Sahel*, op.cit. p.17. _4

Voir: Jocelyn Van Tuyl, « Figurations du voyage dans El Hadj », *Australian Journal of French Studies*, 1995, 32.2, pp. 176-186. Traduit en français par Pauline-Anais Le Ven. 2020-04-28.12 :00. _5

http://www.gidiana.net/DOSSIERS_CRITIQUES/CRIT_EL_HADJ/J_Tuyl_El_Hadj.html

الواضحة التقسيم والتوزيع، وليكتبوا عن اللون المحلي¹*. «في 1836 كتب تيوفيل غوتيه إلى أحد أصدقائه: "أحضر لي بعض الأواني من اللون المحلي!"².

جدول يرصد كرونولوجيا الرحلات التي قام بها الأدباء الرحالون إلى الجزائر من 1845 إلى 1899، والأعمال موضوع الدراسة المستوحاة منها:

الكاتب	مكان الرحلة	عنوان المذكرة وسنة النشر	سنة الرحلة
غوتيه	إقليم الجزائر وإقليم قسنطينة	بعيدا عن باريس 1865	1845
ألكسندر دوما	إقليم الجزائر وإقليم قسنطينة	فيلوس، طنجة والجزائر وتونس 1848	1846
مارمييه	إقليم الجزائر وإقليم وهران	رسائل عن الجزائر 1847	1846
دوغونكور	مدينة الجزائر	صفحات مستعادة 1852	1849
فرومنتان	أقاليم الجزائر والتيطري وقسنطينة والصحراء	عام في الساحل 1858 صيف في الصحراء 1856	1847/1846 1853/ 1852
فلوبير	إقليم قسنطينة	دفاتر رحلة إلى الشمال	1858
فايدو	إقليم الجزائر	مدينة الجزائر 1862	1860
دودي	إقليم الجزائر وضواحيه	رسائل طاحونتي 1869 حكايات الاثنين 1873	1861

¹* للمزيد من المعلومات عن اللون المحلي، يمكن مطالعة كتاب "مقالة عن تطور الجغرافيا الداخلية لإفريقيا، وعن الرحلات الاكتشاف الرئيسية المرتبطة بها":

Philippe François Lasnon de la Renaudière, Essai sur les progrès de la géographie de l'intérieur de l'Afrique, et sur les principaux voyages de découvertes qui s'y rattachent, de La Forest, 1826.

Louis Bertrand, Le mirage oriental, Librairie Académique Perrin et Cie, Libraires Editeurs, Paris, 1910. p.2.

⁻²

1881	في الشمس 1884	أقاليم الجزائر وقسنطينة ووهران والصحراء	موباسان
1899	أمينتاس 1906	الصحراء	أندري جيد

جدول رقم (1)

2- وصف إثنوغرافي للمكان الجغرافي: خلفية استشراقية ودعاية استعمارية

تتمتع الأماكن في علاقتها بالزمان بمنزلة خاصة عند الأفراد والأمم والشعوب، بحسب قيمتها التاريخية، وأهميتها الحضارية، وموقعها الاستراتيجي. وتتفاوت في ممارسة تأثيرها على النفوس واستمالة العقول، بحسب خصوصيتها الثقافية، ودلالاتها وأبعادها الاجتماعية والسياسية وحمولاتها النفسية. فالعلاقة وشيجة بين المكان والإنسان، وصلة الإنسان بالبنيان وثيقة، نسجتها ملابسات الحياة عبر الزمان. وقد اهتم كثير من المفكرين والنقاد بهذا العنصر الجمالي في الخطاب السردى منهم غاستون باشلار G. Bachelard وجان بيير ريشار J.P. Richard وجلبير دوران G. Durand، الذين حللوا وعي الإنسان بالمكان وارتباطه بتلابيب الأشياء (حميمية المكان السردى). وظهرت نظريات في الفلسفة والنقد تهتم بجمالية المكان وهويته وقيمه؛ تحلل درجة الالتحام وتقيس علاقة التماهي بين هذا الثالوث المهم في فلسفة الحياة والوجود، الزمان والمكان والإنسان، وتدرس مدى عمق أثر الزمان والمكان الإيجابي أو السلبي في الوجدان. ويتنوع المكان، من حيث علاقه بالإنسان وخضوعه للزمان، فهناك المكان المعروف الذي يشدنا إليه عقب ذكريات الماضي بحبال متينة؛ وإن حدث الانتقال الجسدي، أو المؤلف الذي يرتبط بالواقع المعلوم، ويتجلى في الحاضر المعيش، والمكان المجهول الذي يثير في النفس الحيرة والفضول؛ والمكان المتخيل، الذي يعلق في بؤرة عالم الحلم اللانهائي والأمني المشتهة.

ترجم الأدباء الرحالون عبر فصول رحلاتهم إلى الجزائر مختلف حالات الشعور الحسيّ بالمكان الذي ترسم المخيلة ملامحه الساحرة على الوعي، فكان لسطوة المكان حضور قوي في سرود

الرحلات. فعلى سبيل المثال يرى ألكسندر دوما أن «هناك نشوة في أسماء معينة، وهناك مغناطيس يجذب نحو مدن معينة. يُعتقد أن هذه المدن الرائعة لن تُرى أبداً؛ فقد تلاشت أهواء المؤرخين مع الفكر الذي ولدها»¹. بينما يقول فرومونتان: «أما بالنسبة للأماكن الشهيرة، فأنا أفرنها بالعبارات النادرة، وهي ترف عديم الفائدة يمكن أن تحرم منه اللغة البشرية من دون أن تفقد أي شيء»².

خضعت الجزائر في العهد العثماني، إلى نظام البايلك³، فانقسمت إلى أربع مقاطعات إدارية كبرى هي: مدينة الجزائر أو دار السلطان، وبايلك التيطري أو بايلك الوسط (المدينة)، وبايلك الشرق (قسنطينة)، وبايلك الغرب (وهران). ألغته الإدارة الفرنسية وأقرت نظاماً إدارياً آخر يتوافق مع المساحة القطرية وواقع الاحتلال وسياسته. ويتمثل التقسيم الجديد في ثلاثة أقاليم كبرى هي: الجزائر في الوسط، وقسنطينة على اليمين (الشرق)، ووهران على اليسار (الغرب)⁴. تتنوع تضاريسها حسب مناخها. وقد ذكر موباسان وضوح هذا التقسيم، بقوله: «ينقسم إقليم وسكان مستعمرتنا بشكل واضح جداً»⁵. لخص هذا التنوع المناخي في مدن الساحل التي لا علاقة لها بالداخل، وسكانها مستقرون؛ ومنطقة التل التي استولى عليها عنصر المستوطنين لخصوبة أراضيها، والصحراء في الجنوب التي تقل فيها نسبة السكان، يرتحلون عند تقلب الفصول بسبب قساوة الطبيعة.

لفت هذا التنوع البديع الكتاب، يقول مارمييه مبهورا بهذا التنوع: «على الرغم من أن المدن الإفريقية بنيت إلى حد كبير من قبل الشعب عينه، ويسكنها رجال من العرق عينه، إلا أنها قليلة التشابه كما لو كانت تنتمي إلى بلدان مختلفة. لا يعطي مظهر الجزائر فكرة عن قسنطينة،

¹ Le Véloce ou Tanger, Alger et Tunis, op.cit. p.162.

² Eugène Fromentin, Une année dans le Sahel, op.cit. p.8.

³ البايلك Beylik، إقليم واقعة تحت إدارة الباي، وهو ثلاثة: بايلك الشرق القسنطيني وبايلك الغرب الوهراني وبايلك الوسط التيطري.

⁴ Voir : La comtesse Drohojowska, l'Histoire de L'Algérie, Racontée à la jeunesse, Précédé d'une préface de Guy de Maupassant, Au Soleil, Édition reproduite, Albin Michel, 1925. p.127.

⁵ Édition du groupe « Ebookslibresetgratuits »

وبانوراما عنابة، وبجاية، وشرشال لا تمهّد الذهن لمظهر وهران»¹. لقد ألهمتهم كل منطقة إبداعاتهم، فعكفوا على رسم ملامحها بوجدانهم وأحاسيسهم، ولكن كانوا في أعمالهم «أقل اهتمامًا بالإنسان، وأكثر عناية بما يحيط به»²، لأنهم، في حقيقة أمرهم، جاؤوا كي يروجوا لروعة المكان، ويهدموا ثقافة السكان.

1.2- الفضاء المدني: مدينة الجزائر وجدلية المفاضلة بين الطرازين العربي والغربي

تعدّ مدينة الجزائر، مركز الإيالة العثمانية وأهم الأقاليم في عهد الاحتلال، من المدن العظمى آنذاك، ونافست «عاصمة القراصنة»³ باريس ولندن، حتى بعد سقوطها على يد الفرنسيين. بادر كثير من الرحالين الغربيين إلى زيارتها ووصفها، نظرا لمكانتها المركزية في العهد العثماني وفي ظل الاحتلال الفرنسي. ونالت، عبر شعرية الفضاء الحضري، نصيبا موفورا في قصص الرحلات التي أنتجها كتّاب الاستعمار، من صحفيين وأدباء مرموقين، شغوفين بمعرفة الغريب والعجيب في هذا الجزء الغربي من الشرق الكبير، الذي لا يفصله عن شواطئ فرنسا سوى ساعات معدودات. فما الصورة التي قدموها لمدينة الجزائر التي كانت قد شغلت الأنام في فترات سابقة على بداية العهد الاستعماري؟ وكيف تجلّى بنيانها وشوارعها، وتمظهر أهلها وحياتها سكانها في كتاباتهم الرحلية؟

كان الكاتب تيوفيل غوتيه في طليعة الكتاب المشهورين الذين لبّوا دعوة العسكريين. جاء إلى إفريقيا، كما قال في مذكراته "بعيدا عن باريس"، باحثا عن اللون المحلي: «كنا متحمسين تحدونا رغبة شديدة لرؤية اللون المحلي وإشباع أنفسنا به»⁴. أثمرت هذه الرحلة مذكرة رحلة، سرد فيها ظروف رحلته إلى الجزائر، ووصف موقع مدينة الجزائر وصفا جغرافيا خضع لميله الإيديولوجي القبلي.

Xavier Marmier, Lettres sur l'Algérie, op.cit. p.238.

Eugène Fromentin, Une année dans le Sahel, op.cit. p.VII.

Xavier Marmier, Lettres sur l'Algérie, op.cit. p.6

Théophile Gautier, Loin de Paris, op.cit. p.40.

-1

-2

-3

-4

شمل الوصف شكلها الخارجي Extra muros بنائها وهندستها. بدءا بالقصبة العربية البيضاء في القسم الأعلى، وراء القسم الأوروبي الحديث، حيث الواجهة البحرية الجميلة التي تطل على البحر المتوسط، وتمتد من "شاطئ بيسكاد" (شاطئ الرئيس حميدو حاليا) يمينا و"رأس ماتيفو" (ثماننقوست¹ حاليا) يسارا ببرج البحري، على خليج في شكل قوس. يترجم إحساسه الشغوف بغير المألوف في القصبة، التي كانت في الأصل تكتن تركية، مبدئيا انبهاره بفرادة شكلها المدرج، وبسطوحها المدهشة التي يركب بعضها بعضا. وهو غارق في الوصف الجغرافي الصرف، يضيف دلالة اجتماعية إيديولوجية لرمزية بعض الأشياء. فالنخيل التي ترمز إلى الصحراء والنظام البطريركي المسيطر في المجتمع العربي البدائي، يعني بها ثنائية السلطة والبداءة. والطواحين الهوائية ترمز إلى تقدم الأوروبي. وأزقتها التي لا منفذ لها وبيوتها المقلدة، تشعر الزائر بالرهاب من الأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا)؛ وهنا يكمن سر الغرابة في تقديره.

يركز في سياق الاختلاف الحضاري، على ذكر أسماء الأماكن العربية القديمة والمستبدلة بالأحياء الحديثة غداة الاحتلال، وفق هندسة أوروبية جعلتها مفتوحة على الهواء والشمس، كالسماكة والبحرية قبالة الشاطئ وساحة الحكومة، أو تعرضت لتحويلات في شكل بنائها مثل باب الوادي وباب عزون، كي تستجيب للنمط الغربي. يقدم الكاتب/الساقد نماذج حضارية متعارضة توحى بانفتاح حضارة (الأنا)، الأوروبي الذي يدعي التفوق روحا وفكرا وعقلا على الآخر والقصبة العتيقة والجنينة²* دالة على انغلاق حضارة (الآخر) العربي وتزمت عقله المتحجر، ويمثله الجزائري في هذه البقعة التابعة للشرق الإسلامي جيو سياسيا.

يشير في وصف الأماكن الداخلية Intra muros إلى تباين الملامح السوسيو ثقافية للسكان، مبينا سبب اختلافها، بين الحضري والبدوي، والعربي والغربي. ومن بين الشواهد الدالة على هذا

¹* ثمانفوست أو ثماننقوست، تعني باللسان البربري الجانب الأيمن.

²* الجنينة، وتسمى دار السلطان، تضم قصر الداى الذي بناه صالح رايس بين 1552-1556، وهي ساحة بور سعيد.

الاختلاف الشديد وصف معالم الرفاه والتقدم الأوروبي، مثل الفنادق الكاملة المرافق (فندق ريشوليو وفندق الحكومة) وتوسيع الشوارع، كان نتيجتها أن «كل البرابرة الذين طاردتهم الحضارة لجأوا إلى القمم»¹؛ في القسم العلوي ببنائاته غير المنتظمة والمطوية بالجير، وأزقته الضيقة المظلمة التي تشبه متاهة معقدة في تعرجاتها. وعبر متواليات سردية مست طابع العمارة وعلاقته بالحضارة، ينتقل إلى وصف المقاهي العربية التي تزدهم بالناس في كل أن. هي الأخرى بدائية بأئسة، غريبة الشكل والأثاث. ينقل بنبرة تهكمية هشاشة بناء المدينة العربية الذي يعوزه الانسجام والتناسق، لافتقار عمران العرب إلى ذوق الجميل. يواصل سرد مغامرته المدينية ليلا ونهارا، ويعقد مقارنة تمييزية بين النموذجين العربي الجزائري والغربي الفرنسي؛ ويرافع في كل مرة لصالح الثقافة الأوروبية المستعالية، إذا وقعت عينه على الحوانيت والبيوت وغيرها من المرافق البسيطة التي تشكل يوميات الجزائريين في المدينة القديمة؛ وينظر بتعجب إلى مختلف الأدوات التقليدية التي ما زالت الجزائر تشتهر بإنتاجها في عصر التقدم الصناعي.

كل هذه العناصر الغرائبية المحتشدة في النص، والتي تعزز انطباعات البعد المكاني والهنالك والغريبة، موجه إلى المتلقي المستهدف، وهو القارئ الغربي الذي يجهل كل شيء عن الجزائر دون غيره، ليحرك فضوله تجاه هذه الأرض البعيدة المجهولة. أما بالنسبة لساكنتها فهي مظاهر اعتيادية مألوفة، يحيا المرء معها، يوميا، في تماس، ويستخدم أدواتها بشكل طبيعي؛ ليس في منظوره ما يخرق العادة ويكسر العرف. «فما هو غرائبي لا وجود له إلا في فم وعيون الغربي [...] ليس فيه شيء من البعد ولا الغرابة بالنسبة لسكان هذه البلاد حيث توجد. إن كان، في كثير من التعابير، غرائبي مرادفا للإستوائي ((وحتى الاستعماري))، فإنما هو من وجهة نظر انبثقت من المنطقة "المعتدلة"². فلا ريب أن «كل ما هو من اللون المحلي في عين الأوروبي، هو واقع عادي، وطبيعي ومبتذل عند أهل البلد»³. يوظف غوتيه في نقل المسرود معجما خاصا

¹ Théophile Gautier, Loin de Paris, op.cit. p.32.

² Jean-François Staszak, Qu'est-ce que l'exotisme ? [article] in L'exotisme, op.cit. p.9.

³ Théophile Gautier, voyage en Algérie, présentation de Denise Brahimi, La Boîte à documents, Paris, 1997. p.13.

يحوّم حول مفاهيم الغرابة والعجب العجاب والندرة، مثل، غريب، عجيب، نادر، على نحو ما يُستعمل عادة في الأدب الغرائبي لإضفاء طابع الغرائبية على نسيج مدينة الجزائر المعماري العتيق، والذي بدأ ينحسر شيئاً فشيئاً أمام زحف الأحياء الأوروبية الحديثة التي قامت على أنقاض المباني الشرقية.

نزل ألكسندر دوما الأب Alexandre Dumas¹* بمدينة الجزائر سنة 1846 فوصف انطباعه عن مظهر المدينة العام، وأثنى على التغييرات الفرنسية المستحدثة. منذ الوهلة الأولى، لم يتأسف على فساد المدينة العربية القديمة، وزوال مدينة الدايات؛ بل أبدى إعجابه بمنظرها الأوروبي الجديد. لفت انتباهه اجتياح الطراز الفرنسي بإنجاز بنايات ذات طوابق عالية تغطي البيوت العربية القديمة الملتصقة بالأرض، تظللها أشجار النخيل التي ترمز للبيئة الشرقية، فتقاوم وترفض أن يحل الطابع الغربي الغريب محلها. إلى جانب عيون الماء تلك التي تزدان بها الشوارع، «ما يكمل المنظر الطبيعي الإفريقي»² للمدينة.

يطلق السارد العنان لآلية الوصف الخارجي لترسم جمال موقع مدينة الجزائر البحري بحدودها الجغرافية. حرص على أن يبرز دور فرنسا في تطور مدينة الجزائر لتضاهي المدن الأوروبية المتقدمة، وتحوّل إلى مروج للحدثة ومؤيد لعملية تحريف معالم المدينة العربية: «لقد تغيرت مدينة الجزائر بعد سقوطها في أيدي الفرنسيين. القسم السفلي كله فرنسي، عدا المسجد الذي بقي صالحاً. فآثار المدينة القديمة تقع تدريجياً فقط عند الصعود»³ إلى الأعلى.

¹* جاء ألكسندر دوما الأب إلى الجزائر على متن باخرة عسكرية "فيلوس" عام 1846، رفقة نجله ألكسندر الأصغر Alexandre، وكوكبة من الكتاب والرسامين: بولانجي Boulanger وجيرو Giraud وماكي Maquet وديبارول Desbarolles، للقيام بمهمة الدعاية الاستعمارية. وقد احتج أعضاء من البرلمان الفرنسي آنذاك على وضع السفينة وطاقمها ثلاثة أسابيع تحت تصرف الكاتب والوفد الذي رافقه، بحجة تبذير المال العام.

² Le Véloce ou Tanger, Alger et Tunis, op.cit. p.159.

³ Le Véloce, ibid. p.464.

قدم أوجين فرومنتان Eugène Fromentin^{1*} إلى الجزائر عام 1846؛ بعدها قام بزيارات أخرى قسّمها بين الساحل والتل والصحراء. في نصه الرحلي "عامّ في السّاحل" الجزائري المنشور في 1858، دوّن فرومنتان انطباعاته عن المناطق الشمالية، الساحلية والسهلية التي تجول فيها عام 1852، شملت مدينة الجزائر والبليدة والسهول. كانت بداية جولاته الاستكشافية المعمقة في 1847 بمدينة الجزائر التي تعرّف عليها من عبقتها الصوفي الشرقي الذي ملأ رثتيه قبل سنة «ليس لاكتشاف أماكن أخرى لا يعرفها، وإنما للبحث عن مشاعر أخرى معمقة للمناظر نفسها التي زارها»². وبشغف الصوفيين الرومانسيين، الباحثين عن وطن السعادة، عبّر لصديقه أرمان دي مينيل، عن شعوره بالراحة في الجزائر التي يصرّ على أن يسميها "إفريقيا"، إذ كان لا يُفرّق بينها وبين اسم القارة آنذاك.

كل شيء في الجزائر أو إفريقيا يدفع السارد إلى ولوج عتبة الحلم الشرقي من بابه الواسع، بدءا بالإحساس بعذوبة كلمة (إفريقيا)؛ «إنها كلمة سحرية قابلة للتكهنات، وتجعل من هواة الاستكشاف يطمون»³ -كمثله - أن يعيشوا في هذه «الأرض الغريبة»⁴ التي استولوا عليها بالقوة، ويتمتعوا بروعة هذا «المناخ السعيد»⁵ من أجل تحقيق آمالهم ويتجذّروا في «هذه الأرض بالتبّي»⁶. يعبر الكاتب عن سحر طبيعة المكان، ويسبح في عالم خياليّ، تأمل المدينة البيضاء (البهجة)، ورسم بروح منتشية ملامحها ومعالمها. ينتقي الكلمات الدالة على اللون

^{1*} أوجين فرومنتان، كاتب فرنسي ورسام رومانسي استشرافي. زار الجزائر ثلاث مرات في 1846، جاء رفقة صديقه دي مينيل في بدعوة من الرسام شارل لابي Labbé المقيم بالبليدة، وزع تجواله على عدة مناطق بين البليدة ومدينة الجزائر مدة خمسة وعشرين يوما، وعاد في 1847 و 1852 و 1853. استلهم أعماله الإبداعية من جمال مناظرها، وطبيعتها، وتاريخها الحافل بالأحداث، إن كتابةً في شكل قصص رحلية، أو تصويرا عن طريق الرسم بالألوان. نشر مذكرات رحلاته في جزأين الأول سنة 1857 تحت عنوان "صيف في الصحراء"، والثاني سنة 1859 تحت عنوان "عام في الساحل Une année dans le Sahel"، ومن وحي الساحل والصحراء رسم لوحاته الفنية.

² Roxana Monah, Un voyage qui n'en est pas un: éléments d'une poétique du voyage chez Eugène Fromentin op.cit. p.99.

³ Eugène Fromentin, Une année dans le Sahel, op.cit. p.4.

⁴ Ibid. p.7.

⁵ Ibid. p.8.

⁶ Ibid.

والصوت والحركة، ليصف مظاهر الشكل الخارجية والداخلية، وبعض خصائص الطبيعة والحياة الاجتماعية لمدينة عربية أكثر سكانها موريسكيون. تجول في شارع مصطفى^{1*}، وتعرف على الفضاء الشرقي، حيث تتبدى بيوت وأراض فلاحية، ومُزُوج ومزارع. وفي نهاية الساحل تمتد المتيجة، وترتفع شرقا سلسلة جبال القبائل.

يُظهر فرومنتان أسفه على حال هذه المدينة "البيضاء" المدنسة تحت الحكم الفرنسي، إذ بدأت تفقد مناراتها. يصف أبراجها العالية، برج الفنار، وبرج باب عزون، وبرج مولاي حسن^{2**} الذي حوله الفرنسيون إلى برج الإمبراطور. تكئات وحصون قديمة تحولت إلى قرى للمستوطنين مثل برج الكيفان الذي استوطنه المالطيون. يغوص الكاتب في جانب من جوانب الصراع التاريخي على هذا الشاطئ الجزائري الذي شهد حطام أسطول شارل الخامس وجيشه، ونجاة ساحل البهجة من الغزو الإسباني بأعجوبة، فاستحق هذا الملك أن تكرمه فرنسا الاستعمارية بعدما نجحت في السيطرة عليها، تقديرا لسعيه من أجل خدمة المسيحية الغربية.

يمارس المكان سطوته الجمالية على الكاتب، فيهمس إلى صديقه بنشوة تُبرز تفاعل الكاتب الإيجابي مع مناظر الطبيعة، فيتغنى بهذه الروعة في هذه الفقرة التأملية: «يا له من بلد ذاك الذي يوفر باعتدال مثل وسائل الراحة هذه! لا سحابة ولا نفس، معنى أن السلام يعمُّ السماء. الجسد يسبح في جو لا يهيجه شيء، بحيث تصير الحرارة لا إحساس فيها، من الفضاء الممتد دون أية شائبة. حيث اللازورد هو اللون الحقيقي. ينزل في سماء صافية ثم يغيب، دون أن يترك

^{1*} شارع مصطفى بمدينة الجزائر، سمي باسم مصطفى باشا، أحد حكام الجزائر الأتراك المُعَدِّمين في العهد العثماني.

^{2**} برج مولاي حسن، بناه حسن باشا لتحصين مدينة الجزائر بعد انهيار أسطول الملك الإسباني شارل الخامس، الذي حاول غزو المدينة لمواصلة الحرب الصليبية على الشمال الإفريقي، سمي في العهد الفرنسي برج الإمبراطور تخليدا لشجاعة شارل الخامس. يسمى حاليا برج بوليلة Bordj Boulila

وراءه، ليدل على باب الغروب، سوى نقطة حمراء قرمزية كأنها ورقة وردة»¹. وتتنزين الفحوص² ببياض شجر الحور وخضرة النبات، وزرقة البحر، واللون العنيف والبنّي للأراضي المؤكسدة بالحديد. ومن خلالها تجلى أسلوب الكتابة الدعائية لأدباء المرحلة الأولى للاستعمار، الذي يتخذ من وصف طبيعة الجزائر الخلافة وسيلة فعالة لاستقطاب فضول الأوروبيين.

شد لحظةً تغيّر وجه المدينة وانقسامها إلى مدينة عربية، القسبة معقل الإنكشارية ثم الزواف (الزواوة)، وأخرى فرنسية ذات طراز أوروبي في الأسفل عند ضاحية الآغا. تغييرات مدمّرة مست المواقع الاستراتيجية القديمة، من أجل تهيئة المستعمرة للمستوطنين الجدد، تماشياً مع السياسة الاستعمارية. فهدمت فرنسا الجنيّة وجعلت من قصر باشواتها إقامة لحكامها. حطمت المعتقلات، وأصلحت الحصون. استولت على موقع البحرية ووسعت الميناء. حاولت إيجاد صيغة إدماجية لتشويه الأديان ومزج الأجناس وخطط الهويات. عملت على خلق تجاور مكاني أساسه المنفعة الاقتصادية البحتة لتحطّم لدى الناس معنى التمسك بالهوية والشخصية، بحيث «أنشأت بين شوارع المدينة الجديدة أسواقاً وبازارات، لتكون الصناعات مركزاً للاتصال، وبنيت ساحات لتسهم في التواصل بين ساكنتها الأصليين والمستوطنين الجدد»³. أزالَت الأبواب القديمة، باب عزون وباب الوادي، وباب الجزيرة. "باب الجديد" تحول إلى باب إيسلي «كرمز نهائي للنصر والاستحواذ»⁴ الفرنسي على مدينة الجزائر. بعد عشر سنوات من الاحتلال، أضحت المدينة القديمة معزولة انفلتت من مشاريع التغيير، فنجت بثوبها البالي من كل أثر للتدمير، محتفظة

¹ Eugène Fromentin, Une année dans le Sahel, op.cit. p.76.

² الفحوص، هي ضواحي مدينة الجزائر، والحواضر التي تقع بين المدن والجبال. يشتمل الفحص على المباني والضياع والأحواش والجنائن التي تحيط بمدينة الجزائر في العهد العثماني، وهو في ثلاث نواح، باب الوادي في الناحية الشمالية والباب الجديد في الوسط وباب عزون في الشرق. ويتشكل من ثلث مساحة إقليم الساحل.

³ Eugène Fromentin, Une année dans le Sahel, op.cit.

⁴ Ibid. p.22.

«بشوارعها الصاعدة الغربية، ذات الأدراج الغامضة التي تتجه نحو الصمت»¹ المطبق خوفاً من أن يسحقها دمار الاستعمار.

يستعمل الكاتب في سرديته الضمير (نحن)، الدال على اعتزازه بهويته الفرنسية، وتقاسمه مع المتلقي الفرنسي (الأوروبي) الهوية نفسها والغاية ذاتها، عند استعراض أعمال فرنسا في الجزائر، ويعلن تأييده الضمني للاستعمار. حركة تشييد جديدة واسعة، منها بناء حديقة التجارب بالحامة من أجل راحة المستوطنين، بينما حوَصر السكان الأصليون بين أسوار المدينة العربية العتيقة احترازاً من شرهم، وعقاباً لهم على احتراف القرصنة، فيما مضى، ضد الأوروبيين، فيقول: «لا نستطيع طمس الشعب الذي يسكنها، تركنا لهم فقط ما يأويهم، يعني، الحي الذي رفعه القرصنة»². لمَح الكاتب، هنا، للسياسة الإقصائية التي اتبعتها فرنسا في التعامل مع الجزائريين، وكشَفَ عن نظرة استهزائية بالقصبة بوصفها مدينة القرصنة.

إن انشطار مدينة الجزائر إلى شطرين متباينين في العهد الاستعماري لدليل على تمسك العرب بمبدأ رفض الانصهار مع الغربيين، ورفض الغربيين الاندماج مع العرب. كلتا الطائفتين تحاول الحفاظ على شخصيتها، وتخشى الذوبان في الآخر والاضمحلال الهوياتي. كان الحل الوحيد للتواصل بين الأعراق المتعددة، هو استعمال لغة مخترعة دولية وهجينة، تسمى صبير³*. وكانت "الباب الجديدة" الحد الفاصل بين المدينتين المختلفتين في كل شيء. يقسم السارد/فرومنتان الأوروبيين، الزوار والغزاة بين راغب في الاستقرار في الجزائر، ومحرّض على الفرار. وهو مستسلم «لسيطرة الأحاسيس اللطيفة والماكرة بشكل غير عادي»⁴، وعبر ديناميكية الحوار يظهر التمسك الشديد بالمكان؛ فيرى، على لسان صديق له، أن «الشرق، سرير من الراحة مريح جداً، حيث

¹ Eugène Fromentin, Une année dans le Sahel, op.cit. p.28.

² Ibid. p.22.

³* صبير، أصلها إسباني من كلمة saber، وبالفرنسية savoir. لهجة إفريقية، كانت تستعمل بمدن الجزائر في العهد التركي بين المسلمين والمسيحيين، وهي مزيج من الفرنسية والإسبانية والإيطالية.

⁴ Une année dans le Sahel, ibid. p.99.

نتمدد، حيث نكون بخير، حيث لا نشعر بالملل أبداً لأننا ننعم فيه، حيث نعتقد أننا نفكر، حيث ننام؛ العديد ممن لم يعد لهم وجود منذ وقت طويل يبدو كأنهم يعيشون»¹؛ فلا يصلح أن يعيش فيه إلا الكسالى الخاملون أمثال الشرقيين، الذين يتشبهون بالموتى في القبور. فهم ينفرون من العمل والجد والنشاط، ويركنون إلى الكسل والجمود واللهو، ومن يبحث مثلهم من الأوروبيين عن مكان للاستجمام.

يدعم فرومنتان فكرة سلبية الشرقي الخامل المتعمّم بما لا يستحق، وإيجابية الغربي الجدير بالتفوق واستحقاق هذه النعم. لذا عمل الكاتب بنصيحة صديقه، فلم يعد إلى زيارة الجزائر بعد هذه الدعاية للاستعمار، إذ سبق أن طمأن صديقه في مستهل مراسلاته أنه سيعود إلى بلاده بعد أن يؤدي خدمة جليلة لوطنه ويفيد نفسه وفنه، مؤكداً أن الجزائر ليست بلد اللوطوفاجيين Iotophages²، ولم يأت إليها ليأكل فاكهة النسيان "نسيان الوطن"؛ بل جاء من أجل الدفاع عن مصالح فرنسا وشرفها في الشرق. فشأنه شأن من زار الجزائر من الأدياء الفرنسيين الذين دفعتهم المصالح العليا لبلدهم إلى تأييد سياسة الاستعمار، وكلهم غادروا دون رجعة بعد أداء مهامهم كدعاة مناصرين للاستيطان الفرنسي في الجزائر.

وبناءً على ذلك، على دعوة الحكومة الاستعمارية، جاء كزافييه مارميه Xavier Marmier إلى الجزائر في 1846، ليشارك في مساندة المشروع الإمبراطوري الفرنسي. سجل انطباعاته ونشرها في مذكرات سماها "رسائل عن الجزائر" عام 1847. دفعه الفضول إلى زيارة هذا البلد الواقع في الشمال الإفريقي ليرى قوة وعنف العرق الشرقي، والمشاهد الفخمة واللوحات الضاحكة التي سمع عنها في الخطابات الغربية عن أرض الجزائر، وبصفة خاصة «نضال عبقرية أوروبا الاجتماعية ضد قبائل الشرق المغامرة، وكفاح قوانين المحبة والإنسانية الطويل للإنجيل ضد دين السيف،

¹ Eugène Fromentin, Une année dans le Sahel, op.cit.

² اللوطوفاجيون: قوم سكنوا جزيرة النسيان قرب تونس، كانوا يأكلون نبات اللوتس المحفز للنسيان، تحدث عنهم الرحالة اليوناني هيروتس، وورد ذكرهم في أوديسة هوميروس في قصة أوليس.

الذي أعلنه محمد»¹. وقد غمرته البهجة، وهو يتأمل من ساحل البهجة، عاصمة الجزائر، التي كانت مشتتة للقراصنة وقد دانت أخيرا لمجد فرنسا العسكري.

لم تكن إقامة الأخوين إدمون وجول دو غونكور طويلة في الجزائر. نُشر خطاب هذه الرحلة في مذكرات دو غونكور كعمل ثنائي، وسم "صفحات مستعادة"²، بعنوان "مدينة الجزائر، ملاحظات بقلم رصاص Notes au crayon"³*. تستهل هذه الصفحات، بانطباع أولي، لمنظر خارجي، مرتكز على الأماكن المفتوحة، يحدد فضاء مدينة الجزائر الساحلية. وبين أسوار المدينة العربية تبرز تفاصيل الرحلة البانورامية من خلال مظاهر تردي الحياة الاجتماعية والاقتصادية للسكان، على شكل محطات سريعة، وصف حالة الفقر المتفشية بين الناس، فقراء يعملون في ظروف فوضوية سيئة للغاية في سوق عربية لتجارة البرنوس، بعضهم يعرض خرقا بالية، وبعضهم يصلح أحذية. أحياء المدينة بأثمة، جمال محملة بأثقال بركت في الشارع، وأناس في أثواب محلية ببرانيس متسخة، ومتسكعين يلفون حشدا من أغطية صُفر مرقعة⁴.

يُلاحظ اهتمام جلي بوصف براعة هندسة البيوت العربية، بطريقة مفصلة في القصبة العليا بمدينة الجزائر ووصف حركة السكان. تتميز هذه المدينة «بأزقة ذات درج حجرية تُغرق القدمين، وترتفع أمام المارين؛ منازل بيض مطلية بالجير، مشدودة بعوارض خشبية من الشارع، يتم القفز على غابة من دعامات تلحم السطوح بعضها ببعض، لا يتخللها سوى بضعة أشعة. وعيون ماء لطيفة بأعمدة صغيرة خفيفة ذات عمق فسيفسائي»⁵.

¹- Xavier Marmier, *Lettres sur l'Algérie*, op.cit. p. xxxvii.

²- Edmond et Jules de Goncourt, *Pages retrouvées*, in *Journal*, Fasquelle-Flammarion, s.d.(1935), t.II. Pp. 134-135 – le 23 novembre 1863. p.261.

³* دامت رحلة الأخوين تقريبا شهرا، كانت، ببساطة، زيارة عمل ودعاية إعلامية أكثر منها رحلة سياحية أو ثقافية. ولم تتعد هذه الزيارة القصيرة خريف 1849 منطقة الساحل. نشرت هذه المذكرات على شكل مقالات في أعداد جريدة ليكلار L'Eclair 31 جانفي، 14 فيفري، 6 مارس، 6 ماي 1852.

⁴- Voir: Edmond et Jules de Goncourt, *Pages retrouvées*, op.cit. Pp.275-277.

⁵- *Pages retrouvées*, ibid. p.270.

كان الحديث عن سعي فرنسا لإرساء دعائم العلم والمعرفة في الجزائر المستعمرة في سياق ذكر مراكز ومؤسسات تنويرية، هدفا بارزا لإظهار حرصها على القيام بنشر ثقافة الحضارة الغربية. وصف أناقة وفخامة مبنى المكتبة الذي كان قصرا موريسكيا¹* في حي اللوطوفاجيين؛ وهو واحد من المباني الجميلة التي تمثل عبقرية المهندس الموريسكي. خصص لمطالعة الأشعار اللاتينية، والتاريخ الإفريقي الطبيعي وبقايا آثار رومانية، جعله الفرنسيون متحفا للتعريف بالثقافة اللاتينية والعهد الروماني في الجزائر.

في باب الوادي يصف الحمام العربي التقليدي الذي اكتشفه الفرنسيون عن قرب، وسخروا من سوء خدمات الحمام الأوروبي، الذي يفتقر إلى المواد التي تشتهر بها الحمامات الشرقية. ومن الأماكن المغلقة التي استحقت الاهتمام المسجد الكبير باعتباره قطبا دينيا ومركزا للعبادة عند المسلمين يختلف في هندسته عن الكنيسة؛ لذا استدعى وصفا دقيقا وتأملا طويلا في شكل بنائه، وبياض لونه، وتنوع أثاثه الجميل الموزع في أركانه، وأنواع الحوائر المتعددة الألوان والزرابي الفخمة المبتوثة.

أصدر فايديو²** دراسة موسومة "مدينة الجزائر في 1862. تطبع مذكراته هذه حشرة كبيرة ممزوجة بإعجاب بعد إلقاء نظرة عامة على المدينة، لاحظ أنها لا تزال، على الرغم من الخراب الذي طالها على يد الاستعمار، مدينة ساحرة، فعبر عن أمله في أن تحافظ على هذه الميزة التي

¹* تحول قصر مصطفى باشا الذي بني عام 1779 في العهد الفرنسي إلى مكتبة ومتحف عام 1848، وأصبح متحفا للزخرفة والمنمنمات منذ 2007.

²** أقام أرنست فايديو Ernest Feydeau، أحد أتباع المدرسة الوصفية والواقعية، في مدينة الجزائر، خمسة أشهر، من 16 جوان إلى 30 نوفمبر 1860، بعد تسهيلات قدمتها له السلطة الفرنسية لإنجاز مهمته الرسمية بصفته عالم آثار، ليتخذ من الكتابة الدعائية وسيلة لتأييد نظام نابليون الثالث الاستعماري. كتبها على طريقة فرومندان، وتجدر الإشارة إلى أن صديقه تيوفيل غوتيه قد نشر أيضا مذكراته عن الجزائر في السنة نفسها.

تجعلها تُعشق فترة طويلة، وعن ألمه على ما حدث لها من أضرار تؤذي نظر مهتم بالحضارات القديمة وثقافتها، محملا الأوروبيين أوزار تلك الهمجية.

أجبره سحر هذه المدينة البيضاء على أن يبدع لها صورا فنية من التشبيهات المستحسنة لتقدم لأستاذه "سانت بيف"؛ الأديب الفضولي، لمحة عن هوية مدينة الجزائر الشرقية. يشبه بنيانها وما يحيط بها من مناظر الطبيعة الرائعة «بمثلث أبيض ينتصب على قاعدته ويتكى على تلال بنية»¹. يصف موقع وهندسة مدينة الجزائر التي تشمخر بلونها الصافي وشكلها المدرج، رغم المنافسة العنيدة من البيوت الفرنسية الحديثة في الجهة السفلى على طول شريط الميناء. ويحدد أربع علامات جوهرية لهذا الجمال الطبيعي الباهر الذي انفردت به هذه المدينة البربرية القديمة، هي «البحر ذو اللون الأزرق الغامق، المائل إلى السواد، والمدينة من اللون الأبيض كالحليب، والجبال كلها متدلّية مثل أعجاز الأسود التي تتدفأ تحت أشعة الشمس، والسماء عبارة عن مظلة من الحرير الناعم يلمع بألوان أكثر نعومة من الفيروز»².

يلتقت السارد إلى عيوب البناء في المدينة العربية، بذكر بعض الاختلالات والخروقات كضيق البيوت وشقوقها البارزة، وعدم انتظام دروج شوارعها، لكن هذه العيوب يخفيها ضياء الليل عن العيان. وهي بعض سمات الجمال الغرائبي الذي يبحث عنه السائح الأوروبي، في مدينة يرى الكاتب أنها ليس لها مثل، وأن شوارعها تستحق الزيارة، وأحياءها الموريسكية الغريبة متاهات مخيفة، ليجد نفسه تمتلئ فرحا، إذ هو في قلب الشرق يحقق حلم الطفولة.

يشرح لأستاذه سانت بيف، فرادة جمال منازلها ذات النوافذ الصغيرة جدا أو الخالية من النوافذ؛ وجدرانها العالية، وأبوابها المتينة والمؤصدة بإحكام، ويكتشف أزقتها الضيقة المظلمة المليئة بالحصى، ومنعرجاتها وضيق ممراتها، والعطور الشرقية كالمسك والتبغ والموكا والياسمين المنبعثة

¹ Voir : Ernest Feydeau, Alger, Michel Lévy Frères, Librairie-Editeurs, Paris, 1862. p.1.

Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

Alger, ibid. p.3.

-1

-2

من كل بناياتها البسيطة الغربية، وبعض البيوت الأنيقة والفاخرة التي كان يملكها كبار الشخصيات الحاكمة. أبدى استغرابه من إقدام السلطة الاستعمارية إلى نسف الموروث الثقافي الشرقي من أجل إنشاء مدينة فرنسية للأوروبيين. و«لسوء الحظ، أدت ضرورات تركيب سكان جدد، والتي لم تستطع ثني عاداتها إلى عادات السكان الأصليين، إلى إزالة حي الميناء بأكمله، وتم التضحية بروائع الفن المتراكمة في الجزء الأدنى من المدينة بلا رحمة»¹. يستخلص السارد أن الجزائر، بعد مرور أكثر من ربع قرن على احتلالها العسكري، ظلت مستعصية على مشروع الإدماج الذي سعى إليه الفرنسيون بكل عزم وقوة، ويؤكد أنها لا يمكن أبدا أن تصبح فرنسية بحكم اختلاف الثقافات والقيم في الأمتين اختلافا جذريا. وراح يتساءل عن جدوى الدمار الشامل الذي لحق المواقع الاستراتيجية التي ترمز إلى عظمة المدينة ووزنها التاريخي. و«بصفته عالم آثار ومحرر في صحيفة "l'Artiste" [الفنان]، احتج على تهور هذه المشاريع، التي يمكن أن تدمر سحر مدينة الجزائر»². ودعا، بإلحاح، إلى ضرورة الحفاظ على ما سماه الطابع الشرقي للمدينة، والتوقف عن تخريب مبانيها الأنيقة التي تشبه زخرفتها أرابيسك قصر الحمراء، وتغيير ملامحها الساحرة بذوقها الإسلامي ذي الطراز المتنوع والأصيل.

فسيفساء من الجمال البربري والأندلسي والتركي، تعكس بجدارة «ثراء خيال الموريسكيين»³ وذكائهم الهندسي الفريد. وتأسيسا على هذا التعارض الذي لمح على محيا مدينة الجزائر في ظل الاستعمار، ينتقد الكتاب الأوروبيين الذين يقصرون أعمالهم عن الجزائر على دراسة عادات السكان وفق منظور حلمي محلق فقط، وهو يقصد فرومنتان على وجه الخصوص. بينما يحرص هو على إبراز راهن المستعمرة، ورصد المشاكل الاجتماعية الكثيرة التي عانى منها الأهالي لتسهيل عملية اندماجهم كمواطنين فرنسيين من الدرجة الثانية.

Ernest Feydeau, Alger, op.cit. p.22.

Pierre Martino, l'œuvre Algérienne D'Ernest Feydeau, Revue africaine, 3e Trimestre, N° 274, 1909. p.163.

Ernest Feydeau, Alger, op.cit. p.35.

-1

-2

-3

ولعل أهم المسائل التي شغلت بال الناس كانت الأحوال الاقتصادية ومستقبل المستعمرة تحت حكم نابليون الثالث. وفي هذا الصدد عدّ السارد هذه التساؤلات من قبيل حرية التعبير الممنوحة للعوام؛ فأثى على التضحيات الجبارة التي بذلتها السلطة الاستعمارية من أجل الاحتفاظ بالجزائر، وعدد الإنجازات المحققة في مدة قصيرة، وتبرير تأخر بعض برامج التنمية والإصلاح، والتعلل ببعد المسافة والحاجة إلى المزيد من المال والزمن لإنجازها. وقد سبّب بطء وتيرة الاقتصاد الشديد، اختلالات اجتماعية في الأماكن التي تكتظ بالأهالي، والمستوطنين من جنسيات مختلفة؛ فسادت مشاهد البؤس وفساد الأخلاق في الشوارع الموبوءة، نساء مستهترات، وتعاطي المسكرات، وبذاءة الأطفال وقلة الحياء، والأغاني الخليعة، وتسكع المتشردين والسكران، ومعاناة الفئة الفقيرة.

في نهاية القرن التاسع عشر وجد أندري جيد شكل مدينة الجزائر المستعمرة وقد غيرت عباؤها البيضاء البهية، وتغيّر منظرها الشرقي الأصيل بشكل كبير؛ فكتب في سيرته الذاتية "أمينتاس" عام 1899 متأسفاً: «واحسرتاه! واحسرتاه! الجزائر البيضاء أصبحت غير موجودة»¹. صار كل شيء فيها يوحي بالكآبة والبؤس، رغم روعة الساحل الطبيعي في الميناء. انهارت المدينة بعد ستين عاماً من الحكم الاستعماري، فعلامات الفقر والجوع، والاحتياج والحزن بادية على الأطفال الصغار وحتى الكبار. يشعر الكاتب بالتمزق من مظاهر الإهمال والمعاناة التي يعيشها الجزائريون مستسلمين للقهر في أوج الاحتلال، الذي وعدهم، عندما حلّ واستقر، بالتنمية والتمدين، ليستمر العذاب وسط ركام «المزيلة، والثلوج تتحول إلى أوحال والقمامة المتعفنة والسكن في أكواخ مهينة...»².

والمقهى العربي أو الموريسكي ببساطته في مدينة الجزائر، هو أحد الأمكنة التي انجذب إليه أندري جيد، وفيه ذاق طعم القهوة العربية ونشوة الحشيش والاسترخاء العقلي، وجرب العقاقير التقليدية التي تدفع العربي إلى الهروب من الواقع الرهيب الذي صنعه الاستعمار، والتخليق في

¹ - André Gide, Amyntas, Édition du groupe «Ebooks libres et gratuits», Livres électroniques, Juillet 2008. p.78.
² - Amyntas, ibid. Pp. 72-78.

فضاء الحلم اللانهائي. ويتبدى، في هذا النص، التعارض الشديد بين جمال المكان وبؤس الإنسان الجزائري الساكن مدينة الجزائر المستعمرة. و«على هذه الأرض من إفريقيا، الغنية جدا والدافئة»¹ كان حبل الحنين يشده إلى هذا البلد الغني والدافئ، فكتب عن ولعه الشديد بالجزائر قائلاً: «ملكني هاجس الرغبة في هذا البلد والذي، في كل عام، ينبعث مني في الخريف، ومتمنيا لي في الأخير الشفاء، خطت لمشروع تأليف كتاب عن إفريقيا[...] كان من الواجب إثارة أخطر المسائل الاقتصادية والعرقية والجغرافية. من المؤكد أنها شغلتنني. حملتُ دفاتر الملاحظات التي أردتُ أن أملأها بوثائق دقيقة وإحصائيات...»².

كانت الجزائر تسمى إفريقيا، وظلت تسمية "الجزائر والجزائريين" يشوبها غموض والتباس كبيران عند معظم المثقفين الفرنسيين من بداية الاحتلال إلى نهاية القرن التاسع عشر. انحصرت عند حدود مدينة الجزائر، وكانت تسمى دار السلطان في العهد العثماني، واقتصرت على سكانها وبعض الضواحي القريبة. فما هو موباسان يرى «أن الجزائريين، وهم سكان مدينة الجزائر الحقيقيون، لا يعرفون شيئاً عن بلدهم سوى سهل المتيجة [...] يتحدثون عن الأغواط وبوسعادة وسعيدة كأنها تقع في أقصى العالم»³. أما بقية المناطق فقد كانت تسمى باسمها أو يستعمل لفظ أرض إفريقيا عند وصفها. يستعمل غوتيه كلمة "جزائريين" لوصف سكان مدينة الجزائر فقط، ويفرق بينهم وبين سكان الأقاليم الأخرى في الإيالة: «إن الجزائريين هم أكثر مهارة من كل فناني التطريز في الإيالة. يقومون، في هذا النوع، بأشياء مذهلة حقاً»⁴.

وهذا جدول لمدينة الجزائر خلال القرن التاسع عشر، يوضح أهم الخصائص التي اتفق عليها الكتاب الرحالون، والفروق الشاسعة بين قسميها الرئيسيين العلوي والسفلي.

Amyntas. p.91.

Ibid.

Au Soleil, op.cit. p.36.

Loin de Paris, op.cit. p.48.

-1

-2

-3

-4

مدينة الجزائر	خصائصها
المدينة العربية	سمها البهجة والبيضاء، قصبة تركية قديمة أو ثكنة، تقع في القسم الأعلى بعيدة عن البحر، يسكنها الأهالي بمختلف الطوائف حضر وموريسكيون وبرانيون ويهود وزنوج وأوروبيون.. بناياتها بيض مدهونة بالجير من ثلاثة طوابق على الأكثر وفناء في الداخل، بلا نوافذ من الخارج، أزقة ضيقة مظلمة ومهترئة، تنتسح لشخص واحد أو حيوان. دكاكين صغيرة ومقاه بسيطة وحمامات ومواخير سرية، وصناعات يدوية خفيفة. أزيحت أبوابها وحولت حصونها وقصور حكامها لتوسيع المدينة الفرنسية.
المدينة الأوروبية	مدينة فرنسية حديثة قامت على أنقاض المنازل العربية، تقع في القسم الأسفل المحاذي للبحر، يسكنها الغزاة الفرنسيون والمستوطنون الأوروبيون. مبانيها شاهقة مفتوحة بالنوافذ على الهواء والشمس، ساحات واسعة وشوارع معبدة تسيير عليها عربات. عمارات عالية ومحلات كبيرة ومقاه أنيقة وفنادق فخمة وحدائق جميلة.

جدول رقم (2)

2.1.2- ضواحي إقليم الجزائر: سهول المتيجة وما جاورها

وصف غوتيه البلدية (عاصمة السهل) عام 1845 بأنها «مدينة صغيرة فاتنة»¹، تشبه مدينة تيبور الرومانية القديمة (Tivoli)، في حدائقها، وفي طبيعتها الجبلية المخضرة ومياهها الجارية. وفي هذه المدينة يروي السارد قصة نشوة الكيف الشرقي، وكيف قضى أياما لا تنسى في «حالة ساحرة حيث ينام المرء بعيون مفتوحة، ممغنطة بمداعبات الهواء المائعة، وفي انسجام تام مع البيئة المحيطة [به]»، بحيث لا يشعر المرء بأنه حيّ أكثر من نبات الصبار أو زهر الدفلى»²، وساعات خلوة بين ظلال شجر البرتقال البليدي، والجلوس الممتع في المقهى.

Loin de Paris. p.78.

Ibid.

¹

²

استهل أ. دوما وصفه للبليدة بعبارة مشهورة للمدينة كان الناس يتناقلونها قبل استيلاء الفرنسيين عليها، تقول: «يسموني بُلَيْدَة (بلدة صغيرة)، وأنا أسمي نفسي وُرَيْدَة (وردة صغيرة)»¹. وجدها لدى وصوله في 31 ديسمبر 1846 مبنية على الطراز الغربي، ويرى أنه من الصعب تكوين فكرة عن البليدة القديمة كيف كانت ببيوتها العربية مبنية بسطوح، مغمورة بسياج الصبار وجنائن البرتقال. ومع ذلك، يضيف، «لم نستطع أن نغير موقعها الساحر، ولم نستطع أن نغير نكهة الأزمنة القديمة المرة، التي تجعل من البليدة ساحرة، إنها على أي حال جوهرة»². سرد الكاتب ظروف استقباله الجيدة مع الوفد المرافق له، من قبل ضابط المنطقة بورباكي Bourbaki، على مائدة مجهزة للضيوف بألوان الطعام على الطريقتين العربية والفرنسية، في بيت عربيّ مخصص للأجانب يتوفر على شروط الرفاهية المعروفة في الثقافة الأوروبية. وهذا تصوير لجانب من البذخ الذي عاشه الفرنسيون باستيلائهم على أملاك الجزائريين، مما خلق جو الصراع الدائم بين الأهالي والوافدين الجدد (المستوطنين)، ومعارك شرسة تنتهي بقتلى وجرحى في صفوف الطرفين.

يلخص فرومنتان انطباعه عن البليدة بهذه الكلمات: «كم يبدو كل شيء غير عادي من مسافة بعيدة، وكم يظهر المجهول، عندما تعيش فيه، بسيطاً! أه! البليدة، إفريقيا! عبور فرنسا، وعبور البحر، وهؤلاء البدو، والأطلس، والأشخاص الذين يمشون عراة ولديهم عدة زوجات، وأناس معادون، وشمس حارة، وسماء زرقاء أبدية!»³. كانت البليدة، قبل الفرنسيين، مدينة جميلة معطرة بروائح الورود والياسمين. أصبحت كل المغريات فيها مجرد ذكرى عزيزة بعد عملية جراحية غير مناسبة أجراها الفرنسيون دون إذنها، أدت إلى تشويه قسماات وجهها العربي. إنها، حسب الكاتب، تشبه في سماتها الحديثة امرأة موريسكية تخلت عن شخصيتها، ففقدت قيمها السامية وقيمتها

Le Véloce, op.cit. p.472.

Le Véloce, ibid. p.474.

Lettres de jeunesse, op.cit. p.263.

-1

-2

-3

الجمالية. يراها تتجول في المدينة، كانت جميلة بزيتها الأصلي ولم تعد كذلك. «تلبس على الطريقة الفرنسية، تضع قبعة من الذوق الرديء، وترتدي فستانا سيء التصميم، وقفازين باليين»¹.

لا يكثر لحالة التغيير التي دمرت مظهرها العربي، ولا لحزن سكانها العميق لهذا التدمير الفظيع لمعالم الشرق، بل يبشر المستوطنين بمستقبل باهر، ويرى في عملية التدمير بداية عهد حضاري جديد للمدينة القديمة هو العهد الفرنسي. فالبلدية سوف تخلع جلدواها الواهي لامحالة، و«سوف تغدو جميلة جدا، وسوف تُنسى المدينة الجديدة القديمة يوم يفرض من كانوا يتأسفون عليها»². ستزدهر فيها مقومات الصناعة الأوروبية وتنهض الزراعة، وبذلك سيقضي مستقبلها الزاهر على ماضيها الداخر؛ وسوف تتلاشى رموز حضارة الشرق. يتطلع إلى هذا المستقبل الواعد بحماس، تائها وسط هذه المدينة الواقعة على قدم تتأرجح بين عبق الماضي (الشرقي) مودعة أصالتها في صمت حزين، وتسير على خط الحاضر (الغربي) بخطوات حثيثة. يتجول بين مظاهرها الآلية إلى الزوال، ويتأمل تلك الصامدة في وجه الاحتلال، مثل قبر الرومية؛ وينظر إلى شعبها الغريب في أرضه نظرة استهزاء.

تمثلت في ذهنه صورة البلدة في ثيابها الفردوسية السالفة، فأسهب في وصف جمالها المتصرم وصفا تخييليا مدهشا، مؤثنا بأناقة «بيوتها البيض مقابلة القليعة المقدسة كصورة سابقة لمباهج الفردوس المتاحة والموعودة، ذات أشجار دائمة الاخضرار، وشوارع مفروشة بأوراق ظليلة جدا أكثر من أزقة الغابات، ومقاه كبيرة مليئة بالموسيقى، وبيوت صغيرة مأهولة باللذات الحسيّة، ومياه في كل مكان، وأمواه رائعة، ثم ليختم بالروائح، رفاه هذا الشعب المغربي، البخار المستمر لأشجار البرتقال المزهرة، جعل الجو فيها مفعما بالعطر، يصنعون منها خلاصات العطور، ويبيعون الجواهر»³.

Une année dans le Sahel, op.cit. p.151.

Ibid.

Ibid. p.150.

-1

-2

-3

ينقل فرومنتان مشاهد جميلة في بئر مراد راييس وبير خادم، قبل وصوله إلى البليدة الواقعة بين الساحل وجبال مليانة ومنحدرات الأطلس التلي ومستنقع وادي العلايق. ملامح الازدهار في بوفاريك بادية في شفاء المصابين بالأمراض والحمى الإفريقية القاتلة بسبب المياه الراكدة. يؤكد ضرورة بقاء فرنسا طويلا في الجزائر للقضاء على أسباب التخلف، ويرى أن «الاستحواذ على هذه البلاد اقتضى اندلاع حرب منذ عشر سنين، لكن المناخ القاتل أكثر من الحرب، يحتاج إلى عشرين سنة أخرى من النضال المستميت»¹. لاحظ الظروف الاجتماعية الصعبة التي تسببت في حرمان الشعب الجزائري من التقدم والازدهار، أهمها إهمال تعليم الأطفال الصغار.

في البليدة، استقبله صديقه لويس فانداي Louis Vandell، الموسوعي والجغرافي الذي كرس وقته في البحث العلمي لاكتشاف طبيعة الجزائر والتفتيش عن تاريخها القديم والتقيب عن آثار الرومان، لتتخذ ذريعة لتبرير الوجود الفرنسي، كامتداد تاريخي وطبيعي لإمبراطورية روما المسيحية. فانداي نموذج لعلماء الغرب الأنثروبولوجيين الذين أفنوا أعمارهم في دراسة أحوال الجزائر ووضعوا علمهم تحت تصرف الإدارة الاستعمارية، مثلما سخر فرومنتان وغيره من الأدباء أدبهم في خدمة الاستعمار ليسهل انقياد الشعب الجزائري. جعله السارد نافذة على تاريخ الجزائر، يطل منها على سلسلة انتصارات الغرب الأوروبي المستمرة على الشرق قديما وحديثا، وانتصار الجيش الفرنسي ضد ثورات الشعب الجزائري الرافض سياسة الهيمنة. عاش بين العرب مسالما، خادما للمستعمر، وشاهد عيان على المقاومة الشعبية ضد الاستعمار.

بين تلال البليدة وسهول المتيجة يُمارس الضباط هواية الصيد. يتدرب عليها فرق جند إفريقيا العسكرية في المستعمرات لاقتناص المتمردين. يُشبه شعور الصياد بالمتعة في ممارسة الصيد، بالمتعة التي يشعر بها الجندي الفرنسي في الحرب لقتل الآخرين بدم بارد. فلا فرق بين التدرب على قتل الحيوانات، وقتل الأهالي في نظر الفرنسي. وفي بحيرة حلولة، يصف فرومنتان امتداد

Une année dans le Sahel, op.cit. p.138.

1

سهولها الشاسعة دون استغلال، هذه الأرض الموات التي تركها إنسان هذا البلد عرضة لألسنة الشمس الملتهبة، قاحلة وغير مزروعة ومهملة¹. ينتقد السارد صفات اللامبالاة والإهمال عند العرب، فهم يتركون أراضيهم بورا تن تحت نار شمس أنهكت تربتها، ولا يعرفون قيمة الثروات التي تزرع بها. إنها تنتظر مستوطنا يحييها من الموت، بعزمه وإصراره على تحدي الطبيعة، وبالآلات الأوروبية المتطورة.

استهوى السارد سحر طبيعة المكان، واستولى على روحه الرقيقة الحاملة بالسلام التام على كل الأشياء التي تقابله في هذه الأرض دون أهلها، فيقول: «ليس خطئي إن كانت الطبيعة تكتسح بهذه الدرجة كل ما أكتب»². تتفعل نفس السارد الشاعرة وتتفاعل مع الفضاء الخارجي في جو حميمي، مردفا: «أعطيها هنا (في كتاباتي) أقصى ما تملكه في حياتي»³.

استقطبت منطقة الظهرة بضواحي مدينة الجزائر بسهولها المنخفضة الخصبة وجبالها الشاماهتمام كبار المسؤولين الفرنسيين والمستوطنين، وحظيت مدنها الصغيرة من مليانة وشرشال وأورليانفيل (الشلف) وتنس بزيارة الأدباء الرحالين الذين وصفوها في مذكراتهم. ذكر مارمييه أنها مدن رومانية قديمة أعيد إنشاؤها على النمط الفرنسي، فمدينة تنس الساحلية كانت عاصمة لمملكة صغيرة قبل استيلاء الأتراك عليها، ثم أعاد الماريشال بيجو بناءها على الطراز الأوروبي الحديث، قرب المدينة الرومانية القديمة "Cartenna Colonia"، فازداد سكانها من الأوروبيين من مختلف الجنسيات أضعافا. استطاع الفرنسيون تحدي كل العراقيل لتصبح المدينة الصغيرة جميلة بها مرافق ضرورية أخرجتها من التخلف والعزلة.

بني أورليانفيل مثل تنس على أنقاض مدينة رومانية قديمة، فلاتزال الأطلال على غرار كل المدن الرومانية المشيدة في الجزائر، شاهدة على قوة البنين ونظام العمران الذي يحمي المستعمرة

Une année dans le Sahel, op.cit. p.281.

Ibid.

Ibid.

-1

-2

-3

من كل عدوان محتمل. إنها ذات أهمية جغرافية قصوى، تربط بين إقليمين كبيرين الجزائر شرقا ووهران غربا. إلا أنها لازالت تعاني من نقص في الهياكل الضرورية لتكون المدينة مركزا لمنطقة الظهرة. شرشال هي الأخرى مدينة رومانية Julia-Coesarea يتمتع ساحلها بكنوز أثرية رومانية، ومناظر طبيعية ساحرة وأراض خصبة، وهندسة مميزة منذ الوجود الروماني. وما يلاحظ في وصف هذه المدن المذكورة تركيز السارد على تاريخها الروماني فقط، وإغفال قصدي لبصمات الحضارات التي تعاقبت عليها، ليصل آخر المطاف إلى ذكر محاسن الاستعمار الفرنسي في ترقيتها إلى مدن حديثة.

أراد دودي¹* التعرف إلى الجزائر، ومشاهدة «مناظر الطبيعة، والأمكنة، والحركات، والمظهر الفيزيائي، وشكل الشخوص، وهذا بالفعل ما يهمه، ربما هذا هو ما يريد أن يرى بعينه في بلد جديد مثل الجزائر»². انتقل إلى المناطق الداخلية، فزار البلدية والشلف وأقام في مليانة. وتضم مجموعة "رسالات طاحونتي 1869"، ثلاث مذكرات رحلية تسرد صورا عن الحياة اليومية في هذه المدن الصغيرة، وهي "حقول البرتقال، ومليانة، والجراد". تتحدث "حقول البرتقال" عن مدينة البلدية، وهو في باريس يتذكر دودي أشجار البرتقال التي تزدان بها سهول المتيجة شتاء وسط الهواء العليل والنقي وتحف أسوار المدينة الصغيرة، ويتمتع بمنافعها المستوطنون دون السكان الأصليين. تدور الثانية في مليانة وتصف الحياة اليومية الصعبة التي يعيشها الأهالي دون بصيص أمل يتعلقون به للخروج من مأزق الفقر المدقع والذل: «في إحدى الزوايا كان هناك نصف دزينة من صغار العرب، نصف عراة، يلعبون بالكويرات، ويصيحون صياحا شرسا. وهناك

¹* زار الروائي ألفونس دودي Daudet الجزائر من ديسمبر 1861 إلى فيفري 1862، وعمره واحد وعشرون عاما للاستشفاء، حسب توجيهات طبية. جاء رفقة قريبه Henry Reynaud، بعد التسهيلات التي قدمها له الدوق دو مورني Duc de Morny. تجول في العاصمة والقصبة، ثم توجه بعيدا عن الساحل، إلى البلدية، وأورليانفيل (الشلف) ومليانة. استوحى من هذه المدن "رسالات طاحونتي 1869" و"حكايات يوم الإثنين 1873" في الجنس الرحلي، و"تارتان دوتارسكون 1872" في الرواية.

² Alphonse Daudet, Lettres de mon moulin, La Bibliothèque électronique du Québec, Jean-Yves Dupuis Collection À tous les vents, Volume 190 : version 1.01, Édition de référence : Paris, G. Charpentier, 1887. p.18.

عجوز يهودي يرتدي ثيابا رثة...»¹. وتكشف لنا هذه المذكرة «عن نوع المجتمع الهجين الذي أوجده الاستعمار في المدن الجزائرية الصغيرة، من مختلف الجنسيات الأوروبية[...] بالإضافة إلى السكان الأصليين من عرب وأتراك ويهود، وكيف تتصارع فيه المصالح، والأطماع، والأهواء وتنمو فيه مختلف الآفات الاجتماعية، وكل أنواع الاستغلال والاحتلال، والنشاطات الطفيلية»². وفي الثالثة، يقف دودي مع المستوطنين في كفاحهم مع قسوة الطبيعة وثورة الأهالي، ويبرز سعيهم المضني في سبيل خدمة الأراضي المغتصبة من الأهالي، منحت لهم لقاء استقرارهم في الجزائر، لتمكين الاستعمار من الاستمرار في التوسع والاستيطان: «كنت أفكر في نفسي أنه منذ عشرين عاما، حين نزل هذا الرجل الشجاع وزوجته في هذا السهل الصغير من الساحل، لم يجدا سوى "براقة" حارس قبيلة، وأرض مهملة، تنتفش فيها أشجار نخل قمينة وعوسج، فكان عليهما أن ينشأ كل شيء وبينيا كل شيء. وفي كل لحظة يثور فيها العرب كان يتحتم عليهما أن يحملوا البندقية...»³. لم يهتم الكاتب بوضعية السكان الأصليين المحرومين، ولكن يبرر مسألة استعمال المستوطنين السلاح ضد الأهالي، دفاعا عن الأرض المهملة التي اغتصبوها بالقوة. حولها إلى مزارع، واستبدلوا النخل القميء الذي يرمز إلى الشرق بأشجار مثمرة تنمو جنوب أوروبا. فكان التغيير جوهريا مسّ الإنسان وقيمه، والأرض ونباتها.

أما المجموعة الثانية "حكايات يوم الإثنين 1873"، فتحتوي على مذكرتين رحليتين من وحي مليانة والشلف هما، "محطة سفر"⁴ * Le caravansérail، و"موسوم 15 أوت". في الأولى يعبر دودي عن شعوره بالإحباط عندما رأى لأول مرة المحطة شبيهة بفندق ينزل فيه تجار القوافل في الجزائر، فقد توهمه قصرا من قصور ألف ليلة وليلة في الشرق. يسقط التصور الجميل الذي رسخ

¹ - أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، دار التنوير، الجزائر، 2013، ص 55.

² - أحمد منور، م ن، ص 8.

³ - أحمد منور، م ن، ص 72.

⁴ * ترجمة الكلمة لأحمد منور، وربما أخذت من عبارة Journal de voyage، الواردة في مقدمة فرومنتان لصيف في الصحراء.

في ذهنه عن هذا الخان الشرقي المتخيل قبل رؤيته، ويلح على ما سماه «خليط الشرق والغرب، هذه الباقية من الجزائر الحديثة»¹، التي تجمع شتى الأعراف والأعراق. بينما تتناول الثانية تيمة تكريم الدولة الفرنسية عملاءها من الأهالي الذين آثروا الاصطفاف مع الاستعمار والتزلف له. بطل القصة سي سليمان آغا قرية من قرى الشلف، طال انتظاره لوسام الصليب إثر خصامه مع رئيس المكتب العربي بسبب لعبة الورق، ولكم كانت فرحته شديدة عندما آتاه الخبر السار يوم 15 أوت من الإمبراطور نابليون الثالث. تسلمه من الحاكم العام ثم أعاد الوسام بعد أيام ليكون من نصيب قائد بني زقروق، فسافر إلى باريس للقاء الإمبراطور أملاً في استرجاعه، ولم يعد إلى أهله وقريته الذين تأثروا لمصابه، فانعكس ذلك على حياتهم. انتقد السارد هوس شيوخ العرب بهذا الوسام الذي حرصوا على تقلده تشبهاً بالمستعمرين، حين وجد «القرية حزينه أشد الحزن، أو كأنها فقدت الحياة تحت وطأة قلق ممضّ. وفي الحقول المحيطة بها كانت الغلة تبدو مهملة، فالقمح والشعير الذي كان قد دخل المخزن في أماكن أخرى ما يزال [...] يرقد في الحقول، وقد أوشك أن يتهراً في مكانه»².

من مدينة الجزائر إلى وهران يصف موباسان محطات محبطة من نافذة القطار، اللحم الإفريقي المائل بسحره في ذهنه سراب وعَدَم. اختفت سهول المتيجة الخصبة سريعاً لتظهر مساحة واسعة من أرض الجزائر الحقيقية، قاحلة عارية من النباتات والحياة. قد احمرت تربتها من الجفاف، فأصبحت كالعقيم من أثر الأشعة الحارقة. وادي الشلف المصدر المائي المهم في المنطقة بطوله وعرضه بين الجبال لم يبق في قاعه سوى أحجاره: «هذا الوادي الذي يمر عبره أخدود النهر القدر من دون ماء، شربته إلى الوحل نيران السماء. هذه المرة هزم كل شيء، التهم كل شيء، وسحق، وحرق، هذا الهواء الذي استبدل بنار، قد ملأت الأفق»³.

¹ Alphonse Daudet, *Lettres de mon moulin*, op.cit. p.187.

² أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، وسام الآغا، م س، ص 80.

³ Au Soleil, op.cit. Pp.47,48.

2.2-بايلك التيطري¹: المدية وضواحيها

توقف موباسان على جبال الأطلس التلي بين البليدة والمدية، يتأمل جغرافيا المنطقة الطبيعية معلقاً: «عندما ينظر المرء إلى الأطلس، من سهل المتيجة الضخم، يرى تقسيماً عملاقاً يقطع الجبل في اتجاه الجنوب. يبدو الأمر كما لو أن فأساً قد فتحته. وتسمى هذه الفجوة مغارة الشفة. هذا هو المكان الذي يمر فيه الطريق إلى المدية وبخاري والأغواط»². تخلت المدية، عاصمة التيطري Titteri في العهد العثماني، عن ثوبها الشرقي واكتست بدلة غربية، «بلدة صغيرة بيضاء تماماً تشبه مقاطعة فرعية في فرنسا»³ من ناحية مبانيها ذات الطراز الأوروبي. تعدّ قصر البخاري من أهم القرى العربية في الجزائر لعدة عوامل طبيعية واجتماعية وسياسية وعسكرية. موقعها خارج منطقة التل، في المنطقة الانتقالية بين المدن ذات النموذج الأوروبي والصحراء الكبرى. وتمثل صلة وصل بين عرب الساحل وعرب الصحراء، ومفرخة الثوار الذين يلتقون فيها ويراقبون الجيش الفرنسي في انتظار فرصة مواتية للهجوم. ومقل الأعراس الأولى للثورات المشتعلة ضد الاحتلال. لذلك خضعت للنظام العسكري، وغاب عنها المستوطنون باعتبارها بؤرة من بؤر التوتر بين الجيش الاستعماري والأهالي.

1.3.2-بايلك الشرق الجزائري: الإقليم القسنطيني Le Constantinois

كانت قسنطينة، عاصمة بايلك الشرق أكبر أقاليم الإيالة. احتلت سياسياً المكانة الثانية بعد مدينة الجزائر، وحافظت على مكانتها في عهد الاحتلال. حل بها تيوفيل غوتيه في 1845، وكان أول من زارها من الكتاب بعد الغزو. أذهله احتفاظها بالطابع الشرقي باعتزاز؛ كانت تقاوم بامتعاض المدنية الفرنسية الزاحفة تدريجياً، فقال عنها: «إن مدينة أحمد باي، حتى وإن دخلت تحت سيطرة الفرنسيين، لم تفقد أي شيء من طابعها العربي، فقد حافظت على شوارعها الضيقة،

¹ حدود بايلك التيطري Titteri من الجنوب بوغزول ووادي سيباو ويسر من الشمال، وامتدت جنوباً عام 1727 إلى الأغواط.

² Au Soleil, ibid. Pp.45,46.

³ Ibid. p.46.

المتداخلة ككبة خيط لا يمكن فردها، وعلى مآذنها السامقة، وبيوتها الخالية من النوافذ، وأبوابها الواطئة، ومظهرها الشرقي»¹.

ظهرت قسنطينة ذات الملامح الشرقية مظلمةً في مذكرته "رقصة الجن"، و«كشف فيها عن الفارق بين المشروع(الدعائي) والواقع»² الجمالي الذي يبحث عنه تياره البرناسي بين جدران الحضارات القديمة والميتة. اختار أن يصف باللونين الأسود والأبيض، كما أشارت الناقدة دونيز براهيمي، مناظر هذه المدينة وما تحمله من أسرار غريبة وغامضة ليلاً، «كانت الأرض والسماء تتذران بالخطر، والطبيعة تبدو معادية بشكل غامض»³. وقف مشدوها مما رأى من عجائب لا تحدث إلا في مدن الشرق المتخلف، «لأن الحضارة [الغربية] لم تنعم بعد على قسنطينة بمنجزاتها»⁴. تتجلى مظاهر التخلف في ممارسة طقوس بدائية تتعلق بالسحر والشعوذة والرقص بطريقة مقززة تحت أنغام مرعبة في زوايا داكنة لطرد الأرواح الشريرة. سرد أحداثها الخارقة للعادة في جو من الغرائبية مليء بالدهشة.

تحت عنوان فرعي "قسنطينة"، يتحدث أ. دوما عن وصوله المدينة في نهاية شهر ديسمبر عام 1846، يصف قرية الحامة بطرازها المتعارض العربي والفرنسي. انبهر بجمال هندستها الفرنسية، وقارن بين تخلفها تحت حكم باي تونس، وتطورها لما آلت إلى فرنسا، وأجاب إجابة دعائية للاستعمار الذي جاء أساساً من أجل خدمة سياسته، «...إلى تونسيين قد فشلوا. إلى فرنسيين لقد أفلحوا»⁵. يوضح شعوره إزاء المهمة التي من أجلها «جاء من باريس إلى قسنطينة ليسجل التقدم الفني الذي تحقق في مدينة سيفاكس ويوغرطة»⁶ بعد عقد ونصف من الغزو الفرنسي. يصف المدينة العربية مسجلاً انطباعاتاً سيئاً عن هندستها المركبة والمعقدة. داخل أسوارها

1- أحمد منور، رقصة الجن، م س، ص 15.

2- Théophile Gautier, Loin de Paris, présentation de Denise Brahim, op.cit. p.8.

3- أحمد منور، م س، ص 14.

4- أحمد منور، م ن، ص 17.

5- Le Véloce, op.cit. p.329.

6- Ibid.p.332.

«تمتد متاهة من البناءات غير المفهومة، والوهاد التي يبدو أنها تفتح ممرات لا تؤدي إلى أي شيء، وهيئات مداخل دون مخارج، وأشباه المنازل التي من المستحيل التمييز بين جوانبها، وتحديد الواجهات»¹.

رسم السارد المدينة ذات الوجهين المتعارضين القديم والحديث، وبحث عن تاريخها في ثنايا أطلالها باستعراض بعض الأحداث من العهد النوميدي (يوغرتة) والعثماني (أحمد باي) إلى غاية الغزو الفرنسي سنة 1837، الذي كلل بالنصر بعد صراع بين السكان والغزاة. يُظهر في هذا السرد التاريخي شجاعة الضباط الفرنسيين الكبيرة في إخضاع المنطقة، معبرا عن بهجته بالفوز المظفر لصالح فرنسا، بقوله: «كانت قسنطينة لنا»². ووصف مارميه قسنطينة بأنها مدينة الجزائر الجوية، التي بنيت على صخور ربطت جسورها بين الوديان والجبال الضخمة، ما منحها مظهرا رهيبا. ووصف قسبة المدينة وسكانها وتعدد أعراقهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية، وخلوها من الأبهة الشرقية عدا قصر الباي أحمد بشكله الموريسكي.

ونظرا لشكل بنائها المتعدد الطراز، النوميدي والروماني والعثماني والفرنسي، يرى فرومنتان أن قسنطينة تختلف عن مدن الجزائر الأخرى، فبدت له «مدينة إفريقية، وأقل شرقية من كل المدن الجزائرية»³. غاب عن قسنطينة سحر الشرق المرسوم في ذهنه، فيقول بخيبة أمل: «ليس هذا هو الشرق. المنازل، كما تعلمون، لا تحتوي على سطوح أو مآذن أو مربعات أو مثلثات، مغطاة هناك أيضًا، بعضها بالقرميد، والبعض الآخر بالنحاس»⁴. وهي من المدن الكبرى الآهلة بالسكان، «حيث يتخبط ويرتجف الساكنة القذرون بأسرهم، في أسمال، بئسين، مرهقين من الجوع والبرد؛

Dumas, Le Véloce. p.344.

Ibid. p.338.

Eugène Fromentin, Une année dans le Sahel, op.cit. p.192.

Eugène Fromentin, Lettres de jeunesse, op.cit. p.292.

-1

-2

-3

-4

ولا أبالغ. البؤس فظيع بين الأهالي، خاصة أن ثلثي ماشية الدوائر (الدوّار) هلكت بسبب نقص الغذاء والمأوى»¹.

يتفق موباسان مع فرومنتان في انطباعهما عن قسنطينة، التي تبدو بالنسبة إليهما أقل المدن شرقية. هي مدينة أوروبية بجسورها المبنية على الصخور، يجري تحتها نهر الرمال بشلالاته العجيبة، يشبه نهر الجحيم في الأساطير اليونانية. «قسنطينة، المدينة الظاهرة، قسنطينة الغربية، محروسة، بما يشبه ثعبانا يتدحرج عند قدميها، وبالرمال، نهر الرمال الرائع، نهر القصيدة التي يخيل أن دانتى حلم بها، نهر الجحيم يجري في أسفل هاوية حمراء كما لو أن الشعلات الأبدية قد أحرقتة. يصنع من مدينته جزيرة، هذا النهر الغيور والمفاجئ؛ إنه يحيط بها بهاوية رهيبة ومتعرجة، مع صخور مدهشة وغريبة، ذات جدران مستوية ومسننة»².

قسنطينة مدينة غريبة وساحرة، تشبه مدينة أسطورية من المدن المذكورة في الأسفار القديمة. يركز في وصفه على الجسر الروماني الوحيد وأسسهِ المتينة، بقي صامدا من بين الجسور الثمانية القديمة، التي زال منها ستة. هذه «المدينة، كما يقول العرب، تبدو مثل البرنوس الواسع. يسمونها بلاد الهواء، مدينة الهواء، مدينة الوادي، مدينة العواطف. تطل على الوديان الجميلة المليئة بالآثار الرومانية وقنوات المياه ذات الأقواس العملاقة المليئة بالنباتات الرائعة. تهيمن عليها مرتفعات المنصورة وسيدي مسيد»³. تصبح لدى السارد مسرحا لاسترجاع الماضي البعيد الذي يحنّ إليه. يذكر مثلا قديما يُمدّد المدينة، ناصحا سكانها: «باركوا ذكرى أسلافكم الذين بنوا مدينتكم على صخرة. عادة ما تبرز الغربان على الناس، بينما أنتم تبرزون على الغربان»⁴. يصور موباسان قيم التعايش والانفتاح على الآخر، التي جعلت قسنطينة تحتضن سلالات وشرائح بشرية مختلفة،

Une année dans le Sahel, op.cit.

Au Soleil, op.cit. p.41.

Ibid. p.41.

Ibid.

-1

-2

-3

-4

«عربا، وقبائل، وبسكريين، ومزابيين، وزنوجا، وموريسكيات محجبات، ورجالا صبايحية حمرا، وأعاون من فرقة التركو الزرق، وقضاة جادّين، وضباط لامعين»¹.

سميت سكيكدة في عهد الاحتلال فليبيل Philippeville، واشتهرت بميناء اسطورا² (القلّ حاليا) الذي وصفه أ. دوما وصفا مشحونا بالغیظ والألم، بأنه «أسوأ ميناء بعد ميناء عنابة بسبب المياه الهائجة التي تعرقل سير السفن ورسوها»²؛ وركز على صغر مساحة البلدة "اسطورا". تختلف سكيكدة تماما عن اسطورا، فهي مدينة حديثة، ليس فيها ما يرمز إلى الثقافة الشرقية، مصممة على الطراز الفرنسي، تشير ألوانها ومعالمها إلى رموز الثقافة الفرنسية المسيطرة على المدينة المحتلة. إن فيليبيل، في نظر السارد، ليست قرية ولا مدينة ولا بلدة، شارع طويل يصعد بثلاثة أقدام وينزل بمثلها. القسم الصاعد على شكل مدرج ينظفه نسيم البحر، بينما السكان الذين يقيمون في القسم النازل نحو مناطق داخل الأراضي معرضون لخمى بطينة ومستعصية الشفاء. في الحروش la Rousse، شعر كأنه في فرنسا بفضل مظاهر المدنية الفرنسية التي لمحتها عينه كالبيوت الحديثة المزخرفة، لولا مناظر الطبيعة المحلية وملامح الوجوه العربية البائسة. بُني حاجز لاستبعاد العرب، الذين أزعج وجودهم الكاتب، ويظهر هذا الانزعاج من خلال دمّ حالهم والتقليل من شأنهم. بينما ركز مارميه على الإنجازات التي طورها المهندسون الفرنسيون في فليبيل وريثة روسيكادا الرومانية، لتصبح مدينة أوروبية على حساب الفن الموريسكي مُعتبرينه فنا وحشيا.

في سطيف، وقف دوما واصفا موقع جميلة الجغرافي، الذي يحتضن المدينة الأثرية، لاستحضار العمق التاريخي للوجود الروماني، أسلاف الفرنسيين، من خلال الآثار الشاهدة على غزوهم المنطقة، وها هي الآن يستردها الأحفاد، حيث بنوا نصبا تذكارية (قوس النصر) لتخليد أحد القادة العسكريين. وهناك يستهجن رد فعل الأهالي، الأعداء، عندما شعروا بخطر الجنود

Au Soleil, op.cit.
Le Véloce, op.cit. p.315.

⁻¹
⁻²

الفرنسيين الذين خيموا قرب ديارهم، فأقدموا على إحراق الدوّار كي لا يتخذوه مرفقا لهم. يقول عنها: «سطيف هي واحدة من أبشع المدن التي يمكن للمرء أن يراها»¹.

عنابة أو بونة Bône، يعد ألكسندر دوما أول من كتب عنها من الأدباء الرحالين في 1846، اندرجت زيارتها ضمن رحلته إلى سواحل الشمال الإفريقي (طنجة والجزائر وتونس). ذكر أهم مَعلمين بها، القلعة وشاطئ الأسد، ووصف شكل مينائها، ومسجدها كأهم معلم جميل، متأسفا على انخفاض عدد سكانها بسبب الاحتلال. أشار إلى التعايش بين الأديان بالمدينة من خلال وجود مسجد وكنيس يهودي وقبر القديس أوغسطين، البربري المسيحي. وصف المدينة القديمة بأطلالها البالية، وشكلها المدرج تحاصرها الجبال على اليسار والبحر على اليمين. أما الجانب العجائبي في قصة رحلته هذه، فهي هواية صيد الأسود في الضواحي². تلك الخرافة التي اتخذ سردها شكلا أسطوريا عجيبا عن قدرات الأسد الخارقة.

ذكر مارميه أن "بونة" تعني عند العرب مدينة العنّاب، أعقبت زمنيا هييون القديمة. تغير وجهها السابق بإنجازات جديدة دلالة على تجسيد رسالة حضارية تتلاءم مع ثقافة الأوروبيين، ولكن أغلبهم مالطيون يشبهون الأهالي في سلوكهم وأخلاقهم. يصف القالة (مرسى الجون) كأحد المواقع الاستراتيجية في ساحل عنابة، عرفت منذ القديم بازدهار نشاط صيد المرجان الذي نهبه الصيادون الأوروبيون قبل الاحتلال وأثناءه.

2.3.2- بلاد القبائل La Kabylie أو الزواوة في عيون الرحّالين

لا يختلف اثنان في جمال طبيعة بلاد القبائل كسائر مناطق الجزائر. طبوغرافيا وصف مارميه بجاية كأحد أجمل المواقع التي يمكن للمرء أن يتخيلها. بر وبحر وخليج ذو مياه هادئة كأنه قوس النصر، وجبال راسيات ذات غابات كثيفة وصخور غريبة الشكل، وحيوانات برية وأشجار ونباتات

Le Véloce, op.cit. p.140.

V: Le Véloce, ibid. Pp.283,284.

-1

-2

مختلفة، وسط الجبال يمتد ميناؤها كأنه بحيرة في سويسرا، وراءه سهل خصب ينتصب كملكة على عرشها. «وبالتحديد فإن ميزة وضعيتها، وخصوبة أرضها، هما اللتان، في عديد المرات جذبتا آلاف الغزاة إلى شواطئها»¹. نهب ثرواتها منذ القديم القرطاجيون والإنجليز والرومان والوندال والعرب، ثم الإسبان وفي عهد الفرنسيين تمكنوا من غزو المدينة وأنجزوا تحصينات شديدة مثل قلعة قمة فورايا، دون إخضاع قبائلها في الجبال التي أبدت صمودا ورفضت السلم والهدنة.

يقول موباسان عن سكان بلاد القبائل في مذكرة "إقليم وهران": «منطقة القبائل الآن مأهولة أكثر من منطقة با دو كالي Pas-de-Calais في الكيلومتر المربع، بالتأكيد المتيجة والقبائل هما بلدان رائعان»². ولكن لا تختلف حالها عن بقية الأقاليم الأخرى التي عمها البؤس والبخس، والبلاء وظلم الدخلاء. حيث تحدث عن هذه المعاناة في سياق إيديولوجي في مقال له عام 1881، موقَّع باسم مستعار "مستوطن"، ونشره في 1883 في مذكرة سماها "بلاد القبائل – بجاية La Kabylie – Bougie". وصفها بأنها بلاد غنية، ومزدحمة بالسكان أكثر من أية مقاطعة فرنسية في ذلك الوقت. «القبائل أجمل بلد في الجزائر»³، لكن تضاريسها وعرة، فهي «جبلية، مغطاة بالغابات والحقول»⁴ من كل جانب.

زارها الكاتب خلال وقوع حرائق⁵ بالمنطقة صيف 1881 صحفياً، ليرى حجم الكارثة رأي العين، وكتب قائلاً: «أردت أن أرى الكارثة كاملة»⁶؛ و«لكن في هذا المقال، "تطفل" الأسلوب الصحفي على الطريقة الأدبية الغرائبية»⁷. وجد «أعلى قممها رمادية كما لو كانت مغطاة

1- Lettres sur l'Algérie, op.cit. p.155.

2- Au Soleil, op.cit. p.13.

3- Ibid. p.120.

4- Ibid. p.117.

5* عرفت بلاد القبائل ومدن الشرق الجزائري حرائق مهولة صيف 1881، أشعلها سكان القرى من الثوار نكاية في الاستعمار، الذي كان يصادر الأراضي الخصبة لمصلحة المستوطنين، أدت إلى خسائر عظيمة في الطبيعة والأرواح.

6- Farida Boualit, Yazid Benchabane, L'espace et les hommes de « Bougie »/Bejaia dans l'œuvre de G. de Maupassant, Université A. Mira-Béjaia / Laboratoire LAILEMM, Synergies Algérie n° 21 – 2014.p.95.

7- L'espace et les hommes de « Bougie »/Bejaia dans l'œuvre de G. de Maupassant, ibid. p.95.

بالرماد»¹ من أثر النيران التي أضرمها سكان القرى احتجاجا على استيلاء المستوطنين على أراضيهم ظلما وعدوانا. أشار إلى مختلف الطرق التي تعتمدها الإدارة الاستعمارية لتهجير الأهالي، وسلب الأراضي الخصبة من ملاكها، لثمنح للمستوطن الراغب في الإقامة بالجزائر، فيقول: «أي شخص يغادر فرنسا، سيطلب من المكتب المسؤول عن توزيع الأراضي امتيازاً في الجزائر. تُعرض عليه قبعة بها أوراق، يسحب رقما يقابل قطعة أرض. فتصير هذه القطعة إليه»²، أو أن يدفع ثمنها ليسترجعها، إذا تنازل عنها المستوطن الراغب عن الإقامة، بسبب عدم تأقلمه مع ظروف الطبيعة. قانون آخر أقل ظلماً لسلب الأراضي الخصبة، هو أن تُشتري الأرض من مالكيها بأبخس الأثمان، ثم سرعان ما يصرف هذا المبلغ الزهيد في الضروريات فيحل بالناس البلاء.

يصور موباسان عظم المأساة الاجتماعية التي تعرض إليها السكان في هذه المنطقة الجبلية العالية جراء حرمانهم من أراضيهم غصبا. فشج المجاعة والفقر يهدد العائلات بالتشرد والفناء. تدفع هذه القوانين الفرنسية الجائرة هؤلاء الناس، الذين يجدون أنفسهم بلا مورد رزق، إلى الثورة ضد المستعمر، على غرار ما حدث في مناطق أخرى من نواحي الوسط والغرب، دفعهم ذلك إلى حمل السلاح، وقيام ثورات شعبية بقيادة زعماء أشرف. وهكذا كان المستعمر يعمل على استنزاف الأهالي، كي يبرر إقدامه على تثبيت الحكم العسكري في الجزائر. يوجه موباسان سهام النقد لسياسة التسيير التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية بسبب تماطلها في تحسين مستوى معيشة السكان، واستصلاح الأراضي البور لصالح المستوطنين، بدلا من طرد المالكين الحقيقيين. رغم استفادتها من مبلغ معتبر من غرفة مجلس الشعب لأجل تجهيز المنطقة. كما ينتقد قلة خبرة الإداريين الذين أسأؤوا تسيير شؤون الجزائر وضعف مستواهم وطريقة تعيينهم الغربية، لأنهم لم يقدروا على معرفة حاجات كل منطقة على حدة، وفهم خصوصيات هذا البلد الواسع الثراء،

Maupassant, Au Soleil, op.cit. p.117.

Au Soleil, ibid. p.119.

-1

-2

المتعدد الأعراق. لم يعارض السارد احتلال الجزائر باعتباره مشروعاً مربحاً لاقتصاد فرنسا، ولكنه كان ضد فساد طرق تسيير المستعمرة، العاجزة عن تطويرها وترقيتها، وتبذير أموال طائلة دون استغلالها في الإنجازات الاستراتيجية الكبرى.

خص موباسان بجاية¹* بالاهتمام والعناية الإعلامية، وتحدث عن تفاصيل زيارته إليها لتغطية وقائع نكبة الحرائق بأسلوب درامي وبلغ في آن واحد. سرد أحداثها ووصف أثر دخان تلك الحرائق على المحيط الطبيعي، الذي اصطبغ باللون الرماديّ الكثيب المائل إلى السواد، كأن النهار لم يطلع، قائلاً: «ذهبت إلى البحر، متبعاً الوادي الطويل الذي يمتد من بني منصور إلى بجاية. أمانا، في البعد، أغلقت الأفق سحابةً سميكة وفريدة. على رؤوسنا، كانت السماء ذات لون أزرق لَبَنِيّ، الذي يتخذه الصيف، في هذه المناطق الساخنة؛ ولكن هناك، سحابة بنية ذات انعكاسات صفراء، والتي لا تبدو أنها عاصفة، ولا ضباب، ولا واحدة من تلك العواصف الرملية الكثيفة التي تمر مع غضب الإعصار، دَفَنَت في ظلها الرمادي البلدَ بكامله»². ورغم عظم الكارثة التي أصابت المنطقة، إلا أن مناظرها الخلابة تركت انطباعاً حسناً لدى السارد واصفاً السلسلة الجبلية التي تحيط بها وخليجها الصافي وفسيفساء من البيوت الموريسكية والبيوت الفرنسية الحديثة، والمعالم العربية العتيقة.

مزج موباسان في وصف بجاية بين الأسلوب الصحفي، الذي يقوم على الإعلام والإخبار بالحوادث اليومية وتقرير الحقائق، والأسلوب الأدبي الذي يعتمد على نمطي الوصف البديع والسرد القصصي الممتع: «إنها تعطي، عند الدخول إليها، انطباعاً عن إحدى أحياء الأوبرا اللطيفة وغير قابلة للتصديق، التي يحلم المرء أحياناً بالهلوسة في بلد لا يصدق»³. خطف ناظره موقع بجاية الجغرافي بين المرتفعات الشامخة، ومياه البحر المتلألئة، على خليج ساحر «محاط

¹ * كتب موباسان من وحي بجاية ثلاثة نصوص أخرى: مقال "القبائل تحت النار" وقصة رحلة "ذات مساء" وقصة قصيرة

"ماروكا".

² Au Soleil, op.cit. Pp.129,130.

³ Ibid. p.132.

بحزام من الجبال الغربية، مع قمم مسننة وفريدة وساحرة، على منحدرات غابية، وخليج بجاية، أزرق من اللون الأزرق الثقيل والفاتح، مع شفافية لا تصدق، يستدير تحت السماء الزرقاء، من اللازوردي الثابت كأنه جامد»¹. أماكن أخرى باهرة الجمال رغم رماد الحريق، مثل خراطة ومغارات شعبة الآخرة الزاخرة بالألوان ومضائقها العجيبة.

وزار أندري جيد تيزي وزو، فلفت انتباهه سوء وضعها وحال سكانها، «في غرفة مربعة، بدون أثاث. خروف يثغو في الزاوية. على الأرض، زوجة عليّ، وهي طفلة تبلغ من العمر ستة عشر عاما، وربما أقل، ترضع طفلاً. والدة عليّ خارج الباب تطعم الابن الآخر. في هذا المنزل الضيق، تعيش هذه الأجيال الثلاثة معاً»²، فالقرى نائية ومتخلفة، والبيوت بالجير الأبيض في الأربعاء نايت إيراثن وكذا برج بوعريريج. سكانها من نفس الطبقة الاجتماعية الكادحة، كلهم فلاحون يقاتون مما تنتجه أرضهم من المحاصيل الزراعية، كالتين والبطيخ والعنب.

4.2-بايلك الغرب الجزائري: الإقليم الوهراني l'Oranie

وهران، عاصمة الغرب الجزائري قبل العهد الفرنسي وخلالها، ويأتي الإقليم الوهراني آنذاك في المرتبة الثالثة من حيث الأهمية السياسية والجغرافية. شهد أحداثا سياسية وتاريخية واقتصادية. سجلت مذكرات الأدباء الرحالين انطباعات عن أحداث مختلفة، تأرجحت بين الواقعي واللاواقعي. ونظرا للآثار الشاهدة على الحكم الإسباني الذي دام قرنا ونصف القرن قبل التدخل التركي. فإن وهران، حسب مارميه، قد تكون هي المدينة التي تدهش معظم العيون المعتادة على البناء الموريسكي من بين جميع المدن المتاخمة للساحل، حيث تجمع بين الملامح العربية والطابع الأوروبي³. لذلك أحس السارد بنوع من الارتياح لهذا الازدهار الذي أخذ يسود مدينة وهران منذ عهد الجنرال لامورسيير غير اللون المحلي البربري، كالمرسى الكبير Portus magnus الذي بناه

Au Soleil, op.cit.

Amyntas, op.cit. p.56.

Lettres sur l'Algérie, op.cit. p.238.

-1

-2

-3

الإسبان وطوره الفرنسيون نظراً لأهميته البحرية وقربه من جبل طارق ووسعوا شوارع المدينة الضيقة، وبنوا قرى لصالح المستوطنين الأوروبيين من مختلف الجنسيات¹.

قصد موباسان الناحية الغربية في سكة الحديد لاستكشاف روعة مناطقها. أشار إلى تعمد المسؤولين، آنذاك، تسفير الأوروبيين برا في السواحل رغم بُعد المسافة وصعوبة التضاريس والتوائها؛ ليستأنس الوافد الجديد، ويطمئن على أن الظروف تمشي على أحسن ما يرام. يكشف السارد عن هذه الغاية الاستعمارية، فيقول: «للذهاب من الجزائر إلى وهران يستغرق الأمر يوماً في القطار. نَعبر أولاً سهل المتيجة الخصب، الظليل، الأهل بالسكان. هذا ما يُظهرون للوافد الجديد ليثبتوا له خصوصية مستعمرتنا»². المسافة طويلة جداً من مدينة الجزائر إلى وهران، ولا ريب أن ما خفف عنه وطأة السفر هو البعد السوسيو ثقافي لوهران واختلافها عن المدن الساحلية الأخرى التي زارها. بناها الإسبان في القرن السادس عشر ميلادي، فطغى عليها الطابع الإسباني. ولأنها بعيدة عن النمط الفرنسي يقلل من شأنها ويزدري أهميتها، بل يلحقها بالثقافة الأندلسية المطبوعة بالتوجه العربي الإسلامي. يقول عنها: «وهران مدينة أوروبية حقيقية، تجارية، إسبانية أكثر منها فرنسية، ودون أهمية كبيرة. عبر الشوارع، نلتقي بفتيات جميلات بأعين سود وبشرة عاجية وأسنان واضحة. عندما يكون الطقس لطيفاً، تبدو في الأفق، سواحل إسبانيا، وطنهن»³.

يتبنى موباسان جمالية الواقعية في التعامل مع سرد الأحداث، ولكن يورد الخبر، أحيانا، متخيلاً يتعالق مع الحقيقة التاريخية. ينقل خبر ذهابه عبر القطار إلى سعيدة ليتفقى أثر ثورة بوعمامة وفرسانه ضد الوجود الفرنسي في الهضاب العليا، الغربية، المتميزة بشدة الحرارة والقحط. تختلف سعيدة عن وهران في طرازها الفرنسي، فيقلل من أهمية المدينة لكونها حديثة العهد، بقوله: «سعيدة بلدة صغيرة مبنية على الطراز الفرنسي، يسكنها جنرالات متوافقون في الفكر»⁴.

V : Lettres sur l'Algérie, ibid. Pp.249,250.

Au Soleil, op.cit. p.13.

Ibid. p.15.

Ibid.

-1

-2

-3

-4

يتحدث عن موقع المدينة الأوروبية وواقعها الاقتصادي، ومجالها الزراعي الذي يتركز أساسا على إنتاج الكروم، بصفة واسعة، لتلبية حاجة المستوطنين للخمر، وهي من المحاصيل التي لا يستهلكها الأهالي. إقصاء تام للأهالي من برامج التنمية الزراعية في المناطق السهبية المعروفة بندرة المياه وقسوة المناخ. عرف بعضها أحداثا فظيعة بين العرب بقيادة بوعمامة والمستوطنين، كشلالة وخيضر وعين الحجر وطفراوة وخرف الله ووادي فلات.

وصف مارميه مستغانم وتحدث عن تاريخ احتلالها، وطبيعتها المطلة على الساحل، وبأنها مدينة قديمة ومنازلها صغيرة ومبنية بشكل مشوه، وأرضها قاحلة ورملية لولا حواف الينابيع الدالة على خصوبتها. تتميز بتعدد السكان، قلة عدد الأهالي وكثرة المستوطنين الأوروبيين. لم يجد الرحالة من المعالم الحضرية سوى تسعة مساجد بسيطة البناء حولت الإدارة الاستعمارية نشاطها الديني إلى مجالات أخرى وأطلال قلعة اللقاليق المحطمة. طبيعتها الجغرافية جميلة، تتنوع مواقعها بين وديان ضيقة وتلال قاحلة، ووحدات بها زهور وفواكه، وكل أنواع النبات الإستوائي¹. من الناحية الاجتماعية يتبدى بؤس أهالي مستغانم الذين كان بعضهم يتزاحم في الميناء لحمل أمتعة المسافرين القادمين من أوروبا مقابل ثمن زهيد²، كما يفعل خلق كثير من سكان المدن الساحلية في أرصفة الموانئ لتلبية أدنى ضرورات الحياة.

في تلمسان زار مارميه جامع الغزوات غربا، وتسمى اليوم الغزوات. ليس فيها شيء ذو أهمية سوى مبنى هيئة الأركان العسكرية، يهيمن على مساحة واسعة، قام بتفقدته آنذاك وفد عسكري رفيع بقيادة الجنرال كافانياك والوزير سالفاندي، وسط تجمع ستة آلاف رجل من فرق المدفعية وسلاح الفرسان والمشاة والذخيرة والخيام وأنواع كثيرة من الأدوات الحربية.

Lettres sur l'Algérie, op.cit. Pp.237,239.

Ibid. p.240.

-1

-2

5.2-الفضاء الصحراوي: رحلة إلى بلاد الرمال والتميه والعطش

1.5.2- فرومنتان، وريادة الكتابة عن الصحراء الجزائرية

لم يستطع الكتاب الرحالون مقاومة سحر صحراء الجزائر، فكتبوا عنها بمسحة رومانسية غرائبية تارة، وواقعية طبيعية، تحمل نبرة انتقادية لأعراف أهل الصحراء تارة أخرى؛ مستلة تعابيرها من إيقاع "شعرية الصحراء"، المنبعثة نواته من المساحات الممتدة مد البصر، وحفيف سعف النخل، وحبوبات الرمل في «بلاد العطش»¹. استسلم فرومنتان لنشيد السلام الذي تلقى وحيه من تضاريس بلاد العطش: «لقد استقر سلام الصحراء في ذهني»². هو من أوائل الأدباء الرحالين الذين رسموا صورة الصحراء الشاسعة، العامرة والخلاء، بعد أن مهد سبيله كتاب الجنرال أوجين دوما³، وانبهروا بكل ما حوت تحت سمائها من كنز ثقافي جليل، ولغز طبيعي جميل. فزادة جمالها ميزتها عن مناطق الساحل والتل بتراثها وعاداتها، وطبيعتها وسكانها البدو. قرر اللجوء إلى الصحراء هروبا من سرمد السحاب في الشمال، بعدما قضى شهور الشتاء الكئيب متنقلا بين الجزائر والبليدة، ومن الجزائر إلى قسنطينة بحثا عن ضياء الشمس. نشر بعد هذه المغامرة الصيفية قصة رحلته إلى قلب الصحراء.

تبدأ الصحراء في بوغار عند الحدود التي تفصل بينها وبين التل؛ انطلقت مغامراته في مجاهيل الجنوب من حد التل القسنطيني القنطرة، التي بناها الرومان بنواحي بسكرة، وفي قلبه «نور داخلي صغير»⁴ يصاحبه في رحلته إلى بلد العطش أو "البلد البخيل" لقلعة منسوب المياه وشح الأمطار. يهتدي بهذا النور في طريقه لاستكشاف الجديد المدهش، فيتحمس لرؤية الجنوب قائلا: «هناك فقط سوف نجد البلد الإفريقي الحقيقي بقوافل الجمال وغابات النخيل وسكانها الأصحاء. لا يوجد أي رسام فرنسي، على حد علمي، توغل قبلنا في جنوب ملكياتنا»⁵. يعود

¹ Eugène Fromentin, Sahara et Sahel, in Un été dans le Sahara, op.cit. p.7.

² Eugène Fromentin, Lettres de jeunesse, op.cit. p.330.

³ * ألف الجنرال أوجين دوما Eugène Daumas كتابه "الصحراء الكبرى" Le grand désert عام 1848.

⁴ Lettres de jeunesse, ibid. p.1.

⁵ Un été dans le Sahara, op.cit. p.297.

من الجنوب بغنيمة عظيمة من المخزون المعرفي عن الصحراء، ويصقل تجربته الأدبية، واللوحات الغرائبية المثيرة للفضول؛ استخدم بعضها في الدعاية السياسية، وأخرى في الترويج لعمله وتطوير موهبته في الفن التشكيلي.

كانت القنطرة القرية الصحراوية الوحيدة المحمية بغابة من النخيل ضد الرياح الجنوبية الهوجاء، وبأسوار الصخور من رياح الشمال. يتميز بلد الزيبان بالانتقال المفاجئ من فصل إلى آخر، وغرابة المكان، وجدّة المنظورات. مناطق شاسعة وخالية من بوغار إلى الجلفة وعين وسارة، مروراً بقلعة السطل على امتداد فضاء قبيلة أولاد نايل. يصف مناطق الأطلس الصحراوي حيث الشمس تتحرك في مستقرّها، والسماء من السحاب خالية، والأرض الواسعة يابسة ذات حصي، والجبال صخرية عارية من النبات، مع ندرة الماء والكلأ؛ وحيث جو الهدوء والصمت الذي يطبع كل مكان يحل فيه، يملأ نفسه بالراحة والطمأنينة. وهو سعيد يعيش حياة البدوي المرتحل التي كان يبحث عن سر بساطة طبيعتها، وهو «مفتاح كثير من الألغاز»¹ وصولاً إلى سيدي مخلوف، والجبال ممتدة نحو مدينة الأغواط المبنية على الصخور. إنها مدن غريبة تجمع بين الموت والصمت والعنف. يندم فيها كل ما يدعو إلى الحركة والتطور، إلا في حال قيام الحرب. أقام بالأغواط وتوقف بتاجموت المدينة الهجينة التي تضم ضريح المرابط سيدي عطا الله. وحج إلى عين ماضي مدينة التراث الصوفي وضريح المرابط أحمد التيجاني ومهد التيجانية. مدينة ذات طوبوغرافيا متميزة عن المدن الصحراوية، مبنية «على شكل بيضة نعام مقطعة نصفين طولاً»². أصعب شيء اصطدم به الرحالون في الصحراء هو المناخ القاسي. وإزاء هذا الوضع المناخي الذي لا يحتمل يقول فرومنتان: «أشعر أن الكسل يجتاحني وأن مخي شيئاً فشيئاً يتحلل إلى بخار»³.

Un été dans le Sahara, op.cit. Pp.45-48.

Ibid. p.177.

Ibid. p.188.

-1

-2

-3

2.5.2- موباسان تحت شمس الجزائر الحارقة

كتب غي دو موباسان متحمسا: «نحلم دوما ببلد مفضل، واحد بالسويد، والآخر بالهند؛ هذا باليونان وذاك باليابان. أنا، شعرت أني منجذب نحو إفريقيا مدفوعا بحاجة ماسة، بحنين إلى صحراء مجهولة، بشعور مسبق بالشغف الذي سيولد»¹. هكذا عبر كاتب الواقعية، عندما عقد العزم على أن يزور الجزائر صيف 1881. جاءها لتحقيق غرضين أحدهما سياسي ومهني، تغطية أحداث ثورة بوعمامة في الغرب ضد الوجود الفرنسي² والآخر أدبي ومعرفي، مشاهدة عينية لأقوى علامات الغرائبية في الجنوب. أصيب بصدمة الحرارة أو صدمة الشمس كما يظهر في العنوان القصير الذي اختاره للمجموعة (في الشمس)، يشي بالدهشة والفوبيا من سطوة ملكة الصحراء، هذا الكوكب الناري، على المكان بمنافعه ومضاره. كان يتجول في شمال الصحراء مع فرقة من الجيش الاستعماري، في حقبة كان فيها الغزو الفرنسي يتوغل تدريجيا في أراضيها، ويستكشف أماكن قبائلها ومواقع مواردها. تتمظهر في مذكرة "رحرز" Le Zar'ez مساحتها الشاسعة وجغرافيتها المبهرة. ذهب إلى بوغار والأغواط وغرداية والجلفة وبوسعادة وبلاد المزاب، ولم يزر إلا الأماكن التي تمكن الجيش من اجتياحها.

انبهر الكاتب بغرابة الأجواء التي يعيشها، وما تبصره عيناه من مشاهد غير مألوفة. تعبيرات غريبة تشبه هذيان سكران، تلخص قوة انفعالاته تجاهها، «الجنوب! الصحراء، والبدو، والأراضي غير المستكشفة، ثم الزنوج، عالم جديد تماما، شيء يشبه بداية كون! الجنوب كذلك يصبح نشطاً على حدود الصحراء»³. يشير إلى تأثير طبيعة هذا المكان الفاصل بين التل والجنوب في سلوك السكان بميلهم إلى السكون، والركون إلى الراحة تحت ضغط الحرارة. «القرية صامتة. أشكال

Au Soleil, op.cit. p.4.

Ibid. p.5.

Ibid. p.51.

-1

-2

-3

بيض تقبع على طول المنازل. الليل الحارق مليء بالنجوم. ونجوم إفريقيا هذه تلمع بضياء لم أعهده، ضوء ألماس النار، خافق، وحيّ، وحاد¹.

3.5.2- أندري جيد وإيزابيل إبراهيم في قلب الواحات

يقول جيد في أوراق رحلته إلى الجنوب الشرقي الجزائري: «أحب الصحراء كثيرا»². وترجم هذا الإحساس المرهف تجاه الفضاء الصحراوي بالفعل خلال مكوثه في الربوع الممتدة من بسكرة إلى توفرت. تخيل أن «الأرض هنا [ك] تتحدث لغة مختلفة»³، لغة هضباتها وصمتها المخيف وامتدادها الفسيح. أحبّ حدائق بسكرة وحديث الرعاة، وأعجب بثقافة أهلها وأعراسهم. استنكر موسيقى الزنوج الصاخبة، ورعب سحر اليهوديات. وتفاعل مع مظاهر التقاليد الشرقية في القنطرة. أدهشه سراب الشطوط وسكون الليل وهدوء القرية الشبيه بالموت في المغير. أرعبته الرياح القوية والعواصف الرملية القاتلة، والآبار العميقة المميّنة في توفرت. وفرت له الصحراء إحساس المتعة بعدم الرهاب من الموت الذي يترصد الإنسان في كل مكان. في شمال الصحراء بالحضنة واحات بوسعادة قاحلة بسبب الجفاف. والمسيلة ببساتينها الفواحة بأريج أشجار الفواكه والأزهار، وسواقيها المتدفقة الرقراقة. وشغفت إبراهيم بمناخ الصحراء خلال تطوافها بين مناطق الأطلس الصحراوي من بسكرة شرقا إلى بشار غربا، ألهمتها فضاءاتها المتعددة أعمالها. كان فضاء الصحراء بكل مظاهره الطبيعية والاجتماعية، قد شكل محور رحلات الكتاب إلى الجنوب الجزائري الشاسع.

3-التنوع الإثني بين الائتلاف والاختلاف

ذكرت كتب المؤرخين والأنثروبولوجيين الغربيين الذين اهتموا بالجغرافيا البشرية، أنه ليس هناك عرق صاف في الجزائر كلها، مثل كل البلدان التي تعرضت حدودها للاختراق. فهي تتكون من فسيفساء بشرية، أعراق وأجناس عديدة أتت من بلدان مختلفة عبر الأزمنة. وقد تلقف الرحالة الفرنسيون هذه الفكرة، وانطلقوا منها في تصوير تركيبة السكان الاجتماعية تصويرا إثنيا وتمييزيا

Au Soleil, op.cit. Pp.53,54.

Amyntas, op.cit. p.24.

Amyntas, ibid. p.23.

-1

-2

-3

للأنا عن الآخر. يتحدث غوتيه في مذكرات رحلته عن اختلاف الوافدين الأوروبيين عن سكان مدينة الجزائر عام 1845 اختلافاً بيناً: «من بين تلك السلالات السود التي تختلف عنا، في الزي والأخلاق والدين، بقدر اختلاف النهار عن الليل»¹. وبدا هذا التنوع كأنه مشهد تمثيلي في أوبرا الهواء الطلق، يرتدي الممثلون ثياباً متعددة التفصيل والألوان لأداء أدوار متنوعة على ركبها.

ضاحت ساحة الحكومة بكل الأجناس، «هناك أناس من كل الدول والبلدان، عسكريون ومستوطنون وبحارة ومفاوضون ومغامرون؛ ورجال مشاريع من فرنسا وإسبانيا وجزر البيليار ومالطا وإيطاليا واليونان وألمانيا وإنجلترا؛ وعرب وقبائل وموريسكيون وأتراك وبسكريون ويهود»²، تجمعوا من كل البقاع، وإن تفرقوا في المذاهب والمشارب. خليط متنوع من البدلات الرسمية والأزياء التقليدية يلتقي في مكان واحد أذهل غوتيه، الذي وصف الجزائر كعاصمة عالمية استقطبت جميع الناس والأجناس آنذاك. وجعلته يسجل هذا الانطباع المؤثر، بقوله: «أن نلتقي في الواقع بما كان حتى ذلك الحين بالنسبة إلينا سوى زي الأوبرا ورسم الألبوم، هو واحد من الانطباعات الأكثر حيوية التي يمكن أن يشعر به المرء في السفر»³. ويتكرر هذا الانطباع عند مارميه أيضاً: «قبائل الجبال والموريسكيون والبسكريون والإسبان والمالطيون يلتقون في الشوارع باستمرار مع جنودنا وضباطنا»⁴.

ويصف فرومنتان تنوع لغات سكان مدينة الجزائر وتعدد أعراقهم بهذه الجمل التي تحوي كل معاني النقص والفرقة والغربة، وتبرز معضلة التنافر رغم التجاور: «من كل المنازل المحيطة بي، لا يوجد بيتان متشابهين، السكان ليسوا من نفس العرق. يتكلمون تقريبا كل اللغات، وأعتقد أننا يمكن أن نجد فيها تقريبا كل درجات اليسر والبؤس. الصناعات فيها غير مفهومة، عادات غامضة؛ والوجود يأخذ شكل لغز»⁵، نتيجة لعدة تحولات بدأت تطرأ على المجتمع في العهد

Loin de Paris, op.cit. p.20.

Ibid. p.27.

Ibid. p.23.

Lettres sur l'Algérie, op.cit. p.42.

Sahara et Sahel, in Une année dans le Sahel, op.cit. p.202.

-1

-2

-3

-4

-5

الاستعماري. وعبر فايدو في 1860 عن دهشته من تنوع الأجناس في مدينة الجزائر، وسهولة التواصل بين الناس بمختلف اللغات واللهجات بقوله: «في مفترق طرق واحد، في يوم من أيام السوق، نرى مجتمعين فرنسيين، إسبانيا، مالطيين، موريسكيين، عربا، قبائل، يهودا، بسكريين، مزابيين وزنوجا، يعبرون بإيماءات ويتناقشون بينهم، كل بلغته، أو بلغة هجينة، تدعى صبير، فظيعة عند سماعها»¹.

بينما لاحظ أندري جيد في نهاية القرن التاسع عشر، أن جيلا جديدا ولد من هذه الأعراق المختلفة التي تحدث عنها أسلافه من الرحالين. إن خليطا من أجناس شتى تنتمي إلى ضفاف البحر المتوسط، تعاقبت على هذه الأرض الإفريقية، و«من هذه العناصر المختلفة تتشكل سلالة جديدة، متكبرة وشهوانية وجريئة. ذلك على ما يبدو مأخوذ من الأندلسي، والباسكي، والبروفنسي، والصلقي، وكلابرياني»²، والجزائري، حسب، يحمل سمات الإنسان المتوسطي المنحدر من سواحل البحر المتوسط. سمات اجتماعية سلبية أراد الكتاب أن ينفرد بها الشرق كالحمول والشبق، وغريبة إيجابية كالوسامة والميل إلى التعلم، خاصة تعلم اللغات المنتشرة بين الناس سواء كانوا أصلاء أو دخلاء. سمات مشكّلة تشكيلة جديدة وإيديولوجية، سميت في الفكر الغربي باسم المجتمع الجزائري.

1.3- السكان الأصليون، أو البربر: شعوب الجزائر الأصلية

أطلق الفكر الأنثروبولوجي الاستعماري مفهوم الشعوب الأصلية أو البربر Race autochtone ou berbère، على أولى الأعراق التي استوطنت الجزائر حسب التاريخ القديم³. يستثمر دوماً هذا التصنيف لتقسيم البربر إلى عرقين هما القبائل والشاوية، يضاف إليهما بقايا الأقوام التي وفدت إليها لأسباب عدة فرضتها مختلف الظروف التاريخية كالغزوات، الرومان والوندال والعرب. استقر

¹ Alger, op.cit. p.45.

² Amyntas, op.cit. p.24.

³ ينظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1965، ص48.

في أرضها أفراد وجماعات مختلفين في اللون والجنس واللغة، يعملون ويتعايشون جنبا إلى جنب في حالي التجاذب والتقارب عدة قرون. وكانت أوروبا تسمي كل هؤلاء السكان بـ *Barbares*، وبقيت هذه التسمية متداولة حتى الاحتلال الفرنسي، الذي أنتج لهم مصطلح الأهالي إمعانا في تحقيرهم وإذلالهم، وإشعارهم بالدونية والتدني.

سجل الكتاب الرحالون هذا التنوع العرقي بكل تعقيداته الإثنية، ورسدوا مظاهر الغيرية الكامنة في الاختلاف الفيزيولوجي المؤسس على المظهر واللون، والتمايز الثقافي المبني على العقيدة واللغة، واتخذوه ذريعة لتفضيل الرجل الأبيض على الملون، والغربي على الشرقي، والنصراني على المسلم. يؤسس ألكسندر دوماً توصيفه شوارع مدينة الجزائر على هذا المعيار الاختلافي في رؤيته للآخر الجزائري الذي يتكون إلى جانب القبائلي والشاوي، من «الكرغلي»¹ والموريسكي والبسكري والمزابي والزنجي والتوارف»²، وقد اعتاد الواحد منهم على الآخر في المجتمع كحتمية تاريخية وسياسية واجتماعية. لكن الكاتب الأوروبي ينظر إليهم جميعهم بعين الاحتقار والازدراء. ويبدو جليا في هذه الصورة الكاريكاتورية التي عبر من خلالها غوتيه عن الوضعية الاجتماعية المهينة التي آل إليها سكان مدينة الجزائر من الأتراك في عهد الاحتلال الفرنسي بلهجة المنتصر مستهزئا: «نحن، الباريسيين، لا نعتقد الأتراك خارج الكرنفال. اعتدنا أن نراهم يُركلون من الخلف، أو يبيعون عطورا مصنوعة من الزفت»³.

الموريسكيون خليط من المهجرين من الأندلس وحضر الجزائر، ويتميز الموريسكي فيزيولوجيا بقامة متوسطة، وهيئة حادة وهادئة، جميل الملامح، تميل بشرته إلى البياض. هم سكان الحواضر، سكنوا قصبات مدينة الجزائر وقسنطينة والبليدة وغيرها من المدن. وهي معروفة ببيوتها غير المزودة بالنوافذ، والمستلهمة من الطراز العربي الأندلسي، المفتوح في الداخل والمغلق من

¹*الكرغلي، كلمة تركية مركبة من *Kul* و *oglu*، جمع كراغلة *Couloughlis, Kouloughlis*، وهم أبناء مولدون من أب جندي إنكشاري وأم جزائرية، معناها حرفيا أبناء العبيد *filis d'esclave*.

²Le Véloce, op.cit. p.360.

³Loin de Paris, op.cit. p.23.

الخارج. وينحدر «حضر مدينة الجزائر من أهل البلاد ومن مهاجري الأندلس، وكانوا سياسيا في المرتبة الثالثة بعد الأتراك والكراغلة»¹. فسر غوتيه هندسة بناء الموريسكيين في قسبة الجزائر بالانغلاق على الذات والنفور من الآخر، فهم «أقل الناس فضولاً في الأرض، لا يهتمون بأن يروا أكثر من أن يُروا، ويمارسون أقل الفُتحات الممكنة من الخارج ويستضيئون بالفناء، وهو المركز الإجباري لأي سكن شرقي»². بالنسبة إليه هذا «التشابه لا يثير الدهشة، لأن نصف الشعب الإسباني عربي»³. يعمم دوما الصورة النمطية ذاتها على شعوب الشرق، خاصة العرب والمسلمين، ويرى أن هناك صفات اجتماعية مشتركة بين الموريسكي والتركي؛ «فكلاهما خامل بإفراط، لا يشك في شيء، ماكر قليلا. تمر حياته في الحمام، وفي المقهى أو عند الحلاق، نادرا ما يكون في بيته. الحياء عمق طبعه»⁴.

ينتمي أغلب الموريسكيين إلى طبقة البورجوازية الصغيرة. لاحظ غوتيه وفرومنتان وغيرهما من الكتاب بأنهم أهل حِرَف بسيطة، يعملون في صناعة النسيج والجلد والحديد، يبدعون في فنون الطرز والزركشة والزخرفة. بعضهم كتّاب تائم(طلبة) بارعون في فن الخط العربي لأنهم «أبناء الفنانين الجديرين الذين قاموا بنقش جدران قاعات قصر الحمراء وألكازار بإشبيلية»⁵، وهذه الآيات والأساطير لا يمكن لأي تزيين أن يضاهيها في الأناقة والثراء»⁶، وقد تزامنت هذه التزاويق في فن العمارة مع ابتداء فن الأرابيسك أو الزخرفة الإسلامية أيام الازدهار الثقافي والاجتماعي عند العرب، ونشطت بالأندلس إبان تألق الحضارة العربية الإسلامية. أغلب هؤلاء العمال شباب يوسمون بوسامة نادرة توحى بالصفاء والاعتزاز بالنفس والأناقة، رآهم منهمكين في العمل ببرودة حس وقلة فضول، لا يراقبون ما يدور حولهم من حراك. ومنهم من يعملون في التجارة. غير أن

¹ - أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، م س، ص 65.

Loin de Paris, op.cit. p.35

Ibid.p.38.

Le Véloce, op.cit. p.361.

⁵*ألكازار أو القصر، حصن إسلامي بُني في عام 567هـ على يد الموحدين، كان يسمى (قصر المورق)، وفي عهد بني عبّاد

سمي بـ (المبارك)، وسماه الإسبان حديثا (قصر إشبيلية).

Théophile Gautier, Loin de Paris, op.cit. p.57.

⁶ -

الكاتب يوجه نقدا لاذعا لمثل هذه البلاد التي طبعت الذهنية الشرقية، و«تكفي لإثارة دهشة البلبلّة الفرنسية؛ ولكن لا يوجد شيء مستحيل على بلادة الحس الشرقي»¹، في عصر ارتبطت فيه الرأسمالية الغربية بمنظومة استعمار الشعوب الضعيفة واستغلالها، بسبب هذه اللامبالاة التي دفعت إلى خراب البلدان.

يعيش البربر، سكان الأرض الأصليين، في الجزائر متفرقين، يتوزعون في مناطق مختلفة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب. يعرفون بتسميات متعددة، منهم القبائليون والمزابيون والشاوية وبربر جبال الشنوة (الشنويون، إشنوين) والتوارف. القبائل أو القبائليون، هم بربر بلاد القبائل المتخذين جبال جرجرة والصومام مستقرا ومقاما. و«القبائل هم أهل الجبال الشمالية، الذين هجرتهم إليها الغزوات الرومانية والوندالية والعربية، فبقوا فيها، وجعلوا ملجأهم وطننا لهم. كان هؤلاء الرجال دائماً غير خاضعين؛ واليوم هم أولئك الذين يكون الكفاح ضد من أكثر ثباتا وأكثر فظاعة»². يوضح دوما تركز القبائل في المناطق الجبلية ويشرح أسباب استقرارهم في بيوت الحجر بدلا من الخيام، فالأراضي التي يمتلكونها قليلة لا تسمح لهم بأن يكونوا رحّلا، وأن الحرارة في الجبال مرتفعة أكثر من السهول.

يؤكد مارميه في رسائله تميز القبائل بصمودهم وعدم قابليتهم للخضوع، ومحاصرة الأعداء محتمين بالسلسلة الجبلية المحيطة بهم. هم من الأعراق القليلة المتميزة التي لم تصبغها أوروبا بطابعها، فلم تعلمهم أية أمة من أممها شيئا من ثقافتها وأدبها، ولم يكتسبوا شيئا من عناصر الحضارات التي تعاقبت على أرضهم. ويستدل على ذلك بأن كل ما قاله العلماء الأنتروبولوجيون عن الشعوب البدائية سواء في أوروبا أو في أمريكا اللاتينية، ليس أكثر فضولا مما يمكن أن يُرى في مناطق القبائل غير المكتشفة. يرى أنهم عرق بدائي مجهول الأصل ولا يجب الاختلاط بالآخر، يمتد وجودهم من أبواب بجاية إلى جبال البيبان ومن أبواب الحديد إلى سطيف. يقول:

Théophile Gautier, Loin de Paris, op.cit.
Alexandre Dumas, Le Véloce, op.cit. p.359.

-1

-2

«هكذا كان القبائليون منذ قرون مضت، ولا يزالون حتى اليوم، عرقا بدائيا لا نعرف حتى أصله؛ عرق غير مرن لم يتمكن العرب من تغيير الطبيعة، التي تتحطم فيها جهود أوروبا على سلسلة حديدية»¹. وأبرز الصفات الاختلافية التي تميزهم عن غيرهم هي، الشعور الرجولي بالاستقلال، ورفض الاحتكاك بالأجنبي، والحرص على الكرامة. فهم مثل «تلك الأنهار التي تعبر البحيرات، مع الحفاظ على المسحة الخاصة بتدفقها»². يمارس السارد العنصرية للتفريق بين القبائلي الذي يتمتع بقوامه الصلب وخفة أعضائه، والاعتزاز الذي يلمع في عينه، وإن اضطر إلى الاستسلام للقوي فلا يستكين له بسهولة والعربي الذي ينبطح تحت أرجل الفرنسيين لإرضاء حاجاته متضرعا إليه بذلة.

استمد الفرد القبائلي القوة من أسوار جباله الشاهقة، والشعور بالعزة من تمسكه بحريته، صبور وكادح، جَدُّ بحكم المتاعب، وقساوة المناخ؛ مزارع ومحارب، يخدم أرضه بالمحراث ويدافع عنها بالسيف. أما العمل فيوزع في المجتمع القبائلي حسب نوع الجنس، فالمرأة تشتغل في الصناعات الخفيفة والرجل يضطلع بالأعمال الثقيلة. ويقوم اقتصادهم على الزراعة والرعي وبعض الصناعات اليدوية كنسج الصوف والكتان والبناء ونجارة الخشب والأثاث. ويسود النظام القبلي، حيث تختار كل قبيلة شيخها الذي يعمل وفق الأعراف والتعاليم الشفوية على تنظيم شؤونها الداخلية وتمثيلها أمام الجوار. وانطلاقا من هذه العوامل السوسيو ثقافية والجغرافية يبرر السارد مسألة غزو بجاية العسكري الذي تأخر زمنيا، لتتحول أرضها الجميلة إلى ساحة اشتباكات ومناوشات بين الغزاة والأهالي.

وصف موباسان القبائلي بكونه إنسانا «مقيما وليس رحالة»³، متمسكا بأرضه كمصدر وحيد للرزق، يدافع عنها بشراسة، ويستमित في الدفاع عنها بضراوة. فساكن القبائل «فلاحون وليسوا

Lettres sur l'Algérie, op.cit. p.162.

Ibid. p.163.

Au Soleil, op.cit. p.118.

-1

-2

-3

تجاراً أو صناعاً»¹، وعليه «يعيش القبائليون، المالكون، هادئين في مزارعهم. والأغنياء، لا يثرون. يريدون فقط البقاء في سلام»². وفي حال اغتصاب أرضهم، فإنهم يثرون ويعلنون الحرب. «في كل هذه البقعة الخصبة، كان الصراع رهيباً بين الأوروبي والأهلي لحيازة الأرض»³. وأما «الشاوية فهم سكان الجبال في الجنوب، الذين هجرتهم إلى هذه الجبال الغزوات نفسها، نزلوا شيئاً فشيئاً واستوطنوا السهل»⁴، في الأوراس.

وبنو مزاب أو المزابيون، هم بربر سكان غرداية الواقعة في شمال صحراء الجزائر، إنهم يهود الصحراء كما يطلق عليهم العرب. يشتهرون مثل اليهود، باشتغالهم في التجارة والمال. فكثير من المزابيين أصحاب محلات تجارية في المدن، مثلما وصفهم صاحب رحلتي الساحل والصحراء. وجدهم في الأغواط يملكون دكاكين صغيرة للأقمشة والخياطة، ويشبهون إلى حد كبير اليهود في بعض الصفات الاجتماعية، ملامحهم موريسكية تتميز بالعيون الجميلة، والوجوه المستديرة، مع قليل من الوزن الزائد. اكتسبوا بعض أخلاق اليهود، مثل حبهم للتجارة غير المشروعة على الحرب وممارسة الربا. مع ذلك فهم خلوقون واجتماعيون مع الغرباء.

أشار موباسان إلى تاريخهم السياسي ومذهبهم الإباضي خلاف الطوائف الأخرى في الجزائر، «إنهم مسلمون منشقون [...] ويبدو حسب بعض العلماء أنهم المنحدرون الحاليون من آخر طوائف الخوارج»⁵. يوظف التاريخ والدين توظيفاً إيديولوجياً بذكر أخبار مشكوك في صحتها عن أصلهم السوري واستقرار أجدادهم بشمال إفريقيا. وبأنهم عانوا الاضطهاد أينما حلوا، بسبب شدة

Au Soleil, op.cit. p.121.

Ibid. p.120.

Ibid. p.118.

Alexandre Dumas, Le Véloce, op.cit. p.359.

Au Soleil, op.cit. p.110

..1

..2

..3

..4

..5

ذكائهم وصناعاتهم وإبداعهم. يركز على فكرة اختلافهم عن سكان المناطق المجاورة في حياتهم الدينية والاجتماعية، وانفتاحهم على اللغات رغم نزعتهم المحافظة¹.

يقف موباسان موقفا محمودا من سلوك بعض اليهود، كالذين تعرف عليهم من قبل في المدن الشهيرة، ويقول إن «يهود أوروبا، ويهود مدينة الجزائر، واليهود الذين نعرفهم، وملتقي بهم كل يوم، وجيراننا وأصدقاءنا، هم رجال العالم، متعلمون، وأذكاء، ووسيمون في كثير من الأحيان»². أما يهود الصحراء فمظهرهم بشع ذليل. في بوسعادة مثلا، يستعملون شتى الطرق الخبيثة لإيقاع العرب في شرك الربا، ولم يسلم من مكرهم حتى الأعيان والأغنياء في الجنوب بسبب الطمع، مثل القياد والآغوات والبشاغوات. وهذه الآفة بالنسبة إليه، هي من أكبر الأسباب التي أعاقت تقدم الأهلي ودخوله عالم الحضارة حسب إيديولوجيا الاستعمار.

أبرز بواقعية شديدة أخلاق المكر والخبث التي اشتهر بها اليهود في الجنوب، تجلت في مرافقتهم الجيش الاستعماري في حملاتهم العسكرية ضد السكان، وشراء الغنائم بأبخس الأثمان، وبيعها للعرب بأضعاف قيمتها الأصلية، وابتزاز العرب الذين يتماطلون في تسديد الديون في آجالها المحددة. وللتخلص من مشكلة تلاعب اليهود بأموال العرب «يستلزم الأمر قانونًا خاصًا لتغيير هذا الوضع المؤسف»³. غير أن الإدارة الاستعمارية كانت تتواطأ معهم من أجل تحقيق المزيد من الأهداف التوسعية. وعلى هذا الأساس، يتمظهر اليهود في مذكرات موباسان، في صورتين متقابلتين، فهم سادة الجنوب الجزائري بنشاطاتهم في التجارة وأربابها في المدن الكبرى. وهم مكرة، يتصفون بصفات قبيحة منفرة، جعلت الطوائف الأخرى من الأهالي المسلمين وحتى المستوطنين يشتمزون من تصرفاتهم ويبتعدون عنهم.

¹* يبدو أن موباسان اطلع على دراسة الضابط كوين Coyne الأنتروبولوجية عن المزابيين واستفاد منها. فقد استشهد ببعض الفقرات من كتيبه "Mzab" المنشور عام 1879، واعترف بأنه يحوي الكثير من المعلومات المذهلة عن هذه الطائفة المختلفة مذهبيا.

² Au Soleil, ibid. p.108.

³ Ibid. p.110.

لم يتحدث الأدباء الرحالون عن التوارف كثيرا، ولم يزوروا تلك المناطق الواقعة بعد الواحات في الصحراء الكبرى، ذلك أن جيش الاستعمار لم يغزها ولم يتوغل فيها إلا في نهاية القرن التاسع عشر تقريبا. والقليل من المعلومات الواردة في مذكراتهم نقلوها عن مصادر علمية إثنولوجية¹. يصف أ. دوما شعب التوارف بصفات البدائيين المتوحشين دون أن يراهم. إنهم خارجون عن القانون يربعون المسافرين الذين يمرون عبر الصحراء، وقطاع طرق يغيرون على القوافل التجارية والحجاج. ولأنهم يقيمون بين الواحات وبلاد الزنوج، ويصيدون الزنوج: «خارج الواحة، تبدأ الصحراء، أي مجال التوارف، رعب الزنوج والتجار والحجاج. التوارف هم قرصنة الصحراء. القرصنة التي كانت تمارسها الجزائر وتونس والمغرب الأقصى على البحر، يمارسها التوارف في الصحراء»². ولبيان طبائع المكر في شخصية التوارف يسرد دوما حكاية عن حيلهم في الإيقاع بالزنوج واستعبادهم، «فإنهم يزرعون نوعًا معينًا من الفول يعلمون أن الزنوج مغرمون جدًا به. على الرغم من أنهم يعرفون الخطر الذي يواجهون، أولئك لا يستطيعون مقاومة الطعم. يذهبون للمرعى، كما يفعل طيور التدرج، وكما يصنع الصيادون بالتدرج، يصنع التوارف بالزنوج، يفاجئونهم بالاختباء في طيات الحقل»³.

إن العرب، حسب الرحالين، قدموا «إلى الجزائر مع الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا»⁴، وانتشروا في ربوع الجزائر. استقر معظمهم في السهول وسكنوا الصحاري يتخذون الخيام بيوتا، وهم البدو الرحل أو البدائيون الجدد. إنهم يمثلون الشعوب البدائية في حفاظهم على عاداتهم البسيطة وزيتهم المحلي مثل قدامى اليونانيين، ويشبهون في هجر موطنهم الأصلي باليهود، وتشرذمهم في حقبة التيه. ولكن التمسك بهذه البساطة التي درجوا عليها أكسبتهم عظمة، كعظمة

¹ مثل كتاب القافلة "La Caravane"، الذي ألفه في 1848 الجنرال أوجين دوما Daumas مع شانسيل Ausone de Chancel، وأشار إليه الكاتب ألكسندر دوما، ملخصا ما جاء فيه عن الصحراء الكبرى ورجالها الملتئمين وأهلها البدائيين، الذين يعيشون حياة اللصوصية والصعلة.

Le Véloce, op.cit. p.364.

Ibid.

Eugène Fromentin, Un été dans le Sahara, op.cit. Pp.25,26.

-2

-3

-4

البدايين الذين لم يفسدهم خبث الحضارة. إذن، حسب فرومونتان، «هذا الشعب لديه عظمة حقيقية. إنه يمتلكها بمفرده، لأنه، بين المتحضرين فقط، ظل بسيطاً في حياته، وفي أخلاقه، وفي رحلاته»¹، وهذه هي جمالية البساطة وفق مبدأ الرومانسيين، لاسيما المنتمين إلى مدرسة الفن للفن، والتي تعني السذاجة والخضوع عند الاستشراقيين.

يركز أ. دوما على الاختلافات بين عرب الجزائر في الشرق وعرب الغرب أو الجنوب في كثير من النواحي، ويرى أن عرب قسنطينة يختلفون اختلافاً كبيراً، عن العرب الذين يعيشون في أجزاء أخرى من الجزائر؛ في اللغة والأخلاق والتعليم والشخصية، وكل شيء في بلدهم يعارض ما يلاحظ في أي مكان آخر. حافظ سكان الشرق على نقاء اللغة، وتقليد الأخلاق العتيقة. أما العربي في الغرب الذي يعيش من مدينة الجزائر إلى المغرب الأقصى فيتصف بالجهل والوقاحة والعدوانية وفضاظة الحديث وفساد اللهجة. ومنهم من يرى أن «العربي القح هو رجل الخيمة»²، رحالة بطبعه البدائي، والبداءة نمط غير حضاري. ورجل الخيمة والصحراء، في نظر الكتاب الرحالين، إنسان متشرد لا يحب الاستقرار الذي يعد شرطاً أساساً من شروط المدنية، وبناء الحضارات واستمراريتها. ويتمظهر تشرد العربي في وصف ظاهرة القوافل المترحلة مثل قبيلة الأرباع، التي اعتادت أن تجوب الصحراء طولا وعرضا.

تعد قبيلة أولاد نايل من أكبر القبائل العربية في الجزائر، يكثر عددهم في الأطلس التلي والصحراوي، انتشروا في الجلفة وبوسعادة وجبل عمّور وقصور الأغواط وأولاد جدّي إلى غاية أولاد جلال شرقاً. يشتغلون بالتجارة ويتميزون حسب الرحالين بالغنى والفساد، فساد المال والأعمال ودعارة النساء (غواني أولاد نايل)، تلك العناصر التي «تلخص فضول الصحراء»³.

Un été dans le Sahara, ibid. p.39.

Maupassant, Au Soleil, op.cit. p.111.

Un été dans le Sahara, op.cit. p.42.

-1

-2

-3

2.3- الإثنيات الوافدة إلى الجزائر من الأهالي والأجانب

الزواج من الجماعات الإثنية التي وفدت من إفريقيا خاصة من السودان الغربي على حد قول الجنرال أوجين دوما: «زواج الجزائر، جاء أغلبهم من السودان، ووصلوا مع القوافل»¹، واستقروا بمدينة الجزائر. تكاثر عددهم أثناء الاحتلال الفرنسي وتنوعت أصولهم فقال غوتيه عنهم: «تنطوي مدينة الجزائر على عينات غريبة من كل هذه الشعوب الغامضة التي تخفيها إفريقيا في حضانها غير المستكشف: نرى فيها كافرين Cafres، وأحباشا، وإثيوبيين، وسود من العفت (Ifat) وتشوا (Choa)²، ودمنهور، ومن غوندار Gondar وتومبكتو، هذه المدينة غير الموجودة والرائعة التي تتلمص حتى الآن من الفضول الأوروبي وراء حجاب من الرمل»³. عاشوا وضعية اجتماعية صعبة جدا، كان كثير منهم عاطلا عن العمل. وجوه سود مظلمة، جاثمة على عتبة الباب في أزقة القصبة، «يقفون أو يجلسون القرفصاء أو يرقدون في أوضاع بهيمية تنتمي إلى كائنات ذوات الأربع أكثر من الإنسان، وجوه غريبة خارج الاحتمالات المتوقعة كانوا زوجا بعيون صفر، وشفاه بنفسجية، جلدهم اللامع يتلألأ في الضوء مثل المعدن المصقول. وخلاسيون بكل درجاتهم الممكنة»⁴.

أما نسائهم عكس الموريسكيات الماكثات في البيوت، ويختلفن عنهن في اللون والعادات والمرتبة الاجتماعية. حيث أن «الزنجيات بأعداد كثيرة في شوارع مدينة الجزائر، يتجولن مكشوفات الوجوه، طالما لون بشرتهن يُنظر إليه كقناع كاف»⁵، فلا يحتجن إلى تغطيتها. «جباه وخدود موشومة طبعت بحديد ساخن، تسجل عدد السادة الذين ملكوهن[...] ثوب بخطوط مربعة يلفهن من الرأس إلى القدمين، في شكل سراويل إلى الركبتين»⁶.

Le grand désert, préface, op.cit. p.xii.

_1

*2 تقع هذه المدن كلها شرق الحبشة.

Loin de Paris, op.cit. p.60.

_3

Ibid. p.37.

_4

Ibid. p.56.

_5

Ibid. p.57.

_6

وعيد الفول من تقاليدهم العريقة التي جلبوها إلى الجزائر، يُحتفل به شهر أفريل سنويا في موسم نضج الفول في الربيع. حضر فرومنتان احتفالاتهم به رجالا ونساء، في طقوس دينية حماسية بجانب ضريح الولي الصالح سيدي علي بن عيسى بالحامة حتى غروب الشمس. ينم هذا الحماس عن تمسكهم بإفريقيتهم التي امتزجت بتعاليم إسلامية. وصف السارد رقصات وموسيقى صاخبة في الهواء الطلق على الطريقة الإفريقية، بذات صبغة بربرية غرائبية، حمل هذا الوصف في طياته كثيرا من المعاني التحقيرية للجنس الأسود. ومع ذلك يُقر بأن تلك الاحتفالات الغريبة صنعت لوحة أصيلة ورائعة.

المستوطنون(الكولون) هم الأوروبيون الذين استقروا بالجزائر وساندوا الاحتلال. ويظهر المستوطن الأوروبي في سرود الأدباء الرحالين، في صورة إنسان الحضارة وابن المدنية الحديثة، يحب العمل وينبذ الكسل، ويعشق التحدي والإصرار من أجل تحقيق الراحة والرفاهية، جاء إلى هذه الأراضي كي يخدمها وينتفع بخيراتها.

وتلخص مذكرة "الجراد"، من رسالات طاحونتي لدودي، كل التيمات التي تشيد بجهود المستوطنين في ازدهار البلاد، وإصرارهم على البقاء في الجزائر رغم المصاعب والمتاعب. يدافع دودي عن المستوطنين في الجزائر؛ بسرد معاناتهم مع الطبيعة في جبال زكّار بتعاطفه المطلق مع أولئك البائسين، جراء الخسائر الفادحة التي تركها الجراد في البساتين: «وفي الغد، عندما فتحت نافذتي مثل ما فعلت بالأمس، كان الجراد قد ذهب، مخلفا المزرعة وراءه في حالة خراب. لم تعد هناك زهرة، ولا بقية من عشب، كل شيء كان أسود، مقروضا ومفحما، لا رفرقة لورقة، التي هي حياة الشجرة، ولا تعرف أشجار الموز والمشمش والخوخ والمندرين إلا من هيئة أغصانها العارية بلا جمال..»¹، ليبين مأساة المستوطن في الجزائر الذي واجه وحشية الطبيعة وأهلها.

¹ -أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، م س، ص77.

ويصور موباسان عذاب المستوطنين الذين غررت بهم الدعاية الاستعمارية فرسمت لهم الجزائر جنة في الأرض، من خلال قصة عائلة فرنسية من الألزاس جاءت إلى الجنوب الغربي لكنها اصطدمت بعدم التأقلم مع قساوة الطبيعة حيث الجفاف شهورا متواصلة والحرارة أتلفت التربة والمحاصيل. يهدف الكاتب من هذه القصة إلى وصف مشكلات الوضع الاستعماري، منددا بسياسة الحكومة في تقديم الوعد الكاذب والكف عن خداع الأوروبيين. وكانت الهجومات المتكررة التي يشنها العرب لاسترجاع أرضهم المسلوقة هي العامل الذي عقّد أداء الرسالة الحضارية، وحال دون أن يستفيد الجزائري من منافع التطور العلمي الغربي.

يستخلص من خلال وصف الفضاء الجغرافي والتعدد الإثني في السرود الرحلية، أن الرحالين الأوائل بين 1845 و1860 انصبت مهامهم في دعم الوجود الفرنسي وتأييد الاحتلال سرديا وتصويرا، استجابة لرومانسية الاستشراق، جوانب الغرائبية والعجائبية أمثال غوتيه وفرومنتان. أما المتأخرون منهم بين 1860-1900، فقد ركزوا في ظل جمالية الواقعية، على تصوير الواقع ونقد قضايا المجتمع؛ منهم دوغونكور ودودي وموباسان. ومنهم من زواج بين أحلام الرومانسية وصرامة الواقعية، حسب مقتضى الحال مثل مارميه وفايدو.

1-فضاء العبادات والعبادات: عادات وعبادات خارج التوقعات

1.1-العبادات والمعتقدات: تداخل وتعايش بين المقدس والمدنس

تناولت كتب الرحلات أنساق الطقوس والممارسات الدينية المرتبطة بتعاليم الإسلام، والاعتقادات الخرافية بالقوى المجهولة، وسلطان العادات الشعبية التي استمرت في ضوء التداخل والتعايش بين المقدس والمدنس، و«اتخذت الأمثال والتقاليد والأساطير الطابع الديني المعتمد إلى الأبد عند عائلة المسلمين العظيمة»¹. صور الكتاب محاولة الإدارة الاستعمارية تغيير مهام المساجد إلى أنشطة أخرى لصرف المسلمين عن دينهم. يتجلى هذا «الغزو الديني»² في تهيئة الجو للتصير عن طريق بناء كنائس مثل كنيسة أسطى والي في ضواحي مدينة الجزائر، ودعم الرهبان في كل مكان، والإشادة بنشاطات الإرساليات الخيرية وحرصها التبشيري، مثل إنشاء بيوت لليتامى وتعليم الأطفال أصول القراءة والكتابة والحرف اليدوية، وممارسة طقوس المسيحية بتعميدهم. وعن طريق تحويل المنازل الموريسكية الفخمة وبعض المساجد إلى كنائس أو مكتبات أو ثكنات عسكرية، أو تعريضها للإهمال مثل، مسجد سيدة ومسجد ميزو مورتو، وتحويل جامع كتشاوة إلى كاتدرائية. «في قسنطينة، عام 1837، كان هناك حوالي عشرين مبنى دينيًا بمثابة مقابر للمرابطين، وعشرات المساجد، ولكنها بسيطة جدًا وعادية جدًا. بلاط الفناء مغطى بالسجاجيد أزالها الجنود. ثم تم تحويل أحد هذه المساجد إلى كنيسة، وتم تحويل العديد من المساجد الأخرى إلى ثكنات ومخازن علف»³. ولما كان الغزو العسكري بحاجة إلى الغزو الديني لاستكمال المشروع الصليبي، خصصت صفحات لسرد تضحيات الرهبان والراهبات لخدمة الدين المسيحي ونشره لتخدير العقول، وتقديم معلومات للمؤسسة العسكرية عن المناطق التي أقاموا بها.

Xavier Marmier Lettres sur l'Algérie, op.cit. p.118.

Ibid. p.63.

Ibid. p.215.

-1

-2

-3

2.1.1- التهجم على الإسلام والتهم من تعاليمه: شجب التعصب الديني عند الأهالي

نظر الأدباء الرحالون إلى الدين الإسلامي نظرة عدا، وعنصرية متطرفة بصفة لا تخطئها عين، وراحوا يتهجمون على كل ما يمت بصلة إلى الإسلام والمسلمين، وإن أبدوا نوعاً من الاحترام والتسامح المحتشم أحياناً، واعترفوا بسمو مبادئه. تطرقوا إلى طرح مسأله مستهزئين، وعلى أهله مستكبرين. وجاءت مواقفهم مشحونة بخلفية تاريخية مشبعة بالعرقية، وروح معادية للآخر؛ تعرض على محاربة هذا الدين والقضاء على أهله أو تنصيرهم. ينتقد فرومندان تقيد الجزائريين حرفياً بما جاء به الإسلام، واستبعاد الأعراف في أحواله الاجتماعية، ويفسر ذلك بأنه «شعب غير اجتماعي يطبق الأحكام وفقاً للدين وليس عرفاً»¹.

ويتمظهر تعصب المسلمين الشديد وانغلاق عقلم عند موباسان في اعتبار «الدين هو مصدر إلهام كبير لأفعالهم وروحهم ومزايهم وأخطائهم»². يصف مشهد أداء الصلاة في مسجد بمدينة الجزائر شهر رمضان، وصفا ينطوي على احترام ممزوج بشدة الرهاب من تأثير قوة الإسلام الروحية على معتنقيه. لقد تملكه الرعب من سلوك المصلين الذين يؤدون بها تمام الاستقامة والخشوع والخنوع، وأعجب بالهدوء والسكينة اللذين لم يجدهما عند النصارى في الكنيسة. ولكن دفعته هذه الأجواء الدينية الغريبة إلى تخيل شيطانية هذه العبادة الممارسة بشكل لاعقلاني، والاعتقاد الرهيب «بأن إيماناً وحشياً يحوم، ويملاً هؤلاء الناس، وينحني بهم ويرفعهم مثل الدمى، وهو إيمان أصمّ ومستبد يغزو الأجسام، ويجمد الوجوه، ويلوي القلوب»³.

يشرح الكاتب سلبية ممارسة الصوم الذي يحول المسلم إلى إنسان غبي وعنيد، بسبب العذاب الذي يلقاه من قساوة الجوع والعطش وهو صائم، فيقول: «من السهل أن نفهم ما يحصل نتيجة الحماس العنيف، لتلك العقول الغبية والعنيدة، من هذه الممارسة الدينية القاسية. طوال اليوم،

Un été dans le Sahara, op.cit. p.14.

Guy de Maupassant, La vie errante, La Bibliothèque électronique du Québec Collection À tous les vents

Volume 447 : version 1.01. p.148.

Au Soleil, op.cit. p.41.

-1

-2

-3

هؤلاء الأشخاص البائسون يتأملون، وبطنهم تتمزق، يشاهدون الروميين [الفرنسيين] الغزاة مارين يأكلون ويشربون ويدخنون أمامهم. ويرددون في قرارة أنفسهم أنهم إذا قتلوا أحد هؤلاء الروميين خلال شهر رمضان، فإنهم يذهبون فوراً إلى الجنة، وأن وقت هيمنتنا يقترب من نهايته، لأن مرابطيهم يَعدونهم باستمرار بأنهم سيرموننا جميعاً في البحر بالهراوات»¹. وتمتتع طوائف من المجتمع الجزائري عن أداء شعيرة الصيام ممن أطلق عليهم "البهلوانيين الدينيين"، «فخلال شهر رمضان، يعمل بشكل خاص العيساوة، أكلة العقارب، بالعو الثعابين، البهلوانيون الدينيون، والوحيدون، ربما مع بعض الكافرين وبعض النبلاء، الذين ليس لديهم إيمان عنيف»². يسلط الضوء على ادعاء الشرف النبوي أو رتبة النبلاء والأشراف التي استغلها بعض الانتهازيين الباحثين عن امتيازات اجتماعية غير مستحقة.

3.1.1- التدين الموازي والمغالاة في ممارسة المقدس والمدنس

ظهرت الزوايا في الجزائر قبل العهد العثماني، وانتشرت حركة التصوف إلى داخل البلاد، وأسس أتباع المرابطين زوايا لهم لنشر الفضيلة والتحذير من الظلم، حتى إذا مات المرابطون تحولت أضرحتهم إلى معابد ومزارات يُمارس فيها كل ألوان الشرك والشعوذة. يحلل حمدان خوجة مسألة تقديس المرابطين، وممارسة طقوسها في المجتمع الجزائري، ويبين كيف ولماذا رسخت هذه الآفة الاجتماعية بين عامة الشعب، قائلاً: «إن الاعتقاد الشعبي إزاء المرابطين، أساسه الجهل والمبادئ الغالطة والتعصب وليس من السهل إصلاحها[...] والسياسة هي التي جعلت الآخرين يبقون على هذه المبادئ الغالطة، أو يتركونها تستمر ويحترمون الأماكن التي تقدها القبائل»³. وينتقد بهذا الخطاب سياسة الأتراك السيئة في الجزائر والتعامل مع الجزائريين، وتعمد تغليب العامة وبث الشعوذة والابتداع في الدين لينشغلوا عن تعاطي السياسة ومحاربة الاستبداد

Au Soleil, op.cit. Pp.38,39.

Ibid. p.39.

³- حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تع: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص20، 21.

الداخلي؛ ثم اتبع الفرنسيون السياسة نفسها ليعم الجهل، فينصرف الناس عن تعاليم الإسلام، ويتشبثوا بالخرافات الهادمة للروح والجسد.

لفتت ظاهرة تقديس الأولياء الصالحين والتعبد عند قبور المرابطين انتباه جل الكتاب الرحالين، وبينوا دورها في تخلف المسلمين. رصدوا الأضرحة المنتشرة بقوة سواء في المدن أو القرى أو الصحاري؛ ووصفوا أشكال بنائها التي تحتوي عادة على قباب، وألوانها البيضاء والخضراء، وتعدد طقوس العبادة بين التبجيل والتقدير والتكريم وتقديم النذور، التي يمارسها الناس جميعا بحماس زائد، معتقدين بحلول بركتها وخيرها على البلاد والعباد.

ينتقد ألكسندر دوما أعمال المرابط الذي يقوم بخداع الناس باسم نبل الدين حفاظا على مكانته الاجتماعية، ساخرا من الجهل السائد في اعتقادهم الراسخ بنجاحاتها، إذ تدخل في نطاق ممارسة الدجل المقتن الذي يسيطر على العقول الساذجة إلى حد التعلق بالخرافات البدائية، مثل الاعتقاد بأن روح المرابط سيدي امحمد يتمثل في صورة ثعبان من خلال سرد موقف زنجية من قتل أحد الفرنسيين ثعبانا قرب ضريح المرابط، قائلة: «آه!، أيها الكافر المشؤوم، لقد قتلت روح سيدي محمد! - كيف ذلك؟ - نعم، يعود سيدي امحمد في جسد هذا الثعبان»¹. ولأن المسلمين يؤمنون إيمانا كليا بالاحتمية الإلهية في سيرورة أمورهم وفي إرادة الله المطلقة فهم لا يتخرجون من هذه الأعمال الخارجة عن المنطق العلمي، مداواة بعض الأمراض بواسطة اللمس والهمس بالدعاء، وكتابة التمام لإبعاد قوى الشر وجلب الخير. و«هذه التمام، بشكل عام، آيات من القرآن تحتوي على بعض الحكم. هذه الحكم مكتوبة على مخطوطات في شكل مربعات أو معيّنات معقدة للغاية. تُعلق على الرقبة كقلائد وحول الأذرع كأساور»². عرض السارد أمثلة على التمام التي رآها عند الأهالي الذين التقى بهم ليبين أثرها في حياة الأهالي.

Le Véloce, op.cit. p.229.

Ibid. p.227.

_1

_2

يرتبط فضاء العبادات القبورية في المتخيل السردي عامة بالنساء أكثر من الرجال لانتشار الأمية بينهن، وتعد زيارة هذه الأماكن المقدسة بالنسبة إليهن فضاء للدعاء والتوسل والتبرك وتقديم مختلف النذور، كما يعد ملتقى نسويا مسموحا لهن ارتياده إلى جانب الحمامات، يشعرون فيه بقسط من الحرية المقيدة. وفضاء للهو والحزن والبكاء على ذويهن، والاستمتاع بالأحاديث وسماع جديد الأخبار، وربط علاقات صداقة ومصاهرة. تحدث الأخوان غونكور عن ذهاب نساء موريسكيات كل يوم الجمعة لزيارة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي بمدينة الجزائر، للتسليّة والترويح عن أنفسهن. بينما اشماز فرومنتان، في وصف مثل هذا المشهد المتكرر كل يوم جمعة، من سلوك التدنيس الذي يظهر في ممارسات الموريسكيات على قبور ذويهن، يقول: «كثيرا ما أحضر هذا المشهد من مسافة بعيدة، مخبأ في مرصد ظليل اخترته عن قصد»¹. وما لفت أنظار الكتاب في هذه الظاهرة هي بساطة المقابر العربية، وحتى الأكثر منها ثراءً، وكلها متشابهة، ترمز إلى تقليص الفوارق الطبقية بين الناس، مادام مصير الخلق كلهم الموت والفناء. وهذا من أعظم المبادئ التي قامت عليها فلسفات الشرق الصوفية.

وهناك الوعدة، يوم معلوم من أيام طقوس العبور المعبرة عن الوفاء والإخلاص لشيخو الطرق الصوفية والمرابطين والاحتفال بذكرى شيخوها المؤسسين، يخرج الجميع إلى المساجد والأضرحة للتبرك والتضرع في كل ربع ينتصب فيه ضريح أو زاوية. ويقصد سكان عين ماضي، كالعادة، المكان الذي يرقد فيه المرابط التيجاني لممارسة تلك الطقوس ذهابا وإيابا.

الدروشة من العادات التي أخذت صبغة التبجيل والتعظيم والتقدّيس، إذ يتبوأ الدراويش مكانة خاصة في المجتمع الشرقي. يقول ألكسندر دوما: «نحن نحبس المجانين. ويعتبرهم العربي مقدّسين»². وقد أثار فرومنتان هذه القضية بشيء من الغرابة والسخرية من الاعتقاد السائد بكرامات الدراويش (المجنون) المبجل، التي خصته بها العناية الإلهية؛ من خلال قصة أحد

Un été dans le Sahara, op.cit. p.240.

Le Véloce, op.cit. p.467.

-1

-2

الدراويش في ضيافة سي الشريف بالجلفة، رغم سوء تصرفه الجنوني بحضرة أفراد من الجيش الفرنسي، لكن لا أحد من الخدم تجرأ على تعنيفه أو زجره أو نهره حتى الخليفة نفسه، بل عاملوه بلطف شديد خوفا من حلول اللعنة على الدوّار.

2.1- العادات الراسخة في مجتمع الأهالي

1.2.1- العيساوة: رقصة الإنس والجن

ومن التراث الثقافي الشعبي الجزائري رقصة العيساوة. تحدث عنها غوتيه في مذكراته بعنوان "العيساوة" "Les Aïssaoua"¹. في البلدة حضر في حوش قزواؤ ببنو خليل في ضيافة قائدها أحمد بن قدور، طرائف حفلة العيساوة². وصف هذه الحفلة العجائبية الشبيهة أجواؤها المرعبة بعالم السحرة والمقابر والعالم الأخرى. وصف حفلة الجلب "الجدب" لقراءة المستقبل وصفا عجائبيا، بأنها تنظم خلال شهر رمضان عند المسلمين، يجلس فيها المسجلون مسبقا في غرفة تمارس فيها كل الطقوس الغريبة والمحظورة من تناول المخدرات والسحر والشعوذة، مصحوبة برقص عنيف يفضي إلى حالة الإغماء، وتدوم هذه الممارسات الشيطانية يومين إلى ثلاثة أيام دون توقف.

2.2.1- الضيافة العربية

الضيافة والكرم من بين المثاليات العليا التي توارثها السكان في الجزائر أبا عن جد، وتسمى باللهجة المحلية الضيفة La diffa. كان الأهالي الزعماء وكل العملاء القريبين إلى الاستعمار يُعدّونها على حسابهم الخاص لضباط الجيش الفرنسي؛ وأحيانا أخرى يجبرون الأهالي المستضعفين على تقديم "الضيافة" من مالهم رغم الفقر. وتتكون هذه الضيفة المكلفة عادة من

¹ Voir : Loin de Paris, op.cit. p.78.

²* أشار غوتيه إلى الفرقة وأصول نشأتها على يد سيدي محمد بن عيسى بمكناس، وكيف انتشرت في الجزائر، وذكر أسماء روادها، والأماكن التي شاهد فيها طقوسها الغريبة باهتمام مسكون بدهشة وفضول. والعيساوة هم أتباع المرابط محمد بن عيسى، وإخلاصا له تقام حفلات عجيبة في المنطقة المغاربية يحدث فيها كثير من البدع والخرافات التي يسميها الناس كرامات، مثل الرقص الجنوني حتى الإغماء، وأكل الحشرات والزواحف السامة، وترويض الحيوانات المفترسة.

شتى ألوان الطعام والشراب التي تشتهر بها كل منطقة. يروي غوتيه أنه في ضيافة قبيلة بني خليل، و«بإشارة من القائد وضع العبيد أمامنا، على حافة السجادة، أواني خشبية مملوءة بالكسكس، وقطع من لحم الضأن والدجاج والحليب الرائب وشرائح البطيخ الأحمر، وهو طعام فخم كرمننا به على نحو أفضل. ثم قدمت لنا القهوة، وأشعلت الغلايين»¹.

يشرح فرومنتان معنى كلمة "ضيافة" في القاموس الثقافي العربي لصديقه الحميم، الذي يمثل عقلية المتلقي الغربي، بقوله: «الضيافة هي وجبة الضيافة. ترتب يقدم عن طريق العادة أصبح نوعا من الآداب»². يذكر ضيافة دعي إليها رفقة ضباط عسكريين حين نزلوا في القوية بالأغواط عند الجيلالي بلحاج مولود قايد بني حسن، ويصف قائمة الطعام التي تألفت من لحم خروف مشوي، مع كسرة مورقة مصنوعة بالزبدة، ومرق اللحم، نصفه خروف ونصفه فواكه جافة، وصلصة متبلّة بالفلفل الأحمر، والكسكسي. أما الشراب فيتكون من الماء والحليب واللبن. وبعد اطلاعه على نماذج الكرم العربي في كتاب الجنرال دوما³، حلل عقلية العرب ومنظومة أخلاقهم المقيّدة بالدين، فاتهمهم بالتعصب الديني، وانتقد تمسكهم بعادة الضيافة، واستخلص، أنهم غير اجتماعيين، يحافظون عليها لإكرام الضيف، مرسل الله خوفا من الإثم وطلبا للثواب؛ ويغالون في ممارستها تطبقا لتعاليم الدين الإسلامي الصارمة، وليس حبا في تقديم المعروف. وعاب تصرفات العربي المتناقضة، كيف يخدم ضيفه بنفسه، في المقابل يترك للمرأة كل الأشغال الشاقة في البيت والحقل لتخدمه كما خدم سادته.

Loin de Paris, op.cit. p.86.

Un été dans le Sahara, op.cit. p.13.

³ كان أوجين دوما، عقيد الصبايحية، ومدير الشؤون العربية في مدينة الجزائر، سباقا إلى وصف عادة "الضيافة" في كتابه "الصحراء الكبرى 1848"، وقد أشار فرومنتان إلى فضل هذا الكتاب الأنتروبولوجي الذي استقى منه معلومات مهمة عن أحوال المجتمع الصحراوي وأنساقه الاجتماعية في الحقبة الاستعمارية.

اعتاد العرب المحافظون، في عادة الضيافة، أن يستقبلوا الضيوف في خيام خاصة بهم تسمى "قياطين الضياف أو خيام الضيوف"¹*. وصف مشاهد من الضيافة العربية في الصحراء، وتحدث عن وضعية الفنادق التي تتعدم فيها شروط النظافة والراحة التي يحتاجها المسافر خلال إقامته بـ "ديار الضياف" المخصصة للمسافرين بالأغواط وبوشقرون وطولقة، والتي حضرت فيها كائنات مختلفة من الحشرات والزواحف والطيور، والغبار وذبال الأعشاب، ناهيك عن هشاشة البناء والنقص الفادح للوسائل وضعف الخدمات لاستقبال السياح. ورغم سهام النقد التي وجهها السارد ضد أخلاق العرب، إلا أن هذا المشهد من قصص الكرم الرائعة فيه اعتراف بتفوقهم على الغرب في هذا المجال، معجبا بأهم الخصال الحميدة في هذه الضيافة، الكرم والبساطة: «في الحقيقة لم أر شيئاً أكثر راحة، ولا أفضل من دعوة الشرب بسلام في بيت ضيف؛ لم أر أبسط من اللوحة التي جرت أمامنا»².

إن نسق التسلسل الهرمي في ثقافة المجتمع العربي بطيء التغير، و«هيبة المكانة عظيمة عند العرب، لا تقصي الألفة المتميزة بين السيد والخادم. أما بالنسبة للمسافة التي يحددها اللباس، فهي غير موجودة»³. ينبني تدرج السلطة على احترام الكبير رتبة وتوقيره، لضمان استقرار الأوضاع واستمرارها، أكثر مما يخضع لنظام السيطرة بمعنى الهيمنة المطلقة. ويأتي التسلسل الهرمي في الأسرة العربية، على نحو يبرز فيه تفضيل الرجل على المرأة، والكبير على الصغير من الجنس نفسه، والذكر على الأنثى.

3.2.1- تدخين التبغ والمخدرات، جنة الشرقي الاصطناعية

يركز الخطاب الاستعماري على تيمة التدخين في تصوير الشرق، كأحد الأدلة القوية على استغراق الشرقي في دائرة الوهم والسراب، وفضح الحلم الجميل الذي ارتبط بالحياة الشرقية، وأبعد

¹* تكرر أوجين دوما في فصل "الضيافة" من كتابه "الصحراء الكبرى". وفي السياق نفسه أيضا وبالعبارة نفسها التي استخدمها الجنرال دوما (قياطين ضياف أو خيام الضيوف، مرسول الله، وضع لحية الغريب في يد مضيفه... الخ).

Un été dans le Sahara, op.cit.

Ibid. p.52.

-2

-3

أهلها عن صنع القرار. فصور المجتمع الشرقي مدمنا، يهوى تدخين تومباك والزجيلة، ولا يستغني عنه مثل الهواء والماء، ويتعاطى المخدرات بكل أنواعها وأسمائها كالحشيش والكيف والتكروري tekrouri^{1*}، باعتبارها ظهرت وانتشرت بينهم نساء ورجالا. «إنهم يدخنون التبغ العبق[...]» التكروري، وهذا يعني أن ورقة القنب تخفض غبارا، أو لاستخدام المصطلح المعروف، الحشيش. هذا هو ما يسمونه صنع الكيف. الكيف هو راحة مليئة بالرفاهية، مدفوعة حتى الثمالة، التي ينتجها أي مشروب أو أي دخان مخدر. يعني تأثير الشربات أو الغليون².

نعمان نموذج للحضري الطيب، يعيش عاطلا عن العمل لا يملك بيتا ولا أسرة؛ ويظل خاملا لا يهتم بشيء، ولا يهمله شيء سوى الإدمان على الحشيش ساعات متتاليات، يتبعه بالنوم الطويل، فأنهك جسمه الهزيل حتى أفسد حياته. يشرح السارد أن انتشار البطالة في وسط الشباب هو العامل الرئيس الذي يولد الحاجة إلى تعاطي الكيف وممارسة العادات السيئة، لقلّة فرص العمل في السوق التي هيمن عليها كبار المستعمرين والمستوطنون، ومن هذا المنطلق يرى فرومنتان أن «حياة العربي تقوم على ثلاثة أشياء لا يستغني عنها أبدا، الغبرة(المخدرات) والفرس والأسلحة للحرب أو للصيد»³.

2-فضاء الطبيعة: شعرية الطبيعة الحية والجامدة

1.2-غرائبية الحيوان: وحوش عجيبة التكوين، أو غريبة السلوك والصفات

كان اهتمام الرحالة شديدا بوصف الأصناف الغريبة عن أوروبا، ويقل وجودها أو يندر نظرا لاختلاف الطبيعة الجغرافية. أدهشت الجمال غوتيه فاعتبرها حيوانات خرافية وخيالية، تنتمي إلى عصر ما قبل التاريخ، بهيئتها الفيزيولوجية الضخمة، وتكوينها مثار للعجب والفضول. فالجمال عنده «هو أغرب حيوان يمكن تخيله. يبدو أنه ينتمي إلى بعض هذه المخلوقات المفقودة التي

¹*التكروري مادة مخدرة تنسب إلى مدينة تكرور بين النيجر والسنغال، تستخرج من عشبة القنب الهندي، تسمى محليا الزطلة.

²Une année dans le Sahel, op.cit. p.253.

³Un été dans le Sahara, op.cit. p.179.

أعاد علماء الجيولوجيا تكوين التاريخ¹. يندهش المرء من شكل «بنائه الأخرق في تشوّهه الغريب، يشير إلى أن الطبيعة لا تزال تتخبط في محاولاتها الأولى»²، ويبعث على السخرية من «تحدّب ظهره، وطول طوقه، والتراصّ الغليظ في مفاصله، يظنه المرء منخلعاً، والجلد المتصلب الذي يكللها وحشي ومثير للسخرية ومخيف ومضحك؛ يبدو كأنه حمل حيواني مشكل بالوحد البدائي من قبل أحد القدامى الضاربين في القدم»³. وأثار انتباه غوتيه وضعية بعض الحيوانات الداجنة في مدينة الجزائر وكثرة عددها، فوصف حالة الحمير الكارثية: «أن يكون الحيوان حماراً في الجزائر العاصمة، يا لها من حالة يرثى لها»⁴.

حلم ألكسندر دوماً بإفريقيا أرض والعجائب، وصف غرابة المظهر الفيزيولوجي لبعض الحيوانات المعروفة مثل «الثيران المُجبرة على الرعي من الخلف بسبب قرونها الغربية التي تمتد موازية للرأس ومقوسة في مقدمة الخطم»⁵. وبواسطة التشبيهات المناسبة للعجيب المثير للسخرية والرهاب من هذا الفضاء المخيف الذي جاء ليعاين التحديات التي يجابهها الغربي في مشروعه، يصف كائنات أخرى سريعة تركّض على رجل واحدة، ولها أرجل غزلان، ورأس الطيبي، وذيل وعنق وصدر أسد، وكائنات تقتل بنظراتها؛ وحشرات غريبة يشفي لعباها من لدغات الثعابين.

للخيل منزلة عالية بين الحيوانات الأليفة التي كان العربي يعتني ويستعين بها في إقامته وطقنه، وحرّبه وسلّمه، لأنها تمثل بالنسبة إليه مصدر هيبة وقوة وعزة. وقد لاحظ الرحالون الذين زاروا الشرق اهتمام العرب الزائد بها، إذ حرص الأغنياء منهم على اقتنائها للفخار، والشعراء على التغني بمحاسنها في الأشعار. كثيراً ما تتشأ بين الاثنين علاقة حميمة، يقول عنها مارمييه: «يرتبط العربي والحصان ارتباطاً وثيقاً ببعضهما بحيث يبدو أنهما يمتلكان الإرادة الواحدة نفسها،

Loin de Paris, op.cit. p.67.

Ibid.

Ibid.

Ibid. p.42.

Le Véloce, op.cit. p.16.

-1

-2

-3

-4

-5

ويشكلان جسداً واحداً»¹، ويؤكد فرومونت أن «الحصان الجيد، في نظر العرب، هو علامة تفوق الرجل»² في عشيرته وللخبر على أقرانه، ووسيلة ضرورية لدفع الخطر، ورفع شقة السفر.

يصف فرومونت بعض الطيور المفترسة كالصقور والنسور والغربان وهي تحلق فوق رؤوسهم تتربص بهم الدوائر في معسكر فرقة من الجيش الفرنسي قرب إحدى قرى قصر البخاري، في أرض خلاء، صفراء من أثر الشمس. وبوغار خالية من الناس إلا من قطعان من الغربان السود تحوم، مثل أسراب البعوض، وكتائب لا تعد ولا تحصى من الطيور البيض بأجنحة مدببة. ونسر ببطن مخططة بالبني، نسور مرقطة بالسواد والرماديّ الفاتح، كانت تجتاز ببطء هذه العزلة، وتعود إلى جبال بوغار الغابية.

يقارن بين طيور فرنسا الهادئة وطيور إفريقيا الوحشية. ويتعجب من أن يجتمع التوحش والوداعة في سماء واحدة، في عمق الصحراء. وكيف تغني بجوار الطيور الضخمة والغريبة كالنعام، وفي صحبة الطباء الكئيبة، والبقر الوحشي، والعقارب والأفاعي السامة ذات القرون! فبدونها لن يكون هناك «طيور تحييّ الشمس التي ترتفع في كل يوم الله أكبر!»³، لكن يبدو أنها جاءت هي الأخرى لتقضي على توحش الحيوان الإفريقي؛ كما جاء الأوروبي لتمدين الإنسان في أرض إفريقيا الهمجية!

لاحظ فرومونت أن الكسل لا يقتصر على السكان، بل يطغى أيضا على سلوك الحيوان الفطري. وفي كثير من الأحيان تنتقل العدوى إلى القطط التي تحرس بعض الأضرحة «مسمنة من الكسل، تستلقي تحت ظل القباب»⁴. وصف فايديو التصرفات الغريبة التي تتميز بها قطط مدينة الجزائر الحاملة في هدوء الليل، حينما يستسلم سكانها للنوم العميق. فتخلو لها مساحات الشوارع المزدهمة بالناس نهارا، لتتمتع وحدها باللعب واللهو، ويشتد العراك ويتعالى العواء في

Lettres sur l'Algérie, op.cit. p.111.

Un été dans le Sahara, op.cit. p.62.

Ibid. p.35.

Une année dans le Sahel, op.cit. p.237

-1

-2

-3

-4

صمت الظلام الدامس. رأهم، بمنظار غرائبي مفزع وممتع، «ضخاما، وعيونهم مشرقة، وشعرهم خشناً، يتجولون على حواجز السطوح، ويراقبون البحر عن بُعد، ثم ينزلقون ببطء، ويتنادون بينهم عن طريق العواء الحاد، وهذه هي الحفلات الموسيقية الغريبة»¹.

أفاض ألكسندر دوما في حديثه عن منزلة الأسد عند العرب قديما وحديثا، وعلاقة الإنسان بهذا الحيوان حيا وميتا، خصص لهذه العلاقة غير العادية مساحة سردية عن صفات الأسد الجزائري وقدراته الخارقة في ضواحي عنابة؛ واصفا اهتمامهم به في معظم أحاديثهم حتى إنهم يطلقون على الأسد لقب "السيد"، ولأنه سيد الحيوانات كثرت عنه الخرافات. «يزعم العرب أن الأسد يغيّر الطعام أربع مرات في السنة. خلال الربع الأول من العام، يأكل الشياطين. وخلال الثاني، يأكل اللحم البشري. وخلال الثالث، الطين. وخلال الرابع، الحيوانات»². ينسب السارد للعرب حكايات غير معقولة عن الأسد أغربها أكل لحمه للتداوي، ويردها إلى خيالهم الشعري الخصب لعدم توفر الأدلة المنطقية، وهذا ليجد سبيلا كي ينتقد الشعر العربي.

الصحراء موطن الزواحف الغريبة والقاتلة، أصدقاء الشمس الحارة تختبئ تحت الرمال وتتحرك فوقه بخفة لتفتك بفريستها، سحالي وأفاع، وعقارب وثعابين سامة. منطقة سيدي مخلوف بنواحي الأغواط مليئة بالعقارب، وخاصة تلك الأفاعي والحيات المروعة. وكذلك الحشرات التي تعيش تحت شروق شمس إفريقيا اللاهبة، ولو كانت في الساحل، تبدو في «مواقف غير طبيعية، تجعل الجنادب ضخمة منتصبّة والأحناش مبهتجة والذباب غاضبا»³.

2.2- وصف النبات: رحلة استكشافية بين أصناف نادرة من الأشجار والأعشاب

تختلف أصناف من الغطاء النباتي باختلاف منابتها. وقد ساهمت هذه الخصائص في لفت انتباه علماء الطبيعة الغربيين إلى أهميتها الصحية والجمالية، وقد «مثلت حديقة التجارب بالحامة

Alger, op.cit. p.78.

Le Véloce, op.cit. Pp.283,284.

Alger, op.cit. Pp.232,233.

-1

-2

-3

الغنية بالثروة النباتية، نموذجاً رائعاً لتأقلم مختلف النباتات والأشجار المثمرة المحلية والعالمية»¹. وتغنى الأدباء الرحالون عبر شعرية "الطبيعة الغرائبية" والاستمتاع بروعة سحرها وجلال خيرها وثمارها الغريبة الشكل والنوع، والانتفاع بها غذاء ودواء. و«بالنسبة لأولئك الذين يرغبون في زراعتها، فإن أرض إفريقيا هي حقاً الأرض المتميزة. النباتات الموكلة إليها، تتطور في بضعة فصول الربيع. البذور التي تعطى لها، تجعلها مائة ضعف»². تكثر أشجار ونباتات عند أضرحة المرابطين ومقامات الصالحين أو المساجد. «أشجار السنديان الكبيرة تلقي بظلالها على النصب الموقر. دائماً تقريباً، في الشرق، يرافق الأماكن المقدسة باقة من الأشجار»³. وأرض المقابر غنية بالأسمدة الطبيعية، ولكونها «معجونة بمادة بشرية، تجعل النباتات الضخمة تنمو، مثل الخبازي والصبار والألوا فيرا الوحشية بحريّة تامّة»⁴.

النخيل منتشر في الواحات والمدن، و«يعتبر النخيل وثمره من أهم الأشجار المقدسة داخل رقعة الفولكلور العربي بعامة- وبخاصة أكثر كياناته البدوية[...] فهناك علاقة بين النخيل، وبين الموت ثم القيامة أو توالي الولادة والاستمرار»⁵. نخلات منحنية من ثقل عناقيد التمر على السعف، تحمي البيوت من حر الشمس، أو تذكر المرء بأشجار النخل بأسقات، تزين أفنية المنازل بجمالها، والقبور بظلالها.

في الأطلس الصحراوي مناطق مغطاة بالحلفاء، والشيخ، والرجلة (قطاف)، والإكليل؛ والفسق البري والمصطكى. أما الحلفاء فهو نبات كثيف وكثير الفائدة للإنسان والحيوان. يستعمل في الشرق في صناعة أدوات الضفر، وفي الصحراء خاصة، الحصائر، والقبعات، وأواني الطعام، وأوعية للحليب والماء، والأطباق الكبيرة لتقديم الفواكه.

¹ Edmond et Jules de Goncourt, Pages retrouvées, op.cit. p.280.

² Lettres sur l'Algérie, op.cit. p.177.

³ Loin de Paris, op.cit. p.71.

⁴ Une année dans le Sahel, op.cit. p.238.

⁵ شوقي عبد الحكيم، موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، مكتبة مدبولي، دت، ص665.

3-فضاء التراث الثقافي: اهتمام الرحالين بالتراث الثقافي الشعبي

1.3- التراث اللامادي

2.3- فنون القول: الأمثال والحكم، والأشعار، والقصص والأساطير

استعان الكتاب الرحالون بضروب شتى من فنون القول، مستمدة من ثقافة المجتمع المنظور، فساقوا أمثالا وحكما مشهورة فصيحة أو شعبية، ورووا أشعارا، وسردوا قصصا تداولتها الألسنة شفاهة، اقتضتها المناسبة والموضوع والغاية، فتضمنت سياق الأحداث المدونة التي شاهدها وعاشوها خلال رحلاتهم، لاستخلاص فكرة نمطية عن المجتمع المستعمر، أو تسويق فكرة تقزم مكانة الآخر الأهلي.

سجل فرومنتان في رحلته في الساحل والصحراء أمثالا عربية تصور عقلية الناس وحياتهم، ترجمها وشرحها ليبين عمق معاشته للمجتمع الجزائري، يسبقها غالبا عبارة "هناك مثل عربي يقول"، أو ما يقوم مقامها من المعاني المتشابهة. تعددت موضوعاتها بين النصح: «هناك خمس خطوات لتكون حكيماً، الصمت، والسمع، والتذكر، والتصرف، والدرس»¹. الترغيب في الهوينى: «يمشي كالنعام»². وتحبيب الصمت وذم كثرة الكلام واللغو: «الكلام من فضة والصمت من ذهب»³، والدعوة إلى حجاب المرأة عن الأجانب خشية وقوع الفتنة: «عندما ترى المرأة ضيفها، لن ترغب أبداً في زوجها»⁴. اختار الأقوال المأثورة عن آداب الأكل والشراب وحسن الضيافة لتداولها، بعضها مستمد من الثقافة الدينية والاجتماعية التي تعلّم الناس الآداب العامة، وتكشف عن اختلاف فضاء الآخر. منها: «اترك الوسط، لأن بركة السماء ستنزل»، و«من يشرب يجب ألا يتنفس في الكوب الذي يوجد فيه المشروب؛ يجب إبعاده عن شفثيه لالتقاط أنفاسه؛ ثم عليه أن يعاود الشرب مرة أخرى»، و«وضع لحية الغريب في يد مضيقه»⁵.

1- Une année dans le Sahel, op.cit. p.289.

2- Un été dans le Sahara, op.cit. p.157.

3- Ibid. p.208.

4- Une année dans le Sahel, op.cit. p.212.

5- Un été dans le Sahara, op.cit. Pp.14,15.

أما مارميه فقد ذكر بعض الأمثال المتعلقة بالخيل وفضلها في الثقافة العربية الإسلامية، مقتبسة من كتاب الضابط دوما، الذي ترجمها إلى الفرنسية ليفهمها المتلقي الفرنسي، تتضمن في مجملها الدعوة إلى العمل والجهاد في الحياة، مثل، "ركوب الفرس، وطلّوْث المراس (كلب الصيد)، يقلعُ الدود من الراس". و " الخيل للبلا، والإبل للخلا، والبقر للفقير". أو أقوال مأثورة تلقّاها من أفواه الشيوخ المرابطين مثل، "جنّة الأرض على ظهور الخيل، ومطالعة الكتب"¹.

وانفرد ألكسندر دوما في مذكراته بإيراد نماذج شعرية غزلية لعشاق عرب مترجمة إلى الفرنسية، فاختار من الثقافة الشعبية الشفوية، نصوصا مجهولة المصدر. يتغزل أحدهم بحسن عناية المحبوبة بجمال وجهها، ورسم حاجبي العين، لأن العين في الوجه أول شيء يلفت انتباه الآخر. قصيدة غزلية أخرى من الغزل الصريح عنوانها "من عاشق إلى حبيبته"، يصور فيها العاشق العربي جانبا من الجمال الحسي للمحبوبة التي هام بها، مستخدما تشبيهات استمدت أدواتها من البيئة المحلية (الحناء، ثلج، مآذن...) ². يُذكر الكاتب المتلقي عبر هذه النماذج الشعرية الطافحة بالمشاعر الجميلة، بفضل المرأة العربية في صناعة الخيال الشعري لدى الرجل، وقدرتها على تفجير العواطف الرقيقة الكامنة في فؤاده، رغم ما عرف به من جفاء الطباع وحادّة المزاج، اللذين تمليهما البيئة الاجتماعية المحافظة والطبيعة القاسية.

وفي مجال السرد القصصي، يروي السارد (دوما) قصص المحبّين من صلب المجتمع الجزائري، اشتهرت على عهد باي وهران في حدود عام 1825 قبل نهاية الحكم التركي، اختار منها قصتين، الأولى بطلاها "يمينة وحمود"³ والثانية "خديجة وبوجراة"⁴. يتبين من هذين النموذجين مكانة المرأة العربية عند الرجل عكس ما تروج له دوائر الاستشراق، وحجم التضحيات العاشق من أجل المحبوبة، واحتفاء العرب بطاقة الحب المذهلة منذ القدم، والوعي بقيمتها في

Lettres sur l'Algérie, op.cit. Pp.119,120.

Le Véloce, op.cit. Pp.217,218,219.

Voir : Le Véloce, ibid. Pp.219-221.

Ibid. Pp.224,225.

-1

-2

-3

-4

ربط العلاقات في الثقافة العربية. وراوي المجالس أو القاص الشعبي، هو الشخص الذي يسرد قصصا على جمهور من الناس المستمعين في مختلف التجمعات والمجالس للترفيه والترويح، والتي تصدرها قعدات التسالي والتلاهي في الحفلات والمقاهي. يتحدث غوتيه عن برنامج مهرجان العيساوة، الذي بدأ «بسر القاص، كما هو الحال في المقاهي»¹.

2.3- فن الأداء الصوتي (السمعي) : الغناء والموسيقى

انتبه الأنثروبولوجيون والكتاب الرحالون إلى الثراء الذي تزخر به الجزائر في مجال الموسيقى والغناء، ونوهوا بميزة الإحساس بالذوق الجميل والطرب الأصيل عند أهلها. تحدثوا عن ولوع الموريسكيين في مدن الساحل والتل بفنون الغناء والطرب والموسيقى الموروثة عن الأندلسيين، خاصة في مدينة الجزائر التي كانت ملتقى لأعراق شتى قبل الاحتلال الفرنسي. حيث اعتادت بيوت القصبة إحياء حفلات غنائية ليلا، لأنهم أهل فن وثقافة.

يتناول فايدو شغف الموريسكيات بالغناء والموسيقى، فيصف مغنية حسنة الهيئة تؤدي أغنية حزينة عن الوطن الضائع، بحنين عميق إلى الماضي السعيد قبل الاحتلال، وهي تعزف قيثارتها برفق وإتقان. وفي السياق نفسه، يصف موريسكية أخرى تجيد الغناء، وتغني بصوت راعش، يعبر عن شدة الألم والأسى، حزنا وندما على بلدها المحتل. ويسجل إعجابه بالموسيقى والطرب العربيين، مصححا الاعتقاد الذي كان سائدا في قوله: «ليست الموسيقى العربية جلبة خالصة، كما نعتقد؛ إنها متنوعة للغاية، أولاً، بالنسبة للأذان المتمرس، ثم إنها تترك لك في النفس لا أدري، شيئاً ما يثير الإعجاب بها بهدوء حزين. وهناك ما يشبه الندم على الوطن الغائب في رتابة المقاطع المكررة»². يلاحظ أن الكاتب ربط بين جودة الغناء والموسيقى وحسن اختيار موضوعات الأغاني الوطنية، والذي كان بعيدا عن الابتذال.

Loin de Paris, op.cit. p.80.

Alger, op.cit. p.72.

-1

-2

ظاهرة أخرى من الغناء الموريسكي يتمثل في النوع الثنائي الذي يؤدي بين حبيين في شوارع القصبة ليلا على نحو ما تعرفه قصص الفروسية الرومانسية بأوروبا، ولا يعرف لها أثر في الجزائر بهذه الطريقة سوى شعر المداحين الذي ينشده الشعراء المتجولون. يقول فايدو: «هناك أيضًا رجال يغنون للتأثير في قلب فانتتهم. وغالبا ما ترد الفاتنة من الجانب الآخر من الجدار، دون أن تظهر نفسها. فتأثير هذه الثنائيات الغنائية، أو بالأحرى هذه الأغاني مع المقاطع المتناوبة، لا يخلو من روعة»¹. سرد واحدة من قصص الغناء التي سمعها بين عشيقين في إحدى الليالي في شارع سيدي عبد الله لم يتمكننا من اللقاء.

3.3- فن الأداء الحركي: الرقص الشعبي عنوان الإثارة والإغراء

يتنوع الرقص الشعبي في الجزائر في تعبيره عن الثقافة والمزاج، لذا تختلف طقوسه مرتبطة بأبعاده الدينية والاجتماعية والنفسية من منطقة إلى أخرى. بيد أن كتاب الرحلات اهتموا بالرقص الشعبي المتنوع في بعده الغرائبي، وراحوا يبحثون فيه عن الإثارة الجنسية، ويفسرون حركاته وإيماءاته وإيحاءاته تفسيراً إغرائياً وشهوانياً، للطعن في أخلاق الجزائريين، غافلين بقصدية عن أبعاده الأخرى ضاللاً وتضليلاً. حضر غوتيه حفلة رقص موريسكي في مدينة الجزائر، فوصف تفاصيل اهتزاز الجسد الراقص كله في حركات متواصلة دون انقطاع: «يتكون الرقص الموريسكي من تموجات دائمة للجسم، والتواءات في الكليتين، وتمايلات في الوركين، وحركات ذراعين تلوحان بمنديل»². ويشير إلى أن هذا الرقص مجرد عرض غريب، له جمهوره من الأهالي المنحرفين، بما ينطوي عليه من إيماءات ماجنة، وحركات جسدية وحشية: «كان الزنجي يرافق هذا العرض الغريب بتكشيرات داعرة ووثبات القردة، والتي بدت ترضي فئة الأهالي من الجمهور»³.

أما الثلاثي فرومنتان وموباسان وجيدٌ فقد تناول كل منهم الرقص الشعبي النابلي، المشهور عند قبائل أولاد نايل في الأطلس الصحراوي، ووصفوا حفلات الرقص التي كان يوفرها زعماء

¹ Alger, ibid. Pp.60,61.

² Loin de Paris, op.cit. p.75.

³ Ibid. p.76.

القبائل للجيش الفرنسي عند استضافتهم؛ لأن مناطق الصحراء كانت تتعدم فيها مراكز اللهو ووسائل الترفيه كتلك التي تتوفر في أوروبا؛ وكان الكتّاب الرحالون، الذين يرافقون الضباط يحضرون هذه الحفلات. حضر فرومنتان حفلاً أحيته راقصات من قصر البخاري وسط جمع من أفراد الجيش والأهالي المحافظين. أثناء الحفل كانت الراقصة، «تقف في وسط هذا الجمع الحريص على النظر إليها، تتحرك في إيقاع مع تموجات طويلة للجسم أو قليل من ضربات الأرجل المتشنجة على الأرض، وأحياناً يكون رأسها نصف مقلوب في إغماء غامضة، وفي بعض الأحيان يداها الجميلتان (الأيادي بشكل عام، جميلة جداً)، ممدودتان ومفتوحتان، كما لو كانت تعويذة سحرية، الراقصة، للوهلة الأولى، وعلى الرغم من المعنى الواضح جداً لرقصتها، يبدو أنها تلعب مشهداً من مسرحية ماكبث على أن تمثل شيئاً آخر. هذا الشيء الآخر، في الواقع، هو موضوع الحب الأبدي الذي طرز عليه كل شخص تخيلاته الخاصة، والتي عرف كل شخص، عدانا، كيف يصنع رقصة وطنية»¹.

عرف فرومنتان الرقص الموريسكي في مدينة الجزائر، والرقص النابلي في الصحراء، وحاول أن يرصد الفوارق بين النوعين من خلال إجراء مقارنة بين الرقص في الساحل والصحراء من حيث الأداء والغرض. فأما الأول فقد عدّه عرضاً من العروض المثيرة، التي تقام في الأماكن المشبوهة: «أنت تعرف رقص الموريسكيات. له فائدته، والتي تأتي من الثراء أكثر من الذوق السليم للأزياء. ولكن، باختصار، إنه غير ذي أهمية أو فاحش. إنه نظير عروض عرائس القراقوز الخليفة ولا يمكن أن يمنع، على أي حال، من أن تشعر قليلاً بمكان سيء السمعة»². يجدر القول بأن مسألة الإثارة والخلاعة في الرقص الموريسكي، أجمع عليها كل الكتاب الذين وصفوه، غوتبيه ودوغونكور وفرومنتان. وأما النوع الثاني فوصفه بالرقص العفيف الهادف، بيتعد عن الابتذال الذي يمكن أن يدين المرأة العربية: «على النقيض من ذلك، فإن الرقص العربي، رقص

Un été dans le Sahara, op.cit. p.21.

Ibid.

-1

-2

الجنوب، يعبر عن ظرافة أكثر واقعية، وأكثر عفة، وبلغت المحاكاة إلى حد ما أدبية، دراما صغيرة شغوفة، مليئة بالقصص الرقيقة؛ إنه يتجنب قبل كل شيء الإثارات المفرطة التي تمثل سوء فهم كبير من جانب المرأة العربية»¹. غير أن موباسان كان له رأي آخر في الرقص العربي في الجنوب.

يحاول فرومنتان أن يعطي دلالة اجتماعية ونفسية للرقص في المجتمع النابلي المحافظ، ويشرح بعض تعابيره الإيمائية الصامتة التي تتطوي على قصة حب متخيلة تؤديها الراقصة ببراعة، يتابع باهتمام بالغ حركاتها الخاضعة للحن الموسيقي الحزين الذي يصبح أكثر حيوية بوقع ميزان الدفوف والنايات؛ تتفعل، تتحرك خطواتها الواحدة تلو الأخرى، تصبح إيماءاتها أكثر جرأة. ثم يبدأ بينها وبين الحبيب الخفي (المتخيل)، الذي تتحدث إليه بصوت الناي، عرض تمثيلي مثير للشفقة: تهرب المرأة، تفر من الحبيب، ولكن يبدو أن كلمة عذبة جرحت قلبها: فتضع يدها، ليس للشكوى ولكن لإظهار مدى تأثرها، والأخرى، بإيماءة ساحرة، تبعد عدوها الجميل على مضض، وكأنها تقاوم حبا مستحيلا وتدافع عن نفسها بانفعال شديد.

يؤدي الفرسان العرب نوعا من الرقص الفولكلوري المعروف بالفانتازيا fantasia، يرقصون جماعات أو فرادى على ظهر الجياد، ويركضون بسرعة فائقة مطلقين رصاص البارود، وينتشر في ربوع الجزائر الشاسعة احتفالا بمناسبات مختلفة. يصف مارميه فرقة من هؤلاء الفرسان في حضرة الماريشال بيجو ووزيره دوسالفاندي de Salvandy، مصورا خفة حركاتهم وسرعتهم الفائقة حتى تطايرت برانيسهم.

Un été dans le Sahara, op.ci. p.22.

-1

4- التراث المادي

1.4- الأزياء والطبخ

اشتهر الجزائريون عبر التاريخ بلباس البرنوس رجالا ونساء؛ وهو رداء تقليدي يرمز إلى الأصالة والشهامة والسيادة، بنوعياته المصنوعة من صوف الغنم أو الوبر حسب مناخ المنطقة ومواسمها، وتعدد ألوانه أبيض وأحمر وبني وأسود. فالبرنوس الأسود خاص بالمناطق الواقعة بين التل والصحراء المدية والجلفة، ونادراً ما يُرى في القبائل الساحلية ويختفي في الجنوب¹. البرنوس زي يرتديه الرجال بالدرجة الأولى أكثر من النساء في بعض المناطق. يتحدث فرومنتان عن شكل البرانس الرجالية وكيفية ارتدائها مع لوازم أخرى في التل، من خلال الهيئة الصارمة التي ظهر بها مضيّقه سي الجيلالي بن مولود قائد قصر البخاري، الذي كان يرتدي برنوسين، أسود فوق أبيض، للتدليل على مركز السيادة والهيبة. فالبرنوس الأسود يصنع من الصوف الثقيل أو شعر الإبل (الوبر). يشبه قماش اللباد، ثقيل جداً، سميك، خشن الملمس، واسع أكثر من برنوس الصوف الأبيض، ويسقط في قطعة واحدة عندما يكون معلقاً؛ يرفع على الكتف، ويشكّل طيّة واحدة أو اثنتين منكسرتين. يظهر فيه الرجال الطوال قصار القامة عندما يكون واسعاً، ثم يعطيهم ثقلاً في المشية، وجلالاً في الهيئة. البرنوس قريب من ثياب الرهبان في طريقة نسجه من الخلف. يتميز الزي الرجالي الموريسكي باختيار الأقمشة الرقيقة المناسبة للحياة الحضرية، و«يتكون من قميص بلا ياقة وسروال ينحدر تحت الركبتين، وصدريّة أو صدريات متعددة، وسترة. الكل يغطيه برنوس أبيض. إذا كان صغيراً يرتدي قلنسوة (شاشية)، ويطوق حول هذه القلنسوة قطعة طويلة من قماش الموسلين الأبيض أو بلون خفيف ملتوٍ أيضاً، ويحتذي حذاء واسعاً ومستديراً»². ويرتدي الزوج ملابس «مثل الموريسكيين أو مع القندورة البيضاء وكلهم يرتدون العمامة»³، تقليداً للعرب.

Un été dans le Sahara, op.cit. p.12.

Le Véloce, op.cit. p.361.

Ibid. p.362.

_1

_2

_3

الحايك ثوب من قطعة واحدة ترتديه النساء في جل المناطق، بأشكال وألوان وأقمشة مختلفة، وهو بمثابة حجاب تستر به المرأة جسمها عن الغرباء. فهناك الحايك الأبيض والمائل إلى الصفرة والرمادي، يلبس في بعض المدن مع وضع العجار على الوجه، أو يوضع الحايك وحده دون العجار، والحايك الأسود والحايك الأحمر، وهناك الملاءة أو الملاية والملحفة. يرتبط الحايك في جوهره بالمرأة الشرقية، ويرمز إلى ثقافة المجتمع الذي تنتمي إليه. وقد لفت نظر الكتاب الرحالين بشكل أساس، باعتبار أن هذا الثوب النسوي أحد عناصر المشكلة لجاذبية المرأة الغرائبية، التي ركز عليها المتخيل السردى الغربي، سيما إذا أضيف فوق ثياب أخرى. يذكر فرومنتان بأن «الحايك قماش مصنوع من القطن ناعم وخفيف، وبلون ملتبس بين الأبيض والأصفر والرمادي. يتم ارتداؤه مثل ملابس التماثيل اليونانية تقريبًا، يدبس على الصدر أو الكتفين، ويثبت على الخصر بواسطة حزام»¹. ويتذكر، وهو يشاهد حجاب نساء الأغواط الأبيض، «الملابس الملونة لجنوب قسنطينة، والحجاب الرمادي أو الأبيض، والعمائم السود، والصوف الأرجواني الملتوي في الشعر، خاصة الحايك الأحمر الشهير»². وخلافا لذلك «ترتدي الزنوجيات حجابًا طويلًا من القطن الأزرق، وفيه زيّ يتكون من سروال، وقميص، وصدريّة حمراء وفوطة، قطعة قماش قطنية زرقاء مع خطوط عرضية كبيرة، ذهب وأحمر أرجواني، والذي يدور من الوركين وينخفض إلى كاحلي القدمين. عندما يتزوجن من الموريسكيين، فإنهن يرتدين ثيابًا موريسكية»³.

في فن الطبخ، يرى موباسان أن الطبخ الجزائري «يتكون من أربعة أو خمسة أطباق فقط. ونوع هذه الأطباق لا يختلف»⁴. ويأتي الكسكس (الكسكسي أو الكسكسو) في مقدمة الأطباق المشهورة في قائمة الطبخ المحلي، ينتشر إعداده في الجزائر، ويقدم بكيفيات مختلفة من منطقة إلى أخرى بلحم الضأن أو الإبل أو البقر. يعد هذا الطبق الأساس في كل مناسبة. وشواء الخرفان في الهواء على الطريقة العربية في مناطق الصحراء حيث يكثر الرعي، يوضع الخروف المشوي

Un été dans le Sahara, op.cit. p.97.

Ibid. p.94.

Le Véloce, op.cit. p.362.

Au Soleil, op.cit. p.73.

-1

-2

-3

-4

على سلة مسطحة من الحلفاء المصفورة. و«يتم تحضيره إما بالدجاج أو لحم الضأن. بعد تقطيع اللحم إلى قطع صغيرة، وتوضع له الزبدة على المقلاة»¹. والرؤيئة من الأكلات السريعة، «أحياناً، في الطريق، هناك من يأخذون القليل من الروينة (دقيق القمح المحمص) في مزودهم أو في القلنسوة القذرة من برنوسهم؛ يذیبونها في راحة أيديهم ويعجنونها في شكل كرة. وعادة ما تعد هذه اللقمة الواحدة من الدقيق في الماء وجبة»².

يأكل الجزائري الجراد نيئاً ومطبوخاً، ويتفنن في إعداد أشهى الأطباق. وقد تحدث غوتيه عن بعض الكيفيات المصنوعة من الجراد كالمخللات. ويقدم مع أصناف أخرى من لحوم الحيوانات البرية والبحرية. ويحاول ذكر العلل النفسية لهذا الذوق المتوحش الذي يراه غريباً وفساداً، وما يدفعهم، بصفتهم سكاناً بدائيين، إلى أكل هذه الحشرات: «نحن نفضل أن نصدق أن العرب يأكلونه من أجل الانتقام بدلاً من الجشع؛ يوضع هذا الأكل بجانب أرجل الضفادع والقواقع وقنفذ البحر وغيرها من فن الطبخ الفاسد»³.

أنواع الشراب المعروفة عند العرب هي اللبن والشاي والقهوة، تختلف بطرق إعدادها وكيفية تناولها عن الأوروبيين كونها تخضع للذوق المحلي. يتحدث غوتيه عن تميز القهوة العربية عن القهوة الفرنسية الخفيفة: «فنجان من خبز [...] يحتوي على القهوة، أعدت بطريقة مختلفة عن طريقتنا. تصب مع البقايا، وليس لديها تلك المرارة والقوة الشديدة التي تجعل الاستعمال عندنا خطيراً»⁴. يسرد فرومنتان مختلف أصناف الطعام والشراب في بوغار: «يتكون الشراب من الماء والحليب الحلو والحليب الحامض (اللبن الرائب)؛ اللبن الحامض يبدو مفضلاً مع الأطعمة العسيرة

Au Soleil, op.cit. p.74.
Un été dans le Sahara. p.
Loin de Paris. p.66.
Ibid. Pp.38,39.

-1
-2
-3
-4

الهضم؛ الحليب الحلو، مع الأطعمة المتبلّة»¹. ويضاف إلى القهوة العربية نكهات أخرى، فقد ذكر فايدو أن العرب يحبون شرب «قهوة الموكا بماء الورد»².

5- البحث عن الآخر وغزو الذات: غرائبية الغيرية

1.5- الحريم الاستعماري وأسطورة المرأة الشرقية: كليشيهات المرأة الغرائبية

لم يترك أرباب الاستشراق الغربي رذيلة في قاموس القبائح إلا اتهموا بها الجزائري، مهما كان ومن دون استثناء. وتشابهت الصور التي قدمته عليها نصوص الرحّالين في كل مكان من مناطق الجزائر، حيث دارت الصور والأوصاف حول تيمة جوهرية هي غرائبية الغيرية *l'exotisme de l'altérité*، التي تقوم على مصطلحين استعماريين، النشاط الجنسي والتدجين.

ألقى المستشرقون أضواء الكتابة التخيلية على المرأة الشرقية، باعتبارها جنسا ضعيفا يسهل اختراق عالمه الغامض مهما كان مسيحا بأسوار وأسرار، واخترعوا لها شبكة من التوصيفات الأنثوية القارة، جمعت كل الشرور الاجتماعية والآفات الخلقية. كانت بمثابة كليشيهات وقوالب ارتبقت في فكر الاستشراق بأسطورة المرأة الغرائبية، أطلق عليها مالك علولة مصطلح "الحريم الاستعماري" 1984، أو "حريم الرأسمالية"³ وفق قول Christelle Taraud كرسنال طارو. وتتجلى المرأة الجزائرية في سرود الرحالين في صورة شخصية مهزوزة وغير متوازنة، تُستدعى صورها المتعددة والمتقابلة «عن طريق تعايش النعوت المتناقضة»⁴، ذات حمولة ثقيلة تمثل جلها أقصى درجات السلبية، وإن بدت إيجابية في ظاهرها، وتدعى للتحقير "موكير". فهي إما متدينة متعصبة، وطيبة ساذجة؛ ومحافضة متمتة؛ وأمّية جاهلة لا تكاد تميز يمينها من شمالها؛ ومسلوبة الإرادة والحرية، لها واجبات وليس لها حقوق، ومغلوبة على أمرها، خاضعة للجنس القوي، تعيش من

¹ Un été dans le Sahara, op.cit. p.13.

² Alger, op.cit. p.72.

³ Voir : Patrick Arousseau, le-regard-porte-sur-les-prostituees-en-algerie-un-modele-de-dominance-occidentale-l-exemple-de-l-apparition-des-ouled-nail-chez-Fromentin, Maupassant et Gide. p.4. <http://viatica.univ-bpclermont.fr/le-carnet-de-voyage-permanence-transformations-legitimation/>

⁴ تزفيتان تودوروف، مفاهيم سردية، تر : عبد الرحمان مزيان، منشورات الاختلاف، ط 1، 2005، ص 76.

أجل خدمة الرجل لا من أجل نفسها، وهي بمثل هذه الصفات رمز التخلف. وإما بهيمة متوحشة، وساحرة مشعوذة؛ وعابثة لا يستقر لها أمر، متمردة على الأعراف والدين؛ وفاسقة فاسدة الطبع، شهوانية تمثل وعاء للجنس، وباختصار هي بهيمة بشرية *La femme sauvage*.

تتمظهر المرأة الأهلية بمظهر فيزيولوجي خاص يختلف عن مظهر المرأة الأوروبية، كونه جمالا هجيناً تولد من اختلاط الأجناس والأعراق، ويتنوع بين الحسن في المناطق الساحلية التي تكثر فيها الموريسكيات والكرغليات والبربريات، وذوات البشرة البيضاء والمشرقة والعيون الملونة، والمائلة إلى البياض عموماً. وأقل جمالا في المناطق الداخلية التي تكثر فيها العربيات السمراوات وذوات العيون الداكنة، إضافة إلى نساء السود الزنجيات القادمات من عمق إفريقيا. ويكاد الكتاب يجمعون على أن مظهر الأهليات اللاتي شاهدوهن في مختلف المناطق والأحوال، بعيد تماماً عن المثالية، وعما كان يقال ويوصف في قصائد العرب وسرودهم الشهيرة، وفي أعمال المستشرقين الأوروبيين.

البيت هو المكان المحدد للمرأة، و«لا تخرج النساء إلا محجبات، ومكان اجتماعهن المعتاد مكان حرمة: هي الحمامات»¹ أو لزيارة المقابر أو المساجد. يفسر فايدو، أن سبب انغلاق البيوت العربية من الخارج وقلة وجود النوافذ فيها هو جموح المرأة العربية وصعوبة ضبط اندفاعها وكبح أعتة تهورها، مما يثير حفيظة الرجل العربي وحميته، فيحرص على الحفاظ عليها من الخيانة والزلل والانزلاق: «لاحظ كم كان هؤلاء الغيورون يعرفون كيف يحافظون على زوجاتهم! لا يوجد سوى أربع نوافذ في هذه الغرفة، وكلها تطل على البحر، وكان من الممكن أن يخوض العاشقون المغامرة على متن قارب عبر الشعاب، ويترقبون عشيقاتهم من خلال أنابيب المناظير، ليتبادلوا بعض الإشارات معهن»². ويقول مارميه ساخرا من حيل النساء في خيانة الرجال والتمرد على سلطتهم البطربيريكية التي جعلت من المرأة، ثمرة محرمة: «كان دخول الحرم ممنوعاً علينا بطبيعة

Une année dans le Sahel, op.cit. p.211.

Alger, op.cit. p.32.

-1

-2

الحال. لكن الفضول الأنثوي قد انتهك في حد ذاته تعليمات الأعراف المحمدية، واستطعنا أن ننظر لفترة طويلة بما يكفي إلى امرأتين أو ثلاث نساء بالتناوب كن يفتحن قليلا بأيد خائفة الستار الذي كان يخفيهن عن أعيننا، نظرن إلينا بعجل وقلق»¹. ويرى أن هذه الحيل تنطوي على زيف شعر العرب الذي يبالغ في وصف حياء المرأة وتعففها، وهكذا ليجرد المرأة من الحياء، ومن هذه الصفة الخلقية المثالية التي يتغنى بها العرب منذ القدم، ويبرز جموحها غير المحدود. ويتبدى هذا السلوك الخارج عن المعتاد، حسب ألكسندر دوما، في جرأة المرأة العربية التي تغامر من أجل حبيبها مهما كان الثمن، «فعندما تعشق، لا تستطيع المقاومة. على العكس من ذلك، فإنها تسعى إلى تلبية رغبات عشيقها، وتسهم في تحقيقها بكل الوسائل المتاحة»²، وتحرص على تعيين موعد اللقاء بالحبيب دون حرج، «فلا عيب أن تلتقي النساء العربيات. إذا قبلت المرأة هذا الحب، فلديها ثلاث طرق لتعيين مواعيدها: في النافورة أو في الخيمة أو في الهودج»³. ويتم اللقاء بعيدا عن الأنظار، وتحت عناية الأهل وحماية القوم. وقد يلقي العاشق حتفه رميا بالرصاص إذا انكشفت خيانتة، وتلقى العشيقة مصرعها إذا تركت حبيبها.

تكونت صور انحلال المرأة في الأدب الاستشراقي، من خلال «التأثر برواية "كشك هانم" لفلوبير عن المرأة الشرقية، ومقابلة الروائي الفرنسي فلوبيير مع غانية مصرية الذي أخرج لنا نموذج المرأة هو الشرقية»⁴، واستغلال مفهوم النشاط الجنسي المفرط في منظومة الدعارة الاستعمارية. اتُخذ مفهوم النشاط الجنسي عند الآخر في أدب الرحلة وسيلة للتعبير عن الفكر العنصري المزدري للمرأة الشرقية؛ فهي أيقونة الإغراء والجنس في الشرق عموما. ومن دواعي انتشار الدعارة في هذه الحقبة من تاريخ الجزائر كما روج المستشرقون. احتلت هذه التيمة حيزا عظيما في المتخيل السردى الرحلي، حيث تنافس الكتاب في تقديم نماذج كثيرة للجسد الآثم،

Lettres sur l'Algérie, op.cit. p.250.

Le Véloce, op.cit. p.223.

Ibid.

⁴ إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية عن الشرق، م س، ص 49.

بعدها أخرج فرومنتان نموذجا للدعارة الإثنية¹، عبر نمذجة عهر النساء النايليات رسما بالألوان وكتابة، اندرجت في سياق مفهوم شعرية الإثنوبورنوغرافيا Ethnopornographie؛ التي تغالي في تصوير شهوانية المرأة الأهلية المفرطة وسلوكها الشبقي الجامح، تتمثلها بهيمة بشرية على حد تعبير بعضهم (زولا وموباسان). تجسدت في مشاهد إغراء وصفت نساء أهليات أمام بيوتهن عارضات أجسادهن سرا أو علنا، في الحواضر الكبرى أو المدن الصغرى بمقابل زهيد وبغير مقابل؛ متمرديات يؤدين الرقص المحلي بلباس مثير للغرائز في بيوتهن، أو في المقاهي العربية والملاهي الفرنسية؛ حيث نساء مصنفات في قائمة "أولاد نايل" للعهر المقنن، يحترفن البغاء احترافا، محميات بالقوانين الاستعمارية التي تشجع الحرية في ممارسة فن الرقص، منتقلات بين المناطق، أو يقفن في الشوارع التي تكثر فيها الحركة بين المدن والقرى. يسمي الناس أولئك النساء راقصات تمويها وتحريفا لمهنة التجارة بالجسد، في حين يرى فرومنتان أن هذه التسمية غير دقيقة²، كونهن يمارسن معها الزنا لكسب المال.

تتجلى في تصرفات مشبوهة لموريسكيات في القصة. هؤلاء البغايا، «يجلسن على عتبة أبوابهن، وظهْرهن على الحائط، دون كلام، يمددن أقدامهن العارية أمامهن، ويعمل الجدار الأبيض كميز لزيهن ذي الألوان العنيفة»³. وفي الصحراء تسلك نساء أولاد نايل السلوك نفسه، «فجأة تظهر امرأة، واقفة أمام الباب، مع تسريحة شعر عريضة تبدو من أصل آشوري يعلوها إكليل ضخم من الذهب»⁴. تتجلى المرأة في صور أخرى غير صورة البهيمة الآثمة مع الجنس الآخر (الرجل)، وجدلية الأنثى ضحية الذكر. هي صورة البهيمة الشقية والأمية والكادحة التي تقوم بكل أشغال البيت، تعتني بالكبير، وتربي الصغير، وتنسى نفسها في خضم التعب الذي لا ينتهي حتى ينكمش جسمها ويفنى عمرها. «في الخامسة عشر عاما، هؤلاء البائسات، اللاتي

Patrick Arousseau, le-regard-porte-sur-les-prostituees-en-algerie-un-modele-de-domination-occidental-1-exemple-de-l-apparition-des-ouled-nail-chez Fromentin, Maupassant et Gide, op.cit. p.2.

Un été dans le Sahara, op.cit. p.20.

Alger, op.cit. p.58.

Au Soleil, op.cit. p.51.

-1

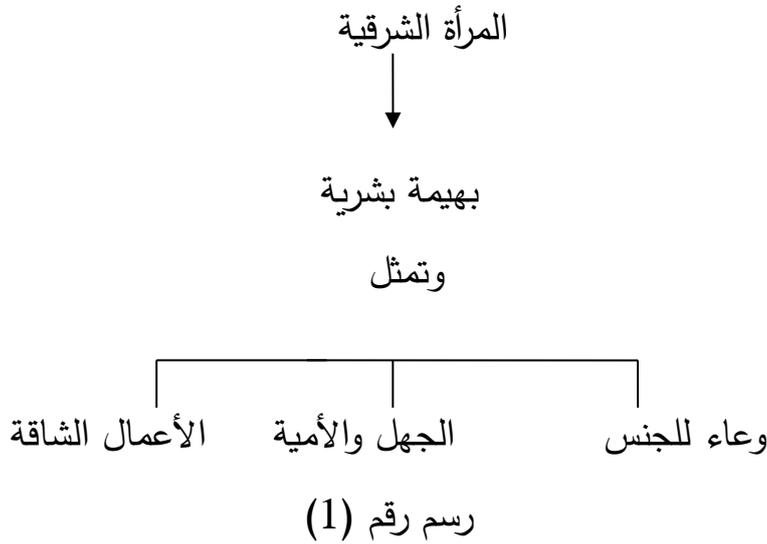
-2

-3

-4

سيكّن جميلاتٍ، مشوهاتٍ، مرهقاتٍ بالعمل الشاق. يتألمن من الصباح إلى الليل من كل الأتعاب، يجلبن الماء من عدة كيلومترات على ظهرهن طفل. يبدين كأنهن في الخامسة والعشرين من العمر»¹. يعملن بشقاء طول اليوم مثل البهيمة، يتألمن في صمت العذاب ولا أحد يكثرث بالأمهن.

وعلى هذا الأساس، تعددت تجليات المرأة البهيمة كما تمثلها المتخيل السردي الرحلي في أتعس صورها. تبدو صور المعاناة من شقاء العهر والبغي الذي أسقط عنها العفاف والحياة الكريمة، ومن شقاء الجهل والتخلف، ومن شقاء الكدح وتحمل أعباء الأسرة كما يظهر في الخطاطة التالية:



2.5- الرجل الأهلي في الخطاب الرحلي: بين الذكورة والأنوثة، والفحولة والرجولة، والشذوذ

تعرض الرجل الأهلي إلى شتى أشكال الاحتقار والشتائم، ونعت بأبشع النعوت التي تنتقص من رجولته وفحولته، وضرب في دينه وقيمه الخلقية والاجتماعية. ولم يترك أرباب الاستشراق الغربي رذيلة في قاموس القبائح إلا اتهموه بها، فكان الاشتغال على وهم الهيمنة الذي يقترن بالرجل الأوروبي وفرض الهزال على العربي. سعت كتب الرحلة إلى تأنيث الرجل وتأنيث هذا الخطاب بنزع صفات الشهامة والصرامة عن ذكوره؛ فوسمت الذكر بملامح أنثوية كالنعومة

Au Soleil, op.cit. p.100

¹

والليونة، وملاحة الوجه وتجرده من شعر اللحية، لتؤكد ضعف بنيته الجسدية، واحتياجه من ثمة إلى الرجل الغربي ليتصرف في أموره وحياته. يصف فرومنتان الموريسكيين بأنهم «شعب شبيهه بالأنثى، الفتيان تقريباً فتيات، والشباب يؤخذون على أنهم نساء، ووجه غير ملتج، وأشكال دائرية، وتقاسيم جميلة، ولكن ناعمة قليلاً، لا شيء قوي أو حازم؛ جمال غامض وغير مهذب وغير رجولي أبداً إلى أن ينقضي عمر الشباب نفسه بسبب قساوة السنين»¹. أما فايدو فقد رأى بعضهم يعمل في التطريز، ويبدون في هيئة مؤنثة ويشغلون بدقة². فالتطريز يحتاج إلى الجلوس الطويل في المكان عينه، والصبر الجميل، والدقة في الإنجاز؛ وهي صفات مناسبة لفطرة النساء وتكوينهن النفسي والعضوي.

لاحظ الروائي "جيد" في سلوك الشباب الجزائري مؤشرات انعدام الوعي بما يجري حولهم من أحداث والبعد عن الرشد: «إنه الجزائري. ندهش لسماعه يتكلم الفرنسية. الشاب وسيم، في غالب الأحيان وسيم جداً. بشرته ليست مشرقة، ولكن شاحبة. عيناه كبيرتان، ومفعمتان بالخمول؛ يختلط لديه التعب والكسل، ويبدو التعب غرامياً (عشقياً)؛ إنه يُبقي فمه نصف مفتوح وقتاً متأخراً، والشفة العليا مرفوعة، مثل الصبيان الصغار جداً»³ تشبه ملامح القائد سي الجيلالي بن حاج مولود عند فرومنتان: «إنها رأس جميلة، جدّ سمراء، مفعمة بالحماس والصرامة، على الرغم من الابتسام، مع عيون كبيرة ووديدة وفم مفتوح بشكل مستمر على طريقة الأطفال؛ وهذه العادة تكشف أسنانه الرائعة»⁴. يلاحظ أن هذا الانطباع حمّال للدلالات السلبية كقلة النضج والسذاجة. يربط بعض الكتاب بين رذيلتين؛ هما التأنيث والكسل لانتقاد سلوك الرجل الأهلي، وأن إحداهما تستلزم الأخرى. إذ الأنوثة يعترئها الفتور والضعف اللذان يولدان الكسل والخمول، وهذا من شأن النساء؛ ومن حصل له ذلك من الرجال، فهو مخنث بالضرورة والطبع.

Une année dans le Sahel. p.251.

V: Alger. p.48.

Amyntas. p.24.

Un été dans le Sahara. p.12.

-1

-2

-3

-4

لكن هناك من يدحض هذه المسلمة التي أراد الاستعمار إصاقها بالرجل الموريسكي الذي كان يمثل حضارة قديمة، تلاشى عهدا وبريقها؛ فيجد بعض الدارسين الغربيين أنه «من الواضح أن هذه الاستنتاجات المتعلقة بتأنيث الرجال الموريسكيين هي جزء من استراتيجية تبرير الهيمنة والتأكيد على التفوق الأخلاقي والثقافي الفرنسي. وافتقار السكان الأصليين إلى الرجولة يصبح في الأساس شعارًا لحضارة في حالة انحطاط»¹.

ولعل أبعث الرذائل التي ألقها الرحالون بالرجل الجزائري هي علة الشذوذ الجنسي، وقد استثمر موباسان في رسم صور هذه الرذيلة بشكل لافت للانتباه، ليتهاجم بها على الرجل الصحراوي المعروف بصرامته؛ ويشير إلى أن الشذوذ الجنسي الذي يعد خروجًا عن الفطرة الإنسانية، ومستثنى في كل المجتمعات الراقية عدا بعض الاستثناءات الفردية المعزولة عن القاعدة، ليس صفة شاذة في المجتمع الجزائري الذي لا يزال يعيش في المرحلة البدائية لنشوء البشرية، بل هي عادة من العادات الاجتماعية الراسخة في أخلاق رجال هذا الشعب المتوحش، ويكرر كلامه لقطع الشك بقوله إن: «مثل هذه الأحداث شائعة جدًا»². يسوق حوادث كثيرة مستمدة من متخيل رحلاته إلى الجنوب، ليؤكد وجود هذه العادة المثلية في صفوف جنود الصبايحية خاصة. يربط موباسان شيوع الشذوذ في أوساط الرجال بمسألة حجاب النساء وحبسهن في البيوت، وتعدد الزوجات المحصور في الأغنياء فقط، الذين يتزوجون بأربع نساء ناهيك عن الخليلات، يضاف إليهما المناخ الحار الذي يثير هذه العاطفة. وهذا الطرح يتناقض مع وصف نساء الشوارع وانتشار بيوت الدعارة في عهد الاستعمار، التي قال عنها الكتاب إنها كانت تغزو المدن الكبرى.

¹ - Aurélie Perrier, *Barbares mais virils, Représentations du corps indigène masculin et redéfinition des identités de genre et de race dans l'Algérie de la conquête, 1830-1870.*

<http://www.reseau-terra.eu/article1410.html>

Au Soleil, op.cit. p.58.

² -

في مذكرة "إقليم مدينة الجزائر" يروي السارد أن «شابا عربيا من البيت العظيم (؟) كان معروفاً في جميع أنحاء البلاد بسبب عاداته الغرامية التي جعلت منافسة أولاد نايل غير نزيهة»¹، فالرجال، أيضاً، ينافسون العاهرات في هذه العادة الغريبة. وحتى يوهم المتلقي بشيوع هذه الظاهرة المرضية في رجال المجتمع الجزائري ولا يعرفها الأوروبيون، يضيف في آخر حديثه هذه الجملة التقريرية التي تتطوي على أحكام جاهزة بالغت في التعميمية: «وهناك أيضاً حقائق أخرى شائعة للغاية ودنيئة، حتى أنني لا أستطيع أن أنشرها هنا»².

3.5- صورة الأطفال: نموذج مصغر لثقافة الأهالي الدونية

قُدمت صورة الطفل في شكل مصغر لمجمل الصفات المعنوية والجسمية الموروثة عن أهله، في أخلاقه وسلوكه ومظهره الخارجي سواء كان جنسه ذكراً أم أنثى. وتراوحت انطباعاتهم بين الحسن والقبح، غير أنها إلى القباحة أميل أحياناً. «أطفال من سن العاشرة إلى الثانية عشرة، والذين كانت رؤوسهم حديثة الحلاقة ملونة بألوان زرقاء وخضراء مثل جلد الحجل عندما يتحلل»³. اهتم فرومنتان بتوصيف الطفل، ليعطي صورة عن تصرفاته وشكله، وسرد حياته البائسة بلا دراسة ولا ممارسة هواية. لا يجد الأطفال الذكور شغل أوقاتهم غير رعي الأنعام في الحقول، واللعب مع الرفاق أمام بيوتهم لغياب المدارس، ماعدا الكتاتيب والزوايا في أحسن الأحوال، وكذا انعدام وسائل الترفيه. وتبدو مظاهر الفقر عند الأطفال الصغار جدا في حلق الشعور، والرؤوس العارية من الغطاء (الشاشية)، وقميص يكشف عن بطن كبير، ورجلين هزيلتين، وبشرة مغبرة. صفات أخرى قبيحة تتعلق بنظافة هؤلاء الأطفال، على وجوههم «حزم الذباب مثبتة في زوايا العينين والخياشيم والشفاه، تجعل هذه النسل المفرد، أقل سرعة من أخواتها، والأطفال أقل لطفاً»⁴.

Au Soleil, op.cit. p.58.

Ibid. p.60.

Loin de Paris, op.cit. p.38.

Un été dans le Sahara, op.cit. p.100.

-1

-2

-3

-4

نشأ الطفل الأهلي أثناء الاحتلال في بيئة سياسية متوترة، يسودها الصراع بين المستعمر السيد على أرض غيره، والمستعمر العبد الخادم غيره. وعلى الطفل أن يدرك هذه الجدلية منذ صغره حتى يشب على طاعة السيد، ويعمل كالعبد كبيراً، ويتلقى توصيات من الكبار تجبره على ممارسة طقوس الخضوع، لصالح استعلائية الأنا الغالب.

تُعامل الطفلة معاملة خاصة، فلا يسمح لها أن تغادر البيت كثيراً كالذكر، وإن كانت تتمتع بحرية أفضل من المرأة. يتحدث مارميه عن طفلة صغيرة، وهي ابنة أحد الشيوخ الموالين للاستعمار في إقليم وهران، أراد والدها الفخور بها أن يظهرها للفرنسيين لتكون مثالا لجمال المرأة العربية، قائلاً: «كانت ترتدي صفاً من الترتير حول رقبتها وسترة حرير مستديرة فوق جسدها وسروال موسلين ونعالاً مطرزة عند قدميها. هذا الشخص الصغير الجميل المزين بالورنيش والوشم، جاء برزانة للجلوس على الأرض أمامنا»¹. يصف زينتها المستمدة من مواد الطبيعة المحلية؛ فقد «استخدمت الريشة لتحسين ألوانها الطبيعية. غطى أرجواني الحنة أظافرهما. خط طويل أسود مثل جناح الغراب تمدد وانضم إلى حواجبها، ورسم الوشم على جبهتها وعلى ذقنها زهرة صغيرة زرقاء»². وترتدي فتيات الصحراء مثل أمهاتهن، مناديل بدلا من العمام. لا يغيرن تصفيفة الشعر الوحيدة التي ألفنها، شعرهن كثيف مقصوص ومصبوغ بالحناء، ملامحهن فاتنة تمتزج فيها كرامة المرأة العاقلة مع طيبة الأطفال المتوحشين³.

Lettres sur l'Algérie, op.cit. p.251.

Ibid.

Un été dans le Sahara, op.cit. p.98.

_1

_2

_3

8- الغروتيسك: الأوصاف الساخرة لتشويه الأهالي

1.8- المظهر الفيزيولوجي: العيوب الخلقية والعيوب الجسدية

الغروتيسك¹، تقنية ساخرة في توصيف الأشياء والأشخاص توصيفا كرنفاليا، يعرض الآخر والهنالك في قالب هزلي من خلال توظيف بلاغة التشويه الأثيرة في الخطاب الأنثروبولوجي، المؤسس خاصة على الغرائبي والعجائبي، كالقبح الجسدي أو القبح المعنوي، بحثا عن مادة للفكاهة والإضحاك أو النقد بالميل إلى الاستهانة والاستهزاء. كان التركيز على المظهر الفيزيولوجي أداة من أدوات النظريات التي تبحث في الأنواع العرقية والتي تصنف الأجناس البشرية وفق اللون والملامح الجسدية. اعتمد الكتاب الرحالون في وصف دونية الأهالي وترتيبهم حسب سماتهم والتهكم عليهم. يحاول مارميه أن يبين الخصائص الجندرية التي تحدد «الصورة الدقيقة للفيزيولوجيا الجسدية والمعنوية لهذا الجنس العربي، والتي لا يمكن أن يغيرها مجرى القرون ولا الاتصال بالأجانب»².

فيزيولوجيا غريبة السمات وبعيدة عن المعقول. يؤكد فرومنتان، وهو يرسم بورتريهات لشخص عريية، ساخرا: «أتسلى بصور الوجوه. هل أنا مخطئ؟ أنا لم أخترمهم، أنا أستنسخهم، وأنا مندهش إذ أجدهم بعيدا عن المثالية التي نطمح بها»³. لم يكن العملاء المرتزقة من الأهالي مرغوبا فيهم، لأنهم في عيون الأنا خونة لا شرف لهم، وقد تعرضوا للهجوم هم أيضا، يصف مظهر اثنين من خدم الضباط العسكريين ويبرز العيوب الخلقية إلى جانب العيوب الخلقية، لتكتمل صورة الأهالي الموصوف بالدماثة والدناءة، «كلاهما له أنف أفطس، ذقن بلا لحية، أسنان بيضاء، لكنها كبيرة للغاية، وعيون كبيرة وقحة... ويقال إنهم كسالى أحدهم مثل الآخر، كما أنهم متبجحون وشبهون،

¹* الغروتيسك، مصطلح مأخوذ من كلمة grotesque ومعناها المعجمي سخري وساخر. أصله من الإيطالية grotta، ويعتمد على جمالية التهويل والتشويه. ارتبط بالفنون التشكيلية في عصر النهضة الأوروبية، ثم توسع أثره في الفنون الأدبية كالمسرح والرواية. من منظريه الروسي ميخائيل باختين، والألماني فولغانغ كايسر.

² Lettres sur l'Algérie, op.cit. p.252.

³ Sahara et Sahel, Un été dans le Sahara. p.63.

وأقل رقة، ولهم الميل نفسه إلى النبيذ»¹. تتكشف عنصرية موباسان عندما يتحدث بلهجة تهكمية عن المظهر الفيزيولوجي لبعض قادة عرب الصحراء. يصف شيخا في صورة تمثيلية مركبة من عناصر مرتبكة وغير متوائمة ليبدو غريبا، بأنه «رجل نحيل، ذو لحية مدببة، وأنف معقوف، وبوجه جرد، وخلق متقلب، وعمود فقري منحني، وعينان زائغتان»².

2.8-المظهر المعنوي: العيوب الخلقية والسلوكية

حاولت كتب الرحلة أن تؤكد ثبات العادات المكتسبة في السلوكيات الفردية واستمرارها في المجتمعات الشرقية التي عانت من الاستبداد التركي مثل الجزائر؛ كدليل على بطء النشاط الجسمي والعقلي، وهشاشة الحركة الفكرية والعلمية. يشرح فروممنان الفرق بين الفكرين العربي والغربي في مفهوم الحياة والعيش: «بالنسبة إلينا، أن نعيش يعني أن نتغير؛ وبالنسبة إلى العرب، الوجود هو البقاء. إذا كان هذا هو الاختلاف بين الشعبين فقط، فسيكون ذلك كافياً لئلا يفهم بعضهم بعضاً»³. فإذا كان الغربي يسعى بكل الطرق إلى تغيير حياته، وتطوير فكره وشروط عيشه؛ فإن العربي يحرص على البقاء فقط على حياة، مهما كانت الأحوال والأهوال، ولا يحرك ساكنا.

يستند الرحالون إلى رأي المفكرين الذين درسوا أحوال الشرق، لإضفاء نوع من المصداقية لأحكامهم التعميمية التي تجعل الآخر (الشرقي) في مرتبة أدنى من الأوروبي: «لأن الشرقيين، كما يقول أولئك الذين يعرفونهم، يمتلكون القدرة على البقاء ساعات كاملة في هيئة نباتية بحتة، يغشيهم الهواء الدافئ كما هو الحال في الحمام، ويحافظون على الحياة فقط عن طريق التنفس»⁴.

Un été dans le Sahara. p.63.

Au Soleil. p.84.

Une année dans le Sahel. p.221.

Loin de Paris. p.69.

-1

-2

-3

-4

ولأن «الكسل صفة عامة في الشرق»¹، من منظور السارد، لا يطمحون إلى التغيير والتطور. فهم ميّالون بالفطرة، وبسبب الحر إلى «الخلود إلى الراحة تحت الظلال»².

ومن انعكاساتها أنها كانت سبب شقاء الجزائريين وعذابهم، حيث عانى معظم السكان من الفقر مستسلمين لشدة الفاقة والحاجة، ويموت العديد منهم جوعاً، أو مرضى يصيب أبدانهم الضعف والنحول بسبب انتشار الأمراض والعدوى في الأرياف والبوادي. ومن نتائجها أيضاً سوء الأخلاق، فالسرقة من أكثر الصفات التصاقاً بالعرب في مذكرات الرحالين، وتمارس حتى في المواسم والأماكن المقدسة. يشرح موباسان تقشي هذه الصفة القبيحة عند العرب بسبب فرض الضرائب الثقيلة على السكان، ويقولها بـ«غلو»، إن «من يقول عربي يقول لصاً، بلا استثناء. ها هي الأمور كيف تسير. القائد يتحدث إلى زعيم القسم ويطلب هذه الضريبة من رجاله...»³. ويعمم رسوخها فيهم بلا استثناء، كطبع لنائم من طبائعهم الشرقية لإقناع المتلقي بأن «العرب، في جميع أنحاء الجزائر، يسرقون بعضهم بعضاً»⁴. وكون العربي يفضل دوماً أن يعيش حياة العجز واللامبالاة، فهو «كثير النسيان وكذاب»⁵، وخائن أيضاً.

يجنح الكتاب الرحالون في وصف دونية الآخر إلى ربطها بجينات عرقه الفريدة، ومنظومته الاجتماعية المتناقضة التي تنتقل وتستمر بالوراثة، «يا لها من سلالة فريدة! من ناحية الذوق، هي الأكثر كسلاً على الأرض؛ عند الضرورة، أول من يتحمل التعب؛ جشعة فوق كل تعبير، وتستغني عن الأكل كشيء عديم الفائدة»⁶. وعلى هذا الأساس، يجب أن توجه طاقات الأهلي (المستعمّر) في صالح منظومة المستعمّر التي تؤمن بالعمل وتحرص على جودة الإنتاج. يرى فرومنتان من خلال معايشة أهالي الصحراء في الأغواط والجلفة وغرداية، أن لهم استعداداً

Un été dans le Sahara. p.60.

Ibid. p.180.

Au Soleil. p.69.

Ibid. p.126.

Le Véloce. p.401.

Un été dans le Sahara. p.58.

-1

-2

-3

-4

-5

-6

فطريًا للاستعباد والخضوع، ويرضون بالعبودية طواعية، وأنهم يتنافسون على خدمة ضباط الاستعمار مدعنين، وبطيب خاطر، لأنه شعب مستعبد يستمتع بالرضوخ للغربي، ولا يملك نزرا من الكرامة والنخوة، ليرفع عن كاهله الذل والانكسار.

يُمنع الرجال الأجانب من دخول البيوت منعا باتا عند العرب المحافظين، وحرمة رؤية النساء عادة مؤكدة عند المسلمين عدا في الأماكن المشبوهة: «كانت مناسبة لئلا تهمل رؤية أنواع النساء في البلد؛ الشيء الصعب في كل مكان أينما يسود قانون القرآن»¹، ولا يجوز للرجال حتى الحديث عن النساء². ويعد كل ذلك انتهاكا لعرض العائلة وتشويهها لسمعتها، وربما يفضي إلى جرائم شرف شنيعة. العربي مصاب بمتلازمة البرانويا³* يظهر شديد التكتم عن الأسرار، مطبوع على الشعور بالارتياح والخوف من الأذى، «لا يحب أن يطلعك على بيته، أو يذكر اسمه أو يتحدث عن شؤونه، أن يحكي عن أهداف رحلاته. كل فضول يستهدف العربي كشيء يضايقه»⁴. يتسلح بالحيلة والحذر على ذاته، والشك في الغير ومراقبته⁵.

ذكر الرحالون بعض المحاسن من باب وصف الواقع وذكر الحقائق على هواهم، حتى لا يشعر المتلقي بالملل والنفور من إيديولوجيا الأنا السارد المهيمن. أو من باب اكتشاف الآخر لغاية أخرى، هي كسب وجذب المتلقي من خلال الاشتغال على آلية التعارض والتضاد التي تعبر عن غرائبية هذا الشعب الفريد نوعه. يقول فرومنتان: «لهذا الشعب ميزة فريدة، والتي، رغم كل شيء، تعظمه وهي أنه ينفر من السخرية. وإنه فقير دون أن يكون معدما، وإنه رديء بلا ابتذال. نجاسته تلامس الفخامة. أصبح المتسولون أبطالا ملحميين: فيه شيء من لعازر وأيوب. إنه جاد، إنه عنيف؛ ليس غبيا ولا بذيئا إطلاقا»⁶

Loin de Paris. p.74

Un été dans le Sahara. p.132.

³*البرانويا paranoia، مرض نفسي عصبي يشعر المصاب به بجنون الارتياح أو العظمة.

Un été dans le Sahara, ibid. p.8.

Ibid.

Ibid. Pp.28,29.

-1

-2

-4

-5

-6

وتأسيساً على هذه الانطباعات السلبية المتوكئة على التعميم والنمطية، يستخلص فرومنتان حُكما قيميا عن المجتمع الجزائري مفاده أنه: «ينبغي أن نرى هذا الشعب من المسافة التي تناسبه أن يظهر عليها، الرجال عن قرب، النساء من بعيد، أما غرفة النوم والمسجد فمستحيل. إن وصف بيت امرأة أو رسم حفلات العبادة عند العرب أكثر خطراً من التزوير: إنه ارتكاب، من منظور الفن، خطأ في وجهة النظر»¹.

9- غرائبية اللون المحلي

يقر غوتيه أن تصوير اللون المحلي *la couleur locale* هو الحافز الأساس للرحلة إلى الجزائر، باعتباره أحد المفاهيم التي تقوم عليها الغرائبية التي ينشدها الرحالة في البلدان البعيدة، وهو مفهوم استعماري: «كنا مدفوعين بحماس شديد لنشاهد ونتشبع (نرتوي) باللون المحلي، رغم تعبنا نهضنا باكراً للركض في الشوارع»². ويصرح بأن «الأجنبي، وهو يضع قدمه فيها (مدينة الجزائر)، يشعر بنوع من الدوار، لشدة ما يرى مما هو خارج عن عاداته وتوقعاته»³. ويتكئ نظر الأنا الغربي في توضيح الغرائبي على الغامض والرائع، والغريب وتعقب غير المؤلف: «الأماكن الأكثر تردداً في باريس أبعد ما تكون عن هذا النشاط»⁴. يطرح هذا الاستفهام التقريري لإثبات قوله: «على أية حال، أليس كل شيء غريباً كذلك في بلد جديد مثل إفريقيا؟»⁵. يميل غوتيه إلى المبالغة في وصف الأشياء العادية: «يمكننا أن نقول عن البيوت الجزائرية إنها حواء، عوراء وغالباً عمياء»⁶، ليؤكد للمتلقي الغربي أن ظاهرة اللون المحلي ليست مجرد فكرة ذهنية غير مؤسسة، ولكنها واقع يقيني تثبته المعاينة والمعاشة: «نعترف أننا لم نحرك بطولة اللون المحلي حتى ننتيقن من حقيقة هذا الادعاء»⁷.

Un été dans le Sahara, op.cit. p.181.

Loin de Paris, op.cit. p.40.

Ibid. p.25.

Ibid. p.30.

Ibid. p.32.

Ibid. p.34.

Ibid. p.66.

-1

-2

-3

-4

-5

-6

-7

يبرز اللون المحلي في توظيف معجم خاص، يتكون من الكلمات المحلية وفي بيئة المجتمع المنظور. يلاحظ استعمال الكلمات العربية، بلفظها ومعناها صحيحا أو محرفا دون ترجمة، مثل، بيته bîtas عند فرومنتان، أو مبيته m'bita عند غوتيه التي تعني ملهى محلي يوفر بعض الخدمات الترفيهية، «لقد ذهبنا إلى شارع الإمبراطور، حيث كانت توجد مبيته أو مرقص الأهالي، في فناء منزل موريسكي، كانت مناسبة لئلا تهمل رؤية أنواع النساء في البلد»¹. آلات موسيقية، رباب ودرابيك، «تتكون هذه الأوركسترا من رباب، وناي الدرويش وثلاث أو أربع درابيك»². المخدرات كالكيف والتكروري tekrouri، وهناك أيضا تعابير كثيرة الاستعمال، كالتي تتعلق بالتحية والمجاملة، " السلام عليكم"، وجمل الاستفهام "شكون انت" مَنْ أنت؟ (عام في الساحل)، صحة، الله يسلمك (في الشمس). في المقابل استعمل الأهالي كلمات وعبارات فرنسية، دلت على التلاقي وعملية التأثير والتأثر بين المستعمر والمستعمر.

وهناك ألفاظ ترتبط بأسماء الأعلام، الأشخاص وألقابهم، تكشف عن نسق التراتبية والهرمية بين أفراد المجتمع المحلي، وجدلية المتفوق والمتخلف بين الأنا والآخر، مثل، "سيدي Sidi" التي تكررت في مذكرات الرحالين، على ألسنة الأهالي لنداء كبار الشخصيات من المستعمرين والمستوطنين تعظيما لهم. ووردت كلمة "سيدنا" «صيغة احترام غير عادية تقريبا، لا توجه إلا لأقوياء الأرض»³، والأقوياء هم المستعمرون. سيدي التي تسبق أسماء الأولياء الصالحين تقديسا لهم، مثل سيدي عبد القادر الجيلالي، وسيدي عبد الرحمن الثعالبي؛ يقول دوما: «يسبق دوما اسم المرابط ذي قيمة رتبة سيدي، وهو ما يعني السيد. هكذا نقول سيدي فتح الله، سيدي محمد، كما كان يقال في العصور الوسطى السيد*⁴ القديس بطرس، السيد القديس بول»⁵. يدل على أن العرب متخلفون عن الركب الحضاري، يعيشون بدورهم عصورا مظلمة أشبه بعصور أوروبا

Loin de Paris, op.cit. p.74.

Ibid.

Un été dans le Sahara. p.161

* كانت كلمة "السيد" Monseigneur في العصور الوسطى تسبق كلمة القديس.

Le Véloce. p.228.

الوسطى، و"سيد Sid" التي تسبق أسماء الأعلام المذكّرة نحو، سيد عبد الله، وسيد عمر. أفاظ أخرى تتعلق بالأزياء التقليدية القديمة، كالقندورة والشاشية والحايك والملحفة والسرما والقوطة، ذات الدلالة الاجتماعية والثقافية العريقة.

10- الشخصيات المرجعية من منظور المستعمر

1.10- شخصيات سياسية من التاريخ القديم

وصف الرحالون شخصيات تاريخية واقعية عاشت في الجزائر وصنعت تاريخها، من منظور غرائبي وعجائبي ممزوج بالسخرية اللاذعة والتهجم لنزع أثرها وإخفاء دورها الحضاري الإيجابي في الثبات على قيم الحرية والإباء، كرموز تاريخية صدت العدو الخارجي وكافحت العدو الداخلي للحفاظ على وحدة الصف، وصانت الهوية والوطن. برز في تاريخ الجزائر القديمة، أسماء لامعة لملوك نوميديا، يوغرطة وماسيسا وماسينيسا ويوبا وسيفاكس، تصارعوا من أجل الملك وتحالفوا مع الرومان، أو واجهوا زحف الإمبراطورية الرومانية على شمال إفريقيا من خلال توحيد القبائل البربرية تحت راية واحدة. ورد اسم يوغرطة عند مارميه بصفته التاريخية ملكا لنوميديا، أو متخيلا، اسما يحمله أحد الأهالي. وصف فارسا عربيا يسمى يوغرطة وصفا مهينا، وقدمه ممثلا ليوغرطة المنبطح تحت أقدام الفرنسيين. «يمكن للمرء أن يرى يوغرطة الفلسفي وهو يتجرد من ملابسه الرائعة، متنازلا، مثل ديوكليس Dioclétien آخر، عن عظمتة، والجسم مغطى بقميص بسيط من قطن، يركض في الشارع مع أترابه الأطفال، كأنه لم يعرف قط نشوة ملكيته»¹. ولم يكن يوغرطة النوميدي قائدا محنكا بل كان عسكريا عديم الإنسانية، فلم ينجح في احتلال قسنطينة إلا بعد تجويع سكانها.

2.10- شخصيات سياسية من التاريخ الحديث

ظهرت شخصيات في تاريخ الجزائر الحديث، أذاقت الاستعمار الفرنسي وريث روما ويلات المقاومة المسلحة بعد حملة الغزو العسكري، رافضة وجوده في أراضي الجزائر باغيا محتلا. تنتمي هذه الشخصيات إلى الطرق الصوفية التي نادى بضرورة الجهاد ضد المستعمرين الكفار، الأمير عبد القادر وبومعزة وبوعمامة والمقراني وغيرهم، غير أن ثوراتهم باءت كلها بالفشل وانتهت بالاستسلام بسبب ضعف التنظيم والاستعداد ونقص العتاد. الأمر الذي جعل الفرنسيين يبثون صورا شنيعة عنهم لتشويه سمعتهم.

وصف مارميه الأمير عبد القادر بالرجل المتعصب والرهاب والمختار من قبل الولي عبد القادر الجيلاني، ومحارب الفرنسيين ناحية الغرب، والرجل الوسيم ذي الوجه الجميل والذكوري. وتخليل الأمير في صورة أخرى إيجابية تخدم الاستعمار، تتمثل في خضوعه للمدنية الفرنسية وابتعاده عن التعصب الشديد الذي أعمى بصيرته، فيقول: «كان سيحقق نجاحًا كبيرًا في صالونات باريس، لو استسلم يوما واحدا للتفكير الرائع، بدلًا من الاستمرار في مهمته المتعنتة، في المجيء إلى بيت الشعب الفرنسي، وشرب نبيذ الشمبانيا، وطلب أوراق التجنس العظيم، والتحمس لخدمة الحرس المدني والأفراح الانتخابية، كل تلك الأشياء الساحرة التي يجهلها كبربري، والتي يبدو لي أنه غير مستعد لمعرفةها»¹. أدرك السارد أن إصرار الأمير وأعوانه على النضال من أجل الحرية كان قد أرهق الاستعمار، الذي فقد العديد من كبار الضباط والجنود، على رأسهم العقيد مونتنيك Montagnac الذي اتهم الأمير بالتعصب الديني، وضعف موقف إمبراطور المغرب الأقصى في مواجهة أنصار هذا التيار الجارف: «نحن هنا أمام سكان عدائيين، لا يستطيع إمبراطور المغرب السيطرة على الطبيعة المضطربة، والتي يهيمن عليها الأمير بسبب صعود الأفكار الدينية، وفي خضمها يرمي باستمرار جرائم جديدة من التمرد بوعوده المغرية وتصريحاته المتعصبة»².

Lettres sur l'Algérie. Pp.227,228.

Ibid. Pp.269,270.

-1

-2

يصف فرومونتان وحشية الأمير عبد القادر الذي قاتل إخوانه المسلمين من أتباع الطريقة التيجانية المؤيدين وجود الاستعمار، وساعده على البقاء بالمال ورفض الجهاد. ويروي كيف قتل الأمير عددا كثيرا من آل بن سالم في عين ماضي، منحاذا إلى خصومهم أولاد سرين. اسم عبد القادر بشع يثير الفزع نظرا لبشاعة أفعاله: «كان الأمير السابق عبد القادر، في أوج قوته، يعاقب دون رحمة بالموت أي فرد تأكد أنه باع حصانا للمسيحيين»¹. ويروي دودي "في مليانة" النكبة التي ألحقها الأمير بسيد عمر التركي النبيل، الذي مال إلى الفرنسيين، انتقاما من ارتداده إلى الكفار: «وعند مجيء الفرنسيين، وبعد أن كان سيد عمر عدواً لنا وحليفا لعبد القادر انتهى إلى الاختلاف مع الأمير، وأعلن خضوعه للسلطة الفرنسية. ولكي ينتقم الأمير منه دخل مليانة في غياب سيد عمر، ونهب قصوره وقطع أشجار برتقاله، وأخذ خيوله ونساءه، وسحق رقبة أمه تحت غطاء صندوق كبير»².

يظهر محمد بن عبد الله الملقب ببومعزة في مذكرات مارميه، نقلا عن كتاب ريشار، درويشاً يصبغ على نفسه صفة القداسة، ولأنه يحمل نفس اسم نبي الإسلام، يدعي أنه مول الساعة (المهدي المنتظر) الذي يؤمن بمجيئه المسلمون. تميز بأفكاره الجانحة إلى التعصب، ويزعم أنه تلقى رسالة إلهية تتاديه أن جاهد الكفار، فيقود انتفاضة مع ثوار منطقة الظهرة المتمردين ضد الوجود الفرنسي في عهد الماريشال بيجو مستغلا نبوءات أطلقها المرابط سيدي لخضر في شأن الغزو الفرنسي على الجزائر وسيطرته على السكان وسبي النساء بأمر إلهي حسبما يزعم السارد.

الشيخ بوعمامة^{3*}، أحد أبطال المقاومة الشعبية في الغرب الجزائري. يصفه موباسان بأسلوب بعيد عن المنهجية التي يعتمدها رجال الإعلام في كتابة التقارير الصحفية، تكشف عن الشعور

¹ Lettres sur l'Algérie. p.119.

² - أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، م س، ص 56، 57.

^{3*} خصص له موباسان الذي انتقل إلى نواحي البيض وسعيدة، لتغطية أخبار ثورة أولاد سيدي الشيخ، مقالا تحت عنوان "السجين" نشره في جريدة لوغولوا في 28 جويلية 1881. وأعاد نشره بعنوان بوعمامة Bou-Amama في مجموعة "في الشمس"، وجاء ذكره في المجموعة نفسها بعنوان آخر "إقليم وهران".

بالرهاب إزاء هذا الرجل «البعيد المنال بوعمامة»¹، وتعبير آخر «هذا البعيد المنال المخادع»²، الذي دوخ جيش إفريقيا الاستعماري. لكنهم استصغروا شأنه، وعدّوا نضاله نتيجة المجاعة التي أصابت قومه، وقزموا القضية الجوهرية التي يحارب من أجلها هو وأتباعه، وهي جهاد الكفار الذين استهدفوا مسخ الهوية الجزائرية، ف«لم يكن هذا المتسكع سوى قائد عصاة قليلة العدد، دفعتها بلا شك المجاعة إلى التمرد»³. نسجت عنه السلطة الاستعمارية حكايات أسطورية من وحي الصراع المرير معه، حتى شك بعضهم في وجوده، يقول موباسان: «حقيقة غريبة. في اليوم نفسه، أبلغت الإرساليات الرسمية عن وجود بوعمامة في آن واحد في نقطتين بعيدتين بعضهما عن بعض بمسافة مئة وخمسين كيلو متر»⁴.

3.10- الشخصيات الدينية: تخندق بعض إخوان الطرق الصوفية في صف الاستعمار

تطرق الرحالون إلى شخصيات دينية صوفية، كان لها دور عظيم في توجيه الناس توجيهها روحيا صحيحا بما ينفع العامة، أو ارتبطت بهم خزعبلات وخرافات. في الجنوب ركز على وصف الشيخ سي الحاج عيسى، المرابط الذي أدان شطحات إخوانه المواطنين لأنهم اقترفوا إثما كبيرا ضد الله، يتعلق بالرقص حول عجل ذهبي. ويروي موباسان حادثة عن الحاج عيسى أنه قال لهم مهددا بنزول شر العقاب عليهم، ومبشرا بالمخلص من الآثام هو الاحتلال الفرنسي: «أحكم عليكم بأن يلتهم بعضكم بعضا مثل الأسود التي أجبرت على العيش في القفص نفسه، حتى اليوم الذي سيأتي فيه المسيحيون (وأعتقد حتى أنه قال الفرنسيون)، هؤلاء مروضو الأسود ليأخذوكم جميعًا ويكموكم»⁵. فدل ذلك على أن دخول الفرنسيين كان قدرا مقدورا بسبب شيوع الفساد بكل أشكاله، والعودة إلى سكة الحضارة لمحو آثار الجهل والتخلف باتت ضرورة حتمية، ولو كانت هذه الحضارة الغربية التي ينشرونها بالسيف لا تمت بصلة إلى الإسلام. وكان ضباط

Au Soleil. p.15.

Ibid. p.26.

Ibid.

Ibid. p.27.

Ibid. p.83

-1

-2

-3

-4

-5

الاستعمار يبررون ارتكاب جرائمهم الوحشية في حق السكان العزل بنبوءة المرابط: «لقد كتب الله ذلك، قد أعلنه سي الحاج عيسى»¹.

وسي محمد التيجاني شيخ زاوية عين ماضي ونجل المرابط سي أحمد التيجاني بن سالم. تروي كتب التاريخ والسير أنه كان على خلاف مع الأمير عبد القادر حول محاربة الاحتلال الفرنسي بالسلاح. دعاه الأمير إلى الجهاد والتخلي عن مناصرة العدو ضد الجزائريين، لكن الشيخ أبي وقدم مساعدات مهمة للاستعمار. ولم يكن في وسع الأمير سوى قتال القبائل الموالية بإعلان الجهاد عليهم. صور فرومندان جانبا من مناظر الخراب الذي خلفته تلك الحرب الأهلية تحت أنظار الاستعمار، مسلطا الضوء على وحشية الأمير وخلفائه، وسلمية التيجاني. تعد عين ماضي بالأغواط مركز الطريقة التيجانية، ومسقط رأس الشيخ مؤسس الزاوية. اهتم بهذه الشخصية الدينية التي وصلت شهرتها إلى قلب إفريقيا والجزيرة العربية، وكتب عنه لمراسله معظما: «اسم التيجاني هذا، الذي سوف يوقظ اهتماما غامضا جدا عندما تقرؤني، هذا الاسم الوحيد، عندما سمعته يخرج من شفتي علي الصغير، جعلني أشعر، يا صديقي العزيز، بعاطفة صادقة جدا. لقد وسم من حولي بطبع مميز من العظمة والبطولة والقداسة. شعرت أن روح هذا الرجل الشجاع ما زالت تنعش هذه المدينة المتعالية والمضيافة»². هذا الشيخ الجليل له أتباع يعتقدون بقدسيته لمجرد ذكر اسمه على لسان طفل صغير، وهذا الموقف المؤثر يشعره بصدق العاطفة نحو هذا الرجل الذي مازال يمارس تأثيره الكبير على الناس: «تيجاني ليس رجلاً مقدسا، إنه قديس، ومنزله أصبح معبدا صغيرا»³.

وصف الكتاب الرحالون، باعتبارهم نخبة مثقفي الاستعمار، الشخصيات المؤثرة على المشهد السياسي بقراراتهم وأفعالهم، وصفا متساوقا مع الإيديولوجيا التي يخدمونها معا وضدا، فقد وقفوا

Au Soleil. p.92.

Ibid. p.173.

Ibid. p.179.

_1

_2

_3

إلى جانب من ناصر الاستعمار ووالاهم من الأهالي، وأصفا عليهم هالة من القداسة، وجلوهم بالورع والتقوى. وعادوا من حاربهم وكشف مكرهم، ودينسوا صورتهم.

11- فضاء الصراع الإيديولوجي والنسق العسكري الاستعماري

1.11- غرائب الفرق الاستعمارية

تحفل النصوص الرحلية بالصراع الثنائي الإيديولوجي، الذي اشتد أواره بين الاستعمار والأهالي، ولإسكات صوت الحرية الرافض للعدوان، أعدّ الاستعمار الفرنسي جيشا منظما وضخما، لكسر شوكة المقاومين سمي "جيش إفريقيا". جيش غريب الملامح، يتكون من الجنود الأوروبيين، ومن الأهالي المرتزقة من شتى الأعراق، عرب وبربر وكراغلة وموريسكيين وأتراك، متعاونين مع الإدارة الاستعمارية، شكلوا يد الاستعمار الضارية في جميع الأقاليم الأربعة. يتفرع هذا الجيش الاستعماري، الذي تأسس على مراحل، إلى فرق نظامية ذات مهام متعددة مدنية وعسكرية، وتحت أسماء مختلفة، أنشئ بعضه في العهد التركي، ثم أعادت فرنسا تأهيلهم بعد حل الإنكشارية ونفيهم إلى تركيا. هذه الفرق هي الزواف المشاة Zouaves Souaves¹، والقناصة Chasseurs d'Afrique، التركو Turcos وهم الرماة Tirailleurs، كتيبة المدفعية Artillerie، والخيالة أو الصبايحية (السبايس) Spahis، والثوم والثومية Goumiers، Goum، والمخازنية، الكتيبة أو الليفيف الأجنبي Légion Étrangère، والمهاريون Méharistes 1894، والصحراويون Sahariens².

¹ * الزواف، جيش أهلي أنشأه الباشا علي خوجة، تكوّن من بعض أفراد قبائل الزواوة النازحين من منطقة القبائل مع الكراغلة والعرب لدعم جيش الإنكشارية في الحفاظ على الأمن في الداخل. وظفتهم الإدارة الاستعمارية في 1830 مرتزقة لتعزيز جيش الشرق أو جيش إفريقيا، فاستقبل في صفوفه جميع السكان الأصليين (الأهالي)، دون تمييز للعرق والأصل، رجال الجبال أو السهل، أو عمال المدن أو فلاحين، قبائل، أو عرب، أو كراغلة؛ لكنهم كانوا بحاجة إلى قادة، فكلف ضباط فرنسيون وضباط صف بتعليمهم وقيادتهم. ثم أعيدت هيكلته بتجنيد أفراد من ذوي الأصول الفرنسية، والأوروبية (الكتيبة الأجنبية) فقط.

² - لمزيد من المعلومات عن هذه الفرق، يمكن تصفح الرابطين التاليين:

-https://encyclopedie-afn.org/L%27Arm%C3%A9e_d%27Afrique

-<https://www.algerie-ancienne.com/Salon/Galib/8France/01expedit/09armee.htm>

قاد هذا الجيش حملات شرسة لإسقاط المدن الكبرى، وانتشرت الفرق الاستعمارية في كل أرجاء المستعمرة للحفاظ على النظام الفرنسي وفرض قوانينه وتطبيق القوة في حكم الأهالي. ذكرها كتاب الرحلات في سرودهم، فتحدثوا عن أصولهم وأجناسهم سواء من الأهالي أو المستعمرين، ووصفوا أزياء أعوانهم الرسمية وهيئاتهم، ومهامهم القمعية ضد المتمردين على الاستعمار، وتحركاتهم في مختلف المناطق التي زاروها، وتحدثوا عن أوضاعهم المزرية وعبروا عن تعاطفهم معهم لما تحملوه من متاعب شديدة، يقول مارميه: «حيثما ذهبت، لا أملُّ أبداً من الإعجاب بالإذعان الفلسفي لهذا الجيش الإفريقي الشجاع»¹.

كان القوميون الأهالي، يعرفون جيداً جغرافيا منطقتهم لذلك كان دورهم في تسهيل أمور الضباط جليلاً وتنفيذها سريعاً. يصف موباسان قوميين اثنين من سعيدة، في مهمة رسمية حملاً رسالة عاجلة من حاكم المدينة إلى ضباطه بوادي فلات، إذ «حضر اثنان من القوميين إلى المخافر الأمامية، بعد عشر ساعات سيرا على الحصان، حاملين أمراً عاجلاً من قائد سعيدة العام. وفقاً للعرف، يلوحان بالشعلة ليتعرف عليهما. جندي حراسة مبتدئ، قادم من فرنسا، يجهل العادات وقواعد الخدمة في الميدان في الجنوب، لم يعلمه ضباطه على الإطلاق، فأطلق النار على سعاة البريد»².

قام الحكم العسكري غداة الغزو بنشر فرق الزواف، المرتزقة من الأهالي، على كل تراب الجزائر، فتحمل جنودها أعباء الدفاع عن وجود الاستعمار، فكانوا في الصفوف الأولى في خوض الأحداث المريرة، ويدفعون حياتهم ثمناً لإخلاصهم للاستعمار. ودفاعاً عن أنفسهم من هجمات الأهالي المباغته يقومون بتعزيز تحصيناتهم. ويصف السارد في سعيدة «سرية الزواف الذين يقومون بتحصين أنفسهم على عجل، يبنون مواقعهم بقضبان، ودعائم، وأعمدة التلغراف، وكرات الحلفاء، وكل ما يعثر عليه»³. والقناصة أو التركو فرقة عسكرية من الأهالي، ساهمت في النشاط

Lettres sur l'Algérie. p.230.

Au Soleil. op.cit. p.2.

Ibid. p.23.

-1

-2

-3

التوسعي الاستعماري. وفي المكتب العربي بمليانة «كان الترجمان أشقر، وردي البشرة، مجعد الشعر. كان جندياً رائعاً من جنود الخيالة»¹ وبعد انصراف السارد مساءً من بيت سيد عمر كانت «أبواق الصبايحية التي تعلن انتهاء العمل اليومي مازالت لم يعلُ رنينها»².

ترافق فرق الصبايحية من الأهالي الجيش الاستعماري في غاراته على القبائل الصحراوية، وتحرص على أمن الضباط الفرنسيين. يصف موباسان الزي الرسمي المخصص لهذه الفرقة من خلال جندي من الخيالة: «الرجلُ بسترته الحمراء المطرزة باللون الأسود، وسرواله المطوي الواسع ينتهي عند الركبة، حيث تبدأ جوارب جلد قرمزية لجنود الصحراء. لقد كان عربياً متوسط الحجم. أنفه المعقوف تشقق بضربة سيف وتركت الندبة فتحة الأنف مفتوحة على الجانب الأيسر. كان اسمه بو عبد الله...»³.

2.11- المكاتب العربية العسكرية: نظام صارم لتشديد الرقابة على الأهالي وتأديبهم

بعد مرور العقد الأول من الاحتلال، تم تأسيس المكاتب العربية bureaux arabes*⁴ للتكفل بالقبائل ومراقبة عمل أشرفهم، ومعالجة العلاقات مع السكان في المناطق التي يقل فيها المستوطنون⁵. أُعدّ لهذا الغرض كراسٍ للدراسات العربية في المدارس العليا والجامعات، وعني خلالها بترجمة الكتب والمخطوطات العربية النادرة، وقد أشاد بعضهم بمهمة هذه المكاتب «المفيدة جدا لتطوير الغزو والاستعمار، إنه وسيط ضروري تجاه السكان الأصليين»⁶. كما هُيئتُ دور

¹- أحمد منور، الجزائر في كتابات الفرنسيين في القرن التاسع عشر، م س، ص 64.

²- أحمد منور، م ن، ص 68.

³- Au Soleil, op.cit. p.63.

⁴* وضعت السلطات الاستعمارية، في عهد الجنرال بيجو سنة 1844 نظام المكاتب العربية bureaux arabes للتقرب أكثر من الجزائريين، يسيره ضباط فرنسيون بمساعدة فرق جيش إفريقيا. في 1845 أنشأت مديرية مركزية للشؤون العربية لدى الحاكم العام، وكذا مديرية الشؤون العربية في المراكز الرئيسية الكبرى، الجزائر ووهران وقسنطينة، الواقعة تحت الحكم العسكري.

⁵- Voir : Gouvernement général de l'Algérie. Bureaux arabes de l'Oranie - Registres (1841/1913), Répertoire établi par Charles Uthéza, révisé et complété par Barbara Sanchez, archiviste, et Anne-Isabelle Vidal, chargée d'études documentaires. <http://anom.archivesnationales.culture.gouv.fr/ark:/61561/jh328jdb>

⁶- Victor Foucher, Les Bureaux arabes en Algérie, Librairie Internationale de l'Agriculture et de la Colonisation, Rue de Richelieu, 110, Paris, 1858. p.7. <https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k5788713d.texteImage>

القيادة والخلافة في المناطق النائية حتى يتم التواصل بين جنود المستعمر والمستعمر، يدير مصالحها المدنية نواب الحاكم العام، وهم أصحاب المراتب العليا من الأهالي، زعماء القبائل وشيوخ العرب، والقياد، والآغوات، والباشاغوات *caïds des services civils*، الذين انحازوا للاستعمار وكانوا له عملاء أوفياء. وقد وصف بعض الكتاب الرحالين نشاط هذه الدور الاستعمارية، وذكروا أسماء شيوخها المتزلفين، وبينوا مهام المكاتب وقسوة مسؤوليها، وصوروا معاناة الجزائريين، وسوء معاملتهم من قبل هؤلاء وأولئك. فلم يكن مسموحاً للجزائري أن يتحرك خارج قريته أو حيّه دون ترخيص إداري «فأي رجل معزول، يلقي عليه القياد القبض على الفور، يصطحب إلى أقرب ضابط، ويعاد بين اثنين من جند الصبايحية إلى المنطقة المدنية»¹.

نظر دو موباسان إلى عملاء الاستعمار من زاويتين؛ نوه، في الأولى، بخدماتهم الجليلة من أجل مجد فرنسا. وثى بتبيين دورهم السلبي في تكريس الفجوة بين الحكام المستعمرين والأهالي، «إذن، فإن وجود كبار القياد الأهالي يعيد إلى الوراء إلى الأبد التأثير الحقيقي والمباشر للسلطة الفرنسية على القبائل، التي تبقى بالنسبة إلينا عالماً مغلقاً»². فقد كوّن هؤلاء العملاء حاجزاً منيعاً أمام الإدارة الاستعمارية في التقرب من الأهالي، للتوصل إلى السبل الناجعة في ترويض عقولهم.

سجل الرحالون أسماء الأشخاص والقبائل الشهيرة التي تحالفت مع الاستعمار وتعاونت مع الضباط الفرنسيين لضرب الأهالي وقتلهم، وساهمت في تسهيل حملتهم العسكرية للتوغل داخل الأراضي الجزائرية عن طريق الدعم اللوجستي. يذكر دوماً عملاء الشرق الجزائري منهم الشيخ بوعكاز بفرجيوة، وبن قانة في بسكرة. في الوسط اشتهر الباشاغا بوعلام المذكور في رحلات دودي. في الجنوب أورد فرومنتان في الأغواط اسم القائد الجيلالي بن مولود. وذكر موباسان أسماء بعض عملاء بوغار جنوب المدينة، منهم القايد عبد القادر بن يحي وشقيقه الحواس بن يحي قائد بن علان.

Au Soleil, op.cit. p.36.

Ibid. p.129.

-1

-2

3.11- الصراع الوجودي بين الأهالي والمستوطنين: تهجير السكان ومصادرة الأراضي

كان الصراع على أشده بين المستوطنين الأوروبيين والأهالي الجزائريين من أجل حيازة الأراضي الزراعية الخصبة، خاصة بعد سن قانون الأهالي (le code d'indigénat)، الذي نص على معاقبات ردية ضد الجزائريين على أبسط المخالفات، باستباحة أملاكهم وثروتهم وأرواحهم ونفسيهم من قراهم. وقد لقيت هذه القضية صدى واسعاً لدى كتاب العصور بالتأكيد والتأييد، أبرزوا في مذكراتهم حق المستوطنين في انتزاع الأرض من مالكيها، قصد تفكيك أوامر المجتمع، واقتلاع السكان من جذورهم وهويتهم. ويذهب موباسان إلى «أن الأرض، في أيدي هؤلاء الرجال، ستعطي ما لم تعطه أبداً في أيدي العرب؛ من المؤكد أيضاً أن السكان البدائيين سيختفون تدريجياً؛ ولا شك في أن هذا الاختفاء سيكون مفيداً جداً للجزائر، لكن ما يثير السخط أن يحدث في ظل الظروف التي يتم فيه ذلك»¹.

ومن أجل توضيح مسألة ربط الاستيطان بطمس الهوية الجزائرية، وإقصاء حق الشعب الجزائري في أرضه، هناك فقرة لموباسان تلخص الغاية الحقيقية الكبرى من الاحتلال الفرنسي للجزائر بقوله: «أخيراً، لتلخيص مسألة الاستعمار، فإن الحكومة، من أجل تحفيز إقامة الأوروبيين، تستعمل إزاء العرب، كل الوسائل الماكرة على الإطلاق. فكيف لا يمكن للمستوطنين أن يتبعوا مثلاً ينسجم مع مصالحهم؟»². يتحمس السارد لاستكمال مشروع الاستيطان في الجزائر، ويحث المستوطنين على الإسراع في إيجاد سياسة مثالية تنسجم مع مصالحهم الجديدة، بدلاً من تبديد الوقت والمال دون فائدة.

4.11- فضاء المعارك الميدانية وحروب الإبادة

استخدم الكتاب تقنية الوصف التوثيقي عند ذكر العمليات العسكرية التي استهدفت الجزائر وأهلها، ليعرف المتلقي حجم التضحيات التي قدمتها فرنسا الاستعمارية من أجل بناء إمبراطوريتها.

Au Soleil. p.139.
Ibid.

-1
-2

والإشادة بعبقرية الضباط الذين قادوا حملات الغزو التوسعي في الأقاليم الثلاثة بالجزائر، والمناطق التي كانت مسرحاً لمعارك دامية ذهب ضحيتها أسماء لامعة في صفوف الجيش الاستعماري، كانت بمثابة خسارة كبيرة لتحقيق المشروع الإمبراطوري. صوروا الصراع المرير الذي خاضه العسكريون الفرنسيون ضد الثوار كلفهم خسائر فادحة في الأرواح، حيث قتل في مسرح المعارك كبار الجنرالات التي مجدتها أعمالهم الاستعمارية وأبرزت اختلال التوازن في قوى الطرفين، بين تفوق الفرنسيين وتخلف العرب في ميدان الحرب والقتال وصناعة الأسلحة الفتاكة. ذكروا الأحداث المروعة التي شاهدها الحملة على ثوار قسنطينة. وشهدت مخيمات الجنود الفرنسيين على طول سهل المتيجة عملية قمع حركات المقاومة. قد ذكر فرومونتان أول فرقة عسكرية فرنسية تصل بوابة الصحراء كانت في القنطرة عام 1844، وسجل معلومات قدمها له ضابط عسكري شارك في الحملة، وبشاعة المجازر المرتكبة ضد الأهالي، وحفر الجنود الفرنسيين على الجدران، أسماء زملائهم الذين سقطوا في المعارك وتجلي الصراع بين القبائل الثائرة في الجنوب وجيش الاحتلال.

12- استحضار صورة الأنا التاريخية: إحياء الرومنة واللوتنة

فرض الماضي نفسه على الأدباء الرحالين في سرد أخبار عن تاريخ الجزائر القديم بالعودة إلى الماضي السحيق وذكر الأمم الغازية التي احتلت الجزائر، فأشادوا في كتاباتهم إشادة عظيمة بحضارة الرومان الذين بنوا وشيدوا المدن، وعمروا المناطق التي وقعت تحت سيطرتهم، وعلموا السكان المحليين الذين كانوا على الوثنية مبادئ المسيحية، فتعلموا اللغة اللاتينية وأصول المدنية. أسست السلطة الاستعمارية لهذا الغرض جمعيات ومراكز للبحث والتنقيب عن الآثار الرومانية القديمة، وألفوا كتباً ومجلات تتحدث عن الرسالة الحضارية التي صنعتها الإمبراطورية الرومانية في شمال إفريقيا ونشرتها في الجزائر.

إشارات متفرقة في كتابات الرحالين الفرنسيين، بينت دور روما في تشكيل حياة شعوب البربر وقبائلهم، ونوهت بفضلها العظيم في إخراجهم من غياهب الوثنية وأدغال الهمجية إلى رحاب

المدنية الرومانية التي انبعث من جديد في الفضاء الفرنسي. وتتجلى هذه الطروحات في قول مارميه: «بعد ألفي عام، نستعيد ملكية الأماكن التي أدركوا مزاياها، ونواصل تفكيرهم»¹. زار جل المواقع الرومانية القديمة في بجاية، وعنابة (هييون القديمة، مدينة القديس أوغسطين)، وشرشال وتنتس وأورليانفيل، واستذكر أهم الوقائع التي سجلت انتصار روما المسيحية على قرطاجة ونوميديا، واستكمال استعمار فرنسا للجزائر بكاملها.

وبحث فرومنتان في كل منطقة عن دلائل تثبت لاتينية الجزائر الرومانية، من خلال أطلال وحوادث تروي تاريخ الرومان في الجزائر القديمة. عبر عن أمله بأن يأتي المحرثات وتفتح الفأس هذه الأرض التي زرع فيها حديد المعارك عوضا عن القمح، لتظهر بقية آثار القذائف ورفات جنود الرومان. وراح يتتبع آثار المدن الرومانية القديمة ليصل إلى أطلال تيبازة وشنوة وشرشال، ويرثي بشدة على الحال المزرية التي آلت إليها، بعدما كانت مدنا مزدهرة استوطنها شعب روماني يراه «أعظم غاز وأكبر مستعمر، وإحدى أقوى هندسات الشعوب على وجه الأرض: نموذج لأولئك الذين ليس في فكرهم ولا أعرافهم، ولا مؤسساتهم قوة العبقرية الرومانية»². لذا يجب أن تبعث الإمبراطورية القديمة في العبقرية الفرنسية كي تكمل مسيرة الرسالة الحضارية. وعليه، لا يرى فضلا أو عبقرية لأي أمة من الأمم القديمة الأخرى، مثلما بلغت روما اللاتينية من تقدم حضاري، تستحق أن تستمر خالدة في إفريقيا.

لقد كانت مسألة اللؤتنة Latinité والرؤمنة Romanité، من أقوى الحجج التي ارتكز عليها الفكر الاستعماري الفرنسي في دراسة تراث الجزائر اللاتينو روماني، والمنطلق الأساس لإقناع الرأي العام الفرنسي بمشروعية التدخل العسكري. وقد تعرض جل الكتاب الرحالين إلى هذه المسألة بحماس شديد وإلحاح كبير.

Lettres sur l'Algérie. p.144.
Ibid, p.306.

¹
²

نهضت النصوص الرحلية، غداة الاحتلال حتى نهاية القرن التاسع عشر على مصطلحي الغرائبية والعجائبية، اللذين ينطويان على تيمات أساسية تغدّى عليها فكر الاستشراق في التعامل مع قضايا اللون المحلي والتفاعل مع الآخر (الجزائري)، هي الإثنية والتاريخ والشبقية. وعلى أسلوبين في تقديم هذه التيمات، هما الأسلوب التصويري الممتع في وصف المكان الجغرافي وجمال الطبيعة، تناولت تفاصيلها الدقيقة يد المبدعين من الكتاب الذين جمعوا بين الأدب والرسم من مثل غوتيه، وفرومنتان ودوموباسان. والأسلوب التقريري القائم على الأحكام القطعية والتعميم والتميط عند ذكر سير الماضين وأنباء متفرقة من التاريخ القديم التي تتساق مع المشروع الإيديولوجي، وسرد حوادث الحاضر الأليم الذي وصلت إليه الجزائر في العهد الفرنسي. ويتخلل هذين الأسلوبين الرئيسيين إشارات من الوعظ والإرشاد موجهة للمتلقي الغربي. تُستشف هذه الوعظيات في التعابير المباشرة المبنوثة في ثنايا الفقرات الوصفية والمقاطع السردية، تجلت من خلالها إيديولوجيا الساردين في المنجز الرحلي.

تكررت التيمات في أغلب النصوص المدروسة، وقُدمت، على كثرتها وتنوعها، بطريقة تبين بأن الكتاب بأجمعهم استقوا المادة المقدمة من مصادر سابقة، ولم يعتمدوا المادة المشاهدة وحدها في وصف صورة الجزائر وأهلها في تلك الفترة، مع بعض الانطباعات الذاتية ووجهات النظر الخاصة، التي سجت الجزائري في نماذج نمطية مكررة، وحاولت أن تبرر الغرض الجوهرى لهذه الرحلات التي تدفقت على الجزائر، وحول أصحابها مذكراتهم إلى قصص وروايات.

الفصل الثاني

الجزائر في السرد القصصي والروائي

تكريس صور الآخر النمطية،

الفولكلورية والأسطورية

توطئة

ستتواصل صور الغيرية بوتيرة أقوى من خلال تمثيلات الجزائر في المتخيل السردي القصصي والروائي في القرن التاسع عشر. حقبة احتلت فيها الجزائر المستعمرة، في بداية الغزو الفرنسي، حيزا محوريا في سرود الرحالين الفرنسيين، الذين استلهموا من تجارب الرحلة. نهلوا جميعهم من المخزون المعرفي الاستعماري الذي صور الجزائر والجزائريين في وضعيات مختلفة، وطرقوا في سرد أحوالهم تيمات متعددة. اقتبسوا من مصادر شتى مذكرات ويوميات ودراسات غيرهم، واستلوا من مذكرات رحلاتهم انطباعات ذهنية ومشاهدات عينية، وحولوها من السرد الرحلي إلى القصصي، دون اهتمام كبير بالإخراج الفني للعمل الأدبي، «فبدلا من أن يكتبوا لأنهم رحلوا، يبدو أنهم سافروا ليكتبوا»¹.

بروز تناص خارجي، تكرارات مقتبسة من إحالات خارجية reprises intertextuelles. وإعادة إنتاج التيمات نفسها الواردة في أعمال الكاتب، أي وجود تناص داخلي reprises intratextuelles. وقد أوضح بيير مارتينو هذه المسألة: «ولكن سرعان ما ابتدعت الكتابات المبتذلة. وحمل كل مسافر معه من فرنسا جزائره المتخيلة، وبما أنهم تقريبا مروا كلهم سريعا، فلم يدخلوا عليها سوى لمسات قليلة»². تشابهت الاستيهامات الغرائبية، كل كاتب يلونها بتلوينات مختلفة، كاريكاتورية وفولكلورية وأسطورية تعطيها نفسا جديدا. فتكاثرت صور معالم الشرق في الجزائر، وجاءت حبكتها ضعيفة فنيا، أثقلها الاستدعاء المفرط للقوالب الجاهزة. ولم يلق بعض هذه الأعمال الرواج والشهرة، نتيجة «المحاكاة الآلية للنماذج»³ باعتباره يعيد الطروح القديمة والصور الاستيهامية قصدا، وينحاز باستمرار إلى الإيديولوجيا الاستعمارية.

¹ Jean-Marie Seillan, Aux sources du roman colonial (1863-1914), Éditions Kharthala, 2006. p.16.

² Sakina Messaadi, Les Romancières coloniales et la femme colonisée, Contribution à une étude de la littérature coloniale en Algérie, ANEP, Alger, 2002. p.21.

³ فانسان جوف، أثر الشخصية في الرواية، تر وتق: حسن أحمامة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط1، سوريا،

1- الأدب العسكري: سردية الغزو العسكري بين الحرب والرسالة الحضارية

مثل أدب العسكريين، وهو أدب ملحمي تمجدي يُعنى بوصف الحروب وسبل مواجهة الآخر بالسلاح، فترة بداية الغزو العسكري، حيث اهتم العسكريون أنفسهم بتصوير بطولات جيش الاحتلال الفرنسي الذي قاد الحملة الصليبية المعلنة على الجزائر، دهاء كبار العسكريين الأولين ومختلف رتبهم ومهامهم بأسلوب فنتاستيكي، مع ذكر تفاصيل أهم المعارك التي واجهوها وانتصروا فيها على السكان في الجزائر ومواطن الخلل في خطط العدو. والثناء على كل الذين تحملوا كل المشاق رغبة في المساهمة في نشر الرسالة الحضارية الغربية.

يوضح ضابط الصف دو لا سال الذي خاض تجربة الكتابة العسكرية هذا الأمر قائلاً: «بالنسبة للتاريخ الطبيعي، كان لدينا سلك المهندسين الجغرافيين؛ الآداب الشرقية كان لدينا سلك المترجمين؛ للمناظر الخلاب، كان لدينا فنانون؛ للسخرية، والتورية، والنكات، والمشاهد العسكرية القصيرة، كان لدينا كتاب هزليون»¹. انطلاقاً من هذا القول كانت أول رواية تاريخية غداة الاحتلال كتبها هذا المستشرق، أوزيب فرانسوا دو لا سال²، وهي رواية طويلة نشرها في جزأين اثنتين عام 1832 بعنوان 1830 Ali le Renard, ou la Conquête d'Alger "علي الثعلب أو غزو الجزائر 1830"، تناولت ظروف الغزو الفرنسي على مدينة الجزائر وملابساته التاريخية المختلفة، وما أفرزته من أحداث مثيرة عن سقوط المدينة التي صمدت قروناً في وجه تحرش الأساطيل الغربية، لتصحو على ضجيج المدافع المدوية جهة الغرب في الشواطئ غير المحروسة. قُدمت هذه الصور بنظرة جامدة ورطت الشرق في سجن الدونية، وخطاب إيديولوجي مليء بالمتناقضات. وكشف السرد عن تاريخ مشحون بالصدام المستمر بين عالمين مختلفين الشرق الإسلامي والغرب

¹ - Eusèbe de la Salle, Ali le Renard, ou la Conquête d'Alger, Tome Premier, Édition G. Gosselin, Paris, 1832. p.148. Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

² Eusèbe de la Salle (1796-1873)، مستشرق فرنسي شارك في حملة الغزو العسكري على الجزائر ضابطاً مترجماً.

الصليبي. ووصفت عند التقاء الجيشين مشاهد سردية صادمة للعنف والخوف والموت في علاقة الهازم بالمهزوم.

أول ما يستوقف المتلقي في الجزء الأول هما الآيتان الأوليان من سورة المسد¹ * مكتوبتان بالخط العربي مع ترجمة إلى الفرنسية في صفحة العنوان، كعتبة يدخل منها إلى الشرق الإسلامي من القرآن كما دخل الاستعمار الفرنسي من بوابة الجزائر، ثم تليها مقدمة سماها باللغة العربية "فاتحة الكتاب" معارضا بذلك سورة "الفاتحة"، ولكن مكتوبة بحروف لاتينية. وبغرور استعلائي اعتبر حادثة تحرير موريا اليونانية من حكم العثمانيين بين 1828 و1833 حملة صليبية مهدت الجيش الفرنسي غزو الجزائر بعد سقوط أسطولها في المعركة، يقول معبرا عن البعد الديني الحضاري: «كان الجيش الفرنسي قد حرر موريا، وآخر غزا الجزائر. في الأوقات العادية، كانت هذه الحملات تحظى بشعبية كبيرة في فرنسا؛ لقد كانت حروباً صليبية، ونحن أساساً شعب تبشيري ومحارب»².

يشير إلى تاريخ فرنسا الصليبية وفضلها الريادي في شن الحروب الدينية ضد الإسلام، وها هي تحاول أن تجدد الدعوة للمسيحيين لإعادة الكرة. تظهر الأهمية الاستراتيجية لهذه الحملة على المستوى الديني والاقتصادي في إعلاء شأن فرنسا الاستعمارية، مشيدا بالقادة وضباط الجيش في حملة الغزو على الجزائر، مثل بارتزين، ودوبيري، وفالازي، بينما ذكر الشخصيات الجزائرية بأسمائها الحقيقية، الداى حسين، وخيانة صهره إبراهيم آغا والحضري بوضربة. طغى السرد التاريخي الجاف على عنصر الإبداع. والأمر الذي جعل هذا النص عملا روائيا، هو التغيير الطفيف الذي طرأ على أسماء شخصيات كبار الجيش، بارتزين أصبح بوريستات، ودوبيري أصبح دوبيرو، ودوبيينو أصبح دوبيينييه، وفالازي أصبح لافازي، ولاهيت أصبح غلاهيت... وهكذا، وأسماء أخرى غيرها تماما مثل دوبورمون الذي كان كرمبال، أو امتنع عن

¹ * الآيتان هما «تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب».

² Eusèbe de la Salle, Ali le Renard, ou la Conquête d'Alger, Tome Premier. p.I

ذكرها لأسباب سياسة، وصف دورها واكتفى بالإشارة إلى رتبها العسكرية أو انتمائها الجغرافي. كما تخللته حوارات طويلة بين الشخصيات المتخيلة من كل الأعراق والجنسيات، وگراميات متفرقة أقحمها الكاتب لإمتاع المتلقي بعبارات شاعرية. لذلك كان من الطبيعي ألا يدرج هذا العمل ضمن السرديات الرحلية.

كان دو لا سال يدون ملاحظاته التي تحولت فيما بعد إلى عمل أدبي، ويشرح سبب تحويلها إلى رواية: «هي نوع من المذكرات دعاني بعض الأصدقاء المتسامحين لتقديمها للطباعة. لكن المذكرات شخصية ونمطية: الشخصية تقلل من الأهمية، والنمط يشوه الحقيقة. خطرت ببالي فكرة لإتمام عمل راوي القصص بإخفاء نفسي خلف شخصيات خيالية، من خلال معارضة طبائعهم، من شأنه أن يحيد أحكامي المسبقة، ويمحو تحيز مشاعري، واشمنزاري»¹.

كتب روايته التاريخية هذه رغبة في سرد حوادث الغزو الاستعماري بخلفية إيديولوجية توافق مصالح فرنسا كقوة استعمارية عظمى. وبين للمتلقي الغربي أنه حافظ في نقل تلك المشاهد والأحداث التاريخية على قدر من المعقولية: «كان بإمكانني، صادما المعقولية قليلاً، أن أرمي في الجيش نساء بمستوى منحط من المايوركية والجورجية؛ وأسحب الستار على خيام الآغوات. الوقوف عند أبواب حريم الجزائر أو غرف ثكنات القصب؛ إضفاء الطابع الأوروبي على بلاد البرابرة أو الشهوة الشرقية: لقد احترمت المعقولية»². يتشبث أصحاب التيار الرومانسي في تعزيز الغرائبي لجلب اهتمام المتلقي الغربي الذي يتوق إلى مغامرات البلدان المستعمرة، مثلما يبدو في هذا المشهد الذي يثير الفضول عن حيوانات مفترسة في البراري: «في وديان الأطلس، تستمر الغزلان في الصياح واللعب مستلقية على العشب، رغم أنها تسمع صرخة ابن آوى؛ لكنها تقوم في رهبة وترفع آذانها عندما أدركت نبرة الأسد المدهشة»³.

¹ Eusèbe de la Salle, Ali le Renard, ou la Conquête d'Alger, Tome Premier, p. IV.

² Ali le Renard, ou la Conquête d'Alger, T1. ibid p. VIII.

³ Ibid. p.87.

وصف السارد مشاهد أسرة في الجزائر بلغة شاعرية تغطي عليها سمة الغرائبية: «إن مدينة الجزائر عبارة عن كعكة ضخمة من الملح مغطاة على منحدر صخرة ضربتها أمواج البحر. يشكل كل منزل مكعبًا منتظمًا، مثل بلورات الملح الصخري وملح البحر؛ وإذا كنت تعتقد أن الطلاء غير متوفر، فحاول النظر إلى شرفات مدينة الجزائر تحت أشعة الشمس الكاملة وبدون نظارات خضراء، فكل شرفة ستقتل عينك بانعكاس مماثل لتلك المرأة»¹. ولقباب المساجد المرتفعة في السماء والمنحنية أصالة معينة. «إنها ليست كرة موضوعة على رقبة مثل قباب الكرملين في موسكو، ولا نصف كروية تستمر وتغلق أسطوانة مثل كل القباب القديمة وتقليدها الذي صنع منذ عصر النهضة»². وعبر هذه البوابة أخذ يصف هندستها المعمارية المميزة عن إسطنبول والقاهرة وفرنسا، مع كل التفاصيل الجاهزة التي تمتلئ بها مثل هذه السرديات التي جعلت من الجزائر بلدا غرائبيا. ويفسر عدم وجود حدائق أمام البيوت بالعامل الأخلاقي، وهي «الغيرة، التي تعتبر بعد الرعب أعظم مهندس للمدن الإسلامية، ظنت الغيرة أنه في الحديقة يمكن للجيران التجسس عليهم»³.

في السياق العسكري للحملة وصف الأسطول الفرنسي الضخم والمتطور الذي استخدم لذلك أسوار مدينة الجزائر بقيادة ضباط من كل الجنسيات الأوروبية، وتخيل الفرع الذي انتاب الداوي حسين عند اجتياح مدينته. فقد غره اعتداده بجيشه القليل واستخفافه بقوة الخصوم متوعدا بهزمهم بعد أن أهان ممثلهم، وتقصيره الشديد في تعزيز حماية المدينة بالعتاد والجنود من الغزو الأجنبي مع علمه السابق بتجهيزهم للحملة من خلال توالي الهجومات، فظلت المدينة تحت نيران القصف حتى سقطت رغم استماتة أهلها. ثم ما لبث الفرنسيون أن نقضوا بنود معاهدة الاستسلام، فالتفتت أنظارهم إلى مهاجمة بقية المدن المتاخمة لدار السلطان، والزحف إلى المتيجة انطلاقا من البلدة

Ali le Renard, T2, op.cit. p.191.

Ibid. p.193.

Ibid. p.195.

-1

-2

-3

التي كانت الهدف الثاني في سلسلة الحملة، فدخلوها تحت اشتباكات مع أهلها الذين أذهلهم خرق الغزاة للمعاهدة.

سرد عملية الاجتياح صَاحِبَه وصف جغرافي مفصل لموقع مدينة الجزائر، وامتداد خليجها من رأس كاكسين بسيدي فرج¹* الذي نزلت به السفن العسكرية غرباً، إلى رأس ماتيفو شرقاً، وتتبع تضاريسها المتنوعة ومعالمها، مازجا الإعجاب بفرحة النصر لاحتلال عاصمة الإيالة، والاستهزاء بحال حاكمها المهزوم، وضآلة عدته الحربية التي دمرها جيش الغزو الاستعماري في أيام قليلة، وتوغل في قلب المدينة المحتلة بعد فرار جنود الأتراك مستسلمين.

فرحة إخضاع الجزائر إلى الحظيرة المسيحية في قوله: «واليوم كما كان في ذلك الوقت يقود الرب شعبه المفضل إلى أرض الميعاد التي يريد تطهيرها من الجهل والهمجية!»². يدفعه طموح شديد في إحياء مجد الرومان في الجزائر القديمة: «لكن الفائدة العظيمة، وأكثر روعة في نظر البشرية جمعاء، هي أن هذا سيكون أداة العناية الإلهية، التي تريد أخيراً أن تعيد هذا البلد إلى حضارته القديمة»³. يتوارى الكاتب خلف شخصية الضابط فاردنسون، ومن خلالها يطرح نظراته الاستشراقية ويستعرض معرفته الحربية في وصف أطوار معركة اسطى والي، وإيديولوجيته الاستعمارية التي ترى أن فرنسا هي المؤهلة لرفع لواء الصليب ضد الإسلام، والحضارة الأوروبية هي التي ينبغي أن تسود العالم. يسלט الضوء على سكان الجزائر في بداية الغزو الذين يطلق عليهم اسم الأفارقة. مع التمييز بين الجزائريين، الأتراك والكراغلة، وبين الموريسكيين والمحليين كالقبائل والعرب، وبين المسلمين واليهود؛ وإظهار عوامل الاختلاف الحضاري بين الفرنسيين وتخلف المسلمين.

¹*سميت سيدي فرج نسبة إلى أحد المرابطين المدفون هناك، وكانت المنطقة تسمى Torre-Chica أي برج الفتاة خلال الغزو الإسباني على سواحل الجزائر.

Ali le Renard, ou la Conquête d'Alger, Tome Premier, op.cit. p.141.

Ibid. Pp.144,145.

²

³

التيمة المركزية في الرواية هي وصف رد فعل الأهالي من الغزو من خلال قصة الشيخ "عليّ" الملقب بـ"الثعلب" مع الغزاة الفرنسيين ساعة نزولهم على أرض الجزائر. كان الشيخ إمام مسجد القصبّة، وصديق حسين باشا ومستشاره، هرب بمحض إرادته إلى مخيم الغزاة بلا سلاح للترحيب بهم، فاستقبلوه استقبالا حسنا. هذا الشيخ «كئيب متعصب مثل زهاد الجزيرة العربية إلى الطائفة التي ينتمي إليها، كان يريد بأي ثمن أن يرى أعداء دينه وبلده عن كثب؛ كان يعتقد أنه يعرض نفسه للاستشهاد بتخطي القاعدة الأمامية للفرقة الأولى»¹. مواقف الرهاب عند الفرنسيين تستشف من الملامح البارزة التي ميزت مظهر هذه الشخصية الممتلئة للداوة والتوحش وقلة العناية بالنظافة الجسدية، والتعصب الديني المختزل في مسائل التأمل الروحي وتحريك السبحة بين الأصابع تحريكا آليا، وطلب الشهادة. تأكيدا على اللون المحلي الذي يصنع الجاذبية رضي الشيخ أن يكون موضوع رسم ينشر في صحيفة جيشهم أو لوحة تقدم للإمبراطور ونساء حاشيته: «اعتن، من فضلك، بحاجبه الكثيف وعينه الغائرة؛ لا تنس المعطف الذي يغطي رأسه المحلوق وحبل شعر الإبل؛ في بترسبورغ كما في باريس، يطالبون باللون المحلي في كل شيء...»².

يظهر في الجزء الثاني يأس الشيخ عليّ من مقاومة الغزو الفرنسي، فقد أصابه إحباط حاد، وتألّم بشدة عندما رأى مشاهد الدم والدمار في أرجاء المدينة التي تحولت إلى خراب. تذكر نبوءة المرابط سيدي فرج عن حلول الكارثة، رثى مدينة الجزائر بمرارة، متخيلا الأحداث البشعة التي ستحل بأهلها في ظل الحكم الفرنسي الصليبي، الذي سيعمل على القضاء على الدولة الجزائرية وهوية الشعب الجزائري، وأدرك أن الجزائر المسلمة قد ضاعت مثلما ضاعت الأندلس بعد سقوط غرناطة، رغم التطمينات والوعود باحترام خصوصيات الشعب الجزائري. إلا أنه تأكدت كل المخاوف التي عبر عنها عليّ الثعلب في هذه الفقرة الحوارية وهو يرد على نفاق الفرنسيين: «لا، لا، الجزائر الحقيقية، والجزائر المجيدة. سيتم دفن الجزائر، آخر شعب في العقيدة الإسلامية،

Ali le Renard, T1, op.cit. p.145.
Ibid. p.172.

-1
-2

تحت هذه العمورة¹* الجديدة؛ سيكون أطفالها الحقيقيون الراوي الذي يتوسل خبز المنفى على ضفاف النيل أو في مقاهي اسطنبول؛ الفتاة، التي تحولت إلى الدعارة ليلا وفي النهار ترافقها الربابة في شوارع القاهرة أو المدينة المنورة تتغنى بمجد وطنها وسقوطه²، بسقوط عليّ الثعلب وابنه محمد تحت مشنقة الضباط الفرنسيين، فدفا ثمن مقاومتها للغزو العسكري، ودفاعهما المستميت عن مدينة الجزائر.

وإمعانا في تصوير همجية الشيخ عليّ يستخدم السارد أسماء حيوانات وأوصافها للتعبير عن شكله ومواقفه، الثعلب، والقرد بلحيته الطويلة، وتتبعث منه رائحة الماعز، وله نظرة الضبع. والقاموس ذاته في وصف الجنود الجزائريين بالوحش، والوغد، يصيحون مثل الذئب. واستخدم أسلوب الغروتيسك في سرد المشاهد المثقلة بمعاني العنف، فرسم صفحة سوداء عن استبداد الحكام الأتراك واتسامهم بحدة الطباع في معاملة الرعية، والتصرفات التي ارتكبتها الجنود الجزائريون في صد العدوان الفرنسي، من ذبح الأسرى والتكيل بالجثث وتصفية الجرحى قتلا. وعلى نقيض مشاهد العنف عند المسلمين، يتبدى تسامح المسيحيين في معاملة الأسرى والجرحى من أعدائهم بالحسنى، وتذكير الجنود بسماحة المسيحية وكرم الفرنسيين، حيث حاول فاردنسون إنقاذ جندي مسلم مصاب في معركة اسطى والي، وعالج جرحه وقدم مساعدات لليهود المضطهدين كي يبرهن لأعدائه سمو الحضارة الغربية على الإسلام.

ولما كان الغزو يحمل في طياته نزعة دينية صليبية، يستعيد السارد تاريخ تعرض منطقة الساحل الجزائري إلى الهجمات، ونشاط المبشرين وحملات القادة الصليبيين الأوروبيين على سواحل شمال إفريقيا البربرية. لكن الفرنسيين استفادوا من أخطاء الصليبيين السابقين وتمكنوا من غزو الجزائر دون مقاومة شديدة من أهلها، فتهاطلت، عقب ذلك، رسائل التهاني من الدول الغربية على هذا الإنجاز التاريخي في كسر شوكة المسلمين. ومن حين إلى آخر يستحضر أحداث حملة

¹* يشير الكاتب هنا إلى قصة إبادة "عمورة" إحدى القرى التي عاقبها الله بالخسف في زمن لوط عليه السلام.

² Ali le Renard, T2, op.cit. p.140.

نابليون الفرنسية على مصر، مبينا أن تدني حضارة الشرق وتقارب حال العرب اجتماعيا عوامل سهلت هيمنة الغرب عليه.

يسرد الكاتب تفاصيل لتيمات الجزء الأول. تفصيل تصويري مروع لسقوط مدينة الجزائر في يدي الفرنسيين الذي يشبه في ظروفه سقوط غرناطة في يد الصليبيين الإسبان. كانت حادثة السقوط هذه نكسة بالنسبة للمسلمين في الغرب الإسلامي، وزوال أسطورة القراصنة الجزائريين في البحر المتوسط، ونهاية حكم الدايات الاستبدادي، والأوليغارشية التركية في الشمال الإفريقي، ومؤشرا لنهاية الإمبراطورية العثمانية. يروي بأسلوب مبالغ معارك الكر والفر بين الجيشين الصليبي والإسلامي، وتراجع جيوش حسين باشا، وتفكك بايات الأقاليم الثلاثة الذين استسلموا لقانون المنتصر الزاحف إلى قصر الداوي. وذكر مراحل توغل الجيش الفرنسي بعد معركتي اسطى والي وسيدي خالف تدريجيا إلى بوزريعة والأبيار.

ظهرت شخصيات الجيش الفرنسي في صورة أنبياء الحضارة. بدت المعاملة المثالية نحو البسطاء والفقراء والسجناء بعد اجتياح مدينتهم، حاول الضباط ممارسة الدعاية بنشر الطمأنينة بين الناس، وإشاعة الأمن. انحاز اليهود إلى الفرنسيين، عائلات يهودية بأكملها أضناها الجوع والجزع، بعد أن اضطهدهم الداوي ورماهم خارج أسوار المدينة، لجأت إلى المنقذين الفرنسيين لإعلان ولائها التام. اختزلت الرواية دوافع الحملة بكل محمولاتها في شيء واحد هو غسل إهانة حادثة المروحة والانتقام من الداوي، ورد الاعتبار لفرنسا وللملك شارل العاشر.

ظهرت الشخصيات الرسمية من الحكام الأتراك غير مبالية بالنكبة كأنها ليست دولتهم والشعب ليس شعبهم. الداوي مستسلم للواقع دون أن تصدر منه محاولة احتجاج أو دفاع، وقع على المعاهدة وهو يستقبل الضباط في مجلسه بارتياح، فرهن مصير دولة ورقاب شعبها في يد الغاصب بضمان سلامة شخصه وحماية متاعه ومقربيه. وسلمت خزينة الدولة الجزائرية التي

كانت «جزءاً أساساً من المهمة التي جاء الفرنسيون لإنجازها»¹. أما بقية الشعب فقد تقبلت الوضع الجديد وأذعنت لسياسة الأمر المفروض.

2- سردية الواقع الاجتماعي الغرائبي: العشق والموت في المجتمع الاستعماري

كتب الأخوان دوغونكور عن الواقع الاجتماعي² أقصوصة غرائبية عنوانها "امرأة المزوار" Une Femme du Mezouar³*. استلهمت تيمتها من أحداث الرحلة القصيرة التي قاما بها الأخوان إلى مدينة الجزائر عام 1849، ومن تخيل جزائريات في مخدعهن فتحوّلت تلك المشاهد الغرائبية للمرأة الموريسكية من مذكرات رحلة واقعية إلى نص إبداعي.

"المزوار"⁴* هو من يتولى الجباية وحراسة بيوت الدعارة ليلاً. والعبارة بصيغتها الكنائية تشي بالفضاء المنبوذ الموسوم بالخطيئة والعار، وعالم الأنثى المشبوه والجسد المدنس. وتجلي سمات الجندر واستحالة اللقاء بين الجنسين في العرف الاجتماعي الذي لا يتقبل وضعية المرأة غير الفاضلة. تتناول تيمة العشق والموت في زمن الشعوذة والدعارة تحت الرعاية السامية للإدارة

¹ Ali le Renard, T2, op.cit. p.129.

² Edmond et Jules de Goncourt, Une voiture de masques, in Une femme du Mezouar, E. Dentu, Libraire-Editeur, Palais-Royal, Galerie vitrée, 13, Paris, 1856. p.174. <https://books.googleusercontent.com>

³ نشرت في جريدة ليكلير سنة 1852، ثم ضُمَّت إلى مجموعة Une voiture de masques المنشورة عام 1856.

⁴* المزوار في لسان الأمازيغ تعني الأول والمقدم والرئيس، من الفعل "يزوار" أي تقدّم، ومنه اسم الفاعل أمزوارو، وأمزوار، ولم نجد لها معنى في اللغة العربية. وأثناء البحث عن أصل هذه الكلمة، عثر على معناها الأمازيغي في كتاب "فتح الطيب في غصن الأندلس الرطيب" لابن الخطيب، كتب المحقق في الهامش: والمزوار لقب يعني المقدم وهو من البربرية "مزوار" فيقال مزوار الأطباء ومزوار الطلبة ... إلخ. (انظر معجم دوزي). تاريخ التصفح: 08 02--2020، يراجع الرابط التالي: <http://islamport.com/k/adb/5648/2852.htm>، وفي معجم دوزي Reinhart Dozy، كلمة أول في معجم البربر بكلمة دمّزوار، وتستعمل كلمة مزوار بمعنى رئيس وهي بمعنى كلمة شيخ عند العرب. وقد ترجمها فوك بكلمة Pretalus، وفيه أيضاً مزوار عشرة أي رئيس وقائد عشرة رجال.

ينظر الرابط التالي: <http://arabiclexicon.hawramani.com/%D8%B2%D9%88%D8%B1/>

وذكر ابن خلدون في المقدمة، أن حاجب السلطان كان اسمه المزوار، وهو رئيس المتصرفين على باب السلطان، وهو الذي ينفذ عقوبات السلطان ويباشر السجن. نقلاً عن: أحمد صبحي منصور، عرض مقدمة ابن خلدون: ب 3: (ف 34) الوزارة والحجابه والداوين والشرطة والأساطيل. شوهدهد 08-02-2020. 17:57. يراجع الموقع التالي:

http://www.ahl-alquran.com/arabic/show_article.php?main_id=13733

الاستعمارية، وتبين الأبعاد النفسية الناجمة عن هذه العاطفة المنحرفة. تدور حول عذاب امرأة موريسكية في بيئة متشددة لا تعترف بالحب وعلاقات فضاء الانتباز. البطلة هي أحد النساء اللائي يعملن في بيئة مشبوهة، كونها تشبه البغايا في اهتمامها الزائد بمظهرها. حب أحادي الجانب من امرأة موريسكية، عاشقة متيمة وقعت في حب رجل لامبالٍ حبا جنونيا مستحيلا، يشتغل في سلك الشرطة الليلية مزورا. أصبحت تراقبه من خلال نافذة غرفتها في كامل زينتها. وفي النهاية ذهبت إلى مشعوذ زنجي، وماتت بعد أداء رقصة الجلب وتعاطي العقاقير ليلا كاملا.

ركزت الأقصوصة على تقنية التوصيف الفيزيولوجي لتقديم نموذج المرأة الموريسكية الثرية التي جمعت ثروتها بجسدها. وصف إثنولوجي اهتم بجمع كل الصور النمطية التي تنتمي إلى اللون المحلي المتعلق بالحقل السيميائي الاستشراقي للحريم الاستعماري. وردت ألفاظها بأسمائها العربية، كاستعمال أدوات الزينة التقليدية التي تشتهر بها النساء الشرقيات، الحناء لصبغ الأصابع والكحل لرسم العينين ووضع الخال على الوجه. مع شرح مفصل وضح صناعة هذه الصفات من المواد الطبيعية. واستغرق البطلة في الأوهام والأحلام بالاستسلام لنشوة المخدرات وتدخين التبغ الموريسكي كالنارجيلة والشيشة كعلامة للمرأة الحضرية غير الفاضلة. وصف الزي التقليدي الفاخر الذي ترتديه النساء أمثالها في مدينة الجزائر بكل لوازمه. وُصفت هيئتها الأنيقة بالتفصيل والدقة، كانت «تلف على رأسها لفاعا من تونس بخطوط ذهبية، وفي قميصها الشفاف يدور من كل جهة شريط أزرق سماوي، ترتدي فريملة ضيقة جدا، مزينة بأقفال ذهبية، تضغط على حلق كشفه حرير رقيق وضعته على الفريملة، وسترة من ديباج بأوراق فضية»¹.

ساهمت آلية التهجين اللغوي في التعرف على بعض الأكسسوارات المذكورة بالصيغة العامية، فريملة، ومناقش (حلق الأذن)، وحزام، ومسايس (أساور)، وعصيصبة (عصابة الرأس)، وتغليلة (الغليلة)² من الحرير والعجار (نقاب الوجه). وصف السارد ديكور غرفتها من الداخل

Edmond et Jules de Goncourt, Une Femme du Mezouar, op.cit. p.175.

Voir: F. Gomot, Guide du Voyageur en Algérie, L'Annuaire de 1844, op.cit. p.84.

-1

-2

والآثاث المنزلي المشهور في البيوتات الشرقية، ويتكون من «مجمرة من النحاس، ومصباح مستدير من ثلاثة مناقير، ومقعد مرصع بالصدف، وحطب النوافذ المشبوكة بشكل صليبي، وصندوق قديم بمسامير كبيرة الذي جلبته من الجبل»¹.

انتشرت آنذاك ممارسة الدعارة نتيجة تعدد الأعراق وتلاقح الثقافات. وكان المزوار، هو الوكيل الخاص المسؤول عن مراقبة النساء اللواتي يعملن في بيوت المشبوهة، ويفرض عليهن ضرائب. وكذا ممارسة الزوج طقوس السحر والشعوذة، التي تُحيى برقصة الجن (الجلب) إلى ساعات متأخرة من الليل أو حتى مطلع الفجر. امتازت لغة الوصف بروعة التصوير وكثرة النعوت وصور الغرائبي المجسدة لمعنى الرعب من خلال طقوس رقصة الجلب ووصف هيئة المشعوذ، «عجوز زنجي ذو رأس مجعد يستند إلى أرضية، ينفخ بنفس متواصل نار الجمر الحار، واللهب يرتفع وينزل ثانية، والمرق الجهنمي المحضر بدم الدجاج جاهز. لعق الحاضرون المرق ومسحوا أطرافهم بدم الدجاج المغلي»².

كانت هذه الأصوصة فرصة أدبية للأخوين الكاتبين، لتوظيف حشد من المعلومات العجيبة والأخبار الغريبة عن حياة المرأة الحضرية في قسبة الجزائر، وما يتصل بها من الأنساق الثقافية التي صورت مجتمع الأهالي في حالته البدائية، ولكنها لم تحظ بالقبول الحسن في الوسط الأدبي الغربي، كما هي الحال مع سائر الأعمال التي ألفها دوغونكور، بسبب إيغالها في صور فولكلورية تنطوي على اختزال الآخر في صورة باهتة.

3-ملحمة الجيل الأول من المستوطنين في البحث عن السعادة

كانت مساحة الجزائر مترامية الأطراف، وكان لابد من استغلال الأراضي الشاسعة التي كانت ملكا للبايلك في الزراعة لخصوبتها، واستصلاح القاحلة واستثمارها، فتنازلت عنها الحكومة

Edmond et Jules de Goncourt, Une Femme du Mezouar, op.cit. p.175.

Une Femme du Mezouar, ibid. Pp.177,178.

-1

-2

الاستعمارية في عهد النظام الجمهوري عن طريق تقديم تسهيلات لكبار الضباط العسكريين الذين شاركوا في حملة الغزو. كما «كانت الجمهورية سعيدة جدا بتخليص باريس من العناصر المضطربة ولو بتكلفة خمسين مليوناً. حصلت عليها الجزائر. بأولئك، عرفت "المستوطنين" حيث لم يكن هناك أي مستعمرة من قبل: صانعو أحذية، ومصنفو شعر، وفتيان بقالون، وصانعو ملابس، وصانعو ساعات، كانوا بين عشية وضحاها مزارعين معتمدين؛ يمكننا تخمين ما صنعه المزارعون وما البريق الذي أعطوه لاسم مستوطن»¹. تناول الروائيون² الصراع الذي خاضه المستوطن الأوروبي من أجل فرض سطوته على الأهلي، وتحقيق حلم السعادة الموعودة.

ألف فايدو رواية "سر السعادة" Le secret du bonheur³ * في 1863، صورت مشاهد عن الحياة الجزائرية⁴، التي يعيشها المستوطن الباحث عن السعادة. مستلهمة من وحي مرتفعات زكار. تتناول الرواية تيمة محورية، هي ولادة مشاعر الحب بصورها المختلفة، في ظل الجزائر المستعمرة. تتفرع إلى فكرتين اثنتين، الأولى سياسية، تتعلق بقضية الاستيطان كمسألة جوهرية في المشروع الإمبراطوري الفرنسي على شمال إفريقيا، وسعي المستوطنين، بأمر من السلطة الاستعمارية، إلى سلب أراضي الأهلي. والثانية ذات بعد اجتماعي، تتناول العلاقات الاجتماعية الناشئة عن عملية التلاقي بين الأعراق والثقافات. تبينت من خلالهما آثار الصدام الحضاري على وضع الجزائر العام بعد أزيد من ربع قرن من الاحتلال.

الإهداء فاتحة مضيئة لمضمون الرواية، شرح الروائي لصديقه Louis Bouilhet، بواعث كتابة هذه الرواية التي تعد إرهاباً للأعمال الروائية المنتمية إلى الأدب الاستعماري بعد رواية "عليّ الثعلب"، وقبل أن يؤلف دودي روايته الشهيرة "تارتران دو تاراسكون 1872". وتتخلص هذه

¹ Charles Taillart, L'Algérie dans la littérature française, op.cit. p.554.

² الكاتبة مألّسار أول من جسد التيمة في رواية "المستوطن" عام 1845. ينظر:

Charles Taillart, L'Algérie dans la littérature française, ibid. p.553.

³ * تتألف رواية "سر السعادة" من جزأين منفصلين، ينقسم كل جزء بالتساوي إلى ثلاثة عشر فصلاً، جاء الفصل الثاني تفصيلاً لعدد من الصور السردية الواردة في الفصل الأول.

⁴ François Pouillon, Dictionnaire des orientalistes de langue française. Nouvelle édition, op.cit. p.410.

البواعث العامة، في حرصه على الابتعاد عن المجال الغرائبي والعجائبي في التعاطي مع مشاهد الحياة في الجزائر، والتركيز على العواطف الرقيقة بتصوير علاقة حب خالصة، أكثر من وصف بلد بعيد ومجهول. والتعبير عن طريقة التفكير والإحساس والفعل عند الناس الذين جمعهم الصدفة في هذا البلد الجذاب. واحترام حقيقة الطبائع، دون أن يسمح لنفسه بحرية التصرف في رواية أحداثها إلا النزر القليل (التزام الموضوعية في عرض الأحداث)، ورسم شخصيات الناس في صورة صادقة توافق ما شوهد. أما الغاية الرئيسية من وراء تسطير هذه الصفحات، في رأيه، هي الإشادة بصدق نية بعض الرجال¹. وبذلك، أراد أن يحقق حلم الكتاب الفريد في مجال الإبداع، وهو أن يصنع عملاً أدبياً يروق الأرواح الجادة، يجسد فيه تيمة الأخلاق الصافية، والمشاعر النبيلة من خلال نماذج بشرية وأمثلة من البيئة المحلية في نواحي زكّار. لا ريب، أن الكاتب يرمي من وراء هذا الكلام الخاص إلى المهدي إليه، إلى طرح فكرة سياسية طوباوية، ألا وهي مبادئ التسامح الديني، والتعايش السلمي بين العرقين العربي والغربي، بتعميم الخير بين الناس عن طريق تطوير مشروع الاستيطان في الجزائر، وإرساء معالم الثقافة الغربية كنموذج حضاري مثالي، تحت السيادة الفرنسية كاملةً، ويتجلى هذا الطرح من خلال استبطان مشاعر المستوطنين ومواقفهم من واقع الأهالي.

تبلورت هذه المسألة الرئيسية في التيمات التي تمحورت حولها الرواية، وتتمثل في وصف فضاء الآخر (المستعمّر)، وصفا واقعياً في قالب شاعري، كما لمح الكاتب في سطور الإهداء. ولكن بالشغف نفسه، والحماس ذاته للون المحلي المشبع بالطرافة والخرافة والإدهاش، والذي يطل من شرفة الوصف الجغرافي للمكان، من التمهيد وعبر تتالي السرد وتشابك أحداثه إلى غاية الخاتمة. صور من وادي الداموس غابة ثنية الحد وجبال زكار وزوقارة (زوقاغة) ومليانة وبني مناصر وأورليانفيل ومازونة وساحل شرشال وتنس وبني حواء. وفتنة طبيعتها الجذابة الخضراء

¹ Voir: Ernest Feydeau, Le secret du bonheur, Tome premier, Michel Lévy Frères, Librairies-Editeurs, Paris, 1864. p.vi

في الربيع، الحاوية شتى أنواع النبات والحيوان، وترتبتها الحمراء الخصبية التي أدهشت أبصار المستوطنين. يتطرق إلى أهم الكوارث الطبيعية التي تهدد المنطقة صيفا وشتاء، جفاف وزلزال، وريح عاصفة(السيروكو) وطقس حار وفيضان، مما يتطلب من الإنسان وعيا كبيرا وضميرا إنسانيا لمجابهة هذه الأخطار، ولا مرء أن هذا الإنسان المفكر هو المستوطن الأوروبي.

جمال المشاهد عزز الإحساس لدى المستوطنين الوافدين الرغبة في الاستقرار بالجزائر رغم كوارث الطبيعة الإفريقية، وجوها السياسي المتوتر. تتماهى معه الابنة نومي التي «بقيت في حالة من الصدمة الناجمة عن عظمة المنظر الذي كان أمامها»¹. مناظر بني حواء، كانت تدعو إلى تأمل انسجام طبيعتها، ويلتحم معها في الجاذبية الغرائبية ذلك «المنظر التوراتي، وكذا المليء بالأزياء الزاهية، واللامعة بأشعة حمراء قد أخذت أحجاما هائلة»². مقابل علاقة تتافر وتناحر بين المستعمر والمستعمّر اقتضاها تناقض عالميهما المتصادم، إلا في حالات قليلة تحكمها المصلحة الثنائية التي تؤول لصالح العنصر الأوروبي. إذ جاء رسم الشخصيات متوائما مع تلك النظرة الاستعمارية المتعالية حيال الجزائر، المتركزة على الاختلاف الحضاري بين الأهالي، والمستوطنين من حيث الانفتاح والانغلاق. يتمظهر الاختلاف في أمرين، المظهر الفيزيولوجي الدال على تميز العرق الأبيض(الأنا) بملامح جسمية يتفاضل بها على الآخر (العربي والزنجي).

الشخصيات المستوطنة تتكون من وافدين جدد، وهو الجندي "تيري"، ضابط جاء في بعثة عسكرية إلى مليانة، مصطحبا ابنته الوحيدة نومي التي رافقت والدها الانطوائي. والرأسمالي سيمون "الرومي"، ويمثل فئة المستوطنين الجدد المتغترسين، والرأسماليين الأثرياء الذين يبحثون عن مستقبل في الجزائر، لاستثمار أموالهم على حساب أراضي الأهالي. يتميز بالخوف الشديد من كل شيء، رهاب سببه كتب الدعايات والنشريات التي بالغت في وصف مظاهر التوحش في الجزائر، مرعوب باستمرار من كثرة قطاع الطرق والحيوانات المفترسة، والإصابة بالجوع والعطش،

Le secret du bonheur, T1, op.cit. p.44.

Ernest Feydeau, Le secret du bonheur, Tome second, Michel Lévy Frères, Librairies-Editeurs, Paris, 1864. p.298.

-1

-2

وقسوة الطبيعة. وصفت بطابع مؤسّر عائلة فرنسية من المستوطنين القدامى، تسكن في برج عال بوادي الداموس حيث الأمان وتعيش على النمط الحضاري الغربي. ربّ العائلة ضابط سابق متخرج من المدرسة الحربية التي التحق بها مرغما، لأنه يكره هذه المهنة المؤسسة على القوة. يلقب "الكبير"، وهو وصف عربي يحمل معنى التبجيل، ويدل على المكانة التي حظي بها عند الأهالي العرب. أما اسمه الحقيقي فيتجاهله السكان قصدا ويظهر فقط في المعاملات الرسمية، لأنه يختلف عن المستوطنين الجشعين الذين استولوا على أراضي الأهالي. يثني عليه المرشد السياحي مومناش للضابط تيري: «هذا المستوطن لا يشبه بعض أولئك الذين قابلتهم في الجزائر ومليانة، والذين انتفضوا على حقولنا مثل الجراد النهم» [...] إنه رجل عادل، رجل ليس له إلا النصائح على شفّتيه، واليدان مفتوحتان»¹. يسهب السارد في تعداد خصال هذا المستوطن المثالي، النموذج الصالح لإعمار المساحات الواسعة ليملك رصيذا ضخما من الأموال في "البنك الاستعماري". هذا المستوطن المثالي، كان قائد الحملة العسكرية على منطقة الظهره ضد قبيلة صبيح²، التي وصف أفرادها بالأندال، يعيشون على السرقة والغنيمة، وينهبون الحجاج، ويقتلون الضيوف³.

الأهالي عرب وقبائل وزنوج. العرب القبائل فيهم من يوالي الاستعمار ويسانده بالمال والرجال، يجسده قائد قبيلة بني حواء وأولاده الستة، والسكان البسطاء الذين انصاعوا لأوامر الأشراف طبقا للأعراف الاجتماعية. الثوار، وهم الذين ضاقوا ذرعا من حياة البؤس فاننقضوا على المستعمر. وهم "بن زدام" «طويل وقويّ، يشبه أوروبا بلحيته الحمراء وبشرته البيضاء، ويظهر بقميصه القطني ومئزره الجلدي سليل البربر»⁴. شخصيات أخرى تائّرة من قبيلة صبيح وهم بوصكدل

¹ Le secret du bonheur, T1, op.cit. p.68.

² كان حرق قبيلة بني صبيح في 1845 الحادثة الثانية لجرائم الإبادة الجماعية التي قام بها الاستعمار في القرن التاسع عشر ضد الشعب الجزائري، والثالثة حرق قبيلة بني رياح في مستغانم في العام نفسه، بعد المجزرة الأولى ضد العوفية في الحراش 1832.

³ Le secret du bonheur, T1, ibid. Pp.75,76.

⁴ Ibid. Pp.290,291.

وبوعلوشن وبلقاسم المرابط، تمثل شعلة الانتقضة ضد ظلم الاستعمار في مازونة. ومن جهة أخرى تظهر أسماء عصابة قطاع الطرق من بقايا قبيلة صبيح التي حاربت إلى جانب بومعزة، يسلبون مال المستوطنين المستبدين، مثل مسعود واليامون.

في النسق السياسي، انتقدت الحرية الفردية المطلقة التي تتيح استغلال الآخر بالقوة واستعباد الشعوب من أجل المصلحة الذاتية، على لسان المستوطن "كبير" الذي يصحح الصور السلبية التي ترسخت في ذهن الرومي سيمون عن العرب، من خلال طرح بعض المسائل الفلسفية والمذهبية، التي شاعت في أوروبا في القرن التاسع عشر كالرأسمالية والاشتراكية والليبرالية بتأثير أفكار سان سيمون وأتباعه. بيّن موقفه الرفض للفكر الليبرالي التسلطي. عرض نظريته الطوباوية في مفهوم السعادة التي تنشئ مجتمعا فاضلا، مبديا تأسفه على عدم تطبيق تلك الشعارات السامية، التي رفعتها الثورة الفرنسية من أجل خير الإنسانية.

مع صدور رواية "سر السعادة" لفايدو، نشر في السنة نفسها 1863 رواية "مريم، مشاهد من الحياة الجزائرية. مارسيل" للكاتبة كاميل بيريه Camille Périer^{1*}، نشرتها باسم مستعار السيدة بانتيجا Bentégeat، قدمت هي الأخرى صورة عن حياة المستوطن العسكري الذي نال الامتيازات. وتناولت تيمة الحب الناشئ في جو رومانسي غرائبي، يربط بين شخصين من بيئتين متباينتين وعرقين مختلفين، حيث البطل من المتروبول والبطلة من أهالي المستعمرة. ولد جورج فارون بفرنسا، جاء إلى الجزائر شابا عسكريا في فرقة من الجيش الاستعماري، وعيّن ضابطا ملازما بمدينة تلمسان. مريم دو جوييه فتاة جميلة سمراء من أصل عربي صحراوي. ولدت مريم أو ماري في الجزائر المستعمرة، وشبت بين أحضان طبيعة تلمسان في الأطلس التلي المتميزة بمناخها الجبلي الذي يشبه جبال زكار، وفي موقع تاريخي جذاب تشهد معالمه على تعاقب الحضارات، مثل قصر المشور من التراث الإسلامي في عهد الزيانيين، وبعض الأطلال الرومانية

^{1*}ولدت كاميل بيريه Camille Périer في 1830، كانت تنشر أعمالها باسم مستعار السيدة بانتيجا Bentégeat.

القديمة. تربت مريم البدوية الأصل تربية أوروبية في بيت عائلة فرنسية، تنبأها الضابط الفرنسي السيد دو جوييه بعد وفاة والدتها العربية التي كانت تخدم زوجته الشابة تيريز، لما كبرت مريم بنت الصحراء «عادت إلى الصحراويين بسبب وجع الحب، ثم رجعت لتتزوج الضابط الفرنسي الذي تحبه، قتلها أحد الصحراويين كان قد أحبها»¹، فضل أن تموت على يديه كي لا تكون لغيره.

طرحَت الكاتبة مسائل متعددة عن وضع المرأة الأهلية في مختلف الإثنيات، الموريسكية والعربية والزنجية، مركزة على الصور النمطية عن عالم الحريم والنعيم الشرقي، كمسألة ارتباطها ككائن بالحب والجنس واللذة، فأكدت أن المجتمع العربي يعتبر أنها خلقت للحب ولمتعة الرجل. دينها الأساس هو الحب، وهو رمز سعادتها، من دونه تعيش مهمشة ومنبوذة، وفي هذا الصدد تتذكر مريم كلام أمها عائشة الصحراوية، عن مبدأ الحب وضرورته في حياة المرأة حسب تقاليدهم، على أن دين المرأة هو الحب، ولا دين لها سواه. «فالمرأة العربية تصنع مجدها من الحب، وعلى المرأة الفرنسية أن تجعله فضيلتها. حرة حسب العادات والتقاليد لا يمكن أن تكون أمة للزوج. لكنها بحاجة إلى أن تقيّد بالحب؛ إنه سعادتها وقوتها، وبهذا المعنى يكون أيضا دينها»². ويتبين من خلال هذا الطرح التفاوت الفكري بين المرأة العربية المجسدة لثقافة الشرق، والمرأة الفرنسية الممثلة للثقافة الغربية. وأن المرأة العربية مهما تعلمت وتربت في بيئة حضرية تبقى تحمل في باطن أعماقها بذور الحياة البدائية، يتساوى لديها الحب والبغض، فهي تحب بالقدر نفسه الذي تكره. تبوح ماري لجورج رافضة فكرة أنه يتمسك بها خوفا عليه من الندم: «لا فائدة، في داخلي امرأتان: المرأة البدائية والمرأة المتحضرة. إذا أرادت إحداهما أن تلعن، فربما تغفر الأخرى»³.

¹ Charles Taillart, L'Algérie dans la littérature française, essai de bibliographie méthodique et raisonnée jusqu'à l'année 1924, N. 473, Slatkine, 1998. p.54.

² Camille Périer, Meryem, Scènes de la vie algérienne. Marcel, E. Dentu, Éditeur, Paris, 1863. p.103.

³ Ibid. p.104.

تكاثرت، كذلك، الكتابة الروائية من قبل كتاب غير مشهورين، حول تمجيد ملحمة المستوطنين البسطاء غير العاملين في الوظائف الحكومية الاستعمارية، المزارعين الكادحين، الذين ارتبط بهم لقب المستوطن في البداية، شهداء الصليبية، على حد تعبير شارل تيار. جاؤوا إلى الجزائر حاملين بمستقبل جميل، وكافحوا من أجل إعادة للأراضي المهملة حياتها، واليابسة اخضرارها الدائم بتحويلها إلى حقول قمح ومزارع كروم وبساتين مثمرة. ملحمة أولئك العمال الأبطال الذين واجهوا كل التحديات المادية والمعنوية بصبر وأناة، وامتألت بهم قبور هذه الأرض التي عمروها بعدما أخذوها من أصحابها الأصليين. «فمن المؤكد أن بعض الروائيين¹* قد أشاد بإيمانهم وبسالتهم. أظهروهم وهم يتصارعون مع اللصوص العرب والناهبين، والجفاف، والجراد، والمرابي، النهم عديم الرحمة»²، ولكنهم لم يكثرثوا بالكوارث التي حلت بالأهالي البائسين الذين فقدوا ممتلكاتهم المنهوبة دون مقابل.

1.2- نقد السحر الغرائبي: نزع ملمح السحري والأسطوري عن الجزائر

1.2.2- تارتان دو تاراسكون لدودي: رواية كاتب رحالة عن خفايا الواقع الجزائري

مع إعلان الجمهورية الفرنسية الثالثة عام 1870 ساءت الأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزائر المستعمرة أكثر مما كانت عليه، خاصة بعد إعلان نابليون الثالث الحرب على الألمان. وقصد وصف الواقع وكشف خباياه والابتعاد عن أوهام المستشرقين وأحلام الرومانسيين ظهر على الساحة الأدبية التيار الواقعي، ونشر ألفونس دودي عام 1872 روايته الشهيرة Les aventures prodigieuses de Tartarin de Tarascon, "مغامرات تارتان تاراسكون العجيبة"³**

¹ من الروائيين الاستعماريين الذين سجلوا وقائع هذه الملحمة الصليبية، على سبيل المثال، ليون بينات في "رواية مزارع" 1876، وفيلاكروس في "جوليت وعائشة" 1876، وأدولف بادن في ماري شاسان"، عن حياة الألزاسيين واللورانيين في الجزائر عام 1895، ورواية "بول الكبير" لمارسيل لامي، يسرد معاناة الفرنسيين المنحدرين من الألزاس واللورين. وقبل ذلك وصف دوموباسان، معاناة بعضهم في مذكراته "في الشمس".

² Charles Taillart, L'Algérie dans la littérature française, op.cit. p.553.

³ كانت هذه الرواية، في الأصل، أقصوصة ساخرة عنوانها شاباتان، قاتل الأسود "Chapatin, le tueur de lions" منشورة في صحيفة لوفيفارو عام 1863. وبحثا عن أسد الأطلس يغادر البطل شاباتان بلدته الصغيرة تاراسكون، ويستقل سفينة (زواف)=

سُمي بطلها باربران في نسخة 1869، ولما كان هذا الاسم يحمل معاني الوحشية والبدائية، استُبدِل بتارتان لتعالج الواقع المزري في قالب هزلي.

قرأ دودي في أعمال الرحالين عن جزائر الشرق، أرض الأتراك (les Teurs) أي أرض المسلمين، وعن أسطورة أسود الأطلس بجمال شمال إفريقيا، في كُتُب الرواد الذين تطرقوا إلى تيمة الصيد¹*. تناول الكاتب هذه القضايا بأسلوب واقعي مفعم بالتهكم، حين شعر «بالمسافة الشاسعة بين اللحم والحقيقة في حضرة تلك الآفاق الجديدة بجمال زكار»²، لينزع الاعتقاد الوهمي في ذهن المتلقي الغربي عن أسطورة الجزائر الساحرة، وينفي خرافة الحيوانات الشرسة في براري الجزائر حتى ذلك العهد، وينتقد الكتابات الغرائبية والإشهارات المروّجة للحياة السعيدة في الجزائر، والممجة للغرائز البرية والبدائية³، متغاضية عن الأوضاع المزرية التي أجهضت آمال الجزائريين في حياة جديدة تحملها رياح الرسالة الحضارية.

كان البطل البورجوازي الولوع بالصيد وقصص الصيد «تارتان يحمل بين جنبيه روح دون كيشوت، ودوافع الفروسية نفسها، والمثالية البطولية نفسها، والجنون الرومانسي والفخم نفسه»⁴. وبهذه المعنويات الدون كيشوتية قرر أن يرحل إلى جزائر العجائب والغرائب في زي تركي خالص

=من مارسيليا إلى الجزائر، ينتقل من الساحل إلى الداخل، يزور البلدة وجمال زكار ومليانة وأورليانفيل (الشلف)، وبعد مغامرات طريفة فقد فيها الراحة والمال، صال وجمال فقتل في نهاية المطاف أسداً أعمى ومرّوضاً، ليخرج من المغامرة بخفي حنين.

¹* مثل، أليزار بلاز في 1843 الذي فتح باب التأليف في هذا المجال، والضابط أوجين دوما وجوزيف ميري 1853 Joseph Méry، وجول جيرار Jules Gérard لوبومبونال 1860 Charles Laurent de Bombonnel. وكان حينئذ الجدل عن الجزائر المستعمرة واسعاً ومستمرّاً في المناقشات والاجتماعات السياسية، وكانت الكتابة عن هوية صيد الحيوانات البرية ورياضة وقتل المفترسة منها، مثل السباع، كالأسد والفهد والضبع، والجوارح موضة في فرنسا ما بين (1840-1860).

² Jules Caillat, Le voyage d'Alphonse Daudet en Algérie (1861-1862)1, in la Revue africaine. Nos 314 et 318. Années 1923 et 1924, Iger, J. Carbonel, impr.-libr.-éditeur, 1924. p.66.

³ Ibid. p.20.

⁴ Alphonse Daudet, Les aventures prodigieuses de Tartarin de Tarascon, Ebooks libres et gratuits, Avril 2005. p.22. <http://fr.groups.yahoo.com/group/ebooksgratuits>

حتى يتشبه بالأهالي، مزودا بما يكفيه في مغامراته الطردية من ذخيرة ومؤونة. فلکم كانت صدمته قوية! إذ وقع ضحية كتب¹ الدعاية والترويج للزائف.

وقف تارتزان، مشدوها، على الحقائق المريعة والوقائع المخزية، التي تجانب الخيال الجميل الذي رسمته الكتب الاستشراقية التي قرأها في بيته الفاخر عن مظاهر الشرق في الجزائر موطن الأسود والفهود، وعن العزة والمنعة لدى شعبها. شاهد تردي كل شيء في هذا البلد الشرقي المذهل. فالجزائر البيضاء مدينة أوروبية تشبه تاراسكون ومرسيليا و«ليس فيها تركيا واحدا»²، غاب فيها الأشراف والنبلاء. والناس متوحشون وعراة، والقراصنة الأثداء أنذال حمّالون يتسابقون لحمل أمتعه الثقيلة، أو عاطلون سكارى وانتهازيون. السكان برابرة مختلفو الأجناس. الشيء الوحيد الذي أثلج صدره الملتهب غيظا، هي السماء الزرقاء والشمس المشرقة، والراحة خلال إقامته بالفندق. ولكن ماذا وجد تارتزان في الجزائر؟ الطقس حار والجو غير متجانس في شوارع المدينة الأوروبية، حيث ينتشر الهرج والبؤس «في دوامة من الغبار والصراخ»³، والوضع البائس للشرق الأسطوري المتخيل والمتحول تدريجيا إلى معسكر غربي كبير، ولّد الإحباط في نفس البطل البورجوازي العاشق للمغامرات العجيبة.

المرأة بالنسبة إلى تارتزان مغامرة من مغامرات الليالي الشرقية غير محمودة العواقب، ولا تقل خطورة ووحشية عن أسد الأطلس، فهي «مكيدة الحب في الشرق»⁴. يصف نظرات موريسكية تشع بالإثارة «على الرغم من أن السيدة كانت محجبة، إلا أن حيوية هذه العين السوداء الكبيرة المتسعة بالكحل، ومعصم لذيذ وغض محمل بأساور ذهبية كان يلمح من حين لآخر بين الحجاب، كل شيء، نبرة الصوت، والحركات الظرفية، قريبة من الملامح الطفولية في الرأس، كان يقول إن في طياتها شيئا صغيرا، وجميلا، ولطيفا»⁵. هذه الملامح الطفولية الطاغية جعلت تارتزان

Anne-Simone Dufief, Tartarin, les avatars d'un disciple de Saint Hubert, op.cit. p.61.

Tartarin de Tarascon, op.cit. p.58.

Ibid. p.61.

Ibid. p.71.

Ibid.

-1

-2

-3

-4

-5

ينسى في لحظة لاوعي مغامرة البحث عن الأسد الجزائري، ويسعى إلى البحث عن الجزائرية "باية"، المتوارية بين مئات الأشباح من النساء المتشابهات في المدينة العربية المرعبة! ابنة مدينة «الأتراك الشرسين برؤوس الأندال»¹ و"المخصيين والإتكشاريين»².

يكشف دودي في هذه المغامرات زيف الحياة الشرقية الساحرة التي رسمتها الكتب الاستشراقية، مشيراً إلى ندم بعض المستوطنين من ترحيلهم إلى الجزائر، وخيبتهم الشديدة من الجنة الموعودة³، ليظهر التعارض بين الحلم الشرقي والواقع في الجزائر المستعمرة. يمثل تارتان في هذا النص الفرنسي المنتمي إلى طبقة البورجوازيين الصغار الذين يريدون أن يستولوا على كل الامتيازات عن طريق استعمال القوة.

كتب دودي أقاصيص في وصف حال المجندين الجزائريين في كتائب جيش المستعمر، منها أقصوصة "تركي البلدية"⁴ * Le turco de la commune، تتعرض القصة⁵ لسوء المعاملة التي كان يتلقاها المتطوعون الجزائريون في الجيش الفرنسي من قبل ضباط الاستعمار الفرنسي. انضم جزائري يسمى قدور من قبيلة جندل بنواحي مليانة، إلى جيش إفريقيا جندياً في فرقة الرماة في الحرب التي شنها نابليون الثالث دون استعداد جيد ضد الألمان (بروسيا) المندلعة في 1870 والأحداث الدامية التي شهدتها بلدية باريس في 1871. وقع ضحية عنصرية الفرنسيين المقية، وإخلاصه الشديد لفرنسا وجهله للغة الفرنسية، بعد أن أطلق النار على جنود فرنسيين خطأ، معتقداً بأنهم جنود بروسيا، قتلوه بلا رحمة.

Tartarin de Tarascon, op.cit. p.74.

Ibid.

Ibid. Pp.95-97.

Alphonse Daudet, Lettres de mon moulin, Le turco de la commune, op.cit, p.213.

⁵* أقصوصة أخرى عُنُونُهَا "قدور وكاتل" 1872، تطرقت إلى تيمة الحب بين جندي عربي وفتاة فرنسية من الأكراس ينتهي بالفشل. تتناص مع أقصوصة "تركي البلدية" في جوانب كثيرة، يظهر اسم البطل نفسه "قدور" ووظيفته جندي من المشاة، وأسماء الأماكن "جندل وفيسمبورغ"، واستعمال كلمات من لهجة صبير الدارجة في الجزائر "بونو بزاف، مكاش بونو"، مع تحوير بسيط للأحداث.

2.2.2- ملامح الشراسة المتولدة عن الزواج المختلط في رواية تيريز راكين لزولا

في مقدمة الطبعة الثانية يردُّ إميل زولا¹ * على جماعة من رفاقه الكتاب الذين أبدوا استياءهم من تعرية رواية تيريز راكين 1867 Thérèse Raquin خبيثات الواقع القذر والمتعفن الذي يعيشه المجتمع الفرنسي آنذاك، ووصفوها بالخروج على مبدأ "الذوق السليم" والسقوط في وحل الأدب الفاسد الذي يشتغل في مجال البورنوغرافيا، موضحاً أن هدفه الرئيس من تحليل الواقع الفاسد هو «دراسة الأمزجة وليس الطبائع... شخصيات تسيطر عليها الأعصاب والدم بشكل فائق، مجردة من حرية الاختيار، منقادة في كل سلوك من حياتها من قبل حتمية جسد»².

يتطرق النص الروائي إلى تيمة اجتماعية ذات طابع علمي مؤسس على الملاحظة والتحليل، ومستمد من طبيعة الإنسان العضوية التي سار عليها زولا في أعماله، تتمثل في استحالة تجنب بعض الخصائص الموروثة لعدة أجيال، وبيان الانعكاسات الوخيمة للسلوك الوحشي في حياة الإنسان. ومنها تلك التي تتمخض عن علاقة غير متكافئة بين رجل وامرأة في حالات استثنائية مثل الحرب، وتعني المسألة فئة المولّدين من أب أوروبي وأم أهلية نتيجة اختلاف الأعراق والأخلاق. تيريز راكين ثمرة علاقة زواج بين مستوطن فرنسي ضابط يدعى النقيب دوغان وامرأة جزائرية جميلة، ولدت في وهران، بعد وفاة أمها وتربت في فرنسا في كنف عمته السيدة راكين. تزوجت ابن عمته كميل راكين الهزيل، والعليل الجسم ثم سئمت العيش معه، فأقامت علاقة غير شرعية مع شاب وسيم وفظ يدعى لوران، وبمعيته قتلت زوجها البليد ببرودة أعصاب على ضفاف نهر السين. علاقة طبيعية يلخصها الكاتب قائلاً: «إن تيريز ولوران وحشان بشريان، وليس أكثر.

¹ إميل زولا (1840-1902)، روائي فرنسي ومؤسس الواقعية الطبيعية في فرنسا، كتب روايات عديدة، وتعد تيريز راكين 1867 روايته الثالثة في مجال الكتابة الواقعية. نشرت في شكل مسلسل في جريدة L'Artiste. حولت فكرتها إلى نص مسرحي في 1873، وإلى فيلم سينمائي عام 1953 من إخراج مارسيل كارني.

² Émile Zola, Thérèse Raquin, La Bibliothèque électronique du Québec Collection À tous les vents Volume 38: version 2.01. p.5.

حاولت أن أتبع خطوة بخطوة في هؤلاء المتوحشين عمل العواطف الصامت، واندفاعات الغريزة، واضطرابات الدماغ التي تحدث بعد أزمة عصبية»¹.

إن شخصية تيريز راكين الحاملة لمورثات الدم العربي من ناحية أمها الجزائرية، هي أيضا مثل العربيات امرأة مسكونة بالجنس واللذة والغواية، تسير وفق مزاجها المتقلب، منقادة تحت تأثير غرائزها المنحطة وأهوائها المريضة، لذا كانت بالنسبة للمجتمع المتبني الذي تربت فيه جلادا وضحية في الوقت نفسه.

3.2.2-بروسبير ميريمي: مغامرات قناص فرنسي في الغرب الجزائري

لم تسمح له الظروف بزيارة الجزائر، فقد خاب أمل بروسبير ميريمي Mérimée عندما أراد الذهاب عام 1844، بسبب مشاكل بين وزارتي الحربية والداخلية. يذكر الناقد Léon Lemonnier أن ميريمي أشار في رسالة 2 سبتمبر 1868 بأنه شرع في تأليف أقصوصة عن الجزائر²، ويبدو أنه كتبها في العقد الرابع من الاحتلال الفرنسي.

عنوان الأقصوصة "جُمانُ Djoûmane"، 1873 وكنسق لغوي ورد هذا الاسم باللغة العربية ويحمل معنى الرقة والجمال. استعمل اسم علم لطفلة فانتة تمثل غرائبية الآخر. على مستوى السياق النفسي يوحى بأثر الفتنة الجسدية وسلطة النزوات على فضاء النص من خلال الخطاب الدال على الإغراء عن طريق الصفاقة والقذاعة³ في وصف مفاتن المرأة. وعلى مستوى السياق السوسيو ثقافي، يرى الناقد راوول روش أن الكلمة بالإنجليزية تحيل إلى أنها عبارة مركبة من لفظين "جو jew" تعني يهود، ومان man وتعني إنسان⁴، ويقصد بذلك الطائفة اليهودية. يتحدث

¹ Émile Zola, Thérèse Raquin, op.cit, p.6.

² Voir: Prosper Mérimée, Dernières Nouvelles, Texte établi et annoté avec une introduction par: Léon Lemonnier, Librairie Ancienne Honoré Champion, Paris,1929. p. XXIV.

³ Ghislaine Haas, « Discours grivois et séduction dans une nouvelle de P. Mérimée: Djoûmane », Semen [En ligne], 2 | 1985, mis en ligne le 12 juin 2007. p.2. consulté le 26 février 2020. URL: <http://journals.openedition.org/semen/3684>; DOI: 10.4000/semen.3684

⁴ Voir: Ghislaine Haas, Pour une lecture de Djoûmane de Prosper Mérimée. In: Pratiques: linguistique, littérature, didactique, n°13, 1977. Linguistiques / Texte. P.46. consulté le 8 Mai 2020.

doi:<https://doi.org/10.3406/prati.1977.982>.https://www.persee.fr/doc/prati_0338-2389_1977_num_13_1_982

السارد عن جماعة عرقية من الأهالي، تتسجم مع خصوصيتها الإثنية الموصوفة بالسحر والانغلاق. أشخاص يتكلمون لغة غريبة لم يفهمها، ليست قبائلية ولا عربية، ويمارسون طقوسا سحرية بدائية ومرعبة ويأكلون الثعابين، ويعيشون في كهوف عجيبة.

رسم السارد صورة كاريكاتورية مهينة لشخصيات تظهر عليها صفات بدائية، أثارت تقززه هيئتها الهمجية وأفعالها الدنيئة. جماعة من المهرجين جاءت من الجنوب الجزائري لتقديم عرضا تهريجيا أمام ضابط في صحن بيته الموريسكي، وجنوده بعد الحملة الناجحة في الجنوب. رئيس الفرقة شيخ قبيح المظهر يشبه قردا، نصف عار يلبس برنوسا مثقوبا، أسود البشرة، شعره خشن وكث، موشوم الجسد، لحيته بيضاء ومشوكة، «قيل إنه قديس عظيم وساحر كبير»¹. يفصح هذا المشهد عن وجود مسافة نفسية بين الأنا والآخر، فقد كان الجنود يشاهدون العرض في رواق البيت بعيد عن الحلبة. ويتبين من موقف الرهاب الذي تبناه المستعمر حيال هؤلاء المهرجين بصفتهم بدائيين وأوغادا ومتوحشين لا دين لهم ولا ملة.

يدور النص حول ذكريات جندي قناص في الجزائر، يروي السارد (البطل) الذي كان ملازما في فرقة القناصة عودة كتيبته من حملة قامت بها في الصحراء دامت خمسة أسابيع. في فترة استراحة فارس من الحملة قضاها في تلمسان، عبر الجندي عن سعادته في ثلاث رغبات عزيزة لا غنى عنها بعد التعب الشديد الذي ناله، النوم على سرير، وأكل خبز طري على المائدة، ولقاء صديقته السابقة الأنسة "كونشا" الإسبانية التي يحمل لها رصيда من العواطف الجياشة من هذا المكان الحار الذي يثير الغريزة، قد تكون هذه البوهيمية حفيدة الموريسكيين باعتبارهم اختلطوا بالدم العربي، أو الذين نزحوا من الأندلس بعد الاستيلاء على مدن الغرب الجزائري مثل وهران وتلمسان.

Prosper Mérimée, Dernières Nouvelles, op.cit. p.67.

¹

وسط ديكور سردي مليء بالإغراء الشرقي تتمظهر الأنثى الغاوية بجمالها المتوحش. فالطفلة جُمان رمز الغواية والإغراء، وهي أنثى بوهيمية. اهتم السارد بوصف "جمان" وصفا يسبر الجانب النفسي، إحساس بتفجر الرغبة الحسية دفعه إلى مراقبة ملامح جسد أنثوي يتموقع بين انفعالات الطفولة والمراهقة، «كان لديها أجمل عيون في العالم، وكان شعرها يسقط على كتفيها في ضفائر صغيرة تنتهي بقطع صغيرة من الفضة، تترنّ وهي تهز رأسها برشاقة. كانت ترتدي ملابس أفضل من معظم الفتيات في البلاد: منديل من الحرير والذهب على الرأس، وسترة مخملية مطرزة، وسروال قصير من الساتان الأزرق، يُظهر ساقها العاريتين مطوقتين بخالين فضيين. بلا غطاء على وجهها»¹. عدم تغطية جمان وجهها مثل المسلمات جعله يستفهم عن العرق الذي تنتمي إليه، هل هي يهودية أم وثنية أم متشردة.

تجلت أجواء التصادم بين الأنا المستعمر والآخر المستعمر، من خلال مشهد حلمي عنيف. يصف حملة عسكرية شنها الجيش الفرنسي، لمحاصرة المرباط "سيدي لعلّ" ورجاله الثائرين على الغزاة الاستعماريين في نواحي تلمسان. حاول المرباط وزمالاته الهروب إلى المغرب الأقصى، ولكن الجنود الفرنسيين قطعوا عليهم طريق السهل ومنعواهم من عبور نهر ملوية. يتمظهر جدل التفوق والتخلف من الناحية العسكرية في الاختلاف الكبير في استراتيجية الحرب الميداني بين الطرفين المتحاربين التي تمنح النصر للأقوى، المستعمر بقيادة الجندي الفرنسي والمستعمر العربي بقيادة شخصية قوية وهمية.

سعى السارد إلى تكريس مركزية الأنا والانتقاص من الآخر، حينما اختزل الخصم في صورة القائد العربي الذي يعتني بمظهره الخارجي بشكل مبالغ. سيدي لعلّ فارس يمتطي حصانا رائعا ويضع على رأسه مظلة من قش، يعلوها ريش النعام، وسرجه مطرز، ومعه جبيرة مزينة بالمرجان والزهور المذهبة، ويجيد الاستعراض الفانتازي على عادة الفرسان العرب. يستهزئ به لأنه

Dernières Nouvelles, op.cit. p.68.

1-

استعرض فروسيته حتى فرغت بندقيته من الرصاص فانهزم، ناسيا أن «أزمة الفروسية قد ولت»¹، كون العربي لازال يعيش وهم أمجاد الماضي الغابر للحضارة الإسلامية، ويعاني التمزق الهوياتي في الحاضر. في حين كان الجندي قائد الكتيبة مستعدا للقتال، بطلا شجاعا في ميدان الحرب أمام العدو، رفض قتل سيدي لعلا بالبندقية من بعيد كما يفعل الجبناء، بل بارزه وراوغه وأرداه قتيلا هو وحصانه الرائع، فتلاشى في لحظات كالضباب الواهي هذا الفارس العربي المتمرد المتبجح، الذي لم يكن سوى رجل متهور أزعج السلطة الاستعمارية. وهذا المنظور يحيل تلقائيا إلى كل الانتفاضات الشعبية المهزومة.

3- موباسان والأفانيس الجزائرية: ماروكا، ذات مساء، حلومة، محمد فريبوي

يعد موباسان رائد الأقصوصة الواقعية في الأدب الفرنسي، وتتناول سردياته الجزائرية تيمات مرصودة من واقع المجتمع الاستعماري في الجزائر. ولا يكاد يخلو نص سردي موباساني من النسق الإيروتيكي للجسد الأنثوي، ووصف مؤهلات المرأة الشرقية الجسدية. "ماروكا" Marroca و"ذات مساء" Un soir، تدوران في فضاء استيهامي للساحل القبائلي على خليج بجاية. يتناول في "ماروكا 1882" تيمة العلاقة المتلازمة بين شبقية المرأة والمناخ الحار في البلاد الإفريقية والشرق عامة. يتحدث عن علاقة غرامية مضطربة مع امرأة من بجاية، ذات أصول إسبانية استوطن أهلها المدينة، وزوجها فرنسي مسؤول في الإدارة الاستعمارية، غير أنها تأقلمت مع المناخ الإفريقي المتميز بنقص الماء وشدة الحر، بل راحت تقمع هذه الحرارة خارج بيتها على شاطئ بجاية كونها أوروبية الأصل غير مبالية، وفي ظهيرة صيف حار، عكس التقليد عند الموريسكيات اللاتي يستلقين وقت راحة القيلولة في بيوتهن. فكان هذا الخروج عاملا محفزا في سياق اللذة عبر توطيد السارد /البطل علاقته بها في ظرف أسبوع واحد فقط، مستغلا غياب

Prosper Mérimée, Dernières Nouvelles, op.cit. p.74.

1

زوجها المستمر عن بيت الزوجية وانشغاله بعمله طول اليوم، وملل البطلة من الوحدة والفرغ والشعور بالقلق نظرا لعدم اكتراث الزوج بها.

في سياق الفضاء الخارجي لمدينة بجاية في موسم الصيف، يتركز الوصف على طبيعتها الجميلة التي تجمع بين الجبال المرتفعة في البر والمياه الهادئة في البحر، وأحيائها العريقة التي تتمثل في آثار الأمم المختلفة والمتعاقبة على تراب هذه المدينة الصغيرة والجميلة، وتشير إلى الوجود الروماني على غرار العرب والمسلمين. في الفضاء الداخلي، كان اختيار الإقامة في بيت موريسكي أمرا عادياً، باعتباره نموذجاً للعمارة الإسلامية في الجزائر.

"ذات مساء" في مدينة بجاية، منذ بدايتها تتكشف أسلبة جغرافية المكان المسرود لاستقزاز المتلقي. «النسمة الدافئة، النسمة الإفريقية، جلبت إلى قلبي البهيج رائحة الصحراء، رائحة القارة الغامضة العظيمة حيث لا يكاد رجل الشمال يخترقه»¹. أبحر السارد في مياهه رفقة صديقه ذات مساء لمشاهدة أروع نزعات الصيد البحري في أعماق بحره الزاخر بثروات سمكية وعشبية عديدة. وجمال جبالها وغاباتها الكثيفة، والشمس ترسل حزمة أشعتها المستبدة على بيوت المدينة البيض نهاراً.

تشتغل أقصوصة Allouma "حلومة" 1889 على تيمة فتنة الجسد الأنثوي في بلاد الشرق الحارة، مكرسا صورة نموذجية للمرأة الصحراوية المنحدرة من أولاد نايل. ويمكن القول إن مثل هذه النصوص تتناول في مجملها المرأة الشرقية الجميلة، بهيمية المزاج، الطيبة والسادجة، والأنثى التي تفكر بغرائزها لا بعقلها، مثل البهائم. ويبين الجدول التالي الأعمال السردية التي نمذجت المرأة الناييلية خلال القرن التاسع عشر.

Les Contes Guy de Maupassant, Un soir, ibid. p.1380.

-1

المؤلف	عنوان العمل/سنة النشر	الشخصية الفنية	مكان قبيلة أولاد نايل	الفضاء السردي
فرومنتان	صيف في الصحراء 1857 عام في الساحل 1859	عائشة ومريم حواء	الأغواط	الأغواط مدينة الجزائر والبلدية
بيير لوتي	سليمي 1882	سليمي	بسكرة	وهران
موباسان	حلومة 1889	حلومة	أولاد سيدي الشيخ	نواحي الشلف
أنري جيد	اللاأخلاقي 1902	أخت عليّ	توقرت	توقرت وقسنطينة

جدول رقم (3)

تلقي أقصوصة "محمد فريبوي" Mohammed Fripouille 1884¹* الضوء على تيمة من التيمات الشرق القلق، وهي قضية المرتزقة، أو العملاء الذين استجابوا لنداء الاستعمار لمحاربة الأهالي وأيدوا وجوده. يحمل العنوان دلالة سلبية يعني الأهلي الوغد، ويشي بسوء الخلق والخساسة كالانتهازية والوصولية والنزعة السادية والأنانية. يشيد السارد الأول موباسان بالحضور القوي لجيش إفريقيا في الاحتفاظ بالجزائر، على لسان صديقه النقيب "ماريت".

يدور الحدث السردي الرئيس حول تمرد قبيلة أولاد برقي على الوجود الفرنسي في الجزائر بقتل أحد السياح الإنجليز انتقاما منه لما يتعرض إليه السكان من البطش والقهر. وحتى لا تتأثر السياحة الاستعمارية بهذه الحادثة المروعة، شنت السلطة العسكرية هجوما على هذه القبيلة المعزولة. اختير لتنفيذ هذه العملية مرتزق تركي يبغض العرب بغضا شديدا، استغل تلك الحادثة ليفرغ حقه الدفين فيهم، فقتل قائدها وأسر من رجالها ما يربو عن خمسين رجلا، مربوطين بحبل في شكل سبحة يطوق عنق كل واحد منهم، فمات منهم ستة رجال خنقا في طريقهم إلى تكنة بوغار.

¹*ترجمها أحمد منور بعنوان "السلسلة العربية". ينظر: الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ص157.

في سياق علاقة المؤلف الغربي بجاذبية التيمة الاستعمارية، تطرق موباسان في رواية الصديق الجميل "1885 Bel Ami إلى تيمات الانتهازية والوصولية، وتجسدت في البطل جورج دوروا، الذي قضى سنوات الخدمة العسكرية في الجزائر المستعمرة. وفي نظامها الصارم تعلم ممارسات لأخلاقية ضمن عمله في الجندية الاستعمارية كضابط صف. عمد الكاتب إلى توظيف جمالية الواقعية الطبيعية لوصف السياسة الاستعمارية في شمال إفريقيا في عهد الجمهورية الثالثة التي انتهجت سياسة الإصلاح، وعلاقتها بالكتابة والتأليف والمال والأعمال في ظل النظام الرأسمالي المستهتر بمصائر الشعوب. يستحضر البطل الانتهازي جورج بعد عودته إلى فرنسا، وهو يتسكع في شوارع باريس يتضور جوعاً بلا عمل ولا مال، المدة التي كان يعمل فيها جندياً في إفريقيا (الجزائر)، «يتذكر الطريقة التي كان يفدي بها العرب في مراكز صغيرة في الجنوب. وابتسم ابتسامة قاسية ومثيرة مرت على شفثيه عند ذكرى مغامرة كانت قد أودت بحياة ثلاثة رجال من قبيلة أولاد علان (جنوب المدينة)¹. ويتأسف على تلك الأيام الحميدة التي كان لا ينقصه فيها لا مال ولا أكل، ويتمنى لو بقي هناك مدة أخرى ربما يرتاح من هموم البحث عن سد جوعته. يروي السارد كيف كان العربي ضحية نزوات جنود الاستعمار دون أن ينالهم أي عقاب أو فتح أي تحقيق لمعرفة الجناة، فلا وزن للعرب في السياسة الاستعمارية. «فهم فريسة طبيعية للجندي»² المرتزق لذي كونته الإمبريالية الرأسمالية وعلمته النذالة وشراسة الطباع.

طرح الرواية قضايا متعددة تتعلق بالوجود الفرنسي في الجزائر الذي كان يستقطب اهتمام رجال الأعمال في المتروبول. بدت الشخصيات مهتمة بالشأن الجزائري وأثارت قضية الجدل الذي احتدم في البرلمان الفرنسي حول نظام الحكم في المستعمرة وإعطاء الأولوية للمدني على حساب العسكري. ومسألة القروض الممنوحة للمستوطنين الراغبين في الاستقرار في الجزائر لامتلاك الأراضي الزراعية، التي طالب بها البرلماني الراديكالي "مورال" حكومته، ونوه باستحقاق

¹ Guy de Maupassant, Bel-Ami, Bibliothèque Électronique du Québec.

p.5. <http://www.bibebook.com/search/978-2-8247-0409-8>

² Guy de Maupassant, Bel-Ami. p.5.

العسكريين للأراضي الخصبة كامتياز نظير الخدمات المقدمة لتحقيق مشروع الاحتلال الكامل للأراضي، وسينشأ عن هذا «مجتمع تعلم جيداً محبته، ويتكلم لغته ويدرك كل هذه القضايا المحلية الخطيرة التي يواجهها الوافدون الجدد حتماً»¹. وقضية إضرار العسكريين بالزراعة في الجزائر لنقص معرفتهم وخبرتهم في هذا المجال.

عري موباسان، كونه كاتباً وصحفيًا مرموقاً في جرائد مشهورة، مرتزقة الصحافة الفرنسية الذين لا يمتلكون الشهادات الكافية للعمل في هذه المهنة المتعبة التي تتطلب مهارات عالية لمزاومتها، وإشباع نهم القارئ إلى معرفة الأخبار الصحيحة، وتغطية تفاصيل الوقائع الدقيقة لما يجري في المستعمرات. تجلت هذه التعرية في استغلال الكتاب الفرنسيين جاذبية المسألة الاستعمارية في الترويج للأحداث الكاذبة والمغامرات المتخيلة، واللجوء إلى النسخ والتزييف والتحريف في مختلف كتاباتهم عن البلدان البعيدة فيما وراء البحار لمسايرة الجو السياسي المهيمن وانتهاز الفرصة للحصول على امتيازات.

1- عرسيّة الحياة عند أندري جيد: البحث عن الذات بين الملذات:

يمجد أندري جيد في إنتاجه الروائي مبادئ الفردانية والحرية المطلقة في تحقيق الرغائب ولو على حساب الآخرين، وينشد فكرة عرسيّة الحياة وبهجتها دون ضابط. وجد في الجزائر المستعمرة أحد منابع الجمال التي أيقظت الأحاسيس اللطيفة والشاذة في نفسه التي أرهقتها الكآبة والسامة. ألهمه هذا الفضاء الشرقي في الواحات والصحراء شعرية تشدو بروعته وجاذبيته، لكنه بقي متلبسا بالنظرة الاستشراقية، التي تركز القطبية المتخيلة بين فحولة الغربي وتخنت العربي. ويختلف جيد عن كتاب العبور، أنه جاء إلى الجزائر بمحض إرادته باحثا عن المتعة، وليس على ظهر باخرة عسكرية، ولم يتجول رفقة ضباط تحت الحماية المشددة. عدت رواياته سيرا ذاتية، كونها تفتح من تجربة الرحلة، وترتبط بالواقعي (سرد ذاتي) والمتخيل، ويتمظهر فيها ضمير المتكلم المتمركز حول الذات وغياب صوت الآخر، ويستعمل فيها الأسلوب الانطباعي في الوصف، وتشير إلى تواريخ الأحداث وعصرها، مثل "أغذية الدنيا" 1897 و"اللاأخلاقى" 1902، و"أمينتاس" 1906 التي تمظهرت فيها صورة الجزائر، وتطرح مسألة الصراع الحضاري بين الشرق والغرب من منظور آخر هو الاعتداء على براءة الطفل العربي/الشرقي، بعد خطاب الاعتداء على المرأة الشرقية.

الجوهر الأساس في السرد الجيدي هو إشكالية محورية الذات والشعور بالسعادة القصوى في الحصول على مختلف اللذات بأي طريقة، تبلورت هذه الإشكالية منذ "أغذية الدنيا" Les Nourritures terrestres¹، وهو «عمل هجين ومتعدد الأجناس»² على شاكلة أغلب نصوصه السردية. تأسست نظريته في الحياة على نشدان السعادة التي يحققها له الغذاء الكامل في الأرض،

¹ André Gide, Les Nourritures terrestres, Édition du groupe «Ebooks libres et gratuits», Livres électroniques, Septembre 2007.

² Saadia Yahia Khabou, La poétique de l'espace et l'expérience de l'écriture dans Les Nourritures terrestres d'André Gide, 2013, Postures, Dossier « Nord/Sud », n°17, En ligne <<http://revuepostures.com/fr/articles/yahia-khabou-17>> (Consulté le 11 /04 /2020)

والمتمثل في المتعة الروحية والمتعة الحسية معا. تتجلى هذه السعادة بشقيها في رؤية الأماكن النائية، التي تدفعه إلى كشف النادر ورفع الستار عن المجهول، والنظر في عناصر الطبيعة المتوحشة والبقاع البديعة، وأحوال الناس الغريبة.

يصف للمتلقي المتخيل "نتانائيل"، وهو يعلمه الوعي بالذات الفردية وسر التمتع بالجمال الغرائبي، تميزها عن المناطق الأخرى بلذائذ متعددة ورائعة، لا يمكن أن يحظى بها المرء في أي مكان على وجه الأرض. «فلا يوجد مجال للتحليل الإثنوغرافي أو الطبوغرافي للمدن التي زارها، ناهيك عن ذلك الحصول على بيانات عن اقتصاد البلدان التي اجتازها، والتركيبة السكانية ومشاكلها الاجتماعية. يبدو أن المسافر مهتم بشكل رئيسي بالديكور والمناظر الطبيعية: العطور والزهور والواحات والصحراء، والموسيقى، والروائح، والفواكه، باختصار ما يشكل "الأغذية الدنيوية" التي يستمتع بها جيد خلال رحلاته في شمال إفريقيا»¹. اهتم بوصف حدائق اللذائذ، أحوالها وتغيراتها بتعاقب الفصول، مثل حديقة التجارب الشهيرة بمدينة الجزائر، أعجب بمناظر حدائق البلدة، وحدائق الجنوب في بسكرة. ويتماهى مع الطبيعة في البلدة.

سعى جيد إلى الترويج للسياحة الجنسية عبر الجسد الغرائبي للشعب المهزوم، الجسد الأسطوري للأنثى الشرقية، وتتجلى في صور النساء اللواتي يبحثن عن لقمة العيش مع سائح أجنبي: «على سطوح بسكرة، جاءت مريم تحت ضوء القمر، في صمت الليل الهائل. كانت مغلقة بالكامل في حايك أبيض ممزق كبير أسقطته وهي تضحك على عتبة الباب الزجاجي. في غرفتي كانت تنظرها حلوى»². انخرط السارد في محيط اللذات فكان يتودد إلى الأطفال، وجرته هذه الرغبة إلى خوض تجربة الشذوذ على جسد الطفل الأهلي: «والأطفال - الذين بدوا لي صغارًا جدًا، كما يقولون؟ لمعرفة الحب بالفعل. (كان هناك بعض الشفاه أكثر دفنًا من الطيور

¹ - Aboubacar Abdoulwahidou Maiga, L'Afrique du Nord dans les récits de voyage et l'œuvre d'André Gide. p.508. Consulté le 26-50-2020 .15 :00

² https://www.academia.edu/14758186/L'Afrique_du_Nord_dans_les_récits_de_voyage_et_l'oeuvre_d'André_Gide André Gide, Les Nourritures terrestres, op.cit. p.102.

الصغيرة المحضنة.)¹ تستثير فيه الواحات الهادئة متعة معنوية ورغبة حسية لاتهدأ: «أدخل حديقة حيث لا أحد يمشي؛ طفلان يرتديان الصوف الأبيض يأخذانني إلى هناك. حديقة طويلة جدًا خلفها يفتح باب»². ويشي هذا الانخراط بالتشبث بالمكان والتعلق بما فيه كتعلق السيد بملك اليمين، وتشبيء أهله.

النساء	الأطفال	الشيخوخة	التوصيف الزمن
لم نر النساء.	كان الأطفال يثرثرون في المدرسة.	كان الشيخوخة يتحدثون على عتبة الأبواب.	الصباح
النساء على السطح مكشوفات.	خروج الأطفال من المدرسة.	يستمر حديث الشيخوخة على عتبة الأبواب.	المساء

جدول رقم (4)

في هذا الجدول يلخص جيد نمطية حياة السكان اليومية من الصباح إلى المساء في واحة أوماش، والتي تشبه جميع حيوات الأهالي في كل مناطق الجزائر، كما يراها الأدباء في المتخيل السردي الاستعماري، حيث كانت حياة التخلف نتيجة لغلبة التصرفات السلبية على الشعوب المتدنية ثقافة وخلقاً، كالكسل والترثرة الفارغة، وتضييع الوقت وقلة الاستفادة منه.

وهبت صحراء الجزائر أندري جيد إحساساً لطيفاً بالذات فلم يحب سواها، حب يهديه رمالها وشمسها وواحاتها المديدة من بسكرة وأوماش وتيماسين وتوقرت. فمَهْمَا روى عن الصحراء أو وصفها بصحراء المجد، يجد وصفه لا يرقى إلى مستوى جاذبية مظاهرها الغرائبية المدهشة كمكان شاسع يرمز للمطلق وللانهائي. يريد أن يرسم صورة لصحراء القوافل العابرة في رحلات بلا توقف، تقطع مسافات شاقة في توقرت، القوافل التي تتركب الخطر في مسيرتها يلح في ذهنه عذابها وعزلتها في عالم التيه بعيداً عن عالم الاستقرار: «أيتها القوافل! - قوافل رائحة في المساء،

¹ Les Nourritures terrestres, op.cit. p.103.

² Ibid. p.115.

¹

²

قوافل غادية في الصباح، قوافل منهكة بشكل رهيب، سكرى من السراب، والآن يائسة! أيتها القوافل! لا يمكنني الذهاب معك، أيتها القوافل!»¹.

في رواية "اللاأخلاقى" 1902، يواصل هيامه بالطبيعة الصحراوية وبواحات الجنوب ومناخها الحار، وبالحدائق العمومية وظلالها الوارفة ونخيلها العالية وسواقيها الجارية، وموسيقى الناي الشجية في يد الأطفال والكبار. «يقدم النص لحظة استيقاظ يتم فيها عرض مناظر الطبيعة (مناظر الطبيعة لشمال إفريقيا) كمكان مثالي بعيداً عن الواقع والمعقولية»². لقد نسي كل همومه لحظة الحضور في إحدى حدائق بسكرة الساحرة.

فضل السارد «الصحراء على الواحة - هذه الأرض ذات المجد القاتل والروعة التي لا تطاق»³. بدل الواحات التي أعجب بها قبل سفره إلى أوروبا، فوجدها بعد عودته إليها باهتة أيضاً مثل أصدقائه الأطفال، فالصحراء أكثر دلالة على الحرية. ترجم هذا البهوت طائفة من النعوت مثل كئيب، غريب، بائس، تمهيدا إلى تغير صفة "إنسان الطبيعة" التي عاشها السارد مدة وجيزة إلى صفته العادية، إلى المجتمع⁴، وينتقل من الارتواء في حضن الطبيعة والصفاء، إلى التخبط في المدينة حيث الزيف والنفاق.

يسرد ميشال مغامراته الخاصة مع الأطفال في بسكرة، كيف كان يفضل أن يقضي وقته رفقة بشير الذي كان يغيره بصحته الجسدية، وعاشور القوي البنية ولوصيف الوسيم ومختار المفضل على الجميع، يتسلى معهم ويلعب غير عابئ بزوجته الجميلة مارسلين التي كانت تعتني به عناية خاصة، بل يغتاض عندما تبدي اهتمامها المبالغ بالأطفال. كان يتغاضى عن بعض تصرفاتهم الطائشة، ويعطيهم بعض النقود وتقدم لهم أنواع الشراب حتى يكسب محبتهم ولا تنقطع زيارتهم

Les Nourritures terrestres, op.cit. p.120.

Edit Bors, Récits d'Alceste: approche(inter)textuelle, Études, Université Catholique Pázmány Péter de Piliscsaba. p.70.

<http://cejsh.icm.edu.pl/cejsh/element/bwmeta1.element.ojs-nameId-ae1fbabb-09db-38c4-aa87-72343cb11b9b-year-2010-volume-5-article-5763/c/5763-3918.pdf>

L'Immoraliste, op.cit. p.133.

Edit Bors, Récits d'Alceste: approche(inter)textuelle, op.cit, p.71.

-1

-2

-3

-4

له، أو يخرج معهم ليتجول في أماكن لا يعرفها. «كنت أبقى مع الأطفال. وسرعان ما عرفت الكثير منهم. لقد تحدثت معهم بإسهاب. تعلمت ألعابهم وأخبرتهم بأخر، وفقدت كل أموال في لعبة السدادة».¹

تتأرجح رواية "أمينتاس"² Amyntas 1906 بين الواقعي (ذكريات رحلة) والتمثيل. "أمينتاس" راع شديد السمار، ويرمز إلى طفل الجنوب الذي حوله السارد إلى ضحية. يعلم علم اليقين أنه لا يستطيع أن يخوض مثل هذه التجربة في بلده خوفاً من العقاب والسجن، بسبب صرامة القوانين في أوروبا. في الفصل الأخير من العمل يعلن عن الغاية من زيارة الجزائر في المرة السادسة: «مهووساً بالرغبة في هذا البلد، التي كانت تنطلق في داخلي كل عام نحو الخريف، وآملاً أخيراً في الشفاء، شفاءً روحي، خططت لتأليف كتاب عن إفريقيا»³. يبدأ السارد المغامرة من القنطرة حيث انتهت الأحداث في اللاأخلاقي. يستمر التعبير عن وهج الافتتان بمناظر الطبيعة الخلابة في هذه الواحة صاحبه الاستمتاع بالجمال المبهر بغرابته، تجلى في هذه النداء الرقيق كبريق ضياء الشمس، والدال على شدة الانبهار: «أيها البلد الجميل المرغوب، لأية نشوة وأية راحة ستنتشر آه! امتدادك، تحت الضوء الذهبي الدافئ»⁴. عالم القنطرة المختلف يستشف عين السار في تميزه بالهمود والخمود، كأن سكانها في العصر الذهبي القديم ينعمون بشذى الطبيعة، مكان يخيم عليه هدوء وسكون وسكينة، وأصوات عذبة تنبعث من أنغام الناي، وخير الماء، وضحك الطفل، ونسيم عليل يحرك الأشياء بخفة متناهية، واستغراق الحيوان والإنسان في نوم عميق يشبه الفناء. «يموت الرجل العجوز بهدوء وينمو الطفل دون اهتزاز. تبقى القرية كما هي، حيث لا أحد يرغب في أي شيء أفضل يجلب جدة لأي جهد»⁵. يتغنى بالبشاعة المنفرة لأي إبداع ممكن في كاف الضر رغم شساعة المكان: «في الحاضر، ما أحبه في هذا

¹ André Gide, L'Immoraliste. p.38.

² * العنوان مستعار من فرجيل، ويحيل إلى أحد شخصيات أناشيده الرعوية.

³ André Gide, Amyntas, Édition du groupe «Ebooks libres et gratuits», Livres électroniques, Juillet 2008. p.50.

⁴ André Gide, Amyntas. p.6.

⁵ Ibid. p.7.

البلد، أشعر أنها البشاعة، وأحوال الطقس السيئة: ما يُكره أيٌّ فنِ على أن يكون [...] أو يلجأ إلى مكان آخر»¹. يبدو أن في هذا التعارض في الإشادة بالجمال والقبح في الآن نفسه، يكمن الوجه الغرائبي للصحراء في السرد الجيدي.

يرى بعض النقاد أن جيّد كاتب معارض للاستعمار، غير أنه لا يوجد ما يثبت هذا الادعاء. فقد هاجم في "أمينتاس" سياسة الحكم في الجزائر، مشيراً إلى أن الغرض من رحلته السادسة هو نقد الأوضاع المزريّة، ووصف انعدام مشاريع التنمية، وبؤس الأهالي، ولكنه لم يندد بالاستعمار الإمبريالي في شمال إفريقيا وفي العالم. في فصل معنون "التخلي عن السفر"، يلخص جولاته بين 1903-1904، لإبراز معالم التطور التي أحدثها الفرنسيون في مدينة الجزائر إلى نهاية القرن التاسع عشر، وتبيان الفرق الظاهر بين المدن التي نالت نصيباً من الازدهار في ظل الوجود الفرنسي وبين تخلف قرى الصحراء البدائية وقرى الجبال النائية.

في الجدول التالي تتجلى تيمات الغرائبية المندرجة ضمن السياحة الاستعمارية التي روجت لها سرديات أندري جيد، تمثلت في الدعوة إلى تحقيق الذات بأنواعها المختلفة في الجزائر المستعمرة.

التيمة	المكان المغلق	وصف الطفل	المراة الشرقية	المكان المفتوح
العمل	موضع اللذة الحسية والمعنوية	الغريزة المنحرفة	رمز اللذة الحسية	التماهي مع الطبيعة والانبهار بغرائب المناظر
الأغذية الأرضية 1897	المقهى: حفلات محلية، موسيقى وغناء ورقص وجنس.	-تذكر بشير وعثمان	-جسد المرأة البغي (مغامرة مع مريم في بسكرة).	الطبيعة في الساحل، مدينة الجزائر والبلدية. واحات وصحراء الجنوب الشرقي: بسكرة

	-غانيات (أولاد نايل) على عتبة الباب يعين اللذة.	-مغامرات مع الأطفال في الحديقة	الحديقة: حديقة التجارب بمدينة الجزائر، حدائق البليلة، وحدائق الوردي ببسكرة. السطح: شكوى واعترافات، ثرثرة وتسلية، وتبديد الوقت.	والقنطرة: شروق وغروب الشمس، الحرارة، الضياء اللامع، القمر، الساقية، الوادي، الجمال، الرمال، الصحراء، القوافل.
للأخلاقي 1902	مغامرة مع خليلة مختار في مقهى عربي. مغامرات مع الغانية أخت الطفل عليّ	مغامرات مختلفة مع أطفال الأهالي: بشير وعاشور ولوصيف ومختار وعليّ.	المقهى: حفلات محلية موسيقى الناي وغناء ورقص وجنس. الحديقة: أشجار النخيل (حدائق الوردي ببسكرة) السطح: بيوت الطين والأكواخ: حصائر على الأرض	الطبيعة الصحراوية في الجنوب الشرقي: الشمس، الحرارة، الضياء، القمر، الساقية، الوادي، الواحات، الرمال، الصحراء، الماعز.
أمينتاس 1906	- نساء بغايا (أولاد نايل) يرقصن في المقهى - نساء يرقصن على أنغام موسيقى زنجية لطرد الأرواح الشريرة	-عثمان وعاشور -طفلة عارية -أطفال نصف عراة -راع قبائلي صغير عار تماما.	المقهى: حفلات محلية موسيقى وغناء ورقص وجنس. الحديقة: حدائق الوردي ببسكرة وحديقة التجارب. سطح في فندق: الفضول والفرجة بيوت التراب والطين والأكواخ: حصائر على الأرض.	الطبيعة الصحراوية في القنطرة ومن بسكرة إلى توقرت: الشمس، الحرارة، الضياء، القمر، الساقية، الوادي، الواحات، الرمال، الصحراء، الماعز، الجفاف، القوافل.

	حمام موريسكي: عفن وقذارة.			
--	------------------------------	--	--	--

جدول رقم (5)

2- إيزابيل إبرهارد: لوحات من هواجس الحب والحرب، وهموم الحياة والموت

مثلت إيزابيل إبرهارد¹* نموذجا نسائيا فريدا وبارزا للتلاقي الثقافي، والصدام الحضاري في أن واحد بين الشرق والغرب. عاشت مغامرة صوفية تنتقل بين مختلف مدن الجزائر ومناطقها، وفي زواياها الدينية تبحث عن ذاتها في الآخر وعن الآخر، وتستكشف المثالي في الهناك. تجولت في ربوع عنابة وقسنطينة وسكيكدة وباتنة وبسكرة وتوقرت ومدينة الجزائر والشلف وجنوب وهران، وانتهى بها نبض الحياة في المحطة الأخيرة بعين الصفراء. عبر فضاء التيه الشرقي الذي قطعته وحيدة في جسد الآخر جنسا وثقافة، متسكعة في برنوس فارس عربي مسلم يضع عمامة اسمه محمود سعدي، «تمكنت من الحصول على معلومات أصلية ودقيقة حول مجتمع يعتبر مغلقاً وعفياً. عرفت، على تباينهم، كيف تغوص في وسط الأهالي، معرضة حياتها للخطر أحيانا، للعيش معهم حسب عاداتهم»². وفي هذه الظروف غير المألوفة كانت هذه الشابة الروسية، التي ظلت مترحلة حتى رحلت عن الدنيا، تكتب في جريدة الأخبار العربية بالجزائر عن الوضع الاستعماري والأهالي.

نصوص سردية متنوعة على شكل أقاصيص وروايات نشرتها إيزابيل في الجرائد الجزائرية، عالجت مسائل متعددة رصدتها من واقع المجتمع الجزائري في نهاية القرن التاسع عشر، وجمعت تحت عناوين مختلفة "صفحات الإسلام" و"تحت ظل الإسلام الدافئ" و"غراميات رحلية" مع

¹* هي أول صحفية أوروبية وكاتبة رحالة تستكشف الشرق الساحر من بوابة شمال إفريقيا، قامت بزيارة تونس والمغرب، وفي 1897 بالجزائر، منفاها الاختياري، بها استقرت وطاب لها المقام.

² Leila Louise Hadouche Dris, « L'œuvre algérienne d'Isabelle Eberhardt, une écriture à revisiter », [Online], 46 | 2009, Online since 11 April 2012, connection on 11 May 2020. URL : <http://journals.openedition.org/insaniyat/180>

اختلاف في زمن النشر ومكانه، ودور النشر والناشرين. ركزت على تيمات تتواشج في مفاصلها ثنائية الحياة والموت كطرفين مُهمَّين في وجود الإنسان، ووضعيته خلال ذلك والنهاية المأسوية لمسيرته في الدنيا.

تصور أعمال إيزابيل إبرهارد السردية مسألة الثنائيات المتضادة التي أفرزتها عملية التداخل الثقافي والاحتكاك الإثني. تستمد عوالمها من المرجعية الاستعمارية التي تجسد العلاقة النمطية بين العرق الهازم والعرق المهزوم، وبين الثقافة الغربية المتفوقة والثقافة الشرقية المتخلفة، والصراع الحضاري بين الإسلام والنصرانية، فهي «لا تتفصل تمامًا عن الفكر الاستعماري بل وتشارك، في نهاية المطاف، في إيديولوجيا الرمز من خلال استغلال جميع القيم المتعارضة التي تبني النظرة إلى الآخر إلى حد كبير»¹. تُستجلى هذه القيم المتعارضة من خلال تيمة الحب والموت بين المرأة الأهلية والضابط المجند في الجيش الفرنسي لقمع السكان. علاقة حب تنمو في سياق استعماري غرائبي بين الذكر الغربي الذي يأخذ كل شيء ولا يقدم للآخر سوى الموت، والأنثى الشرقية التي تحب بإخلاص، وتعطي بسخاء ولا تتال إلا الفضيحة والعار. ينهض النص السردى عند إبرهارد على نسق الجسد المبتذل، صاحب هذا الجسد هي المرأة الطيبة التي تعتقد بالمنقذ من الآلام، وتحلم أن يحررها الرجل الغربي المتحضر من براثن البؤس، كأنثى مهضومة الحقوق في مجتمعها البطريركي.

اشتغل نص "ياسمينة"²* 1899 على ثنائية ضدية هي الصراع بين الطهر والعهر عند المرأة الأهلية، فانتصر العهر الذي يتلاءم سردياً مع غواية الأنثى العربية في المتخيل الغربي، والوعي واللاوعي عند الضابط العسكري، فانهزم اللاوعي المنتاسب مع تبديد وهم الافتتان بالآخر. تتجذب راعية الغنم إلى الضابط الفرنسي "جاك" الذي جاء إلى قريتها النائبة بناحية الأوراس في مهمة

¹ Leila Louise Hadouche Dris, « L'œuvre algérienne d'Isabelle Eberhardt, une écriture à revisiter », op. cit.

²* نشرت الأقصوصة في كتاب "في بلاد الرمال" عام 1899، وفي جريدة محلية بعنابة "Le Progrès de l'est" عام 1902، وموقَّعة تحت اسم مستعار محمود سعدي.

عسكرية لإخضاع الآخر البربري. يستدرج الفارس الأوروبي النبيل الفتاة البربرية البريئة بخطاب رقيق، ويسلب قلبها الطيب وعقلها الساذج المتشبع بمبدأ الخضوع لقوة القدر "المكتوب" في كل شيء، ثم يتركها فريسة الأوهام حتى تضعف وتموت. في حين تبدو الحياة بالنسبة إلى الضابط الأوروبي رائعة ومدهشة في هذه الديار المستكشفة من فضاء الآخر المستعمر. «إفريقيا هذه التي جاء إليها طواعية ما زالت تظهر له كعالم شبه خيالي، غير معروف بعمق، والشعب العربي، بكل مظاهر شخصيته الخارجية، أغرقه في دهشة مستمرة. لم يخالط رفاقه في الدوار تقريبًا، لم يتعلم بعد تكرار الكليشيهات السائدة في الجزائر، ومن الواضح أنها معادية مسبقًا لكل ما هو عربي ومسلم»¹.

ياسمينية، أو شمينة بنت الحاج سالم، صبية سمراء وسيمة، تحمل في أوصالها جينات العرق البربري، فقيرة بثوب بال وصليب أزرق موشوم على جبينها كرمز ثقافي غامض المعنى، ربما يعود إلى حقبة الرومان المسيحيين الذين سكنوا المكان. تسكن أحد الأكواخ قرب موقع تيمقاد ومعسكر لومبار حيث الأطلال الرومانية العظيمة مدينة القياصرة التي تختلف عن المدن المتواضعة التي بناها السكان الأصليون على مرتفعات الأوراس. تصف الساردة الفضاء مجددة مصطلح الرومنة في شمال إفريقيا، والإيديولوجيا الاستعمارية التي تركز عليه للإشادة بالعرق اللاتينو روماني. ومفهوم الغرائبي الذي يحيل إلى العرق المتدني عبر الفتاة بزيها المحلي ومصير نساء الأهالي في الدوار. ويتمظهر غياب هيمنة السلطة الذكورية عن فضاء ياسمينية والمدنس في الظروف القاهرة لعائلتها المندمجة، فولدها الحاج سالم شيخ منكسر الحال، وأخواها مجندان ضمن جيش الاستعمار بسبب الفقر يعملون في فرقة الصبايحية في الصحراء، وخطيبها المعاق محمد الأعور الذي يعمل في مقهى بباتنة، مما فسح المجال للرومي ليستفرد بالفتاة البدوية الصغيرة وينتهك شرفها ويهجرها، والعذاب الذي لاقته مع زوجها عبد القادر بن سماعيل السكر

¹ Isabelle Eberhardt, Au pays des sables, Adapté de textes réunis par René-Louis Doyon, édité par les Bourlapapey. p.22. bibliothèque numérique romande www.ebooks-bnr.com

ذي الطبع العنيف الذي اكتشف أمرها، ثم العمل مجبرة في بيت الدعارة بعد موته لتحسين وضعيتها المادية.

يتمثل الصراع الديني بين الإسلام والمسيحية في موقف الشخصيتين المحوريتين ياسمينة المسلمة التي ترفض أن تقترن برجل غير مسلم، وتحاول أن تلقن جاك المسيحي عبارة الشهادتين، والضابط الفرنسي الذي يوهم البدوية باعتناق دينها بالتلفظ بالنص فقط دون إدراك معناه والإيمان المطلق به. وفي الحقيقة أن هذه المسألة تعني الكاتبة شخصيا التي تأثرت بالثقافة الإسلامية من خلال الاحتكاك باتباع الطريقة القادرية ذات المنبع الصوفي، وبث رموز إسلامية على امتداد النص السردي، اشتملت على بعض المفاهيم الدينية التي تمثل جوهر الإسلام، مثل الإيمان بوحداية الله وبرسوله محمد، ونبذ الكافر، والحوقة... وغيرها.

في "صفحات الإسلام" تتناول تيمة السحر والسحرة إذ ترصد انتشارها الواسع في المجتمع المسلم وخطورتها على حياة الناس. تشير إلى شهرة المغرب الأقصى (مراكش) والمغاربة (مراكشيون) بعلم السحر والشعوذة، ثلاث منها تروي حكاية سحرة من أصول مغربية مقيمين في الجزائر، يمارسون هذه المهنة التي تعلموا أسرارها الخفية في بلادهم، والأدهى ما في الأمر أن الناس يعتقدون أن هؤلاء السحرة أولياء صالحين وقديسين. حضور ملح لتيمة الفجور عبر مصطلح المرأة المشهورة وقتذاك بلقب "أولاد نايل"، وهي المرأة التي تعيش من عائدات جسدها. راهنت الكاتبة على هذه التيمة فكتبت أقاصيص على غرار "ياسمينة" ترسم الملامح النفسية لصاحبة هذا الجسد المدنس، وردت بعض عناوينها في هذه المجموعة "، قدمت في نص "صورة شخصية لغانية أولاد نايل"، كيف «تتعرض لنظرات فضول من قبل الغرباء، في جميع واجهات المصورين. صورة لامرأة من الجنوب في زيّ غريب، بوجه مثير للإعجاب لمعبود الشرق القديم أو للطيف»¹. تلك الصور الفوتوغرافية التي راجت ضمن السياحة الاستعمارية عن المرأة النايلية،

التي كانت تنصدر أغلفة المجلات وصفحات الإعلانات في وضعيات إغرائية مبتذلة، لإثارة شهية الفضول عن عالم الإثارة في المستعمرة لدى الغربي. أماطت اللثام عن معاناة المرأة التي تجرأت على تحطيم قيود التقاليد الصارمة في مجتمع ذكوري منغلق. «عاشوراء، مثل جميع فتيات عرقها، ترى الاتجار بجسدها بمثابة ضمان التحرر الوحيد المتاح للمرأة»¹. سلطت الضوء على حالة فتيات كثيرات في مختلف المناطق لقين المصير نفسه لأسباب لها علاقة بالفقر والقهر الاستعماري والتسلط الذكوري. في "بكاء اللوز" تتذكر العجوزان سعيدة وحببية، في أسف وحسرة، السنين الجميلة السالفة حين كانتا في بوسعادة يتردد عشاقهن على بيتهن. تثوب المرأة الغانية إلى رشدتها عندما تصبح عجوزا لا مطمع فيها في "درويشة".

وإذا كان فرومنتان اخترع أسطورة غانية أولاد نايل (النايلية أو النايليات) وتلقفها الكتاب الرحالين من بعده، فإن إبراهيم، إضافة إلى وصفها المومس النايلية في بعض الأقاليم، قد ابتدعت غانية جبال عمور² * (العمورية أو العموريات)، ووضعت لها أقاصيص "مريامة" و"فوقارة" و"الجيش"، تصور وضعيتهن الصعبة ومصيرهن البائس في مخيمات الدعارة بالجنوب الغربي. في "مريامة"، تسرد قصة فتاة مراهقة من نواحي أفلو، انضمت إلى مخيم بنات الهوى بفغيغ لتنافسهن في الاسترزاق، إذ «جاءت ميريامة لتغرز خيمتها السوداء بخطوط حمراء كبيرة في معسكر "العموريات"، بنات قبيلتها، عند قاعدة أسوار وادي غير العالية»³. وبسبب جمالها اللافت غارت منها النساء، وفي تلك «القذارة الهمجية الكبيرة لحي العاهرات في فغيغ، كانت مريامة "العمورية" الوحيدة المحسودة من جميع العواهر»⁴. تتكرر هذه القطعة الوصفية في "الجيش": «عند قاعدة الأسوار، في حوالي عشرين خيمة منخفضة ورمادية، كان يجثم مخيم العموريين، مكان القذارة الهمجية والبغاء»⁵، في "المخيم" تسكن «عموريات زناقة (قبيلة صنهاجة)

Isabelle Eberhardt, Pages d'islam. Pp.93,94.

²* تقع جبال عمور بين جبال القصور غربا وجبال أولاد نايل شرقا.

Pages d'islam. p.130.

Ibid. p.131.

Au pays des sables, op.cit. p.138.

الحسنات»¹. تروي "فوقارة" قصة مباركة العمورية، «كانت من قبيلة عمور، وهي قبيلة بدوية من دائرة عين الصفراء، ولما كان زوجها قد اشترك في مخزن جنان الدار، لا بد أنها تبعته، في حالة من الفوضى وانعدام الأمن في المخيمات، وسط بلاد البارود، تعبرها الجيوش الناهبة»². وفي أقصوصة "الراقصة" من مجموعة "ملاحظات الطريق"، تسكن فاطمة الزهراء راقصة جبل عمور التي هربت من عنف أهلها في بيت ضيق في شارع أوروبي بأفلو مع عشيقها التوهامي ولد محمد بن قايد أولاد إسماعيل من الخيام العربية المشهورة، ثم يقتل في إحدى المعارك التي خاضها مع جنود الاستعمار.

عنوان النص والكتاب	ياسمينية، صفحات الإسلام	الروسي، صفحات الإسلام	فوقارة، صفحات الإسلام	الرائد، في بلاد الرمال	الفوضوي، في بلاد الرمال
اسم الفتاة الأهلية	ياسمينية	تتاني	مباركة	مباركة	سعدية
اسم الضابط الأوروبي	جاك (ضابط فرنسي)	دميتري (جندي روسي مرتزق)	فايس (ضابط فرنسي)	جاك (ضابط فرنسي)	أندري (ضابط فرنسي من أصل روسي)
مكان الحدث	باتنة	سعيدة	سعيدة	وادي سوف	وادي سوف
نهاية الحدث	الافتراق	الاتفاق	الافتراق	الافتراق	الاتفاق

جدول رقم (6)

تتنمي هذه النصوص المجدولة (رقم 6) إلى أدب الغراميات الاستعمارية، الذي ساهم في تصوير علاقات حب نشأت في ظل الاحتلال بين الرجل الغربي والأنثى الشرقية. انتهت العلاقة التي تربط المرأة الأهلية بالضابط الفرنسي بالانفصال نتيجة عقدة الاستعلاء عند الفرنسي الذي يمثل عقلية المستعمر المهيمن، ويرى نفسه سيد الزمان والمكان والإنسان في الجزائر. بينما استمرت

Pages d'islam, op.cit. Pp.125,126.
Ibid. p.312.

¹
²

تلك التي تربطها بالضابط الروسي لوجود انجذاب عاطفي وفطري من قبل الروسي الذي لا يجد غضاضة في الاختلاط بالمجتمع الشرقي.

كان الجنود المرتزقة من دول أوروبا يلتحقون بصفوف جيش الاستعمار لتقديم خدماتهم مقابل المال نظرا لسوء أوضاعهم الاجتماعية في بلدانهم، وتبرز هذه التيمة في رواية "شريد Trimardeur" كتبت في 1897 ثم تحولت إلى أقصوصة عنوانها "الروسي". ينخرط دميترى أورشنوف، شاب روسي فوضوي النزعة، في الكتيبة الأجنبية لتحسين وضعيته المادية، ضمت جنودا ألمانين وتشيكين، انجذب بإعجاب إلى مناظر الطبيعة المتقدة في الجنوب الغربي، لذلك استطاع البقاء في الجزائر التي أحبها، واختارها بلده بالتبني، ثم استطاب العيش وأقام علاقة حب مع فتاة من سعيدة.

أضحت مسألة «الاحتلال»، وفقا لحكايات إبرهارد، سيئة على الجميع. في "الرائد"، ليس فقط الأشخاص المستعمرون هم الذين تم تجريدهم من إنسانيتهم، ولكن الإداريين أيضًا¹ والشباب من الأهالي الذين اضطروا إلى التجنيد بسبب الفقر والبؤس والبطالة. فقد انخدع بعض الشباب العرب بمنظر الجنود المنضوين تحت لواء جيش إفريقيا وبقوتهم وهم يستعرضون سطوتهم على الشعب المسكين. في "السترة الزرقاء" قرر قدور العاقل عن العمل الالتحاق بهم، وبعد مدة من الخدمة سئم الحياة العسكرية ونظامها الصارم الذي لم يستطع التأقلم معه لإيلافه الراحة. عاد من جديد إلى القرية، فاستقبله أهلها بفتور وازدراء وعاش منبوزا، مرتدا (مُتَوَرِّني) نتيجة السمعة السيئة التي شاعت عن هؤلاء الجنود الذين أفسدتهم عيشة المعسكرات المنحرفة، كشرب الخمر والكلام الفاحش البذيء، والركض وراء النساء المومسات والتربص بالعفيفات، والاعتداء على الناس البسطاء. وفي "المغمر بهم" كان «المرتزقة، بدافع الطاعة وكذا المتعة الخبيثة، يلْمعون المزايا الرائعة للدولة العسكرية في عيون الفلاحين، مما أعطى تفاصيل رائعة عن حياتهم»² الفاسدة. بيد

Katherine Roussos, Islam et occidentalisation dans l'autofiction d'Isabelle Eberhardt, op.cit. p.13.

Pages d'Islam, op.cit, p.183.

-1

-2

أن نصوصاً أخرى تحدثت عن الفرق العسكرية التابعة لجيش إفريقيا وأثبتت على صمودهم إزاء المناوشات التي كان يثيرها بعض المرابطين الداعين إلى جهاد المحتلين، مثل أتباع الشيخ بوعمامة. وفي هذه الأثناء كانت الكاتبة الصحفية على علاقة ودية بالجنرال "ليوتي"¹ الذي اقتنعت بأفكاره المعتدلة في إدارة شؤون الأهالي، وعن مزايا مشروع الاستعمار في الجزائر، واستطاعت إيزابيل زيارة أقارب بوعمامة في زاوية فغيغ². يتبدى في "المخيم"، و"الجيش" النظرة التقابلية المفعمة بالاشمئزاز من الأهالي الثائرين: «جاء الجيش الجياع، كطيران الجوارح، يحارب بالقرب من الخيام، ويتبادل السلام المرح مع فتيات من عرقهم وبعض البدو الرحل الذين يستلقون بالقرب من النار»³. والاعتزاز بالجنود المتخندقين في معسكر المستعمر كالمخازنية والقناصين بعد الاستهزاء بهم وفضحهم في "السترة الزرقاء" و"المغرر بهم". ولا يكاد يخلو نص للكاتبة لا تصف فيه أو تتحدث عن فرقة من الفرق العسكرية التي اعتادت على مشاهدة أفرادها أو سمعت بهم في المناطق التي كانت تحت الحكم العسكري في الجنوب، سواء كانوا أوروبين أم من الأهالي جنود صبايحية أو قناصون أو مخازنية أو قومية أو من الليفي الأجنبي، وقليل منهم زواف.

وفي سياق مشروع الاستيطان جسدت كلا من "وصول المستوطن" و"المجرم" و"استغلال الأهالي" و"الروسي" من مجموعة "صفحات الإسلام" الصراع الكبير بين المستوطن والأهلي على الأرض والعرض. في "استغلال الأهالي" «تقدم إيزابيل المستوطنين منغلقيين في عنصريتهم الأولية وقادرون على جعل سرقة أوزة مسألة دولة»⁴. وهم أيضا «عنيدون وضيقو الأفق، وغير مبالين، ويشكلون جماعات، ويتحمسون لانتخابات رؤساء البلديات»⁵. ولا يبالون بمعاناة الفلاحين الذين تسرق منهم أراضيهم جهرة، فلا يمكن بعدها أن يأخذ أحد مكان الآباء، فيضطر «الأبناء إلى

¹ * توسط لهذه العلاقة الملازم بريو المكلف بالإعلام والدعاية في المكتب العربي ببني ونيف على حدود المغرب، وقاد عملية ملاحقة واغتيال الثائر محمد ولد علي هناك في 1900.

² Voir: Khelifa Benamara, Le Destin d'Isabelle Eberhardt en Algérie, op.cit, p.190.

³ Au pays des sables, op.cit. p.138.

⁴ Djamel Ali-Khodja, Isabelle Eberhardt: regards, désirs et création d'une mystique, Revue Sciences

Humaines, n°13, Université Mentouri, Constantine, Algérie, 2000. p.21.

⁵ Djamel Ali-Khodja, ibid. p.21.

الذهاب إلى المدن أو الانضمام إلى الجيش [...] والآباء يستسلمون أو يغرقون في الجنون، أو يتسولون على الطرق أو يجدون حلاً انتحاريًا عن طريق حرق أراضيهم الممنوحة للمستعمرين»¹.

هامت الكاتبة عشقا بفضاء الجزائر الجغرافي باعتباره متميزا عن أوروبا، وكان وصفها للمدن والعمران منبثا في أعمالها السردية. عنابة من المدن الساحلية التي تجلى وصفها مبكرا في أعمال إيزابيل، إذ أقامت بها صحبة والدتها نتاليا التي دفنت في مقبرتها، حيث كانت عنابة مسرحا لأحداث قصة "راحيل" اليهودية، وأقصوصة "الساحر". أقاصيص عديدة من وحي منطقة الظهره كالشلف وتنس التي انتقلت إليها رفقة زوجها منها "درويشة" و"السترة الزرقاء" و"الطالب". في حين لم تحظ مدينة الجزائر بالاهتمام الكبير، فقد جاء ذكرها مقتضبا في أسطر قليلة، في "كتابة الرمل". في الأوراس بمدينة تيمقاد المعروفة بآثارها الرومانية تعيش الشاوية "ياسمينة" وعاشوراء في «باتنة الحزينة والمبتذلة، مدينة التكنات والأكوخ، بلا ماضٍ وبلا تاريخ»². تقارن إبرهارد بين الحياة المملة في مدن التل التي تشبه المدن الأوروبية، وتفضل الصحراء الشاسعة في الوادي، حيث تتأمل طبيعتها عن كثب "في مساجين في الطريق. كتبت في يومياتها عن حبها للصحراء قائلة: «نعم، أحب هذا البلد بلد الرمل والحجر، هذا البلد بلد الإبل والرجال البدائيين، بلد الخطورة والسبخات الخطيرة...»³.

يكن حضور المعتقدات والعادات أولا في التركيز على شرح مفاهيم الطرق الصوفية، مثل التيجانية والرحمانية، والقادرية التي انضمت إليها إيزابيل بعد إسلامها الصوفي والصراع القائم بين أنصار التيجانية والقادرية على الهيمنة على عقول الناس، وفي تعظيم شيوخ الطرق المؤسسين. ويكن ثانيا في إلحاح الكاتبة على وسم الأهالي بعدم المبالاة بالموت وقلة الاكتراث بقضاياهم الجوهرية التي ترد دوما إلى القدر والمكتوب. بيد أن «تثمين القدرية والسلبية الإسلامية، مستنبطا من رؤية غرائبية للجزائر، سيهون بشكل خطير من جانب الصراع في مسألة

Isabelle Eberhardt: regards, désirs et création d'une mystique, ibid. p.22.

Isabelle Eberhardt, Pages d'islam, op.cit. p. 92.

Isabelle Eberhardt, Journaliers, Edité par les Bourlapapey, bibliothèque numérique romande, 1923. p.53.

-1

-2

-3

الاستعمار»¹، فالتسليم بالمكتوب يظهر على السنة الشخصيات المهزومة نفسياً، كقولهم هذا مكتوب، كما شاء الله. والخضوع المطلق للأحداث في انتظار المعاد، دون وعي بضرورة الأخذ بالأسباب ومحاولة تحسين أحوال المعاش.

اختلف النقاد والدارسون اختلافاً بيناً حول نظرة إيزابيل إبرهارد إلى الاحتلال الفرنسي نتيجة اضطراب في شخصيتها. فمالت مع كل ربح، ولدت على الدين المسيحي، وتبنت الفكر الليبرالي، واعتنقت الإسلام الصوفي. فأصلها روسي وجنسيته فرنسية، وتقمصت روح رحالة عربي، واقرنت برجل عربي صبايحي. وبسبب غموض مواقفها الإيديولوجية، وتناقض نصوصها الكاشفة عن تضارب الآراء من جهة أخرى. بعضهم عدها داعية استعمارية، لا تختلف عن فرومنتان وموباسان ولوتي الذين تأثرت بهم، ويستدل بعلاقتها الطيبة مع الجنرال ليوتي، وتواصلها مع ضباط جيش الاستعمار خاصة كتائب القناصة والصبايحية التي ينتمي إليها زوجها سليمان أهني، وذكر سفرها على متن البواخر الفرنسية في نص "عمارة المحكوم عليه بالأشغال الشاقة". وبعضهم حاول أن يبرئها من التهم المنسوبة إليها، مستدلين بوقوفها مع الأهالي المعذبين في أرضهم، وفضحت أعمالها أساليب الإدارة الاستعمارية التي همشت السكان الأصليين لحساب المستوطنين.

تكرار أسماء الشخصيات مع اختلاف التيمة	إعادة التيمة نفسها مع اختلاف اسم البطل	إعادة التيمة نفسها مع اختلاف العنوان	إعادة التيمة مع احتفاظ بالبطل والعنوان	من رواية إلى أقصوصة	نوع التغيير عنوان العمل
حبيبية (المومس)	محمود بن خليل المستنصر بن فاطمة	راحيل الساحر		الساحر	راشيل
مباركة					الروسي، وفوقارة، والرائد

Isabelle Eberhardt: regards, désirs et création d'une mystique, op.cit. p.21.

-1

سعدية	الفوضوي (دميتري) الروسي (أندري)		الفوضوي، والروسي	الشريد
	المتشرد (دون اسم) في سبيل الله (عبد القادر بن معمر)			المتشرد في سبيل الله
	سولتزر، ميلر			قلب رقيق
راحيل وستيترة				ياسمينة
حبيبة وسعدية				بكاء اللوز
		الحداد، والراقصة		الخطيبة
			هاوزر	هاوزر

جدول رقم (7)

يلخص الجدول (رقم 7) أهم التكرارات التي عمدت إليها إبرهارد في وصف طبيعة الجزائر وأخلاق الجزائريين، والتناص الذاتي أو الداخلي الوارد في أعمالها السردية. ويلاحظ أنها كانت تفضل الأقصوة على الرواية نظرا للمخاطر التي كانت تتعرض إليها، وعدم الاستقرار النفسي والمكاني الذي أربك حياتها القصيرة.

3- هوغ لورو: أسطورة مستوطن في رحلة البحث عن الاستقرار والثروة

"أصبحتُ مستوطنا" Je deviens colon، رواية استعمارية نشرها هوغ لورو Hugues Le Roux عام 1895. توأكب بداية مرحلة الاستيطان المتجلية في جملة "أصبحت مستوطنا"، تحتها

¹ واسمه الحقيقي Robert Charles Henri Le Roux، 1860-1925، عين سيناتوراً بين 1920-1925. ألف لورو روايات تاريخية استلهمها من حياة شخصيات جزائرية حقيقية انتفضت في وجه الاستعمار. ففي 1897 نشر رواية بعنوان "صاحب الساعة" Le Maître de l'heure، ويحيل في الدارجة إلى مقولة "مول الساعة، أو مولى الساعة"، لقب ارتبط في عهد الاستعمار ببعض رموز الانتفاضة الشعبية بين 1847 و1900، هم الشريف بومعزة والمقراني والشيخ بوعمامة.

عبارة ذات بعد إثنوغرافي "أخلاق جزائرية"، تصور عقلية المستعمر الذي أصبح هو الذي يسمى "الجزائري" وليس الساكن الأصلي. وتشير إلى الهيمنة الكاملة على التراب الجزائري وبداية عهد جديد للمستعمرة تحت حكم الإدارة المدنية.

يفتح النص بإهداء إلى وزير الداخلية جورج ليغ¹ Georges Leygues¹، ويتناول تيمة "المستوطن الصغير" الباحث عن الاستقرار في الجزائر والعامل المثابر لتحقيق الثروة. يتجلى حضور قضايا السياسة والمجتمع وفلسفات الأخلاق التي شغلت بال الناس آنذاك في أوروبا عامة، من خلال التعرض إلى ظاهرة تفشي القلق المدني في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بسبب سيطرة الفكر اللاديني والتيار الليبرالي والنزعة المادية التي انعكست سلبا على ضمير الإنسان الحداثي وروحه المتشظية. يتجسد هذا القلق في توتر "إيريك" الذي هرب من العمل الممل في البورصة. قرر أن يخوض تجربة الإقامة في الجزائر كمستوطن صغير في سهول المتيجة. اختار العمل في مجال الزراعة واستصلاح الأراضي المهمة وتربية الماشية في الحمير² بضواحي شرق مدينة الجزائر. وجد عند الانطلاق رغم الإرادة والعزم مشاكل كثيرة وخطيرة نتيجة سوء تسيير المستعمرة، واحتدام الجدل السياسي بين الإدارة المدنية والإدارة العسكرية حول الحكم، وعدم قابلية فهم الآخر (الأهالي) واحترام ثقافته والاعتراف بحقوقه، وتضييق قناة الحوار والتواصل معه باعتباره مستعمراً.

كان الاهتمام منصبا أكثر على وصف جمال الطبيعة الوحشي في هذا البلد المشمس المتناهي الاتساع. وطريقة وصف المنظر الطبيعي المحيط بمزرعة المستوطن في ضواحي "الحمير" متميزة، تركز على ذكر الأثر النفسي عند الرائي الذي يبدو منبهاً كأنه يشاهد مثل هذه المناظر الجبلية لأول مرة. إن تَوَقُّ السارد إلى الراحة في هذه الأرض الدافئة جعله يشعر بهذا الانطباع

¹ جورج ليغ Jean Claude Georges Leygues هو وزير الداخلية المدني في عهد الجمهورية الفرنسية الثالثة بين جانفي إلى جويلية 1895.

² الحمير، منطقة تقع شرق الجزائر العاصمة كانت تسمى الخميس ثم حُرِّفها النطق الفرنسي.

المعبر عن شدة الانبهار، فقد فرضت الطبيعة المحلية سلطتها على السردية الاستعمارية، مثلما فرض الاستعمار سطوته الكلية على الأهالي.

تتجلى حياة الأهالي الساكنة في الأكواخ في خضوعهم التام لعنف قانون الأهالي الذي سنته الحكومة الاستعمارية وتخطى كل الخطوط الحمراء، مع تلاشي المقاومة تدريجياً بعد فشل الثورات الشعبية كلها. تم تسخير الأهالي لاستصلاح الأراضي، حيث سخر المستوطن إيريك في الحمير عائلات بأسرها فقيرة وأشخاصاً من نواحي أومال (سور الغزلان حالياً) لإزالة حجارة كبيرة. وتفرض الإدارة الاستعمارية الأشغال العمومية كتعبيد الطرق في الأماكن النائية والوعرة على السجناء والخارجين على القانون عقاباً لهم على وحشيتهم ضد المستوطن، وتأديبهم بسبب التمرد على السلطة المركزية، و«اتخاذ إجراءات صارمة ضد هؤلاء المتمردين، لقتل المقاومة لديهم، كما في الخيول الرديئة، عن طريق التعب»¹. وفي حال الإصرار على العصيان تكون عقوبات القانون العسكري ضد السجن أكثر قساوة.

تتعرض المرأة الأهلية المنسحقة إلى الاضطهاد، وتتقلب على سيف ذي فقرتين، سيف عنف المجتمع البطريركي، وسيف العنف الإيروتكي المسلط عليها في المتخيل السردى الاستعماري. تنتهك كرامتها أثناء العمل في مزارع المستوطنين لكسب القوت، تحت أنظارهم الحادة التي تحمق في شكلها وسلوكها الذي ينبئ عن الذل والاستسلام للشقاء الذي يفرضه عليهم المستعمر. يسلط الضوء على مظهر العاملات الغرابي: «التنانير قصيرة من الأمام ومن الخلف بين الركبتين، مثل سراويل الزواف. أخفاف جلد غريبة - مثل التي يرتديها الهنود في المروج - تنتعله الأرجل العارية فوق الكاحل؛ الأذرع عارية أيضاً...»².

أحسن شخصية سردية رشحت لتمثيل المرأة القبائلية الأسطورة، كانت زوجة قاطع الطرق وكاره مواطنيه أرزقي في قرية بوهيني بعزازقة (عزوقن) ببلاد القبائل. رسمت من ناحيتين، موقفها

Hugues Le Roux, Je deviens colon, Mœurs algériennes, 1895. P.35.

Je deviens colon, ibid. p.70

-1

-2

من زوجها وشخصيتها القوية، ومظهرها الخارجي. امرأة جميلة وكريمة، أرغمها الفقر على أن تعيش من تجارة جسدها. تبرات من زوجها الذي كان يرتكب أعمالا شنيعة في حقها وحق أهل القرية. زيها «وشاح أحمر وأصفر بشرائط سوداء. ترتدي جبة من الموسلين رسم عليها نبات النفل. حزام أحمر عريض يميز خصرها، إزييمان من فضة مربوطان بسلسلة صغيرة، جمعا القماش على الصدر. تعبير وملامح، وعيون امرأة جبلية معتادة على الغمز تحت الشمس. وشوم صغيرة في الجبهة والذقن يقطعان شحوب الوجه. طبقة من الشمع على الخدين والرقبة والذراعين والقدمين الحافيتين»¹.

يطرح النص مشاكل وقضايا عدة اقتصادية وإدارية تمثلت في وصف الحواجز التي يصنعها المسؤولون الإداريون، والنقائص التي تتعمدها بعض المؤسسات لتعطيل المشاريع الضرورية، فرضت العزلة على الأهالي فشتت روحهم وشوشت وعيهم. يؤكد السارد أن المشاريع كلها كانت تبنى بالضرائب الثقيلة التي يدفعها الأهالي، بالتالي يستحيل إقصاؤهم. وعليه يذهب إلى اقتراح سياسة الإدماج كيوتوبيا يراها المتسامحون مع العرب كحل مثالي سلمي لمشكل الرهاب المزدوج الذي يعيشه الوافدون من أوروبا. ووضع حد للحالات الذهنية الناشئة عن إحساس الأهالي أيضا بهذا الرهاب، واعتقاده بأن «الغازي يريد بالضرورة خسارته»². مما جمد سيرورة خط مشروع الإدماج في الميدان، وتمت عملية إفشاله بإجهاضه، وأوحت إليه حالة الرهاب سبيل الحرب ضد المغتصبين، طبقا لتعاليم الدين الإسلامي التي تحرض على الجهاد. يتصاعد العداء ضد العرب أو يسود التسامح معهم "هوس العرب"، يترتب عنه حالات ذهنية متناقضة تلازم المستوطنين، الفوبيا (رهاب العرب) والفيليا (حب العرب)، وتتجلى عقدة التعالي والاستكبار على الآخر، ورفض الاستفادة من المنجزات العامة التي تنتشها الحكومة، في التساؤل التالي الذي طرحه المستوطن

Hugues Le Roux, Je deviens colon. Pp.200,201.

Je deviens colon, ibid, p.156.

-1

-2

إيريك عن سبب وجوده في الجزائر: «هل غزونا الجزائر من أجل أنفسنا أم من أجل هؤلاء الموريكو (الموريسكيين)؟»¹.

طرح "أسطورة القبائلي" الساكن الأصلي للأرض، وتحديد أهم المميزات الجيوسياسية²، والتشابه بين القبائل والأوروبيين كالثلاثين القدامى والفيكنغ في قضايا المجتمع والأسرة. يستند في ذلك إلى آراء سكان المنطقة المنحدرين، حسب، من العرق الأوروبي. ويجزم أن «هذه الأنواع العديدة من العرق الأشقر والأحمر، المتكررة في القبائل، لا تنتمي إلى آسيا أو إفريقيا»³. يستعين السارد من حين لآخر بكلمات وعبارات من اللهجة القبائلية حتى يعطي للأحداث أصالة وواقعية، مثل ثادارث (قرية)، فلاس (عليه)، وين إينك (قريبك)، ثمقرط (رقبة).

5- العلم في خدمة العنصرية الغربية: مغامرات جول فارن في الجزائر

جول فارن⁴ * كاتب المغامرات العجيبة وأفضل من استغل العلم في خدمة الأدب. استوحى من زيارته إلى الجزائر أعمالا مغامراتية مثل رواية "هكتور سارفداك" 1877 Hector Servadac، ورواية "ماتياس ساندروف" 1885 Mathias Sandorf، و"كلوفيس داندورتور" Clovis Dardentor 1896، وآخرها "غزو البحر" 1904. اتخذ فارن هذه الروايات فضاء لتمجيد دور فرنسا الاستعمارية، والإشادة بالجزائر المستعمرة، التي أحبها من خلال أقربائه المستوطنين مدن الساحل، من حيث خيرها الوفير، والثروات الهائلة التي تتدفق على الأوروبيين، في غياب أي أثر إيجابي لسكانها الأصليين في خضم الأحداث السردية. كتب فارن في أدب المغامرات العلمية أكثر من

¹ Hugues Le Roux, Je deviens colon. p.111.

² دراسة عن المجتمع القبائلي من خلال كتاب الجنرال هانوتو Hanoteau والمستشار لوتورنو Letourneux عنوانه La Kabylie et les coutumes kabyles

³ Je deviens colon, ibid. p.162.

⁴ * جول غابريال فارن Jules Verne (1828-1905)، كاتب فرنسي كان منضما إلى جمعية الجغرافيين السانسومنيين التابعة للمؤسسة العسكرية. اشتهر برواياته العلمية العجيبة، وعد رائد أدب الخيال العلمي المعد للأطفال. جاء إلى الجزائر مرتين، زار السواحل وبعض المناطق الداخلية القريبة. في جويلية 1877 ذهب إلى وهران والجزائر ومستغانم، وفي 1884 قصد وهران ومدينة الجزائر وعنابة. إلى جانب الرواية ألف نشيدا لكتيبة الزواف "إلى الأمام يا زواف" 1855.

ستين عملا روائيا، اختار في سرد بعضها جغرافيا مدن حوض البحر المتوسط مسرحا لوقائعها فصَحَّ أن يكون أديبا متوسطيا.

رواية "هكتور سارفداك"¹، رحلة علمية ومغامرة عبر العالم الشمسي، تتحدث عن مذنب يدعى "غالية" يقتطع عند اصطدامه بالأرض جزءا من سواحل حوض المتوسط وبعض السكان من مختلف الأعراق والجنسيات الأوروبية والأديان، والذين لم يجدوا لهم موقلا سوى التأقلم مع الجو الجديد، ويعيشوا سويا حتى يعودوا إلى كوكبهم حيث كانوا. فالنص إذن «يدور حول مذنب شمسي، اصطدم بالأرض وأخذ قطعة من بعض هكتارات أراضي مستغانم الغنية والخصبة»². كانت الجزائر حاضرة عبر وصف سواحل مستغانم وتنس إلى نهر الشلف، وإبراز جمال هذه المنطقة الجغرافي وغنى ثرواتها الطبيعية.

هكتور سارفداك عسكري فرنسي، يعمل في مقر قيادة الأركان في مستغانم، ضابطا مكلفا بالأعمال الطبوغرافية في الساحل ما بين تنس ومصب الشلف. يخرج وخادمه "بان زوف" في مغامرة استكشافية في الفضاء المجهول، حيث اهتزت الأرض فجأة في الساحل الجزائري عقب حدوث ظاهرة غريبة أدت إلى فقدان جزء من الساحل الجزائري ولم ينج سواهما، وظهور تغييرات فيزيائية عجيبة في شكل الشمس وموقعها وحركة الأرض وتحركات الرجلين، وفي الأشياء المحيطة بهما بسبب قانون الجاذبية الجديد للمذنب، و«حُمل الساحل الجزائري إلى ما وراء خط الاستواء في نصف الكرة الجنوبي»³. وفي غمرة حيرة كبيرة وتحرر من ثقل الجاذبية، راح الضابط وخادمه يتقدمان بخفة لاستكشاف المنطقة دون أن تعترضهما حواجز، و«البحر، في بضع ساعات، غمر الجزء الغربي من الجزائر بأكمله»⁴.

¹ Jules Verne, Hector Servadac, La Bibliothèque électronique du Québec, Collection À tous les vents, Volume 326: version 2.0.

² Hélène Péret, Jean-Claude Péret, Le monde extraordinaire de Jules Verne, Editions Cheminements, 2006. p.12. <https://books.google.dz/books?clovis+dardentor+jules+verne>

³ Jules Verne, Hector Servadac, op.cit. p.65.

⁴ Hector Servadac, ibid. p.69.

وصف عجائبي ترويجي لهذه النواحي من الونشريس التي أصبحت جزيرة عجيبة تسمى "جزيرة الثوري"، مقتطعة من التراب الجزائري يحيط بها الماء من كل جهة، مدن خالية من السكان، وتضاريس مفقودة في الساحل، مثل تنس ومونتوت (سيدي عكاشة)، وسهول عمي موسى، وخميس بني أوراغ، وقمة جبل منكورة ومومنتروي. غطى الطوفان مساحة معتبرة من المناطق المتاخمة لنهر الشلف، سهل المينا(غليزان) وسور كلميتو(مستغانم) بسكانها. وهوت مدينة الجزائر على غرار تنس وشرشال والقلعة وسيدي فرج في أعماق الكرة الأرضية. سواحل مدينة الجزائر كانت بالأمس عامرة، الدويرة وبوفاريك المليئة بأشجار السنديان، والبليدة عند وادي الكبير إلى غاية «جبال موزاية ذات المغارات الأسطورية [...] لا شيء مما يسمى قديما بإالة الجزائر»¹. وبتجاه الشرق الجزائري لا أثر للمدن الساحلية من رأس ماتيفو إلى حدود تونس، يستذكر طبوغرافيا المدن المطلة على المتوسط، مدينة دلس وسلسلة جرجرة، ومدينة بجاية وقمة قورايا، وجبل أدرار، ومرتفعات جبال القبائل الصغرى، حتى نهر تريتون القديم بتونس. حتى الموانئ الشرقية غير موجودة ميناء القل في قسنطينة القديمة، واسطورا في فليبيل(سكيكدة)، وبونة، ولا الرؤوس كراس غارد ورأس الوردة، وجبال إيدوغ، ولا رمال الساحل، لا مفروق ولا القالة. وبنبرة آسفة يخبر الضابط هكتور رفاقه قائلا: «ما وراء الشلف، لم يبق شيء من مستعمرتنا الجزائرية»². ولم يبق من مساحة الكرة الأرضية سوى أربعة مواقع، جزيرة الثوري³ في نواحي الشلف التي يحكمها الفرنسيون، وجبل طارق حيث يمكث الضباط الإنجليز، وسبتة التي هجرها الإسبان، وضريح القديس لويس في قرطاج، وهي مناطق استراتيجية استولى عليها الأوروبيون منذ الحملة الصليبية المستمرة على الشرق إلى قرن الاستعمار الإمبريالي. أما بقية سكان المستعمرة الجديدة الغالبيين (نسبة لسكان كوكب غاليا الناجين) فقد احتشدوا في جزيرة "الثوري" الفرنسية التي كانت أكثر صلوحية للإقامة.

Ibid. Pp.156,157.

Ibid. p.176.

¹

²

³*ثوري، لفظ بالعامية الجزائرية معناه بيت من طين أو كوخ.

تمثلت التلميحات الاستعمارية عند الكاتب في تذكير المتلقي بأول رواية استعمارية ظهرت في الأدب الغربي في بداية مشروع التوسع الإمبريالي، تعرض على استكشاف البلدان البعيدة واجتياح أراضيها، وأسست أسطورة الطيب المتوحش أو إنسان الطبيعة البدائي آكل لحوم البشر، وهي "روبنسون كروزو" 1719 للكاتب البريطاني دانييل ديفو. جعل السارد الضابط سارفداك حاكماً للجزائر التي أصبحت جزيرة، والمساعد بان زوف في دور الشعب المتوحش والمستعبد، يوحي اسمه المحرف (بن زواف أو بن صوف)، وسلوكه الخاضع بأنه عربي ذليل، وهو دليل ثابت على قصدية فارن الترويج للاستعمار والإشادة بمهامه الحضارية من خلال توظيف العلم كوسيلة لاستعباد الشعوب، وتأثره هنا واضح بالأفكار التوسعية البريطانية، حيث تتناص رواية هكتور سارفداك مع رواية روبنسون كروزو في أمور عديدة. ويوضح الجدول التالي الصراع الحاد بين الإمبراطوريات العالمية في القرن التاسع عشر على التوسع خارج أراضيها، ويجسد الجدل في الحوار الذي دار بين الضابط الفرنسي سارفداك والضابطين الإنجليزين مورفي وأوليفانت حول صمود ووجود الدولتين بعد الكارثة الطبيعية التي قد تؤدي إلى تفجيرهما وفقدان مجديهما، ومرابطة الضباط الإنجليز في جبل طارق حتى لا تضيع مستعمرتهم.

عنوان الرواية العناصر السردية	روبنسون كروزو 1719	هكتور سارفداك 1877
الحدث	غرق سفينة جلب العبيد من إفريقيا بسبب طوفان وموت الرفاق.	طوفان بسبب اصطدام الأرض بمذنب عالية واقتطاعه جزءا من ساحل الجزائر، وموت الرفاق.
عدد الشخصيات	2	2
الشخصيات ووظيفتها	الحاكم: روبنسون كروزو (أوروبي)، يحب العزلة والقراءة والتأمل. المحكوم: فنرودي أو فرايدي (الجمعة) هندي أمريكي.	الحاكم: هكتور سارفداك (أوروبي)، يهرب من الجماعة ويشعر بمتعة القراءة منعزلاً. المحكوم: بان زوف / شعب

الفضاء المكاني	جزيرة غير مسكونة على ضفاف نهر أورينوك بفرنزويلا في الأطلسي	جزيرة غير مسكونة على ضفاف الجزائر في ساحل البحر المتوسط
الفضاء الزمني	عصر العبودية والتوسع الاستعماري البريطاني في أمريكا.	عصر العبودية والتوسع الاستعماري الفرنسي في شمال إفريقيا.
الفكرة المحورية	نشر الرسالة الحضارية الغربية، واستكشاف البلدان البعيدة والمتوحشة. أهمية الاكتشافات الجغرافية.	نشر الرسالة الحضارية الغربية، واستكشاف البلدان البعيدة والمتوحشة. أهمية الاكتشافات الجغرافية.
الغرض	استعباد الآخر والاستيلاء على الأرض.	استعباد الآخر والاستيلاء على الأرض.

جدول رقم (8)

وعبر تقنية السرد الاستيعادي، يستحضر الكاتب في الفصل السادس تاريخ الصليبيين عند تطرقه إلى لويس التاسع ملك فرنسا قائد الحملة السابعة إلى الشرق الذي أصبح يلقب "سان لويس". لقد زالت معالم كل المدن العربية المسلمة على سواحل البحر المتوسط، وبقيت معالم التنصير ممثلة في قبر القديس لويس والإنجيل والمشعل الرامز للتتوير على قبره، كدليل أكيد على السعي الحثيث نحو نشر الرسالة الحضارية، وأحقية الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا. إذ «لم يعثر على أي أثر من الأراضي القديمة، لا من الجزائر ولا من تونس، باستثناء موضع واحد، صخرة ظهرت بالقرب من قرطاج، والتي تحتوي على قبر ملك فرنسا»¹. وكان ترديد المستوطنين في المستعمرة الصغيرة مقاطع من نشيد الزواف المعروف في وسط الجيش الفرنسي، والاحتفال برأس السنة الميلادية برهانا على المركزية الأوروبية. إن الناجين أوروبيون مسيحيون مع يهودي ألماني، مما يدل على هيمنة المسيحية على الديانات الأخرى. تقابلها تلميحات عنصرية تجلت في احتقار الآخر وهم السكان الأصليون الذين غابوا عن المشهد السردى كلية،

Hector Servadac, op.cit. p.219.

1-

ولكن حضروا في معجم شتائم بان زوف الذي كان يلعنهم حتى وهو خارج الكرة الأرضية، وسبهم في أكثر من موقف لا علاقة لهم به في عبارات ازدرائية جارحة مثل، "لعنة البدوي" و"لعنة القبائلي"، ووصف الطيور "بقبائل ذوي المناكير"، و"البدو البائسين" والقراصنة والأنذال والعصابة، واندفاع الضابط سارفداك لإلصاق تهم اللصوصية والنهب والسرقة بالعرب حينما اشتكى مساعده من تعرض مزارع القمح في جزيرة الثوربي للضرر من قبل الطيور.

رواية "ماتياس ساندراف" تسرد مغامرة بحرية على سواحل حوض المتوسط. في الجزء الثاني من الرواية يتمظهر موقعان من خليج مدينة الجزائر "شاطئ بيسكاد" شرقا و"رأس ماتيفو" غربها، كلقبين لشابين فرنسيين يعملان مجازفين في الساحات العمومية والمعارض المُقامة للمجازفة والتهرج. «جسديا - ويمكن القول أخلاقيا - إن هذين الرجلين مختلفان بعضهما عن بعض كما يمكن أن يكون عليه مخلوقان بشريان. فقط أصلهما المشترك كان عليه الجمع بينهما لإدارة العالم والمعركة "معركة الحياة". فكلاهما من مقاطعة بروفانس»¹. جغرافيا هناك اختلاف بين الموقعين الآنفين، «شاطئ ماتيفو ربوة ضخمة وقوية لا تتزعزع ترتفع في الطرف الشمالي الشرقي من ميناء الجزائر الكبير، وكأنها تتحدى العناصر الهائجة»²، وهذه الخصائص تنطبق على ملامح جسد الشخصية السردية المسماة بهذا الاسم، شاب شجاع، قوي الجسم، يتمتع بقوى خارقة، طويل القامة، مصارع جيد. ويطل في الجهة الشمالية الغربية «شاطئ بيسكاد رفيع مدبب، لسان صخري رقيق، يمتد إلى حد البحر»³، لذلك حمل هذا الاسم شاب في العشرين نحيل البنية، قصير القامة، لين، رشيق، ذكي، معتدل المزاج في السراء والضراء، متفلسف، مبتكر وعملي، خفيف ومهرج. في أحد المعارض يقدم للجمهور لوحة مصورة فيها حيوانات مفترسة ليثير فضولهم للغرائبي، ويعرض صورة للأسد النوميدي الذي يعيش في الصحراء الجزائرية.

¹ Jules Verne, Mathias Sandorf, La Bibliothèque électronique du Québec, Collection À tous les vents, Volume

326: version 2.0, p.285.

² Mathias Sandorf, ibid. p.286.

³ Ibid. p.287.

يبرز السارد عبر هذين الموضوعين تمسكه بالجزائر كمستعمرة فرنسية غنية، ويذكر جودة ثرواتها الطبيعية، فالبيوت الموريسكية تزين باستخدام «مواد الرخام والعقيق، التي خرجت من هذا الجبل الغني في فلفة، المستغلة في خليج نوميديا، على بعد بضعة كيلومترات من فيليبيل»¹. ويتغنى بمدنها وطول سواحلها من حدود تونس شرقا انطلاقا من القالة، وبونة، ورأس الحديد، التي يقال إن كتلتها المعدنية تخلق إبرة البوصلة، وساحل الجزائر، وستورا، وبجاية، ودلس، ومدينة الجزائر، وشرشال، ومستغانم، ووهران، ونمور إلى حدود مراكش (المغرب الأقصى). هذه «المحافظات الغنية في هذه الجزائر التي اقترح تسميتها "فرنسا الجديدة"، والتي هي في الواقع فرنسا نفسها»²، وهنا يحاول السارد إيجاد نوع من التماثل بين فرنسا ومستعمرتها المفضلة.

في روايته الهزلية "كلوفيس داردنتور"³ يعود فارن إلى الإقليم وهراني الموصوف في رواية "هكتور سارفداك" العجيبة، يحمل عنوانها اسم بطلها كلوفيس داردنتور وهو رجل صناعي ثري، يتفق مع عائلة صديقه السيدة والسيد ديرونال على تزويج ابنيهما الأحمق أغاتول من الآنسة الجميلة لويز إيسان المستقرة مع ووالدتها الأرملة في وهران، يسافر الجميع لتقريب العريسين من بعضهما، وفي تلك الأثناء يتعرفون على شابين فرنسيين من باريس جان تاكونا ومارسيل لورنان اللذين قررا الانضمام إلى كتيبة القناصة السابعة لجيش إفريقيا.

يتمتع الإقليم الوهراني بالمناظر الطبيعية ومعالم المدن والقرى التاريخية والسياحية. سيدي بلعباس، ومعسكر، وسعيدة، وسبدو وتلمسان إلى ورقلة. تظهت الملامح الحديثة التي تشيد بدور الوجود الاستعماري في وهران ومعسكر وسعيدة. كانت وهران «عاصمة الإقليم بالفعل مدينة

Mathias Sandorf, op.cit. p.590.

Ibid. p.933.

Jules Verne, Clovis Dardentor, La Bibliothèque électronique du Québec, Collection À tous les vents, Volume 326: version 2.0.

-1

-2

-3

جميلة جدا»¹ بمعالما القديمة والحديثة وقرية "الجاليين"²* التي أنشأها الاستعمار لعزل الأجانب أو الزوج، تعايش فيها أجانس مختلطة. وهران مدينة المستوطنين احتلت المراتب الأولى بين المدن الجزائرية، و«لم تنعم بالطمأنينة إلا في الحقبة الفرنسية»³، ولم تنعم القرى الجزائرية بالمدينة إلا في عهد الفرنسيين. مدينة معسكر بناها الفرنسيون، و«هي واحدة من أجمل المدن في الجزائر»⁴. سعيدة "عاصمة الحلفاء"، مع ضواحيها البيض والنعامة أيضا مشهورة بأراضيها الشاسعة. كانت سعيدة أثناء الاحتلال مبنية على الطراز الأوروبي الحديث بعد إزاحة أطلال المدينة القديمة. إن «سعيدة الجميلة لا تعرض على السياح سوى نسخة عن مدينة سان دوني في سيف ومعسكر، مع منظومة حديثة ممزوجة بعادات الأهالي»⁵ باب الغرب عند العرب هي مدينة «تلمسان الرائعة ومخازنها وقلعتها ومعابدها اليهودية ومساجدها ومسيراتها ومحيطها»⁶. تتميز بموقعها الجغرافي الرائع وتتميز بكثرة المساجد، الجامع الكبير، وسيدي بلحسن، والقصور الرائعة، قلعة المشوار البربرية. تلمسان «جميلة جدا، حتى إنها سميت غرناطة الإفريقية»⁷. حظيت سيدي بلعباس بتسمية "مدينة البسكويت" التي اشتهرت بصناعاتها. يركز السارد على وصف «المدينة الحديثة، التي يعود تاريخها إلى عام 1843، وهي جميلة ومزدهرة، مع ضواحيها الخصبة التي يسقيها جدول مقرّة، فهي مبنية على منحدر تيسالا وتخفي نفسها في المساحات الخضراء»⁸.

¹ Jules Verne, Clovis Dardentor. p.190.

²*قرية الجالين Djalis أو الزوج في وهران، والجال هو الأجنبي أو المتشرد، أنشأها الجنرال لامورسيار في 1845 لتميز عنصر الأوروبيين، وإبعاد الأهالي من شارع كليبر خوفا من التفجيرات والهجمات. تسمى حاليا المدينة الجديدة. ينظر الرابط التالي:

Voir: Saddek Benkada, « La création de Médina Jdida, Oran (1845): un exemple de la politique coloniale de [Online], 5 | 1998, Online since 31 May 2013, connection on 06 June 2020. URL: <http://journals.openedition.org/insaniyat/11866>; DOI: <https://doi.org/10.4000/insaniyat.11866>

Jules Verne, Clovis Dardentor, op.cit. p.236.

Ibid. p.269.

Ibid. p.297.

Ibid. Pp.363,364.

Ibid. p.370.

Jules Verne, Clovis Dardentor, op.cit. p.407.

أظهر السارد من خلال وصف المدن التي زارها أولئك السياح الأوروبيون، النتائج الرائعة التي حققها مشروع الاستيطان في نهاية القرن التاسع عشر حيث أصبح تراب الجزائر رسمياً مستعمرة فرنسية، ونقل مظاهر الاستبداد البشعة التي طالت الأهالي بعد ستة عقود من الاحتلال، فلا أثر للون المحلي في هذه المدن الجزائرية الجديدة، بعد أن نسف الفرنسيون البنايات العربية القديمة نسفاً!، وتعرضت، بصفة تدريجية ممنهجة، للمسح والمسح والتحويل والتحديث. كشفت هذه المدن عن الوضعية الشائنة التي يعيشها الأهالي المهمشين الذين أصبحوا في درجة العبيد على أرضهم، بطّالين، أو حمّالين، أو مسخّرين خدما في أملاك آلت بفعل الاستعمار إلى سادتهم الأوروبيين. غاب الأهلي وحضرت الصور العنصرية التحقيرية التي تستجيب للإيديولوجيا المطلوبة عند المقروئية، وتعبّر عن إقصاء الآخر، أو تهميشه ليكون ديكورا «يحافظ على اللون المحلي»¹، أو استصغار ثقافته ورموزه، «وفي هذا الصدد، سأل [كلوفيس داردنتور] عما إذا كان لا يزال هناك عرب في الجزائر»².

تطرقت رواية هكتور سارفداك إلى الإنجاز الذي كادت تحققه فرنسا في تونس مكان نهر تريتون القديم، ويتعلق الأمر ببحر صحراوي يربط في خط واحد شطوط الجزائر وتونس إلى غاية خليج قابس في البحر المتوسط. شغلت فكرة جفاف بحر قديم هذه السياسيين الفرنسيين استناداً إلى مصادر تاريخية وعلمية³. وظل مشروع البحر الصحراوي⁴ * أسطورة علمية مستحيلة،

¹ Jules Verne, Clovis Dardentor, op.cit.

² Ibid. p.132.

³ نشر السان سيموني جورج لافيني Georges Lavigne مقالا بعد تدشين قناة السويس 1869 حول شق قناة جديدة بين الجزائر وتونس، وكانت الفكرة للجغرافي الفرنسي كونراد مالت براون 1775-1826 الذي نشر معلومات في 1803 عن وجود بقايا للبحر.

⁴ تطرق أفلاطون وبعض الجغرافيين القدامى إلى فقدان قارة الأطلنطيد في الصحراء الكبرى. وفي عام 1874 فكر الضابط السانسيموني العقيد "فرانسوا إيلي رودار Roudaire" بجدية في إنشاء مشروع كبير يتمثل في شق بحر داخلي في قلب الصحراء على غرار قناة السويس التي أنشأها فردينان دو لسييس، وقناة بنما في أمريكا الجنوبية، يمتد من شطوط جنوب شرق الجزائر إلى خليج قابس في تونس ليتوغل في البحر المتوسط، لكن الحلم لم يتحقق بسبب تكلفته الباهظة وقلة منافعه، والخوف من رد=

تباحثها العلماء والمهندسون بتحفظ، واستغلها رائد الخيال العلمي جول فارن في مجال التخيل الروائي، يتنبأ بها عما سيحدث في المستقبل في مجال التطور العلمي. ظهر الكاتب آنذاك "كُراء" علمي، وأضاف روايته الخيالية الأخيرة "غزو البحر" *L'invasion de la mer**¹ إلى رصيده الأدبي. تحمس الكاتب لهذه الفكرة التي تروّج لأطروحة هيمنة الغرب وفضل تفوقه في ميدان التطور العلمي، وانحيازه إلى فرنسا في السباق الاستعماري المحموم مع بريطانيا بحثاً عن مناطق نفوذ في آسيا وإفريقيا. وتبدت النبوءة العلمية «في سياق إيديولوجي يجمع بين الثقة التامة في التقدم التقني وتمجيد الرسالة "الحضارية" للاستعمار الفرنسي»² في شمال إفريقيا.

"غزو البحر" رواية استشرافية تنتمي إلى أدب الخيال العلمي، ومغامرة سياسية تروي كيف تصدى سكان التوارق لمشروع إنجاز بحر صحراوي في بلاد الجريد بين تونس والجزائر، خوفاً «من تبعات ذلك على مناخهم وعاداتهم وطقوسهم، فقاوموا المشروع بكل ما يملكون من قوة»³. والراجح أن جول فارن لم يزر المنطقة وإنما استعان بالكتب التاريخية القديمة⁴*. ولعل سبب التركيز على توارق "أهقار" لأنهم انتفضوا في 1881 على الوجود الفرنسي الذي اجتاح أرضهم مثلما كان البحر الداخلي سيجتاح الصحراء، ولم يستطع الجيش الفرنسي إخضاعهم إلا في مطلع القرن العشرين، ولم يكتب عنهم الرحالة الفرنسيون إلا القليل، فأراد فارن أن يسلط عليهم الضوء. و«خلط في ملامح أبطاله، كقوله إن "الإيمغاد" هم عبيد الطوارق. بينما الأرجح أنهم أصحاب

=فعل السكان، وكذا العجز المالي الذي كانت تعاني منه الحكومة الاستعمارية حينذاك نتيجة الحروب التي خاضتها في ما وراء البحار.

¹* نشرت الرواية تحت عنوان أولي "البحر الصحراوي" في شكل مسلسل في أعمدة مجلة دورية "مخزن التربية وإعادة الإبداع" منشورات هنزل 1905، ونقلها إلى العربية الكاتبان التونسيان آدم فتحي والهادي ثابت في 2015.

² Paul Pandolfi, *Imaginaire colonial et littérature, Jules Verne chez les Touaregs*, ibid.

³ -جول فيرن، غزوة البحر، تر: آدم فتحي والهادي ثابت، مومنت كتب رقمية، 2015، ص4.

⁴* استعان بكتب القدامى في وصف إفريقيا Scylax, Ptolémée, Mélas, Pomponius, Hérodote، والأساطير اليونانية، الذين ذكروا نهر تريتون Triton، وأشاروا إلى وجود مياه بحيرة في شطوط الجريد وفجيج التونسية (سبخة فرعون)، وشطوط جزائرية في ملغيغ والغرسة، والكتب الإثنوغرافية عن أخلاق المجتمع الترقى وعاداته، وكتب الجغرافيا الطبيعية والخرائط التي وصفت خواص أرضه وجوه.

الأملاك الذين يدفعون المغارم للأسياذ ويعيشون في حمايتهم»¹. إذ إن "الإيمغاد" هم قبيلة من القبائل التارقية التابعة للأشراف (إماجيغن) والمرابطين (إفوغا) في الهرم التراتبي الذي يسود المجتمع التارقي وليسوا عبيدا.

تدور الرواية حول جدلية التخلف الفكري والتفوق العلمي بين الشرق والغرب، «استلهم من مشروع "البحر الداخلي"، الذي اقترحه العقيد رودار (1874) وتخليل تحوُّلاً كبيراً لجزء من الصحراء إلى بحيرة داخلية ضخمة، وهو تحول عارضته القبائل المحلية. يصف بحيوية الغزو والسلام الفرنسيين، وعادات التوارف، من خلال طموح ومغامرات بطله، والمهندس شالر، الذي أكد: "بعد مائة عام من زرع العلم الفرنسي على قسبة الجزائر، سنرى أسطولنا الفرنسي يرسو على البحر الصحراوي"²، الذي سينشأ في زريبة عين الناقة، وطهر ناسو، والمغير، وفقوسة، المجاورة لخط السكة الحديد عبر الصحراء المخطط لها في غرب الشطوط الجزائرية.

لقد لقي المشروع رفضاً شديداً وقتذاك لعدة أسباب تقنية جيولوجية وفيزيائية، و«أراد العديد من المعارضين إنكار الفوائد التي ستجنيها المنطقة من هذا العمل العظيم»³. زعم النائب في مجلس الأمة لوهران بومال والمهندس روكار أن العمل لا يمكن تحقيقه نظراً لتركيبية الشطوط غير الصلبة، وأرضها رطبة. وبعضهم رأى أن مياهها المالحة تضر زراعة التمور المورد الأساس والأهم لسكان المنطقة، وأن هذه الشطوط مسطحة ستتحول إلى مستنقعات وبؤر من الأوبئة ستظل تصيب المنطقة، وستنتج أبخرة تثير أمطاراً ضائعة تنزل على رمال الصحراء الشاسعة بدلاً من أرياف الجزائر وتونس، ورياحها الدائمة ستهب من الشمال بدلاً من الجنوب. وشكل البحر الداخلي بالنسبة للقبائل الصحراوية هاجساً، وإنجازه يعني تكريس نفوذ المحتلين والسيطرة

¹ - جول فيرن، غزوة البحر، تر: آدم فتحي والهادي ثابت، المقدمة، م س، ص5.

² - Georges-Pierre Hourant, Ils ont tant aimé l'Algérie - Dix écrivains voyageurs à l'époque française, Editions Mémoire de Notre Temps, 2003. Jules Verne, Clovis Dardentor; Editions Hetzel, 1896.

L'Echo de l'Oranie - N°356 - janvier-février 2015. Consulté le: 2020-06-04/18:15

<https://exode1962.fr/exode1962/en-savoir-plus/metropole/jules-verne.html#m>

³ Jules Verne, L'invasion de la mer, op.cit. p.82.

على امتيازاتهم، وتحويل واحاتهم إلى بحر وتشويه طبيعة أرض أسلافهم، فكانت دعوة مرابطيهم إلى حمل السلاح حاسمة: «لا بد أن نقضي على هؤلاء الأجنب قبل أن يغرقوا البلد الذي ننتمي إليه، بلاد أجدادنا، بغزو البحر!»¹. وكان من نتائجها تحطيم الشركة الفرنسية - الأجنبية المكلفة بإنشاء هذا البحر بسلسلة من الهجمات على العمال والمسؤولين.

أما المهندس دو شالر فقد اعتبر حجج المعارضين من كلا الطرفين واهية، وقدم في تحليله تفسيراً يتعلق بالتفكير الديني المتخلف عند الأهالي، مؤكداً أن تلك «الأحداث محبوكة بشكل جيد لاستحضار فكرة القدر، في هذه المناطق حيث تسود الحتمية»² الإسلامية، التي أشار إليها السارد عندما وصف موقف زعيم التوارف "حجار" المسجون بخضوع المسلم ممزوجاً برجاء لنجاح محاولة الفرار من برج المستعمر الفرنسي، ومنتظراً الخلاص «بصبر جميل لعربي يؤمن بالقدر»³، والتمسك بكل فكر متخلف «كنوع من التعصب غير العقلاني»⁴. ويتجلى في السخرية من جهلهم إلى درجة استلهاهم أقاصيص من العتاد الضخم المهمل من الآلات بعد إجهاض المشروع تأثراً بحكايات ألف ليلة وليلة، والإنتاج الأدبي الهائل الذي تركه القصاصون في الشرق، أو الاعتقاد بأنه نوع من السحر الشيطاني (الشيطان المسلم) الذي يؤدي إلى الهلاك عوض تبني فكرة إنشاء البحر علمياً وعملياً.

في النسق الإثنولوجي يتطرق السارد إلى أصل التوارف البربري وأسماء أشهر قبائلهم، ونمط معاشهم الترحالي وزيمهم المتميز وعاداتهم البدائية التي حافظت على نقاء أصلهم، والفضاء الجغرافي الصحراوي الذي يتحركون في ربوعه الواسعة. ووصف الخصائص الاجتماعية التي يتميزون بها من خلال التركيز على ملامح شخصيات الرواية من الناحيتين الفيزيولوجية والمعنوية. السيدة "جمعة" نموذج مثالي للمرأة التارقية الصامدة تتمتع بشخصية قوية ومكانة

L'invasion de la mer, ibid. p.101.

Ibid. p.84.

Ibid. p.61.

Ibid. p.149.

-1

-2

-3

-4

مرموقة في مجتمع يتبع فيه الأبناء الدم الأمومي، عكس العرب الخاضعين للنظام البطريركي. ابنها حجار رئيس قبيلته ورث قوة الشخصية عن والدته المتعصبة ضد الأجانب. رجل ناهز الأربعين قوي وذكي وجريء. وهذه السمات أهله بالتأكيد إلى أن يتبوأ مكانة عند قبائل التوارف والتأثير في رحل منطقة توات والصحراء المهمشين، ومن ثمة دعوتهم إلى حرب مقدسة ضد الأجانب بسبب البحر الصحراوي. إذ «كان يتعين لهذا المشروع أن يضر بشكل خاص بقبائل التوارف، ويحرمهم من جزء كبير من أرباحهم عن طريق الحد من سفر القوافل، وقبل كل شيء يجعلها أكثر ندرة من خلال جعل قمعها أكثر سهولة، وهذه الهجمات التي لا تزال تضيف الكثير من الأسماء إلى سجل الوفيات الإفريقي»¹.

يمعن السارد في إبراز همجية التوارف الرافضين لاستحواذ الأجنبي على خيراتهم، بسرد أحداث تعرض الأوروبيين المستكشفين إلى الهجمات في هذه البلاد النائية، وذكر من الضباط الرائد بانغ، والقائد فلاترز الذي قتل في بئر الغرامة أثناء حملته العسكرية هناك. ويواصل في تشويه صورة بربر "إيموهاغ" بتسمية "التوارف" "لصوص الليل"، ونعت زعيمهم حجار بنعوت بذيئة، الوغد، والإبليس الأكبر والشيطان. الخلاف القائم بين الأهالي التوارف البربر المتمردين المحصورين في ما بين واحات توات (الجزائر) وتومبكتو (مالي) ونهر النيجر وفزان (ليبيا)، والعرب الموالين المسالمين، الذين يقدمون مساعدات لجيش الاستعمار من أجل إتمام المشروع، ويتمثل في شخصية العربي "مزاكي" الذي ويناديه الضباط "أرابيكو". ويبدو الصراع في تسلط التوارف على العرب وخاصة أعدائهم الشعانبة والتهجم على أملاكهم، وضرب العمال الذين يحفرون القناة الثانية في الشطوط الجزائرية بين الغرسة وملغيع لصالح الشركة الفرنسية.

قدمت شخصية حجار في الرواية نموذجاً لرجل "أهقار" البدائي والمتوحش. فهو تارقي من قبيلة زنفيع المرابطية، بدائية تؤمن بالشعوذة والطيرة والتمايم. لص، ناهب بالفطرة، وقرصان

L'invasion de la mer, op.cit. Pp.30,31.

1

بطبعه، ذو سمعة مريبة، اشتهر بكونه زعيم عصابة قطاع طرق ينشطون بين جنوب الأوراس والصحراء. قتلوا المستكشف الجغرافي والرحالة البلجيكي كارل ستاينكس في أهقار، فقرر حاكم الجزائر العام والقائم العام بتونس إرسال بعثة عسكرية لعقابه. أسفر النزاع بين الجنود وأنصار حجار عن سقوط قتلى من جانب التوارف وجرحى في صفوف خيالة الصبايحية لجيش إفريقيا. قبض على حجار واقتيد إلى برج قابس سجيناً، ليمثل أمام المحكمة العسكرية بمدينة تونس. فر بمساعدة عائلته وأنصاره ثم هلك ورفاقه. وبهذه النهاية جعل الكاتب الطبيعة تنتصر للعلم الذي يراه يعمل لصالح الإنسانية، فقد كان الزلزال بشرى خير للفرنسيين الذين تخلصوا من معارضتهم التوارف الذين وقفوا ضد العلم وتسخير الطبيعة من أجل الإنسان الأوروبي، وانطلقت أشغال المشروع مجدداً في الصحراء.

بدا جول فارن في الروايات المذكورة روائياً استعماريًا متأثراً بأفكار دانييل ديفو في عشق المغامرات في البلدان البعيدة، استغل العلم لتمجيد فرنسا في الأدب خلافاً للرأي القائل الدارسين بأنه كاتب معارض للاستعمار. فهو من الوجهة السياسية من أنصار إيديولوجيا السانسيمونيين المنحازة لاستعمار الجزائر والاستئثار بخيراتها بالعلم. وقد «خضع لثقل الصور النمطية لتلك الحقبة المرتبطة بالنظرة الغربية إلى الشعوب البدائية» [...] مقابل استعلاء الرجل الأبيض»¹. يتبدى التناقض في تعاطفه مع الشعوب المستضعفة التي خضعت للتوسع البريطاني. يشجب ممارسات بريطانيا اللإنسانية تجاه مستعمراتها بينما تغاضى على جرائم فرنسا².

¹ Nicolas Maughan, *Etangs et marais dans les Voyages Extraordinaire de Jules Verne: quel traitement littéraire pour des espaces géographiques en mutation au siècle de l'hygiénisme?*, *Natura in fabula: Topiques romanesques de l'environnement*, Brill, 3 janv. 2019.p.244.

² ندد جول فارن بوجود الاستعمار البريطاني في جبل طارق والاستحواذ على سبته التي كانت مستوطنة إسبانية في رواية "هكتور سارفداك" 1877، والهند في "الجزيرة الغامضة" 1874، والتنديد بتقتيل الهنود في "المنزل البخاري" 1880، وقمع الأهالي الذين تصدوا للإنجليز أثناء غزو أستراليا ونيوزيلندا في "أبناء الرائد غرانت" 1868، والانحياز إلى جانب الفرنسيين ضد الإنجليز في الصراع على استيطان كندا في "عائلة بلا اسم" 1888. ينظر الكتاب التالي: Antoine Court, *Regards populaires sur l'Anglo-saxon: drôles de types: études*, op.cit. Pp.117,118.

أجمعت أعمال الرحالين حول تمثيلات الجزائر في القرن التاسع عشر على السردية الثقافية الاستعمارية، وتركزت على تيمات الإيديولوجيا الاستشراقية التي تناولت الثنائيات الضدية والمظاهر الخلافية، وحضرت تفاصيلها الجزئية في الأحداث المليئة بالغرائب والعجائب. وتتصادى الأصوات الأحادية في تضاعيف الأحكام الجاهزة التي تُصرُّ على انسحاق الآخر وانمحاق هويته، وتجدد في كل مرة محورية الأنا المهيمن وتعالى شخصيته. فكان التناسق بنوعيه الداخلي والخارجي سمة غالبية في كل النصوص الرحلية التي غيرت هويتها إلى القصة والرواية، والنصوص القصصية والروائية. وسيستمر التمثيل الاستعماري للمجتمع الجزائري تحت الوضع الاستعماري في القرن العشرين في ثوب جديد.

الباب الثاني

صورة الجزائر المستعمرة في القرن العشرين

بين 1900-1962

إشكالية الهوية والانتماء

الفصل الأول

الجزائر في روايات فرنسيي الجزائر " المستوطنين "

الرواية الاستيطانية/ الكولونيلية

«يمكنك أن تكون جزائريًا دون صعوبة كبيرة. يكفي أن تولد في الجزائر

لأبوين أوروبيين أو من أصل أوروبي، وهو في متناول كل الفرص،

أو أن تبقى هناك لفترة كافية لامتناس أجوائها».

"Ceux d'Algérie. Types et coutumes" فردينان دوشان، ص8

توطئة

استعرض الباب الأول المنجز السردي الغزير الذي أنتجه كتاب المتروبول الفرنسيون حول الجزائر على امتداد عقود القرن التاسع عشر، من 1830«حتى عام 1900، تم تقديم الجزائر على أنها "أرض الغزو والأحاسيس الجديدة"¹. تبين من خلال دراسة وتحليل مجموعة من النصوص الإثنوغرافية في الأدب الرحلي والقصصي والروائي، كيف هيمن على خطابها سمة التفاعل والتداخل بين هذه النصوص (التناس) بطريقة لا تخطئها عين دارس. فأثر وتأثر بعضها ببعض، متخذة من النسق الغرائبي والعجائبي طابعا قارا، استمر في تكرار صورته الجاهزة واجترار مسائله ذاتها إلى غاية مطلع القرن العشرين الكتاب الرحالون المؤيدون للحكومة الفرنسية في تمثيل الجزائر المتخيلة وفق أجندة أرادها منطلق الإيديولوجيا الاستعمارية المهيمنة على الشعوب، وتلبية ما كان يطلبه بشغف المتلقي الغربي المغرم بالمغامرات العجيبة في البلاد البعيدة ما وراء البحار، من أعمال أصيلة تدور في مجال أدب السياحة الاستعمارية. أعمال تصور الملامح الخارقة المميزة للبيئة الطبيعية هناك، وتركز على سمات الاختلاف في بنية الآخر الفيزيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية، منحاين إلى قضايا المستوطن على حساب الجزائري الساكن الأصلي للأرض. و«لقد وقف ببيير مارتينو على المشكل، حيث ندد بسطحية النظرة الرومانسية وحيلها التي حوّلت الجزائر إلى عالم الغرائب والعجائب، لا يستجيب إلا لإرضاء الأهواء الشخصية والميول الغرائبية»².

في مطلع القرن العشرين انتهت حقبة الحلم الشرقي الذي اخترعه المستشرقون في القرن التاسع عشر، وسار على نهجه الكتاب الرحالون، منهم الرومانسيون وحتى الواقعيون والطبيعيون المتمسكون بهذا الحلم الجزائري، وقل دورهم نسبيا ماعدا بعض الأسماء التي أراد لها أدب المستعمر أن تحافظ على سحر الغرائبي من خلال التمحور حول اللون المحلي مثل

¹ Ahmed Cheniki, Algérie contemporaine cultures et identités, HAL Id: hal-02281109, 2019. p.32.

<https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-02281109>

² Sakina Messaadi, Les Romancières coloniales et la femme colonisée, Contribution à une étude de la littérature coloniale en Algérie, op.cit. p.20.

إيتيان ديني. وبعد إنشاء جامعة الجزائر في 1900 التي تكفلت بتخريج مدافعين أشداء عن الإيديولوجيا الاستعمارية لتبرير الوجود الاستيطاني، حيث ظهرت الإرهاصات الأولى لنزعة الجزائر *algerianité* عند كتاب مستوطنين اعتبروا أنفسهم، بحكم استيلائهم على البلد، مستوطنين جزائريين، وأن الجزائر مقاطعة فرنسية، بيد أنها مستقلة إداريا وماليا عن المتروبول، وتتمتع بحكم ذاتي سياسي واقتصادي يسيرها مستوطنون مقيمون بها. وتحت شعار: وداعا، «أيها اللون المحلي!»¹، دعوا إلى القطيعة مع أدب الدعاية والسياحة المضمخ بروح الغرائبي والعجائبي، والذي ميز المتخيل السردي الفرنسي المتمركز على الجزائر الشرقية في القرن التاسع عشر، والالتفاف حول قضايا الجزائر الحديثة الموحدة لمختلف الأمم والأقوام، والمستوعبة لشتى الثقافات والإيديولوجيات في شعب واحد يحمل جينات متنوعة.

ويبدو جليا «أن مسألة الانتماء إلى الجزائر قد طرحت من الناحية التاريخية قبل مطلع القرن العشرين من قبل المستوطنين الفرنسيين الذين أرادوا بعد أن تم لهم انتزاع الأرض من أهلها أن ينتزعوا الهوية والنسب معا، فوصفوا أنفسهم ب "الجزائريين"، وكتبوا أدبا أرادوه أن يكون من "داخل الجزائر"، يتمتع باستقلاليته»² الجمالية. وقد عرفت الساحة الأدبية في هذه الفترة مرحلة جديدة خصبة مع أدباء أوروبيين من جنسيات شتى، أصبحوا فرنسيين بالحصول على الجنسية الفرنسية. استقروا بالجزائر منذ بداية مشروع الاستيطان، أو ولدوا بها خلال الاحتلال وتربوا في ربوعها، أُطلق عليهم تسمية "فرنسيي الجزائر" أو "الفرنسيين الجدد" أو "الأقدام السود". في 1958 نشر رئيس بلدية الجزائر الليبرالي جاك شوفالييه Jacques Chevallier كتابا تحت عنوان "نحن، الجزائريين" *Nous, Algériens...*³ حسم فيه الجدل

¹ Eugène Pujarniclé, *Philoxène ou de la littérature coloniale*, préface de Pierre Mille, Firmin-Didot - Paris - 1931. p.17.

² -أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياها، دار التنوير، الجزائر، 2013، ص 110، 111.

³ Voir: Jacques Chevallier, *Nous, Algériens...* CALMANN-LÉVY, 1958.

المثار حول هوية سكان الجزائر الوافدين، وأكد للفرنسيين في المتروبول أن المستوطنين هم جزائريون، و متمسكون بحب الأرض التي آوتهم ونصرتهم حين ضاقت بهم السبل في أوروبا.

شهدت فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى محاولات جادة لإرساء أدب جزائري فرنسي اللسان يوازي أدب المتروبول، ويحكي واقع المستوطنين الجزائريين. وفي المقابل يحاكيه أسلوباً فينكر ثقافة الأهالي، ويقصي اللغة العربية من كل إبداع فكري وأدبي. أدب موجه لمن أراد العيش والإقامة في الجزائر المستعمرة، كنتيجة لتأييد الساسة الفرنسيين فكرة الاستيطان، والتي شغلت بال الحكومة الاستعمارية، وقد تحدثت عن أهدافها المرجوة النائب أوغيست برودو في غرفة البرلمان عام 1892، فقال: «إن الهدف الرئيس من استقرارنا في الجزائر هو خلق سلالة فرنسية جديدة مكونة من المهاجرين الفرنسيين والأوروبيين المتجنسين، بإمكانها أن تهيي العنصر الجزائري وتجعله قريباً منا»¹. وهي سياسة إمبريالية أقصت السكان الأصليين وأسقطت عنهم صفة المواطنة، وطبقاً لقانون الأهالي عاملتهم كرعايا تابعين وليس كمواطنين ذوي حقوق مدنية كاملة.

أثرت تلك الجهود الحثيثة ميلاد حركة المتجزئين algérianistes عبرت عن حياة الأوروبيين، متخذة الرواية الاستيطانية وعاء مناسباً لطرح مشكلاتهم وانشغالاتهم، ومن ترائب نزعة الجزارة نشأت "مدرسة الجزائر" التي ضمت نخبة من الأدباء المستوطنين الاستعماريين، أطلق عليهم فيما بعد تسمية الأقدام السود pieds-noirs، لتمييزهم عن فرنسيي المتروبول والأهالي، اندرجت أعمالهم ضمن الأدب الاستيطاني. و«بالنسبة لهؤلاء الكتاب "الاستعماريين"، غالباً ما تكون الجزائر مكاناً، غرائبياً أو غير غرائبياً، لمغامرات لا يكون أبطالها الرئيسيون بالضرورة من أصل جزائري»².

¹ - نقلاً عن: عدة بن داهمة، الاستيطان والصراع على ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي 1830-1962، المؤلفات للنشر والتوزيع، ج1، ط1، المسيلة - الجزائر، 2013، ص 53.

² Charles Bonn, Kateb Yacine: Nedjma, 1ère édition: Paris, PUF, 1990. p.22. www.limag.com.

1- الخطاب الإدماجي: أطروحة الجزائر وميلاد العرق الجزائري الجديد

1.1- كاغايو سلسلة فكاوية رائدة معادية للأهالي

لرصد صورة الجزائر في مطلع القرن العشرين ينبغي الوقوف على التطورات السياسية والاجتماعية التي طرأت على الجزائر عامة في هذه الفترة الانتقالية بين قرنين، قرن مضى في التوسع الاستعماري العسكري، وقرن آت عمل على إقامة النظام المدني الذي يعزز فكرة الاستيطان. فمنذ تطبيق سياسة الاستيطان توافد إليها في أواخر القرن التاسع عشر وفي صدر القرن العشرين، أعداد كبيرة من المستوطنين الأوروبيين من شتى البلدان المتوسطية وحتى من شمال أوروبا، انتشروا في مناطق مختلفة خاصة في المدن الكبرى الواقعة على الساحل. نشأ عن وجود هذه الوفود الجديدة ميلاد مجتمع خليط من الأجناس والأعراق واللغات والعقليات والثقافات، حاولوا أن ينصهروا في هذه التركيبة الجنيالوجية الجديدة دون التخلي نهائياً عن أصولهم وثقافتهم الأولى، حيث إنهم تشبثوا بهوياتهم ولهجاتهم المتميزة، فكانوا يتكلمون لغات آبائهم في البيوت، وفرنسية مشوهة في شؤونهم العامة مع الآخرين من الأجانب الذين غصت بهم أرض الجزائر. لذلك اعتر أولئك الأفراد المهاجرون بخصوصياتهم الفريدة كجزائريين جدد، وقد عبر كتابهم عن حبهم للجزائر وإخلاصهم في انتمائهم إليها، و«دار جدال بين الكتاب المستوطنين من جهة، وبين منابر أدبية في "المتروبول"، حول وجود "أدب استيطاني" في الجزائر»¹، يعكس واقع المستوطنين الجديد ويعالج قضايا الأقدام السود.

¹- أحمد مَنُور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياها، م س، ص 111.

وفي غروب شمس القرن التاسع عشر ظهر من بين هذا الجيل الجديد كاتب فرنسي ولد في الجزائر اسمه أوغست روبيني Auguste Robinet¹*. قدم نفسه ممثلاً للجالية الأوروبية المستوطنة مدينة الجزائر. فضّل التعبير بلهجة محلية هجينة ألا وهي "البتاويت" Le pataouète في معالجة قضايا المجتمع الاستعماري ووصف الطبقات الاجتماعية في تمايزاتها وتناقضاتها. استخدمها لتكريسها باعتبارها لهجة وليدة تلائم تمثيل إرهابات مجتمع جديد في طور التكوين يحل محل الأهالي، وشعب حديث غير متجانس، والذي هو، أساساً، خليط متكون من ثلاث طوائف إثنية متباينة: الأوروبيين المسيحيين، والأهالي المسلمين بما فيهم العرب والقبائل (البربر)، واليهود السفارديم. هناك «صحف أسبوعية أو نشرات دعائية، مكتوبة بهذه اللغة، ظهرت مرات عديدة لتسلية سكان مدينة الجزائر، المولعين بهذا الحديث اللذيذ في دورانه وبكلماته غير المتوقعة!»². وتجدر الإشارة إلى أنه إذا كانت «البتاويت هي لغة الأوروبيين الجزائريين في الضواحي والريف، يجب ذكر أيضاً الصبير³»، لسان العرب والبربر الذين يتحدثون اللغة الفرنسية. يتعلق الأمر بنبرة أكثر من كونها لغة في طور الخلق، على الرغم من اختلاط كلمات عربية فيها. يتحدث العديد من سكان المناطق الريفية من الأقدام السود لهجة مستعارة من البتاويت في المدن بقدر ما كانت لهجة صبير في الحقول. وكانت العديد من الكلمات والعبارات العربية قد انزلت إلى جملهم»⁴.

¹*فكتور أوغست روبيني Victor Maurice Auguste Robinet، مستوطن فرنسي ولد بمدينة الجزائر عاش بين 1862-1930، صحفي وكاتب عرف باسم مستعار "ميراث" Musette، بدأ الكتابة في جريدة "الأخبار"، ونشر أعماله منذ عام 1896 في مجلة جزائرية "وتركو" بلهجة البتاويت التي اشتهرت في باب الوادي.

² Charles Taillart. L'Algérie dans la littérature française, in marge, op.cit. p.533.

³** لهجة إفرنجية، كانت تستعمل بمدن الجزائر في العهد التركي بين المسلمين والمسيحيين، وهي مزيج من الفرنسية والإسبانية والإيطالية.

⁴ Qu'est-ce que le pataouète? librairie-pied-noir. Consulté le: 28-09-2020/11:40.
<https://www.librairie-pied-noir.com/content/9>

ومن خلال سلسلة فكاهية يصور الكاتب يوميات الناس الاعتيادية في شوارع مدينة الجزائر وعلى شواطئ خليجها وشمسها المتوسطة. وقد اخترع لها شخصية متخيلة، بطلا شعبيا، بائع سمك من دم مختلط فرنسي وإسباني، ويتكلم نوعا من ¹ tchapourlao ، وكلام هو مزيج من الفرنسية والإسبانية، وأعطاه اسما ذا دلالة فكاهية وتهكمية "كاغايو Cagayous"^{2*}، وأسند له وظيفة سلبية وطفيلية في المجتمع، يشبه شخصية أشعب العربية. شخصية ساخرة وساحرة في الآن نفسه، ونموذج تمثيلي للطبقة الدنيا من الأقدام السود، شبيه بغافروش تيناردييه Gavroche الفتى الفقير والثائر في شوارع باريس في رواية "البؤساء" لفكتور هوغو، والذي يتحدث لهجة خاصة. يتكلم كاغايو هذا الفتى الجزائري لهجة "بتاويت" المميزة في حوار باب الوادي التي تسكنها غالبية إسبانية وضواحيها، فرنسية مختلطة بلغات ولهجات أخرى لاتينية متوسطة، وقليل من المحلية، بربرية وعربية، يتواصل بها الأقدام السود بينهم أينما كانوا، في الشوارع، والأسواق، والبيوت لتكون لهجة متوسطة عامة. وكان يطلق على هذا الخليط البشري من الأوروبيين آنذاك تسمية "جزائريين"، بينما اصطلح على الآخرين لفظ عنصري وتحقيري "الأهالي".

ركزت السلسلة الهزلية على فئة الفقراء أو "البيض الصغار"^{3*}، ولم تتطرق إلى وصف طبقة المستوطنين الأغنياء. إذ «تسلط حكايات Cagayous الضوء على الطبقة الدنيا من الأقدام السود بشكل عام إسبانيين وإيطاليين ومالطيين من البيض الفقراء!»⁴. وقد تأثر كثير من الأهالي الذين سكنوا مدينة الجزائر بالقرب من الأحياء الأوروبية بهذه الشخصية الفكاهية، وقلدوه في

¹ -1 Léon Mazzella, Le parler pied-noir Mots et expressions de là-bas, Éditions Payot& Rivages, Paris, 2017. p.15.

² * كاغايو: بلهجة الباتويت الشعبية لفظ معناه شخص نكرة، وتافه.

³ * الأبييض الصغير، حسب جيلبر مينييه Gilbert Meynier ، يعني العنصري الذي يرفض الآخر ويزدري حضارته.

⁴ -4 David Prochaska, History as Literature, Literature as History: Cagayous of Algiers, American Historical Review, June, 1996. p.675.

طريقة اللباس والكلام والحركات، وتوجد هذه النماذج في الجزائر العاصمة إلى يوم الناس هذا في باب الوادي وما جاورها من أحياء القصبة القديمة.

والبتاويت، كمفهوم إثني حديث نشأ في بداية القرن العشرين، يطلق في الأصل على «مهاجرين إسبانيين وصلوا حديثاً إلى الجزائر، [ويعني أيضاً Bablouette] باب الوادي التي تحولت إلى بتاويت»¹ بسبب صعوبة نطق الكلمة العربية. كما كان يتخاطب الأهالي بلهجة صبير، وقد أقصاهم كاغايو العنصري من هذا العالم الأوروبي الصغير حين قال واصفاً المستوطنين بأنهم جزائريون لما سئلوا عن هويتهم أثناء زيارة المعرض العالمي بباريس 1900: «هل أنتم فرنسيون؟ لا!، جزائريون نحن!»².

عدت مغامرات البطل كاغايو ملك الصلواتشيين³ * Les salaouèches بمثابة وثيقة اجتماعية عن حياة الشتات الأوروبي الذي احتشد في الأحياء ذات الهندسة الأوروبية المطلة على البحر بأسفل مدينة الجزائر. وكان غالبيتهم قد وفدوا حديثاً من المدن الأوروبية المتوسطة، بينما ظل الأهالي أو بتعبير آخر السكان الأصليون من المسلمين محصورين في البيوت العربية القديمة في القصبة العليا أو الضواحي البعيدة، يكابدون ألم النفي الداخلي والإحساس بالاغتراب في بلدهم.

نشرت سلسلة "كاغايو"، الفتى الجزائري المحتال في جرائد مختلفة كانت تصدر في تلك الآونة "الأخبار" و"المجلة الجزائرية" أبرزها "تركو" (مسلم) في 1895، بلغت خمس عشرة حكاية شعبية يومية، واکبت الأحداث والمتغيرات السياسية والاجتماعية التي عرفتھا فترة ما بين نهاية

¹ Centre national de ressources textuelles et lexicales . <https://www.cnrtl.fr/definition/patou>
² Musette, Cagayous, textes recueillis par Gabriel Audisio, Collection et alors? Et oila, Balland, Paris, 1972. p.101.

³ صلواتش salaouèches : هي في الأصل كلمة عربية "صلوات"، استعملها الأتراك للدلالة على رفع الصوت في الأذان للصلاة، ثم دلت على من يصرخ في السوق من الباعة، وتعني عند المستوطنين الأوروبيين في مدينة الجزائر الحثالة والأوغاد والقذرين.

القرن التاسع عشر و صدر القرن العشرين، منها غراميات كاغايو 1896، وكاغايو المعادي لليهودي 1898، كاغايو السائق 1896، وكاغايو في الحرب حيث شارك في حرب 1914، ومصباح كاغايو، وزواج كاغايو 1903، كاغايو في البلدية 1902، وطلاق كاغايو 1906، حيث تزوج بالآنسة تيريزين ثم ندم وطلقها لأنه يعشق الحرية ويتذمر من المسؤولية الزوجية ومشاكل النساء العديدة. وكاغايو في السباق، وكاغايو في الثكنة 1909، وآخرها كانت كاغايو المشعر 1920. قدمت هذه السلسلة نظرة ثاقبة عن تشكيلة المجتمع الاستعماري الاستيطاني في الجزائر ما بين 1894 - 1920، وعلى هذا الأساس «تعتبر حالة Musette فريدة من نوعها في الأدب الجزائري الاستعماري: فهو المؤلف الوحيد الذي كان لديه جمهور في قلب المستعمرة الاستيطانية [colonie de peuplement] وجمهور حقيقي»¹.

من هو كاغايو؟ يرى غي ديغا «فيزيولوجيا كاغايو شخص أسمر بعينين دامعتين ورجلين مقوستين. هندامه بالٍ يلبس سروالا ذا مربعات وسترة رثة، ويضع على رأسه قبعة لا شكل لها»²، ومن الناحية الاجتماعية يقول عنه: «كاغايو هو أكبر وغد في مدينة الجزائر»³. إنه شاب محتال جمع كل المثالب في المظهر والمخبر والمنطق، يساعده في تجسيد نزواته ورغباته الدنيئة حثالة من المستوطنين الأوروبيين على شاكلته ومستواه الاجتماعي، منهم «شقيقته شيكنال، وابنها الصغير النغل، سكارغولات. والرفاق: كالسيدون، المالطي صياد السمك، وزيرو فرنك (صفر فرنك) البخيل، أومبرويون أبوليتان أو البقال الإسباني، وجميعهم جهلاء كما توضحهم أسماؤهم»⁴ الهزلية التي تثير الضحك والسخرية.

¹ David Prochaska, *History as Literature, Literature as History: Cagayous of Algiers*, op.cit. p.685.

² Guy Dugas, *Types et parlers, de la diasporas européenne dans la littérature de l'Afrique du Nord*, Diasporas: histoire et sociétés, Presses Univ. du Mirail. p.138.

³ <https://books.google.dz/book?Auguste+Robinet+musette>
Musette, Cagayous, textes recueillis par Gabriel Audisio, op.cit. p.11.

⁴ Guy Dugas, *Types et parlers, de la diasporas européenne dans la littérature de l'Afrique du Nord*, op.cit. p.139.

شخصيات كثيرة أيضا صنعت أحداث هذه اليوميات الهزلية. شامبنيون عشيق شيكنال الذي رفض أن يعطي اسمه لولدها النغل سكارغولات، والسيد هوك ساعي البريد النمام، ومبهرج، ورامونات الغواص، وتونيك. وأخرى تحمل أسماء ذات معنى عربي، بومطرق محافظ المركز، وقويدر عون أمن، وفرطاس، وفتوش، وزعمون، وباكورة... وغيرها. تَمَثَّل الكاتب الجيل الجزائري، كما أراد الاستعمار الاستيطاني، دون هوية مميزة، إذ كانت شخصياته غريبة الأطوار والأسماء والصفات، وعصابة من الأوغاد والمحتالين، لا يفلقون في شيء. يتحدثون بوقاحة متلفظين عبارات سوقية فاحشة وبذيئة، ويرتكبون حماقات وفضائح.

باعتباره رجل شارع كان «كاغايو يقضي معظم وقته مع أصدقائه وعصابته. هناك "واحد يقال له الفاصولياء"، الذي يسمى الفاصولياء، لأنه دائماً ما يطلق الريح؛ كالسيدون، ذو الأقدام الكبيرة؛ صفر فرنك، سمي بهذا الاسم لأنه لم يكن لديه المال لدفع ثمن جولته من المشروبات؛ السيد هوك، ساعي بريد متقاعد والمواطن الفرنسي الوحيد من جماعة كاغايو؛ سولييان، حرفياً "الشمس والخبز"؛ إمبرليون، عامية جزائرية تعني السرقة الصغيرة؛ وتلك التي تسمى الطماطم. إن انتشار الألقاب يتوازي مع تطور المشي في الشارع، فالأسماء تستحضر الخبرات المشتركة ومآثر كاغايو ومجموعته»¹. هذا هو الكوكتيل الذي وجد له الكاتب في السخرية والفكاهة أحسن أسلوب لوصف مغامراتهم الشوارعية، ونقد تصرفاتهم المنفّرة بطريقة كاريكاتورية.

ساند الكاتب أنصار معاداة السامية الذين التقوا حول الناشط ماكس ريجي، الذي استغل الاضطرابات السياسية التي انفجرت علبتها السوداء في 1898 بسبب قضية اليهودي دريفوس. وقد أثار هذا القانون غضب المستوطنين المسيحيين الذين عارضوا مسألة إدماج اليهود باعتبارهم مختلفين ثقافياً عن الأوروبيين. «فلم يُنظر إلى اليهود من أصل جزائري على أنهم جزء من هذا "الشعب الجزائري"، ولكن باعتبارهم "عرباً من العقيدة الإسرائيلية" [...] ثم تم إلغاؤه من قبل نظام

¹ Voir: David Prochaska, History as Literature, Literature as History: Cagayous of Algiers, op.cit. p.690.

فيشي في أكتوبر 1940، ومن قبل الجنرال جيرو مرة أخرى في مارس 1943 [...] وفي نوفمبر 1943 أعلنت لجنة التحرير الوطنية الفرنسية برئاسة الجنرال ديغول، أن يهود الجزائر قد اندمجوا بشكل نهائي في شعب فرنسيي الجزائر»¹.

وفي هذا السياق السياسي المتشنج عبّر ميزات عن مواقفه المتعصبة ضد اليهود في نص ساخر عنوانه "كاغايو المعادي لليهودي" عام 1898، يساند البطل صراحة المستوطنين، أولئك الذين يحاربون الجالية اليهودية. ورغم أن بطل المغامرات شخص منحط وتافه، إلا أنه كان يعتبر نفسه أرفع من المسلمين ومن الإسرائيليين، إذ يختار لدعاياته ضحية من بين هاتين الطائفتين². وفي سياق متصل يتهم كاغايو اليهود بالاستيلاء على كل المجالات في الجزائر، وبأنهم يقفون وراء كل المشاكل ويفتعلون الأزمات قائلا: «في كل الآونة يخوض اليهود في شؤون الحكومة. الفرنسيون الذين هو كثر مثل النمل ظلوا يشتغلون بهدوء، واليهود في كل لحظة يخرجون أمرا من أجل أن يسود البؤس، أو الحرب، أو الخصومات»³.

وفي "المرشح" قدمت لجنة "ضد كل شيء" بباب الوادي كاغايو جبرا للترشح لانتخابات البرلمان في مدينة الجزائر ليمثل جماعته التي تتخذ من المعارضة مبدأ أساسيا في حياتها. ويعبر شعار "ضد كل شيء" عن موجة الضدية بين الطوائف المتعارضة التي تنامت كراهيتها نموًا خطيرا في ذلك الوقت. المستوطنون ضد الأهالي، والأهالي ضد الأوروبيين، والمسيحيون الأوروبيون ضد المسلمين واليهود. جاء في النص: «دريمون معاد للسامية. بسبب ماذا؟ بسبب أن اليهود يعادون المسيحيين. ماذا عن كولين؟ كولين يعادي دريمون، ليس أكثر. يعني أن الجميع معاد. ونحن حتى لا نكون حسّادا، جعلنا أنفسنا معادين كل شيء، وهكذا لا يحتج أحد

¹ Voir : Guy Pervillé, Pour en finir avec les "Pieds-noirs! (2004). Consulté le:02.01.2021-18:30.

² Fadhila Yahiaoui, Roman et société coloniale, Dans l'Algérie de l'entre-deux-guerre, E.N.A.G/EDITIONS, Alger, 2006. p.20.

³ Musette, Cagayous, textes recueillis par Gabriel Audisio, op.cit. p.88.

علينا»¹. لكن بسبب التزوير لم يفز كاغايو في البرلمان، فدفعه أنصاره الأوفياء إلى الترشح في الانتخابات البلدية لبلدية مدينة الجزائر.

"كاغايو في السباق"² أقصوصة هزلية نشرت في 1905، سمع كاغايو بخبر تنظيم سباق وطني على متن سفن صغيرة إلى جزيرة ماهون ثم إلى تولون الفرنسية، فقرر وأصحابه المشاركة في المنافسة البحرية، واجتمعوا في حمام عربي "ماتيراس" الكائن في باب الوادي، فضاء مجاني للتطهر مخصص للفقراء، للنظر في كيفية الاستعداد للمشاركة ونيل الجائزة. من أجل ذلك قاموا بتصليح أعطال قارب سباق قديم ملك لصديق لهم سجين في بربروس. وضعوه على الشاطئ، ثم دفعوه بصعوبة إلى البحر ورفعوا الشراع. ركب فيه متنافسون ثلاثة كاغايو وصديقه زيرو فرنك البخيل والقبعة الصفراء، لكن القارب كاد يغرق فحال دون ذلك. ولما كانت مدينة الجزائر ساحلية استلهمت ألفاظ دالة على البحر في قاموس كاغايو وأصحابه: «من المكان الذي مكثت فيه، نرى كل من كانتير³* (ديار الكاف حالياً) والقصبة إلى غاية منارة البحرية، مع البحر الذي يظهر كأنه دلو كبير من الماء الأزرق حيث تغطس النساء الأغطية والملابس»⁴، وألفاظ خاصة بالصيد والصيادين على ضفاف الملكة ماتيلد بباب الوادي والقديس أوجين: سردين، كلوفيس، عقارب البحر، وبروميتش (طعم الأسماك).

يشير هذا النص الهزلي من يوميات كاغايو إلى الفضاء السردي العام الذي احتشد فيه الجيل الجديد الهجين. تظهر مساحة التعايش ضيقة مع الآخر وبين الأديان في مدينة الجزائر الأوروبية، بين الإسلام المتمثل في مسجد المرابط، والمسيحية في لفظ التوسل بالمسيح، وتجاور مختلف الثقافات، حيث أن أحد البتاويت يضع ساعة جيب عربية فضية الصنع. يتمثل المكان

¹ Cagayous, textes recueillis par Gabriel Audisio, ibid. p.105.

² Musette, Cagayous à la course; Imprimerie Victor Rollet, Alger, 1905. p.1. Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

³* كان هذا الحي يسمى كاريير جويبر، ويعد من أقر الأحياء في مدينة الجزائر.

⁴ Musette, Cagayous, textes recueillis par Gabriel Audisio, op.cit. p.132.

الخارجي، في الأحياء المشهورة في المدينة، باب الوادي والآغا وحسين داي؛ والمكان الداخلي، مقهى موريسكي وحمام عربي، تجلت عبر هذا الفضاء ملامح المجتمع الجزائري الجديد الذي يسيطر عليه الأقدام السود على حساب الأهالي في القرن العشرين.

سادت في حوار الشخصيات لهجة بتاويت التي جعلها المستوطنون لغة خطاب وتواصل يومية، ويغلب عليها التعابير الفرنسية المحرفة. فسيفساء من الكلام الهجين استعير من لهجات مختلفة إسبانية وإيطالية وبرفانسالية ومالطية، تشير إلى التلاحق الثقافي وأثره في الإنتاج الأدبي في تلك الفترة، وفيها بعض الكلمات الدارجة، نحو: بسيف، باطل، شواري، صحة، واش عندي فيك. وكلمات فرنسية معربة، مثل ميزيرية(البؤس)، وأخرى هجينة مثل: تشالاف (حكايات). كلمات إيطالية: باروفا (شجار)، باسطا(يكفي). كلمات إسبانية: كروسة (سيارة)، وأديوس (وداعا). عبارات مركبة من لغتين مختلفتين: برافو(bravo) عليك(أحسننت)، طويل-longo (عربي-إيطالي)، ومزلوط-بيري purée (عربي-فرنسي)، و besoin-basta (فرنسي-إسباني)، بعضها لا يزال قيد الاستعمال إلى اليوم في الدارجة الجزائرية.

في نص "كاغايو في المعجزة" 1905 Cagayous au miracle، تبدو نبرة السخرية في ثنايا السرد من بعض المشعوذين الذين يدعون العلم لاستغلال الأشخاص الأميين والسذج، وأولئك الذين مازالوا يؤمنون بالخرافات في عصر التقدم العلمي. يندد الكاتب بهذه الظاهرة الاجتماعية التي تقبلها الناس بسبب نقشي الجهل ونقص الوعي، ويتزاحمون في بيت ماهوني مشهور بالخوارق اسمه "جان باتيست بون" يعمل في مكان نسجت حوله أسطورة متداولة وقتذاك يدعى "وادي المرأة المتوحشة"¹* بمدينة الجزائر. أملا في الشفاء، ذهب كاغايو مع بعض أصحابه المرضى، رجالا ونساء إلى هذا الطبيب الروحاني بنواحي العناصر، كلما دخل عليه واحد منهم

¹ * Le Ravin de la Femme Sauvage ، وادي المرأة المتوحشة يقع بين بئر مراد رايس ووادي كنيس (وادي الخميس في الأصل).

وشرح له ما أصابه من مرض ووجع، كان يجيب في كل مرة بعبارة واحدة معجزة: "اذهب لقد شفيت!" وكذلك كان يفعل مع كل زواره من المرضى، مباركا زيارتهم بالدعاء واللمس، دون أن يصف لهم الدواء الناجع.

استوحى الكاتب تيمة النص من واقع المستوطنين المنتمين إلى الطبقة المهمشة، وشخصياته مختارة من شريحة البتاويت البسطاء الذين عمت في وسطهم الجهالة، وانتشر بين الناس الفقر والبؤس. ويتجلى ذلك في نوعية الأمراض التي أصيبوا بها، مثل القمل، وكيفية مواجهة الأمور، مما جعلهم يبحثون عن مداويهم خارج ميدان التخصص، وربما تأثروا اجتماعيا بالأهالي الذين يعتقدون بالأولياء والكرامات نتيجة الاتصال الثقافي. إلا أن الأهلي غاب عن مسرح الأحداث في كلا النصين، وحضر ظله الخافت في صفات الاختلاف التي تميزه عن الوافدين عن طريق التلميح لوجوده الهامشي مثل: «قمنا بترتيب الوشاح على الطريقة العربية»¹، وفي كيل أنواع الشتم باللغة العربية. ومن حين لآخر تظهر شخصيات عربية تضيف لونا محليا، وتصنع ديكورا لواقع فرنسي الجزائر كالحارس أو الشاوش الذي يعمل بوابا في الإدارات، أو يذكرون العرب بسوء، وينسبون إليهم صفات التوحش والبداءة لأنهم غير مرغوب فيهم، مثل المقطع التالي: «امرأة كانت قد أصيبت بالكم منذ أن أفزعها عربي في الزمن الذي كانت تذهب فيه إلى مدرسة الأخوات، ولم يعد بإمكاننا الآن أن نوقفها عن الكلام»²، بعدما شفيت على يد الولي الصالح الماهوني.

اعتمد الكاتب "ميزا" طابع المرح ليقدم صورة شاملة لواقع جيل البتاويت البائس بلهجة البتاويت المتوسطة، تعبيرا صريحا عن إعلان القطيعة مع فرنسية المتروبول والتميز عن أهلها، ويصف السلوكات الذميمة التي وسمت النشاط اليومي للأشخاص الموصوفين بالتسكع والبلادة والحمق والحيلة والخبث والبداءة. ودونما شك كان يريد، عن طريق هذا القالب الوصفي المبتكر،

¹ Musette, Cagayous au miracle, Imprimerie Victor Rollet, Alger, 1905. p.9. Source gallica.bnf.fr /

Bibliothèque nationale de France.

² Musette, Cagayous au miracle, ibid. p.1.

أن ينتقد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السيئة التي أفرزها الاختلاط العرقي والاختلاف الثقافي. أشار إلى مخاطر العنصرية التي تهدد تماسك العرق الجديد، والذي كان يعكس التحول السياسي الحاصل في الجزائر الفرنسية، ولكنه لم يوجه المسؤولية للحكومة صراحة، ولم يندد بالسياسة الاستعمارية التي تهدد هوية الأهالي المسلمين.

وفي سياق التحولات الحضارية الطارئة على الشعوب عند الاحتكاك، تقترب مغامرات كاغايو وأصحابه في تيماتا الاجتماعية من مغامرات أبطال المقامات العربية المهمشين، وتصوير وضع المجتمع العباسي خلال التفاعل الثقافي بين مختلف الأجناس، والاحتكاك المباشر بين العنصرين العربي والأعجمي، وما أفرزه ذلك الخليط المجتمعي من آثار سلبية على الطبقات الهشة. إذا كانت المقامة فنا تمهيدا وإرهاصيا في السرد العربي القديم أنتجت "حي بن يقظان" لابن طفيل، فيمكن عد سلسلة كاغايو تمهيدا للرواية الاستعمارية التي شقت طريقها في القرن العشرين، وسبباً فنياً تهيأ للكتاب المتجزئين الذين بشروا بعد "ميزات" بخصوصية الجيل الجديد، وتغنوا بهوية جديدة لسكان الجزائر الوافدين من الضفاف المتوسطية، وأبانوا عن الصراع الوجودي مع الآخر الذي خاضه الغرب ضد الشرق على الهيمنة العالمية.

تكاثر كاغايو ميزات عدداً فأنجب أبطالاً صلواتشيين آخرين ارتسمت مختلف سماتهم في روايات استيطانية لاحقة، تتناول حياة مستوطني مدينة الجزائر بوصفها مدينة متوسطة حاضنة لكل الأطياف الثقافية والأصناف العرقية. وُلد بيبات المحبوب عند لويس برتران 1901، وبروميتش عند لويس لوكوك وشارل هاجل 1921، وباكيلا عند لوسيان فافر في باب الوادي 1926، وتيتوس عند بول أشار¹. أثمر تأثير كاغايو نشر عمليين لبول أشار Paul Achard²، الكاتب المتجزئ الذي تعاطف مع هذه الشخصية السردية، الممثلة لفتى مدينة

¹ Voir: Fadhila Yahiaoui, Roman et société coloniale, Dans l'Algérie de l'entre-deux-guerre, op.cit. p.20.

² بول أشار Paul (Auguste) Achard 1887-1962، سكرتير التحرير في حوليات إفريقية Annales africaines 1929، أسس دار نشر "آداب فرنسية". من أعماله: نحن الكلاب Nous les Chiens 1929، و"رجل البحر".

الجزائر الوغد والمتسكع تارة والمتعلم تارة أخرى. حاكي مغامراته الهزلية في وصف الفئة الهشة، ونشر في 1931 "رجل البحر" L'Homme de Mer، واستحضر الحياة الجزائرية بمدينة الجزائر خلال 1900 بوصفها فضاء استيعابيا لهذا الخليط الصلواتشي غير المتجانس من الأعراق والألسنة، "Salaouëtches, évocation pittoresque de la vie algériens en 1900"، واستعار كلمة صلواتش لتكون عنوانا لأحد أعماله الروائية، المكتوبة بلهجة البتاويت في 1941. في مفهوم كلمة صلواتش ورد هذا التعريف لبول أشار: «هو ولد حانات القصبه السيء بوجهه المشقوق بالموسى، إلى غاية الأصيل "ابن العائلة الصالحة". كل أبناء هذا الجيل كانوا على الأقل، للمرة الواحدة أو الألف، صلواتشين»¹.

يقول غابريال أوديزيو Audisio مبينا الفرق بين اللهجات المستعملة آنذاك في أوساط المجتمع الجديد، ذاكرة صبير لدى الأهالي والممزوجة بقدر كبير من العربية، والبتاويت المبتكرة في سياق الجزائر المستعمرة، والمكونة من العناصر الأوروبية، والتي تطورت بين الحربين العالميتين: «لغة كاغايو ليست صبير. صبير يعني أسود صغير. لا شيء مشترك بينهما. لا أعدُّ كاغايو لغة دارجة، ولكن كلهجة متوسطة...»²، وهذه اللهجة المستحدثة في مدينة الجزائر استعارت، حسب أوديزيو، تعابير من لغات كل الأعراق الوافدة من سواحل البحر المتوسط، الذي يعتبره الكتاب المستوطنون بحرا لاتينيا، ملغين وجود الحضارات الأخرى المزدهرة على ضفافه.

وهكذا، وبهذا المنظار الضيق والكاشف عن مقدار العنصرية والإقصاء العالي، أنشأ هؤلاء الكتاب الاستعماريون المذكورون، الذين كان معظمهم أساتذة ومعلمين في الجامعات والمدارس الاستعمارية، أدبا خاصا بالفرنسيين الجدد أو فرنسي الجزائر المتمركزين بمدن الجزائر في طابعها الاستيطاني، وعلى هذا الأساس انبرى إنتاجهم، «باعتباره أدب أطروحة»³ يدافع عن

¹ Voir: Paul Achar, Salaouëtches, Editions Baconnier.

² http://alger-roi.fr/Alger/litterature/textes/12_salaouetches_algeria12.htm

³ Musette, Cagayous, textes recueillis par Gabriel Audisio, op.cit. p.11.

³ Ahmed Lanasri, La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres - Genèse et fonctionnement, Editions Publisud, Paris, 1995. p.52.

الأوروبيين ويدعو إلى التعصب للعرق الأوروبي المتوسطي (الرومانيين الجدد)، وفق ما حدده جان بومييه في مقاله المنشور في جريدة "إفريقيا" عنوانه، "التجزؤ، نظريته، وتطبيقاته"، وهو ما كان يخدم فكرة المركزية الأوروبية المتعالية على شعوب العالم.

2.1- حركة التجزؤ algérianisme: تأييد سردي للإيديولوجيا الاستعمارية

1.2.1- مع الرواد، لويس برتران وروبير راندو وجان بومييه

تزامنا مع رواج مغامرات كاغايو الواصفة واقع الجيل الجديد من الفرنسيين الجدد أو المستوطنين الصغار، الفقراء والبطالين والمهمّشين في مدينة الجزائر، تلك السلسلة الفكاهية التي عرفت شهرة بين الحربين العالميتين، سيطر أدب المتجزئين¹ على الساحة الأدبية منذ ظهور أولى كتابات لويس برتران الروائية، كانت استجابة لجملة من التحولات السياسية والثقافية. توجت هذه السيطرة بإنشاء تيار أدبي يجمع أنصار نزعة الجزأة برئاسة روبر راندو سمي "التجزؤ algérianisme"، فانحرف المصطلح الواصف للعرق الجديد من لفظ "جزائريين" algériens إلى لفظ "متجزئين" algérianistes، فاكتسب بذلك مفهوما جديدا يتواءم مع المرحلة الثقافية الجديدة التي استوعبت أجناسا متعددة الهويات والثقافات، دعمته مجلات استعمارية كبرى مثل La Grande France، La Revue nord-africaine التي كانت تنشط بمدينة الجزائر، La Revue mondiale (Le Monde colonial illustré). و«بصفتها إنتاجا ثقافيا استمدت حركة التجزؤ حافزها الأول من إرادتها المعلنة في اقتراح نظرة مضادة للأدب السابق لها: أدب العسكريين، وسياح العبور، والكتاب الرومانسيين الذي اجتمع في لفظ الغرائبي»²، وتؤسس أدبا للمستوطنين الجدد، متعددي الأعراق، ظهرت مبادئه في البيان الذي نشره لويس برتران في صحيفة "إفريقياتنا" Notre Afrique.

¹ بعد استقلال الجزائر قامت جماعة من الأقدام السود المرشحين إلى فرنسا ببعث هذه الحركة، واستمرت في النشاط برئاسة جان بومييه في الجنوب الفرنسي للتذكير بالجزائر المستعمرة والتعبير عن الحنين إلى الماضي الاستعماري.

² Ahmed Lanasri, La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres, op.cit. p.55.

حشدت هذه الحركة الأدبية أعضاء كثيرين من فئة الكتاب المستوطنين وفق المعايير التي أرادها روبير راندو في بيانه، أمثال لويس لوكوك، وشارل هاجل، وريني هوغ، وفردينان دوشان، وجان أنطوان ناو، وستيفان شازراي، وريمون ماريغال، وشارل كورتان، ومارسيلو فابري (لويس فافر)، وبول أشار، وألبير تروفيموس، وريني جانون، ولوران روبا وغيرهم. يذكر أنه «في ذلك الوقت وحتى نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، كان مصطلح "إفريقيا" غالبًا ما يستخدم كبديل رومانسي لـ "الجزائر" من قبل كتّاب هذه المنطقة الجديدة»¹.

استنكر الكتاب المتجزئون أدب الغرائبية المصطنع، والقائم على اختراع الأوهام والاستغراق في الأحلام؛ وعبر إنتاجهم الغزير عن نزعتين إيديولوجيتين أساسيتين ذواتي بعد سياسي وثقافي، إحداهما انفصالية وأخرى إدماجية، فالأولى تتعلق بانفصال المستعمرة عن المتروبول، والثانية تتصل بفكرة إدماج الأعراق العديدة التي تعيش في ظل مجتمع جزائري جديد، معلنة انتسابها للجزارة ورفض تقاليد الغرائبية في الأدب²، حيث جاء في بيان لويس برتران: «...واليوم، فإن أوجه القصور في هذا الأدب الذي عفا عنه الزمن واضحة للعيان الأقل علماء. تبدو لنا هذه الغرائبية على أنها تحريف منهجي للواقع وتشويه له»³. رفض المتجزئون إيديولوجيا أدباء العبور لصالح إيديولوجيا الاستعمار التي خدموها بتقان كبير. و«هذه الأولوية المعطاة للمشروع الإيديولوجي على حساب الخلق الإبداعي الذي استهلك أدبية العمل المتجزئ: تضخيم الخطاب، وضعف الحبكة الفنية، والافتقار إلى النفاذ إلى بسلوكولوجيا الشخصيات»⁴. ورغم نشاطاته المتعددة وكثرة منتسبيه، لم يكتب لهذا التيار الأدبي النجاح المرغوب في الجزائر، فقد توقف مساره في حدود 1935-1940.

¹ Gérard Rosensweig, *Algérianisme*, 2010. p.3. www.clan-r.org pdf

² Voir: Fadhila Yahiaoui, *Roman et société coloniale*, Dans *l'Algérie de l'entre-deux-guerre*, E.N.A.L, Alger, 1984. Pp.63,64.

³ Louis Bertrand, "UNE MANIFESTATION LITTÉRAIRE 'NOTRE AFRIQUE.'" *Revue Des Deux Mondes* (1829-1971), vol. 27, no. 2, *Revue des Deux Mondes*, 1925, p. 291. <http://www.jstor.org/stable/44844592>

⁴ Mohammed Ben Chérif, Ahmed Ben Mostapha, *goumier*, présenté et annoté par Ahmed Lanasri, Editions Publsud, 1997. p.6.

2.1- لويس برتران، إحياء أسطورة الجزائر اللاتينية المسيحية، والتحمس للجيل الجديد

لويس برتران¹* عرب المتجزئين، حيثما انتقل وحلّ في مناطق الجزائر الشاسعة لفت انتباهه كوكتيل بشري متنوع، طوائف من السكان الأصليين، وأعراف شتى آتية من ضفاف بحر المتوسط، خاصة العرق اللاتيني الذي كان يذكّره بأسلافه الرومان. وفي هذا الشأن روى برتران أنه، لما كان معلما، قال لتلاميذه الثانويين في حصة التعارف الأولى يستنهض الهمم، ويحثهم على ضرورة الاطلاع على ثقافتهم ومعرفة أمجاد الإمبراطورية الرومانية التي ينحدرون منها: «أيها السادة، يفترض أن معظمكم مدعوٌ للعيش في الجزائر التي يجهلها. أعتبر أنه من واجبكم أن يُكشف لكم عما كانت عليه فيما مضى، الثروات الروحية والمادية لإفريقيا هذه الرومانية التي مارسنا على العالم، من القرن الثالث إلى القرن الخامس، مثل هذا التآلق المذهل»². ثم إنه شغف بزيارة المدن التي حافظت إلى ذلك الوقت على الأنماط الرومانية وأسمائها البربرية والرومانية، وتحمس لاستدعاء الثقافة اللاتينية القديمة التي ينتمي إليها الفرنسيون. تأثر بالأعمال الأنتروبولوجية الاستعمارية المؤسّسة للنظرة للعنصرية وعدم مساواة الأجناس، فألف السراب الشرقي 1909 يعبر فيه عن تفوق اللاتين، واحتقاره للشرقيين، وشعوره بالاستعلاء نحو العربي والشرقي.

أهمه هذا الحماس القومي روايات متعددة ذات طابع تاريخي وسياسي تنتمي إلى مجموعة الجزائريات، فكان المبشر الفعلي لمشروع الجزائر، وكتب في البداية "دم الأعراف" Le Sang des races في عام 1899، و"السينا" 1901 La Cina، و"بيبات المحبوب" Pèpète 1909 le Bien-Aimé، وهي روايات مدينية، اتخذت من إقليم مدينة الجزائر فضاء لفعاليتها

¹* لويس برتران (1866-1941)، كاتب من المستوطنين الفرنسيين جاء إلى الجزائر في 1891، واشتغل مدرسا للبلاغة في ثانويات مدينة الجزائر الثانوية الصغيرة في بن عكنون، ثم بالثانوية الكبيرة "بيجو" (الأمير عبد القادر حاليا) في 1895، أسس لجمالية استعمارية في أدب فرنسي الجزائر.

² Voir: Paul Mangion, Une approche de Louis Bertrand. Consulté le 13. 07.2020 /14 :45
http://www.cerclealgerianiste.fr/index.php/archives/encyclopedie-algerianiste/culture/litteratures/ecrivains-algerianistes/399-une-approche-de-louis-bertrand

ومركزا أساسا لسرد أحداثها، وسمات الشخصيات المستوطنة المعادية للأهالي، ويبدو أنه تأثر بأعمال الكاتب "ميزات" في تصوير مجتمع الأحياء الشعبية التي استوطنتها الأوروبيون، ولاسيما منهم الإسبان البتاويت في باب الوادي والإيطاليين ناحية البحرية. ويتجلى هذا التأثير في اختيار شخصيات من الأقدام السود إسبانية، وإيطالية، ويونانية، غير أنه لم يستعمل لهجة البتاويت وأثر عليها اللغة الفرنسية الكلاسيكية، مستعيرا بعض التعابير من اللهجات الأخرى، ويظهر ذلك في رواية بيبات المحبوب على وجه الخصوص، عكس ما فعل "ميزات" في مغامرات كاغايو، بغرض جعل الفرنسية الفصيحة هي اللغة الأساس في أدب الأقدام السود، مثلما هي رسمية في الإدارة. و«يطور تيمة "الفتوة". فالمستوطنون في روايته "امتياز السيدة بوتيجار" فاعلين، ونهمين، وقساة: يناضلون ضد عدائية الطبيعة والناس»¹، الأهالي المتوحشين.

وفي أعمال أخرى مثل روايته التاريخية "دم الشهداء" 1918، وتجسيدا لمقولة ترتيليان "دم الشهداء نسل المسيحيين"، تناول بإلحاح فكرة لاتينية الجزائر عبر إحياء إشعاع الوجود الروماني الذي ترك بقايا في المدن التي أسسها، شواهدا على مجد غابر في مختلف المناطق، والإشادة بالإمبراطورية الرومانية التي كانت سبابة إلى حمل الرسالة الحضارية المسيحية إلى شمال إفريقيا، فتسلمها البربر المسيحيون ونشرها الثلاثي القديس أوغسطين والقديس سبريان وترتيليان، ضحوا من أجلها وحافظوا عليها حتى الفتح الإسلامي. «في "دم الشهداء" الإطار إفريقي، والشخصيات الرئيسية إفريقية، والكنيسة المقدمة هي كنيسة إفريقيا، والمسرح في سيرتا، وفي لامبيز، وفي كالسوس هيرقلطيس»².

ما انفك هاجس النزعة الرومانية والهوس بمسيحية الجزائر اللاتينية يظهران في كل كتاباته السردية والمقالية، ولذا كان سباقا إلى التعبير عن رغبته العنصرية المتطرفة في بعث فكرة

¹ Fadhila Yahiaoui, Roman et société coloniale, Dans l'Algérie de l'entre-deux-guerres, op.cit. p.20.

² Charles Taillart, L'Algérie dans la littérature française, op.cit. Pp.522,523.

اللوتنة والرومنة التي جاءت في شكل لمحات وإشارات مبثوثة في سرديات الرحالين، والإفصاح عن غايته الكبرى في تكوين جيل جزائري جديد، والتهكم اللاذع من أدب الدعاية الذي انغمرت فيه أعمال كتاب المتروبول، فظلوا يرددون صور استيهاماته ومصطلحاته، كذوق الغرائبي واللون المحلي حتى فقدت صلاحيتها مع حلول الحرب العالمية الأولى وظهور تيار التجزؤر بصفة رسمية عام 1924.

طرح منظر الاستعمار والأديب برتران تطلعاته الطموحة لبناء جزائر جديدة، الجزائر كمشروع استيطاني فرنسي طويل المدى، فمنذ أولى رواياته "دم الأعراق" أطلق العنان لأفكاره البعثية التي تحمل في طياتها أطروحة بعث مجد الرومان كمرجعية حضارية، وإحياء الوجود اللاتيني في الشمال الإفريقي، مروجاً لخطاب التفوق العرقي الذي جعل من العرق الأوروبي الأبيض أفضل الأعراق، ومن الفرنسيين، الذين ينحدر منهم، أفضل الأمم اللاتينية تمدناً وتحضراً ورقياً، لذلك ركز على تصوير شعورهم المشحون بالاستعلاء على بقية المستوطنين الأوروبيين واحتقار الأهالي. يتناول في "دم الأعراق" مسألة ميلاد مجتمع استعماري جديد في الجزائر الفرنسية التي استقطبت العمال الأوروبيين من كل فج عميق، ويسرد حياة مستوطنين قدامى وجماعة من الوافدين الجدد في نهاية القرن التاسع عشر.

فلاحون إسبانيون نزحوا بسبب مآسي الحروب والمجاعات التي ضربت قراهم في سان فانسانت قرب أليكانت وغيرها من المدن الإسبانية، فوجدوا تسهيلات للإقامة في مدينة الجزائر، في باب الوادي وفي سواحل الجزائر وسهولها وهضابها تعويضاً للأراضي التي فقدوها في إسبانيا ليستقروا مع عائلاتهم. فكانت «إفريقيا هذه شبه المتوحشة، كل هؤلاء الإسبان يعتبرونها أرض الغزو»¹، مغامرون جاؤوا من ماهون وفالنسيا وأليكانت من أجل أن يعملوا في أي مجال، يعوضون بذلك الأهالي الكسالى ويتحملون عناء فوق بشري. «في هذا

¹ Louis Bertrand, Le sang des races, Librairie Paul Ollendorff, Société d'Éditions Littéraires et Artistiques, Septième Edition, Paris, p.24. Digitized by the Internet Archive in 2011 with funding from University of Toronto.

العمل، يستحضر لويس برتران نزعات هؤلاء السائقين الذين كانوا يغادرون من مكان نقل البضائع في شارع تانكريد وأبواب إيستي. نزعات متعبة بسبب المسافات الطويلة والمناخ والطرق الصخرية، وكذلك بسبب طول المراحل»¹. تركز الأحداث على ثلاثة فتيان إسبانيين من فالنسيا يشتغلون سائقي عربات، يسكن رامون في باب الوادي، والأخوان كانيات، وسينتو في بوفاريك. رامون مثال المستوطن الإسباني الكادح الجاد، والوافد الجديد العنيد، سعى إلى كسب المال ليعيل أسرته، فاشتغل سائق عربية، واشترى مقهى، وأقام علاقات مع الفرنسيين، وزود العرب بالبارود خلال انتفاضة منطقة القبائل، فباعهم الفحم المسحوق عوض ذلك. انغمس في اللهو والخمر والنساء عندما خالط باسكوالات ففترت همته وانهزمت روحه المكافحة، ثم استعاد العزيمة من جديد.

يستعير السارد عبارة فلوبيير في رواية "سلامبو" لنسخ واقع مدينة الجزائر الحديثة المتعددة السلالات المنتمية إلى البحر اللاتيني. تكتظ شوارعها ومقاهيها برجال من كل أوروبا على اختلاف ألسنتهم، إسبان ومالطيين، وإيطاليين وألمان. ونابوليتانيين، وألزاسيين، وماهونيين، وفالنسيين، وكاتالونيين ومالقيين، وغالين؛ وعجر، ونصاري ويهود. وتعمد إقصاء الأهالي المسلمين بكل أطرافهم عربا وبربرا، بدوا وحضرا من نسيج المجتمع الجزائري الحديث الذي كان في طور التكوين على النمط الأوروبي في مطلع القرن العشرين.

تتبدى في هذه الرواية مبادئ نظرية الأعراق العنصرية التي أرسى أسسها الأنتروبولوجي الفرنسي غوبينو²، صنفت التركيبة السكانية المتفاوتة في درجات الرقي والتخلف، وحسب السلالة، ولون البشرة، والخصوصية الثقافية. عمال بسطاء مثابرون، وحتالة من الفتيان البطالين يثيرون المشاكل والنعرات والشجارات، تكشف عن مواقف عنصرية طائفية بين سكان المجتمع

¹ Paul Mangion, Une approche de Louis Bertrand, op.cit.

² *Joseph Arthur Gobineau (1816-1882)، كاتب فرنسي ألف كتابا في الأنتروبولوجيا عنوانه "عدم مساواة الأعراق البشرية" *Essai sur l'inégalité des races humaines* (1853-1855).

الهجين، و منافسات حادة بين أفرادها، وعن تراتبية هرمية بين المستوطنين، يشعر الفرنسي فكتور بالتهالي على رفاقه السائقين الإسبانين والإيطاليين، ينظر إلى تصرفاتهم نظرة غريبة غريبة، فلم يستطع أن يتأقلم معهم أثناء الرحلة، لأنه «لم يكن من عرقهم ولا مهنتهم»¹. ويزرد بعضهم المالطيين ذوي السحنة الداكنة والبشرة الدهنية، ينظرون إليهم نظرة احتقار بسبب دمهم المختلط وملامح الشبه بالأهالي. تنامت العنصرية وتجسدت نزعة معاداة السامية في إذلال اليهود وتعرضهم إلى العنف ولو كانوا مسالمين، والسخرية من العجر. والحكم على السلالة الإسبانية بتبدل الذهن والرعونة واللهجة غير الراقية، فعدم استعداد بطل الرواية رفائيل بن رامون للتعلم وجمود عقله يعودان إلى جبلة في هذا العرق المختلط بالعرب. أكد رئيسه في معمل السروج ومعلمه أن «رأس رفائيل متحجرة مثل الحصاة ولا يمكنه أن يكون سوى سائق عربة»²، وباعتباره إسبانياً فإنه لا يصلح إلا للأعمال التي لا تتطلب جهداً فكرياً، وبالتالي يضطر إلى أن يشتغل في مهنة بسيطة، فكان «مثل والده الرجل نفسه، الابن الحقيقي لدمه»³.

ظهر رفائيل مثالا لجيل البتاويت المولودين في الجزائر الجديدة، الذي خلف جيل الرواد المكافحين من أجل ملكية الأرض. يركز النص على وصف المستوطنين الجدد، «يأكل الوافدون الجدد بالضرورة بطريقة معتدلة للغاية، يأكلون الكثير من البطاطا، الأمر الذي أكسبهم، من قبل الذين سبقوهم، لقب "pataouètes"، أكلة البطاطا»⁴. و"البتاويت"، هي الجالية الإسبانية الأكثر حضوراً في الجزائر. يسرد الكاتب يوميات أسرة إسبانية فقدت بعد موت الأب رامون كل المكاسب، فاضطر الابن البكر رفائيل إلى تحمل مسؤولية البيت. نشأ رفائيل مزاجياً ملولاً، لا يداوم على أي عمل عدا سياقة العربات، ولا يستهويه أي مكان عدا رحابة الجنوب يتنفس الراحة والهدوء، عنيدا وغضوبا ومستهترا، ولم يتمكن من تغيير عاداته السيئة. حيثما حل وارتحل كان يميل مع كل هوى، ويصاحب رفاق السوء. يصف السارد مغامراته الغرامية مع نساء من كل

Louis Bertrand, Le sang des races, op.cit. p.66.

Ibid. p.30.

Ibid. p.27.

Paul Mangion, Une approche de Louis Bertrand, op.cit.

-1

-2

-3

-4

شكل ولون وعرق، لا يكاد يذكر أسماءهن، وكثرة معارفه ورفاقه، وجولات التيه العديدة ذهابا وإيابا من الساحل إلى الصحراء.

الفضاء الجغرافي الرحب الذي يتحرك فيه شخوص الرواية نوعان، فضاء المدينة الأوروبية الحديثة في مدينة الجزائر، يسكنها المستوطنون في أحياء باب الوادي وشارع مصطفى، وبلكور (بلوزداد حاليا)، وحسين داي، وغابات بولوني (غابات المرادية حاليا) وبوزريعة. ومدينة قسنطينة حيث تسكنها نسبة عالية من الإيطاليين والفرنسيين. وفضاء الأهالي الهامشي بقي يحافظ على طابعه القديم من أجل استغلاله في جذب المتلقي. كانت المدينة العربية والقصبة القديمة خصوصا إلى ذلك الوقت ما تزالان بقعتين معزولتين مهمشتين، ومرتعا للفساد الأخلاقي، يلجأ إليه المستوطنون بكل طبقاتهم، وسياح أجانب بحثا عن المتعة على أبواب الفتيات الموريسكيات والأوروبيات واليهوديات. ووصف الفضاء الطبيعي الذي يجذب عشاق المغامرة الراغبين في استكشاف «البلدان المتوحشة، مع نبات آوى وأفاع ذات قرون»¹.

انصب الاهتمام كبيرا على الفضاءات الشاسعة التي ركز عليها أدب السياحة الطبيعية، وعلى مزايا الجغرافيا الإفريقية، والفضاء الجبلي المتنوع بين مغارات الشفة والشلالات والغابات في البليدة، والترويج للأماكن التي طالها التطوير كحدائق المدينة المليئة بالأشجار المثمرة، ووديان الناظور في تيبازة. والفضاء الصحراوي وشمسه التي أحرقت جلد الفرنسي فكتور، يبدأ من جنوب المدينة، من قرية بوغار إلى الأغواط والجلفة حيث امتداد قبائل أولاد نايل، صدمتهم الشمس الحارقة في صحراء بوقزول المدهشة بمنظر السراب، و«كانت جبال بوغار مكسوة بالأرجواني والذهبي، والأراضي، على مد البصر، تعكس الظلال المتغيرة للهواء، ويبدو أن الشريط الأبيض للطريق المؤدية إلى صحراء بوقزول يفضي إلى أرض السحر والأبهة»².

Louis Bertrand, Le sang des races, op.cit. p.44.

Le sang des races, ibid. p.200.

-1

-2

في النسق السوسيو ثقافي يشير النص إلى مسألة التصير التي كانت أحد أسلحة الدمار الثقافي في سياسة الاستعمار المستهدفة للدين الإسلامي، وضمان ذوبان المستعمر تحت راية الحضارة اللاتينية المسيحية. قدور خادم عربي اعتنق النصرانية في عام المجاعة الكبرى التي أصابت الجزائريين بين 1867 و1869، عُمد على يد الكاردينال لافيغري الذي أنقذ كثيرا منهم من الموت، سمي شارل وترى في كنف الآباء البيض على تعاليم المسيحية، ويتلفظ بكلمات توحى بتشبعه بها، مثله مثل المستوطنين الأوروبيين المتشبهين بدينهم. فالدين المختار لهذا الجيل الجزائري هو المسيحية، تعدد السارد الإشارة إلى رموزها بالحديث عن أهم صرح للمسيحية في الجزائر وهي كنيسة السيدة الإفريقية¹ * الكاثوليكية، والاحتفال بميلاد المسيح وتعاليم القديس توما الكاثوليكي أكثر من الإسلام ومعالمه التي أريد طمسها.

خضع المجتمع الاستعماري إلى نظام الفوارق، حيث يأتي الأهالي في الدرجة الثانية من السلم الاجتماعي بعد المستوطنين الأوروبيين، ووضعهم بائس ومهين، يشتغلون خدما عند المستوطنين، في مزارعهم أو في بيوتهم، أو حاملين، أو ماسحي أحذية، ويتحملون المشاق بأجور زهيدة جدا أو مقابل لقيمات طعام، ويسكنون بيوتا هشة في أماكن معزولة بعيدة. يشعرون بالرهاب من الأوروبيين الوافدين الذين ينصبون لهم العدا والحقد، ويوصفون بالشعب المنحط، والشعب الغريب، وقلما يُنادى الأهلي باسمه، بل يوصف بعرقه احتقارا للعرب "يا عربي" أو بلقب التعبير "بيكو" أو السب العرب الأشرار، وحتى "قدور" المنتصر والمتأرب مثلهم لم يسلم من التهميش والتحقير ولقب "بيكو".

كانت العادات البدائية وسلوكات العرب المجاورين لمنزل تيريز زوجة ألفونس في إحدى قرى بالمدينة همجية، تستفز المستوطنة الفرنسية: «في الأكواخ المجاورة كان يتردد صدى هيجان

¹* بنيت كاتدرائية السيدة الإفريقية Notre Dame d'Afrique ذات الطابع المعماري البيزنطي على مرتفع شاهق بمدينة الجزائر في 1872 على يد الأسقف "بافي" نزولا عند طلب راهبة زنجية تدعى مارغريت، ترأسها الكاردينال لافيغري بعد وفاة مؤسسها. كانت أكبر صرح للمسيحية الكاثوليكية بالجزائر وإفريقيا، وأهم مؤسسات التصير الخادمة إيديولوجيا الاستعمار.

عرس عربي، درابيك ونايات حادة تستقر الآذان، ثم صوت الطبول يرن وسط عواء النساء المتوحش اللواتي كن يضربن بألسنتهن ركني الفم»¹. وانزعج رفائل من منظر الناس غير المتجانس بمدينة الجزائر، لاسيما منهم العرب في شارع السماكة قبالة البحر، «لقد كره [هم] بشكل خاص بسبب نجاستهم وانحطاطهم. كل هؤلاء الممزقة ثيابهم الذين يتحركون حوله قذرون، مما جعلهم يبدون كأنهم حشرة طفيلية تمشي على جسده. تشعره رائحتهم بالنتقز»². ومن خلال استعمال الصور النمطية والعبارات المحلية ظل سحر المرأة الشهوانية والبلاد الأجنبية الغريبة، يمارس سطوته بقوة حتى على الكتاب الرواد المتجزئين الذين بادروا بالقطيعة مع الأدب الغرائبي، واختزال خرافة اللون المحلي والفولكلوري، وأرادوا مثل لويس برتران أن يتخذوا الجزائر موطناً لهم اغتصاباً بدعوى الجزائر، فتجزأوا لطمس هوية المستعمر ومحو مقومات شخصيته.

في رواية "السينا"، يعود برتران إلى التركيز أكثر على البعد اللاتينو روماني في بناء تاريخ الجزائر الحديثة، وقد ارتأى أن يبين في المقدمة أهمية هذا البعد الاستراتيجي بالنسبة لمستقبل الغزو الفرنسي الاستعماري، مهدياً العمل إلى الشاعر البرناسي، الإسباني الأصل، خوسي ماريا هيريديا³، وإلى صديقه عالم الآثار والمؤرخ الفرنسي ستيغان غزيل Gsell المتخصص في تاريخ شمال إفريقيا القديم منذ العصور البدائية. استفاد من أعمال هذا المؤرخ الذي اهتم بتاريخ الجزائر القديمة في عهد البربر والرومان، ليفهم حاضرها، ويفسر أسباب حركة الهجرة التي اجتاحت البلاد من قبل شعوب البحر المتوسط، مقدماً «مشهداً لشعب جديد يعمل بنشاط لفرنسا القديمة»⁴. يواصل التيمة المحورية التي تناولها في "دم الأعراق" عن مستوطني الجزائر الحديثة، ويرسم «أجواء مدينة الجزائر المضطربة في وقت ما كان يسمى "القلاقل المعادية

¹ Le sang des races, op.cit. p.192.

² Ibid. p.220.

³ *خلد خوسي ماريا هيريديا في شعره مجد أسلافه الأوروبيين في غزو أمريكا بقصيدة نظمها باللسان الفرنسي سماها "الغزاة".

⁴ Louis Bertrand, La Cina, Librairie Paul Ollendorff, Société d'Éditions Littéraires et Artistiques, Cinquième Edition, Paris, 1901. p. X. Digitized by the Internet Archive in 2009 with funding from University of Ottawa.

اليهود في 1897-1898»¹ وقد تنامت معاداة السامية بسبب قضية دريفوس، رغم البراءة التي حسم بها القضاء الفرنسي لصالح الضابط اليهودي.

يفتح النص على رصد الجو السياسي والاقتصادي والثقافي العام في فرنسا في عهد الجمهورية الثالثة، وزخم التيارات الفكرية والفلسفية المتجاذبة. يجسد انعكاس هذا الجو المعقد في عزم شابيين فرنسيين متعلمين على السفر والإقامة في الجزائر بعدما جريا حظهما في البحث عن عمل يناسب ميولهما إلى الفن والأدب في المتروبول دون جدوى، لأنهما تلقيا «تعلّما سخيا، ولكنه متسرع جدا، ومكثف جدا، ونظري جدا فرضته الجمهورية الثالثة على الأجيال بعد عام 1880»². أبحر الصديقان "كلود جيلي" و"ميشال بوتري"، باتجاه الجزائر يحملان أحلام مستقبل زاهر في هذا البلد الإفريقي الواعد. كان ميشال ابن جنرال استعماري سابق أكثر تحمّسا للفكرة، حيث جاء ليصبح نائبا في البرلمان الجزائري مكان والده المتوفى، في حين اكتفى كلود بالرغبة في إيجاد أي وظيفة يعتاش منها.

أحب ميشال "سينا" أو فليسيان، فتاة كورسيكية جميلة تهوى الفن والرقص والغناء شغلته عن أملاكه وأشغاله وطموحاته السياسية التي جاء من أجلها. حتمت عليه الظروف أن يكون معاديا للسامية إذا رغب في الترشح للانتخابات البرلمانية خلافا لمبادئه الدينية المتسامحة، واستجابة للحركة الشعبية التي كانت حينذاك لا تقاوم، والنجاح كان هذا ثمنه. رفض أن يكون مستوطنا مخادعا فتخلّى عن السياسة وأهلها ليعيش مطمئنا. أما كلود فقد قرر أن يصبح مستوطنا جزائريا صغيرا بعد انفصاله عن صديقه ميشال لتعارض أهدافهما.

يتمظهر موقع مدينة الجزائر الجغرافي ووضعها الاجتماعي الصعب على الطبقة الفقيرة، والوجوه البشرية المتعددة السمات، التي تنطوي على «مزيج من المكر والجشع والعنف»³.

Paul Mangion, Une approche de Louis Bertrand, op.cit.

Louis Bertrand, La Cina, op.cit. p.17.

La Cina, ibid. p.27.

-1

-2

-3

تبدو تيبازة المتميزة بموقع جغرافي ساحر ومناخ أوروبا دافئ وتاريخ عريق تشهد عليه الآثار الخالدات للحضارات القديمة الفينيقية والقرطاجية والنوميديّة والرومانية، والمعالم الدينية المسيحية، التي ظلت شامخة بعد الفتح الإسلامي، ولم تهدم كما فعل الفرنسيون ببعض المعالم الإسلامية في القصبة وحُولت عن مهمتها. تلك الآثار جعلت الكاتب يتشبت بأطروحة الجزائر البربرية الرومانية، وبفضل خصائصها المتوسطية ألغى بعدها الإفريقي، وأعلنها صراحة «أتينا لجمع الميراث»¹ الروماني. لذا اختارها فضاء لهذه الرواية بدلا من مدينة الجزائر ذات الطابع الإسلامي، الموريسكي والعثماني.

أقام ميشال بساحل تيبازة في بيت جميل على طراز العمارة الإيطالية يوائم منظر الأطلال الرومانية، وبداخله صورة فسيفسائية للشاعر فرجيل مرسومة على بلاط أحد الأروقة، وأخر ذوات طابع قرطاجي أو وثني قديم. به مكتبة تضم قطع أثرية قديمة وأشياء رمزية اقتناها والده خلال حملاته العسكرية وجولاته في الجزائر، كدليل على حضارة الرومان التي سبقت كل الحضارات الأخرى إلى هذا المكان. حرص الضابط على بناء الفيلا على أرض واسعة جدا تطل على البحر المتوسط استحوذ عليها إثر تنازل الحكومة الاستعمارية عنها للضباط بعد نجاح الغزو العسكري الذي كان ثغر سيدي فرج مسرحا له، ترمز إلى عودة اللاتين مرة أخرى لتجسيد هيمنتهم المطلقة على المنطقة.

كانت تيبازة مدينة بربرية تضم معابد وثنية ثم تحولت إلى مستعمرة في عهد الرومان المسيحيين وشيّدت كنيسة القديسة "سالسا" Salsa على إحدى تلال المنطقة كأول من ضحى في سبيل المسيحية من الأهالي وأصبحت تضحيتها أسطورة محلية، وفي أخرى ينتصب قبر الرومية. بني بيت ميشال في عهد الاحتلال على أنقاض المعابد القديمة وعلى مقربة من الموقع الذي غرقت فيه القديسة. اكتشف البطل عظمة الماضي الروماني في هذه المدينة والجزائر

La Cina, ibid. p.53.

بصفة عامة، وجد رسومات على الجدران وكتابات على شواهد القبور تخلد ثقافة راقية وذوقا رفيعا لشعب خليط من «سكان أصليين، ورومان جاؤوا من إيطاليا، ومستوطنين مولودين في الأرض»¹. وعلى الأصول اللاتينية والدين المسيحي عاش هذا الشعب في شمال إفريقيا، وهم يشاهدون الحطام والآثار انبهروا بالإرث الذي تركه الأسلاف و«في أذهانهم، كانت فكرة الاستمرارية اللاتينية، قد تفجرت بجلاء»²، وعزم على أن تحيا مع الجيل اللاتيني الجديد الذي سيصون الوديعة.

ومن أجل شرح فضائل الرسالة الحضارية، تم استدعاء تاريخ روما القديم وبيزنطة وآلهة الميثولوجيا الرومانية الماثلة في تلال المعابد السبعة وما يماثلها في تيبازة، واستثمار رموز المسيحية، بترانيمها وتعاليمها الدينية وشخصياتها اللاتينية المتعصبة على مر الزمن للصليبية ضد هيمنة الإسلام على حوض المتوسط، أمثال القديس لويس وشارل الخامس ولويس الرابع عشر، ف«منذ القديس لويس، كانت فرنسا والكنيسة تفكران في غزو إفريقيا»³. ذكريات النصر خالدة بالمعالم التي شيدها الرومان في تيبازة وما جاورها، تشيد بفضل حضارتهم ودورهم الكبير في تطوير شعوب البربر وإخراجهم من الوثنية في القرن الثالث الميلادي، ولتأكيد الاستمرارية اللاتينية استعرض الاهتمام الفرنسي بالتراث المسيحي الإفريقي الذي تركه القديس أوغسطين وترتيليان وغيرهما من رموز الكنيسة الإفريقية القديمة، عن طريق التبشير المسيحي الذي أخذ على عاتقه مهمة إحياء الماضي والحرص على تدوين ملاحمه، وحمايته من الزوال بالترميم وتشديد كنائس أخرى جديدة لتتنصير الأهالي، وقرى بكاملها لترسيخه في نفوس الجيل اللاتيني الجديد. وهذا ما لم يكن ممكنا في الاستراتيجية الاستعمارية إلا بالتعاون المشترك بين السياسة والكنيسة، ورجال الحكم ورجال الدين، بالسلاح والصلاة، والعمل سويا لإنشاء إسلام كاثوليكي أوروبي بلا مسلمين، ودون إقامة أية مصالحه معهم.

La Cina, ibid. p.52.

Ibid. p.53.

Ibid. p.438.

-1

-2

-3

وبعد هيمنة العرب والإسلام قرونا طويلة في الديار البربرية، تعود الروح اللاتينية إلى هذه الأرض عبر جيل متوسطي جديد في ظل الاستعمار الفرنسي، فقد لمح كاريل المتحمس للجزائر الرومانية من خلال بحوثه في الحفريات، ومعايشته الظروف والأحداث المضطربة التي كانت تجري في ساحة المستعمرة إلى ظهور جيل جديد في القرن العشرين يحمل ملامح خاصة، و«المؤكد هو وجود في الجزائر في الوقت الحالي [آنذاك] شعب جديد بالكامل، لا يدرون عنه في فرنسا، والذي لا يُعلم عنه حتى عندنا في الدوائر الرسمية»¹. بين للشابين الوافدين أنهما فردان من أفراد هذا الشعب الجزائري الجديد، وعليه، ينبغي أن يعرفا القواعد التي يسير عليها وطنهما المتبني، مثل كل المستوطنين الذين اختاروا الاستقرار في الجزائر والانتماء إليها. لما سأل ميشال أحد العمال الذين يعملون في حقول والده، ويشرف عليها المستوطن ماسكري عن أصله الإسباني، نفى وأنكر، وأكد على أنه جزائري بالميلاد:

«- هل أنت إسباني؟

- لا! أنا جزائري، ولدت في البلد - إنهم جميعا كذلك، قال ماسكري.

- لا يريدون أن يكونوا إسبانيين أو فرنسيين! يا له من قوم غريب!...»².

تجلت نزعة الجزارة في وصف ملامح مجتمع ما سماه الكاتب برتران "الشعب الجديد"، اجتمع مستوطنون يديرون شؤونهم في أحد مقاهي مدينة الجزائر، يحتسون خمر الأفتسين واليانسون 1884 anisette المشهورين في البلد كعلامة جزائرية متميزة. مهنيون من كل البلدان اللاتينية يتصارعون من أجل فرض وجودهم، صيادون من نابولي، وتجار سمك من مالطا، تاجر سماد من الألزاس، سائق عربات إسباني؛ تظهر للعيان وجوه متوسطة الملامح بروفنسالية، وإيطالية، وكتالونية، وإسبانية بأعداد كبيرة. فقد غزت إيبيرية كلها الجزائر، ويعدّ «الإسباني هو

La Cina, ibid. p.30.

Ibid. p.55.

-1

-2

الصنف الجزائري الحقيقي! بارع كما يقول شعاره! جيد في جميع الوظائف، مستصلح أراض، وسائس خيل، وسائق عربية، ونادل، وكاتب عام!¹، إلى جانب هذا كان الإسبان عموما محبوبين، لأنهم يصنعون الفرجة بمرحهم ورقصاتهم وغنائهم. أما الفرنسيون فعقدة الاستعلاء وأنانية الأقوياء جعلتهم ينفرون من ممارسة المهن البسيطة والشاقة، ويسلمون إدارة أملاكهم وخدمة أراضيهم للمهرة الإسبانيين والإيطاليين استغلالا لبؤسهم وفقرهم، كان الجميع يكرههم مثلما يكرهون اليهود ويجهرون بمعاداة السامية، إلا أن اليهودي، على الأقل، كان يحسب له النجاح في توفير رأس المال الجزائري، لذا كان من الصعوبة بمكان زحزحته من المشهد السياسي، دفع هذا الأمر بعض المفكرين مثل كاديم كوهين إلى طرح نظرية وحدة الشعوب السامية كالمالطيين واليهود والعرب وبعض المستوطنين الذين تشبهوا بهم، وحدة الشعوب السامية الجزائرية التي تتشابه في العنف.

يربط لويس برتران بين روايته الأولى "دم الأعراق" والثانية "السينا" من خلال شخصية رفايل بطل الرواية الأولى الذي يمثل الجيل الجديد من البتاويت المولودين بالجزائر، يقدمه كفتى جزائري قوي، يحمل الملامح نفسها، حاد المزاج ومندفع، يعمل سائق عربات لدى ميشال. والذي تنتابه سورة الغضب من المهاجرين الإسبانيين الجدد، الذين جاؤوا هم أيضا لينافسوا أبناء البلد، الأوروبيين الذين ولدوا في الجزائر، لقمة العيش، إذ كانوا يقبلون أي عمل مهما كان أجره زهيدا، ويعملون في كل المهن تحت أي ظرف دون احتجاج. هاجمهم ووصفهم بكل الصفات القبيحة ليشفي غليله، لصوص، وعرق لعين، وجائعين، وكومة من المقملين، ورؤوس معتوهين. أمام تلك الوضعية الاجتماعية الجديدة، رأى السارد أن واجب الفرنسيين «هو البقاء [في الجزائر] لتربية هؤلاء الفقراء [...] على الأقل لتشغيل السواعد التي تتطلع فقط للعمل!»²، وهذا يبين أن

La Cina, ibid. p.57.

Ibid. p.65.

-1

-2

المركز الأول في التسلسل الهرمي كان يحتله الفرنسيون، ويتصرفون سادة على العمال الذين كانت غالبيتهم من الإسبانين والإيطاليين والمالطيين.

من المسائل العويصة التي كانت تهدد لحمة المجتمع الجديد كما كان يتصوره المتجزئون هي النزعة العنصرية والتفرقة الطائفية بين مختلف الأعراق اللاتينية والطوائف الدينية كالمسيحية الكاثوليكية والبروتستانتية، واليهودية؛ والمذهبية كالعلمانية، والفوضوية، وحتى الماسونية لها أنصارها. لم يستطع السكان المختلفون أن ينصهروا في بوتقة واحدة، وينسجموا في نسق ثقافي مشترك دون أن يذكر بعضهم بعضا بأصوله، فقد احتفظت كل طائفة بلهجتها وتقاليدها، وسكنت أحياء منفصلة حتى تحافظ على خصوصيتها، لا سيما الصراع بين الفرنسيين والإيطاليين نتيجة اختلاف التوجهات والغايات كل واحد يريد أن يقصي الآخر. تجسدت هذه العنصرية في رأي ماسكري حينما قدم لميشال انطباعاته عن تشكيلة هؤلاء الناس المختلفين، باعتباره إسبانيا عاش معهم ويعرف طريقة تفكيرهم.

كان الأهالي في المجتمع الجديد مغيبين تغييبا قسديا، ورجالهم مخنثين يعملون خدما عند المستوطنين، يمثلهم «قدور، الشاوش بخصر نحيف لفتاة صغيرة[...] سترته الوردية موشاة بالذهب»¹ يعمل خادما في بيت ميشال، وأحمد الحوزي الموريسكي، بدا مستقيما للغاية في سترته المطرزة، سترته الخضراء مثل التفاح مزينة بالفضة. أو شهوانيين معقدين، نظراتهم إلى النساء جريئة، حيث «احمرت[سينا] تحت ناظري أحمد، عملاق بشفتين شهوانيتين كبيرتين، حيث كان يحدق فيها بوقاحة»²، وإهانة رئيس الأساقفة ماجور بويغ خادمه الشاوش علي. والاستخفاف بمعاناة النساء العربيات في زمن المجاعة التي أهلكت الإنسان والحيوان، فقد رأت "سينا" في المنام كابوسا ظهرت فيه هؤلاء النسوة همجيات، في صورة شيطانات مرعبة هاجمت مستوطنين، سردت تفاصيل عن هيئة نساء أولاد نايل المخيفة: «نساء أولاد نايل ذوات وجوه

La Cina, ibid. p.42.

La Cina. p.87.

-1

-2

بشعة للغاية، بلامحهن المسحوقة، وضمائرهن الوحشية الكبيرة [...] كن يومئذ مثل الشياطين، ويصحن باللغة العربية أن تضورن جوعا، ويردن أن يأكلن. انتزعن مؤننا وملابسنا ومجوهراتنا...¹، ولا ريب أن الكاتب أراد أن يستثمر ما قرأه في كتب الرحالين، ويعيد صورة النايليات الجاهزة في المتخيل السردى الرحلى.

عامل الاختلاف الثقافى ترتب عنه فكرة استحالة إدماج العرب فى المجتمع الجديد، والدعوة إلى «مطاردتهم كما طارد الأمريكيون الهنود الحمر!»²، وفق أطروحة الحداثى دوتوكفيل الاستعمارية، وتصفيتهم بلا رحمة كما قتل بعض الضباط المتطرفين الأهالى بوحشية تضاهى وحشية الأوروبيين ضد هنود أمريكا، وأحرقوهم جماعات فى بداية الغزو، وإيهام الشعب الجديد بأن هذه الإبادة من أجل ضمان أمنه ومستقبله، فتولدت أخلاق الكراهية والحقد ضد الأهالى، وإثارة الهوس المعادى للسامية للإطاحة باليهود وطردهم هم أيضا من الجزائر. «فى شارع لا لير، التقى ميشيل بنفر منهم، على الرغم من عدائية الشعب، كانوا يسارعون نحو الكنيس. لقد شعر أكثر فأكثر بالغبرة وسط هذه العادات التى كانت بعيدة كل البعد عن عاداته. لقد شهد كل ما رآه سرايا من الماضى، ولما رجع إلى نفسه، اندهش من الشعور نحوهم بالسخط والاشمئزاز»³ تحت تأثير أفكار كارملو العنصرى التى دفعت الشعب إلى الانتفاضة ضد اليهود. بالإضافة إلى ذلك هناك أفكار أخرى جاهزة، مثل تصنيف البربر فى خانة الأعراق الكلتيّة، لإبعادهم من الشعوب السامية كالعرب واليهود.

من مقومات التجزؤ عند برتران أن أصبحت الجزائر أو إفريقيا كما كانت تسمى، البلد المتبنى والمفضل لدى المستوطنين الأوروبيين، وهو الرأى الذى تبناه واقع شخصيات الرواية التى تشكلت تصرفاتها وعاداتها على الطريقة الجزائرية ذات الثقافة الشرقية والإسلامية، تعبر "سينا" لميشال عن حبها لبلدها الجزائر (إفريقيا): «أوه! إفريقياي! إفريقياي! ... لا يوجد سواها!

La Cina, ibid. p.124.

Ibid. p.190.

Ibid. p.281.

-1

-2

-3

إنها لنا يا حبي!«¹. تعيش بصفتها امرأة جزائرية كبرت بالأغواط، وتجلس القرفصاء مثل النساء العربيات، ومثل «جميع بنات الشرق، كان لديها شغف خرافي بالحجارة الكريمة»²، ولا ترى حرجا في أن تخلص للعبيد أو أن يتدخل أحد الخدم في شؤونها. من جهته يؤكد ميشال إحساسه بالبنة نحو الجزائر، البلد الذي ضحى والده الضابط من أجل أبنائه وأحفاده، مؤكدا: «إفريقيا بلدي»³، كلهم جزائريون السيدة دينو تفكر على الطريقة الجزائرية، والخيل تعدو تبعا للطريقة الجزائرية، والخدم الإسباني ماريوس جزائري، يشبه شخصية كاغايو في سوء أخلاقه وسلوكه، يتصرف مثل أي محتال يتكلم لهجة البتاويت بصوت عال ويضرب الصغار.

في سياق الجدل القائم حول الجزائر المستعمرة بين فرنسيي فرنسا والمستوطنين، فعلى النقيض من أنصار الجزائر الذين تعلقوا بالجزائر كبلد بديل للعيش في أمان من الفقر، استصغر فرنسيو المتروبول الذين حلوا ضيوفا على بيت ميشال من مكائنتها باعتبارها مستعمرة تابعة للإمبراطورية الفرنسية، ليس فيها ما يثير الفضول والإعجاب سوى مظاهر غرائبية مبتذلة وغلاء فاحش، إنما هم جاؤوا فقط من أجل الاستشفاء. قال أحدهم متهكما: «لا أجد بلدكم مثيرا للاهتمام على الإطلاق! [...] أولاً وقبل كل شيء، إنه غير صحي. إن مدينة الجزائر مقرزة، والفنادق باهظة الثمن [...] أسعار الإنجليز وطعام القبائل! [...] وسياستكم! لا نجرؤ على حشر أنوفنا فيها!»⁴.

انتقدوا الحالة السيئة التي كانت تمر بها البلاد والطرق التي اعتمدها أولو الأمر في عهد الجمهورية الثالثة، بسبب كثرة الصراعات بين المستوطنين الأوائل والوافدين الجدد حول الحكم وشؤونه، والسعي إلى تهميش الأهالي العرب واليهود في كل ميادين الحياة لأنهم نذير شؤم. فكان الرد مشحونا بالاستعلاء والعداء والعنف عرى به أصحاب الفكر الأرسطراطي

La Cina, ibid. p.74.

Ibid. Pp.91,92.

Ibid. p.78.

Ibid. p.175.

-1

-2

-3

-4

الإمبراطوري، والإيديولوجيا الغربية الإقصائية ضد الساميين، وكراهية الإنجليز المنافس المباشر للفرنسيين: «سنستفيد من كوننا سادة، لنعطي بصمة لهذا الشعب الذي لا يزال شمعاً ناعماً. من خلال استغلال الحقد الوراثي لليهودي، سنفعل ما نريده فيها! أكرر، الشيء المهم هو التخلص من اليهود، ثم الجمهورية!»¹.

تعاظمت العدائية عند المستوطن الأوروبي ضد الأهالي المقموعين بشكل همجي، بينما تسامت الغنائية الزاخرة بالعبارات الجميلة في وصف الطبيعة المتوسطة الرائعة والبلدان المضئية بالشمس والبحر، كقاسم مشترك على ساحل إيطاليا، وشواطئ الجزائر في تيازة والناطور وشرشال وتتس، وشموخ جبال زكار وشينو وكثافة غاباتها وأدغالها الغامضة، وسعة امتداد مناظرها المتنوعة «كأن السماء نفسها أصبحت أكثر وضوحاً وأكثر ابتساماً لاستقبال الحبيبة... الهواء أكثر رقة يغمر تلال الساحل، وما وراء الجبال البعيدة، كان الفضاء الأزرق فيروزياً، حيث كانت السحب البيضاء الناعمة تتجرر»². كان للبحر والشمس مكانا خاصا في فصول الرواية، تجلى وصفهما كمظهرين طاغيين على المناخ المتوسطي المعتدل.

بيبات المحبوب³، هي الرواية الثالثة في السلسلة الجزائرية لبرتران وأضعفها فنيا، اعتمد فيها أسلوبا بسيطا عكس الروايتين الأوليين، فاتخذت طابعا فكاها ساخرا تجلى في ذكر العيوب الخلقية والخلقية، "فانسانت الثخينة، بيبات الأحول، مارت الطويلة، وغوليات العملاق، وفكتور خيشوم الأرنب، بعضها تحول إلى لقب يثير الضحك، وتعرف به الشخصية. استهل حوادثها بالوصف الجغرافي الذي ميز ساحل مدينة الجزائر في بداية القرن العشرين،

وكان التركيز على المظهر الاجتماعي لأحيائها الجديدة وأزقتها القديمة، شارع لا لير (بوزرينة)، وشارتر (عمار علقمة)، تعكر جمالها بعض الأوساخ والقاذورات المنتشرة في

La Cina, op.cit. p.196.

La Cina, ibid. p.71.

Louis Bertrand, Pépète le bien-aimé, Modern-Bibliothèque Arthème Fayard et Cie, Éditeurs, Paris, 1909.

Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

-1

-2

-3

الشوارع والشواطئ. الإطار المكاني العام للرواية يشمل أماكن كثيرة من أعلى المدينة إلى أسفلها، من شاطئ الرايس حميدو والثغريين والقصبة إلى باب الوادي وساحة الحكومة وباب عزون، وأماكن العبادة التي تحدد أهم الطوائف الدينية المتعايشة، تهميش الإسلام بإشارة خفيفة إلى المسجد الكبير وكنيسة السيدة الإفريقية وطقوسها من خلال كلام الشخصيات والأدعية ورموزهم المقدسة مثل، القلب المقدس، والقديسة تيريز، وتمثال المسيح. وتقديم المسيحية على أنها الدين الرسمي للمجتمع الجزائري الذي يسيطر عليه المستوطن الأوروبي.

يتابع السرد يوميات أفراد المجتمع المختلط المكون من أعراق وثقافات عديدة يتحدثون لهجة صبير التي تستعمل كلمات عربية ومحلية مثل "مهبول، وقهواجي، ولوبية، وكسكس، وقفطان"، ويشير إلى مجمل العلاقات الإنسانية التي صبغت هذا المجتمع الغريب. بطلها پيپات¹ * واحد من جيل البتاويت الذين غصت بهم أحياء مدينة الجزائر، شاب إسباني الأصل وسيم ومحبوب ومرح، يعيش مع والدته العجوز تيا سنسيون، ويشغل صياد سمك السردين. أصدقائه ومعارفه هم أيضا من الطبقة الشغيلة، أغلبهم يعمل في مهن بسيطة كالتجارة والبناء والصيد البحري والترصيص وسياسة عربات الخيول والمقاهي، يلتقون في "مقهى المستعمرة" الذي جمع الأشتات للعب والحديث، وحل القضايا والمشاكل.

كان البطل محل إعجاب الناس نظرا لوسامته وطول قامته وخفة ظله مع الجراءة، يمضي وقته في العبث مع سيدات المجتمع الراقي وبنات الهوى، ينتقل من بيت إلى بيت. دخل پيپات في علاقة غرامية مع "فانسانت" امرأة ثرية فساعدته بالمال ليتجاوز أزمة الفقر، ويحيا دون عمل راضيا بالقدر المحتوم الموروث من دم العرب دون التفكير في المستقبل مثلما كان الحال مع رفائيل بطل رواية "دم الأعراق". ثم اضطر إلى العمل بأجرة واستطاعت أن تسيطر عليه بشخصيتها القوية، فأصبح رغم تبرمه من وقاحتها تجاهه خادما السيدة البورجوازية ولعبة في

¹ * پيپات تصغير اسم "پيپ" Pepe والذي يعني "يوسف" بالإسبانية.

يدها بسبب السحر الذي كانت تلجأ إليه بواسطة خادماتها اليهودية. كانت تقوم بذلك تحت تحريض الروايات المسلسلة الغرامية التي كانت تقرأها في الكتب باستمرار لملء الفراغ، ليبين السارد علاقة الأدب بالمجتمع وتأثيره على سلوك الأفراد، ومن ورائه السرديات الاستعمارية التي كانت توجه الأوروبيين لتقبل الممارسات الوحشية ضد الأهالي تحت غطاء الحضارة.

قدم صورة بارانومية عن أصناف النساء المستوطنات وطبقاتهن في المجتمع الجزائري الجديد من كل جنس وشكل ولون، فهناك السيدات الراقيات والخاديات ومتوسطات الحال، والأوانس والأرامل، والعفيفات والمستهترات، والجميلات والبشعات، والهادئات والمسترجلات. والاستعلاء كان من نصيب الأرملة ميكو الفرنسية وابنتها أنجيل، اللتين لا تخالطان سكان الحي غير الفرنسيين عدا والدة البطل المحبوب العجوز أسونسيون، تتجنب الاختلاط بهم، و«كونها فرنسية جعلها متفوقة على ذلك العالم. ما هي المهنة التي يمارسها كل هؤلاء الرجال؟ سائقو عربات، صيادون، بائعو خضر، معظمهم فظ، ثقيل، دون تمييز. وكان زوجها صانع أثاث رفيع. كم كان أكثر ارتفاعاً ونظافة، ومجاورا تقريبا للفن»¹.

دلالات عنصرية تجاه الأهالي حاضرة في سردية الآخر التي جعلتهم مجرد ديكور، يعكسها المجاز القدحي المكثف بمعاني التهكم من العرب والقبائل، واحتقار ثقافتهم ولباسهم وطعامهم وهيئتهم ونظافتهم. شيايا شيايا سائق عربات يريد أن يذهب إلى حفلة تنكرية في زي بيكو، ويزدري ببيبات زي العرب بوصف البرنوس باللباس القذر الذي يرتديه الأهالي في المقهى الموريسكي، ويوجه إهانة لمسعود القبائلي الذي لا يستطيع ردها لأنه مغلوب على أمره، ونعت الزنجي الطيب موريكو. وتجلت في السخرية من سلوك اليهود الذين أخذوا يحاكون عادات الأوروبيين، لممارستهم أنواع السحر. تجسدت المعادة في شخصية اليهودية نعومي التي تعمل منظمة عند مستوطنة فرنسية، وتلبس ثيابا بالية وقذرة، وتتعطر على الطريقة

¹ Charles Taillart, L'Algérie dans la littérature française, op.cit. p.536.

الأوروبية، وتترين بالذهب على عادة نساء الأهالي، وزوجها نبوتٌ بائعٌ جرائد ساذج، وسذاجة قريبه غوليات العملاق، شاب غريب الأطوار، بليد وبغيض، يخدم السيدة فانسانت. والتجارة من الأعمال التي يمارسها اليهود بكثرة لأنها تتطلب الحيلة والدهاء إلى جانب السحر الذي ارتبط بهم، وتبدى في شخصية الساحرة اليهودية زيزا.

3.2.1- روبير راندو: تصوير العرق الجديد في إطار الواقعية الجزائرية

نشأ روبير راندو¹* في أحياء تميزت بتعايش أفرادها من مختلف الأعراق الأوروبية، إضافة إلى الأهالي المسلمين واليهود. «هو أب تيار من الأفكار القوية المرتبطة بالوطن الجزائري»²، والمتمثلة في مشروع الجزائر، نادي بأطروحة الانفصال عن فرنسا المتروبولية، وإنشاء جزائر مستقلة، وأدب جزائري أصلي يصنعه المستوطنون الذين ولدوا فيها وعاشوا على ترابها بعيدا عن الأدب الذي يكتب خارج أرضها. كان له الفضل في تبلور مشروع الجزائر المؤسس على أطروحة تجزؤ الأوروبيين، حيث يكون ولاؤهم للجزائر الجديدة، وانصهارهم مع الأهالي في هوية واحدة، جسدها سلسلة الوطن الجزائري من أعماله الروائية، وخاصة ثلاثيته الجزائرية "المستوطنون" Les Colons 1907، و"المتجزئون" Les Algérianistes 1911، و"كسار البربري" Cassard Le Berbère 1921³.*

¹* روبير راندو (1873-1950)، واسمه الحقيقي روبير أرنو Robert Arnaud، ولد في شارع مصطفى بمدينة الجزائر لأبوين من قدامى المستوطنين الفرنسيين. التحق بالمدرسة الاستعمارية واشتغل في إدارتها. يعد المؤسس الفعلي لحركة المتجزئين، وكان متعلما شغوبا بالتاريخ والأدب، ويتحدث العربية والقبائلية بطلاقة وتزوج قبائلية. كان غزير الإنتاج، ألف كتبا كثيرة بلغت ثلاثين عنوانا، عن الجزائر المستعمرة Les Explorateurs في 1911، منها أعمال سردية عن عادات اليهود في الجزائر مع الكاتب سعدية ليفي رواية Rabbin في 1896، ومجموعة قصصية Onze journées en force في 1902، وعن إفريقيا السمراء L'Aventure sur le Niger في 1913 بالإضافة إلى كتب أخرى.

² - Robert Randau, les Colons, roman de la patrie algérienne, Présentation de Raïd Zaraket, L'Harmattan, 2007. p. vii. <http://www.librairiehamattan.com>

³* وله أيضا رواية الحياة الاستعمارية "زعيم حاملي القلم" 1922 "Le Chef des porte-plume"، و"الأستاذ مارتين بورجوازي مدينة الجزائر الصغير" Le Professeur Martin, petit bourgeois d'Alger في 1938.

كتب راندو في مجال العلوم الإنسانية، السوسولوجيا والإثنولوجيا والأنتروبولوجيا والأدب، خصص هذه الكتابات لشرح وضع الجزائر بالنسبة إليه باعتبارها بلده بالتبني ومسقط رأسه، ووصف بشغف تقاليدھا وأعرافھا المتعددة بخلفية استعمارية تحتفي بالواقع الاستعماري أكثر من شرح وضع الأهالي. وقد «عرف في التاريخ الأدبي بأنه زعيم الجزائر، أو ما يمكن تسميته بالحركة الرؤيوية للجزائر، لأنه في الواقع يتعلق بمفهوم حقيقي للجزائر دافع عنه المؤلف»¹، فكان تأسيس هذا التيار تحت اسم "جمعية الكتاب الجزائريين" 1920 مع صديقه جان بومييه، الذي أوضح غاية هذا التيار الحقيقية في مجلة "لاغرون روفو" 1923: «(...) ما الواجب الأدبي الجزائري؟ استعمار الجنس الجزائري (المتفرنس إذا أردنا) أخلاقيا، ومن سيكون هذا الجنس؟ سيكون عرقيا في كل شيء إلا فرنسي العرق، ولن يكون أي شيء أخلاقيا إلا فرنسي الأخلاق. إن الجزائر سوف تخلد ثقافة فرنسية أو لن تكون. ولذلك علينا، نحن كتاب فرنسا هذه، أن نضطلع بهذه المهمة المنوطة بنا، من الأرواح المحرومة المختلفة المشارب: علينا أن نقوم بخلق عقلانية، ونشر ثقافة، وإعداد وحدة الروح. ذلك هو، في اعتقادنا، الواجب الأدبي لفرنسي الجزائر نحو أبنائه الروحيين، متفرنسي الغد»². وعلى هذا الأساس يعتبر بومييه المؤسس الفعلي لهذه الحركة.

كما أنشأ المتجزرون في سنة 1921 "جائزة الجزائر الأدبية الكبرى"، و"مجلة شمال إفريقيا" التي ترأسها العقيد غودشو، و"إفريقيا اللاتينية" المستلهمة من أطروحات لويس برتران، لتكون منابر ثقافية لبث أفكارهم الاستعمارية ونشر إسهاماتهم الأدبية المروجة لها. عد المتجزرون برتران أبا روحيا للحركة، يلتمسون منه كتابة مقدمات لمؤلفاتهم، منها مقدمة كتاب منتخبات 13 كاتباً جزائرياً، أو إفريقيا، ومقدمة رواية لويس لوكوك "مولوك" Moloch في 1932. يقول بومييه شارحا مفهوم التجزؤ كتيار أدبي: «التجزؤ هو أول ظهور لجيل فرنسيي الجزائر

Robert Randau, les Colons, roman de la patrie algérienne, op.cit. p. x.

-1

Voir: Sakina Messaadi, Les Romancières coloniales et la femme colonisée, Contribution à une étude de la littérature coloniale en Algérie, op.cit. p.24.

-2

على ساحة حياة البلد الأدبية مع ميزات أكبرهم سنا، وروبير راندو، وشارل هاجل، ولويس لوكوك، وألبير تيسست وآخرون أيضا»¹.

في سياق الجدل الحاد حول مستقبل الجزائر المستعمرة بين دعاة الانفصال عن الوصاية الفرنسية ودعاة الإدماج والبقاء تحت معطفها الاستعماري، يقدم الكاتب رؤيته الخاصة عن الشعب الجزائري الجديد في ثلاثيته الجزائرية، و«من الواضح أن الجنس الناشئ الجديد - والذي هو بطبيعة الحال محظوظ بما يكفي لقيادة هذه المهمة الحضارية للغاية - ليس سوى عرق "المستوطنين"»². يشرح في الرواية الأولى "المستوطنون" الأصول اللاتينية للجزائر انطلاقا من فكرة إحياء العرق اللاتيني المطمور تحت الأطلال الرومانية في راتن (تنس حاليا). يصف أحوال المجتمع الجديد المتكون من امتزاج المستوطنين بالأهالي، واحتكاكهم بالثقافة الجزائرية والأعراف والعادات والتقاليد. بينما التيمة المحورية تتناول قضية انتزاع الأرض من الأهلي لصالح الأوروبي المهاجر، «بطلها، المستوطن الكبير، جوس لوفيو»³. استغنى بفضل "الحيل"؛ ساعده القايد أحمد البخيل مثله [...] وسمى نفسه سي قدور»³، واستطاع أن يحصل على ثروة هائلة على حساب الأهالي. وصف علاقات المصاهرة خاصة بين العرق الأوروبي والبربري، فلما مات المستوطن الفرنسي العجوز جوس لوفيو تزوج ابنه هنري الطبيب الذي تحول إلى مزارع رومان شقيقة كسار البربري الذي تزوج هيلين لوفيو أرملة ابن أخ جوس وأصبح الجميع خدما لمشروع الاستيطان.

وفي الثانية "المتجزئون" استحدث مصطلح التجزؤ الذي سمي به حركته الأدبية، ونحت مصطلح المتجزئين الذي جعله عنوانا مستقطبا للرواية، لتعيين فئة المستوطنين الذين اتخذوا الجزائر موطنًا وانتسابا. وفي الثالثة "كسار البربري"، يبسط هذه الفكرة المحورية عن اللاتينيين

¹ Fadhila Yahiaoui, Roman et société coloniale, Dans l'Algérie de l'entre-deux-guerres, op.cit. p.62.

² Nacer Khelouz, Les Colons, Article publié le 11 juillet 2008, Revue d'Art et de Littérature, Musique, Espaces d'auteurs. Consulté le 08.10.2020 -17:30.

³ <http://www.lechasseurabstrait.com/revue/spip.php?article2092#>
Roman et société coloniale, Dans l'Algérie de l'entre-deux-guerre, op.cit. p.24.

الجدد، والدعاية للعرق اللاتيني - البربري. و«تهدف الاثنتان الأخيرتان في المقام الأول إلى الترويج لفكرة الإرث التاريخي الذي يتجاوز الغزو الاستعماري للعصر الحديث»¹.

تصور الرواية الثانية "المتجزئون" جيل المولّدين من أهالي جزائريين وأجانب في مدينة الجزائر، بطلها "كسار" رجل أعمال جزائري بربري يهوى الأدب. والبطلة صوفي بيترهوف كاتبة روسية تلقب سي يحي، استلهم اسمها من كلمة "الصوفية" المأخوذة من طريقة الإخوان الصوفية التي انخرطت فيها. عاشت ظروفًا قاسية، ومغامرات شاقة وصعبة، مليئة بالمفاجآت والصدمات إلى أن توفيت في حادثة مأسوية، أحببت رجلاً عربياً مسلماً من فرقة الصبايحية في واحة الوادي فأسلمت وتزوجها. هذه الفتاة الروسية التي تجزّرت، ومثلت الجيل الجزائري من الشعب الجديد الهجين هي إيزابيل إبرهارد (سي محمود السعدي).

في الرواية الأخيرة "كسار البربري"² ينبش راندو في التاريخ القديم، ويفتح من بين دفتيه صفحة من صفحات الصراع الديني الذي ربط بين الشرق والغرب في القرون الوسطى المسيحية، لتكون مدار بداية الأحداث السردية. تخيل السارد أن الفاتحين المسلمين انطلقوا من المغرب الإسلامي ووصلوا إلى ساحل فرنسا الجنوبي عن طريق إسبانيا، واستقروا في مقاطعة بروفانس عند المكان المسمى باسمهم "الموريسكيون"، بعدما استتفروا أهله منه بممارساتهم البشعة واستولوا عليه بالقوة. أقاموا هناك في تلك الجبال ردحا من الدهر وشيدوا الحصون والقلاع في القمم، فسماهم البروفانسيون "ناس القصر"، ونظرا للحن الذي طرأ على الكلمة باللهجة البروفانسية اختصر نطقها إلى "كسار"، وتعمت هذه التسمية على كل من انحدر من هذا العرق البربري الشرس الذي ظل متشبثاً بأخلاقه الوحشية وذهنيته الصلبة وبدائيته أحقاباً، رغم أنهم عاشوا مع الأوروبيين وتعرفوا على الحضارة الغربية.

Nacer Khelouz, Les Colons, op.cit.

Robert Randau, Cassard Le Berbère, Editions de Belles-Lettres, 1921.

-1

-2

كان أبناء القصر أو الكسار رجال نهب وسلب وانحطاط، فعندما نشطت القرصنة في القرن السابع عشر، انضم أحدهم إليها فأصبح قرصانا، أثار الرعب في سواحل البحر المتوسط. اتصل كسار القرصان أثناءها بباي قسنطينة وربط معه علاقة صداقة متينة، فأهداه برجا على الساحل الشرقي لإيالة الجزائر؛ حشد فيه العبيد والنساء والأشياء، لكن اختطفه المسيحيون فأعدم في مارسيليا وصار البرج إلى الإهمال. ولما غزا الاستعمار الفرنسي الجزائر في القرن التاسع عشر «عاد آخر أحفاد المسلمين الذين هاجروا إلى فرنسا قبل ألف عام، مدفوعا بنفس الغريزة التي تعيد الوحوش البرية الضالة إلى حظائر الأجداد، ليستقر في المكان الذي عاش فيه عرقه، وقاتل، وتطور، وسقط تباعا. منذ أقدم العصور»¹. كسار الذي كان صبايحيا في فريق الجنرال يوسف استعاد ملكيته، وأعاد إليه مكانته اللاتقة، ثم مات وتركه لابنه كسار الصغير. ورث بطل الرواية كسار الأخير، هذا البرج المهمل، فحوّله إلى قصر منيف تحيط به حدائق جميلة وبساتين من الكروم. هذا البربري المتحضر والمتقف على النمط الأوروبي ارتبط بهيلين امرأة جزائرية، مستوطنة مولودة بالجزائر. يعيش كسار فلاحا بربريا في الريف الجزائري؛ يعيش الأدب وينزوي في مكتبته لتأليف روايات. كشفت له صديقه سوزي عن بغضها للجزائر ونفورها من حياة الشرقيين، ورغبتها في الرجوع إلى فرنسا حيث تربت على التعالي على الآخر. فشخصية هيلين ترمز للجيل الفرنسي المختلط في الجزائر، بينما جسدت شخصية سوزي ثقافة الاستعلاء عند فرنسي المتروبول. تتنازعان كلتاها على قلب البطل كسار البربري الذي يرمز إلى الجزائر، البلد اللاتينو بربري الجديد.

استمد الكاتب اسم البطل من "القصر" وسمّاه محرّفًا "كسار"². ودلالة الكسر هي المقصودة لتكون رمزا استعاريا للعرق البربري المتخلف الذي انحدر منه البطل المنكسر الهوية. ومن خلال

¹ Robert Randau, Cassard Le Berbère, op.cit. Pp.19,20.

²*لفظ يحمل بالعربية معنى سلبيا ومناقضا وهو الكسر أي الهدم والانحدار، وله الدلالة نفسها في التعبير الفرنسي، مأخوذ من الفعل كسر casser، ثم اشتق منه الصفة كسار (cassa(rd)، ومعناها الهش والضعيف، وسريع الكسر. ينظر الرابط التالي: Voir: <https://www.cnrtl.fr/definition/cassard>

هذه الشخصية الروائية يكرس راندو مبادئ نظرية الجزارة التي تناولها من قبل في رواية "المتجزئون" المتمركزة حول الذات اللاتينية، والتغني بالجيل المتوسطي الذي ينتمي إليه كسار ويميل عاطفة ومذهبا.

ويستمر تجذير انتماء المستوطنين المستقرين إلى الجزائر، في قوله: «لكن كسار قبل كل شيء، متجزئ»¹، فقد حارب جان كسار من أجل فرنسا، ولكنه ينتمي إلى ذلك الرعيل الأول من عرق الغد العظيم الفخور بكونه متجزئا، فالهوى فرنسي والأرض جزائرية: «لا، نحن نتباهى بأنفسنا لكوننا لسنا انفصاليين. هذه هي الإهانة التي يلقيها الأغبياء علينا بشدة؛ نقف عندما تكون فرنسا بحاجة إلينا ونهاجم ونضرب بشدة عن طيب خاطر؛ لكننا نطالب بالعناية بشؤوننا الصغيرة بأنفسنا»². هناك أسماء شخصيات نسائية قريبة من البطل، اختارها راندو بعناية لتساهم في الترويج لأطروحة العرق اللاتيني المسيحي، مثل "رومان" اسم أخت كسار وزوجته "هيلين"، الاسم الذي يحيل إلى الإمبراطورة هيلين والدة الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول والقديسة الكاثوليكية. ورئيسة الخدم أنكرناسيون، وهو اسم إكليريكي لاتيني يعني تجسيد وتمثل جسدي للمسيح عند الطائفة الكاثوليكية الرومانية في الديانة المسيحية. وفي المقابل هناك شخصيات تحيل أدوارها إلى العرق البربري المتوحش، مثل اسم محند صائد حيوانات إفريقيا المفترسة، حيث أشار السارد إلى وجود فهد في الناحية الغابية لقصر المستوطن كسار ليستعيد أسطورة الوحوش الضارية في الجزائر.

إن تكرار مشاهد الضيوف المرعبة من الضواري ووصف البراري الموحشة؛ يضاف إليها العادات والتقاليد الاجتماعية، والطقوس الدينية والمعتقدات الغريبة التي يمارسها الأهالي كتصديق معجزات المرابطين، وغيرها من مؤشرات التخلف الحضاري الموصوفة بدقة تامة لتبيين الاختلاف الثقافي بين المستوطنين والأهالي، وتؤكد على استمرار الطابع الغرائبي في

Robert Randau, Cassard Le Berbère, op.cit. p.23.

Ibid. Pp.23,24.

-1

-2

الرواية الواقعية الاستعمارية، رغم أن حضوره كان متكلفاً باهتاً، ومن أجل إرضاء ذوق المتلقي فقط.

أحب جان كسار البربري حفيد الرايس البحري، الذي تعرض سرديا إلى اللوتنة والرومنة، الوطن الجزائري بعنف، ولم تنطفئ لوعة العشق رغم مسافة البعد القسري، فلما عاد إلى الجزائر، بصفته مستوطناً، بعد الغزو شعر بالحنين إلى أرض الأسلاف حتى دمعت عيناه، وأحس بأنه جزء لا يتجزأ من ترابها، وقساوة طبيعتها التي ورث شيئاً منها، فما انفكت نفسه تهفو إلى شمسها وفضائها. فطفق يطوف على ساحلها وفي شوارعها وأحيائها يشاهد بناياتها، ويتنفس هواءها المتوسطي، ويشم روائح طعامها المنبعثة من البيوت العتيقة والمحلات، ويميز نبرة الصلواتش المميزة؛ ويتأمل واقع المهمشين في عناء الحمالين، والأطفال العراة، ونواح النساء الأرامل والثكالي اللواتي فقدن أقاربهن في حروب المستعمر الذي ضيق عليهم الخناق. ويتعدى وجود الأهلي الهامشي في الواقع الاستعماري إلى تغييبه القصدي في السرد، وقمع صوته وإقصاء صورته إلا ككائن تابع للمستوطن يرجو راحته ويُجلّ وجوده، ويضحى من أجله، كما يظهر في هذا المشهد الذي يصف طقوسه البدائية ذات البعد الصوفي القبوري، والمعبرة عن الاحتفال والابتهاج بعودة كسار المستوطن من الحرب إلى البرج، في مفصل نصي موسوم "عند البرابرة": «اشترى الأهالي ثوراً سميناً وسيدبحونه في اليوم نفسه أمام القبة المقدسة لحامي الجبال، شاكرين، لأنه أعاد إليهم سليل الرايس سالما معافى؛ قُدمت هذه الأضحية أيضاً من أجل السيدة هيلين، التي سيعجل شفاءها بلا شك»¹.

بعد عودته إلى البرج بمنطقة القبائل اكتشف كسار المستوطن أنه يختلف حضارياً عن رفاق السلاح الفرنسيين الذين حارب معهم خلال الحرب العالمية ضد أعدائهم الألمان في فرنسا، وأنه ينتمي إلى ثقافة غير ثقافتهم. وهكذا تسللت الروح البربرية إلى فكره وجالت في خاطره،

Robert Randau, Cassard Le Berbère, op.cit. p.64.

-1

فعرف أن أصله البربري جعله يتعاطف بشكل طبيعي مع الأهالي المهزومين الذين استقبلوه بحفاوة شديدة، «لقد أصبح مرة أخرى قائداً في سلالته؛ كان في توافق تام مع عقلية ضيوفه، الرجال الأشداء ذوي اللحى السمراء، والملاحم الصلبة، والإيماءات الجادة والبطيئة، والبنية الثقيلة، الذين احتفلوا به لأنه، وفقاً لقلوبهم، كان رجلاً عملياً»¹. لكنه ظل مستوطناً جزائرياً موالياً للمستعمرين في نظر الأهالي المتمردين من عرب السهول تحت إمرة المرابط الشريف موسى الذي قطعت رأسه، وزعيم الثائرين الذين أغاروا على المزرعة وما فيها من خيرات منهوبة يستمتع بها الأجانب الوافدون.

كان الصراع على أشده بين الضدين بسبب الأرض وثرواتهما، بين كسار البربري مع الجنود الأوروبيين ضد العرب الثائرين الذين يقبونهم بيك وبيكو، على الوضع البائس الذي صاروا إليه بسبب جشع هؤلاء المستوطنين، وظلم الحكومة الاستعمارية التي حملتهم أعباء ثقيلة من الضرائب وعناء السخرة، واستولت على حقولهم، بالتالي كانت الحرب بين حضارتين مختلفتين لفرض ناموس الهيمنة على الآخر. وفي هذا المضمار يطرح الكاتب قضية عنصرية تميز هوية القبائل عن العرب الغزاة الذين جاؤوا من الشرق للاستيلاء على بلاد البربر بالسيف؛ وعلى أن العرق البربري قريب من الأوروبي ذكاء، وهما معا سيؤسسان للجيل الجزائري الجديد في القرن العشرين. ونظراً لخصائص التشابه بينهما يشرح مستوطن من البتاويت قابلية التمازج بين العرقين البربري واللاتيني في الجزائر قائلاً: «مع أهل القبائل، كما يقول جابي الضرائب، الأمر مختلف؛ أذكاء مثلنا. مع أربعة ملايين منهم ومليون فرنسي في الجزائر، غداً، هذا سيصنع شعباً، إيه. وستكون هذه نهاية المآسي التي تأتينا من باريس»². أجد انعدام المساواة بين الطوائف والبيروقراطية مشاعر العداوة والكراهية بين السكان المختلفين، ودفع التمييز العنصري كسار

Cassard Le Berbère. p.72.

Ibid. p.158.

-1

-2

المتحضر إلى التفكير في العدالة كحل ضروري للجميع من أجل ازدهار البلاد، وفي مصير الأهالي الذين يشكلون أغلبية السكان في الجزائر.

لم يسلك راندو سبيل الكاتب ميزات من الناحية الفنية في اعتماد لهجة البتاويت وسيلة لوصف فئات المجتمع الاستعماري الهشة اعتمادا كلياً، ولم يسر على نهج لويس برتران في استخدام الفرنسية الكلاسيكية فحسب، وإنما حاول المزج بينهما، وإن كانت لغة الوصف كلاسيكية خالصة، والحوار يغلب على لغته التعبير العامي الهجين الذي يتخاطب به مستوطنو أحياء المدينة الأوروبية. فقد استعان بقاموس البتاويت للكشف عن ثقافة مختلف الأعراق التي تعيش في المجتمع الجديد المخطط له، وينبئ عن تصرفات شخصياته وطبائعها، مثل كلمة "باروفا" (الشجار).

يتبدى الحضور الخافت للثقافة العربية الإسلامية في لغتها من خلال كلمات العامية الجزائرية التي تسللت إلى لهجة الصلواتش والبتاويت، مثل ذلك، "كربي" ومعناها وحق ربي، وطايبية أي جيدة، وبابا الوات¹ * أي باب الواد؛ والطعام (الكسكس)، وبلاد، والبرج، والقصر، والفندق وغيرها، والكلمات البربرية مثل تويزة (أصلها ثيويزي، تطوع). غير أنه لم يمسك عن نقل الصور النمطية التي جمدت الأهالي في مرتبة دونية لإظهار تفوق الغرب الهائل، حيث تناول تيمات مكرورة ونمطية عن بداوة السكان وتخلفهم الفكري، وتعصبهم الديني الأعمى ضد المسيحيين، والإيمان بالخرافات، وطقوس تقديس المرابطين والأضرحة، ووصف بيوت القصب المشبوهة وأخلاق نسائها. «إن الجزائر المشار إليها في نصوصه تتغذى على إقصاء المستعمر المحكوم عليه بالكرامة الإنسانية وتجريده من صفاته الإنسانية والتاريخية. كتاباته هي تعبير عن ميله لبناء عالم افتراضي يسكنه "مواطنون" جزائريون من أماكن أخرى أو من المنتسبين إلى اللاتينية.

¹ * بابا الوات papa louette، اسم جريدة أسسها هنري فيوري سنة 1905 بمدينة الجزائر.

أبطالها هم منبوذون أوروبيون سابقون، يعيدون اكتشاف أصولهم التي ستكون جزائرية. إن نفي المستعمر يطبع الخطاب المتجزئ¹.

4.2.1- تدجين الأهلي وجزارة المستوطن: فردينان دوشان والمتجزئون

كتب فردينان دوشان² * Duchêne روايات إثنوغرافية عن تقاليد الأهالي وعاداتهم بأسلوب غرائبي في إطار مسار التجزؤر، نشرها في مجلة حوليات إفريقية ودوريات قبل أن تنشر كاملة في دور نشر مختلفة، ومالت أعماله أكثر إلى المجتمع القبائلي الذي تريد الحكومة الاستعمارية تجنيسه وتنصيره وانصهاره في بوتقة الثقافة الفرنسية. يوجه إليهم خطابا حماسيا في روايته "ثاميلية"، يدعوهم إلى اللحاق بالركب الحضاري الفرنسي: «إلى قبائل جرجرة وجبال أخرى منحدره إلى البحر بين دلس إلى أزقون» [...] أيها السادة المثقفون، إلى الأمام...؟ إنكم متأخرون، تسحبون على طريق الإدماج الذي فتحته لكم فرنسا³.

تحصل على الجائزة الأدبية الكبرى في 1921 على أعماله الروائية الثلاثة، "ثاميلية" Thamilla (يمامة بالقبائلية) 1907، "في سفح الجبال الخالدات، رواية بربرية" Au pas lent des "1922" و "على خطى القوافل البطيئة" 1909 pied des monts éternels، وكان وقتذاك كاتباً مغموراً، وقد أثار حصوله على الجائزة ضجة واسعة، وتعرض إلى انتقادات شديدة من قبل العديد من رجال الأدب والفكر الممتعضين من الفساد الحائم حول أعضاء اللجنة الذين أزاحوا المرشح الأكبر روبر راندو، وكانت ردود الفعل غاضبة وقاسية: «أراد مؤلف السلسلة الجميلة البرابرة "Barbaresques"، الذي جعلنا نتوغل جيداً في الروح

¹ Ahmed Cheniki, La littérature au service du colonialisme. Consulté le :28.12.2020-23

:04. <https://blogs.mediapart.fr/ahmed-chenikii/blog/230720/la-litterature-au-service-du-colonialisme>

² فردينان دوشان Ferdinand Duchêne 1868 - 1956، ولد في فرنسا وجاء إلى الجزائر فاشتغل قاضيا في محاكم الإقليم القسنطيني ببلاد القبائل. أتقن الحديث بالعربية والبربرية(القبائلية)، فأتاح له ذلك التعرف على جوانب كثيرة من حياة العرب والبربر.

³ Hubert Gourdon, Jean Robert Henry, Françoise Henry- Lorcerie, Le roman colonial et l'idéologie coloniale en Algérie, Revue algérienne des sciences juridiques économiques et politiques, Faculté de droit, Alger, Volume XI, N° 1, Mars 1974. p.51.

البربرية، أن يعرفنا بشعب الجزائر، دون أن يفرض على قارئه دراسة طويلة وجادة للغاية، بينما بين له الخصائص الجوهرية للعناصر المختلفة التي تميز السكان المختلطين في شمال إفريقيا»¹. وعُدّ بفضل روحها البربرية ونسقتها اللاتيني المضمّر، رغم حبكتها الفنية الضعيفة، روائيا جزائريا؛ وهذا ما يفسر خضوع لجنة التحكيم إلى ضغوط الاعتبارات الشخصية والإيديولوجية المهيمنة، وتجاهل المعايير الأدبية في منح الجائزة². ف«طبيعة الجدل، تذكرنا إلى أي مدى أرادت حركة التجزؤر أن تكون حركة أدبية ملتزمة بالمشروع الاستعماري، وتطمح إلى الاعتراف الرسمي، والذي لا يتم منحه دائما بشكل عفوي من قبل "جمهورية الآداب"³.

كانت الجائزة حافزا نفسيا إبداعيا بالنسبة إلى الكاتب، شجعت على إصدار المزيد من روايات تصوّر البيئة المحلية، فأتبع دوشان هذه الأعمال الفائزة بعناوين أخرى تصف أخلاق مجتمع الأهالي في منطقة القبائل، وجمعها تحت عنوان واحد "البرابرة" Les Barbaresques، وهي "راعي أكفادو، رواية قبائلية" 1928 Le berger d'Akfadou، و"مغامرة سيدي فُلوس، رواية قبائلية 1929. أراد في "ثاميّة" «أن يرسم مصير المرأة القبائلية، ويبيّن شراسة العادات التي تحكم وضعيتها والنظام الذكوري الذي يعاملها كسلعة. زوّجها والدها لشيخ يدعى "أكلي"، لم تتفع أباهما سوى كشيء للمقايضة، وللدبيع، ولا تعنيه في شيء إلا كمادة لجلب المنافع. تطلّقت وأعيد بيعها، وعانت من كل الانتهاكات الممكنة...»⁴.

"راعي أكفادو، رواية قبائلية"، تتناول مجموعة من العادات والتقاليد في منطقة القبائل في الربع الأول من القرن العشرين، وترسم مظاهر البؤس التي أثقلت كاهل السكان القبائليين تحت

¹ E. Romand, Ceux d'Algérie, Le Mutilé de l'Algérie: journal des mutilés, réformés et blessés de guerre de l'Afrique du Nord. 10-08-1930, Quinzième année, N 476, p.2.

² Voir: Jeanne Adam, Polémiques autour du premier Grand Prix Littéraire de l'Algérie, La situation des lettres algériennes en 1921. In Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°37, 1984. https://www.persee.fr/doc/remmm_00351474_1984_num_37_1_2018

³ Jean-Robert Henry, Résonances maghrébines, in Le Maghreb dans l'imaginaire français: la colonie, le désert, « l'exil. Actes de la Journée d'études, Collection « Maghreb contemporain Centre de recherches et d'études sur les sociétés méditerranéennes, 1985. p.11.

⁴ Charles Taillart, L'Algérie dans la littérature française, essai de bibliographie méthodique et raisonnée jusqu'à l'année 1924, op.cit. p.40.

حكم الاستعمار. تحكي قصة لعبيدي فتى قبائلي وسيم، أصغر إخوته في السابعة عشرة عاما، يعمل في حقول الناس ويرعى الماشية لأبيه، ويحمل معه منجلا يستخدمه في حصد الغلال لكسب المال ونايا للتسلية، يواسيه في أحزانه. يعيش لعبيدي في جبال أكفادو، اشتهر بالشح والادخار والتشرف، يلتزم الصمت كالأبكم، يعمل كثيرا ويأكل قليلا ليصبح يوما غنيا، ويتزوج العكري، والتي طلب منه والدها سي بن قارة مهرا غاليا، ثم زوّجها لمالكي الثريّ. خانت العكري زوجها مالكي وهربت مع لعبيدي فاضطر والده "أحطاب" طرده من البيت العائلي، ثم رجع لعبيدي وآثر البقاء في قريته أكفادو غير مبال بالموت الذي كان ينتظره على قمة الجبل. أطلق عليه أصحابه ألقابا عديدة، المشحاح بسبب التقدير، الحمار بسبب الجهد الذي يبذله، وبوممّاس أي ابن أمّه بسبب بقاءه في البيت وجلوسه مع النساء، وتدليله من قبل جدته لأبيه، لأنه وُلد ضعيف البنية، فنشأ محبا للعزلة، يلعب وحده ويعزف نايه، ولا يضايق فتيات القرية ولا يضربهن، كان يلقب "بالمجنون" بسبب كثرة الصمت وعزف الجواق.

وصف بعض أخلاق القبائليين السيئة من خلال شخصيتين، تحمل الأولى لقب "كرموس" لأنه يمزح مزاحا لاذعا، وكلامه مقذع كالشوك يضايق الآخرين، والثانية لقب "أهدّار"، أي ثثار لأنه يتكلم في كل شيء دون انقطاع، وبوقاطو أي المحامي باللهجة المحلية. أما الأخلاق المحمودة فقد كانت تتعلق بقيمة الوقت والعمل عند الفلاح القبائلي الذي ينغمس في استصلاح أرضه، ويكدح نهارا كاملا دون أن يشغله شيء، ولا يراقب الناس. كما ندد بسوء معاملة المرأة والتمييز بين الجنسين في حال ارتكاب الأخطاء، حيث عوقبت الفتاة العكري بسبب حبها للعبيدي، بينما لم يتعرض الفتى العبيدي للعقاب.

وصف الفضاء الجغرافي الذي ينتمي إليه البطل كما أشار إليه عنوان الرواية: «في زاوية من زوايا بلاد القبائل، في حدود منطقتي القبائل، الكبرى، قاسية، وعنيفة، منطقة تيزي وزو التي تتسلق إلى غاية قمم جرجرة، - الصغرى، أقل خشونة، أقل اضطرابا، منطقة بجاية النازلة نحو

تبابور. أكفادو تنمة لجبال إيعكورن، أختها الصغرى، أختها الأكثر ليونة هنا وهناك قمم خميرية اللون، أنوف الجبال بنفسجية، تلال خضر أو صفر تتغطي بقرى على شكل قوقعة سلحفاة»¹.

وُظِّفت الأمثال الشعبية التي تبين العلاقات البينية والتراتبية في الدهاء عند الأهالي، وترتيب القبائلي في إعمال الحيل من أجل كسب المال بالربا والرهن: «العربي يحتال عليه اليهودي، واليهودي يحتال عليه القبائلي، والقبائلي يحتال عليه المزابي، والمزابي لا يحتال عليه إلا الشيطان»²، و«الآلام أيضا خيرات آتية من الله»³، «ما فات مات»⁴.

ركز الكاتب على تصوير الزي الذي يرتديه القبائليون بشيء من السخرية، والاستهزاء من تغييره وفق الظروف والمناسبات: «على الأرض تتشكل الجماعة، إنه كرنفال الأزياء المثيرة للضحك. ها هو ذا [...] طرف الأيسر لكن بطية حريرية. على الجانب، شخص بمشية خليعة يورجح تحت قندورته سروالا بمربعات. هذا يلبس حذاء [...] مبرنقا يبرز ريلات بخيوط وداعصات عابسة. الآخر، هناك، وفِيّ للسروال العريض، في أعلاه قميص قصير. بعضهم حافظوا على البدلة التقليدية: قندورة بحزام من الجلد، وبرنوس»⁵. أطباق الكسكس الشهير المدهون، مع الخضروات، مرق حارة حمراء كالدّم متبلة بالفلفل والزعفران. المحاصيل الزراعي، التين، وكرموس نصارى (التين الشوكي، أو الصبار) وزيت الزيتون. أنواع الأسلحة: فليسة وهو سكين يستعمل في منطقة القبائل. في السياق الديني أشار إلى الصلوات الخمس التي يؤديها الأهالي المسلمون في المنطقة، الظهر والعصر والمغرب، والعيد الكبير، ويؤكد تمسكهم بتعاليم الإسلام التي كانت سدا منيعا ضد تغلغل المسيحية. وصف الثقافة المتخلفة التي تؤمن بالمرابطين، والتطير "خمسة في عينك"، وترضخ للمكتوب (حتمية القضاء والقدر).

Ferdinand Duchêne, Le berger d'Akfadou, Albin Michel, Editeur, Paris, 1928. p.26.

Ferdinand Duchêne, Le berger d'Akfadou, ibid. p.18.

Ibid. p.104.

Ibid. p.148.

Ibid. p.14.

-1

-2

-3

-4

-5

قاموس بربري قبائلي، وظفه الكاتب الذي كان يحسن اللهجة المحلية: ثولاس(فتيات)، أمسلوب(مجنون)، أرفاز أفي(هذا الرجل)، سوسم(أصمت)، ثرباعث(جماعة، عصابة)، ومنها ما يتعلق بالعادات: تاوسة (الحصة المهداة). إلى جانب تعابير بالعربية الدارجة: دبر راسك. ويلاحظ في ذكر أسماء الشخصيات الروائية أنها غير متداولة كثيرا في منطقة القبائل: لعيدي، العكري، بن قارة، مينة.

استثمر دوشان أحداث مهنته اليومية قاضيا بالمحاكم القبائلية في عمله الروائي، حيث كان يجمع وقائع قضائية لرجال ونساء التقى بهم في توصيف أخلاق الجزائريين الأهالي¹. وصف توثيقي وإثنوغرافي لتقاليد مدن أخرى تتجسد في "رواية مداح" 1924 Le roman du Meddah التي تحيل على إحدى قصص إيزابيل إبراهيم القصيرة تحمل العنوان نفسه، و"على خطى القوافل البطيئة" 1922، حيث تناول في الثانية حياة البدو في الجنوب القسنطيني، ويصف انطلاق القافلة البدوية نحو الشمال إلى تبسة بخطى بطيئة ورتيبة خمسة أيام طويلة وشاقة. في تلك الأثناء كانت البطلة مريم أصغر زوجات شيخ القبيلة القايد عليّ العجوز في الهودج، مثل كل الفتيات البدويات تحتمي من حرارة الشمس والنظرات الجريئة. ربطت علاقة غرامية مع قدور صائد العقبان، فتى وسيم بمساعدة خادمها الزنجي المخلص لوصيف، وبتواطؤ مع ضررتها والخاطبة العجوز باية التي عشقت شريف. اكتشف أمر خيانتها شريف الذي رفضته من قبل فخنقها في هودجها، ثم قُتل بدوره على يد عشيقها قدور بمساعدة لوصيف. تلخص هذه الرواية بعض الصور السلبية عن أخلاق البدو في صحراء الجزائر، تطغى مظاهر الكسل والرتابة والتخلف والجهل؛ وتعدد الزوجات وكثرة الخيانات عند المرأة العربية، وتشير إلى ثبات الأهلي على عاداته البدائية، وبالتالي الحكم عليه باستحالة حدوث أيّ تطور في مثل هذا المجتمع. وفي "قمير، امرأة عربية" 1931، يبين وضعية المرأة المسلمة المقهورة، وشدة تمسك المسلمين

Voir: François Pouillon, Dictionnaire des orientalistes de langue française. Nouvelle édition revue et augmentée, op.cit. p.343.

-1

بتقاليدهم وعقيدتهم، ويؤكد استحالة الزواج المختلط بين الفتاة الأهلية قمير ابنة شاوش مسلم اسمه بكير يعمل في الإدارة الفرنسية، رغم أنها متعلمة ومتفتحة، مع مستوطن أوروبي مختلف عنهم في الدين واللغة والعادات.

"في سفح الجبال الخالدات" رواية تسرد حياة السكان في بلاد القبائل، مهداة إلى شخصين خدما الإدارة الاستعمارية¹، بدأ بالعقيد سيمون غودشو²* رئيس "مجلة إفريقيا الشمالية" تكريما له، وجاء فيها: «إلى السيد العقيد غودشو، في ذكرى جزائرننا التي أحبها كثيرا، وشهادة على محبتي المحترمة». والإهداء الثاني كان إلى مندوب المالية في القبائل السيد ج-م غاستافينو: "إلى الذي يستطيع أن يقدر أكثر من غيره، رسم الحياة البربرية هذا في عمق الدوار، كما هي، كما تحرص على البقاء على سفح هذه الجبال - الثابتة والقاسية مثلها - مع احتيالاتها ودناءاتها، لكن أيضا مع عنفوانها الصارم والرائع وخضوعها المترفع".

تتلخص أحداث الرواية في تمرد القبائلي زروق على الإدارة الاستعمارية، والتي استنفرت قياد القبائل في كولونفيل للبحث عنه وإلقاء القبض عليه دون جدوى. فعرض سي محمد بن علي على حاكمها الإداري الفرنسي أن يتخلص من القبائلي المتمرد بالحيلة. تحول إلى مرابط فادعى بأنه طالب زاوية وحاج بيت الله ومبعوثه من الشرق، يظهر عداوة للمستعمرين، فراح يُدرّس القرآن ويبيع التمام المليئة بالطلاسم. يتوغل في القبائل ويستميل الناس بالخطب والأدعية والقرآن. تمكن سي محمد باسم الدين أن يصبح قائدا على الأهالي ويزوج ابنته يمينة لعبد الرحمان، ابن القائد السابق محي الدين. في آخر المطاف بلغ المرابط سي محمد مراده بعد طول انتظار، فتقلد صليب الشرف الممنوح بعد ثماني عشرة سنة في الخدمة العسكرية ضمن

¹ Ferdinand Duchêne, Au pied des monts éternels, Albin Michel, Editeur, Paris, 1925. p.5 et 7.

² سيمون غودشو Godechot عضو جمعية الكتاب الجزائريين ورئيس مجلة إفريقيا الشمالية 1921 - 1922.

الجيش الفرنسي، وخمس عشرة سنة في شغل منصب قائد قبائل بني ثور في كولونفيل، فاحتقل به أعيان المنطقة بتقديم هدايا ثمينة لضمان القرابة منه وحصول فضله.

رسم الكاتب مجتمع الأهالي وصنفه إلى أصناف متباينة حسب وظائفهم وطبائعهم، قصد توضيح العلاقات الفاترة التي سادت بين مختلف الناس بسبب سياسة "فرق تسد". أولهم شخصية محمد بن علي من أب تركي وأمّ قبائلية، يحسن اللهجة القبائلية والعربية ويفتخر بأصله التركي الذي يراه أفضل من العرب والبربر، مثال للكرغلي العميل والموالي للاستعمار، حيث يرى فيه النموذج الراقي للحضارة والرقّي المادي، فتطوع للمشاركة في أداء رسالته الإنسانية، عين الاستعمار ضد الأهالي، مستغلا الدين والسلطة لتحقيق أغراضه. وشخصية القايد محي الدين العربي الذي يخضع لأوامر الاستعمار دون جدال، ويخدع أهالي الدوار بالكذب والافتراء عليهم مقابل امتيازات خاصة. شخصية سيدي فضيل، شيخ مرابط من إخوان الطريقة القادرية، مثال للتدين المزيف، حيث أوهم الناس بأنه زاهد في الدنيا راغب في الآخرة، شغله الشاغل العناية بالفقراء واليتامى والتخفيف عنهم، ولكنه لم يكن يعطيهم مال الصدقات، ولا يستفيد منها إلا أقرباءه: «الله أمر بالعدل والإحسان. وأنت يا قايد، تستغل الفقراء بسياستك الحولاء والدينئة. والفاضل سيدي فضيل يسرق بوقاحة من التعاء الصدقات التي كلف بتوزيعها!»¹. شخصية زروق القبائلي الذي رفض وجود الاستعمار وتمرد على إدارته المستبدة، فكان مصيره الموت حتى لا تتطور أفكاره إلى مقاومة شرسة، يوافق في ذلك القبائلي مختار بن أحمد الذي اعترض على طريقة القايد محي الدين في إدارة شؤون القبائل في بني ثور. ورغم سياسة التفرقة المنتهجة من قبل الاستعمار إلا أن الأهالي البسطاء ظلوا متماسكين ومتعاضدين تربطهم حصانة القبيلة، إذ رفضوا الوشاية بزروق اعترافا بشجاعته وقوته وحنكته، وآثروا عدم تبليغ الحاكم ضده، وإخباره بمكان وجوده. أما السيد كيار فهو شخصية فرنسية، يحرص على إحكام السيطرة على القبائل بواسطة العملاء والموالين الذين يعرفون جيدا طبيعة المنطقة وسكانها، ويمثل هذا الإداري يد

Au pied des monts éternels, ibid. p.101.

1.

النظام الاستعماري الذي يستعمل للمستوطنين المستفيدين من وجودهم في الجزائر. أمام هذا التعدد الإثني استلزم حضور التعدد اللغوي (الحوارية) للتواصل بين مختلف السكان، الفرنسية لغة المستعمر والإدارة الرسمية، والعربية لغة الأهالي، الفصحى للمتعلّمين والدارجة للأميين والبسطاء: اليتامى، القايد، الحاج، "ابقى على خير، روح بسلامة"، ولهجة صبير المختلطة: بونو بزاف، ما كاش لو فوربي le fourbi. فيما يخص الموروث الثقافي القولي فقد وردت الأمثال الشعبية منها: "صباح الخير يا جاري؛ ابق في بيتك، وسأبقى في بيتي"، و"لا يمكن إصلاح ذيل السلوقي، ولو بقي في مدفع البندقية عشرين سنة"، وكذا الأشعار التي روتها الحاجة بيضاء تذكر بالأخذ بالتأثر.

صور الكاتب كولونفيل كمستعمرة فرنسية، وترمز المنطقة إلى الجزائر الجديدة بكل أطرافها، ولكن تحت الحكم الفرنسي. يدعو الأهالي إلى التعايش مع النظام الاستعماري، ويوضح أن الإسلام الذي يتزعمه الصوفيون والمرابطون لا يتأثر ببقاء الاستعمار: «لو يشرح الزعيم الديني لكل الدواوير، ما الإسلاموية الصحيحة، فالجزائر الفرنسية يمكن أن تصبح شيئاً آخر لا مجرد كلمة»¹. كولونفيل فضاء جغرافي شاسع، يتكون سكانها من طوائف مختلفة، المستوطنين الأوروبيين والأهالي المسلمين، يتوزعون على ثلاثة أماكن متجاورة، مدينة الأوروبيين في السهل تسمى "القديسة لوسي"، وبلاد العرب في سهل آخر، وبلاد القبائل في الجبال. «خيام وأكواخ الفوربي العربية تنتشر في عمق الوديان. في جهة أخرى، قرى قبائلية مبنية بالحجر، متراسة ومنتصبة على صخور مثل قلاع صغيرة. بين القبيلتين طوق داكن يقطع سلسلة الجبال المركزية المؤدية إلى السهل العربي، في غابة عميقة سوداء...»².

حضرت بقوة الصور النمطية المكرورة التي تصف واقع الأهالي ووضعهم المهين كمستعمرين، «عرب نائمون، ملتقون مثل الأكياس في برانيسهم الرمادية. حراس الليل يمرون

Au pied des monts éternels, ibid. p.4
Ibid. p.43.

-1
-2

بمعاطف زرق، وبندقية في حمالات سراويلهم»¹، ويظهر «أطفال، نصف عراة، بصدد نصب فخاخ. نحاف وسمر تحت شاشياتهم الواسعة جدا»². يضاف إليهم طائفة الزوج الدخلاء الذين يتسولون عن طريق الغناء وضرب طبل الطام طام من أجل سد جوعهم. توحى هذه الصور على أسباب تخلف الأهالي كالكسل وضعف العلم، ونقص نزاهة القضاء الشرعي مقابل عدالة القضاء الفرنسي الذي فضله القبائلي مختار بن أحمد للنظر في القضايا المتهم بها من قبل القايد العربي محي الدين، وقد كان مختار جنديا سابقا بكتيبة الرماة، في صفوف الجيش الاستعماري، ويشرب الخمر. إضافة إلى وحشية العادات وجمود التقاليد واستمرار الممارسات الوحشية كالنهب والسلب من قبل قطاع الطرق، وعادة الثأر (الرقبة) التي جعلت الحداد طويلا في جبال القبائل، والموت يحوم في القرى الشبيهة بالقبور، "رقبة برقبة" بين عائلي بن العربي وبن قاسي. التمسك بالطقوس البدائية وتقديس المرابطين وتبجيل شيخ الطريقة القادرية، والإيمان بالمكتوب دون النظر في الأسباب والعوامل: «أنا مسلم، سيدي الإداري. لا شيء يحصل ما لم يكن مقدرا»³، ويُستشف فيها نبرة السخرية ونظرة الاحتقار اللتان تأسست عليهما أعمال دوشان وبقية الكتاب المتجزئين ذوي الحماس الاستعماري.

ينتقل دوشان من الروايات الإثنوغرافية المنصبة على تصوير العادات والتقاليد إلى معالجة القضايا الثقافية ذات البعد السياسي في "مونة وكشير وكسكس" Mouna, Cachir et Couscous*⁴ 1930. يطرح دوشان من خلال هذا العنوان المركب والطريف مسائل عرقية ودينية معقدة في المجتمع الجديد المتعدد الهوية، ويشرح قضية التقارب بين العرقين البربري واللاتيني، والاختلاف بين البربر والعرب، ويقارن بين نموذجين من الأهالي غير متشابهين،

Au pied des monts éternels. p.39.

Ibid. p.105.

Ibid. p.21.

⁴ مونة* la Mouna : مونة نوع من العجائن الإسبانية، شاع هذا النوع من العجائن في المدن الجزائرية الكبرى حيث سكنت غالبية إسبانية أثناء الاحتلال الفرنسي، مثل مدينة الجزائر ووهران، ولا يزال الجزائريون في عديد المناطق يصنعونه إلى اليوم، وكشير Kasher كلمة عبرية، تعني في القاموس العبري "الأكل الحلال"، وكسكس طبق مشهور بربري الأصل.

ابن مالك العربي المسلم الذي يلبس على الطريقة العربية، يطبق التعاليم الإسلامية بدقة، وآيت أكلي القبائلي (البربري) المتعلم في المدرسة الفرنسية والمتأثر بالحضارة الغربية، يلبس البدلة الأوروبية، ويشرب قليلا من الخمر، ويذهب إلى السيدة الإفريقية، ويرى أن الإيمان يكون في الروح والقلب، وليس بممارسة الطقوس¹. ومن جهة أخرى يرتدي الأب دومينيك الكاثوليكي البرنوس البدوي، وتمشي الأخوات البيض في شوارع مدينة الجزائر متخفيات في الحايك الموريسكي²، ويشير إلى التعايش السلمي بين الطوائف الثلاث التي يتشكل منها الوطن الجزائري الجديد، والديانة الموحدة للديانات تحت حضانة الوطن الأم فرنسا، «مسيحيون وإسرائيليون، ومسلمون يسمعون لهذا الكاثوليكي المرتدي الفندورة. وبكلمات بسيطة، ودقيقة، ومباشرة، يذكر الوطن الإفريقي الصغير...»³.

عالج تيمات تاريخية وأحداثا راهنة ارتبطت بمسار الجمهورية الفرنسية الثالثة ومواجهة تطورات المجتمع الاستعماري. تشير رواية "فرنسا الجديدة" 1903، ويقصد بفرنسا الجديدة هنا الجزائر كمستعمرة فرنسية، إلى أحداث انتفاضة أهالي ريغة في 26 أبريل 1901 بجبال زكار بعين الدفلى، والتي سمّتها السلطات الفرنسية انتفاضة مارغريت نسبة إلى قرية مارغريت (عين تركي)، احتجاجا على سلب أراضيهم وتسليمها للمستوطنين الجدد الذين وفدوا بأعداد هائلة في تلك الفترة. تبين الرواية مع ذلك ضعفهم وقلة حيلتهم أمام بطش الاستعمار، «في أغلب الأحيان، يظهرون مقاومة سلبية من خلال انتظارهم الصبور دون خضوع: إنهم يعيشون على أطراف الأراضي المملوكة، أو عمال زراعيون في أراضيهم السابقة، أو يتراجعون إلى سلاسل الجبال المحيطة بالمزارع الغنية»⁴.

¹ Ferdinand Duchêne, Mouna, Cachir et Couscouss, Mercure de France, No 759, 41e Année Tome CCXVII 1er Février, 1930. Pp.637,638. <http://visualiseur.bnf.fr/CadresFenetre?O=NUMM-202086>

² Ferdinand Duchêne, Mouna, Cachir et Couscouss, ibid. Pp.643,644.

³ Mouna, Cachir et Couscouss, ibid. p.646.

⁴ Jean-Robert Henry, Le roman de la lutte pour la terre en Algérie, Institut de recherches et d'études sur les mondes arabes et musulmans. Consulté le :16.01.2021-10 :10. <https://books.openedition.org/iremam/3660?>

أشار لويس برتران في رواياته الأولى إلى مجيء عائلات إسبانية، وهذه العائلات استقادت من أراض واسعة في إطار مشروع الاستيطان. ودارت "سيروكو" 1946 Sirocco أو الحمى الجزائرية، حول ملابسات وتدايعات مظاهرات الثامن ماي 1945 غداة نهاية الحرب العالمية الثانية، وكانت في بعدها السياسي إرهابا لقيام ثورة التحرير في 1954. يمهد دوشان في مقدمة الرواية بأن «هذا العمل يقدم على أنه "صفحة من التاريخ الجزائري". هي رواية، لكنها مع ذلك تدرج في فئة معينة من الروايات الاستعمارية بقدر ما يقدمها المؤلف على أنها ذات علاقة "روائية" و"دقيقة مع ذلك" عن "الاضطرابات المماثلة" التي صبغت بالدم مؤخرًا منطقتي سطيف وقالمة»¹. يسعى، حسب رؤيته الإيديولوجية، إلى مطالبة المتربول بمساعدة المستوطنين لإبادة العنصر الأهلي المثير للشغب.

بطل الرواية هنري سان مارتان، مسؤول إداري فرنسي أرسل من فرنسا ليدير شؤون الأراضي الزراعية في "كولونفيل" التي تعني مدينة المستوطنين، مدينة أوروبية صغيرة يسكنها شعب جديد من المستوطنين في طور التكوين، وهذا تطوير للفكرة التي طرحها من قبل لويس برتران الذي أقصى الأهالي من الهوية الجزائرية. مقابل هذه المدينة الأوروبية المثالية، هناك مدينة عربية للأهالي، شعب بائس، يعيشون حياة بدائية، «فقراء... يلبسون ثيابا رثة دعاة القدر، ثم إخوان، منتسبين إلى الطرق الإخوانية، يقدمون توجيهات مرابطية بتلاوة آيات من الكتاب المقدس، غالبًا ما يتم تعديلها، بما يتناسب مع الظروف... يوزعون التمايم...»².

بهذا المنظور يكرس الكاتب قضية التمييز العنصري بين سكان الجزائر المستوطنين والأهالي.

¹ Hubert Gourdon, Jean Robert Henry, Françoise Henry- Lorcerie, Le roman colonial et l'idéologie coloniale en Algérie, op.cit. p.219.

² Le roman colonial et l'idéologie coloniale en Algérie, ibid. p.227.

العناصر عنوان الرواية	وصف الشخصيات	وصف المكان	وصف الطبيعة	معالجة القضايا
"في سفح الجبال الخالديات" 1909	مالطي بشعر خشن	كولونفيل (مستعمرة فرنسية) جبال القبائل	متنوعة وجميلة وقاسية حيوانات متوحشة	-عادة الثأر "الرقبة" -التمرد على الإدارة الاستعمارية (زروق القبائلي) -ولاء الزعماء والنبلاء للمستعمر جشع المستوطن الصغير تخلف الأهالي بسبب الإسلام
"راعي أكفادو، رواية قبائلية" 1928	مالطي بشعر خشن	جبال القبائل "أكفادو"	متنوعة وجميلة حيوانات متوحشة	عادة الثأر "الرقبة" جشع المستوطن الصغير ولاء الزعماء والنبلاء للمستعمر تخلف الأهالي بسبب الإسلام والتقاليد البالية
"سيروكو، أو الحمى الجزائرية" 1946			كولونفيل	التمرد على الوضع الاستعماري "سطين وقالمة وخراطة)

جدول رقم (9)

يبين الجدول رقم (9) مجموعة من التكرارات الواردة في ثلاث روايات لفردينان دوشان حول وصف العادات والتقاليد في بلاد القبائل والمناطق المجاورة لها بالأسلوب النمطي نفسه الذي لا يخلو من العنصرية والتمييز.

من بين هؤلاء الكتاب المستوطنين ظهرت «فئة تتعاطف مع الأهالي، وحاولت أن تفتح على محيطهم وأن تقترب منهم بل وتقترب إليهم، وتتعلم لغتهم، وتكتب عنهم قصصا وروايات، وتدافع أحيانا عن بعض قضاياهم»¹، عرفت رواياتهم بطابع حب الأهالي arabophilie، وعلى وجه التحديد وصف أولئك الذين تقبلوا الإدماج أملا في الحصول على الحقوق المدنية ولم ينالوها. صور لويس لوكوك² * Louis Lecoq في أعماله «شؤون الجزائر المحلية والإدارة الاستعمارية، ويظهر تميزه الإبداعي عن سالفه المتجزئين في مقاربة الواقع اليومي»³. كتب بمعية صديقه شارل هاجل مجموعة قصصية موسومة "بروميتش"⁴ * والقبائلي " Broumitche 1921 et le Kabyle، إلى جانب أقصوصة العنوان الرئيس التي تتناول قضية تعليم الأهالي في المدرسة الفرنسية والاختلاف الثقافي، تضم أربع أقاصيص، هي "الضبع"، و"الحريق"، و"قيامه الموتى"، و"الشروق". يحلل النص نفسية الأهلي المندمج في "بروميتش والقبائلي"، ويفسر استعداده الغريزي للميل إلى السلوك السلبي كالسرقة والكسل والجنس، ليبين الفرق بينه وبين الأوروبي المتحضر. يعيش حاج مزيان، سائق شاحنة، في كوخ دون مورد رزق إضافي غير صيد السمك باليد، وبسبب ذلك سيصبح سارقا، يسرق جاره بروميتش الإيطالي الذي يملك زورقين، زورقا صغيرا بمحرك للشتاء وآخر للصيف عندما يكون البحر لطيفا. ويلصق تهمة السرقة بالفطرة بابنة القبائلي ذات ثلاث عشرة سنة، رغم أنها تحضرت وتعلمت في المدارس الفرنسية، وتفتخر بذلك على الفتيات الأميات. كانت ذهبية نموذجاً للمرأة الأهلية المكبوتة، وصف جمالها البربري وجهلها، وسذاجتها وشبقها. استغل بروميتش فقرها فحاول أن يستدرجها بعقد من الذهب والمرجان والحلوى، ويتحرش بها مرارا حتى استسلمت، لأنه ميال للعشق والحب مثل أي شخص متوسطي الجذور. مع أنه كان يبغض والدها حاج مزيان بغضا شديدا لأنه

¹—أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، م س، ص112.

²* لويس لوكوك Louis Lecoq كاتب استعماري متجزئ ولد في 1885 بالجزائر من أب فرنسي وأم إسبانية.

³— Roman et société coloniale, Dans l'Algérie de l'entre-deux-guerre, op.cit. p.32.

⁴* بروميتش كلمة إيطالية معناها طعم صيد السمك.

"بيكو" يحب المال ويريد تزويج ذهبية لعجوز. ويستغل الفرصة ليسخر من التقاليد التي تحت الفتاة الأهلية على الحفاظ على عفتها وشرفها.

اسمه سالفادور براسكاندولا، ونظرا لمهارته في الصيد أطلق عليه لقب بروميتش، يصطاد على شواطئ خليج مدينة الجزائر، في لابيروز La Pérouse (برج البحري)، وسيركوف (عين الطاية)، إلى غاية الصخرة السوداء (بومرداس). وهو يشبه كاغايو في مظهره الخارجي، «يختصر ثوبه في شراء بعض السراويل من القماش الأزرق المصنوع من الكتان والصوف، ونعال من قماش، وصدريه بخطوط ملونة. شتاءً يرتدي فقط حذاء ومعطفا من جلد»¹.

ويتضح اهتمامه بتصوير واقع الأهالي ومحاولة تحسين صورتهم لدى المستوطنين في العناوين ذات الدلالة المحلية والمتصلة بثقافتهم^{2*}، مع اعتماد ظاهرة تداخل اللغات في التعبير عن التنوع الإثني والاختلاف الذهني في المجتمع. في "خمسة في عينك" Cinq dans ton œil الحاصلة على الجائزة الكبرى للأدب عام 1924، عالج قضايا سياسية واجتماعية مختلفة، أهمها قضية انقسام الأهالي بين راغب في الاندماج مع الأوروبيين لإنتاج «نموذج المستعمر الكامل» [...] الذي يعترف بتفوق المستعمر³، وتمثله شخصية سرير بن ململ الموظف في الإدارة الفرنسية، ويعمل ملصق طوابع، والمحافظين الراضين له مثل شخصية طاهر رمضان، الطالب المعتر بالثقافة الإسلامية وفضل إسهامها في تطور العلوم وتطوير الإنسانية وتقديمها، فيرى أن علوم الطب هي علوم المسلمين. طُرحت «قضية المتسولين الجزائريين الذين غزوا شوارع مدينة الجزائر والقصبة بشكل خاص منهم: الشيوخ، والمعاقين، والأطفال المهملين (يا أولاد)»⁴، إلى جانب الصور الجاهزة للطفولة المحرومة، هناك صورة مهينة تتمظهر في تكرار

¹ - Louis Lecoq et Charles Hagel, Broumitche et le Kabyle, Mercure de France, Paris, No 536, 15 Octobre, 1920. p.322.

² * تبلورت هذه التيمات في "سيد غراب" Sid Ghorab Surcorbeau 1923، و"الشمس" 1928 و"كائين" 1930، والجنتان Les deux paradis

³ - Fadhila Yahiaoui, Roman et société coloniale, Dans l'Algérie de l'entre-deux-guerre, op.cit, ENAG. p.152.

⁴ - Roman et société coloniale, Dans l'Algérie de l'entre-deux-guerre, op.cit. p.51.

تيمة المرأة الأهلية الشهوانية، تستغل ميمي بنت حسن، سطوح البيوت العربية في إشباع نزواتها المحرمة مع الطالب العاشق سكفالي بوربون الساكن بالجوار. ذكر مسألة تعدد الزوجات، حيث تزوج سيرير بن ململ ميمي بنت حسن بسبب عقم زوجته الأولى لالة عائشة¹. يدور المضمون حول الدعوة إلى الاهتمام بالطائفة المسلمة، وحل مشاكلهم وتطوير نمط معيشتهم في سياق الرسالة الحضارية، كرعايا وليس كمواطنين جزائريين.

وتظهر نبرة الكاتب المناهض لجشع المستعمرين شديدة في روايته "شيطان الطريق المستقيم" 1928، يتهم فيها المستوطنين بنهب ملكية محند أكلي في منطقة القبائل، فتتكفل شخصية دروني من فرنسي المتروبول (فرنسا) الدفاع عن الضحية. غير أن القبائلي لم يتحصل على حقه لأنه ضحية جشع محمي من الإدارة الفرنسية². وفي هذا السياق توضح فضيلة يحيوي أن تطور إيديولوجيا التجزؤر عند لوكوك ظهرت في كتاباته المنشورة بعد 1927، وكان تخليه نسبيا عن الدفاع عن المستوطنين، والاهتمام بالأهالي نتيجة عوامل عدة، أهمها عقلية كبار المستعمرين العنصرية، وفشل سياسة الإدماج والانصهار الروحي، وخطر التأثير الشيوعي، وتنامي الوطنية عند الأهالي المتعلمين في المدرسة الاستعمارية، وانشغالهم بقضايا السياسة، والمطالبة بالحقوق المدنية والمساواة مع المستوطنين.

لويس ألبيير تروفيموس³* من الروائيين الإدماجين، والمتعاطفين الذين شغلهم حال الأهالي الذين كانوا يعانون ضغط قيود الحيف والجور في صمت دون استسلام، ويظهر، على هذا الأساس، كاتبا مناهضا لسياسة الاستعمار الذي بلغ ذروة عنفوانه في ثلاثينيات القرن العشرين، ولكنه كان حبيس الأحكام الجاهزة والصور النمطية التي تخدم استراتيجية الاستعمار

¹ Voir: Ahmed Lanasi, La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres, op.cit. p.77.

² Voir: Roman et société coloniale, Dans l'Algérie de l'entre-deux-guerre, op.cit. p.96.

³ ولد لويس ألبيير تروفيموس Louis Albert Truphémus في فرنسا سنة 1873، من فرنسي المتروبول جاء إلى الجزائر في 1909 وتوفي بها في 1948. اشتغل مفتشا للتعليم الابتدائي بين 1914-1927، ومارس الصحافة، وكان مناضلا اشتراكيا وعضوا ماسونيا.

أحيانا كثيرة. تناول قضية الطفولة الشقية والمشردة، أطفال يتعرضون إلى الاستغلال في إطار السياحة الجنسية في بسكرة. أطفال محرومون من التعليم، يعانون البؤس والجوع ويحملون صندوقا موسوما بعلامة ملمع الحذاء "الأسد الأسود" ضمن يوميات حياة الأهالي في رواية "إخوان الأسد الأسود: مشاهد من الحياة في بسكرة " 1931 Les Khouan du lion noir: Scènes de vie à Biskra¹. تحكي هذه الرواية الإثنوغرافية حياة الطفل قدور البائسة في الجنوب الشرقي، عاش يتيم الأبوين، فكفله عمه محمد سرير وكان غنيا، ولما مات، هام على وجهه، مغادرا مسقط رأسه زريبة الوادي حافي القدمين، مع ماء وقليل من التمر قاصدا مدينة بسكرة للاسترزاق والعمل في مسح الأحذية، فيتعرض للاستغلال. وفي هذه الرحلة الطويلة تحت الشمس الحارقة وبين الكثبان الرملية وأشجار النخيل وصف الكاتب الفضاء الصحراوي الشاسع والخالي، وواحات زريبة الوادي، وخنقة سيدي ناجي، وسيدي عقبة، وبسكرة، والقوافل التي تقطع المسافات على ظهر جمال ضخام محملة بالتمور. واستعرض بعض التقاليد والعادات الصحراوية كتناول الكسكس والشاي، والتميز التراتبي بين الجنسين بتقديم الرجال قبل النساء والأطفال.

في "نزل سرسو: رواية جنوب إقليم مدينة الجزائر" L'Hôtel du Sersou: roman du sud algérois 1930، الكائن بقرية جوردان أحد مراكز الاستعمار ناحية تيارت بالونشريس، نزل ومقهى، جمع طوائف مختلفة من الأهالي والمستوطنين، يتحادثون ويتواصلون بلهجة الأقدام السود(البتاويت)، ويتناولون أطباقا متنوعة من مختلف الأطعمة المشهورة التي اختلطت روائحها في مطبخ المجتمع الاستعماري، أشار إلى انتهازية الأوروبيين الذين جاؤوا إلى الجزائر و«القش متعلق بأحذيتهم مع اقتناع راسخ بأحقيتهم لها نتيجة فضائلهم القديمة. كيف شككوا في أنفسهم لما افتخرت صحافة الجزائر، ليكو، لاديباش، وكل الخطابات الرسمية للولاية والمحافظين العامين

¹ Albert Truphémus, L'Hôtel du Sersou: roman du sud algérien, Les Khouan du lion noir: Scènes de vie à Biskra, L'Harmattan, 2008.

أو وزراء في المهام في كل مناسبة ببطولتهم، وتضحيتهم، ووطنيتهم، ومهمتهم المتميزة بالسمو ونبل الحضارة»¹، وركز على معاناة «غالبية السكان الأصليين، المنهوبة، والمقتلعة، تعاني تدني الأجور، ومن سوء التغذية، بل فريسة للمجاعة»². وفي تصوير هذا المجتمع الهجين «لم يسلم الكاتب من الصور النمطية العنصرية[...] وقد ندد بافتراءات الإدارة الفرنسية (التي تواصل عملها، "الحضاري الراقى والنبيل")، ومعاناة الأهالي، والعنف المسلط عليهم»³، إذ وصفَ عالمين متناقضين، بؤس الأهالي «فهناك بؤس في المشاتي، وجوع لدى الفقراء جدا. الأطفال يذهبون إلى السهول لاقتلاع الجذور أو يتسولون»⁴. وهم فئات ماسحي الأحذية والحمالين الصغار في الشارع، والعمال الأهالي عليّ، ومحمود، والقبائلي عزوف سائق الحافلة الذي يجسد أسطورة القبائلي المختلف عن العربي، رقيق الدين، ومنبهر بثقافة الأوروبيين، يتصرف مثلهم، يعاكس النساء، ويشرب الخمر، ويأكل الخنزير، ويجذب ويشتم ويسب؛ «تربية عزوف هذه القوية ترفع القبائلي، مولودا دنيا، إلى مستوى الرومي عزوف واع بقيمته؛ لا يخالط إلا الأوروبيين، في علاقته بهم أيضا، ينزع الذل، الذي هو خارج تماما، عن العرب العاديين»⁵. وعالم نزلاء الأوروبيين الذين تجمعوا في مقهى النزل، أغلبهم من فئة المستوطنين غربي الأطوار والفاشليين في بلادهم، هاجروا إلى الجزائر طلبا للرزق، فأصبحوا سادة على السكان الأصليين. ويظهر المستوطنون، أيضا، على فئتين، الفرنسيين أكثرهم أصحاب امتيازات وأملاك، والإسبانيين البسطاء، منهم الفقراء الذين يشتغلون في قطع الحلفاء بالهضاب العليا جنوب الإقليم الوهراني، أشار إليهم موباسان وتحدث عنهم في مذكرات الرحلة، تمثلهم الفتاة كونسبسيون التي جاءت إلى نزل سيرسو لتشتغل خادمة عند صاحبتة الفرنسية السيدة إيرما بازيل.

¹ Albert Truphémus, L'Hôtel du Sersou: roman du sud algérien, p.129, Cité par: Fadhila Yahiaoui, Roman et société coloniale, ENAG, op.cit. p.112.

² Messouda Yahiaoui, Regards et discours sur « l'Indigène, l'Arabe » dans les Ecrits coloniaux des Européens d'Algérie 1898-1940. p.19.

³ Gerald Prince, Guide du roman de langue française: 1901-1950, University Press of America, 2002. p.171.

⁴ Albert Truphémus, L'Hôtel du Sersou, Alger, Edition Soubiran, 1925, p.263. Cité par : Fadhila Yahiaoui, Roman et société coloniale, ENAG, op.cit. p.61.

⁵ Albert Truphémus, L'Hôtel du Sersou: roman du sud algérien, L'Harmattan, 2009. p.16.

تناول تروفيموس مسألة التعليم وأهميته بالنسبة للأهالي، بصفتها مفتشا للتعليم الأهلي في المؤسسة الاستعمارية، كضرورة ملحة لإخراج الأهالي تدريجيا من التخلف الطويل إلى رفاه الحضارة الفرنسية في رواية "فرحات، معلم أهلي" Ferhat, Instituteur indigène 1935. وهي «قصة مأساوية لمواطن أهلي مندمج في عائلة فرنسية، والذي يبدو أن وضعه الذي يحسد عليه كشاب جزائري ناجح مهنيًا يخفي في الواقع قلقًا عميقًا»¹. أحب ابنة العائلة الفرنسية "سيليه" التي استقبلته بحفاوة، لكنها فضلت عليه شابا أوروبيا أبيض. انتحر فرحات وفارق الحياة حزينا دون تحقيق حلم الزواج من الفتاة المحبوبة، رافضا أن يعيش غريبا في مجتمع متعدد الأعراق، وبين أناس عنصرين لا يقدرون مواهبه ولا يحترمون خصوصيته الثقافية. «في الواقع، تعيد الروايات الواصفة للأهالي إنتاج التحول السياسي لهذا النوع من الاندماج. يمكن أن يكون مسار فرحات هو رحلة الأمير خالد الذي كان، في عام 1913، منضما إلى حركة الشباب الجزائري، وجعل نفسه الداعية الصادق، في المتروبول، لهذا الإيمان بالمواطنة الفرنسية»²، ويمكن أن يكون فرحات عباس الذي نادى بالاندماج في بدء مساره النقابي.

يخاطب الكاتب الملتزم والواعي بعدالة قضايا الأهالي، متواريا في شخصية السيد المفتش "موس"، السياسيين الاستعماريين في الجزائر بأسلوب صريح، ويذكرهم، بمناسبة مرور مئوية الاحتلال الفرنسي، بالرسالة الحضارية التي جعلتهم يمكثون قرنا كاملا دون أن يوفروا للمستعمر أدنى شروطها، وهو تربية النشء وتعليم الناس وتثقيفهم: «هل نحن شعب متحضر، نعم أم لا؟ هل غزونا الجزائر لإثراء أنفسنا بوحشية، أم لتنظيف الساحل البربري، وضمان سلامة البحر، وزرع السلام والرفاهية في هذا البلد؟ لا يوجد أدنى شك، كما أظن، في صفاء نياتنا في الماضي

¹ Nadia Abed El Fatah, " Ferhat, instituteur indigène de Louis Albert Truphémus, un roman « anticolonialiste » ou l'expression d'une déconvenue ", Loxias, Loxias 42, mis en ligne le 06 octobre 2013. URL :

<http://revel.unice.fr/loxias/index.html?id=7570>

² Le roman colonial et l'idéologie coloniale en Algérie, op.cit. p.47.

والحاضر: فهو مكتوب في جميع الكتب، ومطبوع في جميع الصحف، ومكرر في جميع الخطب الرسمية. نحن شعب متحضر: لذلك، نحن مطالبون بزيادة عدد المدارس لصالح الأهالي»¹.

تحيل كلمة أهلي في العنوان إلى التمييز العنصري، وخطاب التحقير المعارض لحق الآخر في حق اكتساب العلم، والفرق بين وضعية المستوطن والأهلي في مجال تحصيل المعرفة. تصور الرواية وضعية شخصية حقيقية لها مكانة في المجتمع الأهلي، وهي «حالة فرحات عباس، جزائري ملتزم يناضل من أجل إدماج يطبق في العدالة والذي ربما ألهمت كتاباته المؤلف في اختيار الاسم الأول من شخصيتها المحورية»²، وربما يريد أن يكون المعلم فرحات (فرحات عباس) نموذجاً للشباب الجزائري المندمج الذي يعترف بفصائل الاستعمار محرر الهمج من الجهل والتشردم: «يبدو لي أن اهتمامنا الكبير، في الجزائر، يجب أن يكون أقل بجودة التعليم الذي يُنقل إلى الأهالي بقدر ما يكون بالتجمع الأخوي لجميع الصغار في نفس المقاعد. سيكون من الحكمة أن نعد، منذ المدرسة، وفاقاً روحانياً عظيماً بين جميع الأطفال المولودين على التراب الجزائري - الأهالي والأجانب والإسرائيليون وغيرهم»³.

يقول لوكوك «الكتابة عمل نضالي»⁴، فرغم التعاطف الذي أبداه مع أحوال الأهالي المزرية ومحاولة الاقتراب منهم سردياً، يساند بقوة فكرة المجتمع الاستيطاني في "باسكوالات الجزائري" Pascualette L'Algérien 1934، مستنسخاً نموذج شخصية أبطال البتاويت الكادحين المؤثث روايات لويس برتران، ويرسم حياة المستوطن الصغير، واعتباره جزائرياً بالاستيلاء على الأرض. في "دم الأعراق" و"السينا" تتساق الرواية مع إيديولوجيا الهيمنة، و«تروي الرحلة البطولية للمستوطن، الممثل الرمزي للجزائري، في مواجهة قوى الطبيعة وراثت العرب. فعلاً، فإن

¹ Nacer Khelouz, Le roman algérien de l'entre-deux-guerres en lisant Robert Randau et Abdelkader Hadj

Hamou, thèse PhD, Université de Pittsburgh, 2007. Cité p.62.

² Nadia Abed El Fatah, " Ferhat, instituteur indigène de Louis Albert Truphémus, un roman « anticolonialiste», op.cit.

³ Louis Albert Truphémus, Ferhat, instituteur indigène, 1935, in " Ferhat, instituteur indigène de Louis Albert Truphémus, un roman « anticolonialiste», cité par: Nadia Abed El Fatah, ibid.

⁴ Fadhila Yahiaoui, Roman et société coloniale, op.cit. p.69.

باسكوالات الجزائري شخصية نموذجية للرواية الاستعمارية، وهو طفل من الجيل الثالث، هو من أصل إسباني وتزوج من امرأة فرنسية الأرومة»¹. باسكوالات مستوطن فرنسي من فالنسيا يتحدى الطبيعة المتوحشة والإنسان الهمجي من أجل بناء الجزائر الفرنسية، فمثل هذا المستوطن، إذن، هو من ينبغي أن ينتسب إلى الجزائر مادام يساهم في ازدهارها. «يتولى المؤلف دور المؤرخ، ينشر المعرفة ويعطي شاهدا على ممثل شريحة اجتماعية أعادت الحياة إلى هذه الأرض. إنه يلخصها ويلقي الضوء عليها في الوقت نفسه»².

مؤكد أن جوهر الصراع بين المستوطنين والأهالي أساسه الهيمنة على الأرض، وكان أهم مبدأ ناضل في سبيله المتجزئ المتطرف شارل كورتان³ Charles Courtin المادح مزايا الاستعمار، وبلور مدحه في ست روايات استغرق زمن كتابتها حوالي خمسين سنة، تراوحت بين القلق الشديد على مستقبل الجزائر المستعمرة، والأمل الكبير في ازدهارها، «يشرح كورتان في مقدمة روايته "دم على الكثبان" Du sang sur la dune أنه يحاول رسم الأهالي كما هم في أنفسهم، وفي أصالتهم...»⁴، فيتناول في هذه الرواية وضعية المرأة الأهلية المسلمة، ويستعيد أسطورة البغي الناييلية الشاردة بين رمال الصحراء، التيمة الأثيرة لدى الكتاب الرحالين في القرن التاسع عشر. تحكي قصة مريم الفتاة الأهلية، والراقصة الصحراوية الجميلة التي عشقها سائس

¹ Fatima Zohra Lalaoui-Chiali, « Stéréotypes, écrits coloniaux et postcoloniaux: le cas de l'Algérie», Itinéraires [En ligne], 2010-1 | 2010.p.162. mis en ligne le 01 mai 2010, consulté le 30 avril 2019. URL: <http://journals.openedition.org/itineraires/2125>; DOI: 10.4000/itineraires.2125

² Fatima Zohra Lalaoui-Chiali, « Stéréotypes, écrits coloniaux et postcoloniaux: le cas de l'Algérie», ibid. p.161.

³ ولد شارل كورتان في البلدة 1884. تقلد مناصب المسؤولية في الإدارة الاستعمارية، وعمل في البلدية المختلطة التي تدير شؤون الأهالي بالمناطق السهبية والجبلية. حاصل على الجائزة الكبرى عن أعماله الداعمة لسياسة الاستعمار، وهي حسب الظهور، "الدغل الذي التهم الرجل" 1920 La brousse qui mangea l'homme، و"في بلاد الخمول" Au pays de la paresse 1933، ويصور حياة البدو بالهضاب العليا بشرق الجزائر، و"مقهى موريسكي" Café maure 1936، و"دم على الكثبان" Du sang sur la dune 1942، و"سبع ليال على جثة" Sept nuits sur un cadavre 1945 حول جريمة الثأر في المجتمع القبائلي، و"لعنة اللحم" 1946.

⁴ Jean-Louis Planche. Charles Courtin, romancier de l'affrontement colonial, In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°37, 1984. p.38.

http://www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1984_num_37_1_2020

الجمال ديب لأنها كانت تعامله معاملة الفتى الغرّ الذي يحتاج الرعاية والحنان، فعرف معها الشهوة والحب الجسدي اللذين يتقنهما فتيات أولاد نايل. أشعلت هذه العلاقة الغرامية نار الغيرة في قلب سيدها الآغا سنوسي فقتل ديب العاشق. وانتقاماً لحبيبها منه أعمت حيلتها لإغراء سي عثمان، ابن أحد المرابطين بأولاد عمور.

ولكونه مسؤولاً في عدة مناصب إدارية فقد اتسم إنتاجه بالانسجام مع أطروحة الدفاع عن المصالح الاستعمارية على حساب حقوق الأهالي المبعدين إلى المناطق الداخلية القاسية والقاحلة والجرداء. يعبر عن قلقه من خطر زحف الأهالي على المدن التي يعيش فيها المستوطنون، لأنهم «يتجولون في الدغل الذي أكل الرجل، حول مراكز الاستعمار المتقدمة، بالقرب من الطرق التي تعبر أراضيهم في لعنة اللحم»¹.

تجسد رواية "مقهى موريسكي" Café maure خوف الكاتب من تنامي عدد الأهالي مقابل تراجع نسبة المستوطنين الأوروبيين، والتحذير من بروز النزعة الدينية والوطنية الجزائرية في ثلاثينيات القرن العشرين مع ظهور مختلف الحركات المطالبة بالمساواة والاستقلال. وتبدى فيها بشدة خطاب اليأس من فشل فكرة اندماج الأهالي المسلمين المتمسكين بثقافتهم مع الأوروبيين، رغم مرور مئة عام من الاحتلال، إذ «حمل السياسة الاستعمارية المسؤولية بدلا من الإصغاء إلى حجج المسلمين»²، ويشير بطريقة تهكمية إلى شخصيات جزائرية تاريخية، ووطنية وسياسية ناشطة، وي طرح مسألة التعصب الديني عند المسلمين.

في خضم نمو الوعي الوطني والسياسي لدى الأهالي، يرى أن الجزائر السعيدة التي يتغنى بها المستوطنون لن تكون مع وجود الفكر الاستئصالي الذي ينكر ثقافة الأهالي ويروج للثقافة اللاتينية الدخيلة، ويحرض على استعمال العنف في سياسة إقصائه من الوطن الجزائري. فكر قائم على الخطاب المتناقض الذي تتبناه سياسة الاستعمار الديماغوجية نحو الأهالي؛ يؤكد

Jean-Louis Planché. Charles Courtin, romancier de l'affrontement colonial, op.cit.

-1

Fadhila Yahiaoui, Roman et société coloniale, Dans l'Algérie de l'entre-deux-guerre, op.cit. p.79.

-2

خطاب الإدماج فكرة أن الجزائر فرنسية، ولكنّ الجزائريين ليسوا فرنسيين بعدُ. ويدعم الخطاب العرقي مسألة الجزائر الفرنسية، ولكنّ الجزائريين ليسوا فرنسيين¹. وشكل المقهى الموريسكي بالنسبة للشخصيات الأجنبية والجزائرية على السواء فضاء استراتيجيا لمختلف معاملات التجسس والنقاش والتعبئة، فيه ترتبط العلاقات الوديّة، وتعدّد الاجتماعات السريّة، وتحاك المؤامرات.

في "الدغل الذي أكل الرجل" La brousse qui mangea l'homme² *، يروي كورتان قصة المستوطن الفرنسي الصغير بروسبير دورو الذي هاجر حديثا رفقة والدته إلى الجزائر. اشترى أرضا بناحية الأوراس واستخدم أهالي قرية اولاد يحي البربرية في استصلاحها. لكن يصطدم بتعنّت جاره العربي سعد الذي يطالبه بجزء من الأرض الذي استولى عليه المستوطن السابق دوبار بالقوة والنفوذ، والمعاناة مع الفلاحين الكسالى الذين استغلوا طبيته وأخلاقه الإنسانية التي تربي عليها في فرنسا، فحاولوا طرده من أرضه وسرقوه. اتهموه باغتصاب ابنة خصمه سعد وقتلها، فجرّوه إلى المحكمة. في النهاية حاصره العمال وقتلوه تاركا والدته العجوز وحيدة حزينة. يطرح النص قضية الصراع على الأرض بين المستوطن والأهلي؛ فينتصر لصالح المستوطن الإنساني والمتحضر، ويبين أن الأهالي أفضاظ ومتوحشون لا ينفع معهم العدل والمعاملة الحسنة، فالسلاح هو الأداة الوحيدة للتعامل مع هؤلاء المنحرفين.

واستمرارا في معالجة تيمة الجد والكد والمجد كصفات جوهرية للمستوطن الحديث، الذي ظهرت ملامحه في نهاية القرن التاسع عشر مجسدة في روايات فايدو وهوغ لورو خصوصا، وتطورت عند المتجزئين الرواد برتران ورائدو في بداية القرن العشرين، يقدم كلا من لوران روبا Laurent Ropa وبول أشار ملحمة المالطيين في الجزائر، ويتمظهر نموذج الشخصية الناجحة من المستوطنين الأوروبيين البسطاء والعاملين الكادحين، الذين حصلوا على الجنسية

¹ Voir: Jean-Louis Planche. Charles Courtin, romancier de l'affrontement colonial, op.cit. p.39.

² *حازت هذه الرواية La brousse qui mangea l'homme 1914 على الجائزة الأدبية الكبرى في 1928.

الفرنسية، ويمثلون شعباً جديداً في طور التكوين والتحضر. في "رجل البحر 1931"¹* لبول أشار، هاجر "باسكال غاليا" من مالطا إلى الجزائر حيث عانى الفقر والبؤس في شوارعها، ولم يتمكن من أن يتعلم في المدرسة الفرنسية القيم السامية على غرار ذوي الأصول الفرنسية، ولكن استطاع حفيده أن يصل إلى مراتب عالية في المجتمع الاستعماري بفضل جديته وعصاميته، فحظي بتكريم عظيم تقديراً لطموحه ونضاله من أجل تطوير المستعمرة والاندماج في إطارها. و«في آخر الرواية تتجلى العلاقة بين البطل والشعب الجديد عندما احتقل رئيس البلدية وشخصيات المدينة في أبهة كبيرة بمئوية جدّ تيتوس، يوم 14 جويلية 1930. كان لديه عمراً الاستعمار وكانت حياته تعبيراً حياً لجهود الشعب الغازي»². ولأجل ذلك «يرمز تيتوس إلى هذا الطموح المحموم، تماماً كما يلخص في شخصه الصعود الاجتماعي لعائلة مالطية»³.

وصل الجد "غاليا" حافي القدمين من جزيرته مالطا. راعي معز، وبائع خضر، ينتهي به الأمر بشراء عقار صغير في ضواحي مدينة الجزائر. افتتح ابنه متجراً في أحد شوارع التسوق الرئيسية بالمدينة، ويصبح حفيده رجل أعمال. «تاجر بطاطا، لن يكون لاتينياً كاملاً إذا لم يكن لديه ذوق للموسيقى والمسرح. وهكذا أصبح تيتوس، الجيل الثالث من غاليا، مديراً لقاعة الموسيقى والأوبرا، وسرعان ما لم تعد الجزائر تكفيه، حيث افتتح مطاعم وفنادق في باريس، ليشتري إسطنبول سباق يحرك الملايين وبعد أن غزا العاصمة (المتروبول)، عاد إلى الجزائر في هيبة نابليون وانتهت قصته بالمجد»⁴. تشير هذه الرواية الممزوجة بالسيرة الذاتية إلى صعود عائلة مالطية، واندماجها في المجتمع الاستعماري الذي يتشكل من عناصر عرقية مختلفة.

¹* حصل بول أشار على الجائزة الكبرى عن هذه الرواية في 1937.

² Ahmed Lanasri, La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres, op.cit. p.69.

³ La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres, ibid.

⁴ Louis Bertrand, Un Héros Algérien, Figaro-Dimanche 27 Décembre 1931.p.5.

أما لوران روبا¹* فقد كتب روايتين استوحاهما من واقع المستوطنين المالطيين، أو الفرنسيين الجدد في عنابة (بونة)، "نشيد الناعورة" "Le Chant de la Noria" 1932، و"Kâline" 1936، ورواية فلسفية حول حياته الروحية "بوراس" Bou-Ras 1960. في الأولى يرسم المعاناة التي عاشتها عائلة مالطية فقيرة متكونة من الأب لازارو وزوجته دورا وولدين لويجي وبييترو، وفدت إلى الجزائر قبل 1914، واشتغلت عند مستوطن فرنسي في منطقة سيبوس قرب عنابة. قامت باستصلاح الأراضي وحولتها إلى مزارع خضراء بفضل مساعدة اليد العاملة المحلية، لكنها غادرت المزرعة إثر سوء تفاهم بين رب العائلة لازارو وصاحب المزرعة. لحسن الحظ وجد الوالد العمل بستانيا في حديقة بمنطقة لعلايق، لتعرف العائلة بذلك الاستقرار وألوان التعب من أجل العيش². «كان لازارو، لكسب المزيد، كل ربيع لمدة عامين، يستأجر من وادي القبة أو الجسر الأبيض، عند سفح الجبل، مربعا من الأرض الحمراء على جانب تل كان يزرعه بالطماطم، أو يشتري المحصول من مائة شجرة ليمون أو برتقال أو خوخ. من سيحدد عدد دلاء الماء التي حملها من الوادي إلى حقل الطماطم؟ كم رحلة قام بها، مرتين في اليوم، بخطى سريعة، من المنزل إلى الجبل، من الجبل إلى السوق، من عشرة إلى اثني عشر كيلومترا، تحت النار، كتنافه مقطوعان بوزن سلتين من الفاكهة من عشرين إلى ثلاثين كيلو؟»³.

إن استذكار الأماكن المدينة التي كان تتجول فيها الشخصيات من أصل مالطي يدل مدى ارتباط السارد بالجزائر كبلد ثان، ميناء سيبوس، وشارع بوجو، والمقهى العربي. والأحياء التي سكنتها، لعلايق، والجسر الأبيض، وحي النعاج.

¹* لوران روبا Laurent Ropa، من أسرة مالطية استقرت بعنابة، ولد بمالطا 1891 وتوفي بفرنسا 1967. اشتغل في التعليم.

وله ديوان شعر من ثلاثة أجزاء حول عنابة وأحيائها، عنوانه "Le tombeau de Bou-Ras".

² Voir: Marc Donato, Laurent Ropa, écrivain bônois. Consulté le : 05.10.2021-21.00

http://piednoir.net/titre_rubrique/personnages/ropa.html

³ Marc Donato, Laurent Ropa, écrivain bônois, ibid.

2- رفض أطروحة الإدماج الرامية لتكوين شعب جزائري هجين

1.2- الأخوان تارو: خطر وجود الأعراق اللاتينية على الجزائر الفرنسية

في الوقت الذي طرح فيه بعض الكتاب الاستعماريين نظرية تكوين مجتمع جديد عن طريق امتزاج الأعراق الأوروبية في مطلع القرن العشرين، حيث بشر ميزات بالفكرة، وهلل لها بعد ذلك الروائي لويس برتران، ثم جسدها المتجزئون في أدبهم، وبلوروها في بياناتهم، ظهر خطاب مناوئ لأطروحة الشعب الهجين الذي يتألف من خليط من شعوب البحر المتوسط المنتمية إلى اليونان والرومان، يعيشون في الجزائر تحت راية فرنسا الإمبراطورية. انتقد حينذاك جيروم وجان تارو هذه المسألة الحساسة في رواية "العرس العربي" 1912 La Fête arabe، ورفض الكاتبان رفضاً باتاً أن يزاحم أيُّ عرق آخر الفرنسيين الأقحاح في الجزائر التي اعتبروها ملكية فرنسية خاصة وخالصة، غامرت فرنسا وكافحت بكل نفيس في سبيل ضمها كمقاطعة وراء البحر: «يا له من اشمئزاز، يا له من حزن أن نفكر في هؤلاء الأشخاص، كل يوم أكثر عددًا، ينزلون إلى جزائرنا، وقد وضعوا بالفعل قانونا هناك!»¹. صرخة استياء ضد السياسة الاستعمارية التي تريد أن تحول الجزائر إلى مستعمرة استيطانية تابعة لها، وصرفت الملايير في الغزو لتجعلها بقرة حلوبا للفرنسيين الجدد الذين يريدون تأسيس حياة أخرى في هذه الأرض الجديدة. ونبرة سخرية من الوفود اللاتينية المختلفة من الإيطاليين والإسبانيين والمالطيين الذين استفادوا من البقرة الحلوب دون جهد، وقد جاؤوا من بلدانهم بؤساء وفقراء بأعداد هائلة للاستقرار في الجزائر، ينهبون الفرنسي والأهلي على السواء، ويحوزون على السيادة، فانقلبت الأحوال لصالحهم. كانت قرية بن نزهو مثالا مصغرا لما حدث من تغيير جذري في الجزائر في عهد الجمهوريين، وتحطيم بنية الشعب الجزائري، ورمزا للمشروع الاستيطاني الذي طبقه الاستعمار الفرنسي بعد إنهاء الحكم العسكري وانتقال السلطة إلى المستوطنين المدنيين.

Jérôme et Jean Tharaud, La Fête arabe, Troisième édition, Ed Emile-Paul, Paris, 1912. p.3.

-1

تروي "العرس العربي" قصة طبيب عسكري من الجيش الاستعماري، أخذت طبيعة الجزائر بشغاف قلبه فاستقر في واحة بن نزهو (بنو المذات) بجنوب وهران خليفة للأهالي، وكان متعلما وذكيا يرغب في تغيير واقع الواحة الصامتة، ويعمل من أجل تطوير وضعية سكانها المسلمين النيام عن ركب التقدم الحضاري. تولى شؤون البلدة لتحقيق أهدافه المسطرة، لكن سيول الوافدين من سواحل البحر المتوسط، الذين تجنسوا وتألّفوا بسرعة أخطوا حساباته، جردوا الفرنسيين من بعض الامتيازات وأقلقوا راحة المجتمع المحلي وأفسدوا العرس العربي الذي كان يحلم به نابليون. سرعان ما انعكست موجة المهاجرين على تطور الواحة العربية التي تحولت إلى مدينة فرنسية جامعة للشذات والشذاذ، فتدهورت حالتها وأدت إلى ظهور اختلال في النواحي الاقتصادية والاجتماعية. اضطر الطبيب لمغادرة الواحة الجميلة واختار الذهاب جنوبا بحثا عن حياة عربية حقيقية في قبيلة صديقه الشاعر العربي محمد بن علي ناحية القرارة، حيث لا يزعجه وجود مدنية الأوروبيين.

تشاءم الكاتبان من مستقبل وجود الفرنسيين في أقرب مستعمرة فرنسية إلى فرنسا المتروبولية، فتحاملا على الأعراق الأخرى المنافسة ومجّدا العرق الفرنسي بصفته أفضل الأعراق اللاتينية أخلاقا، ويعتمدان في مسألة تفضيل العرب لهم عن غيرهم على ترديد مقولات ذكرها بعض الكتاب العسكريين الذين شاركوا في حملة الغزو الاستعماري، وتلقفها الرحالون الفرنسيون في القرن التاسع عشر، أمثال إيزوب وأوجين دوما، الذين قولوا بعض الشيوخ الطرقيين وزعموا أنها حقيقة، وحاولوا ترسيخها في ذهن العرب حتى يتقبلوا الاستعمار دون مقاومة: «نحن، الفرنسيين، بالنسبة لمسلمينا في إفريقيا، صنف أوروبي من العرق النبيل، ذو روح كريمة ومحاربة؛ من بين جميع الأمم، كان عرقنا أكثر من كرموا، فأخر عربي يكرر أنه إذا نطق الفرنسي فقط بالصيغة المقدسة [الشهادتين]، فإنه سيدخل الجنة قبل المسلمين أنفسهم، لأنه نبيل وعادل»¹. وهذا الزعم

Jérôme et Jean Tharaud, La Fête arabe, ibid. p.7.

1

يتعارض مع الممارسات اللإنسانية التي قام بها الجنرالات الفرنسيون ضد العرب خلال الغزوات العسكرية الأولى في الجزائر.

استنسخت الرواية تيمات استشراقية مستهلكة، لبست مسحة غرائبية نمطية ولخصت نزعة العرسية في حياة العربي، ابن الملذات، الذي لم تتنفس رئته هواء الحضارة منذ قرون، وتعلن نهاية هذا العرس الطويل. كانت هذه الصور الجاهزة قد ذكرت في الأعمال المترامنة مع بداية الاحتلال وتكررت إلى نهاية القرن التاسع عشر، وفي كتابات الرومانسيين الذين زاروا الجزائر في سياق الدعاية الاستعمارية التي كانت تستقصد إغراء الأوروبي وتخطب فضوله للمجهول وللبعيد: «تظل كل هذه الحياة الغرائبية غريبة عنك لدرجة أنها ممكن أن تظهر لك كأنها ليست حياة بحد ذاتها، بل كصورة، أو لوحة، تتكشف واقعتها الحقيقية في مكان ما على بعد آلاف الأماكن»¹.

فهل كان الحلم الشرقي عند الأخوين تارو إيديولوجيا نفعية على طريقة فرومنتان وموباسان، أم نزوة ذاتية على طريقة بيير لوتي، أم قناعة دينية صوفية مثل إيتيان ديني وإيزابيل إبرهارد؟ كان حلمهما يحيل إلى "المملكة العربية"، أن يمتزج الفرنسيون بالأهالي على طريقة هوس الإمبراطور نابليون الثالث الذي كان يرغب عام 1860 في تأسيس مملكة عربية يحكمها "ال خليفة نابليون" بحيث تتصالح روح الشرق الإسلامية²* وحضارة الغرب الصناعية!

حمل هذا الخطاب المناوئ لإدماج شعوب المتوسط انتقادا حادا للرسالة الحضارية الغربية التي قادتها فرنسا الاستعمارية مثلما قادت الحملات الصليبية إلى المشرق، وقد اتخذت العنف وسيلة لنشر تعاليم المسيحية التي قامت على السماحة، واعتمدت الحرب طريقة لإرساء مبادئ المدنية الأوروبية في شمال إفريقيا، واضطهاد سكانها الأصليين الذين أمسوا أذلاء تعساء بعد

La Fête arabe, ibid. p.43.

¹

²* ألف الأخوان كتابا عن الإسلام عنوانه "فرسان الله" Les cavaliers d'Allah، يتحدث عن الفتوحات الإسلامية.

احتلال أراضيهم. واستدل على ذلك بتصوير مشاهد الخراب والدمار اللذين أصابا الأهالي في ممتلكاتهم وديارهم وأنفسهم في طرابلس والغرب والريف، ومشاهد البؤس والفقر والتشويه والإقصاء في قرى بعيدة عن مزارع المستوطنين ومدن الاستعمار التي قامت على أنقاض المدن العربية في الجزائر.

قدّم ألان كالم في دراسته حول الرواية الاستعمارية في الجزائر الأخوين تارو على أنهما من الكتاب الاستعماريين "المُحبِّين للأهالي"¹ إلى جانب إيزابيل إبرهارد وإيتيان ديني اللذين بدا أثرهما جليا، لاسيما أن عملهما يتناص مع رواية "خضرا، راقصة أولاد نايل" في اسم البطل بن علي، ومكان الحدث منطقة القرارة، وجاءت وفق محتوى هذه الرواية المادحة لطبيعة الحياة العربية الفطرية، ورغبة الطبيب الفرنسي الطموح في تطوير معيشة الأهالي لو لم يعرقل جهوده المهاجرون (الكلابريا) الانتهازيون الذين استولوا على المناصب وأفسدوا الأمور. غير أن المضمون الروائي ذو بعد سياسي، وعبارة عن دعاية استعمارية للمشروع الفرنسي في الجزائر، ويستشف منه الدفاع عن مصالح المستوطنين من ذوي الأصول الفرنسية المهدّدة من قبل الجاليات اللاتينية الأخرى، وعدم الاعتراف بحق الأهالي وتجاهلهم باعتبارهم مستعمرين.

تعرضت الرواية إلى تحليل إشكالية الهوية التي طرحتها قضية تكوين الشعب الجديد في الجزائر المستعمرة، والصراع بين الجاليات والثقافات والتيارات المعاصرة. وبينت عقدة الاستعلاء والعنصرية عند الفرنسيين الذين يرون أنفسهم أرقى الأعراق، وتذمرهم من وجود الوافدين من ضفاف البحر المتوسط وتخلوا عن أصولهم واختلطوا بهم، والانزعاج من تحمل الفرنسيين مسؤولية الأخطاء التي يرتكبها هؤلاء الوافدون الجدد الحاملون الجنسية الفرنسية. لكنها تجاهلت السبب الرئيس في مأساة الأهالي العميقة، ألا وهو انتزاع الأرض واحتلالها، وتجريدهم من الأملاك وحق الانتساب إلى وطنهم الجزائر، وتهجيرهم إلى بلدان أخرى. وفي سياق ملكية

¹ Voir: Alain Calmes, Le roman colonial en Algérie avant 1914, L'Harmattan, Paris, 1984. p.223.

الأرض «قدم الكتاب توسع الاستعمار الفلاحي كوسيلة بامتياز لتأسيس غزو البلاد بشكل دائم، من خلال الاستيلاء على الأرض وتطويرها، وعن طريق تطوير العقارات وبناء قرى الاستعمار»¹ في شتى المناطق.

2.2- نبوءة الجزائر المستقلة: الوطن البربري أو الجمهورية البربرية

حصلت تغيرات جوهرية في المجتمع الاستعماري عقب الحرب العالمية الأولى التي قلبت الموازين بين الدول، وحين شارك فيها الأهالي بقوة لاسترجاع هيبة فرنسا أمام ألمانيا وكبح أطماعها التوسعية. وظهرت مؤشرات التصدع في المنظومة الاستعمارية في الجزائر أثارت مخاوف المستوطنين، وجعلت بعض الكتاب يستشعرون قروب نهاية الاستعمار في الجزائر. وحول تيمة مستقبل البلاد بعد خروج فرنسا عرفت الرواية الاستباقية عمليين استشرافيين عن هذا التحول في النظام السياسي، وانتقال الجزائر من مرحلة العبودية إلى عهد الاستقلال. كتب فكتور ترينغا في 1922 "بربروبوليس" Berbéropolis صنفتم ضمن رواية الإنذار، وبعده روبر راندو "عين العالم" L'œil du monde في 1927. بيد أن الروائيتين، حسب الناقدة كريستيان شولي، لم تنالا حقهما من الدراسة واستيفاء التحليل، خاصة رواية روبر راندو التي تعد نقطة انعطاف في مسيرة إيديولوجيا التجزؤ التي نادى بها.

1.2.2- هاجس تأسيس الدولة البربرية: بربروبوليس رواية إنذار وعنصرية

نظرا لوجود تعدد إثني وتنوع ثقافي في الجزائر المستعمرة مع مطلع القرن العشرين، كان تحديد هوية الشعب الجزائري الموحدة لجميع الأجناس، كما تخيلها الكتاب المتجزؤون، من الصعوبة بمكان بسبب ممارسات التمييز العرقي التي طبقتها سياسة الحكومة الاستعمارية منذ صدور قانوني كرميو والأندجينا. ولما كان تعداد العنصر الأهلي يزداد، ويزداد تمسكه بثقافته المحلية، والإحساس بوضعه المتردي في ارتفاع مستمر، ويتطور الوعي السياسي والوطني بعد

¹ Jean-Robert Henry, "Le roman de la lutte pour la terre en Algérie". Guignard, Didier. Propriété et société <en Algérie contemporaine. Quelles approches? op.cit.

الحرب العالمية الأولى، ومع انخفاض عدد المستوطنين، ساد القلق عند فرنسيي الجزائر على مصيرهم في هذا البلد وغموض مستقبلهم. وفي ظل هذه التحولات والمتغيرات نشر الدكتور فكتور ترينغا Victor Trenska ، الطبيب المدافع عن النظام الاستعماري والجزائر المستعمرة والمعارض للجزائر المستقلة، رواية بربوبوليس Berbéropolis، أو السنة الأربعين من إنشاء الجمهورية البربرية 1922. تأسست الرواية على مسألة إحياء أسطورة البربر بثقافة لاتينية، وبعث تاريخ السكان الأصليين وأمجادهم في الجزائر، وهي التيمة التي ركز عليها روبير راندو في "كسار البربري" 1920، وطورها بطرح فكرة الوطن الفرنكو بربري، سليل اللاتينية، وكذا لويس لوكوك في "مولوك" 1933 لإنكار الأثر الإسلامي في شمال إفريقيا وإبعاد العرب بسبب تنامي الكراهية (رهاب العرب)، وهي الأطروحة التي رسختها سياسة التفرقة الاستعمارية بين العرب الغزاة والبربر كورثة شرعيين للأرض (نزعة الميل إلى البربر).

بربوبوليس رواية استباقية، مستوحاة من الواقع الاستعماري المتطور في الجزائر نتيجة إصلاحات قانون جوناك المؤرخ في 4 فيفري 1919 بشأن انضمام المواطنين الجزائريين إلى المجال السياسي. ديستوبيا ساخرة من الطبقة الحاكمة، وعمل استشرافي وهجائي، ورؤيوي عن المناخ السياسي للمستعمرة أطلقه الكاتب كصفارة إنذار في وجه الحكومة الاستعمارية بسبب سياسة التشريعات القاضية بتوسيع الحقوق المدنية للأهالي من جهة، وتنبيه للمسؤولين الفاشلين الذين أساءوا إدارة شؤون المستعمرة من خطر فشل أطروحة الإدماج والغزو الثقافي، والتحديات التي تهدد بالدرجة الأولى المستوطنين في فترة حماس النضال الشيوعي وبرز مواقف معادية للاستعمار في العالم.

تخيّل حوادث قادمة في المستقبل تنعى الهيمنة الاستعمارية الفرنسية، سوف تشهدها الجزائر بعد أربعين سنة المتبقية لانجلاء الاحتلال الفرنسي من شمال إفريقيا، وتوقعات عما سوف يحصل في البلاد البربرية بعد طرد الفرنسيين ونيل الاستقلال في 1962. «نحن في مدينة

الجزائر حوالي عام 1920 (بعد قانون جوناك لعام 1919) ونحضر اجتماعًا نقابيًا لموظفي الغاز (المسلمين) المسؤولين عن الإيقاد. هذا الاجتماع له هدف ما قبل الانتخابات: جلب دعم أصوات أعضاء النقابات لمرشح أوروبي من أممية العمال. في نهاية الاجتماع، ينعقد لقاء في منزل بالقصبة بين ثلاثة جزائريين: الزعيم الثوري الذي قاد اللقاء، ومندوب مالي بارز ومرابط في الوقت نفسه، وبرجوازي قبائلي متفرنس. يتفق الرجال الثلاثة على أنه من أجل تصنيف الفرنسيين، من الضروري الاتحاد حول الدين»¹. تشير هذه الملامح إلى شخصيات وطنية جزائرية، ومناضلة حقيقية عرفت الساحة السياسية ما بين الحربين العالميتين. الزعيم الثوري هو الأمير خالد²* المرموز له باسم غالب، والذي كان في صفوف الجيش الاستعماري، والزعيم الوطني، والزعيم الديني. وعليه تتبدى في المقطع السابق هواجس الكاتب من صعود التيار الوطني الديني ووحدة المجتمع المستعمر بكل أطرافه وطبقاته، والتخطيط للثورة باسم الإسلام، والتوجس خيفة من الكفاح الذي سيفرض ضد المستوطنين.

يتوقع من خلال الاشتغال على الأسطورة البربرية بناء جمهورية بربرية حديثة إن اهتمت الحكومة بتعليم البربر وتكوينهم، ويتجسد ذلك في استعادة مثقفيهم، الذين يرى فيهم سرعة الذكاء والتفوق، من الحضارة الغربية. لكن، حسب فضيلة يحيوي، «تبدو "بربرية" ترينغا متناقضة تمامًا. أحيانًا يستنكر المؤلف الخطر البربري الذي يهدد "العمل الفرنسي". "إن شمال إفريقيا سوف يفلت منا إذا واصلنا العمل، هنا [...] من أجل ظهور ديمقراطية بربرية سنكون قد ساعدناها بأخطائنا الفادحة لتولد من الصفر. في بعض الأحيان، يتبنى فرضية استقلال حتمي للجزائر، يشيد في البربر باعتبارهم التلاميذ الطيبين الذين يعرفون كيف يستخدمون دروس الغرب

¹ Le roman colonial et l'idéologie coloniale en Algérie, op.cit. p.210.

²* الأمير خالد بن الهاشمي، هو حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ولد في دمشق عام 1875 حيث زاول دراسته، عاد إلى الجزائر في 1892 وشارك في الحرب العالمية الأولى لصالح فرنسا، ثم ناضل سياسيًا ضد الاستعمار وطالب بحقوق الجزائريين والمساواة مع المستوطنين، وساهم في تأسيس الحركة الوطنية ونجم شمال إفريقيا، وتعبئة الوطنيين لرفض سياسة الإدماج من أجل المحافظة على الشخصية الجزائرية.

لبناء جمهورية حديثة»¹. ونتيجة تلك الأخطاء الفادحة التي ارتكبها كبار المستعمرين تمكن البربر من بناء جمهورية بتقاليد حضارية أوروبربرية، وقاموا بإصلاحات جذرية على كل المستويات. و«إذا بدا العرب كمجموعة عرقية بمنأى عن ذلك، فذلك لأن فيكتور ترينغا لا يقلق بشأن تراخيهم وكسلهم ولأنهم متوافقون تمامًا مع دينهم، الإسلام، الذي هو غير قابل للذوبان على الإطلاق في القيم الغربية. فهدفه هم البربر»². فالخطر الأعظم سيأتي من البربر الذين يحفظون دروس الغرب.

عالجت هذه الرواية المتشائمة عيوب السياسة الاستعمارية في جزائر ما بعد الحرب العالمية الأولى، وانتقدت ممارسات الأقلية المسيطرة على زمام الأمور من أجل مصالحها الشخصية، وأهملت المصلحة العليا في المستعمرة، فتركزت المجال السياسي مرتعا للأهالي الوطنيين للمطالبة بتطبيق الشعارات والقوانين، والانخراط في العمل النقابي. تلك الجهود المعتمدة التي أتت بثمارها مع الأحزاب السياسية الوطنية، مثل نجم شمال إفريقيا في 1926، والتنظيمات النقابية والإصلاحية الدينية، مثل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 1931.

2.2.2- مستقبل الوطن البربري في "عين العالم" لروبير راندو

كان راندو سابقا إلى الإشادة بالبربر وتمسكهم بالأرض، وتجسيد حلم الوطن البربري في "كسار البربري" 1920 قبل أن يختطف فكتور ترينغا الفكرة، ويتخذها تيمة محورية في "بربروبوليس" لمهاجمة النظام السياسي القائم، والتحذير من الأخطار القادمة على الوجود الفرنسي في الجزائر. وفي روايته الاستباقية "عين العالم" 1927 L'œil du monde يذكر راندو هذا الوطن من خلال وصف طبوغرافيا المرتفعات التي استقر على أرضها أسلاف بطله الفرنكو بربري داود أو دافيد: «في سلسلة جبال الونشريس المنطقة التي تفصل في الجزائر هضاب

¹ Le roman colonial et l'idéologie coloniale en Algérie, ibid. p.214.

² Christiane Chaulet Achour, "Un roman d'alerte: 1962 en 1922. Berbéropolis... l'an quarante de la République berbère par Victor Trenga (Alger, 1922)", Babel [Online], 38 | 2018, Online since 01 February 2019, connection on 13 January 2021. URL: <http://journals.openedition.org/babel/5995>; DOI: <https://doi.org/10.4000/babel.5995>

سيرسو عن سهل أورليانفيل حددت الثروة إقامتي. يتكون نظامنا الأوروغرافي [علم الجبال]، وهو جزء من الوطن البربري، من تراكمات معقدة من المرتفعات»¹.

أوصاف البطل تشبه المستوطن "كسار"، شخصية ذات أصول هجينة اختلط الأصل البربري بالفرنسيين لثلاثة أجيال. طبيب جراح يعيش، مثله، في الجبال، لكن في الونشريس وليس في جبال بلاد القبائل. فسلسلة الأطلس التلي على امتداد أطرافها عرفت منذ القديم استقرار العرق البربري قبل الغزو الروماني لشمال إفريقيا. تتبأ بهجرة السكان الأصليين من الجزائر، وتركها لعبث استعمار جديد، للفوضويين الآسيويين من الصينيين والتبتيين (سكان التبت) والهنود والروس والتتار، بعد انتصار الشيوعية بشكل كامل.

وعلى غرار ترينغا يحذر راندو من الخطر الشيوعي القادم من الشرق، ويتوقع انقلاب القيم والموازن السياسية في حال سيطرة شعار الأحمر على البلاد، منددا بمبادئ الشيوعية الهدامة التي تهدف إلى طمس شخصية الأفراد، ومحو هوية المجتمعات عبر سياسة الشيوع بمصادرة ملكية الأراضي من المواطنين، وفرض عقيدة الإلحاد وغياب الملكية الرأسمالية. «قمعت الشيوعية المؤيدة للمساواة شخصية الشعوب من خلال توفير الغذاء العلمي لاحتياجات الوعي البشري. كان الخطأ في هذا النظام هو إلغاء الاعتقاد بالمعجزة. المتقدمون الآخرون بين الرجال، حين تيقنوا من عدم وجود إله مجسم، صنعوا آلهة من عواطفهم وانتفضوا ضد محرريهم»². يكشف هذا الرهاب من الشيوعية عند ترينغا وراندو عن خوفهما على مستقبل الجزائر المستعمرة، والتي كانت ستعصف حتما بمصالح المستوطنين الفرنسيين.

¹ Robert Randau, L'œil du monde, FeniXX réédition numérique (Éditions du monde moderne 1927) p.19. pdf.

² Robert Randau, L'œil du monde, ibid. p.21.

6- استمرار النظرة الاستشراقية الغرائبية في مطلع القرن العشرين

1.6- إيتيان ديني (نصر الدين ديني):

يختلف ألفونس إيتيان ديني Dinet عن بقية الكتاب الرحالين والرسامين المستشرقين الفرنسيين الذين زاروا الجزائر في كونه عاش طويلا في وسط المجتمع الجزائري، وألف الأهالي بعدما تعرف على عاداتهم ونفذ إلى ذهنيته، مثل بيير لوتي وإيزابيل إبرهارد التي أقامت ببوسعادة فترة وجيزة، وأعجب ببساطة حياتهم وجسدها في لوحات ابتعدت عن الابتذال الصادم الذي ميز فنه في بداية مجيئه، فاتسمت بالحشمة في أواخر عمره، عندما أسلم وتسمى "نصر الدين"، وحج ودفن في بوسعادة حيث فضل العيش في بيت متواضع، زاهدا في الحياة الأرسقراطية التي نشأ عليها، أو هكذا كان يبدو، على الأقل، للأهالي الطيبين المدجنين. مرت حياته بمرحلتين هامتين، قبل إعلان إسلامه واستقراره في بوسعادة وأثنائه، وتركت بصماتها في أعمال فنية كثيرة من وحي مدينة بوسعادة، وكتب فكرية حول قضايا الثقافة الإسلامية، مثل ربيع القلوب 1902 وحياة محمد رسول الله 1918.

"خضرا، راقصة أولاد نايل" *Khadra, la danseuse des Ouled Naïls*، رواية كتبها إيتيان ديني (1861-1929) عام 1909 بمعوية صديقه وولده بالتبني الجزائري سليمان بن إبراهيم الذي كان أميًّا، ونشرت في 1910 قبل أن يعتنق ديني الإسلام سنة 1913، وأعيد نشرها في 1926 عشية الاحتفال بمئوية احتلال الجزائر 1930 بعد موته بعام. وهو عمل إثنوغرافي موجه للمتلقى الغربي الولوع بالشرق وشبق حريمه باعتباره موضة أدبية مطلوبة، وكان لها جمهور عريض في القرن التاسع عشر، لكن بدأ يخبو بريقها قليلا في مطلع القرن العشرين، فأراد أن يبعثه من جديد لجذب انتباه المستوطنين، ويحمل المشعل بصفته مستشقا مقلدا، يسير على خطى نظرائه مثل دولاكروا وفرومنتان ولوتي في تجميد صورة الشرق. خاطب الأوروبيين الراغبين في السفر إلى الجزائر والتعرف على مناظرها وثقافتها، ومعالمها في بوسعادة ومناطق أخرى حيث تستقر أولاد نايل أكبر قبيلة عربية في الجزائر. «تقدم الرواية نفسها على أنها بمثابة

المرشد السياحي، وحتى بائع المدينة العمومي الذي يبيع (للمباهاة) بضاعة يبسطها ويعرضها ويكشفها لعيون الجمهور المستهلك»¹، يعيد الكاتب بعث وإنتاج أسطورة الحريم الاستعماري بكل تفاصيلها الغرائبية التي تفصح عن نية ديني الذي بقي فرنسيا حتى النخاع، وطنيا وفيها لسياسة بلاده رغم إسلامه. فغرضه من ذلك تمثيل الأنثى الشرقية الشبقة أو المرأة الأهلية المتمردة في مشاهد غير لائقة، تلك الصورة الاختزالية التي انبنت عليها سرديات الاستشراق، وحفلت بها لوحات الفن التشكيلي المتخمة بالفكر الاستعماري.

تتناول الرواية تيمة البغاء عند نساء الصحراء، أو المرأة الملقبة راقصة أولاد نايل التي نحت فرومنتان أسطورتها في "صيف في الصحراء"، وكانت نموذجا لنساء الجنوب المستزرقات بالجسد، ثم أصبحت معادلا موضوعيا لكل بنات الهوى الأهليات، وحافظت مذ ذاك على ديمومتها بالوهج نفسه حتى نهاية القرن التاسع عشر. وقد استثمرت قبل ديني إيزابيل إبرهارد هذه التيمة الاجتماعية في هذه الحقبة التي عدل فيها بعض الكتاب عن الطابع الغرائبي، وبلورتها في أقاصيص عديدة منها على سبيل المثال "صورة شخصية لغانية أولاد نايل" و"دموع اللوز" في مجموعة "صفحات الإسلام" و"الراقصة". واستمر سحرها حتى مطلع القرن العشرين عند جيد في رواياته السير ذاتية، ثم خاض إيتيان ديني نفسه التجربة الروائية ليساهم في تخليد واحات بوسعادة الجميلة، لانتمائها إلى عرش أولاد نايل، الفضاء الجغرافي الذي اختاره لإقامته الدائمة بين النايليات، ووصف نمط الحياة البوسعدية البائسة ويوميات شوارعها، فقد كان يسكن في شارع الموامين غير بعيد عن شارع أولاد نايل (النايليات)، و«كان شارع أولاد نايل في بوسعادة هو الأكثر ازدحاماً في المدينة. على ما يبدو، بطبيعة الحال، لأن شارع الحب والفرح كان أيضاً مكان الموت والمشاجرات»².

¹ Clara Calargé, La Danse des Représentations, tentative de peindre ce qui n'est plus. p.206. Une étude de Khadra, danseuse Ouled Naïl, French Forum / Fall 2012 / Vol. 37, No. 3. <https://muse.jhu.edu/article/505101>.

² Barkahoum Ferhati, « La danseuse prostituée dite « Ouled Naïl », entre mythe et réalité (1830-1962). Des rapports sociaux et des pratiques concrètes. », Cléo. Histoire, femmes et sociétés [Online], 17 | 2003, Online =

ومن شارع الحب والموت في الزمن الاستعماري استلهم ديني لوحاته الإيروتيكية التي لا تعبر بالضرورة عن تقاليد المنطقة ولا يمكن أن تُعمم على بقية المناطق، وروايته الوحيدة "خضرا" طعن ومرغ شرف النايليات، ليخدم أجندة الإمبريالية بطريقة غير مباشرة، أكثر دهاء وأقرب إلى التجسس على الأهالي منها إلى الألفة، ألا وهي اعتماد خطة واعية، وخادعة لا تدرك بالأبصار، وقوة ناعمة لتتويم العقل الشرقي الذي يؤمن ببراءة الغربيين، وتغير نظرتهم السلبية التي تعود عليها الشرق منذ قرون.

فضاء بوسعادة الروائي مكان إغرائي، يحاكي المتخيل الاستشراقي المرسخ حول المرأة العربية المسلمة، ولا يرصد واقعا الحقيقي المحافظ، فضاء مشبوه يشبه لوحات ديني الحافلة بمشاهد الخلاعة والعري المستمدة من بيئة المواخير المنبوذة والملاهي الموبوءة بالانحراف، التي قد انتشرت في عهد الاستعمار، فلم يتخلص منها رغم إسلامه. قصة «شابة نايلية، أمها وزوجها زوجاها لشيخ مرابط، بعد شهر فرت إلى "مقهى للهو" في الجلفة. هامت مع حبيبها بن علي بدوي من الرحل، الذي بادلها الحب. لكن والدتها طاوس أعادتها إلى المقهى ببوسعادة لتضمن مدخولا حسنا تجنيه خضرا بجمالها. وبسبب الغيرة تعرض بن علي إلى مضايقات من الناس، فهرب المحبان إلى القرارة. سفر شاق إلى الصحراء جعل بن علي يمارس التهريب؛ أدين وحكم عليه بالسجن. في هذه الأثناء تنقلت خضرا بين غرداية وورقلة وبسكرة دائما في مقاهي اللهو. في بوسعادة التقت ببن علي من جديد، وبسبب الحسد اغتيل، فأصبحت مجنونة»¹. إذن هي معاناة الراقصة النايلية "خضرا" بنت طاوس التي أحبت بن علي، فعاشت معه مغامرة جميلة قصيرة، تنتهي نهاية مأساوية بعد مقتل حبيبها، فتنهار أعصابها وتفقد عقلها. و«الرواية، وهي

=since 27 November 2006, connection on 30 June 2020. URL: <http://journals.openedition.org/clio/584>; DOI :

<https://doi.org/10.4000/clio.584>

Charles Taillart, L'Algérie dans la littérature française, essai de bibliographie méthodique et raisonnée jusqu'à l'année 1924, op.cit. p.40.

¹

تمجد جمال خضرا وبعض صديقاتها، تظهرهن ضعيفات ومتلونات ومتقلبات وغالبًا ما يكذبن وعديمت الضمير»¹، مثل أخلاق كل بطلات حريم الاستعمار الغربي.

لم تأت الرواية بشيء جديد، بل ركزت على التصوير النمطي الفولكلوري لشخصيات نسائية بزيهن التقليدي وحليهن، واستنساخ وصف مناظر الطبيعة الغرائبي، وتكرار صيغ الإعجاب والانجذاب والإدهاش. واستعمال مفردات اللهجة المحلية، مع تطعيمها باقتباسات من القرآن (وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون) الآية 48 من سورة النمل، والأمثال الشعبية (ميات مسلة ما جي سكين). عرض الأحداث بسيط ليس فيه مفاجآت رغم تطور الظروف السياسية والاقتصادية في المجتمع، وحتى الأدبية في القرن العشرين، بل تتشابه فكرتها وغالبية حوادثها مع نصوص سردية سابقة عليها بعشرات السنين.

يكشف هذا النص عن نظرة الأنا الغربي الثابتة تجاه العرب، المتجلية في رصد قيم الاختلاف بين الشرق والغرب، الممثلة في تصوير غرائبية أخلاقهم وعاداتهم، خاصة ما يتعلق بمسألة الأعراف السهلة في المجتمع النايلي، التي تتركز على التجارة بأعراض النساء النايليات، ووضعية هؤلاء الراقصات اللواتي يضطرن أو يفضلن عرض أجسادهن للحصول على المال من أجل الثراء أو لتوفير مهر الزواج، وتقديمهن بديلا عن الحرائر اللواتي كان يتعذر على الكتاب والرسامين الأوروبيين رؤيتهن مكشوفات، فضلا عن مخطط الترويج للسياحة الجنسية، أحد المجالات الحيوية في سياسة الاستعمار بالجزائر.

2.6- الصحراء الاستعمارية: استعادة الصور الغرائبية لأسطورة الصحراء الجزائرية

استجابة لما يطلبه المتلقي الغربي في أوروبا من إنتاج أدبي يقدم مغامرات عجيبة مركزها الرئيس المستعمرات، ورحلات متخيلة إلى البلدان الغريبة واكتشاف ثقافة الآخر المختلفة، ورغبة

¹ Clara Calargé, La Danse des Représentations, tentative de peindre ce qui n'est plus, Une étude de Khadra, danseuse Ouled Naïl, op.cit. p.208.

في إعادة تمثيل ذوق الغرائبي الذي وسم إنتاج المستشرقين الأولين، أمثال فرومنتان وموباسان في رمال الجلفة والأغواط وغرداية إلى بسكرة، عرفت كتابة المغامرات الغرائبية الاستعمارية إقبالا واسعا عند جمهور القراء في القرن العشرين وعودة قوية ومستحسنة للأدب الغرائبي الصحراوي، وقد تمحورت تيماته حول التفوق الغربي والمركزية الأوروبية، لدى الأدباء الشغوفين والمتحمسين للغوص في فضاء الصحاري الواسعة والمجهولة «لدرجة تقديم الصحراء على أنها الدورادو جديد»¹ أو جنة موعودة. فبعد التجارب الأدبية التي استفاضت فيها إيزابيل إبرهارد وأندري جيد مع العرب البدويين في صحراء باتنة وبسكرة والوادي، وإيتيان ديني في واحات بوسعادة أواخر القرن التاسع عشر، و«بعد غزو الجزائر وشمال إفريقيا، أدى استيلاء فرنسا الاستعمارية على الصحراء إلى إضفاء الكثير من الضوء على المتخيل الفرنسي بإشارة قوية إلى الصحراء»²، خاصة بعد تشييد الفنادق ومؤسسات الأسفار، وتطوير وسائل النقل كالقطار والطائرة.

وعلى منوال مغامرات "تارتران دو تاراسكون" الهزلية لدودي، حاول ج. دُماج Demage، وكان كاتباً مجهولاً ومستوطناً عاش في الجزائر وطاف في مناطق عدة، أن يكتب رواية صحراوية، كما يدل عليها عنوانها "عبر الصحراء، مغامرات ماريوس مركوران العجيبة A travers le Sahara: aventures merveilleuses de Marius Mercurin. 1903، وأراد أن تدور هذه المغامرات في الفضاء الصحراوي، إذ كانت الصحراء قبل القرن العشرين مكاناً غير معروف لدى معظم الناس في أوروبا. الرواية مثقلة بالصور النمطية والأحكام المسبقة، مثلها مثل مغامرات تارتران؛ ومليئة بالاقتباسات والإحالات جمعها من كتب عديدة (الجنرال أوجين دوما مثلاً). موجهة، وفقاً لمقدمتها، للمتلقين الشباب من الجنسين، وجاءت في قالب بسيط وبطلها

¹ Jacques Frémeaux, Un rêve saharien? Armée de terre | « Inflexions » 2011/3 N° 18. p.57.

<https://www.cain.info/revue-inflexions-2011-3page-47.htm>

² Jean-Robert Henry, Jean-Louis Marçot et Jean-Yves Moisseron, « Développer le désert: anciennes et nouvelles utopies », L'Année du Maghreb [En ligne], VII | 2011, mis en ligne le 01 janvier 2013, consulté le 11 décembre 2020. URL: <http://journals.openedition.org/anneemaghreb/1167>; DOI :

<https://doi.org/10.4000/anneemaghreb.1167>

شخصية متواضعة ومرحة، «غير أن البطل المتواضع، المتحمس والشجاع، بدا [للكاتب] أنه يستحق اهتمام القارئ الوطني والمسيحي»¹، وبأسلوب دعائي يمدح الرسالة الحضارية المستلهمة من الروح الصليبية، التي كان يقوم بها الاستعمار الفرنسي بالسيف في الجزائر وغيرها من المستعمرات الأخرى التي عمّها التخلف والجهل: «أخيراً رأى في [المؤسسة الاقتصادية] العمل الحضاري للإنجيل يخترق الشعوب الوثنية، وكلمة المسيح تبشر مرة أخرى في الصحراء تحت حماية الإسلام، انتقاماً مدوياً لموت القديس لويس وأسر القبر المقدس»².

أتى التاجر الصغير ماريوس مركوران المنحدر من جنوب فرنسا إلى الجزائر، شاب شغوف بمغامرات الأسفار التي كان يطالعها منذ الصغر (ديفو، وغوستاف إيمار، ودودي، وجول فارن). عزم على تنفيذ مشروعه العابر للصحراء، ورغبته في استكشاف مجاهلها، يتسلى عن الهموم بعد خيبة الأمل في الارتباط بجارته الحسنة الآنسة توفوني. زار أماكن عديدة في مقاطعاتها الثلاث وهران والجزائر وقسنطينة، ووصل إلى بوابة الصحراء على ظهر مهر سريع. التقى في مسيرته الطويلة بثلاث شخصيات طريفة، ومتباينة العرق والثقافة استعان بها، بعقد اجتماعي، لمواصلة مسار الرحلة إلى قلب الصحراء الكبرى، ماردوخي بن شلومو اليهودي الذي اتفق معه نظير المال في بسكرة، وعلي بن حاج مصطفى العربي الذي أنقذ حياته مرتين فخدمه إلى غاية الهقار، والعبد أحامدو الزنجي الذي اشتراه في النيجر وأعتقه ورافقه لخدمته. وهذه القافلة الصغيرة التي جمعت كل الأعراق والديانات بمثابة مجتمع متعدد الثقافات واعد، يعبر عن الأمل في التعايش رغم الاختلاف، ويتوحد ضمن المجتمع الاستعماري الجديد الذي كان في طور التكوين، بشرط أن يكون الفرنسي المتفوق هو السيد.

بدأت رحلة استكشاف الفضاء الصحراوي اللامتناهي من بسكرة، المنقسمة إلى إثنيات، مدينة عربية، وقرية الزنوج، ومدينة أوروبية تتصارع من أجل البقاء. بسكرة بوابة، تفصل البلاد بين

¹ G. Demage, A travers le Sahara, Aventures merveilleuses de Marius Mercurin, Librairie Hachette, Paris, 1903. p.5.

² Demage, A travers le Sahara, ibid. p.248.

أراضي الشمال الخصبة والجنوب القاحط، «ليست الجزائر، وليست بعد الصحراء»¹. كانت السوق العربية أول مشهد غير مألوف رآه ماريوس في هذه المدينة. خارج المدينة المأهولة بدت له ملامح الصحراء الموحشة في الشمس المهيمنة في كل الأماكن، على الكثبان الرملية القاحلة، والنباتات النادرة، والآبار المتباعدة، والبحيرات المالحة (السبخات)، والشطوط المائية القليلة، كشط مروان وشط ملغيغ، التي يعتقد أنها كانت موقع البحر الداخلي المغمور (البحر الصحراوي)².*

ظهر الاختلاف الثقافي في شخصيات الرواية المتميزة، كل شخصية التقاها ماريوس بانث ملامحها في النسق الاجتماعي، ومثلت هويتها في الاسم واللسان، ووصف الزي والأخلاق، والعادات والمعتقدات، وتبلور الصراع الإثني في تبادل التهم والسباب بين الأهالي اليهود والعرب المسلمين. تطرقت الرواية إلى البعد الاجتماعي عند مجتمع التوارف وانقسام سكانه إلى طائفتين متطاحنتين، توارف أزجر وتوارف أهقار. يتخلل سرد أحداث الرحلة إشارات تاريخية شهدتها تلك الأماكن التي توقف عندها ماريوس وأصحابه من سواحل الجزائر مروراً بصحرائها إلى النيجر وبحيرة التشاد، حول الوجود الروماني القديم في إفريقيا، والتركي في الجزائر وهمجية سكان البربر قبل الاحتلال الفرنسي.

و«لكن العصر الذهبي الحقيقي للأدب الصحراوي جاء بعد الحرب العالمية الأولى. ببير بينوا، مع L'Atlantide (1920) وبشكل خاص جوزيف بايري[...] أعطيا الرواية الصحراوية نضجها»³. تأثرت أعمالهما الروائية بالأدب المعرفي، حسب عبارة بول باندوفلي، الذي أنتجه الرحالون المستكشفون حين قاموا برحلات جغرافية إلى الصحراء غداة الاحتلال وأنجزوا دراسات إثنولوجية، لتسهيل مهمة الجيش الاستعماري في السيطرة على المنطقة منهم، أوجين دوما،

¹ Demage, A travers le Sahara. p.24.

² البحر الذي أراد الضابط الفرنسي رودار إنجازَه في 1874؛ وجد حوله بقايا عظام الحيوانات المهملة.

³ Jean-Robert Henry, Jean-Louis Marçot et Jean-Yves Moissoner, « Développer le désert et nouvelles utopies: anciennes », op.cit.

وهنري ديفيرييه، ثم الأب ميشال فوكو المدفون هناك. فقد ألهمت صحراء الجزائر الكبرى كلا من بيير بينوا Pierre Benoit^{1*}، وجوزيف بايري Joseph Peyré، واتجهت رواياتهما إلى أسطورة الصحراء ومجتمع التوارف عبر تصوير بيئة الصحراويين، وتخيل عنف طبيعتهم القاحلة وحياتهم البدائية، وخصوصية ثقافة التوارف الأمازيغية.

بعد صدور رواية جول فارن "اجتياح البحر" 1904 حول أسطورة الأطلنطيد، تلك القارة المفقودة التي سبق أن ذكرها أفلاطون، وتصوير صحراء التوارف قبل احتلالها، ألف بيير بينوا رواية "الأطلنطيد" L'Atlantide^{2**} في 1919، وحازت في السنة نفسها على جائزة رواية الأكاديمية الفرنسية. استغل الأسطورة نفسها، وكتب حولها رواية عجائبية مرعبة، جمعت تناقضات الحياة في امرأة صحراوية غير عادية، مغامرة جسدت أحاسيس متباينة بين الرغبة والشهوة والحب، والحرب والموت في نص واحد يمزج بين الخيالي والواقعي. كان لا بد أن تقع الأحداث في مكان مجهول، مخوف بالمخاطر والأهوال، ولا يوجد أفضل من أعماق الصحراء الجزائرية لتكون مسرحا للغرائبية، يميزها انتظار المفاجآت ووصف الفواجع. أبطال المغامرة ضباط فرنسيون في صفوف جيش إفريقيا الاستعماري، أوكلت إليهم مهمة عسكرية علمية تهدف إلى استكشاف أسرار المناطق الصحراوية البعيدة قصد إخضاعها، والبحث عن موقع الأطلنطيد وآثار البحر الصحراوي. فقد ظلت صحراء الجزائر في الهقار والطاسيلي لغزا غامضا لدى العسكريين، وأماكن مجهولة وصعبة الاقتحام حتى نهاية القرن التاسع عشر.

تفتتح الرواية برسالة من الملازم أوليفيه فيريير، تشير إلى حادثة زهاب زميله في الدراسة الضابط أندري دو سان آفي رفقة الضابط جان ماري فرانسوا مورانج في الحملة الأولى إلى الصحراء قبل ست سنين مضت. حامت حوله الشكوك في مقتل الضابط مورانج فرفض جميع

^{1*} أسس لوكوك مع بيير بينوا Pierre Benoit المجلة المتوسطية عام 1905.

^{2**} ترجمت هذه الرواية إلى لغات متعددة، وتحولت إلى أعمال سينمائية.

الضباط صحبته، لما عزم النقيب أندري على القيام بحملة ثانية إلى الهقار. روى ما حدث له في تلك الرحلة المشؤومة لرفيقه أوليفيه فاقتنع بأقواله وارتاحت إليه نفسه.

تدور أحداث الرواية في عام 1903 حيث انطلق من معسكر حاسي إنيفل بواحات ورقلة ضابطان فرنسيان من هيئتين مختلفتين، الملازم أندري دو سان آفي والنقيب جان ماري فرانسوا مورانج في رحلة استكشافية جغرافية إلى قلب الصحراء الجزائرية، بلاد الخوف والموت. خلال هذه الرحلة وقعا في الأسر واقتاداهما المرشد السياحي صغير بن الشيخ بعد تخديرهما إلى مملكة مجهولة في دهايز الهقار، تحكمها ملكة ذات جمال فاتن، «صنف من الفتاة الصغيرة النحيلة، ذات عيون خضراء طويلة، صورة صقر صغير. أدونيس أكثر عصبية. ملكة سبأ في حالة طفلة، لكن بنظرة، وابتسامة، على عكس ما رأيناه في الشرقيات. معجزة السخرية والارتباك»¹. أنتينيا غامضة الأصول، قيل إنها من نسل نبتون. مملكة العنف والخوف تقع في مكان مغلق تحيط به الجبال ولا يستطيع أحد الهروب. كانت أنتينيا تأمر بختف المستكشفين الشباب، وبعد فترة معينة من الإغراء تقتلهم كلهم باسم الحب، وتحنطهم في غرفة الرخام الأحمر تحت أرقام تتضمن معلومات شخصية عن الضحية، كان آخرهم النقيب الوسيم مورانج. افتتن أندري بجمالها وشخصيتها القوية فأحبها، لكنه خاف على نفسه من العذاب والموت، فتمكن من الفرار ونجا من السجن، ولكن لم يتمكن من نسيان حبها.

طرح الكاتب مسألة التوسع الاستعماري الفرنسي في الأراضي الجزائرية الذي اكتمل باجتياح واحات الصحراء في أقصى الجنوب على حدود ليبيا والنيجر. وأشاد بالضباط المستكشفين العاملين في المؤسسة العسكرية الاستعمارية الذين يواجهون الأخطار في خدمة بلادهم، وبالمهمة الحضارية التي يقوم بها الجيش الباسل، مجلاً جهودهم في تلك الحملات: «سيكون هناك يوم يكتب فيه تاريخ لطيف متناقض للتوسع الاستعماري الفرنسي، والذي كان يتم دائماً دون علم

¹ Pierre Benoit, L'Atlantide, Edition Ebooks libres et gratuits, Mars 2013.p.145.

السلطات، عندما لم يكن ذلك رغم أنهم¹. وجد في هذه الرواية فرصة لتوظيف مجموعة من الصور الجاهزة التي تعمق مفهوم الاختلاف الثقافي بين الغرب والشعوب المستعمرة، وتسويغ التوسع الاستعماري لمواصلة نهب الأرض، وتأييد مشروع فرنسا الإمبراطورية المتمثل في المهمة الحضارية من أجل إخضاع الآخر المختلف والملون. يبين تفوق الثقافة الغربية المؤسسة على التطور العلمي من خلال النظريات والاكتشافات الميدانية، والمعدات المتطورة التي كان يحملها الجنود الفرنسيون. يبدو بجلاء مؤشرات دونية الأهالي التوارف البدائيين في الهقار في إعجابهم بباريس عاصمة الحضارة الغربية، والمرأة الأوروبية ممثلة للجمال والثقافة العالية، حيث طلب أحد زعماء التوارف الحاج أحمد يد الفتاة كليمنتين، وأخذها إلى مملكته وهي حامل من كزيمير بيلوفسكي البولوني سفاحا، فأنجبت طفلة جميلة أصبحت ملكة على التوارف هي أنتينيا وفي التاريخ الرسمي التارفي تين هينان. المرأة الفرنسية الأصل، والأنثى الأهلية التي نشأت على عادات البدو وقررت الانتقام لبنات جنسها من الرجال، السجناء الأوروبيين، تحيي الصراع الأزلي بين الرجل والمرأة مستعملة أسلحة الأنوثة الفتاكة، الجسد الشهواني الخادع والحب الرومانسي الوهمي، غير القوة المادية التي يستخدمها الرجل لقمع المرأة. وربما تأثر بينوا في هذا المجال بآراء الحركة النسوية التي كانت تكثف جهود النضال من أجل رد الاعتبار للمرأة المضطهدة والاعتراف بمكانتها، وعدم احتقارها ومساواتها أمام الرجل. امرأة لا تقاوم سيضحي عاشقها بكل غالٍ، كما قال الأستاذ لو ميغ العجوز للضابطين «بالعائلة، والبلد، والشرف، ستتكرون كل شيء من أجلها»².

تأثت الفضاء الغرائبي بعناصر نادرة ومذهلة، فالطبيعة المتناقضة تصدم أندري مثل الطفل: «الغدير الأزرق، والنخيل الخضر، والفواكه الذهبية، وفوق هذا الثلج المعجزة، كل هذا، في الهواء غير المادي بفعل السيولة، تألف من شيء نقي جداً، جميل جداً، لدرجة أن قوتي البشرية

Pierre Benoit, L'Atlantide. p.42.

Ibid. p.136.

-1

-2

الضعيفة لم تستطع التقاط الصورة مدة طويلة»¹. الطبيعة العنيفة مثل العواصف الهوجاء والأمطار الطوفانية والكهوف الموحشة، والحيوانات المفترسة والداجنة. يصف سان آفي الطبيعة المدهشة، واحات رملية تقاسي الجفاف والفيضان، «تدحرجت المياه غير المتوقعة فوق الرمال، ورأينا، تحت الضوء الذي ضاعفها، سمكة سوداء صغيرة. سمك في وسط الصحراء! نحن الثلاثة بقينا صامتين في وجه هذه المفارقة الطبيعة»². تماثلها شراسة طبائع سكانها التوارف البدائيين، ولهذا كلاهما في حاجة إلى إصلاح وتهذيب وترويض كيما يندمجوا في إطار الحياة الجديدة التي حددها لهم الاستعمار.

في النسق الديني يشير إلى ماضي التوارف المسيحي³، فرغم إسلامهم لا يزالون مستمسكين برموز مسيحية، كالصليب المرسوم في كل أشياءهم، والموشوم على أجسادهم، والجرس المعلق في رقاب حيواناتهم، بل متشبثين بالبدع والخرافات كاتخاذ التمام. يبين وجود تشابه لاهوتي في لفظ أدوناي اليهودي، وأمناي التارفي، والاعتقاد بوجود النار في الآخرة⁴، ولا شك أن لفظ الملائكة "أنجليس" مأخوذ من اللاتينية. وهي دلائل ملموسة، حسب، على عدم تغلغل العقيدة الإسلامية في قلوبهم. يعلل هذا الحكم بأن ذكر «بأن التوارف قاتلوا عبر العصور، حتى شبه الإبادة، للحفاظ على المعتقدات ضد تجاوزات التعصب المحمدي»⁵.

لإضفاء لمسات اللون المحلي للترويج للسياحة الاستعمارية، يلاحظ الاهتمام الكبير بالسرد التوثيقي لمعلومات غزيرة، اقتبسها من دراسة المستكشف السان سيموني هنري ديفيرييه Duveyrier، حول أسماء عديدة من الأماكن المحلية الصحراوية، والقبائل البدوية، والشخصيات

¹ L'Atlantide, ibid. p.99.

² Ibid. p.50.

³ هناك مصادر قديمة أشارت إلى توغل الرومان في المنطقة، وينتمي التوارف، حسبها، إلى Garamantes، التي تحولت إلى بير الغرامة. يضاف إلى هذه المعتقدات السمات الفيزيولوجية القريبة من العرق الأبيض، مثل، طول القامة، والبشرة البيضاء، والعيون الزرق أو الخضراء.

⁴ "ثيمسي تن لآخرث": باللهجة الترفية معناها نار الآخرة، وقد أخطأ الكاتب بترجمتها النار الأخيرة.

⁵ L'Atlantide, ibid. p.56.

التاريخية والدينية، وقاموس من مصطلحات ومفاهيم بتعددتها اللغوي الثري، العربية والأمازيغية التارقية (التيفناغ) ورواية أشعار التوارث. من ناحية أخرى أجواء لها علاقة بألف ليلة وليلة تتبدى في وصف أثاث المجالس المكون من الحصائر المفروشة على الأرض والوسائد؛ وأناقة الأزياء والحلي، وعبق الروائح وتقاليد تدخين القنب والحشيش، وحضور الجوازي تانيت زرقة (تانيت هي إلهة التوارث) وأقيدة وروزيتا والعبيد البيض (عبيد سود يلبسون ثيابا بيضاء عكس التوارث)؛ وكل التعبير الرمزية للثقافة الشرقية.

جسد جوزيف بايري شغفه بالحلم الصحراوي من دون أن يشاهد الصحراء في روايات عديدة منذ ثلاثينيات القرن العشرين، وأتحف المتلقي الغربي، مستلهما من الأحداث التي كان يرويها له شقيقه الضابط إميل، بقصص بطولية لضباط الجيش الفرنسي، الذين كانوا يقومون بحملات عسكرية استكشافية توسعية في الجنوب الجزائري. يطاردون الأهالي المتمردين، وقطاع الطرق الذين يترصدون مرور القوافل التجارية التي تنقل السلع من مكان إلى آخر، وأفراد العصابات الخطيرة الذين يمارسون العنف ضد أهداف فرنسية في الصحراء الشاسعة.

في "الكتيبة البيضاء" L'escadron blanc 1930، تخرج فرقة من المهاريين¹ في ثمانين رجلا لتأديب مجموعة من اللصوص من البدو الرحل الذين ينهبون سلع القوافل التجارية التي تعبر الحدود بين المغرب الأقصى والجزائر، يتقدمهم الملازم مارسي مع تابعه الملازم كرمور، صبايحي قليل الخبرة جاء حديثا من المتروبول، بمساعدة جماعة من الأهالي التوارث والشعانبة

¹ يواصل جوزيف بايري تصوير بطولة المهاريين الصحراويين في روايتي "القائد ذو النجمة الفضية" 1933، و"تحت الراية الخضراء" 1934، يختار المناطق الواقعة في العرق الشرقي الكبير بالحدود الجزائرية الليبية، بين الأهفار والطاسيلي في الجزائر التي يسميها الصحراء الفرنسية، وغدامس وغات في ليبيا التابعة للاحتلال الإيطالي. يسرد العمّان «بعض حلقات المعارك الصحراوية من 1915-1917، والتي تميزت بحصار جانت وأغاديس Agades. تميل هذه الرؤية إلى جعل الصحراء مجالا محددا، عالما من المحاربين القساء والمخلصين». وفي "صليب الجنوب" 1942 وصف حياة البدو الرحل من توارث الهفار. وفي "رمل وزهب" 1957، تحدث عن ثروات صحراء الجزائر في عصر اكتشاف المحروقات، الغاز والبتترول (الذهب الأسود) في حاسي مسعود.

الذين يعرفون المنطقة جيدا، وبعدها قتل الملازم الشاب كرومر. من أجل قطع المسافات الطويلة لبس المهاريون، وحتى الفرنسيون منهم، زيا صحراويا فنادير عريضة ووضعوا شواشي على رؤوسهم اتقاء أذى الأحوال المناخية القاسية. أزراف سائق مهاري يخدم الاستعمار في صفوف الفرقة: «كان، مثل جميع سائقي الجمال في الحملة، رجل من قبيلة الشعانية، نحيف ونحيل، بشرته صفراء، يرتدي ياقة لحية قبيلته القصيرة المجعدة. كان يلقب بأزراف بسبب عينيه الزرقاوين اللتين يبدو أن الشمس قد أخدمتهما»¹.

أما هنري دو مونتزلان فقد انتقد انسياق الكتاب والسياسيين الفرنسيين وراء الخطة الإمبريالية في استغلال سردية الصحراء الكبرى في روايته "وردة الرمال"². و«ذهب كلامه إلى حد التنديد بالخطاب الإيديولوجي المحض في الأسطورة الصحراوية. وهو يستنكر "الخيال الصحراوي" الذي يعمل على رفع القيمة المعنوية للأرض التي يحتلها [الفرنسيون] وبالتالي تقديم التضحيات بكل أنواعها التي يكلف [هم] هذا الغزو»³، وتهدة الجو بضمان عدم احتجاج المستوطنين والفرنسيين في المتربول على السياسة المنتهجة في المستعمرات.

4- المجتمع الاستعماري بقلم الأنثى: خطابات النسوية والإيديولوجيا الاستشراقية

انضم بعض الكاتبات المستوطنات اللائي ظهرن ما بين الحربين العالميتين إلى تيار المتجزئين، في حين تبني بعضهن أطروحات التيار دون الانضمام إليه بشكل رسمي مثل اليهودية إلیسا رايس. أسماء هؤلاء الكاتبات هي، ماري بوجيجا، وماكسميليان هيلر، وميغالي بوانار، وإلیسا رايس، ولوسيان فافر، وأنيت غودان، وجان فور صاردي، ولوسين بلاز. ساهمن كلهن في دعم أطروحات الجزارة بأعمال روائية تناولت في مجملها قضايا المجتمع الجزائري

¹ Joseph Peyré, L'escadron blanc, Bernard Grasset, Paris.

<https://www.liseuse-hachette.fr/file/17596?fullscreen=1&editeur=Grasset>

² * كتب رواية Rose de sable (1968) قبل استقلال الجزائر في 1932 هاجم فيها الفعل الاستعماري، ولم تنشر إلا بعد جلاء الاستعمار حرصا على صون شرف فرنسا أمام ألمانيا.

³ Jacques Frémeaux, Un rêve saharien?. op.cit.

بنكها استعمارية وعلى رأسها قضايا المرأة الأهلية، نتيجة التأثيرات التي مارستها آنذاك نشاطات الحركة النسوية¹، وعلى رأسها المناضلة هوبرتين أوكلير التي انتقدت تعنت السلطة الاستعمارية وتعمدها تجهيل الأهالي لبسط هيمنتها على أرضهم وخيراتهم: «في الجزائر، لا يوجد سوى نخبة صغيرة جدًا من الفرنسيين الذين يصنفون العرق العربي كجنس بشري. بالنسبة للأجانب، والمسؤولين، والإسرائيليين، والمستوطنين، والمُتاجرين الغشاشين، العربي، الأقل احترامًا من خرافه، وجد ليسحق، ويدفع إلى الصحراء للحصول على ما لم يُسلب منه بعد، هذا هو اللحم. الجزائري [يعني المستوطن الفرنسي] الذي صرح أن التعصب يجعل العرب غير متحضرين، يصر على عدم فعل أي شيء لإخراجهم من الجهل، ومواتين للاستغلال والسيطرة»². وطالبت الحكومة بإصلاحات عميقة تمحورت حول فرنسة المرأة المسلمة كونها أكثر من يتمسك بالعادات والتقاليد، وإدماج الأهالي في المجتمع الفرنسي.

كانت هذه الحركة، منذ تأسيسها، تناضل من أجل تحرير المرأة في الجزائر وضمان حقوقها الاجتماعية، والمساواة الكاملة بين الجنسين في كل المجالات، والتتديد بالتمييز العنصري الذي يرين أنه عانت منه المرأة المسلمة أكثر من غيرها. وانصبت اهتماماتهن على تحليل نفسية المرأة المقهورة، وتفسير قضايا الزواج المبكر والطلاق وتعدد الزوجات والخضوع القسري للزوج ووجوب طاعته. وازدراء الحجاب كعامل تخلف وانحطاط والدعوة إلى خلعها باسم الحداثة والتطور تمهيدا لإدخالها في دائرة المجتمع المتمدن، ووصف العادات والتقاليد بالطقوس البدائية؛ ولاسيما طبيعة الجنس عند المرأة الأهلية كأثنى شبقية، ومشكلة الانحلال الخلقي الذي يترتب عن اضطهادها وتحقيرها ككائن اجتماعي، وسلب حقوقها كالميراث والتعليم والعمل، مما يؤدي إلى

¹*تعود بداية النشاط السياسي النسوي Feminisme إلى نهاية القرن التاسع عشر باسم حركة حقوق المرأة، وبداية القرن العشرين باسم الحركة النسوية. وكانت هوبرتين أوكلير من بين المدافعات عن حقوق المرأة في الجزائر في هذه الفترة، مكثت أربع سنوات وقامت بدراسة ميدانية عن النساء في الجزائر، فألفت كتاب "نساء الجزائر العرييات" في 1900.

²Hubertine Auclert, Les Femmes arabes en Algérie, Société d'éditions littéraires, 1900,p.3. Consulté le: 05.12.2020-22:15

https://fr.wikisource.org/wiki/Les_Femmes_arabes_en_Alg%C3%A9rie/Texte_entier

وجود ظاهرة الأعراف السهلة(النايلية)، وانتشار بيوت الدعارة في المجتمع المستعمر، وشرح موانع الزواج المختلط.

تمسكت الكاتبات بالدفاع عن الخط الأساس الذي سطره الرواد المتجزئون حول "الاستقلالية الجمالية" في إنتاجهم الأدبي، مثل لويس برتران وروبير راندو، ألا وهو الترويج لنهضة الشعب اللاتيني- البربري الجديد في الجزائر الذي يحل محل مجتمع بدائي جامد لا يتحرك، ولا يتقدم نحو الأمام بسبب تعصب الإسلام، ممزق من الداخل بفعل النعرات القبلية والفوارق الإثنية؛ والدعوة إلى اتباع المسيحية ومهاجمة تعاليم الإسلام واتهام نبيه محمد بالدجل. تكررت في وصف نساء الأهالي ومجتمعهم كل العناصر الجاهزة والأحكام المسبقة، استمدت من الحقل الغرائبي عن سحر الطبيعة والحب والحريم بصيغة الليالي العربية أو الدعاية الاستعمارية. أما ما يخص الناحية الفنية فيرى جان ديغو بأن «العديد من الروايات باهتة على مستوى الكتابة، ضحلة نوعا ما، محشوة بالصور النمطية كلما تقدمنا في الزمن، وقليلة الأهمية»¹، لذلك لم تحظ باهتمام كبير من قبل النخبة المثقفة في فرنسا، إذ عُدَّ أدب الكاتبات من حيث القيمة الفنية في الدرجة الثانية، باعتبار أن السلطة ذكورية في المجتمع الاستعماري، وبيد الجنس القوي، ويتجلى ذلك في هيمنة الرجال على ميدان الأدب والفن، ونظرة الاستحقاق إلى مواهب الجنس الضعيف. الأمر الذي دفع سيمون دو بوفوار إلى شجبه في إطار نشاطها النسوي كمناضلة من أجل كرامة المرأة ضد استبداد الرجل.

اتخذت مغالي بوانار² * Magali Boissard من الرواية وسيلة فنية لسرد تاريخ الجزائر من عهد الرومان إلى الاستعمار الفرنسي مرورا بدخول الإسلام. تُعيد تيمة لاتينية الجزائر قبل

¹ Jean Déjeux, La littérature féminine de langue française. 10.11.2020-8 :20.
<https://books.google.dz/books?annette-godin>

² *مغالي بوانار (1882-1945) كاتبة فرنسية، وعضو من أعضاء حركة المتجزئين. مستوطنة جزائرية ولدت بفرنسا وماتت في بسكرة بالجزائر. ألقت أعمالا كثيرة: روايات جمعت في عنوان "النائمون" 1909، الأوراس الوحشي، وأخواتنا المسلمات=

الإسلام من خلال التطرق إلى نموذج المرأة الجريئة والمحاربة، ووصف مواقفها تجاه تسلط الرجل في رواية "الفاندالية" La Vandale، وهي رواية تاريخية كتبتها في 1907. تعود أحداثها إلى حقبة انحطاط الإمبراطورية الرومانية سياسيا وأخلاقيا، كانت نتيجة هذا الانحطاط اجتياح جيوش الفاندال الجرمانية سواحل شمال إفريقيا في القرن الخامس الميلادي، وإقامة ملكهم فيها مدة قرن كامل إلى نهاية القرن السادس.

تروي قصة "فاندا" فتاة فاندالية محاربة، يرمز اسمها إلى شعبها الذي زحف من شمال أوروبا بحثا عن السيطرة على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط المعروفة بغنى أراضيها. كانت فاندا ابنة رجل فاندالي منخرط في الجيش الغازي، عاشت معه في وسط هذا النظام الصارم، وترتبت على سماع الأناشيد الجرمانية التي كان يرددتها والدها، وأساطير وثنية ومسيحية عن ملاحم الشعوب الجرمانية. رفضت حب الملك الفاندالي جنسريك الذي حكم هيبون بعد انتصاره على القائد الروماني بونيفاس بعد وفاة والدها تزوجت شابا رومانيا وسيما يدعى كايوس أستريوس، يدين بالمسيحية الكاثوليكية. عاش الزوجان في مدينة "هيبون" (عنابة حاليا)، غير بعيد عن دير القديس أوغسطين الكاثوليكي، الذي كان مواليا للرومان يحارب البربر المسيحيين الدوناتيين¹. انفصلت عنه والتحقت بالجيش الفاندالي بسبب الاختلاف الديني، ثم عادت إليه خوفا من تحرشات الطاغية جنسريك الذي قتله غيلة، فرمت بجثة زوجها ونفسها في البحر². فاندا امرأة ذات شخصية قوية في الظاهر ومنشطرة من الداخل، متشبثة بدينها الوثني الذي نشأت عليه، ومتمسكة من جهة أخرى بزوجها المسيحي الكاثوليكي الذي أحبته وانتحرت بسببه. تبدت

=صفارة الإنذار في الصحراء 1916، الأمير سيف 1925، خلدون 1930. ولها دواوين شعر. نالت جائزة الجزائر الأدبية الكبرى في 1935.

¹*نسبة إلى الأب دونا البربري المسيحي Donatus Negrinus، زعيم الكنيسة الإفريقية الثائر ضد الاستعمار الروماني. حيث قتل كثير من المسيحيين البربر في صراعهم الطائفي ضد الرومان الكاثوليكين.

² Voir: Etienne Wolff, La Vandale (1907) de Magali Boissard : Guri Barstad, Karen P. Knutsen, States of Decadence: On the Aesthetics of Beauty, Decline and Transgression across Time and Space, Volume 1, Cambridge Scholars Publishing, 14 déc. 2016. Pp.171-173.
<https://books.google.dz/books?id=9e-2DQAAQBAJ&dq=magali+boissard%3B+la+vandale&hl>

التناقضات المضادة بين الرومان والفاندال في الاختلاف الديني والثقافي الذي ركز على تصوير همجية الفاندال الوثنيين من خلال ذكر آلهتهم القديمة وتسامح الرومان المسيحيين، وفقا لما كان يروجه المؤرخون الرومانيون الذين سعوا إلى تشويه خصومهم، رغم أن الفاندال كانوا مسيحيين أريوسيين موحدين، والرومان كاثوليكين تثليثيين.

"معاديث" 1921 Mâadith أهم رواية للكاتبة، تتناول قضية الصراع بين الإسلام والمسيحية في منطقة القبائل بالجزائر المستعمرة، وتستذكر أسلافهم البربر الذي كانوا مسيحيين في عهد الرومان. تركز على الاختلاف الإثني بين العرب والبربر؛ وتصف الحالة الاجتماعية السيئة التي يعيشها السكان في ظل الاستعمار دون تنديد، تصور «كائنات دمرتها العيوب والبؤس الفسيولوجي»¹. تروي معاناة فتاة قبائلية فقيرة ويتيمة الأبوين اسمها "معاديث" اضطرتها الحاجة إلى أن اعتنقت المسيحية وعمدت باسم الأخت "سيسيل"، والأسباب نفسها كانت وراء ارتداد تليث القبائلية في أقصوصة "تليث" لإيزابيل إبراهيم. لجأت معاديث إلى دير قريب من قريتها، وتربت في على يد الراهبات المسيحيات بعدما تخرى عنها أخوها "وَعْلِي" بسبب الفقر واليتم، تعلمت في الدير قليلا من القراءة والكتابة بالفرنسية، فأصبحت تعمل ممرضة في مستشفى تابع للدير. اضطرت بعد إغلاقه وترحيل راهباته بسبب بروز موجة العلمانية في نهاية القرن التاسع عشر إلى الانتقال إلى قسنطينة والعيش في بيت قريبتها "لونيسة" المتزوجة بكرالوك الفوال، رجل بدوي من الصحراء، شاعر شعبي ومطرب جوال ذائع الصيت عند الأهالي، يروي القصص والأشعار. شعرت بالضيق في جو هذا البيت المضياف، لكن تسود فيه التقاليد والطقوس البدائية المجسدة في تصرفات لونيسة الطيبة والخاضعة، وإجراءات كرالوك العاشق الولهان مقابل توفير المأوى والطعام، والتي تخنقها كونها مسيحية، فأصبحت عشيقته ثم زوجته الثانية، ويبني بيتا في مرتفعات القبائل ليعيش مع زوجتين اثنتين بعيدا عن أنظار الناس.

Magali Boisnard, Mâadith, Librairie Edgar Malfère, Amiens, 1921. p.39.
Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

-1

لم تدم الأخت سيسيل على دينها الجديد، كما توقع راهب كنيسة السيدة الإفريقية، إلا مدة قصيرة لتعود معاديت إلى أصلها وتحنّ إلى عاداتها، وتستسلم لنداء الشباب المفعم بالمتعة والحب الذي خلقت له، كأن المرأة في هذا المجتمع مجرد كيان تابع، ومصدر إغراء خلقت للحب والجنس والإنجاب كي تنال رضا الرجل الشرقي وتشبع نزواته الغريبة. حاولت بوانار أن تركز على تقوية نفس الإسلام الشهواني عند البطلة، «إن المرأة التي يتم تصويرها كموضوع للمتعة، تستنشق النفس الجسدي للشخص الذي توجد من خلاله، هي الصورة المهيمنة التي تعتبر معاديت مثلاً حياً لها»¹. أضحت تعيش على الهامش مثلما تنبأ كرالوك "القول" الذي كان يمثل السلطة الأبوية الذكورية في غياب ولي أمرها، يراودها ويتحرش بها حتى أوقعها في حباله. كانت منبوذة من الطائفتين، يخشاها المسيحيون لأنها غير أوروبية وعلمانية، ويتحاشاها السكان المسلمون لأنها ارتدت عن دينها، وتمارس التبشير بين النساء اللواتي تعلمهن الطرز، فرفضوا حتى تقديم خدماتها الإنسانية للمرضى.

وصفت الكاتبة بيئة الأهالي الاجتماعية البدائية، نتيجة انتشار الجهل والتخلف بين أناس لا يستهويهم إلا ليالي السمر تحتفي بالغناء والطرب، ورواية الأشعار وسرد القصص وحكاية الأساطير. أهل صباحات الكسل، وأحلام القيلولة الخاملة ومساءات الضحك. وقد أضفت على الشخصيات الأهلية طابعا بدائيا ووحشيا، فهم قوم خانعون، يكتفون من العيش بالقليل ويرضون بالذل. مجتمع تقليدي يخضع بشكل مطلق للقدر ويؤمن بالخرافات؛ يخشى الأرواح الشريرة، ويخاف أهل الحظوة والسطوة. فالشاعر والمغني البدوي كرالوك يحمل اسما غريبا، وذو شخصية شهوانية خطيرة جعلته يتبوأ مكانة شبه مقدسة بفضل أشعاره وحكاياته وغرامياته؛ رأيه مسموع وقراره نافذ على الجميع، فلا أحد يجرؤ على الوقوف في طريق أحلامه ورغباته، تقدمه كنموذج للرجل الأهلي السيد في قومه. معاديت مجرد أنثى صغيرة وجميلة، ضعيفة الشخصية، مذبذبة

Sakina Messaadi, Les Romancières coloniales et la femme colonisée, Contribution à une étude de la littérature coloniale en Algérie, op.cit. p.191.

-1

نفسيا، مسرفة العاطفة ومسلوبة القدرة والإرادة. لوينسة أنثى ساذجة جسدت دور الزوجة الخادمة والمطبعة طاعة عمياء. من ناحية أخرى تأسفت الكاتبة على الفضاء الطبيعي الواسع والمتوحش دون استغلال جيّد، مثلما تأسفت على تحجر ذهن معاديتهم وعدم إقبالها على الحضارة الغربية، وهو ما عكس استمرار توقف الأهالي عن العمل والطموح من أجل تطوير حياتهم المتخلفة وحالتهم البائسة. وبذلك تبرر بأن الاختلاف الحضاري يبقى سدا منيعا أمام اندماج الطائفتين الأهالي والمستوطنين.

فسح المجال لتقديم ملامح الشعب الجزائري الجديد، والمتكون من أعراق متعددة. جمع العرب والعجم، والمسلم والمسيحي واليهودي في تركيبة واحدة متنافرة السمات وغير منسجمة، لكنها واقعية وجذابة. فالكاتبة المتجزئة تنتمي إلى هذا الخليط المتداخل من المجتمع الناشئ، شكل شعب فرنسا الجديدة، والذي تقول عنه بأنه «شعب غريب وجذاب منهم شعب مراكز التل العظيمة أو ساحل مجالنا الجزائري! إنه شعب تداخلت فيه أجناس البحر الأبيض المتوسط ذو الهيجان اللاتيني والإسهاب، والثقة بالنفس، سهل الاقتراب منه، متقلب بشكل مدهش، وبحماس سريع، وعواطف مفعمة بالحيوية والأحكام الاعتباطية. عرق مختلط بامتياز، يتزاحم وينمو ويزيد ويتماس مع النمط الفرنسي بلمح المنفي والذي يظل تقليدياً ولم يتغير بعد جيلين، ويحافظ على الغرائز الوحشية حيث تسود تأثيرات الشخصيات الأجنبية جنباً إلى جنب مع العادات المحلية، دون اندماج، ولكن بدون اشتباكات، في شعور غريب بالتسامح اللاواعي والمطلق الذي لا ينال منه تبادل الشتائم والتجديف والصياح والمطالب الانتخابية»¹.

روايات ألفتها بوانار عن وضعية المرأة المناضلة في مراحل تاريخية مختلفة شهدت أرض الجزائر إلى غاية اجتياح الاستعمار الفرنسي، وظروف حياتية مختلفة مركزة على مسألة الاختلاف الديني والثقافي التي تذكي التوتر بين الشعوب، وتبين استحالة انصهار كل السلالات

المتعددة في بوتقة واحدة: «يتجاور الشعب الغازي مع السكان الأصليين. إنهم يعترفون إلى حد كبير بعضهم ببعض. في بعض الأحيان يرتبطون ولا يندمجون أبدًا»¹، إذ هناك جدار معنوي فاصل بين هذه الأعراق التي يعاني بعضها التمييز والتفرقة.

تلخص وجود الديانات الثلاث في شمال إفريقيا نتيجة الغزوات الأجنبية التي اجتاحتها، وكيفية استقبال السكان الأصليين لهذه الديانات المختلفة، غير أنها ترى أن المسيحية اللاتينية هي الحل لهذا البلد الذي ينبغي أن تعمّه الحضارة الغربية: «بالنسبة للمتضررين وأصحاب الحق الذي نحن عليه، هذا التحول من دين إلى ديننا، من التقليد إلى مثنا الأعلى المختلف، من حالة بدائية إلى حضارتنا، ينطوي على مسؤولية هائلة»². ولتحقيق هذا الهدف أخذت تشارك في نشر مبادئ حضارتها عن طريق تنوير المرأة الأهلية، ودعوته إلى تحطيم أغلال التقاليد البالية المستمدة من تعاليم الإسلام.

كشفت أعمال ماري بوجيجا المولودة ماري موزان عام 1875 بالجزائر عن السياق النضالي النسوي والإيديولوجي الاستعماري نفسه الذي سارت عليه مغالي بوانار في طرُق تيمات متعلقة بتحرير المرأة الأهلية المسلمة، إذ اعتبرت مناضلة طلائعية لتحرير المرأة الجزائرية من نير التقاليد والعادات التي ترسخت في مجتمعتها، والدفاع عنها من خلال نشاطاتها الاستطلاعية والثقافية المتنوعة، وبمحاضراتها حول وضع المرأة وإمكانية تطورها الاجتماعي خارج حدود الأعراف المتوارثة، والتي تبلورت في مقالات مثل، "أخواتنا المسلمات" 1921، و"الجابنية الشرقية" 1931 تمحورت حول فشل الزواج المختلط بسبب الاختلاف الثقافي، والحث على أن يتزوج الرجال المسلمون بالمسلمات فقط لا بالأوروبيات، لأنها كانت ضد فكرة الاندماج عن طريق الزواج المختلط الذي يؤثر سلبا على الأسر. وفي "الغز مسلم" 1938³ عن توتر العلاقة

Magali Boissard, Mâadith, op.cit.

Ibid.p.35.

Voir: François Pouillon, Dictionnaire des orientalistes de langue française, Nouvelle édition revue et augmentée, Karthala Editions, 21 nov. 2012. Pp.169,170.

-1

-2

-3

بين المستعمر والمستعمَر وإعادة النظر في إنتاجها بشكل إيجابي يتوافق مع مصالح كل الأطراف المتعارضة، وكيفية تقادي الصراعات بالحكمة والتعقل واحترام الآخر. تحدثت عن الأخوة كقيمة سامية بين الإثنيات المحلية من جهة، وبين الفرنسيين من جهة أخرى، دون أن تشير إلى الأخوة الإنسانية بين كل الطوائف بلا تهميش أو إقصاء: «...نحن لا نقيم أي حاجز عازل بين العرب والقبائل من ناحية، والفرنسيين من جميع الأصول من ناحية أخرى»¹. وباعتبارها روائية إثنوغرافية كتبت عن أجواء الحرم الاستعماري والحريم الاستشراقي، وجسدتها في روايتين هما، "من الرذيلة إلى الفضيلة: رواية غانية نايلية" *Du vice à la vertu: roman d'une naïlia* 1932، و"في دفاء الخيمة" 1933، تعيد من خلالهما أسطورة الفتيات النايليات، بغايا الجنوب، والأعراف السهلة. وأضافت "قلب القبائل" *Coeur de Kabylie* 1939؛ ومجموعة قصصية "تحت الأشعة الذهبية" 1934.

أشاد أحد الصحافيين النقاد بنشاطها النسوي من أجل فهم وضعية الأهالي فيما يلي: «جمعت السيدة ماري بوجيجا بشكل مثير للإعجاب وثائق حول أصغر تفاصيل عن حياة الأهالي. وبراعة أنثوية، التي غالبًا ما يكون تحليلها أدق من تحليلنا، أضفت كل حماس روح أثارها الانجذاب الغامض للإسلام. مؤهلة بالتغلغل في المناطق الداخلية الأهلية التي لا يمكن أن تدنسها نظرة الرجال، فقد حققت حصادًا وفيرًا من الملاحظات القيمة هناك»².

واهتمت لوسيان فافر Lucienne Favre (1894-1958) المولودة بباريس بقصدية الكتابة للمتلقى الفرنسي الذي يجهل طبيعة الجزائر وثقافة أهلها وعاداتهم، وعلى هذا الأساس «يمكن قراءة أعمالها من زوايا ثلاث مختلفة، فهي أولاً وقبل كل شيء روائية مستشرقة، وبالتالي فهي ترضي ذوق الجمهور الذي لديه معرفة محدودة جدًا بالجزائر، والذي بالنسبة إليه لا تزال أوهام

¹ Marie Bugéja, *Enigme musulmane: lettres à une Bretonne*, Les Editions internationales Tanger et Fez, 1938. p.28.

² Marie Bugéja, in *Nos collaborateurs, France-Afrique, Littéraire artistique et scientifique*, 23 Juin 1933. p.2. <https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k5729688f/f2.textePage>

الحورية والحريم، التي غذت الخيال الأوروبي على مر العصور، مستمرة»¹. وصفت مدينة الجزائر، ولاسيما القسبة باعتبارها مكانا اجتماعيا وثقافيا متميزا عن العمارة الأوروبية، وسياحيا جاذبا للفضول والتعرف على الآخر. كتبت روايات، عن مختلف الطوائف المتعايشة في أحياء مدينة الجزائر، عن اليهود في "الحمام اليهودي" 1939 وعن الحي العربي والحي الأوروبي في "باب الوادي" 1926، وعن الجوانب الخفية والمظلمة للقسبة، تلك المدينة العربية العريقة والفاتنة، والتي أضحت بكل غموض نسائها الموريسكيات الملحفات، وشبق فتياتها المتحدرات مجالا خصبا للغرائبية التي كانت بمثابة آلية تحرك السياحة الاستعمارية في ثلاثينيات القرن العشرين، وتتجلى عناصرها في رواية "كل مجهول عن قسبة مدينة الجزائر" 1933 Tout l'inconnu de la Casbah d'Alger.

اتخذت الكاتبة من هذه الرواية الإثنوغرافية منبرا لوصف واقع الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، وانعكاساتها على الناس بكل فئاتهم الاجتماعية وأطيافهم العرقية، لاسيما وضع الأهالي بمدينة الجزائر وفي القسبة العربية بالتحديد، «لأن قسبة الجزائر تتكون من مزيج من الأعراق والدم. الأشخاص الذين يقطنونها، إذا كانوا في الغالب مسلمين ووجدوا مجتمعا بفكر لا يمكن إنكاره تحت علامة الهلال، متنوعون. كل واحد يحتفظ لنفسه، كعمل، في هذه المدينة، بالجزء الذي يناسب مزاجه»². يتجلى سحر هذه المدينة في تناقضات الكثيرة والمذهلة، فيها الجميل والقبيح، والهدوء والصخب. والناس في وصف سمعتها بين وصمة العار والجوهر، لا يمكن أن يراها راء دون أن تترك في نفسه أثر. اختلفت حولها الآراء بين داع إلى تهديم قسبتها، وبين شاعر ألهمه بياضها جيد الأشعار، كل واحد يتأملها من زاوية معينة بحسب وظيفته ورؤية مدى منفعتها، ف«القسبة مكان فظيع ورائع؛ لا شيء حذر، ولا دافئ، ولا موزون، ولا خاطف بالأخص يناسبها»³. تمارس سحر غوايتها على رأيها بسبب ما يلفها من مجهول، وغريب،

¹ Lucienne Martini, Un regard de femme, Lucienne Favre: Orientale 1930. consulté le: 23.11.2020-

16:30 https://www.sielec.net/pages/site/FIGURES/martini_favre.htm

² Lucienne Favre, Tout l'Inconnu de la Casbah d'Alger, Baconnier Frères, Alger, 1933. p.75.

³ Ibid. p.9.

وغامض، وسريّ للغاية. تجلب الأنظار بموقعها الجميل وراء البحر، وبنيانها غير المتقن، واللحظات الجميلة لنشوة تدخين الأفيون والكيف والنارجيلة، وسوقها الشعبي الذي يرتاده الأهالي من باعة بطالين لم يجدوا عملاً مناسباً، أو كسالى، أو مخادعين، يعرضون أشياء تقليدية بسيطة مصنوعة يدوياً، أو أدوات وثياب عسكرية مستعملة. وبهذا الطابع الغرائبي والشرقي المميز «يمكن القول بأنها غاوية شمال إفريقيا»¹.

ألقت الأزمة الاقتصادية في 1929 بظلالها على الأحوال الاجتماعية في مدينة الجزائر، حيث أدت إلى انتشار البطالة وغلاء المعيشة، وارتفعت أسعار الإيجار وتنافس الناس على البيوت الضيقة بالقصبة. انهارت الأخلاق فتشاجروا بسبب السطوح المنفتحة على نظرات الرجال إلى النساء في موسم الحر، وتزاحمت النساء على مياه العيون القليلة، حتى احتشد الأهالي في مركز الشرطة الاستعمارية بنهج مورينغو لرفع الشكاوى. وأنهج أخرى لبست الحرف اللاتيني عوض الحرف العربي ودلالته الرمزية، راندون ودلتا وكليبر، شهدت على التغيير الذي مس المدينة منذ قرن، وطراً على هيئات الأفراد الذين يرتدون الزي الأوروبي، والرجال الذين هاجروا إلى فرنسا للعمل أو شاركوا في الحروب.

حضور تيمات اجتماعية متعددة، تبرز أخلاق الأهالي السيئة الناتجة عن طبيعة عرقهم الدوني في رواية "الشرقية" 1930*² Orientale، منها وضعية المرأة الأهلية المستعمرة بعد مرور قرن كامل من الوجود الفرنسي في الجزائر. تسرد فاضمة، امرأة موريسكية غير جميلة، المعاناة التي صبغت حياتها كأنثى منذ الصغر، تزوجت رجلاً فظاً وتعيش معه في حالة بائسة، كان يضربها بسبب تعاطيه الخمر. خرجت لتعمل منظفة لسد حاجات البيت الضرورية، ودفع مصاريف التعليم لابنها وتزويج ابنتها. زوجها الشاوش مولود سكير ومحتال، باع أرضاً ليست له لمستوطن فرنسي مغفل. أجبر زوجته على بيع كل حليها واختفى عن الأنظار ليذهب إلى

¹ Lucienne Favre, Tout l'Inconnu de la Casbah d'Alger, op.cit. p.10.

² فازت الرواية بالجائزة الأدبية الكبرى في 1931.

الحج، وبعد عودته استمر في الاحتفال على الناس مستغلا لقب الحاج. تصوير حال المرأة الأهلية أيضا في "دوجة" 1946 Doudja. دوجة «قصة شابة جميلة من القبائل تهرب إلى الجزائر فرارا من زوجها العجوز الوحشي وتجد ملاذًا في القصة حيث تمارس مهنة الراقصة بكل شرف»¹. وهي وإن كانت تتعاطف مع قضايا المرأة المقهورة، إلا أنها لم تتجاوز عقدة الاستعلاء التي ميزت كتابتها.

وفي سياق التمييز العرقي تجسدت أسطورة القبائلي المختلف عن العربي، والمتفوق عليه في رواية "مراد" 1942، التي تروي قصة مراد القبائلي المعتر بأصله البربري، وتبرز مسار معلم أهلي تعلم بالمدرسة الفرنسية بغرض الاندماج في المجتمع الجديد دون فائدة، وتأثر بالحياة السياسية الاستعمارية المضطربة؛ فعاش مذبذبا بين الثقافتين الأصلية والأجنبية، وقصته تشبه في بعض تفاصيلها قصة "فرحات، معلم أهلي" لألبير تروفيموس. ويبدو أثر الاستشراق بارزا في كتاباتها الإبداعية التي تهتم بوضعية المرأة الأهلية المقهورة، وتقاليد مجتمعها المحافظ، فقد «استجابت لوسيان في الواقع لرغبة القارئ في الهروب من خلال وصف البيئة الخلابة للدعارة، كما أنها تخيلت عالما جميلا للغاية من الحياة الفولكلورية لتمثيل المجتمع مدينة الجزائر بأكمله. بذلك حاولت إثارة الفضول وإرضائه، وإدخال ألوان مبهجة، وخلق التنوع، وجذب المواقف الغربية»².

تختلف أنات غودان Annette Godin³ * عن بعض الكاتبات الاستعماريات مثل مغالي بوانار في أنها كانت تكتب بصفحتها فرنسية من المتروبول وليست مستوطنة جزائرية، وتوجه

¹ Lucienne Martini, Un regard de femme, Lucienne Favre: Orientale 1930, ibid.

² Sakina Messaadi, Les Romancières coloniales et la femme colonisée, op.cit. p.45.

³ *هي جان آن ماري غودان Jeanne, Anne, Marie Godin، المعروفة في الوسط الأدبي أنات غودان. ولدت بسانت مكسان 1875 - 1958، معلمة وكاتبة فرنسية، استقرت مع عائلتها بالجزائر في 1881، ودرّست في مدارس متعددة، وتنقلت في مناطق عديدة، بجاية وقسنطينة ووهران ومعسكر وتلمسان، وعادت إلى فرنسا بعد وفاة زوجها في 1954، ألّفت في الشعر والرواية.

الخطاب إلى فرنسيي فرنسا وليس إلى فرنسيي الجزائر. نشرت روايات متعددة تناولت وضعية الأهالي وحياتهم في "البيكو" 1917 Les Bicots، وكان هذا اللقب يعني آنذاك العرب المسلمين دون تجريح، و"في بلاد الآس"، و"وريدة 1921 Ourida"، و"وجه الله" La Face d'Allah¹ 1923. رغم هذا الإنتاج الذي خلفته إلا أن المعلومات عنها قليلة جدا، فلم تخضع أعمالها للنقد وبقيت في الظل بعيدة عن التحليل والدراسة الأكاديمية.

تناولت جان فور صاردي²* هي الأخرى تيمات اجتماعية ذات طابع نضالي نسوي، شرحت وضعية المرأة المسلمة وانتقدت العادات والأخلاق الإسلامية التي تسببت في تخلفها وجعلها، ووصفت إهمال السياسيين أمور تحسين وضعها وتعليمها لتبلغ درجة تعلم الرجل المسلم، فلا يتركها ويبحث عن غيرها بين المتعلمات الأوروبيات. وطرحت مشكلة الزواج المختلط، وبينت خيبات الأمل التي تنتهي إليها علاقات المصاهرة بين الطوائف الإثنية المختلفة، في "امراتان" أو هيليا 1931 Hélia, une française en Algérie، وفي "بنت العربي" 1935 Fille d'Arabe. وفي النسق الثقافي أحييت أسطورة الجزائر اللاتينية في "حلم في تيبازة" 1938.

"امراتان أو هيليا" 1931، رواية اجتماعية، تطرح مسألة صدام الثقافات التي جسدها كثير من الكتاب في تلك الآونة، وتسلب الضوء على ظاهرة الزواج المختلط وعواقبه الوخيمة على استمرار الحياة الزوجية بين الرجل والمرأة المنتمين إلى ثقافتين مختلفتين، ورفض تعدد الزوجات المقبول في المجتمع الأهلي، وبيان خطورته خاصة إذا كانت الضرائر من طوائف مختلفة مسلمة ومسيحية أو يهودية. نشرت الرواية تحت عنوان أولي هو "امراتان" وحازت على الجائزة الكبرى في 1931، ثم تغير العنوان ليوسم العمل باسم البطلة "هيليا". تدور أحداثها حول فتاة فرنسية غادرت باريس عاصمة المتروبول باتجاه الجزائر عقب حادثة الخيانة الزوجية التي

¹ Voir: Pierre Dimech, Evocation d'Annette Godin (1875-1958). Consulté le :03.01.2022-11 :15
<http://www.cerclealgerianiste.fr/index.php/le-cercle-algerianiste>

²* Jeanne Faure – Sardet، كاتبة استعمارية عضو في جمعية الكتاب الجزائريين.

تعرضت لها، إذ كان زوجها هوغ الضابط العسكري بالجزائر على علاقة غرامية مع غانية إسبانية في أحد الملاهي بوهران.

وتحت ضغط الجو النفسي المتعب الذي عانته تعرفت على "جمال" رجل عربي مسلم، أحبته واستسلمت لرغباتهما الجسدية، ثم ندمت لما علمت بأنه متزوج وله ولدان، والولد الثالث مات بعد أسبوع من ولادته كعقاب إلهي لجمال على إهمال عائلته واعتدائه على الحرمات. في هذه الأثناء تزور هيليا زوجها المتعرض لحادث في المستشفى، حنت إليه وكان قد تركته الراقصة الإسبانية. وانتهت علاقة جمال وهيليا بعودة كليهما إلى حياته الأولى لانعدام سبل الوفاق بين الطرفين المتعارضين.

لقد انحازت الكاتبة، حسب إيديولوجيا تصنيف الأعراق والأديان، إلى صف المرأة الفرنسية وديانتها المسيحية التي أنقذتها من الضلال، ورأت أنها ضحية رجل مسلم خائن ومحتال، وراحت تتعاطف معها وتبين أن الاحتيال من صفات الأهلي التي فطر عليها نظرا لتدني عرقه وأخلاقه، مع أن الفتاة الفرنسية هي من اختارت بعدما وقعت من قبل ضحية رجل أوروبي خائن أغرته امرأة لعوب من أصل أوروبي أيضا وليست امرأة شرقية مستهترّة. وأدى هذا الانحياز إلى استصغار الفضاء العربي الإسلامي لحساب الفضاء الغربي وبيان إيجابية الدين المسيحي والثقافة الأوروبية¹.

عكست ماكسيميليان هيلر²* الحالة المضطربة التي كان يعيشها المجتمع الاستيطاني الهجين في ظل المشكلات الاجتماعية المعقدة، وقدمت مشاهد عن التمزق الحاصل بين الطوائف الدينية غير المتجانسة، والمتصارعة على أرض واحدة هي الجزائر في "محنة الانتقام"

¹ Voir: Ahmed Lanasri, La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres, op.cit. p.73.

²* ماكسيميليان هيلر Maximilienne Heller ، واسمها الحقيقي ماكسيميليان فناش Fenech ، كاتبة فرنسية من أصل مالطي، ولدت بقسنطينة في 1889 وتوفيت في 1960. تحصلت على الجائزة الكبرى للأدب سنة 1922 عن رواية البحر الأحمر.

1919 La Détresse des Revanches التي تجري وقائعها في مدينة قسنطينة التي تحتضن مختلف الجاليات، و"رجال الفريسة" 1928 Les Hommes de proie. واعتبرت كتاباتها، بفضل نشاطها النضالي النسوي، مناهضة للاستعمار الذي تسبب في تشتيت الناس وتخالفهم وتباعدهم، وغلبة الشعور بالرهاب بعضهم إزاء بعض، وتبدى هذا في روايتها "البحر الأحمر" 1923 La Mer Rouge، حيث حلت إشكالية الغيرية والهوية، والانقسامات الطائفية بين اليهود والطوائف الأخرى المتجاورة ولكنها غير متعايشة في سلام، برزت في مشكلة معاداة السامية، مما حدا ببعضهم، منهم جان ديجو، إلى إدراجها ضمن الأدبيات اليهوديات. عرفت هي الأخرى بالتعاطف مع الأهالي البائسين، حيث اختارت في رواية "البحر الأحمر" على المستوى الشخصية السردية محاميا يهوديا أقدم على الانتحار بعد فشله في الدفاع عن أحد المسلمين الذين انتزعت أرضهم ظلما وعدوانا.

تتميز إيلسا رايس¹ Elissa Rhaïs* عن الكاتبات الأخريات بكونها كاتبة أهلية، ويهودية، مندمجة ومترنسة وفقا لقانون كريميو، ولم تتخرط في نضالات الحركة النسوية مثل الأوروبيات. عاشت حياة أدبية خصبة مدة عشرين سنة من 1919 إلى 1939، قضتها بين الجزائر وباريس، وكانت نشاطاتها غير مألوفة في عالم المرأة الأهلية المحافظ. شكلت ظاهرة فريدة بين بنات جنسها من الأهليات الأميات، فطارت شهرتها ولقيت أعمالها رضا وقبولا حسنا في الوسط

¹* إيلسا رايس 1876-1956، واسمها الحقيقي روزين، ليلي بومنديل، كاتبة من أسرة يهودية سكنت البلدة، وقيل من أب مسلم وأم يهودية، درست في مدرسة الراهبات المسيحيات. انتقلت إلى مدينة الجزائر رفقة زوجها الحاخام موسى عمار، تطلقت منه وتزوجت مردخاي شمول وتبنت راوول روبير دهان (راوول ثابت) طفلا، وهو، حسب شهادة ابنه بول ثابت، أنه الكاتب الفعلي للأعمال وهي كانت توقع عليها فقط. أنشأت صالونا أدبيا في مدينة الجزائر تستقبل فيه الأدباء والشخصيات المشهورة. سافرت إلى باريس في 1919 فالتحقت بجريدة دوموند، ونشرت أعمالها في دور نشر معروفة، بول وفاير وفلاماريون، وقدمها الوسط الأدبي الفرنسي على أنها كاتبة عربية مسلمة. انخرطت في جمعية رجالات الأدب في 1920، وانضمت بصفة رسمية في 1939. رغم أعمالها الأدبية واقتحامها هذا الوسط إلا أنها لم تتحصل على الجائزة الكبرى مثل مغالي بوانار وماكسيميليان هيلر، لأنها لم تنضم إلى حركة المتجزئين الجامعة لأسماء الكتاب المستوطنين، والمقصية للأهالي.

الأدبي الفرنسي حيث كان الفرنسيون يعتبرونها امرأة "شرقية"، تتناول مختلف مشكلات المرأة. اهتمت بتصوير تناقضات المجتمع الأهلي المتكون من الطائفتين المسلمة واليهودية.

ركزت على وضع المرأة بصفة خاصة وفق المنظور الاستشراقي الذي لم يخبُ تماما ضوءه الغرائبي المتكرر في كتابات روائي الاستعمار. «تحدثت بشكل أساسي عن مؤامرات عاطفية في الحرم، والزنا، والعواطف الجامحة، والتي غالبًا ما تنتهي بالدم. كانت مهتمة أيضًا بمشكلة الزواج المختلط، والتعامل معها بشكل أساسي في سياق معاد للسامية. كان الإطار الذي تجري فيه الأحداث يحمل "طابع استشراقيا"¹، أما واقع المستوطنين فكان بالنسبة إليها أمرًا ثانويًا يخص أصحابه. «كانت تكتب عن البيئات العربية واليهودية في شمال إفريقيا روايات وحكايات بحبكات عاطفية وانتقام مظلم أو حتى حكايات تذكر بالأجواء الرائعة لألف ليلة وليلة»². وبصفتها امرأة من الأهالي فقد كانت تكتب عما تعرف عن أسرار المجتمع الذي تتحدث عنه تمام المعرفة، وخبيرة بأوضاع المرأة من الداخل والأحوال المحيطة بها، فاتسمت أعمالها أحيانًا بالصدق الفني لولا نزوعها إلى ما يهوى المتلقي الغربي، مثل الكاتبات المستوطنات اللواتي كن يلاحظن تحركات المرأة من خلال زيارات قصيرة وخاطفة للبيوت، أو يجمعن صورًا جاهزة من مصادر خارجية، لتنمية الأحداث وتناسقها للحفاظ على المقاربة الاستعمارية. بذلك اعتمدن أسلوب الملاحظة والمعاناة وإجراء المقابلات مثلما يفعل الإثنولوجيون في المخبر العلمي، ولم يأت وصفهن من طريق المشاركة الوجدانية والاحتكاك العفوي، والمعاشة القريبة للأحوال المختلفة التي رصدنها.

بدأت رابيس الكتابة السردية عن تقاليد الطائفة المسلمة في 1919 بمجموعة "أقاصيص إفريقية" تضمنت "مقهى اللهو"، و" كركب، أو الراقصة البربرية"، و"نبالة عربية" *Noblesse arabe*. تنفتح الأحداث في "قهوة الزهو"، أو مقهى اللهو *Le café chantant* على طقوس إحدى

¹ Sakina Messaadi, *Les Romancières coloniales et la femme colonisée*, op.cit. p.48.

² Jean Déjeux, Éliisa Rhais, conteuse algérienne (1876 -1940). In : *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n°37, 1984. p.47. http://www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1984_num_37_1_2021

الشعائر الدينية عند المسلمين في البليدة، وأجواء الاحتفالات الشعبية بالعيد الفطر عقب صيام شهر رمضان. تبدو مظاهر الفرحة والبهجة في طلقات النار منذ طلوع النهار، وفي ارتداء الثياب النظيفة، وخروج الرجال والأطفال إلى الصلاة في المسجد، وتتعالى زغاريد النساء المزيّنات في البيت، وإعداد الطعام في انتظار عودة الرجال.

أما التيمة المحورية فقد دارت حول الاستبداد الذكوري في المجتمع الصحراوي، وهروب بعض الفتيات متمردات على الأعراف القاسية ليسقطن في مكر تجار الرذيلة واستغلال الجسد. وتبدأ معاناة أخرى أشد قسوة وأكثر امتهانا من الأولى، حيث فرت الفتاة البدوية حلّيمة من الأغواط في عمق الصحراء إلى الشمال بالبليدة حيث يجهل الناس أصلها بسبب طباع زوجها العنيف والشرس الذي يغار عليها حتى تحولت الغيرة عنده إلى هاجس. خرجت من أسوار الحرم المقدس إلى المقهى المدنس، أصبحت مغنية (مُعَلِّمة) يتودد إليها الرجال في مقهى غنائي سيد محمد البقار. حلّيمة بنت عزة، تغير وضعها وتغير لقبها في الوسط الفني مثلها مثل كل المغنيات المتمردات على تقاليد المجتمع، فصارت تسمى حلّيمة فواد البقري أي فؤاد الثور، نظرا لصوتها القوي وغنائها الشجي. مأساة أخرى عاشتها الأم فاطمة، زوجة سيد الحلوي وزوجها اللذان فقدا ابنهما الوحيد يوسف المجند في صفوف القوات الفرنسية للمشاركة في الحرب العالمية الأولى مثل كثير من الشباب الجزائري.

يستند النص إلى الوصف الدقيق والفاخر للمكان السردى، المقهى الموريسكي، المؤنث بالأبهة الشرقية المستوحاة من قعدات ألف ليلة وليلة المثيرة للشهوات، حيث أقيمت حفلة غنائية أحيتها مغنيات موريسكيات في أزياء فاخرة، أضفى مظهر العازفين على الآلات ببدلات تقليدية أنيقة سحرا غرائبيا على المكان المشبوه، ذي الإثارة الحسية والعريضة الماجنة: «في الجزء الخلفي من الغرفة، تحت طوفان من الضوء الوردى، ينتصب مشهد صغير، في وميض من الذهب والحريير التونسي، في تألق رائع من ألف ليلة وليلة. كان ذلك المدرس. هناك، على خلفية مجلدة

من العقيق، وعلى فراش أصفر عسلي، اصطفت الأوركسترا الشرقية الصغيرة. في الوسط كان [العازفون] الأربعة يرتدون المخمل الأزرق المطرز بالفضة. أخيراً، متكئات بمرافقهن، على وسائد الحرير، المغنيات الموريسكيات، وعددهن ست، خائرات في أوضاع لا مبالية. كن مثل مدفونات تحت مزيج من الساتان والأشرطة والدانتيل والمجوهرات. ظهر بياضهن بالتناوب تحت نيران الألماس [...] أزيأوهن البخارية، المصنوعة من الموسلين برقائق براقية وخطوط من الحرير الناعم، أظهرت عبر بصيص خفي بشرات سمراء، والأشكال المتموجة والفاخرة»¹.

كما سلط النص الضوء على وصف الفضاء البلدي خلال الاحتلال، باعتبار البلدة مدينة صغيرة محافظة، ورسم عادات سكانها وتقاليدهم، وثقافتهم من أغنيات وموسيقى وأمثال وكلامهم الرمزي. وما كانت تحتضن من أعراق وافدة ومختلفة، مع شرح أوضاعهم الاجتماعية الصعبة والأحوال الاجتماعية المضطربة أثناء الربع الأول من القرن العشرين.

ضمن المجموعة نفسها تضحى لالة زليخة بنت الأشرف المرابطين في "النبالة العربية" 1919 من أجل زوجها ديدن الذي كان قد عاهد الفتاة الفقيرة عائشة بنت قدور بأن يتزوجها وأخلف العهد، ولما علمت بذلك صممت أن يجعلها زوجة ثانية ليبرّ بالقسم حتى لا يصيبه أذى حسب النسق الاعتقادي الشعبي: «أنت تعلم أنه من المعتاد عدم الحلف أو دفع الناس إلى الحلف ... إذا كان لدينا هذه الفرصة المؤسفة، عاجلاً أم آجلاً، فإن القسم الذي لم نحافظ عليه يمثل في عينيك، إنهما مستعدان للانطفاء على سرير الموت أو جاهزان للغزو على سرير الزفاف...»². فعلت زليخة ذلك كي لا تبني سعادتها على حساب حزن الأخرى. وموقف التضحية هذا إنما يدل على شهامة المرأة العربية ونبيل تربيتها.

حللت، كذلك، في روايات أخرى وضعيات اجتماعية لنساء مسلمات من مختلف الطبقات والطوائف، حاول بعضهن تحدي الصعاب وكسر الحواجز من أجل بلوغ غاياتهن، ولكنهن

¹ Elissa Rhais, Le Café-chantant, Treizième édition, Librairie Plon, Plon-Nourrit et Cie.Paris,1920. Pp.45-47.

² Elissa Rhais, Noblesse arabe, Treizième édition, Librairie Plon, Plon-Nourrit et Cie.Paris,1920. p.274.

يصطدمن بسلطة التقاليد الفوقية. ترفض "بنت الدوار" 1924، نجمة الفتاة الجميلة كل العروض التي تقدمت لها في سبيل حبيبها الوسيم الراعي الفقير في جبال القبائل، ورغم ذلك زوجت إلى رجل عربي وهي قبائلية، و«كانت أعظم إهانة تعرضت لها الفلاحة الشابة "نجمة" من قبل ضرائرها- عندما دخلت البيت الزوجية هي توجيه اللوم لها على أصلها المتواضع وغير العربي»¹. وهكذا تبرز مشكلات الطوائف المتعارضة في الزواج المختلط². وكتبت في 1925 مجموعة حكايات "القميص الذي يجلب السعادة"، ورواية "الأندلسية"، و«هي أولى روايات إيسا رايس التي تتفصل عن النوع العاطفي الغرائبي: نوع من اللامبالاة الأخلاقية الخالية من الندم»³.

خصت رايس أعمالا للطائفة اليهودية ووصف أخلاقها وعاداتها المتسمة غالبا بالسرية والانغلاق وانتقالهم بين الجزائر والمغرب مثل، "سعدة المراكشية" 1919 وهي أولى رواياتها، قصة فتاة يهودية جميلة تفر مع عائلتها من جحيم فاس بالمغرب الأقصى إلى البلدة، لكن تصطدم بالوضع البئيس نفسه الذي جثم على صدر المنطقة المغاربية الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي. تنتقم سعدة لنفسها بسبب تزويجها بمسعود رجل مسن وقبيح المظهر، دميمة الوجه وأعرج. لقبوها باسم "نجمة" لما احترفت الدعارة، وتعاطت المخدرات، الحشيش والكيف والأفيون. وكانت تستقبل الزبائن في بيتها دون حرج. رواية "اليهود أو بنت إيعازار" 1921، حيث تتأرجح عواطف عائلة إيعازار، يهودية متدينة تسكن مدينة الجزائر بين الأعراف التقليدية التلمودية والحياة المعاصرة. أما الصراع التقليدي بين مختلف الديانات الذي يلقي بظلاله على العلاقات البينية، فقد تمثل في رواية "ابنة الباشوات" 1922 بين الطائفتين اليهود والمسلمين، وبين الحضارتين الشرقية والغربية، تبلورت في مأساة فتاة مسلمة من عائلة وجيهة تدعى لالة زليخة ابنة باشا، أحد الزعماء العرب المواليين، أقام علاقة غير شرعية مع مغنية يهودية، أنجبت منه

¹ Sakina Messaadi, Les Romancières coloniales et la femme colonisée, op.cit. p.57.

² هناك أعمال تتناول مسألة المثاقفة والإدماج، كما تظهر بجلاء في عملها "عن طريق الموسيقى" 1927.

³ Guy Dugas, La littérature judéo-maghrébine d'expression française (1896 - 1990), Etudes littéraires maghrébines, Universités Paris-Nord et d'Alger / Editions L'Harmattan. p.50.

طفلا. ولما كبر هربت (مردوخاي) وأصبح ضابطا فرنسيا، أحبته لالة زليخة ثم اكتشفت أنه يهودي وأخ غير شقيق. أما "زواج حنيفة" 1926، ففيها تتجلى، في منظور الاستعمار، أهمية «المثاقفة في مواجهة البربرية والخرافات. هذه الرواية تفتح الطريق لسلسلة كاملة تمجد مهمة المستعمر التربوية وتقيم فرص نجاحه في المنطقة المغاربية»¹.

وفي "المتنصرة" "La convertie" 1930 تتمظهر قضايا الصراع الديني عند الأهالي بين الإسلام والمسيحية، خاصة بمنطقة القبائل، والفروق الطائفية بين العرب والبربر، «حين ركزت رايس على الاحتقار الشديد الذي شعرت به الفتاة القبائلية حورية- لويز التي تنصرت، نحو زوجها الذي تنصر هو الآخر، بسبب أصله البدوي. وبنت المدينة، القبائلية فوق ذلك، ترفض ربط مصيرها بمصير بدوي ضاعت أصوله في الصحراء المترامية الأطراف»². وبروز ملامح الاختلاف الثقافي والمظهري في الجمال والقبح بين العربيات والقبائليات القائم على التعارض العرقي: «(...) من بين هؤلاء الموريسكيات ذوات الجمال فوق المتوسط أو شبه بشعات، قبائلية بجمال فتان وكأنها زهرة الزنبق على غصنها تلدو وسط الأشواك. كان لديها هيئة كبرياء مرنة، وذراعان عظيمتان تشبهان سيف اليطقان وعصابات الشعر الأشقر التي تحيط بوجه بعينين زرقاوين واسعتين، أزرق قاتم ومتغير تحت رموش مجعدة، أزرق بلون الأمواج حيث تسبح عليها نقطة ذهبية...»³. تضيف الكاتبة خصائص الجمال الأوروبي على القبائلية وتمدح تميزها عن العربيات وقربها من جمال الفرنسيات، كما فعلت بوانار في وصف جمال معاديث التي اعتنقت المسيحية في بادئ الأمر. فلما كان للقبائليات حظ يشبه الفرنسيات في عيار الجمال الجسدي، فلديهن أيضا استعداد نفسي لاعتناق المسيحية دون عناء.

يلاحظ أن شخصيات رايس الرئيسية متنوعة، وجوه نسائية من مجتمع متعدد الإثنيات، ومن كل الطوائف الأهلية التي فرضت عليها الحوادث التاريخية أن تتعايش على اختلافها جنبا إلى

¹ Guy Dugas, La littérature judéo-maghrébine d'expression française (1896 - 1990). Ibid.

² Sakina Messaadi, Les Romancières coloniales et la femme colonisée, op.cit. p.66.

³ V: Les Romancières coloniales et la femme colonisée, ibid. p.68.

جنب. والتطرق بهذا الشكل إلى وصف مشكلات المرأة الأهلية بكل أطيافها، يحيل الدارس والمتلقي إلى أعمال إيزابيل إبرهارد السردية التي اهتمت بتحليل تنويعي لوضعيات المرأة الأهلية، الذي يبدو أن رابيس قد تأثرت بهذا التنوع المبني على معرفة قريبة للبيئة والمجتمع الموصوفين. إذ هناك تقارب بين الأدبيتين في استلهايم التيمات من البيئات الأهلية وفضاءاتها المتعددة، وإصباغ الحوادث والشخصيات باللون المحلي؛ وهذا راجع إلى تقارب عهديهما وتشبعهما بالثقافة المحلية.

من الواضح أن معظم الكاتبات المستوطنات تأثرن بسرديات الليالي من خلال انتقاء شخصيات أعمالهن وعناوينها من البيئة المحلية، والحرص على رصد عقب الروائح الشرقية، وهي إشارة لا لبس فيها لأوهام الشرق وخيالاته. وقد تمحورت تيمات هذه الأعمال الروائية حول ثالوث استعماري، الجنس والعرق والجندر (النوع). وبصفة عامة فإن الكتاب الاستعماريين تحدثوا «عن المرأة العربية في الإسلام، في الحياة اليومية، في الاحتفالات والمهرجانات. لا يكاد جميعهم يتخطون المظاهر ويتقاسمون الرأي نفسه إلى حد ما: المرأة تابعة، متدنية، في حالة شبه عبودية مقارنة بالرجل»¹. وقليل منهم من تعرض إلى قضية اعتناق المرأة الأهلية المقهورة الدين المسيحي بسبب فشل سياسة التنصير وخيبة مساعي التبشير، وقد تركزت معظم حالاتها في بلاد القبائل وحول سكانها، ونسائها بالخصوص نظرا لوضعيتهن الاجتماعية السيئة، واللواتي غيرن أسماءهن.

الحصيلة في هذا المبحث الخاص بالروائيات المستوطنات، أن أولئك الكتاب المستوطنات المعروفين بصفة "الأقدام السود" قد حرصوا في القرن العشرين على استمرار الإيديولوجيا الاستعمارية، عن طريق إنشاء تيارات أدبية تؤسس لمرحلة جديدة من الوجود الاستعماري، وتعرف قراء المتروبول بالجزائر الجديدة التي شيدها المستوطنون الأوروبيون، تمثلت في الترويج

Philippe Lucas, Jean-Claude Vatin, L'Algérie des anthropologues, François Maspero, Paris, 1982. p.31.

¹

لأطروحة استيعاب الجزائر لكل الثقافات والأجناس الآتية من حوض البحر المتوسط، وتكوين جيل جزائري هجين من الأوروبيين يعوض السكان الأصليين الذين ظلوا مجرد رعايا تحت الحكم الفرنسي، وطرح أعمالهم إشكالية الهوية والانتماء تمظهرت في غموض وتذبذب مفاهيم الوطن والوطنية، والجزائري والأهلي المشكّلة للأمة الواحدة، وهي الأطروحات التي عالجها المبحث الموالي.

1- إشكالية الهوية في المجتمع الاستعماري من حركة التجزؤر إلى مدرسة الجزائر

1.1- مدرسة الجزائر والتراث المتوسطي 1935-1950

كانت حركة المتجزئين، صوت المستوطن، قد أخذت قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية تطوي صفحاتها الدعائية لتيار الجزائر والتبشير بميلاد شعب هجين على شاكلة القارات الجديدة أمريكا وأستراليا بسبب الغلو الذي اتسمت به إيديولوجيا أعضائها الأولين لويس برتران وروبير راندو وجان بومييه، ومن مضى من بعدهم سائرا على دربهم من الكتاب الاستعماريين مثل دوشان وكورتان في رسم العالم الاستعماري المنقسم إلى قسمين، عالم للسادة المستوطنين وآخر للأهالي العبيد، باستثناء بعض الأسماء التي تعاطفت قليلا مع المستضعفين مثل ألبير تريميفوس، أو لويس لوكوك اللذين كان دفاعهما عن قضايا الأهالي ليس من منطلق الحرص على مصالحهم، ولكن خوفا من انهيار الجزائر المستعمرة وانحسار مساحة المسيحية.

التف بعض الأدباء حول فكرة جديدة قديمة في الوقت نفسه هي التراث المتوسطي العريق، وأسسوا للغنائية المتوسطية بكل إيقاعاتها المختلفة، اليونانية واللاتينية والعربية في أثينا وفي روما وفي غرناطة، وكان منهم من تحول من الحركة السابقة وأسس "مدرسة مدينة الجزائر" أو "مدرسة شمال إفريقيا للأداب" الثلاثي غابريال أوديزيو Gabriel Audisio، وألبير كامو Albert Camus، وإيمانويل روبلس Emmanuel Roblès، وأنشأوا مجلة البحر المتوسط. ثم ما لبثت هذه الجماعة أن استقطبت كلا من جان الموهوب عمروش، وجول رويو Jules Roy، وكلود دي فرينفيل، وماكس بول فوشي، ومارسيل موسي Moussy، وأندري روسفلدر André Rosfelder، وجان بيبير ميليكام Millecame، وجان بيليغري Jean Pélégri، وجان برين Jean Brune، وجان دانيال بن سعيد Jean Daniel، وريني جان كلو René Jean Clot .

في حوالي 1935، كان قد تبلور هذا التيار الأدبي الجديد حول ألبير كامو ودار نشر "الثروات الحقيقية" لإدمون شارلو في مكتبة شارع شاراس غير بعيد عن مقر الجامعة في شارع ميشلي (ديدوش مراد حالياً). وقد ساهمت هذه الدار في تنشيط الحركة الثقافية بمدينة الجزائر، وإتاحة الفرصة لهؤلاء الكتاب بالتعارف والاحتكاك، ونشر العديد من أعمالهم، كما انضم إليها كتاب جزائريون أهليون منهم مولود فرعون، وكاتب ياسين، ومحمد ديب.

لم تكن "مدرسة مدينة الجزائر"، في جوهرها وغايتها، تياراً جديداً وتنظيماً معارضاً لحركة المتجزئين معارضة تامة، باستثناء بعض الأسماء المعتدلة مثل جول رواء، وإيمانويل روبلس، وجان بليغري، بل كانت استمراراً لأهداف الجزائر وإيديولوجيتها الاستعمارية، ولكنها خفت من حدة التحيزات بفسح مساحة الحوار مع الأهالي، فراحت تبحث في كيفية تطوير مسألة احتفاظ المستوطنين بالجزائر كوطن متوسطي بديل، تتوحد فيه أعراق بحر المتوسط. إلا أن الفرق بينهما يكمن في البعد الإيحائي الذي يحمله البحر المتوسط كفضاء في الأعمال الأدبية. ذلك أن البحر المتوسط مظهر من مظاهر الغرائبية عند المتجزئين، بينما يعتبره كتاب المدرسة رمزا موحداً للأعراق المتوسطية¹.

وعن مفهوم مدرسة الجزائر يقول أحمد شنيقي ملخصاً خصائصها الأدبية والفنية: «ماذا نسمي "مدرسة مدينة الجزائر"؟ إنها ببساطة إنتاج مؤلفين من فرنسيي الجزائر. مفهوم غامض وواسع، مثل الأدب، فإن كلمة "مدرسة" الفضفاضة جداً، غالباً ما تكون مشابهة للحركة. مكان واحد، مدينة الجزائر، وشبكات من التيمات يبدو أنها تجمع الكتاب الأوروبيين المولودين في الجزائر»². وهي امتداد لفكرة وحدة الأعراق المتوسطية التي قد أشار إليها الأدباء الرحالون، جول فارن في رواياته العجيبة عبر سواحل البحر المتوسط في نهاية القرن التاسع عشر مثل "ماتياس ساندورف" و"هكتور سارفداك"؛ والكاتب ميزات في سلسلة كاغايو، الفتى الجزائري

¹ Voir: Daniele Tuan, L'oeuvre d'Emmanuel Roblès. p.3.

pdf <https://docplayer.fr/21483461-L-oeuvre-d-emmanuel-robles.html>

Ahmed Cheniki, La littérature au service du colonialisme. op.cit.

-1

-2

الحديث ذي الأصول المتوسطية ورفاقه المهمّشين والمتسكعين في شوارع مدينة الجزائر، وتحدث عنها لويس برتران في مختلف مقالاته، وجسدها في روايات متعددة أبرزها "دم الأعراق" و"السينا"، وروبير راندو في "كسار البربري".

2.1.1- غابريال أوديزيو: ريادة النزعة المتوسطية في الجزائر

تأكدت الأسطورة المتوسطية عبر البطل الذي يحمل سمات الرجل المتوسطي عند غابريال أوديزيو في مقالاته "شباب البحر المتوسط" 1935، و"ملح البحر" 1936، و"أوليس، أو الذكاء" 1946، ومن هذا المنطلق جعل الجزائر وطنا متوسطيا رائعا، يمكن أن يستقبل كل الجاليات الأوروبية من أصل لاتيني، لكن ليس وفق نظرة برتران الاستعمارية، وإنما «يدافع عن رؤية عالمية لجزائر وريثة تقاليد متعددة، تغذت من كل الحضارات التي سقتها. يرى فيها المكان الممتاز حيث يمكن أن ينجح تبادل واختلاط كل حضارات الشمال والجنوب»¹.

تَبَزُّز في المقال الأول المكانة التي تحتلها الجزائر ضمن أسطورة الأمة المتوسطية من خلال تغذية فكرة التقارب المطروحة بين الأعراق واختلاط الدماء، و«بفضل الحقائق الملموسة مثل تشابهات البحر المتوسطي، لا يزال بإمكان وحدة عالم جديد أن تتضح حول هذا البحر الذي عرف تجمعه الخاص عدة مرات. مثال يعادل ما يعادل: الجزائر (لا أقول الجزائر المحتلّة ولكن الجزائر المستعمرة) ليست نتيجة "فكرة" بقدر ما هي نتيجة اختلاط طبيعي للدماء»². يشدد على لاتينية البحر المتوسط التي جمعت مياهها مختلف الأعراق دون إلغاء عنصرى لدور العرب المسلمين، معاكسا نظرية اللوّنة المتطرفة التي تبناها لويس برتران وأمثاله من الكتاب الاستعماريين، والتي أقصت هيمنة الإسلام اثني عشر قرنا على المنطقة المتوسطية المغاربية حتى الأندلس.

¹ François Pouillon, Dictionnaire des orientalistes de langue française KARTHALA Editions, 2008. p.30.

² Gabriel Audisio, Jeunesse de la Méditerranée, Éditions Gallimard, 1935. p.11.

في المقال الأخير يبدو "أوليس" هو نموذج هذا البطل اللاتيني الذي ترعرع في الأجواء المتوسطية حيث صفاء البحر وضياء الشمس، رجل المتوسط الوثني دون هوية محددة، ولا دين معين، ولا ثقافة متميزة. فبالنسبة لأوديزيو الذي مثل، «في منشوراته الأولى (أشعار، وروايات، وقصص قصيرة)، البحر المتوسط ديكورا بسيطاً: الشمس والبحر دائماً الحضور، شخصيات مميزة للغاية - جسدياً، حتى في طريقة التعبير عن أنفسهم - من خلال انتمائهم الإقليمي، وفي الوقت نفسه مزيج نموذجي لموانئ البحر الأبيض المتوسط، كل هذا موضوع استطرادات متكررة، والتي يبدو أنها تعلن عن وعي متزايد أكثر وضوحاً وتنظيماً»¹.

في رواية Héliotrope تتبلور نزعة أوديزيو المتوسطية بكل جمالياتها التي عُرفت بها مدرسة الجزائر. في وصف شاعري تغنى فيه بجمال المدن الواقعة على شواطئ المتوسط، ويذكر في ثناياه مدينة الجزائر عبر قصبتها العربية العتيقة: «عشرون مرة، رأيت قصبة الجزائر المبهرة تغرق في الأفق المركز لساحل شمال إفريقيا، وعشرون مرة وجدت أنها تنشر حزمها من نبات الجرجول الأبيض بين سماءين قويتين. عندما مررت عبر قناتيهما، استقبلت جزر البليار، التي انجرفت تحت المطر والبرد خلف ستار الشمس الشفاف»². ويستذكر معها الروائح التي يحس بها وهي تتبعث من وسط أمواج البحر، وتتدفق دافئة على خليج مدينة الجزائر في الصيف من شدة حرارة الشمس، لا تختلف تلك الأجواء عن تلك التي لمسها في مدن أخرى متوسطية: «إنها الرائحة الدافئة اللزجة قليلاً التي ألمحها عبر جلد الجسم كله أكثر من خلال فتحتي الأنف وحدهما، وهي رائحة البوري الأحمر واليود المر، ورائحة السمك التي تأتي من وسط الخليج في ليالي أواخر جويلية في مدينة الجزائر، عندما يبدو أن الرياح الشرقية تسقط علينا أصص الطلاء...»³. وتحتل مدينة الجزائر مكانة شعورية خاصة عند أوديزيو، فهي ليست مكانا يذكره

¹ Carmelina Imbroscio, Nadia Minerva, Patrizia Oppici, Peter Lang, Des îles en archipel ...: flottements autour du thème insulaire en hommage à Carminella Biondi, in l'archipel méditerranéen de Gabriel Audisio, par Maria Chiara Gnocchi, 2008.p.481.

² Gabriel Audisio, Héliotrope, Librairie Gallimard, 1928. édition électronique 2016. <https://www.cultura.com/heliotrope-tea-9782072054709.html>

³ Gabriel Audisio, Héliotrope, ibid.

بالأيام الجميلة فحسب، وإنما هي جزء من نفسه وحياته، وذلك الفضاء الحميم الذي شهد أفراحه وأحزانه، واستنشق عبير مناظره.

نالت روايته " ثلاثة رجال ومنازة " ¹ Trois Hommes et un Minaret الجائزة الأدبية الكبرى عام 1926. تطرقت إلى تصوير انعكاسات الوضع الاستعماري، وتداعيات الحرب العالمية على الجزائريين. ركزت على تيمة الهجرة العكسية من الجزائر إلى المتروبول عشية الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، ووضحت الأسباب الجوهرية التي اضطرت الشباب الجزائري عقب الحرب العالمية الأولى إلى الهجرة بحثاً عن مورد رزق ومناخ هادئ ومريح، وهروبا من البؤس والعنف المسلطين على الأهالي، تاركين بلادهم للمستوطن الفرنسي الذي سيطر على الجزائر وأصبح سيدا على الجزائريين ومالكا لأرضهم، وكان معظم هؤلاء المهاجرين من بلاد القبائل حملوا معهم ثقافتهم، واستطاعوا مع مرور الزمن أن يتعايشوا مع المجتمع الفرنسي عاملين في مختلف المؤسسات، فغصت شوارع باريس بالمسلمين وتأثر بهم الفرنسيون.

يلفت هذا العمل الفني السياسيين في المتروبول إلى خطر هؤلاء العمال المسلمين في قلب الوضع لصالح الإسلام في فرنسا تحت تأثير الاستشراق الرومانسي، ويبيدي سخرية لاذعة من قدرة المسلمين على إحداث أي تغيير إيجابي في حياتهم وفق عقيدتهم. ويرجح أن الرواية كتبت على خلفية بناء مسجد باريس وافتتاحه عام 1926 تحت رعاية الحكومة الفرنسية، تخليدا للمسلمين الذين ضحوا من أجل فرنسا في الحرب العالمية الأولى. ويبدو أن الكاتب قد انزعج من هذا المعلم الإسلامي المنتصب في قلب مدينة مسيحية كانت عاصمة الصليبيين فسماه " كنيسة الأتراك"، وتضايق من الانسجام الموجود بين العرب المسلمين والفرنسيين من خلال وصف ملامح أشخاص يرتدون الزي العربي: «وجوه داكنة تضحك فيما بينها بأسنان الثعالب،

Gabriel Audisio, Trois hommes et un minaret, Editions L'Harmattan, 1 nov. 2009.

-1

قبعات فرنسية تتحني تجاه قنائير [قنور]¹. ويقصد بالعرب قدور بن غبريط وسلطان مراكش اللذين شارك مع ممثلي الحكومة الفرنسية في احتفالية افتتاح المسجد لأول مرة لمسلمي فرنسا.

في قصة هذه الرواية تغيرت الأحوال السياسية والاجتماعية في المتروبول يوم أن سُمح للطائفة المسلمة في فرنسا ببناء مسجد مع معهد إسلامي في أهم شوارع باريس "فونتان دو موان" لممارسة شعائرها الدينية كتعبير عن التسامح الديني كما تقتضي رابطة الإنسانية. ثلاثة رجال اثنان جزائريان بلقاسم بن تواتي وإسماعيل بن تونس وواحد فرنسي تريستان لورول، يرأسه المفتي الجزائري بلقاسم ويساعده في مهمته إسماعيل حارسا للمبنى.

افتتن الفرنسيون بهذا الدين الذي كانوا يجهلون حقيقته قبل الاحتكاك بالمسلمين الجزائريين، فاعتنقوه وتجنبوا كل محرّم مطبقين تعاليمه تدريجيا، من بينهم ثلاث شخصيات نسائية كن يشتغلن على مقربة من المسجد، قدم الفصل الثاني لمحة عنهن، في شارع رقم 7 تنشط السيدة ألبير الأرملة التي تملك بقالة، والسيدة لاريغيير تباع أطعمة بلحم الخنزير والعجل، والسيدة فلورنتان التي تعمل حاجبة، وكانت الوحيدة التي حافظت على الأخلاق الفرنسية. إلا أن الأمور صارت إلى النقيض فلم يذهب هدف نشاطهم الديني بعيدا، حيث خصص قسم منه للمطعم والتدخين، وسرعان ما تحول مكتب المفتي إلى مكان لمواعيد العريضة واللّهو²، فانكشفت عيوبهم الأخلاقية، وإسلامهم المزيف.

أثر وجود المسلمين ونشاطهم الديني المكثف في المواطن الفرنسي تريستان لورال فأعجب بالإسلام واعتنقه، وأطاح بالحكومة الفرنسية ونصّب نفسه سلطانا على الرعية على طريقة ملوك العرب. اتخذ بلقاسم بن تواتي وزيرا له وأحاط نفسه بالجواري، وغير عادات الفرنسيين طبقا

Gabriel Audisio, *Trois hommes et un minaret*, op.cit. p.13.

-1

Voir: Ahmed Lanasri, *La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres*, op.cit. p.71.

-2

للشريعة الإسلامية¹. لكن لم يدم حكمه طويلا، إذ أزاحه الفرنسيون وأعادوا الأمور إلى نصابها، وعادت الحياة كما كانت في ظل النظام الأوروبي المسيحي.

3.1.1- تصوير القمع الاستعماري والتعاطف مع الأهالي: إيمانويل روبلس وجان بيليغري

إيمانويل روبلس²* أحد أعضاء مدرسة الجزائر الأدبية، ومتوسطيّ النزعة، كان يشرف على سلسلة "البحر المتوسط" عن منشورات لوسوي منذ 1952. يكتب في هذا الإطار الأدبي ويختار شخصياته من ضفاف البحر المتوسط، وكثيرا ما يركز على ما يقلق هذه الشخصيات من هواجس الموت وحب الحياة بشغف، «...جزائريون (مثل إسماعيل في أعالي المدينة): جميعهم رجال يتميزون بـ "الشغف والاعتدال، وذوق الحياة والهوس بالموت، والتمسك بالعالم والتخلي عنه، وهذا التدفق وهذا الفيض يعرفهما كل رجال الشمس"³. كوّن روبلس منذ 1937 في "إطار مدرسة الجزائر" رفقة صديقه ألبير كامو ثنائيا أخويا مستتيرا، يتغنى بنور شمس بحر المتوسط الدائمة الإشراق، وحيّاه في كتاب أخويّ "كامو أخو الشمس" 1995.

إن هناك نقاطا مشتركة في حياة هذا الثنائي المتوسطيّ، فقد تقارب الاثنان في سنهما، وتشابهت ظروف نشأتها الصعبة في الأحياء الأوروبية الفقيرة في المدن الكبرى عنابة والجزائر ووهران، وفي أصولهما الإسبانية. وصف روبلس في رسالة 18 جويلية 1984 انتماءه الأدبي إلى مدرسة الجزائر وبين علاقته بالكتاب الذين عرفوا بهذا الانتماء: «مدرسة الجزائر هي التعريف الذي ابتكره النقاد الباريسيون بعد الحرب. وإذا كانت المدرسة الأدبية تشير إلى وجود عقيدة أو نظرية أو فلسفة مشتركة بين جميع الكتاب، فلم يكن هناك شيء مثلها في السنوات

¹- Voir: La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres, op.cit.

²* إيمانويل روبلس Emmanuel Roblés صحفي وكاتب مسرحي وروائي فرنسي من الأقدام السود، ولد بمدينة وهران عام 1914 من جالية إسبانية مستوطنة، تعاطف مع الجزائريين خاصة بعد مجازر ماي 1945. غادر الجزائر بعد الاستقلال وتوفي بفرنسا عام 1994. كتب حول الجزائر روايات، مثل "الفعل" 1938، L'action، و"أعالي المدينة" Les Hauteurs de la ville المكتوبة في 1946، و"فيزوف" 1961 Le Vésuve. وبعد الاستقلال ألف مجموعة من أقاصيص منشورة في صحف مختلفة، جمعها تحت عنوان "مليكّة"، ورواية "فصل عنيف" Saison violente.

³- Danièle Tuan, L'oeuvre d'Emmanuel Roblés, op.cit. p.3.

التي سبقت الحرب العالمية الثانية. إذن ما الذي جمعنا معًا؟ الانتماء إلى ثقافة البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك الثقافة العربية بالطبع. وكذلك النفور ذاته من الاستعمار. بالنسبة للبقية، لا يوجد شيء مشترك بين كامو وكلو، وبين عمروش وفريمينفيل، وبين أوديزيو وفرعون»¹.

روبلس كاتب معتدل وملتزم، عالج أوضاع الجزائر السياسية والاجتماعية في عهد الاستعمار برؤية واقعية دون انحياز تام أو متطرف إلى الإيديولوجيا الاستعمارية على حساب وضع الأهالي القاتم الصورة مثلما تجلى في روايات المستوطنين المتجزئين، بل أبطال شخصياته جزائريون يتحدون الطغيان الإمبريالي بكل وسيلة وحيلة. ظهر توجهه السياسي بدءًا من 1937 من خلال الانخراط في التيار اليساري الفرنسي، عمل في جريدتي "وهران الجمهورية" و"الجزائر الجمهورية"

نقلت الرواية الأولى "الفعل" L'action بطابعها الاجتماعي هموم العمال الفقراء ومشاكل العمل في مدينة الجزائر، والإضرابات التي شنتها جماعة من عمال شركة النقل في 1936 بسبب الظروف المهينة التي يشتغل فيها العمال. «رواية عمالية وصف روبلس، بمناسبة الإضراب، على خلفية الجبهة الشعبية والمؤتمر الإسلامي، اتحاد كل المستغلين ضد كل المستغلين. لقد رأينا على وجه الخصوص الشاب حاج (19 عامًا مثل إسماعيل)، الذي علمه رجل عجوز أوروبي متحرر، ينضم إلى مجموعة المسلحين الذين نظموا الإضراب»². تبين يقظة الوعي الاجتماعي التي أظهرها البطل الجزائري، وليس بطل الرواية، حاج عامل ميكانيكي، مع المستوطن أستون المناضل الليبرالي، جراء الاضطهاد الذي عانته الطبقة العاملة أغلبهم إسبان، الذين لم يسلموا هم أيضا من التعرض للاستغلال من بعض كبار المستوطنين المتعسفين: «آه! حارب! حارب! النضال! البندقية في اليد من أجل الانتقام من الكثير من الإذلال والمعاناة! لا بد أنه كان هناك الكثير في هذه الساعة أولئك الذين أثاروا نفس الاستياء

¹ Dmitri Koudriatsev, « Norma ou l'exil infini » - Le dernier roman d'Emmanuel Roblès. p.5.

www.limag.com › Textes › Koudriatsev › Norma.pdf

² Le roman colonial et l'idéologie coloniale en Algérie, op.cit. p.239.

ونفس الانتفاضة في وجه الحياة التي سُرقت منهم. ألا ينمو في لياليهم "أمل الانتقام"؟¹، حاج الذي أثر الموت على حياة الذل والعذاب. يذكر أن المواقف الإنسانية التي التزم بها الكاتب وعائلته تجاه الجزائريين دفعها ابنه الوحيد بول روبلس، تلميذ ثانوي في سن السادسة عشرة، حين فقده في حادث غامض في أوت 1958.

نالت روايته "أعالي المدينة" Les Hauteurs de la ville شهرة واسعة وجائزة "فيمينا" الأدبية في 1948، في السنة نفسها التي نشرت فيها. كتبها بعد الأحداث العنيفة التي عرفتتها مدن الشرق في سطيف وقالمة وخراطة أوائل ماي 1945 غداة نهاية الحرب العالمية الثانية، عقب مظاهرات قام بها جزائريون لمطالبة فرنسا الإمبريالية بالحرية والاستقلال، فقابلتها الحكومة الاستعمارية بالسلاح الناري وانتهت نهاية مأسوية خلدها المؤرخون والأدباء في أعمال كثيرة. أعيد نشرها في 1960 قبيل الاستقلال بلمسات تعديلية غيرت مجرى الأحداث. والسؤال المطروح لماذا قام الكاتب بتعديل فقرات الرواية في هذه الفترة بالذات التي شهدت صراعا مسلحا قويا بين الثوار الجزائريين والجيش الاستعماري؟

لقد أثر في نفس روبلس الإنسانية الأحداث الدموية التي راح ضحيتها جمع ضخم من الجزائريين ظلما وانتقاما في 1945. واهتز ضميره للعنف الشديد ضد الأهالي الأبرياء منذ قيام ثورة التحرير 1954، وحز في قلبه حالة التهميش والإقصاء دون بصيص أمل في تغيير الواقع المزري. ألهمته هذه العوامل هذه الرواية التي أبدى فيها التزامه ووقوفه الضمني إلى جانب المضطهدين. أهداها إلى أحد ضحايا هذا العنف العنصري تجاه الأهالي، صديقه الجزائري أحمد إسماعيلي المنخرط في الحزب الشيوعي، كان قد اغتالته السلطة الاستعمارية في حادث سيارة مدبر نظرا لنشاطه النضالي المعادي للنظام الاستعماري في الجزائر.

Le roman colonial et l'idéologie coloniale en Algérie, op.cit.

1

تجري حوادث الرواية بمدينة الجزائر أثناء الحرب العالمية الثانية وصعود النازية. إسماعيل بن لخضر شاب جزائري من أم فرنسية في سن التاسعة عشرة، يعمل ميكانيكيا كما هو حال حاج في رواية "الفعل"، في مرآب المستوطن موريتي. فجأة اختطفه عنصران من حركة النازية الناشطة في الجزائر، وهو ينزع بالسكين من الجدار إعلانات نشرتها منظمة "تود" الإيطالية الألمانية تدعو الشباب الجزائري إلى التجنيد للعمل في مشروع بناء تحصينات ضد الإنجليز على ساحل الأطلسي بفرنسا. اقتيد إلى فيلا في تيلملي¹ بأعالي مدينة الجزائر ليواجه استنطاق الزعيم أمارو المستغل لليد العاملة المحلية لصالح هذه المنظمة، فتعرض للتعذيب والشم والإهانة. تولدت الضغينة في قلب إسماعيل ضد أمارو المتسبب في هلاك خمسة وعشرين عاملا عربيا رفضوا السفر إلى فرنسا. فانضم إلى شبكة من الثوار المعادين للنازية وساهم في عملية تهريب فرنسي قتل ضابطا ألمانيا إلى وجدة، وقتل أمارو بمسدس في هجوم انتقامي. قبض عليه في محطة القطار بوادي تليلات قرب وهران قاصدا الفرار إلى المغرب الأقصى.

يصور روبلس العنف الاستعماري الممارس على الأهالي، ويحلل أحداث ماي 1945 عبر شخصية البطل إسماعيل كيف تنشأ الثورة من الأفعال الشنيعة التي يرتكبها السادة الأقوياء لسحق الضعفاء. كانت انتفاضة إسماعيل ضد أمارو بمثابة صرخة ثأرية في وجه الباطل مجسدا في عنصرية الرجل الغربي الذي يدعي حقوق الإنسان، ويذرف الدموع على مأساة الإنسانية المعذبة، وهو الجلاد المتخصص في التعذيب، الذي يتقن بإفراط في اضطهادها: «كنت أقلب في ذهني عبارة "مختصون في التعذيب" وأعيد تقليبيها. في مراكز الدرك، وحتى في المدينة في أقسام الشرطة، تعرض العرب لمعاملة سيئة لما أرادوا انتزاع معلومات أو اعترافات منهم، بربط معاصمهم وتمير عصا تحت العراقيب. ضربات السياط، وحقن الماء في الأمعاء أو عنق زجاجة في الشرج، لقد سمعت بهذا»².

¹*تيلملي Télemly بلدية من بلديات ولاية الجزائر، باللسان البربري معناها العين البيضاء thala oumlil.

²Emmanuel Roblès, Les Hauteurs de la ville, Collection Méditerranée, Editions du Seuil, 1960. p.48.

وهو يستعيد في ذهنه صور التعذيب المستفزة، ويتحاور حول مفاهيم الوطن والوطنية مع رفاقه المناهضين للنازية مثل فوزنييه وفرنانديز وصوريا الذين شجعوه على التمرد والانتقام، يتطور لديه الوعي ويتيقن أن هذا المستبد الذي استولى على أرضه وماله واستعبد إخوانه، لا يمكن أن يتراجع عن جبروته إلا بالمقاومة والتضحية، ولن يتخلى المستوطن عن مكاسبه إلا بثورة مُزلزلة تطيح بمصالحه. فالمستوطن الكبير الذي يملك الثروة والقوة مثل الغول يثير الرعب، و«الإدارة الفرنسية أيضا. الناس أمثاله، المتعجرفون، الجريئون، أفضاظ ودون ضمير يخيفون حتى الحكام العامين. لا أحد يجرؤ على المساس بالامتيازات التي أخذوها»¹.

أدرك إسماعيل بؤس الوطن الذي ينتمي إليه، والبون الشاسع بين المستوطنين والعرب، فهو يعيش في مدينة الجزائر المنقسمة إلى شطرين ككل المدن الجزائرية آنذاك، قسم حديث للأوروبيين على واجهة البحر، يتربع في ساحة الحكومة تمثال الدوق دورليان كرمز للاحتلال، بدلا من تمثال الأمير عبد القادر كما رأى إيدير عم إسماعيل، وقسم قديم آخر في الأعلى حيث يسكن العرب الفقراء، ويعاني ماسحو الأحذية الصغار (يا ولد). فهم الميز العنصري من المعاملات السيئة ونظرات الاستعلاء نحو الأهالي في كل مكان، في مكان إقامته تستهزئ به صاحبة البيت العجوز الإيطالية فلافيا، وفي الشارع تنظر إليه باستغراب عجوز أوروبية لأنه عربي يصحب صديقة فرنسية. علاوة على ذلك يظهر تفكك المجتمع في العلاقات المتوترة بين الطائفتين نتيجة الاختلاف الثقافي والمؤثر الاستعماري، فايدير لا يعرف الفرنسية وفرنانديز لا يتكلم العربية. رهاب الآخر متبادل بين الطرفين، «فإذا نهرت الأم الأوروبية ابنها قالت كن عاقلا وإلا ناديت العربي. الأم العربية ستقول كن عاقلا وإلا ناديت بوشو»². بوشو هو الجنرال توماس بوجو المعروف في تاريخ فرنسا الاستعماري بالجزائر بميله للدمار والقتل.

Emmanuel Roblès, Les Hauteurs de la ville, ibid.p.65.

Les Hauteurs de la ville, ibid. p.151.

-1

-2

ولد بطل روبلس من زواج مختلط فرنسي جزائري شجاع وثائر، شخصية إيجابية يكره الظلم ويرفض الإهانة، وينتقم من جلاده ليشعر بكرامته ويرد الاعتبار لمواطنيه المظلومين الذين ماتوا اختناقاً. تتضاد هذه الملامح مع صورة الأهالي النمطية السلبية التي تحشد عادة في روايات المستوطنين المتشددين، وهذا في حد ذاته تحول في إيديولوجيا الرواية الاستعمارية خلاف المعهود. أكد كثير من الدارسين لأعمال روبلس الروائية أنها تلمح في سطورها صبغة الالتزام والبعد النضالي والإنساني، لكن لا تتجاوز مواقفه حدود التضامن الاجتماعي مع المظلومين واستنكار مظاهر الظلم في المجتمع. لا يلمس التنديد بالاستعمار الفرنسي في الروايتين الواصفتين واقع الجزائر التعيس على الصعيد الاجتماعي والسياسي، حيث ركز روبلس على تقديم الشابين حاج في "الفعل" وإسماعيل في "أعالي المدينة" كشخصيتين مندمجتين في المجتمع الفرنسي الجديد الذي تبينت ملامحه في أعمال الكتاب المتجزئين، ومن حولهما أشخاص أوروبيون يتعايشان معهم بين مد وجزر.

جان بيليغري¹* عضو في مدرسة الجزائر، وأخ وصديق كتاب الشمس المتوسطة، مؤلف من الأقدام السود عرف مثل روبلس بمواقفه المعتدلة إزاء الأهالي وثورة التحرير الجزائرية. ألف "Les Oliviers de la justice" 1959²* زيتون العدالة، وهي رواية سير ذاتية تتناول علاقات التجاور والتعايش بين الأهالي والمستوطنين الأوروبيين في سهول المتيجة، حيث ولد البطل في الجزائر وترعرع بين العرب، وتعرف على ثقافتهم وكانت له علاقات طيبة معهم. فقد أراد الكاتب

¹* جان بيليغري Jean Pélégri 1920-2003، كاتب وممثل فرنسي من مواليد بوقرة، حفيد وابن مستوطن إسباني، استقرت عائلته بعد احتلال الجزائر منذ 1841 بسهول المتيجة "حوش الكاتب"، بعدما استقادت من أراضي زراعية بين سيدي موسى وبوقرة. درس بثانوية مدينة الجزائر، وتحصل على ليسانس في الفلسفة. شارك في الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا. من أعماله، رواية مهبول "Le Maboul" 1963، "Le Cheval dans la ville" 1972 و"Ma mère, l'Algérie" "أمي الجزائر" 1990.

²** اقتبست الرواية إلى سيناريو سينمائي عام 1962، من إخراج جيمس بلو James Blue. نال جائزة كتاب السينما والتلفزيون في مهرجان كان 1962.

أن يصور المجتمع الاستعماري المتعدد الثقافات والأعراق، وظلم المستوطنين للأهالي، ويشير إلى محاسن ومساوئ الشعوب المتوسطية¹.

4.1.1- الأهلي غريب الوطن ومسلوب الوطنية في أعمال كامو الواقعية

بدأ الكاتب المتناقض ألبير كامو² حياته الأدبية وجوديا مع جان بول سارتر، وعبثيا يرفض الانقياد والإذعان لأي سلطة، و متمردا يكره الانصياع إلى أوامر نظامية تسلبه الحرية، وقد تجلى هذا الفكر العبثي الفوضوي في مقالاته الفلسفية "أسطورة سيزيف" 1942، و"الإنسان المتمرّد" 1951. اقترن اسمه بتصريح له مشهور، إثر حصوله على جائزة نوبل للآداب عام 1957، حين أعلن عن موقفه المؤيد لاستعمار الجزائر وعدم تقبله فكرة استقلالها التام عن فرنسا، وتسليم البلاد لحزب جبهة التحرير بقوله: «أؤمن بالعدالة، ولكن لو تعيّن لي أن أختار بين العدالة وأمّي، فإنني سأختار أمّي». أوجز هذا الرد المفحم على سؤال أحد الطلبة الجزائريين المهاجرين إيديولوجيا كامو المناصرة لأطروحة الجزائر المستعمرة باعتباره واحدا من الأقدام السود، كان يمثل شريحة الجيل الجديد من المستوطنين ذوي الأصول المختلطة الذي بشر به ميزات ولويس برتران، جيل من المستوطنين الصغار مثل كاغايو وبيبات وتيتوس. متحرر يتميز بلامح البحر المتوسط الذي رسمه غابريال أوديزيو في "شباب البحر المتوسط" كالحب المفرط للحياة والشهوانية والخوف من الموت.

ترعرع كامو مع جيل البتاويت أمثاله، وعاش مترددا بين الجزائر وفرنسا بسبب مواقفه المتناقضة والمعادية للعرب والمسلمين. كاتب متقلب المزاج انتمى إلى الحزب الشيوعي الجزائري ثم انفصل عنه في 1937، وانقطعت علاقته برفيقه سارتر بعد خلاف ظهر بينهما في مناظرات حادة على صفحات جريدة "الأزمة الحديثة" بسبب إيديولوجيا كامو الاستعمارية. لذلك كانت

¹ V: Odile Jacob, La guerre d'Algérie: 1954-1962, Université de tous les savoirs (Paris, France), 2004. p.64.
²*ولد كامو عام 1914 بالذرعان شرق الجزائر من زواج مختلط، فأبوه فرنسي من الألزاس وأمه إسبانية من أصل ماهوني وعاش في حي بلكور الشعبي، ومات في 1960.

إشكالية الهوية والانتماء تطرح بشدة وبإلحاح في مختلف أعماله. فقد ظل «حائراً بين الانتماء للجغرافيا، أم لتراث المستعمر الحضاري»¹، لم يستطع حسم الأمر ف«بقي مدة طويلة بين كرسيين، الفرنسي والجزائري، الاستعمار والثورة، ولم يحدد موقعه في النهاية إلا عندما انتصرت الهوية الفرنسية بمكوناتها الاستعمارية في الجزائر على بقية العناصر الأخرى تم الانزلاق بسلاسة من خلال حصوله على وضعه الاعتباري بعد روايته الغريب التي كانت إيذاناً بهذا الانزلاق»².

اشتهر في المجال الروائي برواية "الغريب" L'Etranger المنشورة في 1942، عنوان مشحون ومكثف، يحمل دلالات سلبية عن الآخر المختزل في لفظ "العربي". تولدت نظراته الفلسفية عن القلق الوجودي والشعور الدائم بالتمزق والاعتراب، والمعاناة النفسية من عدم جدوى وجود الإنسان في الدنيا، والتشاؤم من عجزه عن أن يحدد مصيره في هذه الحياة. ويحيل العنوان أيضاً إلى قصيدة نثر للشاعر الحداثي شارل بودلير (1821-1867)، الذي يبدو أن ألبير قد تأثر بفكره الفوضوي وتياره الإلحادي وميله الشهواني، فقد افتتح بها ديوانه النثري "سأم باريس"، والتي نشرت بالعنوان نفسه "الغريب"، يوضح مذهبه المتمرد في الحياة، ويعلن كفره بكل شيء مقدس، وتشبثه بالجميل والمثالي. وتتناص الغريب داخليا مع رواية غير مكتملة لكامو "الموت السعيد"³ La Mort heureuse بين 1936 و 1939 محتفظاً باسم البطل ميرسو⁴، وقام سارتر بتحليلها في سلسلة "وضعيات" بعنوان "شرح الغريب" في 1943.

تبنى الكاتب الوجودي الخطاب الواقعي متأثراً بموباسان، ولامس في إحدى مقالاته بؤس الأوضاع التي كان يعيشها الأهالي في منطقة القبائل كما عاشها إخوانهم الفقراء بمناطق أخرى،

¹ - عبد الله الحيمر، ألبير كامو... مستوطن اللامعنى في رواية الطاعون، مقال منشور في القدس العربي الإلكترونية،

13 يناير 2021، تصفح في <https://www.alquds.co.uk/.2021.02.04>

² - واسيني لعرج، ألبير كامو، موت الجزائر الأخرى؟، مقال منشور في القدس العربي الإلكترونية، 22 سبتمبر 2020، تصفح

في <https://www.alquds.co.uk/.2021.02.02>

³ * نشرت "الموت السعيد" بعد وفاة كامو في 1971.

⁴ - فرانك إيفرار، ألبير كامو تيمات ودراسات، تر: الزهرة رميح، النايا للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2014، ص39.

وقدم حولا معقولة للقضاء على معاناتهم الاجتماعية إلا أن رواياته لم تجسد هذا الحس الإنساني تجاه الوضع البائس الذي تورط فيه المستعمرون الفرنسيون، ناهيك عن التنديد بالاستعمار وسياسته المضطهدة، إنما ركزت على إقصاء الأهل من الوطن الجزائري، أو اعتباره كائنا هامشيا لا قيمة له ولا هوية، «إذ خلت [رواية الغريب] من أي حضور إيجابي للجزائري، وبدا ميرسو في الساحل كأنه يدافع عن نفسه من العربي الذي كان يحمل سكيننا قبل أن يملأ ميرسو صدره ورأسه بعدد من الرصاصات القاتلة»¹.

تتجلى دلالات العنف في استعمال الأسلحة كالسكين والمسدس، وقد سولت له نفسه قتل العربي دون تفكير وبرودة أعصاب بمجرد أن ساوره الشك في سوء قصده، وظن لسبب تافه بأنه الخطر المحقق به على رمال ذلك الشاطئ الهادئ، فغدا السيد ميرسو (لقب مركب تركيباً مزجياً من البحر والشمس، يرمز إلى الإنسان المتوسطي) الذي لا اسم له، دون وعي ضحية البحر الدافئ والشمس البازغة جداً، وحرارة الصيف الشديدة استقرت حرارة حقد الرجل الأبيض الدفين للعربي: «كان الضوء يتدفق على الفولاذ وكان مثل شفرة طويلة متأقمة تضربني في جبهتي. في الوقت نفسه، كان العرق الذي تجمع في حاجبي يتدفق فجأة على الجفون ويغطيها بغطاء سميك دافئ. كانت عيناى قد أصابهما العمى وراء هذا الستار من الدموع والملح. لم أشعر إلا بصنح الشمس على جبهتي، وبشكل عشوائي، قفز السيف اللامع من السكين الذي لا يزال أمامي. قضم هذا السيف الحارق رموشي ونقب عينيّ المؤلمتين. عندها تعثر كل شيء. حمل البحر نفساً كثيفاً وحماساً. بدا لي أن السماء تفتح عن آخرها لتمطر ناراً»². قتل المستوطن الوافد العربي كما يقتل وحشاً ضارياً هدد وجوده الإنساني في أرضه التي استوطنها آباؤه بالسلب والنهب منذ أزيد من قرن. ولم يشعر بالذنب ولم يحاكم على جريته، لأن القانون الاستيطاني

¹-واسيني لعرج، ألبير كامو موت الجزائر الأخرى؟ م س.

²- Albert Camus, L'Étranger, version numérique, Les classiques des Les Éditions Gallimard, 1942, Paris, sciences sociales, 2010. Pp.50,51. <http://classiques.uqac.ca/>

لا يعدها جريمة في حق الأهلي طالما ليس له حقوق، بالتالي لا تقتضي أن يتبع صاحبها العقاب.

الشخصيات الفاعلة في الرواية أوروبيون، إسبان وفرنسيون، يتمتعون ببطاقة هوية واسم يحددان انتماءهم العرقي إلى البحر المتوسط، ماري كاردونا وسيلست وإيمانويل وريمون وتوماس بيريز، كلهم يتحدثون الفرنسية في بلد أكثر سكانه غير أوروبيين، يتكلمون جميعهم ضد العرب المحاصرين في دائرة الإقصاء حتى من الانتساب إلى الجزائر، فلم يستخدم السارد وصف جزائريين عند ذكر الأهالي. يصف ميرسو العرب (الأهالي) الصامتين، وفق الصورة النمطية التي شكلتها السردية الاستعمارية، وكأنهم أغراب عن المجتمع الجديد وليسوا جزائريين، أو أشباح يضمرون له حقدا وشرا، وهو أيضا يشعر بالنفور منهم والاستعلاء عليهم لشعوره بتفوق ثقافته على ثقافتهم. ويشرح هذا العداء المتبادل ذا البعد الحضاري في الجزائر المستعمرة بين المستوطنين والعرب واللانسجام الاجتماعي في شرارات النظرة الشراء والمتعالية، والسخط الصامت، والشجار بالأيدي: «كنا سنذهب حينما، فجأة، أشار لي ريمون أن أنظر. رأيت مجموعة من العرب يتكئون على واجهة محل التبغ. كانوا ينظرون إلينا في صمت، ولكن بطريقة الخاصة، لا أكثر ولا أقل كما لو كنا حجارة أو أشجارا ميتة»¹.

عرب ميرسو شخصيات من إثنية مهمشة لا حظ لها في المجتمع الاستعماري الأوروبي. نكرات وأشباح بلا أسماء، ولا مكانة اجتماعية، ولا صفات إيجابية، على سبيل الأمثلة، ممرضة عربية، والموريسكية صديقة ريمون الذي كان يضربها، والعربي صاحب السكن المقتول، ومجموعة من العرب يتربصون بريمون، أحدهم كان شقيق صديقه الموريسكية يحمل سكينا، عربيان مستقلان غير مباشرين. «تقريبًا كل تكرارات كلمة "عربي" هي أوصاف. هذا الشكل من التعيين مقتصر على الأسماء الأخرى، باستثناء حالة واحدة لكلمة "موريسكية"، لا توجد شخصية

Albert Camus, L'Étranger, ibid. p.43.

-1

"أهلية" لها اسم مناسب أو تسمية أخرى مثل "مسلم"، "جزائري"، "أهلي"، "بربري"، "جزائري"،
إلخ»¹. العرب سيئون ومجرمون يستحقون العذاب والعقاب، وجد معظم نزلاء السجن عربا يقبعون
في زنازينه، ولما عاشوا مضطهدين، فقد كانوا أكثر من يتعرض للاعتقال والقمع من قبل السلطة
الاستعمارية حين يتمردون.

يوشي الفضاء المكاني بالعبث الذي أصاب المدن جراء وباء الاستيطان، فقدت هويتها
الاسمية البربرية والعربية واستبدلتها بهوية جديدة، وغيرت جلدها تحت أسماء أجنبية فرنسية.
قبل الاحتلال كانت قرية "مارينغو" Marengo تدعى "حجوط"، وتقع في سهل المتيجة الخصب
حيث استقر مستوطنون ملاك الأراضي المنتزعة بقوة الغالب، وتوجد به دار المسنين التي
عاشت فيها وماتت السيدة ميرسو أم البطل العابث، وأقام لها كاهن مسيحي مراسيم الجنازة في
الكنيسة. في أربعينيات القرن العشرين كان كل شيء في مدينة الجزائر يوشي بأنها مدينة
فرنسية، لا تختلف عن باريس إلا في قصبة العرب. الأحياء بمصابيح كهربائية، وقطارات
كهربائية(ترامواي)، وهاتف، ودور سينما وغيرها من المظاهر الدالة على التطور الحديث.
وسادت مظاهر الثقافة الغربية في سلوك فتيات أروبيات يتجولن في شارع ليون الشعبي (محمد
بلوزداد حاليا) سافرات الوجه مرسلات الشعر يبتسمن لدعابات الفتیان، أو يخرجن مع أصدقائهن
للتنزه في الشواطئ أو إلى السينما.

أحس ميرسو إحساسا رهيبا بالمنفى والغربة، وساءت حالته النفسية في هذه الأماكن المفتوحة
على لهيب شمس الصيف الحار الذي أحرق بهاءها وبهجتها، وأرهب أجساد الناس بمن فيهم
الموتى باستعجال عملية الدفن، قبل أن تتحلل جثثهم وتتحول إلى جيف. «لا بد أن يكون المساء
في هذا البلد بمثابة هدنة حزينة. اليوم، كانت الشمس الساطعة التي تجعل المنظر الطبيعي

Lamria Chetouani, L'étranger d'Albert Camus: une lecture à l'envers du stéréotype arabe. In : Mots, n°30, -1
mars 1992. Images arabes en langue française. p.40.
http://www.persee.fr/doc/mots_0243-6450_1992_num_30_1_1679

يرتجف حولته إلى منظر غير إنساني ومحبط»¹، كان ميرسو ينظر إلى ما يحيط به من مناظر اجتماعية وطبيعة بمنظار سوداوي، ويرى الشمس المتوسطة في الجزائر عدائية وطاقية مثل أهلها، ووهج السماء لا يحتمل. وكانت جميعها تعكّر نظره وتشوش أفكاره. تفسر سيادة النزعة السوداوية في فصول الرواية في أعباء الوضع الاستعماري التي كانت تقلق كامو في علاقاته مع الطرفين المتصارعين الجزائريين والفرنسيين، ويتمنى أن تزول حالة الاحتقان الدائمة بين القطبيين.

و"الطاعون" La peste رواية شهيرة كتبت عام 1947، دارت وقائعها في مدينة وهران المستعمرة في أربعينيات القرن العشرين، وحملت صورة سلبية عن هذه المدينة الساحلية المغمورة دوماً بنور الشمس، ولكنها قبيحة في منظور السارد، ومبوءة بالطاعون الذي سيهلك سكانها العابثين، مهدداً فرنسيي الجزائر الذين كانوا آمنين قبل اجتياحه بالفناء أو الجلاء. «للوهلة الأولى، وهران هي بالفعل مدينة عادية وليست أكثر من محافظة فرنسية على الساحل الجزائري. يجب أن نعترف بأن المدينة نفسها قبيحة. هادئة المظهر، يستغرق الأمر بعض الوقت لمعرفة ما يجعلها مختلفة عن العديد من المدن التجارية الأخرى، في جميع المناطق»².

أثر دفء المناخ المتوسطي في سكان وهران المتخيلة، يشتغلون من أجل المال، ويحبون المال من أجل الملذات. رجالها يلهون ويعبثون، ويعشقون النساء والسينما والبحر، فعاقبهم ربهم على اتباع الشهوات، حسب الكاهن بانلو، بالطاعون ليثوبوا من غيهم إلى رشدهم. فهل طبيعة المدينة هي التي أثرت في السكان أم أن اختلاط الأعراق هو الذي شوه المدينة؟ يصف كامو وهران المستعمرة في سياق الحرب العالمية الثانية، يتحدث عنها بلسان الجماعة التي ترمز للسكان أحياءها "نحن"، حينئذ، وعندنا، و"النحن" هم فرنسيو الجزائر، يحملون بطاقة هوية فرنسية. إنه يبين مظاهر التشويه والتحويل التي ارتبطت بوجود الجالية الأوروبية: «المظهر

Albert Camus, L'Étranger, op.cit. p.18.

Albert Camus, La peste, ENAG Editions, Alger,2012. p.13.

-1

-2

المبتذل للمدينة والحياة»¹، و«الحياة ليست جذابة»²، فهي مدينة أوربية حديثة لا يسكنها العرب المحشورين في الأحياء الفقيرة المبنية على الأطراف.

لقد تنبأ كامو في هذا العمل الروائي بانتهاء مشروع الاستعمار الإمبريالي الذي راهنت عليه فرنسا في الجزائر، مثلما تنبأ به من قبل فكتور ترينغا في بربروبوليس 1922، وتوقع انقشاع وهم التعالي وتضخيم الذات الذي عاش فيه الرجل الأبيض في زمن المد الاستعماري الغربي. فالطاعون عند كامو هو الفزع الأكبر الذي أحدثه نمو الوعي الوطني في نفوس المستوطنين بالجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، والذي أدى إلى انتفاضة ماي 1945، وتأثير صعود الحركات التحررية في البلدان المستعمرة بعد الحرب العالمية الثانية في إنشاء أحزاب وطنية جزائرية، تناضل من أجل تقرير المصير. ثم «إن تدميره لمدينة وهران مجازياً، يعتبر بمثابة هزيمة ذاتية، وغسق لأفق الفلسفي، وانتماء إلى ما وراء عدمية عالم، تسوغه أحداث عرضية وتكتفه دائرة العيب»³، عبث المستوطن وهزيمة الاستعمار أمام المستعمر.

فإذا كان العرب قد حضروا حضوراً سلبياً في "الغريب"، بقتل ميرسو أحدهم بشكل مبدئي إشارة رمزية إلى إنكار وجودهم والرغبة في القضاء عليهم بشكل تدريجي، فإن رواية "الطاعون" قد تجنبت ذكرهم ومحت أثرهم تماماً، حيث خلت وهران من ملامح العنصر العربي غير المرغوب فيه، وانسخ العرب جردانا خطيرة تنتشر في كل مكان جراثيم وباء قاتل يفتك بالمستوطنين الأوروبيين. لكن «الحقيقة التي أعلنها كامو هي عكس ذلك. نحن نعلم مدى جرأته في الكفاح من أجل استعادة هذه الهوية المشوهة»⁴ للعرب، فمن خلال كتابه " الكفاح" يؤكد الوجود العربي: «إن الشعب العربي موجود. أعني بذلك أنه ليس هذا الحشد البائس المجهول الهوية حيث لا يرى الغرب شيئاً يحترمه ويدافع عنه. إنه، على العكس من ذلك، شعب نو

Albert Camus, La peste, ibid. p.16.

La peste. ibid.

³—عبد الله الحيمر، ألبير كامو... مستوطن اللامعنى في رواية الطاعون، م س.

Lamria Chetouani, L'étranger d'Albert Camus, op.cit. p.42.

تقاليد عظيمة منها فضائلهم، بشرط أن يرغب المرء في الاقتراب منها دون تحيز، من بين الأوائل. هؤلاء الناس ليسوا أقل شأنًا إلا من خلال الظروف المعيشية التي يجدون أنفسهم فيها، ولدينا دروس نتعلمها منهم [العرب] إلى الحد الذي يمكنهم أن يتعلموها منا¹. وهكذا يناقض كامو الصحفي كامو الروائي، كامو الصحفي الإنساني كاتب متعاطف مع معاناة الأهالي التي تتمظهر في مقالاته الجريئة في جريدة "الجزائر الجمهورية"، وكامو الروائي، صاحب نوبل الذي يتناغم طرْحُه مع الإيديولوجيا الاستعمارية في الغريب والطاعون.

يُدرج منظرو ما بعد الاستعمار كامو ضمن الكتاب المؤيدين للاستعمار، يتموضع في تحليلات إدوارد سعيد في كتابيه "الاستشراق" و"الثقافة والإمبريالية" بين أولئك الذين تمكنت الإمبريالية العالمية، من تسخير أدبهم وتوظيفهم وسائل دعائية، حسب منظور التوسير في مقاله عن أجهزة الدولة الإيديولوجية، لتمرير أهدافها ومشاريعها الاستعمارية. «إن عناد كامو المتماذي ليفسر الفراغ والغياب في خلفية العربي الذي قتله ميرسو، ومن هنا أيضا الإحساس بالدمار في وهران الذي يراد له بشكل ضمنى أن يعبر لا عن الموتى العرب بشكل رئيسي (وهم بعد كل حساب مكمّن الأهمية من وجهة نظر سكانية) بل عن الوعي الفرنسي»².

هناك رأي آخر يفيد أن كامو كان مناهضا للاستعمار، ومعارضاً حقا لسياسته الإمبريالية في الجزائر، ومناصرا لقضايا الحق والعدل، وكان يبحث عن مخرج عاجل وعادل للأزمة السياسية في الجزائر التي خلقت مجتمعات طائفية متناحرة ومنفصمة العرى. و«بما أن معظم النقاد والتعليقات يؤكد أن نص كامو متعدد الأوجه، ويمكن للمرء أن يقرأه عدة قراءات، فلماذا إذن لا يعتبر سعيد [إدوارد] أن العرب الموتى في "الطاعون" وكذلك قتل العربي في "الغريب" كضحايا للاستعمار الفرنسي الذي يرمز إليه كامو بالوباء في "الطاعون" وبميرسو الفرنسي

L'étranger d'Albert Camus, ibid.

¹

² - إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، م س، ص 15.

والقاتل في "الغريب"!؟»¹. والجواب أن استمرار حضور العرب بشكله السلبي في أعمال كامو اللاحقة يشير إلى أنه لم يكن يرى الاستعمار وبالا على الجزائر، بل كان يتوجس خوفا من زوال الوجود الفرنسي في هذا البلد. فهل كان الطاعون شرا يرمز إلى نهاية الاستعمار الفرنسي أم أريد به النازية والفاشية، أم يشير إلى خطر زحف التيار الوطني الجزائري ضد الإمبريالية الفرنسية؟

لقد حاول الكاتب إزالة بعض الغموض في شرح النقاد الرواية وتفسيرها، وقال إنه يقصد بالوباء الغزو النازي الذي اجتاح فرنسا في الحرب العالمية، ففي رسالة وجهها إلى رولان بارت بتاريخ 11 يناير 1955، أكد الدلالات السياسية والتاريخية التي حملتها روايته قائلا: «إن رواية الطاعون التي أردتها أن تُقرأ على مستويات متعددة، لها مع ذلك، مغزى واضح هو الصراع الذي خاضته المقاومة الأوروبية ضد النازية. والدليل على ذلك أن جميع القراء، وفي كل بلدان أوروبا، قد تعرفوا على هذا العدو رغم عدم ذكره في الرواية»². وربما أيضا كان يقصد به الحركة الوطنية التي كانت تنذر بزوال مجد فرنسا الإمبريالية، أو يستهدف الشعب الجزائري الذي كان يريد ذوبانه في المجتمع الاستيطاني الجديد.

إن كان كامو مناضلا ملتزما بقضايا الإنسان العادلة، فلم لم يشر بالطاعون إلى الاستعمار الفرنسي الذي كاد يمحو وجود شعب بكامله، وفعل ما لم تفعله النازية في أوروبا؟ إذن! فمن هو عدو كامو الافتراضي؟ إن تعدد كامو انفتاح النص على عدة مستويات، وهذا واضح في الاستدلال برأي القراء، لموقف جبان، حسب نقاده، لذلك اختار وهران بدلا من باريس أو مدريد. من الناحية التاريخية قدمت الأحداث في مدينة وهران على أنها وقعت فعلا من خلال الإحالة

¹ - Ala Shatnan Aieze, L'image de l'Arabe et l'attitude d'Albert Camus envers la question algérienne dans sa nouvelle "L'Hôte", de son recueil "L'Exil et le Royaume" : Une étude analytique, Revue de la Faculté des Langues -Université de Bagdad, 2006.p.43.

<https://jcolang.uobaghdad.edu.iq/index.php/JCL/article/view/508/379>

² -نقلا عن: فرانك إيفرار، ألبير كامو تيمات ودراسات، م س، ص96،97.

على الخبر بطريقة التحليل الصحفي الذي يذكر الوقائع النادرة: «وقعت الأحداث الغريبة التي كان موضوعها هذا العمود في عام 194. في وهران. حسب الرأي العام، كانت في غير محلها، وخرجت قليلاً عن المألوف»¹.

يلاحظ أن الصراع الثنائي بين العرب الجزائريين والمستوطنين يتجسد سردياً في القتل الرمزي الذي يظهر في شخصية البطل في كل من "أعالي المدينة" لروبلس 1948 و"الغريب" لكامو 1942. البطل الأول "إسماعيل بلخضر" عربي قتل مستوطناً من كبار الاستعماريين بسبب تعرضه للعنف، والثاني مستوطن فرنسي "ميرسو" قتل عربياً بريئاً خوفاً من أن يتعرض للعنف. وكأن إسماعيل بلخضر الشجاع ينتقم للعربي الذي قتله ميرسو الجبان.

آخر أعمال كامو السردية كانت مجموعته الموسومة "المنفى والمملكة" L'Exil et le Royaume المنشورة في 1957، ترجمت تخبط الكاتب في مواقفه المعلنة وغير المعلنة وتعارضها حيال الجزائر. تضم ست أقاصيص متعددة الأبعاد، أربع منها صورت أحوال الناس اليومية والعادية في المجتمع الاستعماري، مجسداً فكرة المتجزئين في رسم معاناة الفقراء والبسطاء من طبقة العمال المستوطنين والأهالي، وفتور العلاقات الاجتماعية الغريبة سواء بين الأهالي وهؤلاء المستوطنين، أو بين أوروبيي الجزائر أنفسهم. هذه الأقاصيص المنسوجة وفق نسق المتجزئين هي، "المرأة الفاجرة"، و"المنبوذ أو فكر مشوش"، و"البُكم"، و"الضيف". وصف غياب عملية تواصل بين الذات والآخر كسمة غالبية في هذه السرود القصيرة، وعدم التوافق بين الطائفتين المتعارضتين كأحد عوامل الهوة الثقافية السحيقة. توصيفات انتقاصية في السلوك والهئية والثقافة نسبت إلى العرب كإثنية دونية، دون أي اهتمام بصوت معاناتهم. في "المرأة الفاجرة"، تتجلى الممارسات التي تطبع يوميات الجزائريين مع الاستعمار، قمع وإقصاء ونظرة

Albert Camus, La peste, op.cit. p.10.

-1

احتقار. كانت سلوكيات مجموعة من العرب البدائية تثير اشمئزاز جانين التي انهارت أعصابها عندما استبد بها الشعور بالوحشة في مكان لا يمت بصلة إلى ثقافتها ولا يرقى إلى طموحها.

عرب جانين في "المرأة الفاجرة" مجردون من الأسماء مثل عرب ميرسو في "الغريب"، أشخاص غريبون ينظرون إليها نظرات مريبة، لأنها كانت من بين الرجال المرأة الوحيدة المسافرة والسافرة. بعضهم وضعوا أرجلهم على مقعد الحافلة بوقاحة، وكان صمتهم وجمودهم يزيد تنفسها ضيقا عميقا، بدا الحال كأنها في سفر طويل مع فرقة خرساء إلى الصحراء. «رأت أيدي العرب النحيلة ووجوههم المحترقة التي كانت أمامها، ولاحظت المساحة التي كانوا يحتلونها، رغم ثيابهم الفضفاضة، على المقاعد التي كانت هي وزوجها يحتلان جزءا صغيرا منها»¹، صادفت جماعة من الصحراويين في أوضاع متنوعة وبائسة. شدها منظر حمالين بائسين، يحملون أمتعة الناس بأجر زهيد يتفاوضون عليه، ورعاة بثياب خلقة، وبدويين محرومين في خيامهم السوداء وسط واحات منعزلة عن الحضارة، ومتحدثين لغة سمعتها مرارا دون أن تفهمها أبدا، أو تحاول مادامت لغتها الفرنسية المهيمنة مفروضة في أنحاء الجزائر. وبالجملة كان أولئك الأهالي الذين رصدتهم عيون جانين الفاتحة يختلفون عن فرنسيي هذا البلد الشاسع الذي يتعرض لحرقة الشمس، وحريق الاستعمار. مجموعة أشخاص غير متعايشين لا تكاد توجد بينهم رابطة انتمائية، جمعهم التجاور المكاني، وميزهم الاختلاف الثقافي والفيزيولوجي، وفرقهم الميز العنصري.

يتغاضى كامو عن مأساة الحرب الحقيقية التي اصطلت بناها الجزائريون في الأرياف والبوادي، ويلتفت إلى تصوير انعكاسات الثورة الجزائرية السلبية على حياة المستوطنين الصغار ووضعهم الاجتماعي. ويتجلى تضامنه معهم من خلال وطأة الضجر الذي ملأ صدر جانين حتى كادت تختنق، وقلق زوجها على مستقبله المادي في الجزائر المستعمرة، مارسيل الذي كان يلعن كثيرا ظروف هذا البلد الصعبة، خاصة في المدن، ساخرا من تخلف العرب، فقد اضطر

Albert Camus, L'Exil et le Royaume, Collection Folio, Gallimard, 2010. p.12.

-1

إلى أن يفكر في السفر رفقة زوجته إلى الهضاب العليا والصحراء للتعامل تجاريا مع العرب دون اللجوء إلى الوسطاء وينفذ محله من مغبة الإفلاس المؤدي إلى الفقر.

معاناة الطبقة العمالية تتواصل في "البُكم"، مجموعة من عمال مصنع البراميل بمدينة الجزائر يشنون إضرابا فاشلا انتهى بخضوعهم لقوانين رب العمل، لأن هذه المهنة اليدوية في طريقها إلى الزوال، فضلوا التزام الصمت على البطالة. عشرة عمال كلهم أوروبيون بينهم عربي واحد يعمل معهم ويشاركهم الطعام والمواقف، كدليل على اندماج بعض العرب في المجتمع الجديد، ويفسر بالتالي محدودية سياسة الإدماج وفشلها، ويكشف حرمان الأهلي من حق العمل. العمال شغلهم صاحب المصنع شفقة عليهم، ولكن سعيدا المندمج يعاني الميز العنصري، فكان لاسال صاحب المصنع يفرض عليه أن يشتغل أكثر من زملائه الأوروبيين، إذ يستحيل أن يتحول "الآخر" إلى "الأنا" ولو اندمج.

تلتقي "المنبوذ، أو فكر مشوّش" مع "المرأة الفاجرة" في المكان وهو الصحراء، والحالة النفسية وهي الإحساس بالمنفى والاعتراب. تتقلب روح بطلها المبشر المسيحي المنبوذ بين الأمل واليأس في صحراء الجزائر القاسية التي تبعث على الجنون. مبشر فرنسي تائه الفكر في الصحراء الخالية من الحياة، حيث الحرارة الشديدة والشمس الملتهبة، ومتاعب أداء رسالته الإنجيلية المقدسة. ويشبهه بطل أقصوصة "الضيف" المستوطن دارو في تفضيل العزلة عن الناس في قرية جبلية نائية بالمرتفعات المحاذية للصحراء، يؤدي رسالة تربوية بتدريس أطفال فقراء أضناهم البؤس والجوع في الشتاء البارد. يستقبل المعلم دارو ضيفا عربيا من الأهالي ارتكب جريمة في حق مواطنه، ويكلف بتسليمه إلى مركز الشرطة، ولكنه تعاطف وأحسن إليه في بيته، ثم تركه يختار السبيل التي يريد، فاختر العري السجن، كدليل على تعود الأهلي العبودية على الحرية، فثار الناس على دارو واتهموه بتسليمه إلى الشرطة.

«يمثل دارو المثقف اليساري في المستعمرات المحاصر بين الطائفتين، وهي الشخصية التي أبهرت كامو»¹، وتحيل ملامحها إلى الكاتب لأنه كان يعيش الموقف نفسه المحرج، بحكم توجهه السياسي إلى اليسار، وعلاقاته الطيبة وقتذاك مع النخبة المثقفة من الجزائريين أمثال مولود فرعون وكاتب ياسين ومحمد ديب، ومع ذلك كان متمسكا بفكرة الجزائر اللاتينية ببعدها المتوسطي الوثني، لا يتكلم اللغة العربية أو البربرية مثل دوشان أو روبلس حسب شهادة رفاقه العرب، ويجهل الثقافة العربية الإسلامية حسب تحليل جاكين ليفي، ويتجاهل الطائفة المسلمة ويحاول إبعادها عن المشهد الجزائري، ونادرا ما تُستعمل الألفاظ العربية في رواياته. وقد رشحت هذه المواقف الغربية والغامضة كامو الفوضوي، الذي كان دائم الحنين إلى جذوره اللاتينية للظفر بجائزة نوبل، الخادمة للأهداف الغربية، التي نالها في 1957.

يلور جول زوا، الذي كان صديقا له في مدرسة الجزائر، فلسفة كامو المتناقضة تجاه الأهالي بقوله في كتابه "غريب بالنسبة لإخواني": «علمني كامو أن العرب إخواننا. اعتراف رائع لا أعرف كيف أخرج منه. عرف كامو، الذي حاول أن يعيش كفيلسوف، كيف يوازن بين الأخوة: كانت هناك أخوة بين العرق والأخوة في الدم والأخوة الروحية. لا أعتقد أن الرجال بالنسبة له كانوا جميعا أبناء إبراهيم. على أي حال، ليس في الجزائر حيث تعيش والدته الحقيقية، المولودة عام 1882 في بير خادم، في بلكور[بلوزداد]، حيث بدأ يذهب إلى المدرسة. ينطبق مقاله "الإنسان المتمرد" على الجميع باستثناء العرب»².

أما صديقه الكاتب الاستعماري أندري روسفلدر André Rosfelder³ * الذي انضم إلى صف الجيش السري الرافض لاستقلال الجزائر فقد كان أكثر تطرفا من كامو الذي احتار بين الضفتين

¹ Fernando Gomes, « « Solitaire ou solidaire » dans L'Exil et le Royaume d'Albert Camus », Carnets [En ligne], Deuxième série - 4 | 2015, mis en ligne le 30 mai 2015. Consulté le 13 février 2021. URL: <http://journals.openedition.org/carnets/1559>

² Jules Roy, *Étranger pour mes frères*, Éditions Stock, 1982. p.195.

³ * أندري روسفلدر دكتور في الجيولوجيا، وضابط عسكري مظلي، وكاتب فرنسي يهودي من الأقدام السود ينحدر من عائلة المستوطنين من أصل ألماني جاؤوا إلى الجزائر بعد الاحتلال، ولد بوهران في 1925 وتوفي في 2011. عاش في مدينة

الفرنسية والجزائرية، بين أمه (وطنه الأصلي) والبلد الذي ولد فيه، ومن روبلس الذي تبني سياسة الاعتدال مع قضية الجزائر، والتعاطف حيناً آخر مع مأساة الأهالي. سجل روسفلدر حضوره الأدبي من خلال روايات مدرجة في سياق الجاذبية الصحراوية التي كانت موضحة في فترة الأربعينيات، نشأت نتيجة تطور العلم والتنافس الدولي في ميدان البحث عن البترول واستخراجه، واستغلاله في التنمية الاقتصادية، وهو الميدان الذي اشتغل فيه الكاتب شخصياً مع شركة "بترول وادي قطريني" أي القطران جنوب سور الغزلان، نواحي سيدي عيسى بين البويرة والمسيلة بناء على ملاحظات السكان قطرات نפט في مياه وادي قطريني¹.

استطاع روسفلدر أن يحول نشاطه الحياتي إلى إبداع، وحاول أن يبدع في سرد مغامراته الاستكشافية، ويجسد هذا الفضاء الذي احتضن تلك الأحداث في عناوين مختلفة Les hommes frontières 1949، 1952، Fin de chantier، 1953، Rode Sud، 1956 La mer où tout commence. على سبيل المثال في "طريق الجنوب"² Rode Sud 1953 يُكفّ لوأليير مدير شركة صناعية باحثين في الجيولوجيا، أحدهما بطل الرواية جيسر الذي سيقوم بالعمل، ودلديريا الذي سيقدم النتائج، بمهمة التنقيب عن البترول في الجنوب الجزائري، في المكان المسمى "تارفا" ومعناه بالبربرية ساقية، غرباً عند مقطع براد الذي لم يعينه صاحب الفكرة، كان قد بدأ التخطيط لإنجازه في بداية الأربعينيات من القرن العشرين، ثم تم إهماله أثناء الحرب العالمية الثانية، ويشير هنا الكاتب إلى المهندس بون الذي ترك المشروع بسبب الحرب في 1942، إلا أن أسماء الأمكنة الواردة في الرواية متخيلة، وليست موجودة في ضواحي سور الغزلان، المنطقة

=الجزائر بسانت أوجين (بولوغين حالياً). ساند منظمة الجيش السري الفاشية، ونشطت تحت قيادة الجنرال راوول سالان Raoul Salan المنشق عن جناح الجنرال دوغول، والذي وقف ضد استقلال الجزائر، مما جعله يبتعد عن صديقيه جان دانيال بن سعيد وجول روا بسبب انحيازهما إلى جبهة التحرير الوطني. شارك في الاعتداء الفاشل الذي طال دوغول في مون فارون بتولون جنوب فرنسا عام 1964، حكم عليه بالإعدام ففر إلى الولايات المتحدة.

¹ Voir: Jean Mazel, Oued Guéterini (1) - La Rencontre avec le pétrole. Consulté le : 29.09.2021-15 :30. <http://www.cerlealgerianiste.fr/index.php/archives/encyclopedie-algerianiste/histoire/histoire-economique/exploitation-du-sous-sol>

² André Rosfelder, Rode sud, Calmann – Lévy Editeurs, Paris, 1953. Édition numérique. 1 mars 2012.

التي أسس فيها الكاتب شركته البترولية، مثل تارقا، مقطع براد، باب الحديد، وبير دفلة الذي، ربما، هو وادي قطريني. وتقع «تارقا عند منعطف طريق، عضته الرمال، ينبع من الكثبان الرملية عند سفح جبل أحمر ومسطح؛ مدينة السلام بكثافتها المتناثرة بالنخيل وبيوتها ذات لون أمغر»¹.

اغتم جيسر الفرصة لاصطحاب زوجته دومينيك معه، المرأة التي تمثل الحضارة الأوروبية، الآتية من باريس عاصمة المتروبول كي تشاهد الصحراء البدائية الشاسعة لأول مرة، من أجل «العثور على ما هو رائع في كل شيء»². تستمتع بمناظرها غير المألوفة تحت الشمس الحارقة، ورؤية الغزال الشارد، وسرب الجراد، والقوافل العابرة، والشطوط المالحة، والحقول الخصبة بين المساحات القاحلة. وصلوا على متن سيارة جيب إلى المعسكر، في القاعدة شرع في العمل الفريق المحمل بالخرائط والصور الجوية عن الموقع البترولي، إلى جانب جيولوجي الورشة والمهندس المسير فالاس وسط دهشة دومينيك التي شددت انتباهها الآلات الضخمة المستخدمة في حفر الآبار العميقة، وأحاديث الرجال عن تجاربهم الميدانية لاستخراج البترول خارج الجزائر في إفريقيا وأمريكا، وهم يذكرون معلومات علمية، مما يوحي بمسار التقدم العلمي الذي حققته فرنسا الإمبريالية، واستغلال ثروات الجزائر بلا حدود.

يسرد الكاتب أحداثا تدور حول مغامرة استكشافية علمية في الصحراء، لكن لا تخلو ثناياها من مظاهر الغرائبية التي أسطرت الصحراء الجزائرية ووسمت الكتابات الاستعمارية. تمثلت هذه الأسطورة في وصف الدقيق للأماكن الموحشة والواسعة، والمساحات من الأراضي العذراء، وبالتالي تنتظر هذه الثروة الكامنة في باطن الأرض وفوقها من يستكشفها ويستخرج كنوزها. ويتبدى الترويج للسياحة الاستعمارية وإثارة فضول المتلقي الغربي في وصف فرادة المنظر الطبيعي المتنوع بين السهوب والسهول والجبال والرمل في الجزائر كجنة الأحلام، واستقطاب

André Rosfelder, Rocado sud, op.cit. p.18.

Ibid. p.21.

-1

-2

تارقًا باعتبارها بوابة الصحراء للسياح الإسكندنافيين الذين بهرتهم الرمال والنخيل. «متجاهلين غابات الصنوبر والسهول الخضراء التي امتدت إلى ما وراء جبل تارقًا الجاف»¹.

2- الإقصاء العنصري في ملحمة المستوطن: ريني جان كُلو، وبول بلا، ومارسيل موسي

عجز المجتمع الاستيطاني في الجزائر المستعمرة عن احتواء جميع الأعراق المتباينة واللغات المختلفة، وتحقيق أسطورة الشعب الجديد أساسه التجانس والوحدة الوطنية. فمن الطبيعي، كان هذا المجتمع الهجين يعوزه الانسجام والتوازن الداخلي بين الطوائف المختلفة لاختلاف ثقافاتهما، والتي اتسمت العلاقات بينها بالسطحية والعدائية فغابت النزعة النفعية. فالمستوطنون سيطروا على كل الموارد والمصادر التي تكفل لهم البقاء والرخاء، وظل المجتمع الأهلي يعيش في دوائر الظل وجحيم الظلم الذي انفجرت نيرانه الممزوجة بالأمل المجهض في 1945. مضت الرواية الاستعمارية، تحت طائلة غليان التنافر والتباعد في أعقاب الحرب العالمية الثانية، تسطر ملحمة المستوطن المتفوق، عاشق أرض الجزائر حرصا على امتيازاتها، لاسيما عند الكتاب الاستعماريين البورجوازيين، لتأكيد منظومة الهيمنة على الأرض المستعمرة واستغلال الأهالي بطرق بشعة.

حل فرانز فانون نظرة المستوطن الأوروبي إلى الأرض المنهوبة، وكيف أنه لا يتردد في تذكير المستعمّر بفضلته في استغلالها وإخراج خيراتها من باطنها وبنائها وتطويرها بعلمه وجهده، ثم الاستيلاء عليها باسم التمدن والتحضر: «إن حياة المستوطن ملحمة أشبه بأوديسة. إنه البداية المطلقة: "هذه الأرض، نحن صنعناها" هو السبب الفعال المستمر: "إذا نحن ذهبنا، زال كل شيء، وارتدّت هذه الأرض إلى القرون الوسطى"²، وينظر باستعلاء إلى المستعمّر على أنه خامل، غير قادر على الخروج من فضائه البدائي.

¹ André Rosfelder, Rocado sud, op.cit. p.19.

² - فرانز فانون، معذبو الأرض، تر: منور، سلسلة الأنيس، موفم للنشر، 1990، ص 17.

تدور بعض روايات ريني جان كلو¹* في الفضاء الجزائري، فرواية "أشباح في الشمس" 1949 Fantômes au soleil حطت رحالها في تيبازة التابعة لإقليم مدينة الجزائر مركز المستعمرة. حظيت هذه المدينة الساحلية بحضور ملموس، حضورا بارزا أو عابرا في روايات المستوطنين عند لويس برتران في "السينا" و"الغريب" لألبير كامو، لما تتمتع به من جمال طبيعي خلّاب، وما تمثله من وزن تاريخي بالنسبة لوجود الاستعمار الفرنسي بالجزائر. تصور الرواية المناخ المتوسطي الذي يعد من عناصره الجغرافية زرقة البحر والسماء، ونور الشمس الساطعة كما يدل عليها عنوانها، وهو المجال المحبذ عند الكتاب المتوسطيين في مدرسة الجزائر: «على الجانب الآخر، هذا يعني أنه على اليد اليمنى أثناء السير نحو تيبازة، يرى البحر الأبيض المتوسط الذي يخرج لسانه الأزرق إلى ما لا نهاية. إنها لغة شفافة نرى من خلالها الله الأب وطيوه ودخان قاربه. كل هذا الأزرق متموضع من طرف إلى طرف يشكل ذلك أميالا وأميالا من اللون الأزرق»². منح هذا اللون الغالب لمدينة تيبازة ديكورا أزرق لانهاثيا، يتحرك بشفافية صوفية على صفحات المياه.

ترتسم حياة المستوطنين اليومية في الصيف الحار على ساحل تيبازة، حيث قرص الشمس في كبد السماء ساعات طويلة، والأشعة الحارقة تفرض قسوتها في كل مكان وقت الظهيرة، فيستريح كل شيء هامدا في موقعه، فكان أهم ميزة في وصف هذا المنظر البحري هو السكون والركون إلى الراحة وانعدام الحركة، وتظهر أثناء ذلك أشباح المتوسط متمايلة في الشمس نتيجة الحرارة الشديدة لشهر أوت. على الصعيد الاجتماعي، «تيبازة هي قرية الصيادين. يمكننا حتى القول إن الصيد هو السبب الكافي للعيش هنا. تخيل هضبتين صخريتين تتفرقان فوق الأمواج، وتحتهما، تنتثر في السهل مئات الأكواخ ذات القرميد الوردي التي ترسم منارتها وقاعة المدينة،

¹* ريني جان كلو René -Jean Clot ، رسام وكاتب فرنسي عاش فترة في الجزائر المستعمرة، وكتب روايات عن الفضاء الاستعماري صور فيها حياة المستوطنين ونمط عيشهم.

² René -Jean Clot, Fantômes au soleil, 3ème Ed, Editions Gallimard, 1948. p.7.

في نهاياتها، بشكل طبيعي محوري الحياة الاجتماعية»¹. فتحت تيبازة شواطئها للمستوطنين يسترزقون من ثرواتها البحرية، ويستضيئون بنور شمسها، وحرّم ذلك على الأهالي.

في السياق التاريخي يستذكر الكاتب مأساة الحرب العالمية الأولى ونصيب فرنسا من ضحاياها: «نحن فخورون بكوننا فرنسيين»². ينتصب في قمة جبل القرية نصب تذكاري من البرونز لأبناء تيبازة الذين تجندوا مع الجيش الفرنسي للحد من توسع النازية في أراضي فرنسا فسقطوا في هذه الحرب التي لم تكن في صالحهم. كان أغلب الجنود الموتى من الأهالي، افتخرت بهم فرنسا باعتبارهم رعايا فرنسيين، لكن حرمتهم من حقوقهم كمواطنين، وقمعت مطالب ذويهم بعد نهاية الحرب.

في روايته "بصمات في الملح" 1950 Empreintes dans le sel، يتناول تيمة وراثته العيوب الأخلاقية من الآباء إلى الأبناء. احتضنت مدينة الجزائر والبلدية الحوادث التي صورت معاناة جراح الأسنان غابريال دلي من السرقة التي ورثها ابنه جان عنه بسبب ضعف شخصية والدته وتساهلها في تربيته، كان الابن جان يسرق معدات أبيه وأدوات العمل من العيادة. لازم العيب عائلة الجراح رغم حالها الميسور، فشكل هذا الأمر عائقا أمام طموحه السياسي. اضطر إلى مغادرة البلدية نحو باريس إلا أنه لم يستطع التخلص من هاجس الماضي.

ما يسترعي الانتباه في هذا الفضاء الاستعماري الفروق الشاسعة بين الطوائف في المجتمع الجديد، وتتجلى من الناحية الاجتماعية في الهوية السحيقة التي أدت إلى الانقسام الثنائي الضدي، فئة المستوطنين الفرنسيين راقية تتمتع بالحياة الكريمة، وفئة الأهالي مستعبدين، فقراء يعملون خدما عند سادتهم الأوروبيين. يظهر الفرق الثقافي في اختلاف اللغة، يتكلم المستوطنون اللغة الفرنسية مع استعمال ألفاظ عربية أحيانا: خويا، أنت سارق. بينما يستعمل الأهالي لغة هجينة (صبير أو بتاويت) للتواصل مع الأوروبيين، فقد كان كلام الخادم والخادمة فاطمة العربيين

Fantômes au soleil, op.cit. p.7.

Fantômes au soleil, ibid. p.9.

-1

-2

فرنسية محرفة، يجيب الخادم مدافعا عن نفسه ضد تهمة الأوروبي له بالسرقة قبل ثبوتها: «d'mander tout l'monde. Eux connaît moi»¹. يلجأ المستوطن إلى الأحكام السلبية الجاهزة في تعامله مع الأهالي لإظهار التفوق الحضاري الأوروبي، إذ غالبا ما يتعرضون للاتهام والإساءة مهما كانوا مخلصين، لأن الشر في منظور المستوطن هو الأصل فيهم، وترتبط بدونية عرقهم، يستخلص منطق العنف من عبارات الإهانة: السرقة تجري في دمهم، بلاد الأوباش، القذارة، عرق قذر.

يتجلى الفرق الفيزيولوجي في نبرة احتقار الأهالي وكثرة الأوصاف القبيحة المسندة بدقة لفاظمة، وهي تمثيل للمرأة الأهلية التي تعمل خادمة في بيوت المستوطنين بسبب الفقر الذي فرضه الاستعمار للتحكم في سلوك المستعمرين، لكنها تمسكت بتقاليدها، ولم تتأثر بهم ولم تنبهر بثقافتهم: «كانت امرأة قبائلية في الثلاثينيات من عمرها، متهاكة بالفعل كما هي حالهن كلهن، من بجاية. رأسها إلى الخلف، والفم نصف مفتوح، داكن جدًا، وشم على جبينها، لم تفقد هدوءها. كانت ترتدي كنزة صفراء طويلة مرقعة تبرز فوق التنورة الممزقة. رأس منفرج قبيح، يدا وقَدَمًا رُجُل، ولكن تحت جبهتها القاسية المسطحة عينان سوداوان ضخمتان محاطتان بالإثمد، والعينان عميقتان بشكل غير مقبول، والنظرة غرقت في ذلك الظل. كانت قد جاءت إلى المنزل مدة ثلاثة أشهر وكان سلوكها مثاليًا حتى الآن. حول رقبتها خيط معلق مع تميمة جلدية صغيرة سوداء اللون وقذرة [...] المرأة التي لم تدع نفسها تتأثر بكلام الروميين الفارغ، فبإمكان رؤية ذلك بوضوح»². إن عنصرية غابريال وزوجته التي غدت مشاعر الكراهية، واستعمال العنف ضد العرب يكشفان استحالة تحقيق الاندماج بين الطوائف.

René -Jean Clot, Empreintes dans le sel, 7ème Ed, Editions Gallimard,1950. p.10.

René -Jean Clot, Empreintes dans le sel, ibid.p.10.

-1

-2

بول بللا Paul Bellat¹* مستوطن، وابن وحفيد مستوطن استقرت عائلته بسيدي بلعباس في بداية الاحتلال، واستفاد من مساحة كبيرة من الأراضي الزراعية جعلته من أثرياء المنطقة. كان والده ينتمي إلى الأوغارشية الاستعمارية، فانضم إلى اليمين المتطرف باعتباره من كبار المستوطنين الفرنسيين المساهمين في مجال الاقتصاد الاستعماري. سار بول بللا على خطى والده في الاهتمام بشؤون السياسة الداخلية، وفي الآن ذاته عشق الأدب، ووقف بين تيارين أدبيين عرفتهما الساحة الأدبية في الجزائر بين الحربين العالميتين هما، حركة التجزؤ ومدرسة الجزائر. سخر أدبه للدعاية للاستعمار، وتطرق في أعماله إلى المسائل التي تتعلق بالمشروع الإمبريالي، ودافع عن حقوق المستوطن وشرعية الاستعمار في الجزائر، غير أنه بقي كاتباً مغموراً بسبب طغيان الجانب السياسي على نشاطه رغم إنتاجه الغزير.

في رواية "حبيب" 1952 Habib، يتجلى الصراع الثنائي بين الذات والآخر نتيجة الاختلاف الثقافي واستعلاء المستوطن الأوروبي على العربي، وإن كان الثاني سيدي السعدي، الذي ينتمي إلى الأرستقراطية العربية في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، ليس أقل منه مكانة اجتماعية. وتتكشف أوهام سياسة الإدماج التي ما فتئت الحكومة الاستعمارية تلهي بها الأهالي عن التمرد والعصيان. يظل الأهلي آخر رغم نجاحه في اجتياز امتحان الكفاءة في طقس الطاعة للمستعمر، ويرفض المجتمع المستعمر اندماج الأهلي معهم مهما كان، ويشترط عليه الخروج عن جذوره وتبني الثقافة الغربية إذا أراد أن يهنأ بالعيش بينهم.

في "حبيب" ترعرع طفلان من طائفتين مختلفتين، في مكان واحد بالهضاب العليا، وتعلم في مدرسة واحدة وفي الثانوية نفسها بوهران، فتوطدت بينهما صداقة. ولد حبيب من أسرة عربية

¹* بول بللا Paul Bellat ولد في 1904 بسيدي بلعباس وتوفي ببوردو بفرنسا في 2004. كان والده لوسيان بللا رئيس بلدية وصاحب مزارع الكروم ورثها عن أبيه بيير بلا المستقر بالقرية الاستعمارية. انتخب بول في البرلمان، وكان صحفياً ينشر مقالاته في جريدة سيدي بلعباس وأديبا، من أعماله الشعرية: "أوتار قيثار"، وأشعار جزائرية، والروائية: "حبيب"، ومأساة وهران".

نبيلة من عرب الخيام في أفلو، كان والده الشريف سيدي السعدي قائد منطقته وزعيم قبيلته أولاد سيدي شعبان، مخلصا للاستعمار، وكان لويس دوفوبون من أسرة فرنسية، وابن العقيد دوفوبون ضابط في الجيش الاستعماري. أحب حبيب لوسيت أخت صديقه، لكنّ والدها الضابط رفض أن يزوج ابنته من عربي رغم علاقته الطيبة بوالده السعدي، بحجة الاختلاف الثقافي وميل الرجل العربي إلى تعدد الزوجات: «العربي يؤسس حريماً بشكل عادي ولوسيت ليست مُقدّرة لذلك»¹. اغتمّ حبيب فهاجر إلى جزر الهند، وهناك غرق في جحيم المخدرات والضياع. ثم كان الحظ حليفه فعاد إلى بلده، نبغ في دراسته وسافر إلى باريس لمواصلة الدراسة والعمل في سلك التعليم، لكنه انغمس في الشهوات في الأحياء الوضيعة فأصبح متشرداً. في النهاية عاد إلى أسرته واشتغل أعمالاً يدوية، وفي أحد شواطئ وهران حاول إنقاذ الطفلة لوسيت ابنة صديقه لويس، فسقط ميتاً متأثراً بمرض السل.

إن هذه «الرواية محدودة من حيث الزمن حيث لا يسع المرء إلا أن يتخيل، من المؤشرات الشحيحة المعطاة للقارئ، أن أحداثها وقعت بين نهاية الحرب العالمية الثانية وفي وقت ما في الخمسينيات - الستينيات»². سلطت الضوء على قضايا راهنة في حقبة الجزائر المستعمرة، شرحت منطقية استحواذ المستوطنين على الامتيازات على حساب الأهالي المحصورين في مناطق معزولة، وبينت دور زعماء القبائل والأشراف الموالين لفرنسا في خدمة الاستعمار وإطالة عمر وجوده في شخص سيدي السعدي الذي اقترح على سيده العقيد أن يخطط لتمرّد وهمي من قبل الأهالي، ولكنه بقي في قواعد النظام الاستعماري عبداً وخادماً مطيعاً.

وفي "ملاك قد مرّ" 1961 Un ange était passé تتكرر التيمة نفسها المعالجة في "حبيب" بعد تسع سنين من صدور الرواية الأولى، وتحمل اسم البطل حبيب نفسه. يعيد الكاتب صياغة

¹ - Fayçal Bensaadi, Paul Bellat, survivance de l'algérianisme et mystique de circonstance, Thèse de doctorat es sciences en Littérature, Ecole doctorale – Pôle Ouest, Sous la direction de M. Belkacem Mebarki – Université d'Oran, 2008-2009. Cité p.105. pdf

² - Fayçal Bensaadi, Paul Bellat, écrivain colonial. Consulté le :20.11.2020-10 :50.
<http://www.limag.com/Textes/Bensaadi/Bellat.htm>

ترجمة أخرى لحياة حبيب بتسليط الضوء على الزوايا المظلمة. إنها مذكرات البطل حبيب أرسلها أحد قراء الرواية للكاتب بول بلا، يبلغه بأمر كثيرة لا يعرفها عن حياة هذا الحبيب الذي يتحدث عنه¹. أما قصة "مأساة في وهران" 1958 فهي تتحدث عن جريمة قتل راح ضحيتها أرستقراطي إنجليزي هو اللورد سانكلير. وقعت الحادثة في المدينة التي تسكنها نسبة عالية من الإسبانين، وهذا ظاهر في أسماء الشخصيات المذكورة، واكتشفت جثته طفلة إسبانية نينات بيريز. ويبدو أن بول بلا تأثر بكامو، فأخلى هو الآخر مدينة وهران من سكانها الأصليين.

مارسيل موسي² Marcel Moussy من الكتاب المستوطنين ذوي النزعة المتوسطة، تركزت تيماته على مسألة التشبث بالأرض وملكيته، وتثبيت أوتاد الاستيطان الفرنسي في هذا البلد الإفريقي. أشار الناقد غي ديغا المتخصص في الأدب المغاربي إلى أن رواية "العواطف الرديئة" 1955 Les Mauvais Sentiments لهذا الكاتب الاستعماري رسمت مسيرة المستوطن الفرنسي الذي هاجر إلى الجزائر، وتناولت قضية أحقيته لهذه الأرض التي ولد فيها واستقر، منوهاً بفضل المزارع الذي خدمها بجهد وسال من أجلها دمه، وهي التيمة نفسها التي تصدت لها روايته "أركول، أو أرض الميعاد"³ * * * Arcole ou La Terre promise المكتوبة في 1952.

إنها رواية مغامرة بطلها مستوطن فرنسي أعجب بطبيعة الجزائر الساحرة في قرية أركول الاستعمارية (بير الجير حالياً) قرب وهران، فتعلق بطبيعتها وقرر الاستقرار فيها إلى الأبد. تسرد «قصة شخص مُقتلع الجذور. نتيجة لظروف خلافة للغاية، وجد فريديريك دومورييه نفسه مضطراً لترك عائلته وهدوئه البرجوازي وحضارته. انتهى به المطاف في الجزائر. في أركول وعى نفسه، واكتشف نفسه أخيراً وأصبح رجلاً. وبدا له أيضاً أن "التعلق بالبرج والمحافظة على

¹ Paul Bellat, survivance de l'algerianisme et mystique de circonstance, op.cit. p.108.

² *مارسيل موسي، ولد بمدينة الجزائر عام 1920، حصل على جائزة الأدب الجزائري عام 1954 عن روايته "الدم الحار" و"أركول أو أرض الميعاد" 1952.

³ * * * تم اقتباس فكرة هذه الرواية وتحويلها إلى مسلسل تلفزيوني من ست حلقات أخرجه مارسيل موسي عام 1981. يتحدث العمل عن حياة المستوطنين الفرنسيين في قرية أركول الاستعمارية التي عاش فيها الكاتب.

التقاليد عبر الجذور " خانقًا وعقيماً. مقطوعاً عن كل التقاليد، كل الماضي، كل الروابط، إنه يشبه القارب المنجرف، ولفترة طويلة يسمح لنفسه بالانجراف بواسطة التيارات المختلفة، لكنه ينتهي باختيار طريقه»¹، الذي لا رجعة فيه في أرض تبتاها وطننا ومستقرا.

كان إصرار المستوطنين المتشددين على الاحتفاظ بالجزائر المستعمرة وخوفهم من ضياعها تتبلور في قصيدة الإقصاء الكلي للأهالي. وكان الإمعان في تهميشهم يواجه بالعصيان ورفض الاستعمار، وبالتصدي لكل حملات التشويه، وكان آخرها أن كسر الأهالي أبواب الصمت بمقاومة العدوان والقمع، وإعلان الثورة المسلحة في 1954.

الجدول التالي يبين الصور التي ركزت عليها كل من حركة المتجزئين ومدرسة الجزائر التي تعد امتدادا لها في بقاء الاستعمار، واستمرارا للإيديولوجيا الإمبريالية:

مدرسة الجزائر	حركة التجزؤر	الصور التي ركزت عليها أعمال فرنسي الجزائر
كامو، جان كلو	برتران، لوكوك، راندو، كورتان، تريمفوس	وصف يوميات المستوطن الأوروبي مع الأهالي
كامو، أوديزيو، روبلس، جان كلو، جان بيليغري	برتران، راندو، بول أشار	النزعة المتوسطة/ البعد اللاتيني
جان بيليغري	برتران، راندو، بول بلا، كورتان، بول أشار، ريني جانون	تحدي قسوة الطبيعة وتحويلها إلى جنات، والتشبث بالأرض
كامو، أوديزيو، أندري روسفلدر، جان كلو.	برتران، دوشان، راندو، لوكوك، كورتان، مغالي بوانار، أنات غودان	احتقار ا ي/رعية، وازدراء ثقافته وإنكار شخصيته

جدول رقم (10)

3- صدى ثورة التحرير الجزائرية لدى الكتاب الفرنسيين والمواقف المتباينة

مثل الإنتاج الروائي الذي نشره الكتاب الفرنسيون، يضاف إليه الأعمال التي ألفها الفرنسيون من غير المستوطنين أي فرنسيو فرنسا، إبان اندلاع حرب التحرير الكبرى وإلى غاية الاستقلال آخر حلقة في مسار الرواية الاستعمارية الفرنسية المتمحورة حول قضايا الجزائر المستعمرة، وتصوير الحرب الشعواء التي شملت كل المناطق وغطت كل الجهات من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب. واختلفت معالجة هذه الروايات للقضية تبعا لانتماء أصحابها، وتباينت مواقف كتابها بين مؤيد للاستعمار واستمرار إيديولوجيته، ومناهض لوجوده ومندد بفضائه.

يبين غي ديغا أن رواية "المغارة" La grotte للعقيد الأديب جورج بوي¹ * Georges Buis قد حققت نجاحًا كبيرًا أثار قلق الجيش الفرنسي من شهادات بعض الضباط العسكريين حول سياسة القمع المُسلّطة ضد الأهالي العزل للسيطرة على الوضع المتأزم أثناء الحرب التحريرية. «نشرت في أوائل عام 1961 من قبل كريستيان بورجوا، فعرقل الكتاب تقدّم مؤلّفه. حيث وبخ "البكم الكبير" الضباط بسبب التعبير عن آرائهم وينبغي القول بأن نبذة الرواية متباينة للغاية فيما يتعلق بالخصم»²، الذي يتمظهر في صورتين متعارضتين، يبدو قويا منظما وذكيا حينا، ويتمثل في حنكة الثوار الذين وُفقوا في إخفاء المغارة في عمق جبال القبائل عن أنظار الجيش الاستعماري بكل ما أوتي من دعم دوليّ وقوة رهيبة وبطش شديد، ووصف الممرضين الذين ليسوا همجا من قطاع الطرق، بل كانوا ذوي وعي سياسي يشكل خطرا على الجنود الفرنسيين، وحينما آخر يرى الخصم ضعيفا يُسخر من همجيته، وإمكاناته العسكرية القليلة ووسائله التقليدية البسيطة مقارنة بأسلحة الجيش الفرنسي.

¹ جورج بوي ضابط فرنسي ولد في سايغون 1912 وتوفي في 1998 بفرنسا، شارك في حرب الهند الصينية، وانتقل إلى الجزائر واستقر بها، ومكث ما بين 1958 إلى 1962، تولى إدارة جزء من منطقة القبائل بجاية وبرج بوعرييج، ومنطقة الحضنة.

² Guy Dugas, Les romans de la guerre, un ouvrage exceptionnel, histoire de rafraîchir les mémoires, Jeudi 2 Mai 2002. Consulté le: 04.01.2021-16:00. <https://www.humanite.fr/node/264552>

في النسق الاجتماعي يتجلى بؤس حالة الأهالي الاجتماعية في القرى القبائلية، فقر مدقع وتخلف فكري، وتركيز الخطاب على وضعية المرأة المهينة التي تعامل كالحيوان في المجتمع المسلم الذكوري، «لقد رأوا [الضباط] وانتقوا على أن الفتاة قد تلقت ضربات حقًا. لم يفاجأوا بذلك: متوحشون، هؤلاء الناس محبوسون في جبالهم، منذ الأبد، كما في السفينة. وبعد ذلك من المعروف هنا أن الأزواج والآباء والإخوة يعاملون الزوجات والبنات مثل الماشية»¹. كما يتبدى التضامن الكبير بين أهل القرية ومؤازرة الثوار، ونصرة الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الذي وحد الصفوف، وحب الوطن والتضحية في سبيل تحريره من الاحتلال.

تجسد "المغارة" وحشية الحرب الضروس التي كانت تدور رحاها في الجزائر بين الجيش الفرنسي والثوار الوطنيين الجزائريين الذين كانوا يُوسمون آنذاك بأسماء تحقيرية، "الفلاقة" أي قطاع الطرق² أو المتمردين. يشارك في هذه العبثية الاستعمارية بطل الرواية الرائد أنريكو البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عامًا، الذي دفع روحه وأرواح رفاقه ثمنًا لخطرسة الاستعمار الفرنسي في القرى النائية بقلب جبال القبائل، بعد أن فاجأهم أفراد من المتمردين الناجين من الهجوم، وباغته قائد المتمردين المدعو طاهر لامارسييز، وبقي لغز التمرد غامضاً³. مركز الحدث الروائي قرى بني وغيليس (آيت وغيليس - بجاية) بالولاية الثالثة التي شهدت تعزيزات عسكرية كبيرة لقوات الاستعمار في عهد الجنرال دوغول الذي وافق على مخطط القائد الأعلى الجنرال موريس شال بتنفيذ عملية المنظار بين عامي 1959 و 1960 لرصد تحركات سكان القبائل وعزلهم عن الثوار، لؤاد الثورة هناك وكسر شأفة المجاهدين الجزائريين.

Georges Buis, La grotte, Éditions du Seuil, Octobre 1988. p.15.

Voir: Vincent Monteil, Georges Buis: La grotte, 1961.

<https://esprit.presse.fr/article/monteil-vincent/georges-buis-la-grotte-29666>.

V: Christa Jones, "La Caverne Algérienne Chez Yamina Méchakra Et Georges Buis: Lieu De Résistance, De Maternité Ou De Combat." Nouvelles Études Francophones 26, no. 1 (2011): 135-49. Accessed January 10, 2021. <http://www.jstor.org/stable/41445093>

في أحراش هذه المنطقة الجبلية توجد مغارة المتمردين، حيث كُلف قائد فرقة المشاة العسكرية أنريكو ومرافقوه الملازمون فالير وباليساد وفيرتوي ولوشو وفانكونت، والنقيب صاردا بتصفيتهم، مجهزين بعتاد عسكري ضخم وعالي التطور. مناظير لمراقبة الوضع عن كثب، وأجهزة راديو للاتصال، وأسلحة فتاكة، قنابل وحراب ومدافع رشاشة ورشاش آلي وقذفات صواريخ، ودبابة وطائرة مروحية وطائرة استطلاع ومراقبة، وإمكانات بشرية هائلة من ضباط وجنود مظليين ومشاة وفرسان، وفرق ودوريات، مقابل أسلحة تقليدية لكتيبة "الثوار"، تتكون من بضعة أشخاص يحاربون الجيش الاستعماري المدجج ببندقيات صيد ومسدسات بسيطة، ويختبئون في قاع مغارات مظلمة كالبدايين والمتوحشين. قال عن هذه الرواية الصحفي جان لاکوتور المؤيد لاستقلال الجزائر، مخاطباً جمهور القراء المهتمين بالشأن الجزائري: «هل قرأتم المغارة؟ يجب أن تُقرأ. لأن الحرب الجزائرية جلية هناك»¹، وذلك أنها تكشف عن الإنسانية المضطهدة من قبل سياسة الإمبريالية العالمية المهيمنة على شعوب آسيا وإفريقيا.

كان زمن الحدث في شهر مارس 1958، موسم البرد والمطر والثلج والريح في أعالي جبال أكفادو والبيبان بالقبائل، وفي ظروف مناخية قاسية كانت تعرقل أفراد الفرقة على مواصلة عملية التفتيش عن مكان المغارة الشهيرة منذ شهور، وفي الطريق إليها يموت كل مرة جندي. يصف النقيب صاردا لقائده في اتصال بواسطة الراديو العمل البطولي الذي قام به خلال عملية القضاء، بوحشية، على ثوار خرجوا من مخبأ للتمريض على حين غرة: «قبضنا على رجلين، لكن ليس داخل المغارة. جريحان اثنان في حالة علاج. لقد تدفقوا من المخبأ مع الأصدقاء والممرضين. كلهم سيئون، مسلحون، غير قادرين على الذهاب بعيدا جدا والذين لا يريدون الاستسلام. لقد فعلت ما بوسعي لانتقاطهم، لكنك تعلم، دائماً عندما لا تريد إطلاق النار على الرجال، فإنك

تطلق النار عليهم. لقد تضرروا بالفعل، هؤلاء، لدرجة أن طلقات التحذير أطاحت بهم على الفور. ماتوا، للأسف، قبل أن يتم استجوابهم»¹.

كان الثوار الجزائريون يفضلون الموت على الاعتقال الذي كان يؤدي حتماً إلى قاعات التعذيب التي تنتهي بهم إلى إفشاء أسرار الثوار العسكرية. و«في مغارة جورج بوي، يُنظر إلى مخبأ المجاهدين على أنه فضاء غامض، متاهة يصعب السيطرة عليها، إن لم تكن منيعة، قريبة من القصة، كمساحة للمقاومة وإعادة انتشار الجزائريين في النضال من أجل الاستقلال [...] بالنسبة إلى أنريكو، بطل رواية جورج بوي، تصبح المغارة نوعاً من موبى ديك الذي يسعى إليه دون توقف والذي يطارده في مزيج من عدم الثقة والافتتان»²، وتصبح مشروعية العمل الحربي الذي يقوم به في الشرف العسكري، والبهجة التي تصنعها الحرب في نفوس الجنود، لا في بشاعة الأعمال اللاإنسانية التي يراها من أوزار الحرب. المغارة بالنسبة إلى الجزائريين رمز فضائي استراتيجي للمقاومة إبان الثورة الجزائرية، جعلها الثوار مخابئ للأسلحة والمؤن والذخيرة، وقاعة تمريض لمعالجة المرضى والجرحى، والتخطيط لعمليات الفداء ومباغثة عناصر الجيش الفرنسي أثناء حملات التمشيط.

خلال عملية التمشيط الواسعة في قرى آيت وغليس بجبال أكفادو اصطدمت الدورية الفرنسية بمتمردين ثلاثة مبحوث عنهم كانوا في حامية مؤقتة. مات منهم اثنان، أحدهما المفوض السياسي الطموح للمنطقة الثانية سعيد المحامي. «كانت بدلته العسكرية جديدة ومطلوبة. حزام الكاميرا يعترض سترة جلدية. في الجيب تم العثور على آلة حلاقة متعرجة على أحدث طراز. أخيراً، وقّعت البندقية الآلية، التي التقطت على بعد أمتار قليلة، على الجثة»³. والثاني ليس معروفاً أو ذا أهمية. أما المتمرّد الثالث فقد كان شخصية مهمة، أمين سر سعيد المحامي،

Georges Buis, La grotte, op.cit. p.12.

Walid Bouchakour, Au fond des grottes, l'histoire et la littérature, Spéléologie de l'écrit, 15 Novembre 2014- 10:00. Consulté le : 05.01.2021 2021-23:40. <https://www.elwatan.com/pages-hebdo/arts-et-lettres/speleologie-de-lecrit-15-11-2014>

Georges Buis, La grotte, op.cit. p.16.

وطالب سابق كان يدرس في العاصمة وليس قرويا أو فلاحا. عثر عليه حيا وسالما وسط جموع الفلاحين في مستودع الحبوب بالمرزعة، فاقنيد إلى مركز القيادة العسكري حيث يقيم الرائد أنريكو لاستنطاقه تحت صدمات التعذيب.

يشير الوصف إلى أنواع المعاملة الوحشية التي يتلقاها الأسرى من قبل عناصر الجيش الفرنسي، كيف بدا الأسير في الوهلة الأولى شخصا معتدا بنفسه واثقا، ثم أُجبر خلال عملية التعذيب الشاقة على الاستسلام نظرا للوثائق التي كانت بحوزته، والاعتراف ببعض الأسرار عن علاقته برئيسه رستم الموسطاش قائد المنطقة الثانية: «لكن لا شك أنه كان ضعيفا أكثر من جبان. السجائر والركل في المؤخرة، والكلام المحسوب والتهديد، والتطويق المنطقي للأسئلة، بناءً على الوثائق التي لا يمكن دحضها والتي وجدت عنده وأرهقته، كل ذلك جعله يسقط فجأة»¹. أرهقه أيضا عذاب جر الجنود له من مكان إلى آخر في الجبال مكبل اليدين من الخلف وعنقه ملفوف بحبل ساعات طويلة، ليكون دليلهم على المغارة، مركز القيادة الكبير، ذلك "المخبأ الرومانسي" الذي يحتمي فيه المتمردون، ودونما فائدة من تحقيق النصر العظيم بعد أن ألقى الأسير بنفسه من قمة جبل، مفضلا الموت على خيانة الأهل والوطن.

تعيد مقاطع تصويرية حول الخراب الذي ألحق بقرى الأهالي الأذهان، في هذه الرواية المكتوبة عشية الاستقلال، إلى تاريخ جرائم الاستعمار الفرنسي المرتكبة في إطار سياسة الأرض المحروقة المستمرة مدة وجوده بالجزائر، كحرق المغاوير غداة الاحتلال: «يا لها من مساواة في موت مفرط في قلب حفرة ودمار كامل! لساعات مديدة، تطايرت نيران الجمر المكسورة من الانفجارات التي لم يكن بالإمكان الاقتراب منها على مسافة تزيد عن أربعمئة متر. بعد أن انطفأت، اصطفت أكوام من غبار الفحم، وركام متواضعة من السخام اللزج الذي لا يمكن تمييز أي شيء فيه عن اللحم أو العظم أو الخشب أو الجلد. إنه طعام مطحون»².

La grotte, op.cit. p.17
La grotte, ibid. p.32.

-1
-2

صورت الرواية لوحنتين متعارضتين لفئتين متصادمتين، وقوتين غير متوازنتين، التحام الشعب الجزائري ضد الجيش الاستعماري الفرنسي الذي أذاقه الويلات، ومدى إيمانه بالثورة التحريرية ودعمه للمجاهدين ضد الحركى الموالين للفرنسيين. وخيبة أمل العسكريين في القضاء على المتمردين بكل ما أوتوا من قوة مادية ومعنوية، وعجزهم عن تفريق صفوف الشعب الصامد أمام فظائع وجرائم الجنود الفرنسيين، ليسكت خطاب الرسالة الحضارية الغربية التي كانت وراء الاستعمار الذي جسده الرائد أنريكو المغتال وجنوده.

في حقبة المد الشيوعي شغلت القضية الجزائرية فكر الأحرار واهتمام المثقفين في العالم، وحتى الفرنسيين التحريين في المتروبول، وخصوصا أثناء اندلاع الثورة التحريرية. وكان أندري ستيل André Stil¹ * من بين الروائيين الشيوعيين المناهضين للحرب الاستعمارية ضد الشعب الجزائري. ناضل في الحزب الشيوعي الفرنسي وعارض سياسة فرنسا الإمبريالية في الجزائر، وتظهر أفكاره واقتناعاته في ثلاثيته الروائية، التي تطرقت لوصف الحالات الذهنية والصدمات النفسية التي أصابت المُجنِّدون الفرنسيون في فترة ما سمي "حرب الجزائر". الأولى "سوف نتحاربُ غدا" 1957 Nous nous aimerons demain، «تتناول مسألة عودة المجنِّدين إلى فرنسا»²، حيث عاد الجندي ريمون إلى بلده، وخطيبته آني بعد قضاء فترة التجنيد في الجزائر، ولكنه لم يستطع نسيان الأحداث المرعبة التي شاهدها هناك، فعاش مضطربا، لا يستقر على حال. والثانية "الانهيار" 1960 Le Foudroyage، وصفت «تحول مجند في الجزائر، من الطبقة العاملة، إلى جلال»³، لهذا السبب صودرت الرواية من قبل وزارة الداخلية الفرنسية فور نشرها

¹* أندري ستيل André Stil (1921-2004)، روائي وصحفي فرنسي مناضل، كان عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي مدة عشرين سنة، ورئيس تحرير جريدة لومانيتي (الإنسانية) لسان حال الشيوعيين الفرنسيين 1950 - 1958 وعضو جائزة غونكور الأدبية. له مؤلفات كثيرة في المقالة والأقصوصة والرواية. حصل على جائزة ستالين عن ثلاثيته "الصدمة الأولى" في 1952.

² Marie-Cécile Bouju, Lire en communiste, Les maisons d'édition du Parti communiste français 1920-1968, Presses universitaires de Rennes, 2010. <https://books.openedition.org/pur/105734?lang=f>

³ Marie-Cécile Bouju, Lire en communiste, ibid.

في أبريل من السنة نفسها، وأدى هذا العنف الذي اعتمدته حكومة دوغول إلى تعبئة النخبة المثقفة من المناضلين في الحزب الشيوعي من أجل التضامن مع الكاتب المضطهد والاستياء من خنق حرية التعبير. والثالثة "ربع الساعة الأخير" 1962 Le Dernier Quart d'heure، تدور «حول العلاقات بين العمال الفرنسيين والجزائريين»¹ التي تذبذبت بين التنافر والتقارب، ورسمت حياة العمال الجزائريين الصعبة في شمال فرنسا.

رواية "الانهيار" المصادرة، هي أشهر رواية لأندري ستيل، وأفضل ما صور المأساة الإنسانية التي وقعت في الجزائر إبان الثورة التحريرية مدة سبع سنين. تناولت قصة أخوين ألبير وبرنار مات والدهما فرنان دافان إثر انهيار سقف في منجم الفحم في شمال فرنسا. بقي الأول في بلدته عاملاً بسيطاً في ذات المنجم، وتجند الثاني في حرب الجزائر ليتخلص من متاعب العمل فيه ومخاطره، ارتكب خلال تجنده أعمالاً إجرامية بشعة فندم ندماً شديداً، دفعه إلى الانتحار للتكفير عن جرائمه. بينت كيف تنكر ابن عامل في منجم نشأ على الكرامة لمبادئه الأخلاقية وتحول إلى جلاّد وممارسٍ للتعذيب في حرب استعمارية قذرة فرضها الرأسماليون في فرنسا لنهب الشعوب الأخرى، ويدفع ثمنها أفراد وعائلات الشعب الفرنسي البسيط بسبب بؤس الأوضاع الاجتماعية مثل برنار، الذي كان يواجه خطر الموت في المنجم أو الموت في الحرب.

حل برنار بالجزائر واكتشف مناخها الجميل وطبيعتها المضيئة لأول مرة، وجدها تختلف عن تلك التي ألفها في شمال فرنسا البارد والغائم. راقته مناظرها الخلابة بكل تنويعاتها في الأوراس، وأدهشته نباتاتها الشوكية المتميزة بكبر الحجم، جال فيها وحفظ أسماء الأماكن سريعاً. يصف برنار لألبير انبهاره بالضوء الذي يغمر الطبيعة: «الجزائر حسب قول أخي، كلها شمس وقمر، كلها ضياء»². أقام في المعسكرات الاستعمارية ناحية الأوراس، وعاش الخوف من تسلط كبار الضباط وعنجهيتهم، واستكبارهم على الجنود، والرعب من ضربات الثوار الجزائريين

Lire en communiste, op.cit.

André Stil, Le Foudroyage, Editeurs Français Réunis, Paris, 1960. p.112.

-1

-2

المباغته والذين كان يطلقون عليهم صفة الفلاقة. فهم أن فرنسا مستهدفة وأنهم يحاربون من أجل شرفها، وأنها ستخسر كل شيء إذا ما خسرت الجزائر، فما انفك لسان بعضهم يردد «أن الجزائر هي فرنسا»¹. وعلى أساس هذه الفكرة تقبل الجيش الاستعماري العمليات القمعية التي كانوا يمارسونها ضد الأهالي دون حرج أو احتجاج. وبعدها أجبره الضابط المساعد كوفان في المرة الأولى على إطلاق النار على شيخ مسالم، والثانية تطوع بنفسه لتصفية شيخ آخر، وتعود رؤية مشاهد العنف، لم يتردد برنار في خوض غمار الحرب بهمجية مثل رفاقه في السلاح والمشاركة في أعمال وحشية على أوسع نطاق حتى ضد الأبرياء دون رحمة. لقد كانوا بتواطؤ من قادتهم لا يتورعون عن قتل المدنيين دون متابعة، ويسرقون وينهبون الأشياء.

كانوا يبررون عملياتهم البشعة تلك بتزديد عبارة «إنها الحرب» كحدث طبيعي واعتيادي. قاموا بتنفيذ عمليات حرب فظيعة لم تسلم منها حتى الحيوانات الأليفة، فقد «قتلوا مئة بقرة بالبندقية الرشاشة. عملية حقيقية، تمشيط، تطويق، وكل شيء، بطول ثلاثة إلى أربعة كيلومترات، كذلك الرجال، حصار، ثم يطلق النار في الكومة، كما في الزبدة، بحجة أنها كانت ستطعم المتمردين»². هناك جنود أدلوا بشهاداتهم حول المجازر والجرائم التي رأوها أو شاركوا فيها، حيث روى برنارد عن أحد أصدقائه بأنه «فاجأ قسا قد قطع أذني عربي حياً، وبدأ يفتح حنجرته بالسكين. قس...»³ ، وتطرح هذه الجريمة التي ارتكبتها القس ضد العربي علاقة الكنيسة بالاستعمار في الجزائر، ودور التبشير الديني في النفوذ السياسي والاقتصادي.

استعمل الجيش الفرنسي في أعمال القمع والقتل كل الأسلحة الفتاكة بندقيات رشاشة ورشاشات وقذائف الهاون وسلاح الجو، وجربت على الناس كل أنواع التعذيب اللاإنسانية حتى أن برنار تأثر أيما تأثر لما شاهد عذاب المساجين الجزائريين، وسمع صرخاتهم وشدة معاناتهم: «لم أذق طعم النوم [...] بسبب المساجين الذين كانوا يصرخون ويبكون، أو أحيانا يرتلون نوعاً

André Stil, Le Foudroyage, op.cit. p.57.

Le Foudroyage, ibid. p.194.

Ibid. p.195.

-1

-2

-3

من الأدعية. رأيتهم وأنا مقبل. كانوا جالسين في خيمة، حيث لا يدعونهم يخرجون، ولو لقضاء حاجتهم. كان الأمر يحز في القلب وكنا نرى قطرات من البول تسيل تحت الخيمة. وهناك من كان يمسح دمه بحجر. لا أدري أو البول الذي كان يسيل»¹.

كانت يوميات الجنود عامرة بالموت والعنف ضد الجزائريين، ولم يكن التعذيب يمارس في المعسكرات فحسب، بل هناك ضباط حولوا بيوتهم إلى سجون تعذيب سرية بعيدا عن القاعدة العسكرية، كما فعل الملازم بارات الذي جعل مسكنه معتقلا سريريا، فكان يتعرض فيه الجزائريون إلى أشد العذاب ويتم استنطاقهم ليلا، ويقول للجنود محرضا على العنف: «افعلوا ما بدا لكم، ولكن اجعلوهم يتكلمون»². ومنهم من تعدت جرائمه إلى قتل الأبرياء، يعتقل النساء ويستنطقهن لمعرفة أخبار الثوار ويهددهن بالانتقام منهن، فقد أطلق الضابط كوفان رصاصا على رضيع ذي ثلاثة أشهر على مرأى أمه الصامدة بعدما رفضت أن تكشف عن مكان الثوار وأخبارهم، متحججا على ذلك بمسألة الحياة أو الموت التي تجعل الجندي الفرنسي يتأقلم مع جو الحروب ويمارس العنف بشكل عادي، تلك هي اعترافات الجندي برنار الذي فر من بؤس العمل في المناجم إلى خوض غمار الحرب في الجزائر.

على صعيد العلاقات الثنائية المتوترة قدم الكاتب صورة واقعية درامية للمجتمع اللامنسجم والمنقسم إلى سيد مستعمر وعبد مستعمر في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين عندما اشتد الصراع المسلح بين الجيش الفرنسي والثوار الجزائريين، وبينت مأساة الأهالي الذين وقعوا بين نارين نار الحرب الوحشية، وجشع وقسوة المستوطنين الذين كانوا يخشون أن يفقدوا المكاسب التي حققوها في الجزائر، فراحوا يستعملون أسلوب السخرة المهين مع العرب فيثقلون كاهلهم بالمتاعب. يعملون في مزارعهم مقابل دراهم قليلة جدا، أو يستأجرون الأراضي التي كانت في الأصل ملكا لهم ليكونوا مجرد عمال مزارعين عند الوافدين المحتلين.

André Stil, Le Foudroyage, op.cit. p.145.

Ibid. p.202.

-1

-2

اتسمت هذه الروايات الثلاث بطابع الواقعية الاشتراكية لاهتمامها بالطبقة العمالية ومشاكلها الاجتماعية والاقتصادية، وبالجرأة على فضح السياسة الإمبريالية في الجزائر وانعكاساتها الوخيمة على فئة البسطاء في فرنسا. جمعت، بعدها، في كتاب واحد حدد نظرة الكاتب الصريحة إلى الاستعمار الفرنسي، وندد بجرائمه الفظيعة في الجزائر، وأعيد نشرها عام 1978 تحت عنوان موحد " ثلاث خطوات في حرب "Trois Pas dans une guerre".

وألف ستيل، في الإطار الواقعي، مجموعة قصصية بعنوان "الألم" 1961، تضم إحدى عشرة أقصوصة، تناول بعضها تيمات حول الجزائر المستعمرة. فاتحنتها التي أعارت عنوانها للمجموعة "الألم"، تتحدث عن مؤثرات الحرب في الجزائر على مستقبل الأمومة ونجاح عملية الوضع والولادة الطبيعية في فرنسا¹، وأمل النساء في أن تضع الحرب وزرها يوما. في عنوان "السيد فانس"، تعود رواية "الانهيار" عبر تيمة علاقة الرأسمالية الجشعة بالحرب الاستعمارية في الجزائر². وقع المستوطن فانس ضحية إيديولوجيا استعمارية ولدت لديه الحقد والكراهية للعرب، فأضحى مجرما يزهق روح الآخر، و«يسحق جزائريا همّ بإنقاذ زوجته»³.

اهتم الكاتب ريني جوغلي René Jouglet هو الآخر بوصف الوضع الاستعماري في الجزائر أثناء الثورة المسلحة، مسلطا الضوء على شراسة الأعمال التي ارتكبتها الجيش الفرنسي في روايته "مرض العصر" 1961 Le mal du siècle، التي تذكر المتلقي بداء السأم والسوداوية الذي كان قد ساد العصر الرومانسي في القرن التاسع عشر. كانت مناطق النمامشة جنوب الأوراس مسرح هذه الحرب الجهنمية ضد الشعب الجزائري. أمضى سارج فترة التجنيد بالأوراس في جو بارد وقارس، حيث «تبدأ الصحراء عند سفح منحدر النمامشة وانطلقت لتتصادم، مسطحة وذات لون أبيض قشري، مع خط الأفق الذي كان منحنيا وقاسيا كخيوط منجل. بين

¹ V: Pierre Juquin, André Stil: «La Douleur», La Nouvelle critique, juillet-août 1961, n°128. p.132.

Consulté le :04.03.2021-17:50. https://pandor.u-bourgogne.fr/img-viewer/NC/NC_1961_07-08_n128/viewer.html?

² Pierre Juquin, André Stil : « La Douleur »,ibid.

³ Ibid.

الواحد والآخر، لا نفس، لا طيران، لا نفص رمل، لا صوت، لا حياة. كانت الصورة صورة الوحدة كما يتخيلها المرء في العصور الأولى من العالم»¹. هرب من الوحدة المملة في باريس إلى وحدة أشد وطأ ووحشة ورعباً في هذا المعسكر.

إذا كان أندري ستيل اهتم بحال الشباب الفقير في فرنسا، المضطر إلى اقتحام أهوال الحرب، فإن ريني جوغلي صور الأثر السلبي لمرض العصر ألا وهو الشعور بالسأم وخطر الفردانية على حياة الشباب، من خلال شاب بورجوازي ملّ أجواء باريس الرتيبة بكل نشاطاتها الثقافية والاقتصادية وصداع العمل والمال، فتطوع راغباً في المشاركة في الحرب ليكتشف نفسه ويعرف الجديد في الجزائر ثم عاد بذكريات صادمة. هناك في الأوراس اكتشف البورجوازي سارج كلارسون، الذي لم يكن سياسياً ولا يحب السياسة، الحرب القذرة التي حولت جو البلاد إلى جحيم النار والدمار، وجرت العباد إلى جنون التقتيل والتكيل. يشرح الطبيب بالفوا لرفيقه كلارسون أن طياراً أخبره عن رحلته الأخيرة، «بأن مهمته قادتته إلى الحدود التونسية. وجد خمسة أو ستة من الفلاقة محتشدين في شجرة وكان يرشهم ببندقيته الآلية. هذه هي وظيفته. ثم انحرف إلى جانب، وعاد إلى الشجرة. كان العنقود مبعثراً على الأرض. قام بعملية تمشيط ومرة أخرى بتوزيع الرصاص من محمله»². ومن شدة هول حرب الجزائر يصف الجندي سارج مذهولاً الطرق التي يستعملها خصومهم للنيل منهم: «هذه الحرب لا علاقة لها بتلك التي نقرأ قصصها في كتب التاريخ. إنها منقطعة النظير ومتعددة الأوجه. يمكن أن يكون الفراغ المقابل غاصاً بالناس، يمكن لهذه الهضبة إخفاء قاذف قنابل. إنهم يصنعون القنابل بأيديهم. إنها بسيطة. إنهم يقتلون مثل الآخرين. التراخي في الانتباه هو بمثابة مذبحة. أو لا شيء»³.

كانت حرباً تتميز بمفاجأة الخصم، «إن تنقل العدو المقيد بحرب العصابات بسبب محدودية أعداده ونقص تسليحه، يعني تورطه في نطاق محكم. كانت الأرقام في هذه المنطقة الشاسعة

¹ René Jougllet, Le mal du siècle, éditions FeniXX réédition numérique (Éditeurs français réunis 1961). p.7.
² René Jougllet, Le mal du siècle, op.cit. p.13.
³ Ibid. p.8.

والصعبة تفقد فعاليتها بسبب تشتت عناصرها. كان الكمين في كل مكان وليس في أي مكان. لم نكن نعرف، كنا نحرس بعضنا بعضا»¹. لقد اعتمد ثوار الجيش التحرير الجزائري، القليل عددا وسلاحا، على حرب العصابات في عمليات الكر والفر والهجوم المباغت بواسطة إلقاء القنابل اليدوية والكمائن وإطلاق النار في مختلف الجهات لاستهداف مقدرات الاستعمار في الصميم.

رواية أخرى مناهضة للاستعمار هي "حديقة جميلة 1958" Le Jardin de Djemila، ألفها الكاتب اليساري موريس كلافل Maurice Clavel (1920-1979) تكريما للنشاط الكفاحي الذي قامت به المجاهدة الجزائرية جميلة بن محمد ابنة المناضل والنقابي مصطفى بن محمد المنخرط في حزب الشعب الجزائري منذ 1945، حيث أُلقي عليها القبض في مارس 1957، ويشيد بالمناضلين الوطنيين في صفوف حزب مصالي الحاج.

خلدت الرواية في الوقت ذاته كل الجميلات الوطنيات اللاتي كافحن في حرب التحرير الجزائرية بوضع قنابل في الأماكن العامة التي يتردد إليها المستوطنون الفرنسيون في مدينة الجزائر، فتعرضن للقمع الاستعماري والسجن والتعذيب. «كانت رواية موريس كلافل - حديقة جميلة- تستحق أيضًا الظهور ضمن الأعمال المختارة. كان صحفيًا محاربًا وعضوًا في الحركة التي يقودها أوغست لوكور، موريس كلافل واحد من هؤلاء المثقفين النادرين الذين أعربوا عن تفضيلهم للحركة الوطنية الجزائرية. عندما ركزت وسائل الإعلام على جميلة بوباشا وجميلة بوعزة - كانتا عضوين في جبهة التحرير الوطني - اختار السيد كلافل التحدث عن جميلة أخرى، وبذلك، عن هؤلاء الانفصاليين الآخرين: أنصار مصالي الحاج»².

René Jouglet, Le mal du siècle, op.cit. p.18.

Christian Beuvain, «REVUE des REVUES: Second semestre 2013», Dissidences [Online], 6 | 2013, Online since 30 December 2013, connection on 20 January 2021.

-1

-2

فقد أراد الكاتب من وراء هذا العمل إظهار المناضلة جميلة بن محمد نموذجاً لكفاح المرأة الجزائرية ضد إرهاب الاستعمار الفرنسي، ويوجه الأنظار إلى مناضلي حزب نجم شمال إفريقيا الانفصالي ونداءاته المستمرة حول قضية المطالبة باستقلال الجزائر الكامل عن فرنسا.

تتميز الأعمال الروائية السابقة بكونها نصوصاً مناهضة للاستعمار، وفاضحة للأساليب الوحشية المنتهكة لكل الأعراف والمواثيق الدولية. تطفح فيها صور ضراوة الحرب في الجزائر في عهد حكومة شارل دوغول، وتشهد على المواقف الإنسانية النبيلة، حيث استشاط الكتاب اليساريون، بالانخراط أو التعاطف السياسي، غضباً ضد حرب غير عادلة وغير متكافئة، وحنقاً ضد عالم غير منصف وملغم بالمصالح الشخصية والمؤامرات، يقوده رأسماليون جشعون، وغربيون نرجسيون ضربوا عرض الحائط بحقوق الإنسان الجزائري.

4-خيول الشمس لجول روا: ملحمة الشعب الجزائري أم ملحمة فرنسا في الجزائر؟

جول روا^{1*} كاتب وروائي من فرنسيي الجزائر، ينحدر من عائلة فرنسية مقيمة بالمتيجة جنوب الساحل الجزائري. كان من أبرز كتّاب الأقدام السود المدافعين عن استقلال الجزائر وحرية شعبها، ومناهضاً لإيديولوجيا الاستعمار، فهاجم النظام الاستعماري وندد بوحشيته وطغيانه في أعماله وتصريحاته. صرح لجريدة "نظرات" في محادثة مع عائشة بلحفاوي في 1 سبتمبر 1998: «ظننت أن الجزائر أرض فرنسية ورجعت بفكرة أنها كانت عكس ذلك، وبفكرة أن العرب هم إخواني، وأن أرضهم قد سلبت منهم، وأن الحملة الاستعمارية كانت شيئاً فظيماً، وقد استغرق الأمر خمسين عاماً لغزو الجزائر وإضرام النار فيها والدم، وبفكرة أن لهم الحق في العدالة. إنه شيء رهيب! هذا يمكن أن نتعلمه، أن نشعر به، ولا يمكن مناقشته!»². يعد من

^{1*} جول روا Jules Roy ضابط فرنسي عمل في فرقة المشاة ثم في سلاح الطيران، ولد من أسرة مستوطنة، مزارعة ومتوسطة الحال في روفيجو (بوقرة حالياً) بالجزائر عام 1907 وفيها عاش طفولته وشبابه. كاتب يساري دافع عن حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره دون وصاية الاستعمار الفرنسي، واستقال عام 1953 من الجيش بسبب ممارساته البشعة في المستعمرات.
² Aïcha Belhafaoui, Entretien avec Jules Roy, Regards en septembre 1998. Consulté le:25.02.2021-13:45.
<http://www.regards.fr/archives/archives-web/jules-roy>

جماعة "مدرسة مدينة الجزائر" المتوسطة، وصديق حميم لألبير كامو، وإيمانويل روبلس، مع أنهم اختلفت آراؤهم ورؤاهم إلى وضع الجزائر تحت الاستعمار الفرنسي. فأما كامو فقد حاد عن الحق واختار أمه على العدالة، ونال الجائزة العالمية الكبرى ثم مات، وأما روبلس فكان مدهانا، بقي على الحياد وأمسك العصا من الوسط، وفضل النجاة، وأما جول روا فقد وقف بجرأة وقفة إنسانية وأخلاقية، نادرة النظر عند المستوطنين المنتمين إلى الجيش الفرنسي، مع الحق ضد الباطل، فخرس وظيفته، وريح عزة نفسه وضميره مع احترام العالم.

كتب روا سلسلة روائية من ستة أجزاء عن محنة الجزائر المستعمرة كما كانت بالنسبة للأهالي، وملحمة الجزائر المستعمرة من وجهة نظر المستعمر. استغرق فيها عقدا من الزمن عنوانها "خيول الشمس" *Les chevaux du soleil*. بدأت البذور الأولى لمشروع السلسلة قبل استقلال الجزائر من خلال مواقفه الإنسانية من الأحداث البشعة التي ما فتئ يرتكبها الاستعمار الفرنسي في المستعمرات وفي الجزائر بصفة خاصة، عبر عنها في مقال "حرب الجزائر" 1960 أثار به جدلا واسعا وضجة إعلامية، ثم نضجت روائيا في 1966، ونشرت منفصلة منذ عام 1967 في عهد الجزائر المستقلة، واستمرت فصولها الملحمية تنشر إلى 1975 في ستة أجزاء، تتوزع على عناوين متعددة. قُدمت مسلسلا تلفزيونيا من حلقات في 1980، وأخذت تسمية جامعة "ملحمة الجزائر" في 1995.

في كتاب سيرته الذاتية "وداعا أمي، وداعا قلبي" وهو يرثي والدته المدفونة بالجزائر، يذكر قرية سيدي موسى بالبليدة، ذلك المكان الحميم المؤلف الذي شهد ميلاد هذه الرواية: «هذه القرية التي كنت أعرفها في ذلك العهد الذي كتبت فيه *خيول الشمس* لما كان لكل جِرْفِي اسم، ولكل عائلة اسم يقوم بدوره...»¹.

¹ Maurice Simo Djom, *L'hybridité dans le roman autobiographique francophone contemporain*, Editions Publibook, 2017. Cité p.91.

رواية بطولية طويلة النفس نثرا، وعلى شاكلة إلياذة هوميروس شعرا، حيث تتناص معها في الإفراط في الطول والنمط الملحمي الذي يركز على حقبة زمنية وأحداث حقيقية، وهجينة من حيث جنسها الأدبي، تاريخية وسير ذاتية. تحكي، بأسلوب واقعي توثيقي، وخيالي من زاوية معرفة السارد لتاريخ الجزائر المستعمرة، مأساة الشعب الجزائري الذي كان يرزح في ظلال عبودية الاستعمار الفرنسي، ونصال سيوفه المسلطة على الرقاب طيلة قرن واثنين وثلاثين سنة. وتصور فترة زمنية زاهية من 1830 إلى 1962 قضاها المستوطنون الفرنسيون في الجزائر ينهبون ثروات البلاد نهبا، تحت مسمى الرسالة الحضارية.

خيول الشمس رواية ذات خلفية تاريخية في عمومها حمالة مفارقات، توصلت بآليات الاستطراد والوصف لتمجيد الاستعمار أم لفضحه. هل تعري الاستعمار الحديث، وتكشف خرافة المركزية الغربية، وتميط اللثام عن أنانية الرجل الأبيض الذي راح يمتطي ظهر النقوق الصناعي المادي ليتوسع خارج أرضه ويستولي على بلاد بعيدة فأخذها بالقوة والقهر؟ أم هي تخليد مسيرة ومصير عائلات مستوطنة رغبت في الاستقرار في أرض الغير وهو عنها راغب، سكنت الجزائر منذ السنوات الأولى من الاحتلال، أرادت أن تتجذر ففرضت وجودها إلى غاية مغادرة البلاد التي ظنوا كل الظن ألا تعود إلى أهلها. بعضهم اعتبرها مأساة إنسانية ألمت بالجزائر «شخصياتها الرئيسية هم "فرنسيو الجزائر". إن [جول روا] يقدم سردا لمأساتهم وبعض الصفحات تتحرك بشكل خاص. لكنه لا يسعى لإخفاء كيف أن "خسارة" فرنسا للجزائر هي نتيجة للأعمال التي ارتكبتها هناك»¹. وهذا الكلام فيه ما فيه من تقزيم لنضال الشعب الجزائري ضد أعتى قوة استعمارية في العصر الحديث، ويعني أن بطولة الجزائريين كانت نتيجة معاناة اجتماعية وسياسية، وبؤس معيش، ولم تكن وليدة الوعي بالهوية الجزائرية والوحدة وحب الوطن لولا حماقة الفرنسيين وخطرستهم.

¹ - Paul Masson, Mémoires d'Algérie et poids du silence, mercredi 26 décembre 2018. Consulté le : 14.02.2021- 14 :20.

تناولت هذه الرواية التي يتشابك فيها الواقعي والمتخيل، على امتداد أجزائها ومدة تأليفها، مراحل سقوط إيالة الجزائر، قصة دولة ذات سيادة صدعت العالم لقرون فتكالت عليها الدول الأوروبية للثأر من حكامها الأتراك، ولتحرير الجزائريين من طغيانهم، فاحتلتها فرنسا لتحولها إلى محافظة. رصدت وضعية الجزائر المستعمرة في تطورها التاريخي والسياسي والاجتماعي، ورسمت كل الانفعالات المعقدة والمتشابكة التي رافقت هذا التطور. قصة عائلات فرنسية بسيطة بوعيشو وباريس ورواي استوطنت أرض الجزائر بعد الاحتلال وتوارثتها الأجيال بديلة من موطنها الأصلي، ولبثت فيها حقبا من الزمن تتافح عن حقها غير الشرعي بكل أشكال العنف المستطاع. عاش الوافدون الأوروبيون تذبذبات تجربة استيطانية مجهولة العواقب، فيها كثير من جرأة المغامرة، وحياة محفوفة بالمخاطرة مع السكان الأصليين، وعلاقات غيرية مشحونة بالمنافرة والكيد وكراهية الآخر، وبلغ رفض التعايش معه حد التطهير العرقي.

شكلت كل مرحلة ملحمية جزءا منفصلا يحمل عنوانا مستقلا. فالجزء الأول موسوم ب"واقعة مدينة الجزائر" Chronique d'Alger 1967، ينقسم إلى ستة وعشرين فصلا، بادئا بالفصل الأول عنوانه "الإنزال" حيث انطلق الأسطول من ميناء تولون وأرسى بشبه جزيرة سيدي فرج، من ضمنهم بطل القصة المحوري الرقيب أنطوان بوعيشو وهو أحد جنود الحملة الحالم بأرض الجزائر والمعجب بها، فلما وطئتها قدماه «استنشق الهواء مثل الكلب وسار نحو الحديقة. كان العطر، وليس الرائحة، يأتي من أشجار الليمون والسرو. لم تكن أشجار الليمون مزهرة، ولكن من أوراقها، مثل أغصان السرو، تنبعث منها رائحة دافئة، مَرَّة ومدوَّخة»¹. خاتمتها فصل موسوم ب"حفنة من الفول"، حفنة أخذها بوعيشو مع كيس من مسحوق القهوة وقارورة عطر شرقي إلى بلدته مونسيغور تذكارات، دليلا على أسفه على مغادرة الجزائر. وفي ثناياها تظهر لقطات رومانسية إغرائية ساكنة في قلب بوعيشو المصبوب الذي ملكته عشيقته ماري أدابرام، وذهنه مشبع على غرار كل الفرنسيين بالصور النمطية عن الجزائر وحریمها وكنوزها وقصورها

¹ Jules Roy, Les chevaux du soleil I, Chronique d'Alger, Editions Bernard Grasset, Paris VI, 1967. Pp.335,336.

وجمالها، وعن أخلاق أهلها البدائيين الكسالى، وتخلفهم الحضاري. جاءها يحلم قبل الولوج إليها بطبيعة جميلة ذات «سما زرقاء، وبحر، مثل بحيرة، وأرض مكسوة بالزهور»¹. تبدت حالات الوجد التي سببتها الراقصة الإسبانية جنيتي بين العسكريين الولهانين في وحدتهم الكئيبة، وعلى وقع الإثارة والانفعال والعنف الدموي يروي الكاتب تفاصيل تاريخية عن حادثة الحملة العسكرية المباغطة على مدينة الجزائر "المحروسة"، وقد كانت حملة شارل العاشر الفرنسي الصليبية هذه بمثابة الجزء الثاني من حملة شارل الخامس الإسباني.

بدأ الجزء الأول بوصف الحصار البحري من شاطئ سيدي فرج، الثغر غير المحروس، دخلت فرنسا غازية على متن أسطول ضخم يؤكد التخطيط السري للغزو منذ زمن مبكر عن طريق أعمال التجسس (الjasوس بوتان الذي أرسله نابليون في 1808). ضم الأسطول سفنا كثيرة وعتادا ثقيلًا وجيشًا هائلًا، عددا من الجنود الصغار والضباط المرموقين، يهتفون بحياة الملك شارل العاشر، وهم يزحفون إلى مدينة الجزائر غير المحصنة بالقدر الكافي. يستحضر قضية اليهودي بكري والديون الفرنسية على الجزائر، وعلاقته بالداي حسين ودوره في إرباك شؤون التصدير والاستيراد، وانتهاء أمرها باستغلال القنصل الفرنسي دوفال حادثة المروحة ذريعة لصالح فرنسا واعتبارها انتهاكا لشرف الملك. تتتالي الفصول الأخرى لتصف تلاحق الأحداث، ساردة الأهداف الاستعمارية والدوافع السياسية والدينية للحملة ووقائعها التي حفلت بالمعارك الثنائية الضارية في اسطوالي وتقدم الفرنسيين في الأراضي البرية والاستحواذ على مخيم الجزائريين، ونتائجها المتجلية في استسلام الداوي حسين دون مقاومة. وفي غمرة نشوة النصر رفع العلم الفرنسي في القصبه بعد دك أسوارها التي تهاوت تحت وابل من القذائف.

تم التركيز في رسم شخصيات الحملة الأولى على تبيان أطماعهم الشخصية، وأحلام حكامهم في غزو الجزائر لملء خزينه دولتهم التي أنهكتها حروب الإمبراطورية، وفوضى صراعات قادة

Jules Roy, Les chevaux du soleil I, ibid. p.13.

الجيش الشديدة على الامتيازات بعد نجاح العملية العسكرية التي استغرقت ثلاثة أشهر من 13 جوان إلى 03 سبتمبر 1830. كشفت نفسيات وأخلاقيات كبار الضباط العسكريين الاستعماريين والجنود المغامرين، يقودهم خادم الملك شارل العاشر دوبرومون، الانتهازي الذي كان يخون الضعيف والمنهزم، كما خان نابليون في معركة وترلو، والجنرال بارتزان، والبارون دوبري، والعقيد دامريمون. ومن الجنود المحاربين جنديان من عرق يتصف بالجرأة والحيلة، أنطوان بوعيشو الأمي والفقير الذي كان يعيش على النهب، ذي الاسم السامي العربي أو العبري، ربما يعود إلى فترة احتلال العرب جنوب أوروبا¹*. خادم القادة المتطوع في الجندية بدافع الفقر، وصديقه الساذج أدولف باسبوا والملازم دو روائ.

يغطي الجزء الثاني المعنون "امرأة بلقب نجمة" 1968 Une femme au nom d'étoile المرحلة التالية للغزو من 1850 - 1870، وهي مرحلة مفصلية تزامنت مع انتقضة بلاد القبائل الأولى 1857، وبداية خطة الاستيطان الكبير التي خدمها بحماس زائد حاكم الجزائر العام الجنرال بوجو. يتألف مشروع المجتمع الاستيطاني من ثلاثة أعمدة أساسية العسكري والقس والمستوطن، تتمظهر في جل الأعمال السردية التي تناولت صورة الجزائر المستعمرة. يروي هذا الجزء الحياة اليومية للمستوطن الصغير الذي جاء ليعمل في الأراضي الفلاحية الخصبة على سهول الجزائر.

نموذج رائد للاستيطان بعد الانتصار في حملة الغزو العسكري على الجزائر يمثله أنطوان بوعيشو الذي تزوج عشيقته ماري ألدابرام بعد وفاة زوجته الأولى في بلدته الفرنسية. قطع الصلة مع مسقط رأسه نهائياً بعد ربع قرن من الغزو واصطحبها إلى الأرض الجديدة ليبدأ معها حياة

¹*فتح العرب جنوب أوروبا في العصر الأموي وتوغلوا في بلاد الغال بفرنسا، وقد تأثرت لهجات تلك الأقاليم المفتوحة باللغة العربية منها لهجة الأوكستانية occitanie في الجنوب بين جبال البيريني أوريوننتال، ويتحدث بها السكان على الحدود الفرنسية الإسبانية. وقد أقام بعض الفاتحين هناك واختلطوا بالأوروبيين بعد الاستقرار، وتركوا آثارا ثقافية شاهدة في العادات والأدب، منها الحب الظريف (الكورتوازي) الفروسي في الأدب الفرنسي وشعر التروبادور.

جديدة ومغامرة شرعية. عاش الزوجان أنطوان وماري بوعيشو مع بناتها وأولادها في منطقة المتيجة حيث استقرت معهما عائلات فرنسية أخرى في قرى استعمارية حافظت على الخصوصية الثقافية الأوروبية، مزارعون قاطنون في سهول بوفاريك وسيدي موسى ومفتاح. وفي كتابه السابق الذكر "غريب بالنسبة لإخواني"، يستعرض بأسلوب آخر تاريخ تلك العائلات المنتمية إلى المستوطنين الصغار الذين سكنوا المتيجة منذ 1850، ويستعيد ذكرياته معهم إبان الجزائر المستعمرة. تحمل ماري لقباً هو اسم لنجم ألدابرام، وأصل التسمية عربية يعني نجمة "الدبران" التابع للثريا، وهو أحد الكواكب في السلسلة النجمية، وهي البطة ذات اسم نجمي تلالاً بريقه في فضاء جغرافي جزائري. بوعيشو وألدابرام كلاهما اسم يحمل رموزاً عربية، ويحيل إلى الفتح العربي/البربري لجنوب فرنسا، وهما يعودان بعد قرون مضت إلى أرضهما وجذورهما بهوية مخالفة وثقافة متعالية، مثلما عاد إليها من جنوب فرنسا كذلك البطل كسار البربري مستوطناً مستتباً في رواية روبير راندو.

يرصد الكاتب جوانب من حياة المستوطنين الذين لفظتهم فرنسا فجاءوا للاستقرار في السهول، أو جنود الحملة كرمتهم السلطة مثل عائلة بوعيشو، وتمت علاقات مصاهرة وصدقة بين العائلات الفرنسية. تعلم أنطوان وعائلته العربية، مع احتفاظهم بالفرنسية، ليخاطبوا بها مستخدميهم من الأهالي. استقبلت عائلة بوعيشو ببوفاريك الجنرال دوروي، القائد الذي كان يخدمه أنطوان خلال معركة اسطى والي، وكان لهذه الزيارة بعداً اجتماعياً، تطورت من خلالها الأحداث، وعرفت اضطرابات في المشاعر والأواصر بين العائلات. مارغريت ابنة أنطوان بوعيشو الكبرى تزوجت مساعد الجنرال دوروي هكتور غريبس، وابنته ماري تزوجت جان بيير من عائلة باريس من بلدة فرانش-كونتي، التي ينحدر منها جول روا.

يصف مدن الجزائر التي شهدت في هذه المرحلة تحولات جذرية ارتبطت بوجود المستوطنين وتوزعهم في الساحل والسهل. تطورات اقتصادية واضحة في مجال البناء على الطريقة الأوروبية

والصناعة الحديثة، وتغيرات اجتماعية أفضت إلى تهميش السكان الأصليين عربا وبربرا، وعزلهم في مناطق معينة لمنع الاختلاط بهم، عدا في حال استخدامهم عبدا لتكريس نسق التفوق العرقي للمستوطن الذي ترعاه الأهداف الاستعمارية. كان «لدى الضباط مفهوم عن البلاد والعرب مختلف عن المستوطنين. ففي نهاية المطاف الضباط مؤقتون وهم الدائمون. يؤكد بعض الجنرالات، على أمل تحقيق الاندماج بين الأعراق، وجوب التعامل مع العرب على قدم المساواة، بينما معظم المستوطنين لا يفكرون سوى في طردهم إلى مناطق مغلقة أو السيطرة على أراضيهم»¹، ولا يأتي الحديث عنهم إلا بصيغة جمع الغائبين "هم"، حين يقال "هم"، معناه العرب، وكل من لم يكن عربيا يضطرون عندئذ إلى ذكر اسم المستوطن لرفع اللبس.

في السياق التاريخي للأحداث سرد توضيحي لفشل المقاومات الشعبية ضد الاحتلال وتداعياتها المشؤومة على الجزائريين. من هزيمة الأمير عبد القادر وبومعزة ومحرقه المغارات وخضوع القبائل في 1857، إلى زيارة إمبراطور العرب والفرنسيين نابليون الثالث الجزائر في 1860 و1865 لكسب ود العرب ودعوته إلى اعتبارهم مواطنين فرنسيين. ومقولة "العرب إخواننا" التي أثارت استهزاء المستوطنين وغيظهم، لم تحمل شيئا يؤمل في مصلحة الأهالي عدا الوعود التي تبخرت بمجرد سقوط عرشه. ترتب عنها استكانة طويلة للأهالي، تظاهرات في شدة المعاناة والبؤس اللذين حطما أعصابهم بسبب الحملات المستمرة لحرق القرى والإبادة الجماعية، وفرض الضرائب الثقيلة، والإعدامات العلنية والسرية، واغتصاب النساء. وتعنت الجنرالات وكل التجاوزات التي كان الجيش الاستعماري يقوم بها يوميا لتأديب المقاومين والمتمردين ومن تعاطف معهم على قوانينها المتعارضة مع ثقافة السكان ودينهم وحقوقهم. عسكريون تخرجوا من مدرسة سان أرنو الاستبدادية، وتعلموا كل أشكال العنف الوحشي، «كانوا يحطمون المنازل

¹ Jules Roy, Les chevaux du soleil II, Une femme au nom d'étoile, Editions Bernard Grasset, Paris VI, 1968. p.180.

ويطعنون الرجال بالسيوف، ويقطعون النخيل، ويغتصبون النساء. أوقفوهن مع أطفالهن، ووزعوا عليهن علب البسكويت، وكانوا يقودونهن للشرب في النهر صباحًا ومساءً، مثل المشية»¹.

ولعل أهم ما تصدت له الرواية في وصف هذه المرحلة الزمنية على الصعيد العسكري والسياسي انشغال الجنرالات والضباط بالإجرام والإثراء، وتنافس النخب العسكرية والسياسية على المراكز والرتب والصفقات التجارية، وتذبذب العلاقات بينهم، وخاصة المواجهات العنيفة مع الأهالي المنتفضين في كل أنحاء المستعمرة. وفي هذه الأثناء بين عامي 1866 و1868 عانى السكان شتى الكوارث، تناولتها أعمدة الجرائد وتقارير الشرطة، مست بصفة خاصة الفقراء والمعدمين من الأهالي حتى أكلوا الحشيش والجيف. زحف الجراد نتجت عنه أمراض وأوبئة كالطاعون والكوليرا والملاريا والتيفوئيد وحمى المستنقعات، ومجاعات أهلكت منهم عددا كبيرا جراء سوء إدارة الأزمة من قبل السلطة الاستعمارية والاستهانة بمصير الناس. ولكن يبدو أن ظهور الجراد كان لأمرين متباينين حسب السارد، أرسله الله للعرب ليأكلوه لأن دمه حلال في دينهم، وإلى المستوطنين ليأكل ما لديهم عقابا على سطوهم على حق الغير. «ففي المزرعة، انتشر الجراد حتى على الأسرة. كان يتسلل من تحت الباب، أو يهوي عند فتحه، يتسلق الستائر، ويقتمح الخزائن، ويتكوم في الزوايا[...] وهناك آلاف أخرى كانت تتسلق الجذوع، وتخرّب الفروع، وتتهجم على كريات الثمار الخضر. ملايين وملايين أخرى كانت تواصل القفز بين الجبال وتتدفق من الصحراء»²، وما خلفه الجراد التهمته الحرائق وأفسدته الفيضانات وأصابه الجفاف، ومنهم من سحقتة الحرب مع بروسيا.

يصور الجزء الثالث "كرز إشرّدين، أو إشرّيطن" 1969 *Les cerises d'Icherridène*، ملحمة أبناء المستوطنين الذين لم يشهدوا وقية الغزو الأولى في 1830، ولكنهم واصلوا نشر رسالة الدم والذعر بدل السلام التي ورثوها عن أسلافهم العسكريين في أرجاء الجزائر خلال

Jules Roy, *Les chevaux du soleil II, Une femme au nom d'étoile*, p.234.

Les chevaux du soleil II, Une femme au nom d'étoile, *ibid.* p.373.

-1

-2

حملاتهم التوسعية وممارساتهم القمعية ضد الأهالي في منطقة القبائل الذين أبدوا صمودا كبيرا في وجه الغزاة الفرنسيين. كرز إشریظن، الأحمر الداكن واللامع، الذي يرمز إلى الدم المسفوك والخراب التام، الفاكهة اللذيذة التي قطفها الجنود الاستعماريون من بساتين القرية القبائلية الراضة للخضوع والاستسلام. قطعت الأشجار المثمرة ثم أحرقت القرية بكاملها وهجر سكانها الذين التقوا حول المقاومة عام 1871. «في إشریظن، هذه المرة، لم يتركوا حجرا على حجر، كي يتذكر الخوميريون. رتابة. بالنسبة للبساتين، فرّق الحطّابة بصدد العمل. بالنسبة للقرية، بدءا بغزو كل ما يصلح، جمع الماعز والحمير التي لم يتمكن السكان من جرها عند فرارهم، وحشد من الغنائم البائسة، ثم تقاسمت فرق أخرى العمل: عروا السقوف من القرميد، وهاجموا هياكل المنازل، كدسوها، وأفرغوا الخوابي والجرار، وحطموا الجدران بالمعاول»¹. غزوة حقيقية تشبه غزوات المغول أدت إلى تحطيم البنية التحتية، قتلوا السكان العزل وأحرقوا كل شيء صالح للعيش، وتركوا القرية مدمرة تحت اللهب، والأرض رمادية لا حياة فيها.

شارك في هذه المجزرة الرهيبة بطل الرواية النقيب هكتور غرييس صهر بوعيشو، المستوطن الذي ولد في الجزائر وعاش في سهل المتيجة. يقود الحملة، بعدما كسب خبرة عسكرية في الحرب ضد الألمان البروسيين، على رأس الكتيبة الثانية من الفرقة الرابعة للزواف من أجل إخماد انتفاضة القبائل الثانية في 1871 التي تزعمها الباش آغا محمد المقراني مع زعيم إخوان الطريقة الرحمانية الشيخ الحداد، بعد مقاومة 1857 بقيادة لالة فاطمة نسومر وبوبغلة المقموعة من قبل الجنرال راندون بعدما انتصرت عليه لالة فاطمة في معركة تاشكيرت 1854. بعد الفراغ من تدمير إشریظن وما جاورها من قرى القبائل العليا، جهزوا غزوة أخرى استهدفت قلعة آث عباس (بني عباس) وقراها في إغيل علي بالقبائل السفلى، كانت القلعة حصنا للمقراني ومقل المقاومة والتعبئة ضد الاستعمار قادها أيضا المتحمس للحرب هكتور غرييس، وهناك شعر كأنه بين ذويه، وربما، كان له أسلاف وراء البحر المتوسط، لذلك رفض تدمير القلعة وقتل نساء

¹ Jules Roy, Les chevaux du soleil III, Les cerises d'Icherridène, Editions Bernard Grasset, Paris VI, 1969. p.59.

عائلة المقراني. بالموازاة مع هذه الانتفاضة الشعبية المشتعلة في القبائل كانت حرب الفرنسيين ضد مملكة بروسيا التي استولت على باريس قد بلغت ذروتها عام 1871، وعلى إثرها انفتحت فرنسا على النظام الجمهوري، واستغل كريميو هذه الأحداث لمنح الجنسية الفرنسية لليهود الجزائريين دون المسلمين.

فضاء الصراع المسلح بين المحتلين والمكافحين احتضنت أحداثه قرى "إشريطن" بناحية الأربعاء نايت إيراشن التي كانت تسمى فور ناسيونال أو برج نابليون¹* وعين الحمام، ويتسع الفضاء المكاني ليشمل القرى المحاذية لمسرح الحرب الطاحنة، حيث ذكرت أسماء لقرى آيت منقلات، وآيت يني، وآيت وسيف، وأقمون إيزم، وأخرى قد تعرضت للقصف العسكري الكلي أو الجزئي والإبادة، وشرد العنف الاستعماري أبناءها الذين قتلوا أو هجروها وتفرقوا شذرا مذرا في قرى بعيدة، أو نفتهم السلطة الاستعمارية إلى أصقاع أخرى في جزر كايان وكاليدونيا الجديدة عقابا لهم.

تهيمن في المعجم السردي منذ الصفحات الأولى تيمة العنف الذي يجسد حالة الاضطراب الغالبة على الأهالي، والحرب العارمة المفروضة صيف 1871 على سكان قرية إشريطن الذين رفضوا الاستسلام للفرنسيين: الزناد، البندقية، الخندق، القتال...، وتصور مشاهد البطش بسكان القبائل على خاصرة جبال جرجرة: «عاد الرصاص، وبدأت قذائف المدفعية تنهمر على حدود القرية، دون أن تصيب هدفا، لأن القبائل لم يفروا، كانوا جميعا ممددين هناك، مقلوبين في خنادقهم، وقد تهشمت الرؤوس، أو نائمين على الصخور، تغطيهم الدماء»². قاوم رجال القبائل الحملة الاستعمارية رغم شراستها، واستماتوا في الدفاع عن أرضهم ثلاثة أشهر حتى فني منهم بشر كثير وغلب هنالك الثوار. ومن أجل تفكيك عرى الأهالي القبائل والعرب، وتحت شعار

¹* أقيم برج الإمبراطور نابليون على أنقاض قرية إشريطن، حيث دمرها الاستعمار الفرنسي في حملة قادها الجنرال راندون في 24 جويلية 1857.

² Jules Roy, Les chevaux du soleil III, Les cerises d'Icherridène, ibid. p.23.

فرق تسد استعان الجيش الفرنسي في حملتهم على القبائل بكتيبة الخيالة من العرب بقيادة النقيب قُصيري لقتال إخوانهم القبائل، انتقاما على الخيانة التي أباها بعض الزواوة أو فرق الزواف المرتزقة خلال الغزو الفرنسي على مدينة الجزائر.

وفي سياق وصف شخوص الرواية ذكر جول روا شخصيات تاريخية مرموقة من الأطراف المتصارعة، ثقيلة الوزن في تلك الفترة الاستعمارية. أبرز ملامح جسدية ونفسية ميزت الجنرالات الفرنسيين الذين يحصلون على الترقيات الرفيعة والأوسمة الفخرية نظير جرائمهم الفظيعة، فكانوا يتنافسون عندئذ على من يكون "قاتل القبائل" الأشرس والأقسى، سان أرنو ورائدون وماكماهون ولوبيف وبورباكي وحتى صغار الجنود من الشخصيات المتخيلة. كشف تعارض المواقف عند الأهالي البرجوازيين وكبار القادة المسلمين من الاستعمار ومن انتفاضة القبائل، تحالف النبلاء والإخوان للجهاد، حارب الشيخ المقراني مع أخيه بومزراق والشيخ الحداد وأبناؤه. إعلان الباش آغا مصطفى الولاء، وخيانة القصيري الضابط العربي، المنحدر من تلمسان والمتحالفة عائلته مع فرنسا، ونقيب كتيبة القناصة في جيش إفريقيا الذي يريد أن يصفى حسابيه مع أعدائه القبائل ويفرغ حقه فيهم، فقتل خمسين عنصرا من الثوار.

كان المتمردون من القبائل يسمون الخومير، لأن معظمهم يشبه الألمان في بياض بشرتهم وعيونهم الفاتحة، كان أولئك الجنود الفدائيون (إمبلن) صغارا قليلي الخبرة الحربية رغم صفات الشجاعة والاستماتة الكبيرة في الذود عن الحمى فيلقون حتفهم على الفور. ثيابهم بسيطة وأسلحتهم تقليدية، يلبسون القندورة والنعال وقبعات من القش، ويستعملون بنادق ذات أنابيب رخوة وبنادق فليسة، وسكاكين وأبواق محشوة بالبارود وكرات الرصاص ولا يملكون المدافع، يواجهون بها ترسانة الفرنسيين القوية وكثرة عددهم وبأسهم الشديد.

ولكَم كان النقيب غريبس إنسانيا أحيانا مع الأهالي المضطهدين، خاصة مع نساء إشردين المتعرضات للإهانة من قبل الجنود العابثين، ونساء المقراني في قرية آث عباس! يشعر

بالاشمئزاز والنفور من الممارسات البشعة التي كان يقوم بها زملاؤه الضباط كوفان، وديبوي، وكريغر، ومعناه بالألمانية رجل الحرب، من تدمير وتكسير، ونهب وسلب، وحرق وتقتيل دون رحمة. كريغر الذي كان قد شارك في الحملة الأولى ويتذكر كثيرا من الأحداث حول بطش الجيش الفرنسي الاستعماري بالقبائل ويكرر بعض التفاصيل باستمرار، والثانية التي جمعت كل الأعراق الأوروبية للقضاء على العنصر المحلي والاستيلاء على أرضه، وأصبحت الجزائر "برا للأعاجم". إنهم ألمان القبائل، وإنها الحرب وهذه قوانينها الجائرة، يستبيح العسكريون، فعل كل شيء بغضب. ونتيجة طيشه وطمعه في إحراز وسام الصليب كاد ديبوي أن يقتل قائده هكتور، ورفيقه في الحملة، لولا سرعة الانتباه.

وللنساء القبائليات الحرائر حضور إيجابي بحناجرهن العالية في إنكاء نار الحرب ضد الغريب والغازي لبلاد القبائل، «وطن الأمازيغ، وأرض النبلاء والرجال الأحرار»¹. أثنى السارد على بسالتهن ودورهن في تعبئة وتحفيز الرجال بالزغاريد والأغاني البطولية على الاستمرار في المقاومة أو الرضوخ للمنتصر الأجنبي في حال الهزيمة. «هؤلاء الذنابات، مضحيات الموت، برزن لمقاومة كل شيء، وقول لا للجميع، وتفضيل الأفدح، الإبادة، الشر على الإهانة أو على العفو. شراستهن بين القبائل أسطورية. بالنسبة للأجنبي الذي يتقدم وفي يديه سلاح، لم يكن يتنازلن حتى يُسحقن. صراصير، يا لها من سخرية! إنه غناء حقد نساء، وسباب نساء، وجنون نساء الذي يتحول في لحظات الزواج أو التعميد إلى غناء حب، وتبريكات، ومرح نساء»². ولكنهن تعرضن للاعتداء والسبي، فاجأهن جنود الخيالة بالقبض عليهن قبل أن يتمكن من الفرار، فاستقبلتهن فرق الجيش الاستعماري كغنائم حرب. فصلوا بين الفتيات والعجائز وتنافس الضباط للنيل من نساء إشريظن المحتشمات والمحطمت نفسيا، ثم سرحوهن وفررن مفزوعات بعبارات الشتائم التي كنّ يتلفظن بها، يزغردن ويصرخن للتخفيف من ألم الشعور بالخزي والعار.

Les cerises d'Icherridène, op.cit. p.41.

Ibid. p.24.

-1

-2

تتعقد العلاقات بين الأوروبيين والأهالي، ويسيطر على المستوطنين موقف الرهاب من العرب. يكتون لهم كراهية وعداء شديدا بمناسبة ودون مناسبة، ولا يمكنهم تحت هذا الظرف أن ينتقلوا دون بندقية في اليد. يعتبرونهم متوحشين سرت بينهم مقولة مفادها أن: «العربي جرد، لا تفتح له أبدا بابك، ستكون له رجل في قوتك، وعينه على زوجتك»¹. ومن عرق أدنى مستوى منهم، ويخشون على أنفسهم من هجماتهم المفاجئة. ففي سهول البليدة وقرى سيدي موسى والشبلي والأربعاء وبوفاريك، حيث تعيش عائلة البطل هكتور غرييس مع عائلات أخرى من المستوطنين الفرنسيين، لا يدخل العرب منزلهم سوى الخدم محمد وزوجته زهرة، ومفتاح في سيدي موسى عند عائلة باري، ولا يقرب مزرعة بوعيشو بسيدي عياد في بوفاريك إلا العمال المساعدون الذين يحتشدون في أكواخ المشتة قرب المستنقعات المهلكة، بل ويحتفظ المستوطنون بعلاقات صداقة ومودة مع العرب الذين يخدمونهم بإخلاص وتقان، ويشعرونهم بالامتنان كونهم اختيروا لخدمة الفرنسي.

تطرق إلى خصوصيات المجتمع القبائلي وتميزه الثقافي عن العرب، ويتمثل هذا التميز في اللغة الأمازيغية(القبائلية)، واستعمال كلمات أمازيغية: ثيزلائين، وثيخفسين، أو عربية تنطق بالطريقة الأمازيغية: ثيعصابين وإخلالان، وهي تدل على تطور صناعة الحلي في هذه المنطقة، إضافة إلى صناعة النسيج المشهورة في كل البلاد. وتمسك السكان بالدين الإسلامي ظاهر في الطريقة الرحمانية المنتشرة هناك، وانقسام العائلات في القبائل إلى إخوان مثل الشيخ الحداد وأبنائه، والنبلاء ويتزعمهم الشيخ المقراني وإخوته، والناس البسطاء الذين تجسدوا في المتمردين وعائلاتهم. ورغم هذه الخصوصية الثقافية إلا أن القبائل والعرب تجندوا ليحاربوا عدوا واحدا ومشتركا هو، بلا شك، الاستعمار الفرنسي.

Les cerises d'Icherridène, op.cit. p.196.

1-

في هذا الجزء الرابع "سيد المتيجة" 1970 Le maître de la Mitidja، الذي يفصله عن الجزء السابق ربع قرن يعني أنه جيل كامل. يأخذ جول روا القارئ إلى الجزائر المستعمرة في مطلع القرن العشرين 1901، فترة نهاية الحملات التوسعية في الداخل وما حملته من أحداث، والتحديات السياسة الكبرى التي هددت كيان الاستعمار كاندلاع انتفاضة أهالي قرية مارغريت¹* التي بثت الرعب في المستوطنين، وتفجير قضية معاداة السامية ومشاعر كراهية اليهود وملاحقتهم وعزف نشيد معاد لهم كشفت عن همجية المستوطنين، ونفوذ اللوبي اليهودي في فرنسا، واستقرار اليهود بالبلدية، والخلافات الحادة التي دبت بين الطوائف الثلاث في المجتمع الاستعماري، الأوروبيون واليهود والمسلمون في ظل الحكم الجمهوري وحقوق الإنسان ومبادئ العلمانية.

يصف سهول المتيجة الخصبة التي استأثر بها صغار المستوطنين، ويتناول تطورات العلاقات الاجتماعية التي حصلت بين المستوطنين من الجيل الجديد، وما جرى لعائلة باريس مع مجيء الوافد الجديد المعلم دوماتون إلى البلدية ليستقر في روفيغو (بوقرة حاليا) ويعلم أبناءها في مدرسة القرية. ترك دوماتون مسقط رأسه أوب بفرنسا بعد فشله اجتماعيا في زيجتين اثنتين، ونزل رفقة ابنه روبير بالجزائر ليعيش فيها كغيره من المستوطنين الذين خدعتهم الدعاية، الباحثين عن مغامرة أو ثروة. إنه فهم أن الجزائر هي فرنسا، ومع كونه مؤمنا بمبادئ الجمهورية تعاطف مع الأهالي وحاول التأقلم معهم.

متلازمة النزعة الفوقية عند المستوطنين تكمن في احتقار الأهالي رغم أن الأرض أرضهم والثروة ثروتهم. وحده المعلم هنري دوماتون، سيد المتيجة العلماني ذو الميول الاشتراكية، الذي اعترف بأنهم أصحاب حق سلبه الفرنسيون منهم ذات غزوة مشؤومة، وشرح لتلاميذه ملبساتها، ومعنى حقوق الإنسان في الحياة. يعتبرهم بشرا يستحقون الاحترام والتقدير، ويسميهـم "جزائريين"

¹* مارغريت ضابط فرنسي قتل في حرب فرنسا ضد بروسيا في 1870، وأطلق اسمه على قرية استعمارية قرب مليانة.

لأنهم أحق بهذه التسمية من الوافدين بدلا من المصطلحات التحقيرية "أهالي، وسكان أصليين"، ويخاطبهم بصيغة الجمع احتراما لا برفع الكلفة كما يفعل مدير مدرسة سيدي موسى العنصري غوريو الذي يكره الأهالي ولا ينعتهم إلا "بيكو" أو يشبههم بطيور النوء في السذاجة والكسل، ومنهم أيضا من يسميهم "جذوع التين" ليلصق بهم طابع البلادة. نظرتة المتعالية جعلته يرفض تعليق وثيقة الإعلان عن حقوق الإنسان والمواطن¹، الذي أقره مجلس النواب في حكومة جونار، بل اختار أن يعلقه في مكان عال جدا حتى لا يقرؤه. ونص الإعلان على أن البشر يولدون أحرارا، ويعيشون متساوين في الحقوق، والناس لا يتفاوتون إلا بقدر خدمتهم للمجتمع.

يدور الجزء الخامس "الأرواح المحظورة" 1972 *Les âmes interdites*، حول فترة تنامي الأفكار التقدمية عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى الاحتفال بمنوية احتلال الجزائر رفقة الآغاوات والباش آغاوات منهم الباش آغا جلول بلخضر. الشروع بالتعبئة العامة لإعادة فتح مكاتب التجنيد الإجباري لشباب أهليين في 1914 أوت مقابل منحهم بعض الحقوق أو الامتيازات مثل حق التعليم والانتخاب، وجلب رماة سينغاليين لمراقبة الأهالي خوفا من الانتفاضات المطالبة باسترداد ما سلب منهم بالغضب. تبدأ الأحداث في حدود 1910، بعدما أعلن موت الدركي كونينغ قاتل العرب وكاره اليهود، عاش هكتور كونينغ (الذي هو المؤلف نفسه) الملقب زيزي (عزيزي بالعربية) مع والدته ماتيلد باريس حفيدة أنطوان بوعيشو في مزرعة سيدي موسى بالمتيجة، يديرها فكتور باريس شقيق ماتيلد.

أصر المستوطنون على رسم حدود معنوية لعزل الأهالي بعدم الاختلاط بهم كيلا يتدنس عرقهم الغربي، ولذا كانوا، حسب مولود فرعون، غرباء في البلد الذي احتلوه واغتصبوه. تتجنب العائلات مصاهرتهم لدونيتهم، فترفض أن يتزوج الأبناء بنساء أهليات بدعوى تخلفهن، أو تقترن بناتهن برجال أهليين لأنهم مستبدون وشبقيون يحبون التعدد ولا يكتفون بزوجة واحدة، إلا في

¹ صدر أول إعلان غربي عن حقوق الإنسان والمواطن خلال الثورة الفرنسية، وصوت عليه مجلس النواب في 1789.

حالات نادرة جدا. هذه النظرة الاستعلائية غير المبررة حسب المعلم دوماتون عبرت عنها ساردة هذا الجزء الخامس ماري كارنيتو باريس شقيقة ماتيلد التي لم تتقبل زواج أنجيل ابنة شقيقتها الصغرى مع الأهلي بلقاسم: «نعرف العرب جيدا، عليهم أن يبقوا في أكوأخهم مع مَعزهم. ضعيمهم في شقة في مدينة الجزائر سينامون في الأرض على الحصائر، ويربون الدجاج على الشرفات ويسدون المغاسل وينحنون على البلاط وقت الصلاة، ونساؤهن لن يخلعن الحجاب أبدا»¹. وبمثل هذه الأفكار الجاهزة اتسعت الفجوة أكثر بين الطائفتين، واستمر العداء والاعتداء يعكّران نعم السلم والأمن. وإن كان الصراع على الأرض من بين الأسباب الجوهرية لدوام القطيعة، والحد الذي يكنه المستوطنون للعرب، حيث اعتبروا ملكياتهم شرعية منحتها لهم السلطة الاستعمارية الحاكمة للبلاد وليس الحكومة العربية التي لم تكن آنذاك موجودة. تتذكر المستوطنة ماري كارنيتو ما قالته لها والدتها عن شرعية الأرض التي يملكونها في المتيجة، استقروا فيها عندما كانت خالية من السكان منذ بداية مشروع الاستيطان: «كان على العرب أن يشعروا بالامتنان نحونا، هم الذين يستمتعون بالازدهار العام[...] ماذا كانت المتيجة قبل مجيء الفرنسيين؟ مستنقعات، وأدغال، ومملكة لبنات آوى، وإمبراطورية للملاريا، استصلحناها، وغرسنا الأشجار والكروم، وطهرناها. هم بخير، في السابق كانوا يموتون كالذباب. ها هي ذي نتيجة كرمنا»². يرفض فرنسيو الجزائر المتشددون المساواة لأنهم اقترفوا ذنب الاستيطان حسب تحليل دوماتون.

من جهة أخرى استفاد أبناء البيكو المندمجون من بعض الحقوق المدنية كالتعليم والوظيفة والجنسية مقابل التضحيات الكبيرة والمعارك الشرسة خارج الحدود من أجل صون شرف فرنسا ضد أعدائها. يتجلى أيضا نمو الوعي الوطني لدى الشباب الجزائري أطلق عليهم الشباب الأتراك، نشطون متمردون يحاربون الوجود الفرنسي. أصبح بعضهم يجادل المستوطنين حول

¹ Jules Roy, Les chevaux du soleil X, Les âmes interdites, Editions Bernard Grasset, Paris, 1972. Pp.175,176.

² Les chevaux du soleil X, Les âmes interdites, ibid. p.103.

مسألة احتلال الأرض مثل حسن وابن بلعباس القبائلي البقال في قرية الأربعاء، بلقاسم خريج مدرسة المعلمين ببوزريعة الذي أصبح مدرسا في فور دولو (برج الكيفان)، ومثقا ينشر مقالات في جريدة الأخبار ويؤلف. بلقاسم نموذج للاندماج الثقافي يتحدث بطلاقة باللغة الفرنسية، ويتكلم عن السياسة الأوروبية والأدب، ويقرأ كتباً عن الكاتدرائيات، وكأن له استعدادا نفسيا ليتتصّر (مُتَوَرَّنِي) باعتباره قبائليا، ولم لا؟ فقد انتشرت الكنائس والكاتدرائيات في المدن والقرى وتقلصت المساجد خاصة في القبائل منذ هزيمة المقراني، أو مثل الرقيب في مكتب السرية بوعلام الذي انخرط في جيش إفريقيا. وهذا يعني أن الأهالي يتمتعون بقدرات هائلة إذا ما سنحت لهم الفرص وتوفرت الإمكانيات المناسبة.

أما معاناة ماسحي الأحذية، الذين تغص بهم الشوارع والخدم، فهي أحد تجليات العنصرية والإقصاء، ويمثلون الطبقة الفقيرة التي حافظت على كرامتها ورفضت أطروحة الاندماج. كذلك تتبدى مع نشر التعليم مظاهر الحداثة في الأزياء، والسينما والأوبرا، والمقاهي والمطاعم، ووسائل النقل في المدن كقاطرات الترامواي والسيارات والقطارات والحافلات.

الجزء السادس والأخير عنوان "الرعد والملائكة"¹ 1975 Le tonnerre et les anges، يرصد الفصل الأخير من فصول المأساة الإنسانية التي صنعها الوجود الفرنسي في الجزائر من 1958 إلى 1962 لتصير أرض السراب للمستوطنين، مما دفع زعيمهم الجنرال رؤول سالان إلى أن يتحول إلى إرهابي يقود منظمة الجيش السريّ OAS، وتصدى روبيير مارتل للدفاع عن الجزائر الفرنسية تحت شعار "الثورة المضادة في الجزائر". يسلط هذا الجزء الضوء على وقائع سنين الجمر وهمجية الجيش الفرنسي الذي قام بتعزيز صفوفه بالمظليين في 1958 من أجل قمع الشعب وإخماد الثورة الكبرى التي اندلعت في أنحاء البلاد من أجل تحريرها من المحتل الأجنبي الذي تشبث بها أكثر في زمن ازدهار الحياة باكتشاف حقول النفط في صحراء حاسي مسعود.

¹ Jules Roy, Les chevaux du soleil VI, Le tonnerre et les anges, Editions Bernard Grasset, Paris, 1975.

بداية مسرح الأحداث كانت من الأوراس الذي احتضن أولى المعارك المسلحة قبل أربع سنوات خلت في 1954. حوصرت المنطقة في 1958 وقصفت بالقذائف، ونزلت فرقة من المظليين يقودهم العقيد غراس مزودين بمدفيعات رشاشة ترسل مئات الطلقات في دقيقة لقتل المتمردين المختبئين، أصيب جنديان اثنان من كتيبة جيش التحرير الجزائري، ثم طلقات أخرى نثرت أجساد المقاومين. ونظرا لتأزم الوضع تشكلت الحكومة المؤقتة فأجبرت فرنسا على التفاوض للخروج بشرف.

في هذه الحرب طور المجاهدون من جذوع التين أو البيكو المضطهدون ببرانيسهم أسلوب حرب العصابات بإلقاء قنابل في مزارع المستوطنين وإضرام النار في بيوتهم، ووضع المتفجرات في قلب مدينة الجزائر عاصمة المستعمرة. رايسة وجميلة شابتان جزائريتان تطوعتا في صفوف جبهة التحرير الوطني لكسر جيروت الاستعمار بوضعها في الأماكن العامة التي يقصدها الأقدام السود لترويعهم وإذاقتهم هول البأس، وقد حان أوان الانتقام من الأذئاب الخونة (بني وي وي) من الأهالي الذين باعوا ضمائرهم في سوق المصالح الدنيئة.

لقد استعاد جول روا في هذه الملحمة الجزائرية عرض جل الأحداث التي تناولتها الأعمال السردية منذ بداية الغزو العسكري على الجزائر إلى تاريخ انسحاب الفرنسيين من البلاد، وغطى كل المراحل التاريخية ومختلف الفضاءات السياسية والاجتماعية، وكل التيمات الواردة في تلك النصوص بدءا من أدبيات الرحلة إلى القصة القصيرة، ومن القصة إلى الرواية، وقد نهل منها واستل معلومات تاريخية وخيالية انسجمت ببراعة مع السيرة الذاتية للمؤلف، ومن حين إلى آخر كان يبدي آراءه حول شخصيات فكرية وسياسية وأدبية ويستشهد بها. وعلى هذا الأساس يمكن عدّ روايته هذه عملا موجزا لتلك الأعمال السابقة حول الجزائر المستعمرة.

يذكر في خلاصة هذا الفصل الأول أن الأعمال الروائية التي نشرها الكتاب المستوطنون الاستعماريون، والمصوّرة لطبيعة الجزائر ووضع الجزائريين خلال عهد الاستعمار في الثلاثين

الأولين من القرن العشرين حتى الاستقلال، كانت في مجملها ذات خلفية دعائية وسياسية، تختفي وراء تيارات وتنظيمات شتى، أدبية وجمالية وفكرية واجتماعية وثقافية، برزت لخدمة الإيديولوجيا الاستعمارية ونافحت من أجل استمرارية مشروع الجزائر المستعمرة، مثل حركة التجزؤر، ومدرسة مدينة الجزائر، والنزعة المتوسطة، والحركة النسوية، والحركة الاشتراكية. لقد أدان الخطاب الروائي لأنصار التيار الاشتراكي، باحتشام أو بجرأة أحيانا، الممارسات اللاإنسانية التي ارتكبتها غلاة الاستعماريين ضد الجزائريين، ولكن دونما المساس بالمصالح العليا لفرنسا الإمبريالية، غير أن الأحرار منهم، وهم قلة قليلة، كانوا قد شجبوا استمرار وجود الاستعمار في الجزائر، ونددوا بالدكتاتوريات والأنظمة المستبدة في روايات واقعية مناهضة لاستعباد الناس وسلب أراضيهم. وعلى هذا الأساس اتسمت الرواية الاستعمارية الاستيطانية بموقفين متباينين معاداة الأهالي (فوبيا الأهالي)، والتسامح معهم والتعاطف مع مؤسساتهم.

الفصل الثاني

الكتابة بلغة الآخر في الرواية الأهلية

نظرة المستعمِر بلغة المستعمِر

بين حلول الاندماج والتشبث بالأصالة

"اللغة الفرنسية هي منفاي". مالك حداد

"مستقبل الأدب الاستعماري بين يدي الأهالي...".

أوجين بوجارنيسكل، "فيلوكسان أو الأدب الاستعماري" 1931، ص 186.

توطئة

خاض الفصل السابق في تقديم وتحليل الأعمال الموسومة بـ"الرواية الاستيطانية" التي نشأت في أدبيات الاستعمار في مطلع القرن العشرين، وكانت موجهة لتبرير سياسة فرنسا الاستعمارية باعتبار كتابها مستوطنين أوروبيين، من فرنسيي الجزائر الذين اتخذوا الجزائر موطنًا بديلاً لهم، فسموا أدبهم جزائرياً وأسسوا جمالية خاصة بهم. وهم بطبيعة الحال أبواق الاستعمار التي تغنت بفضائله الحضارية، ونوهت بمهام الرجل الأبيض ومزاياه الخارقة للعادة، خلا المعتدلين منهم الذين صنعوا الاستثناء. وخاض في محاولة رصد صورة الجزائر في ظل استمرار سياسة العدوان التي انتهجها الاستعمار الفرنسي وفرض حصارٍ لا يطاق على الشعب الجزائري من أجل الإبقاء على الأرض المغصوبة مقاطعة فرنسية. بينت الأعمال التي كتبها المستوطنون الفرنسيون رغبتهم الشديدة، وتجندهم القوي من خلال الرواية لخدمة الإيديولوجيا الاستعمارية بالترويج لأطروحة إدماجية تقضي باستيعاب الجزائر أعراق البحر المتوسط، وتمازج الثقافات الوافدة من ضفافه من أجل تأسيس عرق جزائري جديد متعدد الملامح والأوصاف، وتكوين شعب مختلط يعيش في وطن واحد على غرار الشعوب الهجينة في أستراليا وأمريكا تحت وصاية النظام الاستعماري الفرنسي، مع قصدية إزاحة الأهالي وطمس شخصيتهم، وإقصاء متعمد ومنهجي لوجودهم جسداً وثقافة، كي يذوبوا تدريجياً في جزائر فرنسية إلى الأبد.

استمرت أشكال المعاناة والمضايقات إلى غاية مجيء إصلاحات الليبرالي جونار، وتحت ضغوط الإعلان عن حقوق الإنسان في العالم في أعقاب الحرب العالمية الأولى، تنفس الأهالي إذ ألغى قانون الأهالي التعسفي، وابتداءً من 1914 سمح لأبناء الموالين المقربين، ولفئة محدودة من الشعب بالتعلم في المدارس الفرنسية، وبفتح مدارس قرآنية بشرط التبعية المطلقة، وإثبات الولاء للسلطة الاستعمارية أو التخلي عن الثقافة الأصلية، فبدأت الأزمة السياسية بين المحتلين والأهالي تتفجر قليلاً، وتمكن الجزائريون، تدريجياً، من الانفتاح على عالم الفكر والأدب عشية الاحتفال بمئوية الحملة العسكرية واستعراض نتائج رسالتها "الحضارية" في الجزائر.

وموازاة مع الخطاب الاستعماري الذي ملأ صفحات روايات المستوطنين (فرنسيي الجزائر) بين الحربين، وهم أعلام الأدب الاستيطاني المبشرون بالعرق الجزائري الجديد أمثال ميزان وبرتران ورائدو ولوكوك، الذين كانوا يروجون للثقافة الغربية ذات النظام الرأسمالي دفاعا عن مصالحهم الخاصة، وخدمة إيديولوجيا الوطن الأم فرنسا وتبرير مشروعها الاستيطاني في الجزائر، والذي كان يستمد نظرياته من فكرة إحياء وتمجيد الثقافة الرومانية واللاتينية، واستتساخ تجربتها الاستعمارية في شمال إفريقيا، ظهر في هذه الأثناء أدب محتشم أنتجه أدباء ينتمون إلى الدرجة الثانية في هرم تراتبية المجتمع الاستعماري تجلت في أعمال الأهالي المستعمرين، أو ما يسمى أدب "البيكو"، على نسق الأدب الاستيطاني، يحاكي ويرد على هجمات كتاب الاستعمار، ويحمل أشجان الأهالي وأنين المستضعفين. ويمكن القول بأن حمدان خوجة كان أول من كتب من الأهالي نصا بلغة المستعمر وجهه إلى الرأي العام الفرنسي، مستخدما تقنية الرد بالكتابة¹ في كتاب لخص فيه مأساة الجزائر في بداية عهد الغزاة الفرنسيين غداة الاحتلال. كان إذ ذاك كتاب «المرأة»، صورة قدمها حمدان خوجة للآخر. نظرة تحاكي نظرة الآخر، تسبقها وتحاول تشكيل الصورة المراد رؤيتها»².

الأدباء الأهالي هم فئة الأنتليجنسيا المحلية المفرنسة التي صنعتها فرنسا الاستعمارية على شاكلة القديس أوغسطين وأبوليوس اللذين صنعتهما الإمبراطورية الرومانية لاستدراج البربر قديما إلى تقبل سياسة الاندماج. بتعبير آخر هم كتاب النخبة الجزائرية المثقفة ثقافة غربية، الذين ظهروا على الساحة الأدبية في حدود 1900، تخرجوا من المدارس الاستعمارية الفرنسية المصدر الوحيد الناقل للمعرفة، وصانع للهوية الملتبسة وقتذاك. تعلموا اللغة الفرنسية واكتسبوا حفا من العلم والمعرفة الغربيين، انعكست على رؤاهم وانتماءاتهم الفكرية فتورطوا بصفتهم رعايا موالين ومثقفين تابعين، مع العلم أنه حتى زملاؤهم الذين كتبوا باللغة العربية مثل رضا

¹* عنوان كتابه "المرأة" نشره في باريس عام 1832.

² - Zineb Ali-Benali, Le premier texte algérien en langue française: Texte fantôme d'un texte absent, (Université Paris 8). p.127. pdf

ححو لم يبرزوا إلا في هذه الفترة للأسباب نفسها. كان أولئك يمثلون طائفة السكان الأصليين الذين استغلوا الخيال الروائي باعتباره جنسا أدبيا غربيا. إلى جانب اللغة، أداة للرد على طروحات الآخر بالتعبير الإيحائية، واختاروا السرد المضاد قناة للتواصل مع الآخر للتعبير عن تموقعهم داخل المجتمع الاستعماري، وشرح مواقفهم إزاء التطورات السياسية التي عرفتها البلاد في القرن العشرين.

كان ينبغي على الجزائريين المتعلمين ممن كانوا يستطيعون التعبير بلغة المستعمر أن ينسجوا على منوال تلك الروايات السائدة في بيئتهم على سبيل المحاكاة والتقليد، وتمير رسائل معينة صريحة ومشفرة إلى القارئ الفرنسي. فريق حاول إظهار براعته في الكتابة بلغة الآخر المستعمر ولاءً وإرضاءً لأصحاب الحضارة الغربية، وهم نخبة متعلمة تحت الخدمة، وآخرون اتخذوها سلاحا لفرض وجودهم، وأداة إصلاحية للدفاع عن ثقافتهم وحفظ حقوقهم. عرف الأدب الأهلي باللغة الفرنسية مرحلتين متباينين. أولا، ظهرت فئة من كتاب "الولاء"، تفاعلوا بسلاسة وخضوع مع أطروحة الإدماج باعتبارهم رعايا الاستعمار. ثانيا، حرص كتاب "رواية الأطروحة" على تصوير مأساة الشعب الجزائري، والتنديد بسياسة الاستيطان في إطار فكر إصلاحي وثوري. «فالمثقف الجزائري الذي تحرر في زمن الاستعمار، بعد أن طور خطابه ومطالبه من خلال الصحافة والمقالة السياسية، يقوم بإظهار حديثه من خلال الخيال الأدبي»¹، واتخاذ السرد الروائي المضاد وسيلة للتعبير عن دواخلهم، والرد على أي خطاب إيديولوجي مستفز، وبذلك أسسوا جمالية أخرى للخطاب الجزائري المكتوب باللسان الفرنسي.

¹ Ferenc Hardi, La naissance d'une littérature: Interférences littéraires dans les premiers romans algériens de langue française, Acta Romanica Szegediensis, Tomus XXIII. p.72.
http://acta.bibl.u-szeged.hu ›romanica_023_071

1- تاريخ البدايات الروائية في ظل التحولات السياسية: 1891-1920

يعود تاريخ المحاولات الروائية الأولى المنسوبة لأدب الأهالي إلى فترة ما قبل مطلع القرن العشرين بعد إصلاحات جول فيري 1881 وقرار إلزامية التعليم، ويمتد إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، وبداية تفتح الوعي الوطني بتأسيس صحف وطنية باللغتين الفرنسية والعربية منذ 1902 مثل "الأخبار" التي ترأسها فكتور بروكان¹*. وتزامن صدور هذه الأعمال في العشرينيات مع ظهور حركة التجزؤر التي أسسها روبير راندو، لتعبر عن انشغالات المستوطنين الجزائريين المنتمين إلى ثقافات أوروبية متعددة. وقد تمحورت المسائل التي طرحتها، آنذاك، روايات الأهالي إجمالاً حول فضائل الاستعمار وتبرير هيمنته المطلقة على الأهالي المتخلفين، والإشادة برسالته الإنسانية في المستعمرة، وشرح محاسن الإدماج بين الطائفتين المتعارضتين، وفوائد تبني المستعمر المثقف ثقافة أوروبية كعلامة تمدن وتطور، للظهور بمظهر المتحضر كي يرقى ولو نسبياً إلى مستوى سيده، وهذه هي حالة الذهان psychotique التي وصفها فرانتز فانون. و«على الصعيد الجمالي، استمدت هذه الأعمال نموذجها من الأدب الاستعماري المسمى "المتجزؤر"»².

كانت الإرهاصات الأولى مع أسماء مغمورة وأعمال نادرة الذكر في الأدب الجزائري المكتوب بلغة المستعمر نتيجة عدم إيلاء الاهتمام بما ينتجه الأهالي، ولصعوبة نشر الأعمال المعارضة للسياسة المهيمنة، إذ إن الجرائد ودور النشر كانت تحت الرقابة الصارمة للإدارة الاستعمارية. فأقدم عمل روائي رأى النور هي باكورة محمد بن رحال³*، الذي كان من أعيان ندرومة

¹* تأسست "الأخبار" غداة الاحتلال الفرنسي، وكانت لسان حال العسكريين الفرنسيين الغزاة، وفي مطلع القرن العشرين ترأسها فكتور بروكان Barrucand المتعاطف مع الأهالي، ومن الصحائف التي ظهرت بعد ذلك الهلال والرشيدي والحق.

² Mohammed Ben Chérif, Ahmed Ben Mostapha, goumier, op.cit. p.6.

³* محمد بن حمزة بن رحال 1858-1928، ولد لأسرة من النبلاء، تعلم العلوم التقليدية ودرس بالمدرسة الفرنسية، وأتقن اللغتين العربية والفرنسية، وكانت له ثقافة واسعة. التحق بالثانوية بمدينة الجزائر وحصل على البكالوريا في 1875. عين خليفة الأغا

بتلمسان، وكان مدافعا عن حقوق الأهالي. دشن عمله تحت عنوان "انتقام الشيخ" 1891، واستلهمه من واقع الأهالي المتذبذب مع قضية الإدماج وفق الطرح الاستعماري. وهي «قصة مستقاة من التقاليد الاجتماعية الجزائرية، كتبها محمد بن رحال، ونشرتها» المجلة الجزائرية التونسية، الأدبية والفنية»¹، ويمكن اعتبار هذه القصة القصيرة إحدى ثمار إصلاحات جول فيري في مجال التعليم الموجه في إطار الإدماج والذي اعتمده كطريقة من طرق تحقيق تبعية الأهالي المطلقة للمستعمر².*

بعد ذلك نشرت لعمر سمار (المدعو زيد بن دياب)، أول صحفي أهلي ومناضل اشتراكي بعنابة رواية مسلسلة "علي، يا أخي!" "Ali, ô mon frère !" في 1893، و"هذيان النفوس، رواية الأخلاق الغرائبية والمتحضرة" 1895 Divagations d'âmes, roman de mœurs exotiques et mondaines, موضوع الروايتين «يتعلق باللقاء بين الرجل الأهلي والفتاة الفرنسية، اللقاء الذي لا يصل إلى غايته وينتهي دائما بخيبة أمل. فمن وراء استحالة الزيجة الجزائرية الفرنسية تكمن صعوبة إقامة تقاربات سياسية بين الطائفتين الأهلية والأوروبية في الجزائر المستعمرة. في نهاية القرن التاسع عشر، فكانت بحق رسالة تحذير»³ ونصح للطائفتين معا، تشير إلى مغبة الإدماج وعواقبه.

بعد عقد من الزمن، تقريبا في 1902 ظهرت رواية "ابن البيت العظيم" Fils de grande tente للصديق بن الوطا⁴، تتناول حياة الرخاء التي كانت تعيشها طبقة الأهالي الإقطاعيين

في 1876. دافع عن حقوق الأهالي في التعليم وعارض التجنيد الإجباري لأبنائهم في 1912. استقال من الوظائف الإدارية ليهتم بشؤونه الخاصة.

¹ -نقلا عن: أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، م س، ص 73.

² *برز كتاب أهليون من أنصار دعوة الاندماج، حيث قدم لويس خوجة نفسه في 1891 كأهلي فرنسي في مقال عنوانه "قضية الأهالي بعين فرنسي بالتبني". وفي 1914 كتب محمد الشريف بن حبيلس مقاله "الجزائر الفرنسية بعين أهلي".

³ - Abdellali Merdaci, Premier journaliste et romancier algérien de langue française, Autour de Omar Samar, Publié dans La Nouvelle République le 27 - 10 - 2008. Consulté le : 31.05.2021-14 :45.

⁴ *ذكر شارل تيار في كتابه "الجزائر في الأدب الفرنسي" أنه اسم مستعار لكاتبة مستوطنة تدعى الأنسة باربرو Mlle Barbroux.

الموالين للاستعمار، وقد نالت الرواية جائزة الأكاديمية الفرنسية. بعدها بعقد آخر في 1912 نشر أحمد بوري الذي كان معلماً للأهالي، ويتقن اللغتين العربية والفرنسية رواية سلسلة غير مكتملة في جريدة "الحق" الصادرة بوهران عنوانها "مسلمون ومسيحيات"، تناولت، كذلك، تيمة العلاقات الاجتماعية المهزوزة بين الطائفتين من خلال الحب الفاشل بين جزائري مسلم وابنة مستوطن مارسيل المسيحي. أكدت مسألة استحالة الزواج المختلط بين الأهالي والمستوطنين، ومن ثمة استحالة الاتحاد بين الجزائر وفرنسا¹، وعدم التوافق بين الثقافتين المختلفتين الشرقية والغربية. وهي حسب عزّاب الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية الناقد جان ديغو متناقضة مع الواقع الاستعماري حين «صور فيها العلاقة بين الفرنسيين والجزائريين (الأهالي) في غاية الانسجام والوئام»²، وهذا أمر طبيعي في حالة ابن رحال الذي وظفته الإدارة الاستعمارية خليفة وقايد قبيلته ليراعي مصالحها.

ويرجع أحمد منور سبب غياب إنتاج الأهالي التام قبل 1920 كما حدده جان ديغو إلى عاملين هما: «الأول سياسة العدوان التي انتهجها الاستعمار طوال احتلاله للجزائر، وحره الاستئصالية ضد الأمة الجزائرية ومقوماتها الأساسية، الشيء الذي جعل العلاقة بين المحتلين وأهل البلد الشرعيين علاقة حرب ومناجزة وتوتر دائم، منعت أي احتكاك إيجابي بين الطرفين، ووقفت حائلاً دون تعاون مثمر سواء على الصعيد السياسي أو الفكري أو الحضاري، وذلك لانعدام الثقة بينهما [...] والعامل الثاني يتمثل في سياسة التعليم التي طبقتها المحتلون في الميدان، أو على الأصح سياسة التجهيل التي طبقوها [...] بحيث قضاوا على البنية التقليدية للمنظومة التعليمية التي كانت قائمة قبل الاحتلال»³، وكان لابد في هذه الحال من انتظار مرور قرن على الرسالة الحضارية في الجزائر لتمثيل الأهالي في المجال الثقافي.

¹ Sonia Branca-Rosoff, L'Institution des langues: Renée Balibar, Les Editions de la MSH, 2001. p.137.

² أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، م س، ص74.

³ أحمد منور، الأدب الجزائري... م ن، ص75.

ظهر الإنتاج الموسوم بطابع الولاء في السياق السوسيو ثقافي العام المرتبط بقيم الليبرالية الأوروبية والعلمانية والفضوية، ونسق المثاقفة بين المستعمر والمستعمّر الذي تراءى مع تأسيس حركة الشباب الجزائري في 1908، ونسج علاقات التعايش في المجتمع الاستعماري الجديد الذي كان يبحث له الاستعمار عن الشرعية عن طريق سياسة الإدماج مع وقف التنفيذ، والذي بدأت مؤشرات مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وقف أدباء الولاء بين هؤلاء وأولئك، و«يستعيد أدب الولاء هذا تقريبًا جميع السمات المستخدمة في الخطاب الاستعماري الواسف للبربري: طاغية، متعطش للدماء، عنيف، إلخ»¹، ويضطلع المثقف الأهلّي في هذه الفترة الانتقالية بصفته نتاج المدرسة الاستعمارية، وموظفًا في إدارتها، وتابعا لإرادتها بمهمة تربية تقوم على جبهتين متعارضتين، مدح الرسالة الحضارية الآتية من الغرب، وإنكار الأنا، وجليد الذات، وتجاهل موروثها الثقافي. و«على غرار الروايات الاستعمارية، بدت الروايات الجزائرية الأولى تعليمية والخيال يوضح الأطروحة»².

أما الانطلاقة الحقيقية لأدب الولاء، المكتوب على عجل عشية الذكرى المئوية³، فقد بدأت الكتابة الروائية تبرز حينئذ مع الجيل الأول من الكتاب المنحدرين من العائلات الأهلية الارستقراطية والمالية للاستعمار. جيل الذين علقوا النياشين والأوسمة وفازوا بالحظوة، وأيدوا فكرة التعايش الأخويّ مع الآخر (المستعمر)، ورحّبوا بالإدماج كمخرج مناسب لأزمة الهوية والانتماء المطروحة في المجتمع، وحلّ للعديد من المشاكل العويصة التي تبلورت في سياق الاستعمار. «فمن هؤلاء الكتاب، تتوقع القوة الاستعمارية اعترافًا بشرعيتها وإقرارًا لإيديولوجيتها

¹ Fatima Zohra Lalaoui-Chiali, «Stéréotypes, écrits coloniaux et postcoloniaux: le cas de l'Algérie», op.cit. p.163.

² Aicha Kassoul, L'Algérie en français dans le texte, Essai d'histoire littéraire algérienne 1830-1990, Editions ANEP, 2002. p.69.

³ *للتذكير، أسس الجزائريون عشية الذكرى المئوية للاحتلال في 1926 "جمعية نجم شمال إفريقيا" في باريس ونادي الترقّي بمدينة الجزائر، وتكللت الجهود بإنشاء جمعية العلماء المسلمين في 1931.

مقابل الاعتراف لهم بمكانة ثقافية وفي حدود اللغة الفرنسية الكاملة»¹. فكان الأمر بينهما أشبه بمقايضة، بل بصفقة تجارية تضمن الربح للطرفين على حساب الطبقة المسحوقة.

أوضح عبد القادر جغلول في معرض تحليل الروايات الأولى، التي كتبها الأهالي بين الحربين لبيان موقفهم من سياسة الإدماج، أنها لم تقدم شيئاً ذا قيمة للأهلي، ولم تتعرض لتصوير معاناته الطويلة مع الاستعمار. ووجد أنها تخدم إيديولوجيا الاستعمار أكثر مما تستبشع وضعية الأهالي وتقف إلى جانب مشاكلهم، إذ يقول: «التحدث عن الذات في جماعة الآخر بينما يقال خلسة شيء غير هذا الأخير. هو التعرف على قيم الآخر للحث على الاعتراف المتبادل دون تحديد الشروط بوضوح. إيقاع الكتابة التي تتحدث عن النسيان والاعتراف وفقدان الذات والاندماج في الآخر والاستقلالية غير القابلة للاختزال. التحدث عن الذات من خلال التحدث إلى الآخرين أثناء التحدث عن الذات. روايات غامضة يوضحها فقط مقدمة كاتب فرنسي. الوضوح الكاذب لشبكة القراءة التي ترى فقط ما هو مرئي للعين الاندماجية والتي تكشف بالتالي عن الإسهام الضعيف لهذه الروايات الأولى، والتي لا يمكن اختزال أيّ منها إلى "دفاع وتوضيح" لـ "الإدماج"»².

ركزت هذه الروايات الإثنوغرافية الذاتية، المكتوبة بأقلام الأهالي على السياقين الثقافي والاجتماعي دون الخوض صراحة في القضايا السياسية التي تهاجم قضية الاستعمار وعجرفته، باعتبار الوجود الفرنسي كان مسألة مقضية وأمر محسوماً ومحتوماً بعدما تم لفرنسا السيطرة على البلاد كلها من الساحل إلى الصحراء، وإعلانها بصفة رسمية ونهائية مقاطعة فرنسية بعد أن كانت مستعمرة، وإن كان الحديث عن السياسة ورد خطاباً مضمراً، يستشف عبر نقد الوضع الاجتماعي، وسياقه كما في وصف تفاصيل تردي أحوال الأهالي ورفضهم أن يندمجوا في

¹ Abdelkader Djeghloul, Un romancier de l'identité perturbée et de l'assimilation impossible: Chukri Khodja, In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°37, 1984. p. 82.

https://www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1984_num_37_1_2022

² Abdelkader Djeghloul, Un romancier de l'identité perturbée et de l'assimilation impossible: Chukri Khodja, ibid. p.85.

الأوروبي. فقد رسمت الحياة الرتيبة للسكان الأصليين الخاضعين لسلطة المحتل الغاصب للأرض، أناس لا حيلة لهم سوى الخضوع لقوانين ثقافة أخرى غير ثقافتهم، والانتساب إلى هوية بديلة غير هويتهم الأصلية، في وقت كانت مسaire الوضع المفروض لإعادة بناء هوية جديدة لا بد منها.

صدرت رواية "أحمد بن مصطفى، قومي" Ahmed ben Mustapha, goumier في 1920، ثم تأتي "زهرة، زوجة عامل منجم" في 1925 لعبد القادر حاج حمو، وفي 1928 "مأمون مشروع مثل أعلى" Mamoun, ou l'ébauche d'un idéal وفي 1929 "العلاج أسير البرابرة" El Myriem Euldj, captif des Barbaresques لشكري خوجة، بعدها نشرت "مريم بين النخيل" Myriem dans les palmes لمحمد ولد الشيخ في 1936 وهو ابن آغا من الأعيان. أما الأعمال الثنائية التي اشترك فيها الكتاب الأهليون مع المستوطنين فقد ظهرت رواية "خضرة فتاة من أولاد نايل" "1910" مع سليمان بن براهيم ونصر الدين ديني، والثانية عبارة عن قصص قصيرة منها "شقيق الطاوس" ضمن مجموعة "قارتنا إفريقيا" Notre Afrique في 1925 مع روبير راندو وعبد القادر حاج حمو، والثالثة في 1933 "الخيمة السوداء" La Tente noire, roman saharien لسعد بن علي وريني بوتيه¹.*

لقد «شكلت هذه النصوص فيما بينها المتن الجزائري الأول، الذي تميز على المستوى الجمالي بطغيان سلطة «الديالكتيك»، حيث إن الخيال الروائي والنسيج النصي، كانا يتأسسان على قاعدة «المقايسة» لنص كولونيالي، له تصورات عن الإنسان الجزائري، تلك التصورات

¹ * بالإضافة إلى عنوانين آخرين لهما "عيشوش الجلاية، أميرة صحراوية" Aïchouch la Djellabya, princesse saharienne من بني جلاب، و"البخنق المطرز".

التي تنتجها الإيديولوجيا الكولونيالية، والتي ترى الإنسان العربي والإفريقي بعين «أكزوتيكية» إغرابية، تحقيرية ومتوجسة¹ من همجيته التي نسجتها العقلية الاستشراقية.

إن هذا الإنتاج الروائي الضئيل، إذا ما قورن بطول فترة الاحتلال، والذي كان وليد لحظة مضطربة بين الحضارتين المتصارعتين العربية والغربية، مع أفول الأولى وصعود الثانية، وبين السعي إلى التقليد والإدماج، والحرص على التشبث بالأصالة، فقد تميز بالارتباك الثقافي المتراوح بين طرحين مهمّين، الاضطرار إلى قبول الاندماج والتعايش مع الآخر المختلف ثقافياً، والبحث عن المشترك الإنساني من جهة، ومن جهة أخرى تأمين المحافظة على الأصالة وفق الشريعة الإسلامية، لذلك كان الخطاب فيه بمثابة رد فعل أقل حدة من أعمال المستوطنين الاستتصاليين الذين مارسوا الإقصاء في دعوتهم إلى تكوين عرق جزائري جديد من دون السكان الأصليين. إذ في «كل هذه الروايات الغرائبية والأخلاقية. يصف الكُتّاب الحياة اليومية، ويلجؤون غالباً إلى الفولكلور، ويخاطبون دائماً القارئ الفرنسي. يمس نقدهم المتحفظ فقط جوانب معينة من الأخلاق»². ومع هذا التحفظ والتوجس الملاحظين عليها، تتطوي هذه النصوص على قدر بسيط من الخطاب السياسي المنتقد للإيديولوجيا الاستعمارية المؤسسة على التفوق الغربي، والاختلاف الثقافي الذي يرفض الآخر، وهو المدار الذي ارتكزت عليه، وعلى هذا الأساس تنتمي إلى "رواية الأطروحة".

تعرضت هذه الأعمال الروائية فيما بعد، رغم فضل السبق إلى الظهور، إلى كثير من الإجحاف، والإقصاء، والتهميش، والتقزيم، وعدم العناية بدراستها ونقدها، وإبراز القيمة الجمالية والأدبية التي تكتسبها بحجة أنها تنتمي إيديولوجياً إلى أدب المهيمَن عليه (المستعمر)، والذي يجسد ثقافة المستعمر الفرنسي المهيمنة، ومن ثمة طُرحت إشكالية تحديد انتماء هذا الأدب

¹ -محمد إبراهيم، الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية، الحوار المتمدن، العدد 5370. تصفح في 10.06.2021 -11:15

<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=541146>

² -Premier Romancier de l'Algérie et du Nord Afrique Mohamed ben si Ahmed BENCHERIF, op.cit.

المكتوب باللغة الفرنسية. هل هو أدب فرنسي خالص بالنظر إلى لغته كوسيلة للتعبير، أم أدب جزائري محض باعتبار أصول مؤلفيه، أم أدب فرانكوفوني هجين وليد الثقافة والمماثلة والاندماج؟ لماذا لم يول المتجزئون¹* العناية بهذه الأعمال التي تمجد رسالة الحضارة الغربية وفضل مدنية الاستعمار، ولم يهتموا بنشرها أو الترويج لكتّابها، عدا أسماء قليلة جدا منهم عبد القادر حاج حمو وجميلة دبش؟

والجواب، إن أدب المتجزئين أدب استيطاني في المقام الأول يخدم الإيديولوجيا الاستعمارية، وإن هذه الروايات، في حقيقتها تبحث عن القبول الاجتماعي والرضا، إذ «أجمعت على رفض سياسة الإدماج وإعلان رغبتها في الحفاظ على الهوية الجزائرية. ومع ذلك، فإن الإيديولوجيا الاندماجية كانت بالنسبة للغازي الذريعة الشرعية الوحيدة للحفاظ على النظام الاستعماري وضمان ديمومته. وبالتالي، فإن رفض هذه السياسة كان بمثابة الطعن في الإطار الذي فرضها، أي الإطار الاستعماري»². فالتمتعن في هذه النصوص يجدها تطرح قضية الإدماج طرعا معتدلا، يتناسب مع ثقافة الأهالي وشخصيتهم، فلا يصل الأمر إلى المعتقدات العميقة فينكر وجودها أو يدعو إلى الانسلاخ التام. «إن كتّاب الجزائر باللغة الفرنسية، رغم اتفاق اللغة مع الآخر فإنهم لم يستطيعوا أن يتجردوا من تقاليدهم ومعتقداتهم التي ربما يثرون عليها ولكنهم لا يستطيعون التخلص منها، ولذلك كانوا في حالة توتر دائم»³، وتذبذب بين إرضاء الحاكم والتشبث بالأصالة.

¹*انضم بعض الأهالي الجزائريين إلى حركة المتجزئين في 1920 وهم: عبد القادر حاج حمو (نائب رئيس مجلة الحركة)، وجميلة دبش، ومحمد زروقي، والبودالي سفير.

²-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، المكتبة الشاملة الحديثة، ص136.

<https://al-maktaba.org/book/33512/4667>

Ahmed Lanasri, La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres, Consulté le :30.04.2021 à16:15.

<https://www.limag.com/Textes/Iti10/Ahmed/20LANASRI.htm>

³

وفي سياق إشكالية تحديد الانتماء يرى أحمد لعناصرى في تقديمه لرواية مريم بين النخيل أن بعض النقاد الدارسين للأدب المكتوب باللغة الفرنسية مثل شارل روبير أجيرون، وفرانتر فانون ممن تناولوا روايات الجيل الأول قد اعتبروا كتّابها جيل اندماج، وأطلقوا عليهم آراء مسبقة¹، وأحكاما جزافية قاسية تقلل من شأن مساهماتهم باعتباره جيلا مواليا ومتفاعلا مع إيديولوجيا الاستعمار، وتعتمد توريثه في الاندماجية دون الأخذ بعين الاعتبار السياق التاريخي والسياسي الذي أوجده، وانعكاساته على الواقع الاجتماعي والجانب النفسي. وآخرون تجاهلوا تماما مثل عبد الكبير الخطيبي²، بينما أشار شارل بون إلى أن "«الأدب الجزائري باللغة الفرنسية ولد حوالي عام 1920، وأكد وجوده في عام 1945»³، وجان ديغو⁴، الذي حدد فترة التعبير عن الاندماج تتراوح بين الحربين، «فمن عام 1920 إلى عام 1949، كانت فترة التقليد [...] استوعب الكاتب الصورة التي يتوقعها منه الآخر. يؤيد معظم هؤلاء الكتاب، في الجزائر على الأقل، الاندماج في فرنسا ويحاولون التماهي مع "النموذج"⁵. أما ألبير ممي فقد حكم على أدب الأهالي المكتوب قبل الاستقلال كله بالظرفية والوقتية، وتوقع له الزوال لأنه مرتبط بالاستعمار والإمبريالية الغربية.

إشكالية تحديد الانتماء تعني أن «روايات فترة ما بين الحربين العالميتين، تقريبا، هي جميع الأعمال التي لم تكتسب ما يسمى بـ "كرامتها" إلا بعد مرور أكثر من سبعين عاما على نشرها لأول مرة، مع الأخذ في الاعتبار الأعمال المنشورة فقط. كانت هي نفسها غير قابلة للتعقب،

¹ Voir: Mohammed Ould Cheikh, Myriem dans les palmes, Introduction par Ahmed Lanasri, Office des publications universitaires, Alger, 1985. p.2.

² Charles Bonn, La Littérature algérienne de langue française et ses lectures Ottawa: Eds Naaman, 1974.

³ Charles Bonn, Le roman algérien de langue française, Paris, L'Harmattan, 1985, p.10, cité par: Nacer Khelouz, Le roman algérien de l'entre-deux-guerres en lisant Robert Randau et Abdelkader Hadj Hamou, op.cit. p.6

⁴ Ahmed Lanasri, La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres, op.cit. p.129.

⁵ Ahmed Lanasri, La critique algérienne de l'entre-deux guerres: Le poids de l'idéologie. In: Horizons Maghrébins - Le droit à la mémoire, N°17, 1991. La perception critique du texte maghrébin de langue française. pp. 66-71.

ولا يمكن الوصول إليها حتى التسعينيات»¹، وهكذا بقي هذا الأدب في حالة التباس هوياتي. إنه بالنسبة لبعضهم «لعبة مرايا غريبة. أن تكون الذات نفسها هي الآخر»². يقول ديجو عن الارتباك الذي حصل لدى النقاد حول تسمية الأدب الأهلي المكتوب باللغة الفرنسية: «كيف نسمي هذا الأدب؟ تحدث جان سيناك في الجزائر عن "الكتابة الفرنسية"، ثم عن "الرسم الفرنسي"، ولكن "بالتعبير الجزائري". المغربي، ك. باصفاو، يتحدث عن الأدب "باللغة الفرنسية الناقلة"؛ الجزائري لعنصري عن "الأدب الجزائري ذي التعبير العربي ولكن باللغة الفرنسية»³. ويعود هذا الارتباك إلى الأحكام الأولى التي سبق إلى بثها النقاد الفرنسيون، قصد الاستهانة بفضائلها في مسار يقظة الشعب الجزائري وظهور الوعي الوطني.

1-مرحلة الخطاب المزدوج: التملل بين المداهنة والمهادنة من 1920 - 1940

اهتم الرعيل الأول من الكتاب الأهالي في هذه الفترة المفصلية التي شهدت سيطرة النظام الاستعماري الكامل على الجزائر مع عتبة الانفتاح والوعي والإصلاح، بطرح فكرة الإدماج من منظورين إسلامي وحدائي، وصور ما خلفته من الناحية النفسية من انعكاسات معقدة مثل الشعور بالقلق والتذبذب والتمزق والضياع. لقد عالجا القضايا الاجتماعية، وعرضوا صور المآسي في حياة الأهالي المسلمين التي ارتبطت بوجود الاستعمار وسياسته الاستيطانية، حيث نشر ثقافته الغربية التي تسمح بفتح الحانات والملاهي والمواخير، وما يصاحبها من شرب الخمر وتعاطي المخدرات والإسراف في اللهو والقمار والانغماس في الدعارة وجرائم الشرف والانحراف السلوكي، وتبيين عواقب هذه الآفات المدمرة على الشخص "المندمج"، الذي يستحيل أن يكون مواطنا فرنسيا، فلن يتقبله المستعمر مهما تقرب من الأوروبي وانسلخ من جلده، يُنعت

¹ Katalin Hajos, Variations de l'interface littéraire dans les littératures maghrébines d'expression française, Thèse Sous la direction de Charles Bonn, Université Lyon Lumière II (France) Université Catholique Pázmány Péter de Piliscsaba (Hongrie), Année universitaire 2013-2014. p.18.

² Abdelkader Djeghloul, Un romancier de l'identité perturbée et de l'assimilation impossible: Chukri Khodja, op.cit. p.82.

³ Jean Déjeux, La Littérature maghrébine d'expression française, Que Sais-Je? Presses universitaires de France, 1 édition, Paris,1992. p.5.

دائماً بنعوت الخيانة والغدر (زنتار أو متورني). «فإذا كان المواطن الأصلي متعلماً ومتطوراً، فهو، في نظر الأوروبيين، مجرد متحلق، ومتفاخر، وطموح "يفرك أكتاف الحضارة"، ومنافس خطير، وبالتالي، مناهض للفرنسيين»¹.

وفي المقام الثاني تأتي مشاكل الفقر والتمايز الطبقي والبطالة والجهل وإبراز آثارها السلبية. وكذا مسائل الأسرة وطقوس العبور كالحب والزواج والطلاق، والتعليم التقليدي أو العصري والانفتاح على الثقافة الأوروبية. «فالبطل يترفع عن واقع المجتمع ويشعر بالغربة والوحدة ويعزل نفسه عن هذا المجتمع»².

وجدير بالتنويه أن تجريب الأهالي الكتابة الروائية، والسير على منوال روايات الكتاب المستوطنين في اعتماد التصوير الإثنوغرافي للمجتمع والإشارة إلى التنوع الإثني والجغرافي كان الغرض الأساس منه مخاطبة القارئ الفرنسي الذي يجهل المجتمع الجزائري، «ولكنهم بمواقفهم التوفيقية كانوا أقرب إلى أولئك الفرنسيين الذين تعرضوا لقضايا جزائرية. فقد عكست مؤلفاتهم نفس تلك الميول التي لا تخدم إلا السلطات الحاكمة، أي الاحتقار لواقعهم والإعجاب بالحضارة والثقافة الأوروبية»³. وربما كان الهدف من الإسراف في هذا التصوير أحياناً وحجب النقد الصريح للسياسة الاستعمارية هو صرف نظر سلطة الرقابة على هذه الأعمال، وتجنب مصادرتها والمواجهة مع الحكومة ومعاناة التحقيق والتضييق.

¹ Saïd Faci, L'Algérie sous l'égide de la France contre la féodalité algérienne, cité par: Peter Dunwoodie, La rhétorique du refus dans le roman colonial algérien de l'entre-deux-guerres, January 2012. p.3. <https://www.researchgate.net/publication/334591508>

² - سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، منشورات الكتب العصرية، صيدا - بيروت، 1967، ص 111.

³ - سعاد محمد خضر، م ن، ص 91.

1.1- تحليل روايات المرحلة الأولى في سياق الولاء

2.1.1- "أحمد بن مصطفى، قومي" لمحمد بن شريف: البحث عن المماثلة مع المستعمر

كان القايد محمد بن شريف¹ متعلما وضابطا متطوعا، سعى، كما حاول أن يروج، إلى تبیین أهمية «انتشار التعليم الفرنسي ليس من أجل الإدماج ولكن لتجديد المجتمع الجزائري»²، وإخراجه من دائرة التخلف والتخلص من المظاهر السلبية التي عفا عنها الزمن كالتشبث بخزعبلات الماضي المتعلقة بالأضرحة وعبادة الأسلاف، إلى الانفتاح على العالم المتطور والثقافة الغربية، والتفكير في المستقبل الزاهر للجزائر في ظل الحكم الفرنسي. مثل أدب الأهالي العسكريين بكتابة رواية سير ذاتية "أحمد بن مصطفى، قومي" في 1920، كتبها تخليدا للرفاق الذين سقطوا في حرب ألمانيا، وأهداها إلى الجنرال شارل جوناو الذي قام بالإصلاحات في 1919 لتحسين ظروف الأهالي الاجتماعية، وإلغاء بعض بنود قانون الأندجينا. وربما «اختار النقيب بن شريف الرواية لخوض معركة متساوية مع المتجزئين. بعد أن تعرض السكان الأصليون للهجوم من خلال هذا النوع الأدبي، يختار بن شريف وسيلة التعبير نفسها من أجل إن لم يكن للهجوم المضاد، على الأقل للدفاع عن قضية مواطنيه الاندماجية ومحاولة إقناعهم بأن تقانيهم لفرنسا هو "فوق الشك" وأن الإسلام ليس عقبة أمام تحرر السكان الأصليين»³، ومن ثمة محاولة تهدئة الخطاب المتطرف الذي كان ينشره غلاة المستعمرين ضد الإسلام

¹ هو محمد بن سي أحمد بن الشريف قائد قبيلة أولاد سي محمد الموالية للاستعمار الفرنسي، ولد في 16 فيفري 1879، بإحدى قبائل منطقة الجلفة التابعة لعرش أولاد نايل. درس بالثانوية في الجزائر، ثم التحق بمدرسة سان سير العسكرية مع الأمير خالد عام 1899. تخرج برتبة ملازم ثان وعين ضابطاً منظماً في عهد الحاكم العام شارل جوناو، حصل على الجنسية الفرنسية وشارك في الحروب مع الجيش الاستعماري الفرنسي في الجزائر (قمع الأوراس)، وفي عملية ضم المغرب الأقصى، وفي فرنسا (الحرب العالمية الأولى)، وترقى إلى رتبة نقيب في 1918. توفي عام 1921 بمرض التيفوس الذي انتشر بالصحراء.

² Voir: Ahmed Khireddine, Premier Romancier de l'Algérie et du Nord Afrique Mohamed ben si Ahmed BENCHERIF, consulté le :29.04.2021-9 :10. <http://www.djelfa.org/romancier.htm>

³ V: Ahmed Khireddine, Premier Romancier de l'Algérie et du Nord Afrique Mohamed ben si Ahmed BENCHERIF, ibid.

وأتباعه، وتمير الخطاب المزدوج الذي يتخبط بين الرغبة في نصره قضايا مواطنيه في مواجهة عنف المستعمرين، والتبرير العلني لسياسة الاستعمار في الجزائر.

الثقافة العربية حاضرة في كلام الشخصيات، يعبر أحمد عن اعتزازه بفروسيته وهو ينشد بيت المتنبي: الليل، والليل، والليل، والبيداء تعرفني * * والضيف والقلم والقرطاس، ويستدل ببيت مشهور لامرئ القيس في وصف الفرس ومحاسنه، ومكانته لدى البدوي والفارس الشجاع مثل عنتره. وهذا يدل على تشبته بثقافته العربية ومعرفته الواسعة بها، ورواية الأشعار القديمة¹، والاعتداد بالنفس والفخر بالقوم. كما تتمظهر الثقافة المحلية في إنشاد أبيات غزلية من الشعر الشعبي لقبيلة أولاد نايل، واستعمال عبارات الدارجة: عؤد(حصان)، أغصب (أسرع)، واش كان (ماذا جرى)، يا بن عمي، والتوسل بالأولياء الصالحين (سيدي عبد الرحمن بن خبزة)، وذكر قيمة الزوايا وأثرها في تعليم الناس العربية والدين الإسلامي.

في هذه الرواية السيرية" لأحمد بن مصطفى، القومي² * * " «يرسم الكاتب [المستعمر] العلامة الأولى للعلاقة المرضية بين طرفي الاستعمار. يتيح هذا النص اكتشاف المرحلة الأولى من الانسلاخ على الرغم من الغموض الذي يثيره منتقدوه»³. تتعرض الرواية إلى مسائل تتعلق بحالة التبعية الحضارية التي وقع فيها الأهالي الموالي، وانعكاس الاستلاب، والانصهار في ثقافة الاستعمار الفرنسي، بتبني أطروحاته والتحمس لحروبه ضد أطماع أعداء فرنسا ومستعمراتها، يعترف أحمد لقائده الضابط الفرنسي بالولاء للفرنسيين: «أحب فرنسا من صميم

¹* ورد هذا البيت هكذا ناقصا، و"الضيف" في الشطر الثاني بدل "السيف".

وأصل البيت: الخيل، والليل، والبيداء تعرفني * * والسيف والرمح والقرطاس والقلم.

بيت من معلقة امرئ القيس: مكر، مفر، مقبل، مدبر معا * كجلمود صخر حطه السيل من عل

²* * القومي، ج قومية، مصطلح محلي مأخوذ من كلمة قوم، وهم الجنود الأهالي المتطوعون في الجيش الفرنسي إبان الاحتلال، تطورت دلالاته خلال الثورة الجزائرية إلى لفظ حركي، ويقصد به العميل والخائن.

³ Katalin Hajos, Variations de l'interface littéraire dans les littératures maghrébines d'expression française, op.cit. p.17.

القلب، وعندما ترسل ضباطا يفهموننا ويتحدثون مثلك، أريد أن أقتل نفسي فداء لها»¹. وبلور فكرة الاندماج في وصف وقائع تجنيد ضابط أهلي جزائري في حروب فرنسا، وتصوير آلام المنفى التي عاشها المندمج أسيرا في ألمانيا، والمعاناة غريبا عن أهله، بعيدا عن وطنه.

مسيرة رجل عربي مسلم، يحاول التأقلم مع الإيديولوجيا المهيمنة رغبة وطواعية لإثبات جدارته في خدمة المستعمر مثلما فعل جده وقومه العرب النبلاء في الجنوب الغربي غداة الاحتلال، والتناغم مع الوضع الاستعماري المفروض بشكل أو بآخر. فبعد تخرجه من المدرسة العسكرية بسان سير تجند أحمد بن مصطفى في البداية للمشاركة مع جيش إفريقيا الفرنسي في حرب بالمغرب، وكان على رأس كتيبة "قوم الصحاري" ضمن فرقة قناصة إفريقيا بالجنوب الوهراني، وأقسم على المصحف بأن يكون وفيا لفرنسا، ثم شارك في قمع انتفاضة الشاوية في الأوراس، بعدها قاتل في الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا، وأثناء اجتياح مدينة ليل الفرنسية اعتقل ومكث في سجن ألمانيا وحيدا يعاني قساوة المناخ البارد، رافضا الانسحاق وراء الدعاية الألمانية. أطلق سراحه فتوجه إلى سويسرا وأقام في فندق، وربط علاقة بالمراسلة مع فتاة باريسية أهدها وسام الشجعان الذي ناله نظير تجنده، ثم مرض وتوفي هناك.

ومقابل هذه المشاركات العسكرية والإخلاص للسيد المحتل وخدمة شرف فرنسا كان البطل الأهلي ينال في كل مرة امتيازات اجتماعية ورتبا عسكرية، وفوق ذلك كان يفخر باندماجه في ثقافة الآخر بهذا الخضوع: «إن العلم الذي أخدمه يحميني. إنه يحمل في طياته العدل والتسامح وحقوق الضعفاء مثل رايات أجدادنا. أنا أعتبر أنه تراث تقي أن أوصل مع ضعف إمكاناتي الخاصة فكرهم المجيد»²، وهو يرى أنه يدافع عن وطنه المحتل، ويجاهد من أجله ولو تحت الراية الفرنسية ضد المتربصين به: «خلال ثلاثة قرون، كافحنا من أجل الشرف، من أجل الثأر لموتانا، لنمرح في المرعى أو لإبعاد العدو من الدواوير. اليوم، كل هذا موجز، فكرة فريدة، في

Mohammed Ben Chérif, Ahmed Ben Mostapha, goumier, op.cit. p.55.

Voir: Ahmed Ben Mostapha, goumier. <http://193.194.79.39/course/overviewfiles.Pdf>

-1

-2

كلمة واحدة: "الوطن"... نعم، الوطن! وهذا يعني عبادة الأرض التي يرتاح فيها آباؤنا، حب الذين يساعدوننا على حمايتها ضد الأعداء حيثما أتوا؛ نعم، حب لا حد له لحماية خيراتنا وديننا. لما تراني أفخر، ورأسي مرفوعة بجانب إخواننا من فرنسا، اعلم أنني لا أحارب فحسب بإخلاص، وإنما كذلك من أجل الدفاع عن وطني الذي لا ينفصم عن الآخر، فرنسا، التي زرعت في كل وقت، مثل النجوم في ليل عميق، نور الأفكار السخية، دلائل ومشاعل الإنسانية في السير نحو المثل الأعلى»¹.

تضحيات كثيرة وتنازلات قدمها الأهالي المخدوعون والانتهازيون للمحتلين منذ بداية الغزو حفاظا على مكانتهم الاجتماعية، وإسهام الرجال الذين آمنوا بالرسالة الحضارية الفرنسية من أجل بقاء النظام الاستعماري في الجزائر: «لقد أتى جميع الرجال بفرح، وبحرية، ليقدموا أنفسهم تحت إشراف قيادهم، وينتظروا اللجنة لتختار بين أفضل الفرسان»² لخوض الحرب في المغرب الأقصى. وقد أشاد شارل جونار بهذه الجهود المعتمدة في رسالة يمدح في الكاتب شخصية الجندي المخلص لفرنسا: «هكذا بررتم عزم وقوة تقاليدكم الإسلامية، تقاليد عظيمة ونبيلة، صنعت من أجل أن تربطكم بفرنسا الكريمة والمخلصة! منذ أربع سنوات، في الوثبة التي ستبقى شرفا لهم وشرفا لنا، قادت مواطنكم إلى ساحة الحرب، فحاربوا دون تخاذل وماتوا جنبا إلى جنب مع إخوانهم في السلاح الفرنسي في سبيل الحضارة والحرية»³.

يتألم البطل مصطفى القومي لمقتل جنود الجيش الفرنسي المحاربين معه على يد مقاومين مغربيين (مراكشيين)، ويتحسر على عدم قدرته على الأخذ بثأرهم في الحال:

Mohammed Ben Chérif, Ahmed Ben Mostapha, goumier, op.cit. p.77.

Ibid. p.28.

Voir: Ahmed Khireddine, Premier Romancier de l'Algérie et du Nord Afrique Mohamed ben si Ahmed BENCHERIF, op.cit.

-1

-2

-3

«حزنتُ لرؤية مقتل ضابطين دون أن نثار لهما على الفور. لماذا لا تريدون أن نحارب مثلما كنا نحارب دوما؟ دعونا نفعل كما نرى. أبدا، في هذه الحال، هؤلاء الناس الذين يزحفون لم يجدوا وقتا لوضع بذرة الشر في العشب.

-لا تخشى شيئا يا صديقي المدفع سيثار لنا.

-الأمر ليس كذلك. أريد، مثل عنتر، الثأر الذي تشفي غليله اليد حينما، في العراق، تصطك الأسنان وتطلق صرخات عدوانية»¹.

هذا في سياق تمزيق أواصر الأخوة بين الأهالي المسلمين في شمال إفريقيا، حيث كان الاستعمار الفرنسي يزج بعضهم بعضا في الحروب للاقتتال من أجل مصالحه وتحقيق هدفه في توسيع الإمبراطورية الفرنسية.

3.1.1- "زهرة، زوجة عامل منجم" لحاج حمو: الأهلي وسراب الإدماج ووهم المساواة

بيد أن عبد القادر حاج حمو المعروف أيضا بعبد القادر فكري والموقع أحيانا باسم "العربي"، الذي تحصل على الجنسية الفرنسية وقدم نفسه كمواطن فرنسي، وشغل منصب نائب رئيس جمعية الكتاب المتجزئين 1933، يعد حاج حمو^{2*}، حسب النقاد، رائد الرواية الأهلية باللغة الفرنسية. فهو أول كاتب أهلي ألف رواية متخيلة استمدت أحداثها من الوجه المتغير لمليانة "مدينة المناجم" في عشرينيات عهد الاستعمار الفرنسي، عنوانها "زهرة، زوجة عامل منجم"

¹ Mohammed Ben Chérif, Ahmed Ben Mostapha, goumier, op.cit. p.33.

^{2*} عبد القادر حاج حمو 1891-1953، ولد في مليانة وابن قاضي مليانة سي محمد حاج حمو، قدمت عائلته المنحدرة من البيض، أبا عن جد، خدمات جليلة للمحتل الفرنسي. قائد موال للاستعمار ومندمج، متقف باللغتين العربية والفرنسية وعمل مترجما في القضاء ثم معلما بالمسجد الكبير بمدينة الجزائر. دعا في كتاباته إلى تطبيق أطروحة الإدماج بأهدافها الفرنسية من أجل جزائر مستعمرة، وأشاد بفضائل الاستعمار على البلاد. انخرط في الماسونية وانضم إلى حركة المتجزئين، واشترك مع راندو في تأليف حوار ثنائي في 1934، وخاطب الأهالي باسم هيئة معلمي المساجد في الاحتفال بمئوية الاحتلال 14-1930-07. أول عمل له بعنوان "عودة علي، حكاية عربية".

Zohra, la femme du mineur 1925. عمل روائي «وصف على أنه "تحذير من الانجذاب الفاسد للغرب والابتعاد عن الإسلام، ضامن الأخلاق والهوية"»¹.

بهذا المنظور الاجتماعي الإصلاحى تعرضت الرواية لمسألة تشبث الأهالي بالهوية الإسلامية، وتمثلت مقوماتها في جملة من الأخلاق العالية التي بدت في سلوك الشخصية المحورية. فقد كان ملياني مواظبا على أداء الصلاة قبل الخروج إلى العمل، وحريصا على غض البصر عند رؤية نساء من غير أهله ولو من النافذة، والصياح لإخلاء الطريق عند العبور، هادئا، وشهما، ونزيها، يحترمه الجميع، يلقي السلام عليهم ولا يتكلم إلا بصوت منخفض، لذلك ينادونه سي ملياني، وحبه للجميل والأنيق جعله يتردد إلى دكان نظيف ومرتب لصديقه حاج علي التاجر.

قصة زهرة وزوجها سي ملياني المنحدر من أسرة موريسكية بوجوزية قبل الاحتلال، عامل في منجم بنواحي مليانة المشهورة بمناجم الفحم والحديد. استقطب منجم زگار عمالا كثيرين من مختلف البلاد، أهالي من بلاد القبائل، وعرب السهول والبدو، والموريسكيين مثل عائلة ملياني، ومراكشيين، ومستوطنين أوروبيين، حيث تهاطل الناس لكسب الرزق في هذه المدينة الصغيرة والمتعددة الأعراق والديانات، واجتمعت الثقافات الوافدة من البحر المتوسط من كل صوب. تعايشوا وارتبطوا بصداقات مع الاختلاف الثقافي والحدود الفاصلة، حاول الأهالي الاحتكاك بالأوروبيين لكن لم يستوعب معظم الناس قضية الإدماج بسبب التعصب للقوميات. شهدت المدينة تحولات اقتصادية واجتماعية ملموسة أثرت على راحة السكان الأصلاء الذين تعودوا على الهدوء والسكينة، فأفسدت نمط عيشهم وانقلبت حياتهم بوجود الآلات الصناعية رأسا على عقب، والكل في قرارة نفوسهم يلعنون المكننة الحديثة حين يتناهى إلى أسماعهم ضجيج أصوات صفير السيارات والترمواي الكهربائي والقطار.

¹ Voir: Katalin Hajos, Variations de l'interface littéraire dans les littératures maghrébines d'expression française, -1 op.cit. p.17.

حاول الكاتب تقديم نموذج مثالي للعلاقات الحميمة بين سكان مليانة المختلفين، يستدل بها على نجاح تجربة الإدماج، وتوحيد مختلف التشكيلات العرقية في وطن موحد يلغي كل الحواجز المانعة، يتعاملون كإخوة يجمعهم الحب والاحترام المتبادل: «...كانوا مليونيين، يهوديان، وثلاثة عرب، وفرنسي، أربعة كانوا يلعبون الدومينو، واثنان آخران يتسليان بمشاهدة اللعب، تحصلوا كلهم على نوع من التعليم، لقد كانوا أصدقاء»¹. ومع ذلك، «فإن رحلة ملياني الروائية لا تؤكد هذه النظرة المثالية للمساواة والأخوة بين مختلف الشعوب الحاضرة. لا يقتصر الأمر على استمرار الظلم في وصف العالم الذي يعمل فيه، ولكن هناك أيضًا انخفاض في قيمة مبادئ البطل الذي يحدث عند الاتصال بعالم المحتل والذي يتعارض مع الاندماج باعتباره إجراء مفيداً»²، إذ حملت الرواية في طياتها تناقضات عديدة على مستوى الممارسات السلوكية للشخصيات في علاقتها ب"الأنا والآخر" والتي تجلت مصطبغة بالعنصرية، مثل تفاوت الراتب الشاسع ثلاث مرات بين العمال الأهالي والمستوطنين في المنجم رغم أن الأهالي يقومون بأخطر الأعمال وأتعبها: «نحن، الأوروبيين، نتقاضى أجراً أفضل منكم»³، وتجريحهم وإشعارهم بالدونية: «تظنون أنتم العرب أغبياء»⁴، وحتى على مستوى تقبل الناس إلغاء التمييز بين الأهالي المتخلفين والأوروبيين المتحضرين: «هذا ثمن الحضارة»⁵، قال رئيس العمل الإسباني لملياني، دليلاً على احتقار ثقافتهم.

كان لملياني صديق في العمل الإيطالي غريميشي، وكان هذا الصديق "الرومي" ابن برلماني إيطالي ومناضلاً يسارياً فوضوياً لا يؤمن بالأديان، فر إلى الجزائر بسبب ارتكاب جريمة ثأر لوالده، وكان يتكلم العربية ويعامله معاملة حسنة على خلاف تصرف المستوطنين الأوروبيين الذين كانوا يحتقرونه، ويدافع أيضاً عن الأهالي في المناجم. أعجب بصفاته فأراد أن يعيش

¹ Abdelkader Hadj Hamou, Zohra, Présentation: Hadj Miliani, Editions Dar El Gharb, Oran, 2007. p.88.

² Zohra, la femme du mineur. <http://thèses.univ-lyon2.fr/documents/getpart.php?2003>

³ Abdelkader Hadj Hamou, Zohra, op.cit. p.56.

⁴ Ibid.

⁵ Ibid. p.60.

مثله على الطريقة الأوروبية فانغمس في اللهو ولعب القمار والسهر وشرب الخمر وتعاطي الحشيش. توالى عليه المصائب بسبب انحرافه عن الصواب، إذ اعتلت صحته، وأهمل زوجته المحافظة والمطبعة حزينة تتألم على مصيره، وتتسج ملابس لتاجر مزابي لتعيش ثم تركها للبؤس والجوع وطلقها، فماتت في ريعان الشباب، واتهم زورا بقتل صديقه غريميشي فسجن ومكث مدة، وعند خروجه غادر مليانة وتوجه إلى المغرب الأقصى ليعيش منسيا وغريبا في مدينة وجدة باسم آخر "المنسي".

من سلبيات انخراط الأهالي في النسق الثقافي الأوروبي مخالطة المستوطنين ذوي الميول الليبرالية التي ملأت الساحة السياسية في الجزائر، ومعانقة الفكر الفوضوي الإلحادي الذي تنطوي عليه بعض المذاهب الهدامة وخطورتها على شخصية المسلم. فقد تأثر ملياني بهذه الأفكار عندما ارتبط بصديقه المستوطن الإيطالي، فصار يتهاون في أداء الصلاة ويتكاسل شيئا فشيئا حتى تركها كلية. فوجود الاستعمار الفرنسي من منظور الكاتب قد أثر سلبا على المدينة الهادئة وأهلها البسطاء، ولم تنتج هذه الرسالة الحضارية الغربية إلا وبالا وبلاء على العباد والبلاد، حيث تنامت التفرقة بين طوائف المجتمع الهجين، وطال التغيير حتى أسماء الأماكن التي حملت دلالة مسيحية أو عسكرية استعمارية، مثل تسمية أحد الشوارع سان بول، وحديقة ماجينتا (حديقة مليانة حاليا)، ومرغريت، أورليانفيل، أفروفيل.

لوحظ على الرواية أنها لم تنتج من توظيف الصور النمطية المستعارة من الخطاب الاستعماري الرحلي، كالاختلاف الحضاري وانعكاساته، والتفرقة بين الأهالي وتأجيج الصراع بينهم، وتكرر ذلك في مواضع كثيرة، مع القبائليين مقارنة بالعرب لنزع أسطورة القبائلي أفضل من العربي. مما جعل ملياني، العربي حفيد آغا مليانة، يكن لهم الكراهية والاحتقار ويشبههم بالحيوانات: «قبائلي مسكين وصل لاهثا، يتصبب العرق بقطرات كبيرة، وهو يحمل رزمة ضخمة

على الظهر»¹. «القبائليون، هم كانوا بصفة عامة قذرين، يحرمون أنفسهم كثيرا، شاحبين، هزيلين، [...] بعض القبائليين يتصفون بحرص شديد يصل إلى حد وجودهم ذاته»²، و«القبائليون والمراكشيون قذرون، أبغضهم! ثم إن الأولين مثل... ولكن نعم، مثل الخنازير! [...] إنهم أغبياء [...] إنهم قذرون جدا!»³، و«القبائليون لم يغيروا عاداتهم وظلوا ذوي قذارة منفرة»⁴.

وبناء على هذه الصور الجاهزة تبنى الكاتب خطابا مزدوجا تجاه الاستعمار، من جهة يندد بالآفات الاجتماعية التي افتكت بالمسلمين بسبب الخمر والحشيش، ومن جهة أخرى يمدح سياسة فرنسا وإنجازاتها، مشيرا إلى بناء مدارس للتعليم، وشق الطرقات، وتوفير المواصلات والكهرباء، وفك العزلة على المدينة الصغيرة، وإقامة الحفلات والمهرجانات الدينية والترفيهية والمسرح والمقاهي، وغيرها من معالم الانفتاح الثقافي إبان الاحتلال.

4.1.1- شكري خوجة: تأكيد استحالة الاندماج الثقافي مع الآخر

بلور شكري خوجة⁵ * نظريته الخاصة إلى الاندماج الثقافي والاجتماعي، وأكد استحالة تطبيقه بصيغته الجبرية في عمليين روائيين يتناولان علاقة الذات بالآخر في حدود الاختلاف الثقافي الذي يتوسل به الاستعمار من أجل محو شخصية المستعمر، أو عبر جدلية السيد والعبد، الأول تحت عنوان "مامون، أو مشروع مثل أعلى"، والثاني موسوم ب"العلاج، أسير البرابرة"، وبين انعكاس هذه الإيديولوجيا السياسية على وضعية الطرف المغلوب عليه.

Abdelkader Hadj Hamou, Zohra, op.cit. p.53.

Ibid. p.99.

Ibid. p.159.

Ibid. p.172.

_1

_2

_3

_4

*⁵ حسن خوجة حمدان شكري، ولد في 21 فيفري 1891 بمدينة الجزائر.

1.4.1.1- "مامون، مشروع مثل أعلى" للتمزق والضياع

كتب فيتال ماراي الأمين العام لجمعية كتاب المقاطعة مقدمة "مامون، أو مشروع مثل أعلى" لشكري خوجة، حلل فيها غموض فكرة الإدماج التي جسدتها هذه الرواية، ومدى استجابة الأهالي المتعلمين في المدرسة الفرنسية لخطاب المثاقفة. الرواية عنوانها يحمل اسم بطلها مامون. تدور حول البطل الأهلي المنتور ورحلة البحث عن المثل الأعلى في الحياة عن طريق المثاقفة الفرنسية.

كان القايد بودريالة يأمل أن يصبح ابنه مامون هذا رجلا متعلما ومثقفا، وأراد أن يؤمن له مستقبلا زاهرا مثل أبناء المستوطنين ليكون طبيبا أو محاميا يجني المال الوفير، فأدخله المدرسة الاستعمارية ليدرس ويبلغ المثل الأعلى. هذا المثل الأعلى في نظر القايد هو تبني الحضارة الغربية كنموذج راق للتفوق الصناعي والمدنية. إلا أن الابن خيب آمال والده في تحقيق المثل الأعلى المأمول، كونه عربيا ظل خارج إطار هذه الحضارة التي لا ينتمي إليها أصلا لولا طريق الاحتلال، بل وسمته بـ "آخر"، وجعلته فردا بانسا لا كرامة له، يعيش حالة اضطراب نفسي وتشويش ذهني. لا يدرك ماذا تمثل الجزائر وفرنسا بالنسبة إليه بصفته عربيا كبلدين مختلفين ذوي ثقافتين متميزتين، ولا يكاد يعرف ما الدين، والفرق بين الوطن ومحتل الوطن، وكيف يكون المثل الأعلى: «يستحيل عليّ أن أعطي ثباتا لمثلي الأعلى. إنه مثل أعلى، لدي مثل أعلى، كعربي قح أنا، لدي عقل يسبح فيه مثل أعلى. كم هو رائع! عربي "لديه مثل أعلى"! مدهش! من الطبيعي إرباك قوانين العالم»¹.

تتجلى حالة الارتباك عند البطل في تناقض خطاباته بين الثقافتين العربية والغربية، وتذبذب مواقفه من الإدماج. رفض أن تصنع له شخصية وفق النموذج الغربي الذي يشترطه الاستعمار الفرنسي للوصول إلى مرتبة المثقف، وتبوء المكانة الاجتماعية الراقية، ولكنه «يظهر أكثر

¹ Chukri Khodja, Mamoun ou l'ébauche d'un idéal, Collection Textes Anciens, OPU. p.168.

التصاقًا بقيم التمدن التي تعتبر الثقافة الفرنسية ناقلة لها وتفضي إلى وصف ازدرائي للمجتمع الجزائري»¹، ازدري مامون المدرسة القرآنية وطريقتها البدائية في تحفيظ القرآن، وكره عادات العرب ونمط العيش التقليدي في القرية الفقيرة حيث البؤس يستقر سواده في الأكواخ القذرة، وفي وجوه الأطفال الصغار المتسخة. في هذه المدرسة «ينشد مثل صحبه على ظهر قلب أحاديث النبي دون أن يفهم شيئًا. في ضجيج المدرسة القرآنية، يخطف، مثل الآخرين، في مقتطفات، من معلم بلا طريقة تربوية، كامل الآية التي كتبها بيده عديمة الخبرة، على لوح أبيض. تعذيب الذاكرة، تلك هي الطريقة المتبعة»². ذهب إلى مدينة الجزائر ليتمتع بمظاهر الحضارة الغربية التي غيرت وجه قسمها السفلي: «أعجب بالممرات المتطابقة، ومشاتل الزهور المرسومة، أطياف أنثوية رشيقة يسرن جانبا أمامه، وهذه الرؤية المفعمة بالحسن والسحر دفعته إلى التفكير في قرارة نفسه في جمال العصر، في بهاء الحياة المتمدنة، في فضل فرنسا التي، في أقل من قرن، جعلت من الجزائر جنة عدن حقيقية...»³.

تعلق مامون بهذه الحضارة فأحب أعلام الأدب الفرنسي وأعجب بمشاهيره، وافتخر بكونه أصبح فرنسيا بقلبه، فراح يشيد مبهورا بفرنسا التي حملت إليه هذه المشروع الإنساني بحب وحنان: «فرنسا مثل الحاضنة التي تنشر، بغيره، أجنحتها الدافئة على كل من الكتاكيت والبط، نتاج احتضان تجمعته بمهارة مزارعة بعيد النظر؛ إنها حامية جميع الأطفال الذين أرادت الطبيعة أن تعهدهم إليها بالوصاية. دونها كيف سنكون في هذا البلد وبهذه الأخلاق الفوضوية التي نعتنقها؟»⁴. رغم هذه الرغبة الملحة في الاندماج كان مامون يصطدم بعنصرية المستوطنين وبمشاعر الكراهية التي يحملونها للأهالي مثلما تجلى في تصرفات عشيقته، غير أن بعضهم

¹ Abdelkader Djeghloul, Un romancier de l'identité perturbée et de l'assimilation impossible: Chukri Khodja, op.cit. p.83.

² Chukri Khodja, Mamoun ou l'ébauche d'un idéal, op.cit. p.16.

³ Ahmed Lanasri, La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres, op.cit. p.189.

⁴ Chukri Khodja, Mamoun ou l'ébauche d'un idéal, op.cit. Pp.167,168.

أبدى شيئاً من التسامح والتعایش مثل أستاذة البولوني رودومسكي وصديقه الفرنسي الطالب "ليساك".

لقد تأثر الشباب الجزائري المتعلم في المدرسة الاستعمارية بالحضارة الغربية وبالأفكار الليبرالية الأوروبية أكثر من شباب المدرسة الإسلامية، وتظهر هذه الميول السياسية المتبناة في الحوارات بين مامون وأستاذة رودومسكي في محاولة التوفيق بين الفكر الغربي وتعاليم الإسلام تحت المظلة الفرنسية: «أقول إنه إذا كانت الدعوة المحمدية مفهومة جيداً في مبادئها الأساسية، من قبل الملايين من أتباعها، إذا في نظام الأفكار ذاته، بدلا من التمسك بالتحليل الضيق للمذاهب الصادرة عن النبي، كان علم التفسير قد نشر الأفكار بشكل أكبر بحيث تكون في متناول الناس، ليكون تعليمهم الديني، ويترك لهم مجالاً واسعاً، أما بالنسبة لممارسة العبادة، فمن المؤكد أن الإسلام كان سيسير بالتوازي مع حضارة العصر الحديث»¹.

إن هذا الكلام يؤكد، حسب عبد القادر جغلول، تمسك مامون بالدين الإسلامي، وينفي تبنيه أطروحة الإدماج الكلي في ثقافة الغرب الحديثة التي تحدث عنها فيتال ماراي في مقدمته للرواية، بدليل أن مامون كان على علاقة بالسيدة ليلى أهلية مثله، ولكنها مرتدة (متورنية) من عائلة جزائرية قبائلية اعتنق أسلافها المسيحية على يد الكاردينال لافيغيري² * وتزوجت فرنسا شديدة الغيرة عليها، فكان يعنفها إذ تركته من أجل عربي: «هل تتجاهلين أيتها المرأة الغادرة، أن العرب هم أعداؤنا الذين لا يمكن اختزالهم، لنا نحن المسيحيين [...] وبهذا العرق الذي سولد المتسولين واللصوص [...] ذهبت لتدنسي شرفي [...] هذا عار. لا يفاجئني منك، أنت مرتدة (متورنية)، وستبقين دوماً مرتدة»³. وهذه صورة أخرى لها علاقة بعملية التبشير التي

¹ Mamoun ou l'ébauche d'un idéal, ibid. p.82.

² * استغل الكاردينال لافيغري المسغبة التي أصابت الجزائريين في 1866/1867 فرصة للتبشير بالدين المسيحي وتنصير السكان عن طريق إنشاء مؤسسات الآباء البيض مقابل المساعدات الغذائية والأدوية التي كان يوزعها لكسب عواطفهم وولائهم، وقد ركز على بلاد القبائل لعزلها عن بقية المناطق وتشثيت وحدة الصف.

³ Mamoun ou l'ébauche d'un idéal, ibid. p.69.

مورست على الأهالي خلال الاحتلال ولا يقاس عليها. ويشير بانتحار ليلى المتصّرة إلى فشل مشروع التبشير الفرنسي في الجزائر.

الفضاء العام الذي جرت فيه الرواية هو عشرينيات القرن العشرين، والتنوع المكاني الذي تحرك فيه البطل، وتفاوت هذه الأماكن من حيث التنمية والتخلف بحسب نسبة تواجد المستوطنين، وتنوع الإثنيات من مسلمين، ويهود، وأوروبيين من كل الأجناس: إيطاليين ومالطيين وفرنسيون وإسبانيين، وكل الشرائح الاجتماعية من أغنياء وفقراء، فلاحين، ومثقفين، ولبيراليين وبطالين. عاش في إحدى قرى أورليانفيل (الشلف) الفلاحية المتخلفة، يعمل الفلاحون الفقراء تحت أوامر الوالد بودريالة الإقطاعي الذي يفرض الغرامات وينهب الفقراء لأن الحكومة لا تدفع للقياد مرتبات. انتقل مامون إلى مدينة الجزائر حيث الانفتاح على المدنية الحديثة وانعكاساتها على شخصيته، وجريه وراء المغريات المادية التي انغمس فيها، فالتعليم المزدوج كان سببا في سوء التفاهم بينه وبين أبيه، وتمرده على السلطة المتعالية.

أهمل دراسته من أجل الملذات بارتياح الأماكن المشبوهة ومخالطة المستوطنين الذين شجعوه على أن يسلك طريق المنحرفين، ومعاشرة بعض الأهالي الأشرار مثل بوسبسي الذي ذاق معه الكيف والحشيش والأفيون في بيت الراقصة حورية والمدمنة على المخدرات، ثم يصل به الأمر إلى درجة الانحراف الخلقي ودخول السجن بتهمة قتل عشيقته الفرنسية ليلى، يعود مامون إلى أهله منهكا ومعتلا ليموت بينهم مسلما، وبالتالي تنتهي تجربة الاندماج مع الآخر بالفشل الذريع، وتتبخر معها أحلام المساواة في الحقوق وتطبيق العدالة الاجتماعية.

2.4.1.1- "العج، أسير البرابرة"¹: اندماج ثقافي مستحيل وانفصام في الشخصية

استلهم شكري خوجة تيمة هذه الرواية التاريخية من عصر بروز القرصنة والقراصنة، والصراع البحري اللذين ميزا سواحل البحر المتوسط بين المسلمين والأوروبيين، واستعاد من

¹ * نالت هذه الرواية جائزة شركة الكتاب الأفارقة الأدبية.

ورائها جانبا من تاريخ إيالة الجزائر في العهد العثماني لما كانت القوة في يد الأتراك الجزائريين يصطادون البحارة الأوروبيين ويغنمون كي يعيشوا على النهب والإتاوات. وقد عكس الكاتب الزمن بهدف نقد الأطروحة الاندماجية التي يتلاعب بها الاستعمار الفرنسي نقدا صريحا دون مخاتلة، فالأتراك كانوا مستبدين زرعوا الرعب على ضفاف المتوسط، يختطفون الرعايا الأوروبيين، ويخبرونهم بين الإدماج في المجتمع المسلم أو الأسر المؤبد والأشغال الشاقة. وهذا بالضبط ما كان يحدث أثناء الاستعمار الفرنسي في الجزائر وقيامه بالممارسات غير الإنسانية نفسها تجاه الأهالي.

استهلت الرواية بوصف الحياة العامة في مدينة الجزائر في العهد العثماني ورسم ملامح الشخصيات التركية الحاكمة للبلاد، إذ ظهر خير الدين بربروس سفاحا تبدو عليه علامات الاستبداد من القسوة والجفاء والبطش. تنطبق هذه الفظاعات الموصوفة على الحكام الاستعماريين أثناء الوجود الفرنسي بالجزائر، فيندد شكري خوجة على لسان بطله عمر بما سماه المظالم الإنسانية والخروقات التي يرتكبها الحكام ضد المستضعفين: «لا أستطيع أن أفهم أن إنسانا يكون سيد جماعة كبيرة ويروضها حسب أذواقه، لا أستطيع أن أتقبل أن أي حاكم لديه القدرة على حكم العالم تحت إلهام أهوائه التعسفي»¹. من ناحية أخرى انتقد قضية المغالاة في الإيمان بالقضاء والقدر التي أدت بالمجتمع المسلم إلى السقوط في متهاتات الخذلان والاستسلام للغازي، وأوقعته في أحابيل سياسة المستبدين والمستعمرين الذين درسوا شخصية المسلم الانهزامية: «أنت تعلم جيدا أننا قديرون، وبالتالي، فإننا نقبل النظام الذي لدينا بإخلاص. إن القرآن، وهو شريعتنا الروحية والتنظيمية، يعلمنا طاعة صاحب السلطة»².

تدور الأحداث في دار السلطان في القرن السادس عشر، عهد جزائر العزة والقوة، وتروي قصة الفرنسي برنار لوديو المسيحي الذي وقع أسيرا في يد الأتراك البرابرة الأفظاظ، فاضطر

Chukri Khodja, El-Euldj, captif des Barbaresques, Editions ANEP,2005. p.133.

El-Euldj, captif des Barbaresques, ibid.

-1

-2

مُكرهًا إلى اعتناق الإسلام ظاهريًا فقط، ليعتق ويتخلص من وضعية الأسر القاسية والأشغال الشاقة المؤبدة، لكنه كان منافقًا، ظل في قرارة نفسه مخلصًا لدينه ووطنه. تسمّى باسم عمر لودروس وتزوج امرأة مسلمة حتى يوهم الناس الذين يسمونه "العلاج"، وهي التسمية التي كانت تطلق على الأوروبيين الذين دخلوا الإسلام، بأنه مسلم بالاختيار لا بالجبر، وكان قد استنقل الأمر في البداية، واعترف بهذا الشعور لسيدة بابا حاجي: «لا نتخلى عن ديننا بابا حاجي. لا نقطع روابط الماضي دون ضيق في القلب. هناك الصفات الموروثة، والعائلة، والوالدان، والبلاد، ماذا أعرف أيضًا، التي تمسك الفرد بصرامة في حورها»¹.

تزوج عمر زينب ابنة سيده بابا إسماعيل حاجي المتسامح، والذي ظل يغيره بمزايا الإسلام مقابل منحه الحرية واسترجاعه الكرامة الممتهنة، ثم تزوجه درءًا للفضيحة بعدما افتتنت زينب بالأسير الفرنسي الوسيم. لا يمثل الاثنان بابا حاجي وصهره عمر جدلية السيد والعبد بل هما نموذج للتعايش الثقافي بين الأنا والآخر، يتصاهران ويتواصلان بلهجة صبير. أما ابنه يوسف فقد نشأ على تعاليم الإسلام منذ الصغر فأصبح مفتيًا. ولما كان إسلام العلاج عمر في أعماقه هشًا، عن غير اقتناع ندم على فعلته، وارتدّ بعد عشرين سنة من العيش في ظل الإسلام يكتم مسيحيته خوفًا من الفضيحة. أصبح عمر منبوذًا بعد إعلان رده صراحة بجامع كتشاة وفي حضرة الإمام ابنه يوسف الذي انفطر قلبه بين العاطفة والواجب على وحيرة جموع المسلمين المذهولين للانقلاب الهوياتي للعلاج. أصيب بالجنون نتيجة للأزمة النفسية وانفصام الشخصية، وانتهت المأساة بالانهيار كحل منطقي لسياسة الإكراه الديني أو الإيديولوجي، والحاصل أن الفكرة التي أراد الكاتب تمريرها للنظام الاستعماري أن لا إكراه في الدين كما أوصى القرآن، فحرية الاختيار شرط أساس في تحمل المسؤولية واستحقاق الجزاء.

Chukri Khodja, El-Euldj, captif des Barbaresques, op.cit. p.76.

-1

يتبدى الفضاء المكاني حيث اللمسة العثمانية بارزة في المعالم العمرانية التي طال بعضها معاول الخراب والهدم في العهد الفرنسي، تجلت في القسبة التي بناها بابا عروج، والجامع الكبير، وجامع كتشاوة الذي تحول إلى كاتدرائية، «جامع كتشاوة هو المسجد الرائع حيث المنارة مرصعة بالمينا، تنتصب قامتها العملاقة صوب السماء الصافية والزرقاء. وهو الذي تحول لاحقا إلى كاتدرائية. كان المدخل يقع في شارع السودان، ويحمل العبارة التالية، بالحروف العربية. "يا له من مسجد جميل! بحثت عنه الرغائب، بعجلة قصوى. فخامة استكماله تبسمت على أفق القرن. لقد أنشئ على يد سلطاننا الرائع ذي القوة العالية حسن باشا، بجمال منقطع النظر»¹. وهناك وصف لأهم الشوارع الرئيسية أو الأبواب الحصينة في المدينة العربية مثل باب عزون، وباب الوادي، ووظيفتها السياسية الشاهدة على قسوة الحكام الأتراك: «كانت باب الوادي حينذاك باب عذاب، وخازوق، ومشنقة، كانت الباب التي تنفتح على القبور ذات الصمت الشكائي للمعدبين من كل الأعراق، كانت الباب التي تتغلق كل مساء على قائمة الشهداء المختطفين»².

ومن خلال شخصية هذا العالج الفرنسي، الذي تشبث بثقافته الأولى وشخصيته اللاتينية وأبى أن ينسلخ عن جذوره، بل ظل متوصلا مع بلده الأم وأسرته الأولى هناك عبر بريد الشوق والحنين، ومستأنسا بذكريات جميلة لا يحوها النسيان، ولا يؤثر عليها طول الزمان، يشرح الكاتب وضعية الأهالي المأسوية مع قانون الإدماج الأعرج الذي طرحه الاستعمار من أجل القضاء على هويتهم وثقافتهم العربية والبربرية، وإحلال الهوية الفرنسية محلها بعد أن عانوا من قانون الأندجينا سنين طويلة. وبذلك اتجه التطور الدرامي للأحداث إلى تأكيد استحالة تطبيق هذه الإيديولوجيا في الجزائر المستعمرة بسبب دعوات الرفض التي أطلقها الشعب الجزائري حفاظا على هويته وثقافته، وغلاة المستوطنين الاستعماريين خوفا على مصالحهم.

El-Euldj, captif des Barbaresques, op.cit. p.143.

Ibid. p.54.

-1

-2

5.1.1- "مريم بين النخيل" لمحمد ولد الشيخ¹*: العودة إلى الأصل فضيلة

تزامن نشر هذه الرواية الاجتماعية ذات البعد الإثنولوجي "مريم بين النخيل" لمحمد ولد الشيخ في 1936 وسط الجدل الذي أثاره في الصحف عبد الحميد بن باديس ممثل التيار الديني، وزعيم التيار الوطني فرحات عباس حول مسألة الهوية الوطنية ووجود الأمة الجزائرية، ومع حدث افتتاح أشغال المؤتمر الإسلامي الذي جمع مختلف الأطياف الجزائرية². طرحت الرواية مسألة الاندماج مع الفرنسيين وأهمية انفتاح المجتمع المسلم على الثقافة الغربية في منظور الكاتب الذي يؤمن بالتعايش السلمي بين الطائفتين بصفته موظفا في الإدارة الفرنسية، فقد اعترف أنه ألف الرواية من أجل أن يدخل السرور على دعاة التقارب الفرنسي الإسلامي. تناول من خلفية إسلامية مختلف القضايا التي ترتبط بها والمشكلات التي تتجر عنها، منها الزواج المختلط بين الأهالي والمستوطنين وأثره في الطرفين بسبب الاختلاف الثقافي الذي يبقى سدا منيعا أمام نجاح الأسرة، وتمظهر فشل الإدماج في فشل الزواج المختلط، بين الأم خديجة والفرنسي دبوسي، والبنت مريم والروسي إيباتوف.

تحمل هذه الرواية اسم البطلة مريم التي ولدت من زواج مختلط بين خديجة امرأة جزائرية من الأهالي ومستوطن فرنسي الضابط ليون دبوسي ذي الميل اللبيرالية. تربت مريم وأخوها جان حفيظ على الثقافة الفرنسية، وأصول المدنية الحديثة، فصارت تتصرف كفتاة أوروبية متمدنة ومتحررة. كان الوالد يرفض أن تتولى أمهما خديجة تربيتهما على الطريقة الإسلامية، ويبعدها دوما عنهما، ولما قتل في معركة الريف بالمغرب الأقصى أقنعت ابنتها مريم بالابتعاد

¹* محمد ولد الشيخ، ابن آغا منطقة في الجنوب الغربي يعود أصله إلى الشيخ بوعمامة، ولد الكاتب في بشار 23 فيفري عام 1906، درس الثانوية بوهران، كتب باللغتين العربية والفرنسية، ألف في الشعر "أناشيد من أجل ياسمين"، و"أفراح جنائزية"، وفي المسرح "ال خليفة"، و"خالد، سمسون الجزائري"، وفي الرواية "مريم بين النخيل"، وفي القصة نشر في صحيفة وهران بين 1924-1928 "غزوة في الصحراء"، و"عسق الإسلام"، و"مكتوب" و"متنان". نشرت "مريم بين النخيل" أول مرة في منشورات بلازا بوهران عام 1936.

² Mohammed Ould Cheikh, Myriem dans les palmes, In Introduction de Ahmed Lanasri, op.cit. p.35.

عن صديقها الروسي إيفان إيباتوف العلماني، الذي استقر بالمنطقة بعد انقضاء خدمته كجندي، نموذج المستوطن الأوروبي المتكبر والعنصري. وتريدها الارتباط بأحمد مسعودي، رجل مسلم مزدوج التكوين يدرّس اللغة العربية وتعاليم الإسلام، ومنتور تعلم في المدرسة الفرنسية، في حين اتبع جان طريق والده فانخرط في الميدان العسكري، غير أنه ظل مسلما.

تمثل شخصية أحمد مسعودي التيار الإصلاحية، ويتوافق مع الشيخ عدّي الذي يجسد الجانب الديني التقليدي. تزوجت مريم أحدا واختار أخوها زهرة، حسناء بربرية من تافيلالت، لتعود العائلة أخيرا إلى حضن الهوية المغاربية، المتمثلة في تمازج ثقافي بين البربرية والعربية والإسلام، عناصر ثلاثة حاضرة ملامحها في المعجم اللغوي المحلي وشعر المدّاحين، والمصطلحات الدينية وتعاليم الإسلام كذكر أوقات الصلاة، والإشارة إلى أن الثقافة اليهودية قديمة في المجتمع الجزائري، فتعائش اليهود مع العرب والبربر ليس جديدا. و«بمقتل الضابط دوبوسي يكون الكاتب قد أزال الاحتلال»¹، ولمّح للأمل في الاستقلال.

كشفت الأحداث العنيفة عن الصراع غير المتكافئ بين الأهالي الراضين للوجود الأجنبي وجيش الاستعمار الفرنسي بعتاده الثقيل في المعارك الدائرة بينهم لإخضاع تافيلالت، ومسارة النبلاء إلى إعلان الطاعة والولاء حفاظا على مكانتهم، وموقف بعض الشيوخ المرابطين الذين لم يروا الاستعمار شرا يجب أن يقاوم، نظرا للإصلاحات التي قامت بها الحكومة منها التعليم الذي قرب نسبيا بين الطائفتين، ونشر الأمن بالقضاء على ظاهرة قطاع الطرق الذين قتلوا وخرّبوا وسرقوا الناس، وأعدت إلى ربوع بشار وواحة تافيلالت الأمن والأمان. وهكذا يعترف بأن هذه «البلاد عرفت في ظل الحماية الفرنسية السلم والراحة. لكن لا ينبغي لأحد أن يعتقد أن بلوغ هذا كان دون تضحية! شوارع المدينة تشهد بذلك، إنها تحمل أسماء الأبطال الذين كرسوا أنفسهم للعمل الاستعماري الجبار، السلام والحضارة»².

Myriem dans les palmes, In Introduction de Ahmed Lanasri, ibid. p.40.

Myriem dans les palmes, ibid. p.43.

-1

-2

فالكاتب من خلال هذا الثناء يبرز جدلية التفوق والتخلف بين الحضارتين المتعارضتين الغربية والإسلامية. يشير إلى أولئك الغزاة العسكريين الذين قادوا حملات التوسع وشاركوا في إبادة الشعب الجزائري، معتبرا الفعل الاستعماري رسالة حضارية حاملة للخير وللقيم الإنسانية، ويوجه سهام النقد حادة للعادات البالية مثل الاحتجاج بالقدر مع عدم الأخذ بالأسباب، والركون إلى الدعة وتعاطي الحشيش، والدعارة، وتجارة العبيد، والطقوس الشركية التي تحكمت في مصير المجتمع الإسلامي منذ قرون تاركا مجال الهيمنة للغربيين: «حواجز هائلة تفصلنا [...] هؤلاء الملاعين لديهم آلات حربية لا تتوفر عندنا. رجالنا ليسوا متكونين بقدر كاف ويحاربون وفق ما يقدررون ويريدون [...] الروميون محاربون شرسون ومتأكد أن النضال القادم سوف يكون قاسيا وخطيرا»¹. فالتخلف أو التفوق ليس سببه الدين، وإنما مرده إلى التفكير السلبي وعدم الأخذ بأسباب الحضارة وشروط النهضة.

يمزج التاريخ بالطبيعة والخيال مبررا احتلال تافيلالت بانعدام الأمن وانتشار الرعب بين الناس بعد مقتل سلطانها مولاي حسن، واصفا بأسلوب شاعري وضع الواحة الهادئة واستمتاع السكان بجمال طبيعتها قبل حدوث النكبة وظهور المتمردين: «بين النخيل، الرجال والنساء والأطفال يغنون، والحيوانات تلهو صارخة من الفرح، والقمم تختنق بنخلات تهتز وتتمتم من هبوب الريح، والحمام يهدل، والعصافير تزقزق برقة، والسواقي تهمس، والزهور تكسو المراعي، تتفتح في الشمس وتبعث عطورا زكية، من كل ناحية. أخيرا، تلعو الأناشيد والدعوات»².

لقد حاول محمد ولد الشيخ في إطار الإيمان بثقافة التعايش مع الآخر أن يرسم فضاء مثاليا لمجتمع أهلي يبرهن للاستعمار إمكانية التوفيق بين الثقافة الروحية الإسلامية والحضارة الصناعية الغربية، لا من منطلق الذوبان أو جدلية المتفوق والمتخلف، وإنما عليه أن يأخذ الجوانب التي تتماشى مع الجزائري المسلم مع الاستفادة من التطور العلمي الغربي.

Mohammed Ould Cheikh, Myriem dans les palmes. p.144.

Ibid. p.103.

-1

-2

اتفقت روايات هذه الفترة ما بين 1920-1940 على فكرة أن الأهالي كانوا على وعي بما يحاك ضدهم من مؤامرات من خلال مسألة الإدماج، ولكن اختاروا أسلوب التلميح ونقد الوضع السياسي بالخطاب المضمّر خوفاً من التبعات. نظر بعضهم بتحفظ إلى الإدماج نظرة قلق وريبة، وفهموا أنه كان وسيلة أخرى من وسائل الاستبداد التي اعتمدها الاستعمار للقضاء على شخصيتهم، وللتخلص من صدام المطالبة بحقوقهم أو بإعلان التمرد لاستهداف مصالح المستوطنين. أثارت هذه الروايات نقاطاً حساسة تمثلت في انتشار الشيوعية في المجتمعات العربية، وتصاعد التيار الليبرالي الذي كان له تأثير خاص في الفكر العلماني لدى الجزائريين المتورين، ظهر في شخصيات الروايات العرب المحافظين والمستوطنين المعتدلين.

جدول مبين لمظاهر الإدماج ونتائج المدمرة على المستوى الفردي والجماعي، والفشل الذي آل إليه هذا المشروع الثقافي بسبب ضغوط الإيديولوجيا المهيمنة، مهما كانت صفة المهيمن، على المستضعفين. ولأن المندمجين اتجهوا إليه مكرهين، وكانوا له بقلوبهم رافضين، وعليه، فإن الاندماج في الآخر وتبني ثقافته، يعني حتمية السقوط في جحيم الانسلاخ.

عنوان الرواية	مظاهر الإدماج	الانعكاسات السلبية	مصير المندمج
محمد بن مصطفى القومي	الانخراط في الجيش الفرنسي والمشاركة في حروبه، والتمتع بالامتيازات.	محاربة إخوانه وقتالهم	الموت وحيدا في المنفى
زهرة زوجة عامل منجم	معاقة الخمر، لعب القمار، أكل لحم الخنزير، ومعاشرة النساء.	ترك الصلاة، وإهمال الزوجة، واعتلال الصحة، ودخول السجن.	الهجرة والاعتراق
مامون، مشروع مثل أعلى	معاقة الخمر، لعب القمار، أكل لحم الخنزير، ومعاشرة النساء.	إهمال الدراسة، تبذير المال، اعتلال الصحة تفكك الروابط الأسرية، دخول السجن.	الموت

الانهيار العصبي والجنون	النفاق والردة	اعتناق الدين الإسلامي وإقامة شعائره، الزواج بمسلمة.	العلاج، أسير البرابرة
العودة إلى الأصل.	مخالطة الرجال الأجانب، اللهو خارج البيت، والابتعاد عن القيم الإسلامية.	تبني المدنية الغربية، التحرر من الدين، والتوجه إلى الحداثة.	مريم بين النخيل

جدول رقم (11)

تتشرك الروايات السابقة من حيث طرحها لقضية الإدماج التي لا مناص منها في حالة وقوع الإنسان تحت سيطرة الأجنبي الغالب عن طريق فرض ثقافته على الآخر، وكان مصير أبطال ملحمة الإدماج الاستعمارية والاستبدادية الإفضاء إلى الانهيار التام والخسران المبين في كل الروايات، فمنهم من مات غريبا مقهورا في أوروبا مثل أحمد القومي، أو لقي حتفه مرضا بسبب تناول الخمر بإفراط كحال مامون المسلول، ومنهم من أجبر على الهجرة والانتقال إلى مكان آخر متواريا عن أنظار الأهل والأصدقاء مثل أحمد عامل المنجم، ومن أفضى به إلى الانهيار والجنون مثل العلاج عمر. والحالة الوحيدة الناجية هي مريم وأخوها اللذان عاد إلى أصلهما بفضل جهود الأم المتشبثة بثقافتها العربية الإسلامية.

2.1- الأعمال الثنائية بين مستعمر ومستعمر: خطاب الثقافة وفكر الهيمنة

1.2.1- نموذج سعد بن عليّ وريني بوتيه: وصف غرائبية الفضاء الصحراوي

"الخيمة السوداء، رواية صحراوية"، عنوان رواية إثنوغرافية بامتياز كتبت في 1933، «مبنية حول أسطورة البربرية»¹. تنتمي إلى أدب السياحة الاستعمارية الذي ظهرت بوادره غداة الغزو العسكري، تكريسا للأدب الغرائبي والدعاية التي قدمتها كتب العسكريين جذبا للسياح إلى الجزائر. ركزت على الجانب غير المألوف في تصوير الفضاء الصحراوي، متأثرة بروايات الأدباء

¹ Jean-Robert Henry, Résonances maghrébines, in Le Maghreb dans l'imaginaire français: la colonie, le désert, l'exil, op.cit. p.12.

الاستعماريين الأولين والمستوطنين على غرار غوتيه وفرومنتان ولوتي، ثم إيزابيل إبرهارد وإتيان ديني، والإغراق في الصور النمطية المعبرة عن جاذبية اللون المحلي المتجسد في الهيام بالطبيعة الصحراوية، والاستمتاع بالضيافة العربية تحت الخيام، والسير بين النخيل وعلى حواف السواقي.

تروي الأحداث قصة امرأة فرنسية هربت من حياتها الأوروبية المملة بعد علاقة حب فاشلة، لأنها مولعة بالمغامرات الرومانسية والرغبة في الأسفار إلى الأقطار البعيدة. مدفوعة بالفضول، عازمت على خوض التجربة بكل ما حملته من مخاطر من أجل تحقيق متعة اللحم الشرقي، يؤثته المشهد التالي: «كانت الساعة رائعة، جان سعيدة. كانت تعيش أخيراً أول ليلة لها في الصحراء الحقيقية! [...] استسلمت لانطباعاتها، وتخيلت نفسها تمشي في الغرفة الهائلة لقصر ألف ليلة وليلة، مع قباب مرصعة بالذهب، وأرضيتها مغطاة بسجادة سميقة تتألق، كأنها أحجار كريمة وشرائح الميكا الصغيرة وشظايا الغرانيت. في بعض الأحيان كان هناك صوت حزين منتظم ولطيف للغاية لبعض الطيور الليلية»¹.

كانت جان دالباس تبحث عن الاستمتاع بمغامرة فريدة في الجزائر، بفضل مطالعة الكتب الغربية عن سحر الشرق وصفاء حياة الشرقيين: «ظلت جالسة، كما في اللحم، تسترجع ساعات حياتها الأوروبية، لكنها هربت من هذا الوجود الذي لا علاقة له بشخصيتها الغربية؛ من ناحية أخرى، فإن حاجتها إلى الاستقلال والحرية، ذوقها للمغامرة مستمد من القراءة [...] جذبها إلى العرب»². ولما كان أصلها من مقاطعة بورغوني شعرت برابطة قرابة إزاء العرب، ممن قد وصلوا إليها خلال الحروب في الماضي البعيد عبر الأندلس فاتحين. «لقد أتت إلى الجزائر، وقد جذبتها ذاكرة الصور التي كان مجرد مشاهدتها كافياً لتحويل شبابها من منعزلة في قصر قديم من العصور الوسطى، إلى استيهام مُشرق ودائم التجدد بلا انقطاع. أرادت أن تتذوق متعة

¹ René Pottier et Saad ben Ali, La Tente noire, roman saharien, Les oeuvres representatives, Paris, 1933. Pp.19,20.

² La Tente noire, roman saharien, ibid. p.11.

الحياة في الخيمة، وتطلب الضيافة من قبيلة بدوية»¹، تعيش البساطة وعلى ما تنتجها الأرض وتغذقه عليهم السماء. خيبة أمل شديدة استولت على جانٍ إذ لم تجد الصور الجميلة التي نقلها عن سحر الجزائر الكتاب الغربيون المفتونون بالشرق الأسطوري، وقفت على المفارقة وهي تقارن بين ما سطرته كتب الخيال الغربي والحياة القاسية في هذه المنطقة القاحلة. وجدت نفسها وحيدة في صحراء توفرت، ضلت طريق العودة وشعرت بالدوار ثم الإغماء، فأنقذها سليمان قايد ولاد سايح. وهنا يبدأ لقاء المثقفة بين الشرق والغرب.

تتناول الرواية خدعة الدعاية الإعلامية التي مارسها الدوائر الاستعمارية في إعمار الأراضي الخالية بالأوروبيين للسيطرة عليها. وتستند في هذه الدعاية إلى ترويج صور ورموز الاستشراق المتحالف مع الاستعمار. وقد تبنت هذه الصور الجاهزة في الأحداث المقدمة بأسلوب غرائبي مرغوب عند القراء الغربيين. شاهدت جان طبيعة قاسية مترامية الأطراف، أراضيها قاحلة قليلة المياه والوصول إليها صعب وبعيد، تسكنها حيوانات برية متوحشة، وسكان تختلف ملامحهم الثقافية عن الأوروبيين في لون البشرة والزي والكلام.

شخصية الزعيم البدوي النبيل، والفارس القوي والشهم القايد سليمان بن عبد الرحمن باللباس التقليدي الرامز إلى التشبث بالأصالة، وهو حريص على إقامة الصلاة في وقتها للدلالة على التمسك بالدين الإسلامي. يقف هذا العربي أمام فتاة أوروبية تربت على أصول المدنية الأوروبية، ويبدو هو متتورا يحدثها بلغتها الفرنسية بطلاقة، ويقدم لها المساعدة اللازمة بوقار واتزان، وعلى صدره يتألق وسام شرف الحكومة الاستعمارية نظير خدمات الولاء لفرنسا الإمبراطورية. يبدو سليمان الفرنسي الأصل مستوطنا في زيّ عربيّ وتزوج فرنسية وسميت نجمة كرمز للاستعلاء على نساء القبيلة، وللتدليل على إمكانية اندماج الأوروبي في الثقافة الأهلية، مع الاحتفاظ بالهيمنة على العربي المسلم الذي يصبح خادما له بعقد اجتماعي.

La Tente noire, ibid. p.12.

1-

اهتمت هذه الرواية بتمثيل الآخر "الأهلي"، واعتنت بنقل تفاصيل العادات والتقاليد الشرقية مثل أي رواية إثنوغرافية ألفها كاتب استعماري، أما صوت الكاتب فيظهر في إعطاء المصدقية للمكتوب. صورت عادات العرس الأهلي في المجتمع الصحراوي البربري، حيث تزوجت البطلة الفرنسية القائد العربي، واستقبلت بحفاوة استقبال الأميرات في قبيلة أولاد السايح حسب تقاليد المنطقة في الأعراس. لم يتقبل سكان القبيلة هذه الفرنسية المندمجة، وحاولوا قتلها عدة مرات. يحضر التناص بقوة لخدمة غرض الرواية، وكأن هذه الرواية تسرد مغامرة حقيقية لامرأة أوروبية تاهت في صحراء الجزائر هي إيزابيل إبراهيم، وزوجها سليمان أهني ضابط صبايحي في واحات الوادي.

وُصف سرد حياة المغامرة الفرنسية واعتبارها أميرة صحراوية باللامعقولية، و«يجب التأكيد على أن معظم الشخصيات في هذه الرواية تم إنشاؤها فقط لخدمة سليمان وجان. علاوة على ذلك، فإن وصف هذا القائد يقدم ضيافة لفرنسية غير معروفة، رحب بها الشعب الصحراوي، ولا مانع من جلوس قائدهم على العشاء مع جان، وهم يترجمون لها الأغاني التي كانوا يستمعون إليها، بينما كان أفراد القبائل جالسين في ركن الظل، هو في الواقع مثير للدهشة»¹.

2-مرحلة التفاعل مع النموذج والتجاوب مع الانفتاح على المستعمر 1940-1950

وعلى الدرب نفسه من التخبط والتملل بين متطلبات الإدماج وقيم الأصالة سارت الروايات الصادرة في الفترة المتزامنة مع الانفتاح، خاصة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فعالجت تيمة الإدماج الجزئي أو الكلي، والتعايش بين الطائفتين المتعارضتين بما يوافق أهداف النظام الاستعماري، أو تناولت المسائل الأخلاقية العادية، ولم تأت بجديد في ظل الرقابة الفرنسية الصارمة التي كانت تمارس على تحركات الأهالي وخطاباتهم. وقد زاد قليلا نشر أعمال روائية عقب مأساة ماي 1945، المتسمة بالتحول السياسي عبر نافذة الانفتاح الثقافي وبداية اليقظة

¹ Zahia Smaili Salhi, Themes in the Francophone Algerian Novel, University of Exeter as a Thesis for the Degree of Doctor of Philosophy in Modern Literature in the Faculty of Arts, August 1991. p.50.

الفكرية والوعي الوطني. كتب عيسى الزهار رواية "هند ذات النفس الزكية، أو قصة أم" Hind بلحاج أعمالا لم تر النور¹، ونشرت "بُولُونُور" Bou-el-Nouar للثنائي زناتي في 1945، وقدمت جميلة دبّش "لَيْلَى، فتاة من الجزائر" Leila, jeune fille d'Algérie في 1947، و"عزيزة" Aziza في 1955، وفاظمة آيت منصور "قصة حياتي" 1946 وابنتها طاوس عمروش "ياقوتة سوداء" Jacinthe Noire 1947، وشارع الطبالين 1960. وإن كانت رواية مالك بن نبي الوحيدة "لَبَّيْكَ" 1947 Lebbeik تختلف عن الأعمال السابقة في التركيز على النبوة الدينية الوعظية في شرح قضايا الهوية أكثر من مجرد تصوير للواقع الاجتماعي المهرود.

تباينت آراء الكتاب المعبر عنها في هذه الروايات تبعا لمكانتهم الاجتماعية، ونوع تعليمهم وثقافتهم وغاياتهم، فهناك من نظر إلى أطروحة الإدماج الإيديولوجي بين الثقافات المختلفة السائدة في المجتمع الاستعماري بالجزائر نظرة موضوعية وواقعية، تتلخص في عدم الاستجابة لها لاستحالة دمج عنصرين من ثقافتين مختلفين في مجتمع واحد، وهما لا يتساويان في الحقوق الإنسانية، تسيطر فيه الفئة الغالبة أو الغازية، وتأبى الاعتراف بالمساواة والأخوة البشرية. فالناس مفظورون على رفض الدخيل وعلى التمسك بهويتهم، وصون تراث أسلافهم ووحدتهم الثقافية. كذلك الحال عند الشباب الجزائري المتطور، منهم الاندماجيون المعتدلون الذين تخرجوا من المدرسة الإسلامية ومالوا إلى الفكر المعتدل الذي يُقبل على ثقافة الآخر دون أن يفِرط في شخصيته. وهناك من تلقى حقنة الصدمة الحضارية الغربية فراح يبحث عن هوية بديلة. أصيب بعض الكتاب الأهليين المفرنسين بمتلازمة الانبهار بما حققه الآخر من تقدم مادي وفكري، ورافع لصالحه داعيا إلى دمج الشعب الجزائري مع المستوطنين لتحقيق التقارب بين الثقافات، وهم الاندماجيون المتطرفون الذين درسوا في مدرسة المعلمين ببوزريعة وتشبعوا بالأفكار

¹ ولد محمد سيوفي 1898 بباتنة، ألف روايتين غير منشورتين، "ذكريات طفولة ابن شمال إفريقيا" Souvenirs d'enfance d'un Blédard 1941 و"أمي" 1946.

الاستعمارية التي تمجد الحضارة الغربية الحديثة وجذورها الرومانية اللاتينية، وتزدي الحضارة العربية الإسلامية، وتنتظر إليها سببا لتخلف لشعوبها وبلدانها.

1.2- تحليل روايات المرحلة الثانية

1.1.2- "هند ذات النفس الزكية، أو قصة أم": دعوة إلى الاندماج الجزئي

أراد عيسى الزهار^{1*} في روايته الاجتماعية أن يلقي الضوء على مسألة جوهرية إبان الفترة الثانية من الاحتلال ألا وهي أهمية التعليم والتربية في تنشئة الأبناء، وقلق الأهالي بين تفضيل التعليم الأصلي التقليدي والتعليم الفرنسي العلماني، وصراع المنظومتين للسيطرة في الجزائر، وبين موقف بعض الآباء المحافظين من تعلم الأبناء في المدرسة الفرنسية، وتخوفهم من ضياع هوية المتعلمين وثقافتهم الإسلامية، وخطورته لاسيما على تعليم البنات^{2**}، واختلاف الآراء في ذلك بين التأييد والمعارضة وأيهما أنجع سبيل. يرى أحد أبطال "هند ذات النفس الزكية" أن «إرسال أبنائه إلى المدرسة الفرنسية يعرضهم لأبشع المخاطر: ضياع العقيدة الإسلامية وتبني إما الإلحاد أو دين آخر لا يقوم على أي شيء إلهي»³، وهذا ما يفسر وجود انشطار بين الجيلين، تمسك الآباء بدينهم، ووعيهم بأهمية التعليم في بناء شخصية الطفل وصناعة مستقبله، وفي الوقت ذاته عبروا عن صعوبة التأقلم مع النموذج الفرنسي، عكس الأبناء الذين تبناوا الثقافة الاستعمارية الدخيلة.

تروي "هند ذات النفس الزكية" قصة الوالد سيف الدين الذي تلقى العلم التقليدي، وبينت وقوعه في حيرة من أمره في أيّ النظامين التعليميين أنسب لولديه يزيد وناصر الكتاب أم المدرسة الاستعمارية. ناصر الذي جعله الكاتب مثقفا وسيطا بين الطائفتين الأهالي والمستوطنين، نموذجا للأخذ بالنمطين معا. تعلم العلوم الدينية واللغة العربية، وتكوّن في المدرسة

^{1*} عيسى الزهار (1899-1963) كاتب جزائري أهلي مزدوج اللغة، ولد في برج بوعريج.

^{2**} في هذه الفترة قامت دعوات لتحرير المرأة في العالم العربي في مصر والشام. ففي مصر دافع قاسم أمين عن حرية المرأة.

³ Zahia Smaili Salhi, Themes in the Francophone Algerian Novel, op.cit. p.59.

الفرنسية العلمانية. كان ناصح قد حفظ القرآن الكريم كاملا، فكان مطلوباً في الجنازات يقرأ سورا على روح الموتى، ويهوى اللغة الفرنسية بقدر ما يهوى لغة أسلافه، ولا يرى حرجاً في التعليم الفرنسي لأنه يزيد في الاستفادة من العلوم الدنيوية المختلفة. حافظ ناصح على شخصيته، وأتقن اللغة الفرنسية وانجذب إلى ثقافتها، فأراد أن يستفيد من هذا التكوين المزدوج لتقريب الجاليتين العربية والفرنسية في إطار الاندماج الثقافي الجزئي، وتحقيق التقارب بالزواج والصدقة وحسن الجوار¹.

وقد أثارت مسألة التقارب الثقافي هذه جدلاً كبيراً أدى إلى اشتعال فتيل التناوش بين الآباء المحافظين على تقاليدهم خوفاً من اندثار ثقافتهم وشخصيتهم، والأبناء المتطورين والمنفتحين على الحضارة الغربية، والراغبين في تجديد المجتمع الأهلي على الطريقة الفرنسية. كان من نتائج هذا التطور الفكري أن رغب ناصح عن ارتداء الملابس التقليدية، ونزع الجلابة والشاشية، ورفض العيش ضمن سكان القبيلة المتخلفة ليؤكد للمستعمر قابليته للاندماج في إطار الرسالة الحضارية. فقد أدى ناصح الخدمة العسكرية في الجيش الاستعماري، وأقام علاقات طيبة مع الضباط، وبذل لقائد الحملة كل النزاهة والإخلاص لما لمس فيه من العدل والطيبة: «الروح الطيبة لهؤلاء الضباط المتميزين تركت في قلب الجندي الشاب ناصح ذكرى لا تمحى ستبقى طوال حياته؛ جعلته بصراحة ينحني لفرنسا المثقفة هذه التي أحب لغتها بالفعل»². وعرفانا بالمعروف قرر البطل ناصح تكريس جهده من أجل خدمة من كان له الفضل في إدخاله في حظيرة المدنية، وهذا ما سطر له الاستعمار بتعليم النخبة. ولكنه لم يبحث في عمق الأسباب التي أدت إلى تجهيل الشعب ونشر الأمية والبؤس بين السكان.

كان ناصح مثلما يدل عليه اسمه ينصح الأهالي بتبني الحضارة الغربية التي تمثل المستقبل والتطور، فكان همزة وصل في الالتقاء بين المدرسة التقليدية التي تمثل الحضارة الإسلامية في

¹ Voir: Zahia Smaili Salhi, Themes in the Francophone Algerian Novel, ibid. p.61.

² Themes in the Francophone Algerian Novel. p.93.

طور الانحطاط والمدرسة الفرنسية التي تجسد التفوق والازدهار والحدثة، وهي النموذج الإيجابي الذي ينبغي أن يحتذى به الأهالي.

2.1.2- "بولنوار، الفتى الجزائري" التماهي مع الإدماج أملا في المساواة

عرف رابح زناتي بتوجهه الليبرالي، وحرصه على طرح الاندماجي لفرنسة الأهالي من خلال مقالاته الكثيرة التي كانت تنشر في مختلف الصحف، منها التي أسسها هو نفسه. يحيل عنوان الرواية " بولنوار " للثنائي رابح وأكلي زناتي¹، المتلقي على فلسفة الأنوار التي نهل منها الفكر الغربي الذي انبنى على الاهتمام بالإنسان وكرامته قبل أن يسقط في الفكر الحدائي الإمبريالي. كما تحيل الرواية إلى سيرة زعيم الاندماجين الليبرالي فرحات عباس قبل التطور السياسي الذي حوّل مساره إلى المطالبة بالاستقلال. وكان قد تبنى في بداية العمل النضالي بعض الأهالي الاندماجين في الجزائر مبادئ هذا الفكر الحدائي المتمثل في المدرسة الفرنسية، وتماهوا معها بشكل مفرط، اتسم بالغلو بعض الشيء.

وبولنوار هو اسم بطل الرواية أي أبو الأنوار، وصاحب الأنوار الذي يحمل باليد اليمنى مشعل التنوير والتمدين، وباليسرى معول القضاء على الأفكار السلبية والتقاليد البالية، وعلى هذا الأساس ركز الكاتب على القضايا الاجتماعية، وفي مقدمتها قضية التعليم باعتبارها الشرط الوحيد للخروج من التخلف والجمود الفكري، والوسيلة الضرورية التي بها يواجه المرء مختلف المشكلات الحياتية، ولا يكون ذلك إلا باعتماد التعليم الفرنسي الحديث، وانتقد في الوقت ذاته التعليم التقليدي والفكر الإصلاحية الذي تبناه أنصار النهضة العربية الحديثة.

¹ ولد رابح زناتي بقرية ثوريرث الحجاج في 1877 بعرض بقرية آث يني ببلاد القبائل، وتوفي بقسنطينة في 1955. تحصل على الجنسية الفرنسية في 1933، واشتغل معلما في المرحلة الابتدائية، ثم كاتباً صحفياً ومؤسساً لجريدة "صوت المستضعفين" 1929-1947 و"الصوت الأهلي" 1947-1952.

بولنوار، ابن بوضياف أحد الفلاحين الأغنياء بقرية عين الروينة التابعة للإقليم القسنطيني، تعلم في المدرسة الاستعمارية وتشبع بالثقافة الفرنسية التي أصبحت بالنسبة إليه نموذجا حضاريا متقدما، ومثلا أعلى ينبغي على الأهلي الاقتداء به. درس بولنوار بالكتاب وتعلم بالمدرسة الابتدائية وبالمدرسة الثانوية الفرنسية حتى الحصول على شهادة البكالوريا، ثم واصل تعليمه العالي بجامعة الزيتونة، فنال بفضل ذلك تعليما مزدوجا.

بعد هذه الرحلة التعليمية المزدوجة، لاحظ الفرق الواضح بين التعليم العربي التقليدي والتعليم الفرنسي من حيث المنشآت التعليمية، ووسائل تكوين المتعلمين وطرائق التعليم، وتمعن في حال المعلمين الذين يعيشون فقراء على صدقات الطبقة البورجوازية، ونظر إلى التعليم الأهلي وطريقته التقليدية في تقديم العلم للمتلقى نظرة ازدراء واحتقار مستعرضا عيوبها ونواقصها: «كانت الأرض المغطاة بالحصائر البالية مزينة بشقوق عميقة. بولنوار، الذي اعتاد على رفاهية معينة، وجد الأماكن بلا جلالة. على الحائط، في مواجهة الباب، يمتد بساط المعلم، وهو أكثر سمكا ولكنه أصغر أيضا، ومغطى بقطعة من نسيج قديم، هدية بعيدة من عائلة بورجوازية. خلف الطالب، في متناول يده بسهولة عندما كان جالسا، على طاولة من الألواح الخشبية القديمة، توجت نسخة جلييلة من القرآن، مثل قدس الأقداس. كانت الأداة الوحيدة التي يحتاجها المعلم عندما كانت ذاكرته تخطئ»¹. كذلك نظر إليها مامون في رواية شكري خوجة نظرة دونية تعكس الوضع المزري للتعليم التقليدي والانبهار بحضارة الآخر.

ناقشت الرواية العديد من المسائل المتأتية، في منظور ثقافة الكاتب المتعلم في المدرسة الفرنسية، من تدهور التعليم وضعف مناهجه التربوية في المجتمع الأهلي، وانعكاسه سلبا على كل مجالات الحياة، وتتجلى مظاهره الاجتماعية السلبية في العلاقات الأسرية المتمثلة في السلطة الذكورية والتمييز بين الذكر والأنثى في الحقوق. فقد احتقلت عائلة بوضياف بميلاد

¹ Rabah Zenati, Bou-el-Nouar, le Jeune Algérien, 1945. Cité dans: Problèmes de la littérature maghrébine de graphie française. p.37. <http://ekldata.com>

بولنوار، ودعي إلى الحفل الكبير الأهالي والمستوطنين معا، وعندما شب دخل المدرسة للتعليم وبعدما أتم تكوينه الدراسي أقيم على شرفه حفل آخر، بينما مر ميلاد أخته وردية في صمت جنائزي، وحرموها حقها في التعليم وزوجها غصبا وهي لا تزال طفلة. ومسألة تعدد الزوجات من خلال فاطمة والدة بولنوار التي تألمت من زواج بوضياف الثاني من امرأة شابة في سن ابنه، مما أثر في نفسية بولنوار، وشعور الوالد بالندم في حق زوجته الأولى. وبين خطورة هذا التعدد على تماسك الأسرة، إذ تكثر الشجارات بين الضرائر والأحقاد مع الرئائب، وتقضي أحيانا إلى زنا المحارم كما حدث للبطل مع إغراءات زوجة أبيه، ومعضلة الزواج المبكر للأبناء دون مشورة، واختيار الآباء لهم شريكا دون رضى المعني.

لم تتمكن زينة زوجة بولنوار غير المتعلمة من إرضاء متطلبات زوجها بسبب عدم تكافؤ المستوى التعليمي بينهما، أما زوجته الثانية الفرنسية جورجيت فلم تطق العيش معه في الجزائر بسبب الأحكام المسبقة التي سيطرت على تفكيرها عن الدين والعرق والعادات فأخذته إلى بلدها فرنسا، إلا أن الاختلاف الثقافي فرق بينهما إلى الأبد. إن تطبيق بولنوار زوجتيه الجزائرية ثم الفرنسية يعني تأرجحه بين الثقافة التقليدية والثقافة المعاصرة، وفشله في التوفيق بينهما أو تبني إحداها، وهذا يدل على الارتباك الحاصل في شخصيته: «أردت أن أعطي لحياتي معنىً وشكلاً دقيقين. [...] بدا مستقبلي نقيًا مثل نجمة الصباح. بدا أنه خالٍ من كل عيب وفي اللحظة نفسها التي رفعت فيها ذراعي من أجل احتضانٍ أسمى التقطت يداي فقط الخطوط العريضة النحيلة لواقع شنيع»¹.

يعود سبب معاناة الأهالي إلى استسلامهم للقضاء والقدر، وعدم الإقبال على العمل لتحسين أحوالهم ولبناء وطنهم²، ولا بديل لهم إلا السير وفق الثقافة الفرنسية الممثلة في المثقفين

¹ - Boussad Berrichi, cité dans l'article: Bou-el-Nouar, le Jeune Algérien. Consulté le: 2020.11.20/23:10. https://djourdjura1.rssing.com/chan-19225387/all_p2.html.

² - ينظر: أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، م س، ص 226.

الوافدين من فرنسا (المتروبول) الأستاذ دورتان، وعائلة الزوجين فونتان، وجورجيت الآتية من بورغوني حديثا، أو أصحاب الثقافة المزدوجة مثل قاضي قرية عين الروينة.

3.1.2 - الكتابة النسوية وقضايا المرأة الأهلية المندمجة

شهد الأدب الأهلي ميلاد الرواية النسوية باللغة الفرنسية عقب الحرب العالمية الثانية. ونظرا لعدم اهتمام الناس بتعليم الفتيات بحكم العادات والتقاليد، برزت أصوات نسائية بفضل فرص التعليم القليلة التي أتاحت لبعض الأسماء نتيجة التغيرات التي مست الواقع الاجتماعي. وقد اختلفت أسباب التحاقهن بالمدرسة الاستعمارية وتعرفهن على الثقافة الفرنسية. إما كان ذلك بفعل التنصير كما هي الحال مع فاطمة آث منصور عمروش التي بدأت روايتها بالحديث عن المدرسة باعتبارها النواة الأولى لتعلمها، وابنتها طاوس التي ولدت خارج الجزائر، وعاشت بفرنسا، واختارت التجنس بالجنسية الفرنسية. وإما لانتمائها إلى العائلات الموالية للاستعمار، واستفادت من مزايا التعليم الفرنسي لخدمة المستعمرين مثل جميلة دبش.

1.3.1.2- "ليلى، فتاة من الجزائر" و"عزيزة" لجميلة دبش

تنتمي جميلة دبش¹ إلى الجيل الأول من الكاتبات الجزائريات اللواتي أسسن للأدب المكتوب باللغة الفرنسية، ومن نصيرات الثقافة الفرنسية التي تبنتها الطبقة الارستقراطية المحلية ونشأت هي عليها، فمن الطبيعي أن تتبعد عن الخطاب الصريح المعادي للإيديولوجيا الاستعمارية، أو أن تعبر عن مواقف تستثير غضب الحكومة الفرنسية. بل راحت تركز على نقد الأحوال الاجتماعية السيئة، وتندد بسلطة العادات والتقاليد تجاه الجنس اللطيف، وتتناضل

¹ جميلة دبش كاتبة وصحفية نسوية ولدت في 1926 ببرج أخصيص بالبويرة. كانت يتيمة الأبوين. سافرت إلى فرنسا رفقة خالها الذي كان تاجرا واستقرت معه بمدينة مونتي كارلو، أدخلها إلى مؤسسة داخلية بسان مور حيث يدرس أبناء البورجوازيين، فتحصلت على جائزة. أنشأت مجلة نسوية "الفعل" في 1947، واهتمت من خلالها بتعليم وترقية المرأة المسلمة. سجلت أفكارها في مقالات هي: "المسلمون الجزائريون والت مدرس" 1950، و"حق النساء الجزائريات في الانتخاب" 1950، و"المراحل الكبرى للتطور النسوي في الجزائر" 1955.

من أجل تحرير المرأة من الظلم الذكوري وهيمنة النظام البطريركي في المجتمع الإسلامي أكثر من اهتمامها بقضية تحرير الجزائر من النظام الاستعماري.

من أجل بلورة رؤيتها ضد النظام البطريركي اختارت الكاتبة بطلتها من الفضاء الصحراوي، فليلى من أولاد جلال، وعزيزة من أولاد نايل. ومعلوم أن هاتين البيئتين محافظتان جدا على الأعراف والتقاليد التي تعني المرأة، وتمسكتان بتعاليم الدين الإسلامي المختلطة بالاعتقادات الخاطئة بسبب انتشار الطرق الصوفية والبدع. ولا تختلف وضعية المرأة هناك في تعقيداتها وصعوباتها عن نظيرتها في الريف أو في السهول، فالمعاناة كانت واحدة، والأسباب نفسها متمثلة في مشكلة العادات التي حرمتها من حقوقها الإنسانية. قدمت الروايتان صورة للفتاة الصحراوية المتطورة التي تعلمت في المدرسة الاستعمارية، وأعجبت بالحضارة الغربية التي فتحت عينيها على المعارف المختلفة، وجعلت شخصيتها قوية تواجه المشاكل بكل ثقة ووعي، في المقابل انتقدت الثقافة المحلية لاستغراقها في الممارسات البدائية.

في "ليلى، فتاة من الجزائر" أرسل الوالد الشيخ إبراهيم المتدين، أحد كبار الملاك في الصحراء ابنته ليلى إلى مدينة الجزائر لمزاولة تعليم فرنسي حديث تماشيا مع التطور الذي عرفه المجتمع الجزائري في فترة ما بين الحربين العالميتين، وكان فعله هذا حدثا غير مسبوق في نظر سكان القرية، فقد تأثرت ليلى بالمدنية الفرنسية وخلعت اللباس التقليدي لتتشبه بالأوروبيات. ولما توفي الشيخ إبراهيم آلت مسؤولية البنت إلى العم عليّ المشدود إلى التقاليد، فمنعها من العودة إلى أحضان المدنية المخالفة للأعراف المحلية.

عادت ليلى إلى القرية في موسم العطلة لتقضيها مع الأقرباء، لكنها اصطدمت بقرار عمها الذي منعها العيش بين الأوروبيين، فرفضت البقاء في أولاد جلال لأنها ألفت عيش الحضر. أصر عمها الشيخ عليّ أن ترجع إلى أصلها، وأن تتحجب وتتنزج ابنه حمزة كما تقتضي العادات، إذ كان هذا العم يبحث عن الاستحواذ على ميراث أخيه الشيخ إبراهيم ضاربا حكم

الشرع والقانون عرض الحائط، ويكشف حواراه مع أندري لورمون عن نيته في أخذ المال قائلًا: «إن ابنة أخي ليلي لها بالفعل بعض الأملاك، ولكن هذه الأملاك يجب أن تبقى في العائلة، ومشروع الزواج الذي خططنا له يضمن لنا تراثنا»¹. هربت ليلي إلى المدينة فتبنتها عائلة صديقتها مادلين لورمون الفرنسية². ولتردد الجميل قررت أن تخدم بإخلاص الفرنسيين الذين أدخلوها إلى حضارتهم، وتناضل ليندمج شعبها في هذه الثقافة الغربية المتفوقة على ثقافتها.

تتجلى في شخصية ليلي صورة المرأة الأهلية المتنورة والمتطورة بفضل التعليم الفرنسي، وهي بذلك تحاول أن تتفهم وضعها كأنثى في المجتمع التقليدي المحافظ، «فإن كونها امرأة يزيد من تعقيد المسألة أكثر فأكثر، ويجعل وضعها في المجتمع أسوأ من وضع الرجل، بسبب تحكم التقاليد التي تفرض قيوداً أكثر على المرأة»³، حتى وإن كان والدها ثرياً ومنتقها، وترجع ليلي سوء فهم أهلها لوضعها إلى مشكلة الجهل، وأنها تمكنت من تجاوز هذه المشكلة بفضل تعلمها وتطورها، حيث تقول: «إنني لا ألوم أسرتي، إنها تظن نفسها على صواب، إن الداء جاء من كوني تطورت، في حين أنهم هم ظلوا على هامش الحياة المعاصرة»⁴.

أشارت رواية "ليلي" إلى تأثر بطلتها بالكاتبات الاستعماريات المتحررات مثل إيزابيل إبرهارد ومغالي بوانار اللتين برزتا على الساحة الأدبية النسوية في مطلع القرن العشرين بفضل كتاباتهما حول المرأة الأهلية، خاصة المسلمة، وتصوير معاناتها في مجتمع بطرييكي، يستغل فيه الرجل هيمنته عليها لقمعها. وتلبية دعوة الحركة النسوية إلى تحرير المرأة⁵* من التخلف والجهل والتبعية الأبدية، والتوقف من اعتبارها ظللاً للرجل.

¹- "ليلي... لجميلة دبش، نقلا عن: أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، م س، ص 238.

² Themes in the Francophone Algerian Novel, op.cit. Pp.61,62.

³ - أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، م س، ص 234.

⁴- "ليلي... لجميلة دبش، نقلا عن: أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، م ن، ص ن.

⁵* تأثرت الكاتبة بنشاط النساء المشرقيات في تحرير المرأة بمصر والشام.

في الرواية الثانية "عزيزة" كررت الكاتبة طرح مسألة المثاقفة بين الطائفتين الأهالي والأوروبيين لتأكيد حاجة المجتمع الماسة إلى التغيير والترقية والتطور، وضرورة التعايش السلمي والتفاعل المتبادل مهما كان الخلاف أو الاختلاف، ولا تتأتى هذه الحاجات، في نظرها، إلا بتفعيل الإدماج. تجسدت لديها نظرة التغيير الثقافي في صورة المرأة الأهلية المندمجة في الآخر في أربعينيات القرن العشرين، وفي شخصية عزيزة، الفتاة الصحراوية التي انبهرت بالثقافة الفرنسية الحديثة، فأرادت أن تتحرر وتتطور، وتهجر التقاليد القديمة التي ارتبطت في أذهان الناس بالإسلام. «تواجه الشخصية رفضاً للممارسات التي يرتبط فيها الإسلام بالتقاليد "البالية" التي يمكنها تحملها طالما أنها ليست منخرطة فيها شخصياً. يترافق هذا الرفض مع وعي بـ "التناقضات"، وتعبيرات ذاتها عن الصراع بين الإيديولوجيا الأصلية والإيديولوجيا المكتسبة»¹. كانت تصرفاتها توحى بالسخرية من تلك الخرافات الموجودة في التقاليد، كقلب الجرة في يوم عرسها وتفسيره بحدوث أمر سيء، وتريد أن يتخلص المجتمع المسلم من هذه الشعوذة.

بدأت عزيزة أصيلة رغم انبهارها بالحضارة الغربية ورسالتها الإنسانية إلى الشعوب المتخلفة، متمسكة ومفتخرة بأصلها، ولم تحاول تغيير اسمها مثلما فعلت مواطنتها فاكية براحيل التي غيرته إلى فرانسيس كي توكب مقتضيات عصر الحداثة: «فاكية، إذن، آثرت الغرب وبإفراط. كانت ترتدي كذلك ثيابا على آخر موضة باريس، تخلت عن كل التقاليد الإسلامية، وقطعت كل صلة بالعائلات العربية التي كانت تعرفها لحد الآن. لا تهتم كثيرا بالتعليقات. كانت الثروة التي تركها لها زوجها العجوز مريحة، تسمح لها بأن تعيش مرتاحة»². أدركت أن الإدماج الذي أرادته الاستعمار يناقضه الواقع المعيش مع أغرب حادث صدمها هو التمييز العنصري وسلوك المستوطنين في تعمد الفصل الطائفي بين الأوروبيين والمسلمين على متن السفينة وهي تغادر نحو فرنسا لزيارة الأقارب.

¹ Abderrahmane Zakad, Djamilia Debèche, une écrivaine algérienne oubliée. Consulté le :29.05.2021-9 :30.
² Sadiqi Fatima et autres, Des femmes écrivent l'Afrique. L'Afrique du Nord, KARTHALA Editions, 5 févr. 2013. p.291. <https://books.google.fr/books?i=smail+Salhi+alienation>

تزوجت البطلة عليّ كمال، محام أهلي متعلم انخرط في التيار السياسي الوطني، إلا أنهما انفصلا بعد الزواج الذي تم وفق الطريقة التقليدية، نظرا لاختلاف خياراتهما الأساسية في الحياة وتوجهاتهما السياسية. تبلورت هذه الرؤى المختلفة في مكوث عزيزة أثناء الزواج في الدّوار حبيسة بين جدران البيت حسب العادات العربية، في حين استأنف عليّ عمله ونضاله السياسي بشكل اعتيادي، فأحست بالإهمال من قبل الزوج الراضخ لأحكام التقاليد غير مبال بانزعاجها من وضع الجارية المفروض عليها، والظلم الاجتماعي الذي تسبب في النظر بازدراء إلى المرأة وتجاهل حقوقها ولو كانت متعلمة مثل الرجل. اشتد بها المرض فانقلبت على إثرها إلى الجزائر العاصمة للعلاج، ثم تركت زوجها الولوع بالسياسة على حساب سعادتهما الزوجية. وبمنظور التمييز الجنوسي هذا، «تمثل عزيزة بوضوح وضعية النساء باعتبارهن "مستعمرات المستعمرين"»¹. يتجسد الصراع السياسي متمثلا في التجاذب والتنافر بين أنصار التيار الوطني ودعاة الإدماج الفرنسي في شخصيتي البطل والبطلة، ويتجلى انقطاع حبل التقارب في انفصال طرفيه عليّ المحافظ وعزيزة المتحررة، ويتأكد بذلك اختلاف الأهالي في التعاطي مع الوضع الاستعماري السائد في الجزائر، الأمر الذي أدى إلى بروز الخلاف بين رجال النخبة الجزائرية حول مفهوم الإدماج وآليات تطبيقه.

إن ما يجمع بين شخصيتي ليلي وعزيزة عند جميلة دبش هو رفض تدجين المرأة العربية واستغلالها، والسعي إلى تعليمها وتحريرها بعيدا عن سلطة التقاليد المتعالية التي كان عليها أن تتغير في عصر مفاهيم الفردانية والليبرالية، لتحقيق استقلالها الذاتي مثل المرأة الأوروبية.

2.3.1.2- ملحمة آل عمروش، الأم والبنت: مأساة الانسلاخ الثقافي وتشظي الروح

ارتبطت عملية التبشير بالصليبية والاستعمار الحديث، وتبدت العلاقة الوطيدة بينهما في الأدب الاستعماري المكتوب حول الجزائر منذ سرديات العسكريين غداة الاحتلال في القرن

¹ Sadiqi Fatima et autres, Des femmes écrivent l'Afrique. L'Afrique du Nord, ibid. p.290.

التاسع عشر. وقد ركز الاستعمار الفرنسي نشاطه على بلاد القبائل أكثر من باقي المناطق لتطبيق مهمّات التنصير التي باشرها الكاردينال لافيغري، وجعل الآباء البيض سكانها فئران تجارب تحت إشراف كنيسة "السيدة الإفريقية" الكاثوليكية بالجزائر، حيث استغل المبشرون الكوارث التي حلت بالجزائر وبؤس الأهالي وتشبثهم بالحياة، فنشروا الشبهات، وروجوا لأسطورة القبائلي المتميز عن العربي الذي جاء مغتصبا أرض البربر، من أجل زرع الفتنة والبلبلة بين السكان وتمزيق نسيج المجتمع الأهلي.

تعد فاطمة آث منصور عمروش¹* أول امرأة جزائرية تكتب رواية سير ذاتية "قصة حياتي" 1946 Histoire de ma vie²** تناولت فيها مأساة التنصير في الجزائر، وصورت فصولها الدرامية في منطقة القبائل المستهدفة بشكل أكبر. وقد شهدت مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية أعمالاً لروايات استعماريات اهتمت بقضايا المرأة الأهلية، وعلى رأسها قضية التنصير والإدماج في القبائل مثل رواية "معاديث" لبوانار 1935 و"المنتصرة" لإليسا رايس.

تسرد الرواية مأساة امرأة جزائرية ممزقة بين ثقافتين متباينتين القبائلية والفرنسية في عهد الجزائر المستعمرة. عرف خلالها السكان في جبال القبائل ظروفًا صعبة للغاية، حيث انتشر المرض والفقر والجهل. وكان ميلاد فاطمة ثمرة هذا الواقع الاستعماري البائس الذي استعمل فيه المحتل أبشع أساليب القهر لإخضاع السكان. صورت الكاتبة صراع المرأة القبائلية مع العادات والتقاليد التي تضطهدها أو تقتل، مثلما كاد يحدث لوالدتها عيني لولا اللجوء إلى العدالة الفرنسية لحماية نفسها. تزوجت والدتها رجلاً مسناً، وبعد وفاته أقامت علاقة مع أحد أقارب الزوج، فأنجبت ابنة رفض الاعتراف بها، وكان هذا الرفض هو سبب مأساة الطفلة فاطمة التي نشأت منبوذة في مجتمع محافظ ومتشدد لا يغفر للمرأة الزلات. اضطرت الأم إدخالها دار الأيتام

¹* فاطمة آث منصور عمروش ولدت عام 1882 في قرية تيزي هيل بلاد القبائل وتوفيت بفرنسا عام 1967.

²**ألقت فاطمة عمروش "قصة حياتي" في 1946، ولم تنشر بطلب منها إلا بعد وفاتها في 1968، وكتب مقدمة الرواية كلا من الفرنسي فانسان مونتاي والجزائري كاتب ياسين.

عند الأخوات البيض في واضية (إواضين)، لتحميها من سوء معاملة الناس ونظراتهم القاسية كونها غير شرعية، فقد كانت تتعرض الطفلة إلى مضايقات الجيران. كانت عيني مثال المرأة القبائلية الحسنة، الشجاعة والمكافحة من أجل تربية أبنائها اليتامى والحفاظ على حقوقها ضد سطوة الرجل.

يتوزع الفضاء المكاني الذي تطورت فيه أحداث سيرة فاطمة من الميلاد إلى الممات عبر محطات مختلفة مليئة بالمغامرة والمخاطر، فمن القرية إلى المدينة، ومن الجزائر إلى تونس، ومن بلاد القبائل إلى فرنسا. النقلة الأولى كانت من تيزي هيبل إلى واضية، ومن واضية إلى فور ناسيونال (الأربعاء نايت إيراثن) استقر بها الترحال في قرية تدارث أوفلة بمدرسة الأيتام للبنات، عاشت فيها حياة ضيق وقسوة: «أما الغذاء، فيشبه الذي يوجد في المدارس الداخلية الفقيرة: قهوة سوداء، صباحا مع قطعة خبز؛ في الظهر، عدس مليء بالحجر، فاصولياء، أرز أو فول مهشم، قليل من الخضر، ماعدا الخس الذي كنا نجعله من الحقول عندما نتجول»¹، أما أقسى عقاب نالته الفتيات فقد كان في فصل الشتاء لما يشتد البرد والتلج ولا يستطيعن قضاء حاجتهن لعدم وجود الإناء بالداخل، فيضطرن إلى تبليل الأسرة، فيؤخذن للاستحمام بالماء البارد، وكان التمييز واضحا في الاهتمام والعناية ببنات المستوطنين على حساب بنات الأهالي.

النتلة الثانية في جغرافيا بلاد القبائل كانت من تيزي هيبل في أعاليها إلى إغيل علي في أسافلها إثر زواجها مع بلقاسم أو عمروش أو أنطوان الذي نشأ في أحد الأديرة الاستعمارية في منطقة آث عباس انتقاما من ثورة المقراني. عاشت فاطمة في بيت عائلة زوجها الكبيرة مع مشاكلها الكثيرة، فاعتبروها منبوذة ومرتدة (متورنية). هاجرت مع أسرتها الصغيرة إلى تونس من أجل لقمة العيش، ثم البقاء بإغيل علي حتى وفاة بلقاسم أو عمروش قبيل الاستقلال، وأخيرا استقرت بفرنسا للعيش مع أبنائها إلى وفاتها.

¹ Fadhma Aïth Mansour Amrouche, Histoire de ma vie, Librairie François Maspero, Paris, 1968. p.33.

ومن أجل إنجاز عملية الإدماج في منطقة القبائل أنشأت السلطات الاستعمارية آنذاك مدارس خاصة للبنات وللذكور في قرى آث يني، وتمازريث، وتيزي راشد، ومدرسة مختلطة في آث هشام لنشر الثقافة الغربية وتعليم الأطفال اللغة الفرنسية، ولغرض التنصير غيرت الأسماء المحلية بأخرى فرنسية بحجة تفادي تكرار الأسماء، وحملت الكاتبة منذ ذلك اسم مارغريت، وكان هذا الحدث بداية المسيرة نحو الانسلاخ من هويتها الدينية واعتناق المسيحية. كانت مدرسة تدارث أوفلة العلمانية التي تدرس بها فاطمة المدرسة الوحيدة بين مدارس البنات محل اهتمام رجالات الحكومة، فقد جعلوا من «مدرسة تدارث أو فلة نموذجاً، وهكذا كما [نوا] يستقبل [ون] بصفة منتتالية زيارة أعضاء من الحكومة: السادة فونسين، وبورجوا، وكومب [وزير التعليم]، وجول فيري، كان يأتي غالبا أيضا سياح من أجل الفضول مثل جورج دوق روسيا الكبير»¹. وقد تزامن فتح هذه المدرسة مع نمو التيار العلماني في العالم.

وبهذا التكوين الثقافي الذي اكتسبته مدة عشر سنين في المدرسة لمست تحولاً في شخصيتها لتتميز عن غيرها من بنات القرية بهوية بديلة لا تمت بصلة إلى ثقافة أهلها وأمها عيني التي كانت تؤدي واجباتها الدينية رغم الصعاب. وبفضل الشهادة الممنوحة للمتعلمين حصلت فاطمة على وظيفة في مستشفى بقرية آث منقلات، وفيها عرفت طقوس المسيحية مع الراهبات، وكانت تشعر بخلل ما في تعاليم هذه العقيدة: «كنت أحب خدمات قدايس الأسبوع المقدس هذه بسبب الأناشيد الدينية والأرغن. وفيما يخص الدين، بدا لي أنني لم أكن أبداً مقتنعة في أعماقي. لكن أوّمن بشدة بالله. ولما كان الآباء يؤكدون أن أولئك المعمدين وحدهم يذهبون إلى السماء، لم أكن أصدقهم. كنت أفكر في أمي، في ألمها، في الشهور الثلاثة في السنة التي كانت تصومها، في أنقال المياه التي كانت تجلبها في كل وقت، وكنت أقول في نفسي، ألا يمكن أن تذهب أمي إلى السماء؟»².

¹ Fadhma Aïth Mansour Amrouche, Histoire de ma vie, ibid. p.36.

² Histoire de ma vie, ibid. p.75.

عاشت فاضمة الغربية بين أهلها المسلمين المحافظين لأنها تحررت وانسلخت عن دينها، فوجدت نفسها في حالة ازدواجية ثقافية داخل المجتمع، فهي "الأنا" و"الآخر". وعرفت الغربية في تونس لأنها كانت تسكن مع العرب وهي قبائلية لا تتكلم العربية. وعانت من الغربية في الحي الأوروبي في تونس ينظرون إليهم باستعلاء لأنهم أهالي رغم تبني الثقافة الفرنسية. وقد لخصت فاضمة هذا الشعور بالاغتراب الدائم، والرغبة في العودة إلى جذورها في قولها: «ظللت دوماً القبائليّة». رغم الأربعين سنة التي قضيتها في تونس، رغم تنشأتي الفرنسية، لم أتمكن أبداً من ربط علاقة حميمة، لا مع الفرنسيين ولا مع العرب. ظللتُ منفيّة خالدة، تلك التي لم تشعر أنها في بيتها في أي مكان، اليوم، أكثر من ذي قبل، أطمح أن أكون في بيتي، في قريتي، بين أولئك الذين هم من عرقي، أولئك الذين لهم اللغة نفسها، والذهنية نفسها، الروح المتطيرة ذاتها والساذجة، والمتعطشة للحرية، وللاستقلال: روح يوغرطة!¹. تعترف بأنها لم تشعر مطلقاً أنها بين ذويها إلا في بلاد القبائل حيث ولدت وترعرعت، وتشبعت نفسها بطبيعتها، وتشربت ثقافتها وتمسكت روحها بالأمازيغية الأصيلة.

ويتبدى التجاور بين المسيحية والإسلام في منطقة القبائل في نهاية القرن التاسع عشر، في ممارسة الطقوس المسيحية والشعائر الإسلامية. أما الأحداث التاريخية فقد ذكرت تلك التي ارتبطت بحيوات الشخصيات مثل ثورة المقراني في الجزائر وحرب كريمي في فرنسا، وانقلاب الأوضاع في الجزائر بانطلاق الثورة التحريرية 1954، وبداية استهداف المستوطنين بالاغتيال، ورحيل الآباء البيض من بلاد القبائل. «في هول الحرب. تعرض السكان لسوء المعاملة من قبل الجيش؛ نفذ المتمردون أعمال تخريبية، ليلاً وفي الصباح، أجبر الجيش السكان على إصلاحها. كان الويل بين المدنيين من الجانبين»².

Fadhma Aith Mansour Amrouche, Histoire de ma vie, op.cit. p.2.
Ibid. p.203.

⁻¹
⁻²

عاشت أسرة عمروش التمزق الهوياتي والاختلال النفسي، تجلى أثره في محاولة التوفيق بين هويتين مختلفتين، الحفاظ على الأصالة والتقاليد القبائلية، واتباع نمط الثقافة الفرنسية المسيحية. كان الأبناء يحملون اسمين واحدا مسلما والثاني مسيحيا، بول محند السعيد، هنري عاشور، جان الموهوب، ماري لويز طاوس...، وفي الذهاب إلى الكنيسة، والتعلم في المدارس الفرنسية، وتلقي المساعدات المادية من الآباء البيض. وتحقق اندماجهم الكلي في المجتمع الاستعماري من خلال انخراطهم الإرادي في العمل في الإدارة الفرنسية، وتجند الذكور في الخدمة العسكرية الاستعمارية، ورغم هذا الانصهار تجرعت عائلة أو عمروش ومن حذا حذوها من المنسلخين عن دينهم مرارة الاستعمار، تقول الساردة: «بالنسبة للقبائل، كنا روميين، مرتدين. كنا نُحسد على الراحة القليلة التي حصلنا عليها، بعد كمّ الجهود والحرمان والنفي. بالنسبة للجيش، كنا بيكو مثل الآخرين»¹.

رصدت الكاتبة التراث الشعبي المحلي في بلاد القبائل، بسرد الأمثال بصيغتها الأصلية أو مترجمة: تنصح عيني ابنتها فاطمة: "خلف لومور إيبابيم" أي دعي الأمر لربك. وصفت اللباس التقليدي القبائلي: البرنوس، والفوطة، وثريحيث(نعل). والطبخ: أمققول، وكسكس، وأفظير أو قسول، وأبيسار. بالإضافة إلى ذكر أسماء القرى القبائلية: واضية، آيت هشام، وثوريرث موسى أو عمر، آيت عيذل، آيت وغلبيس؛ وأسماء الأشخاص ذات النبرة القبائلية: محند، قاسي آيت العربي أو سعيد، تسعديث آث أو شن، أو الألقاب التي تنتسب إلى قرية ما: تعيذلت (امرأة من آيت عيذل)، تجليليث (امرأة من آيت جليل).

انتقل هاجس الإبداع الأدبي النسائي من الأم فاطمة عمروش إلى الابنة طاوس عمروش التي ألغت روايات سير ذاتية تمحورت حول التعبير عن الذات المنشطرة، وعرض حصاد المنفى والعزلة، من خلال الحديث عن المرأة باعتبارها أنثى تخوض صراع "الأنا" ضد الآخر في

¹ Fadhma Aith Mansour Amrouche, Histoire de ma vie, op.cit.

روايتها "ياقوتة سوداء" 1947، و"شارع الطبالين" Rue des tambourins 1960. صورت في هاتين الروايتين الظروف الاجتماعية المؤدية إلى الذوبان في حضارة الآخر، ومعاناة الانسلاخ عن الدين والنفي من الوطن، والإحساس بأوجاع التمزق والمسوخ الهوياتي، وأزمة الازدواج الثقافي بين الثقافة القبائلية الأصلية والثقافة الفرنسية المكتسبة، وانعكاس التشظي والتهميش على نفسية المرأة الجزائرية المندمجة بصفاتها أنثى أهلية ومستعمرة، وكائنا مهضوم الحقوق يعيش في مفترق الطرق بين تقاليد الشرق العريقة ومبادئ الغرب الحديثة، يتعثّر المسار مع كل خطوة في ظل تعقيدات الرغبة في التماثل واستحالة الاندماج.

صورت الكاتبة طاوس عمروش وهي الساردة المتخيلة ماري كوراي في رواية "شارع الطبالين" أحوال المجتمع القبائلي في مواجهة التنصير منذ أن باشرته الإرساليات التبشيرية في قرى بلاد القبائل الفقيرة لتصلها عن باقي مناطق الجزائر بحجة الخصوصية الثقافية. وإلتزام مهمتهم تعلم رجال الدين اللهجة القبائلية فكانوا يذهبون إلى التجمعات السكانية، و«يجمعون اليتامى الصغار ليربوهم مثل أطفالهم، ويعلموهم بمالهم الخاص، مع فرض دينهم، يقينا، فلا شيء عديم الاهتمام في هذا العالم»¹. طبق الاستعمار سياسة فرق تسد من خلال عملية التنصير، ففرق الدين بين العائلة الواحدة داخل البيت الواحد، وفرق بين الأقارب والجيران في القرية الواحدة، وفرق بين السكان الأهالي في البلد الواحد إلى فئتين غير منسجمتين، مسلمين ومسيحيين، تتحدى كل جماعة منفصلة جماعة أخرى تعاديهما في الدين، وعلى أثر ذلك خصصت أماكن للمقابر ولببوت العبادة وللمساكن. «انقسم البلد إلى قسمين يوم أن أتى المبشرون لتنصيره. مذاك، أعضاء عائلة نفسها ينظر بعضهم إلى بعض من ضفة إلى أخرى، يائسين من أن ينضموا إلى الأبد. هناك منذ ذلك الحين قريتان: قرية دوما على القمم، بنيت على يد الأسلاف، وأخرى في أسفل التلة، مثل عش صغير أنشأته يد الإرسالية البيضاء»². كان للمسلمين قرية

Taos Amrouche, Rue des tambourins, Editions Joelle Losfeld, Paris, 1996. p.85.

Taos Amrouche, Rue des tambourins, ibid. Pp.37,38.

-1

-2

ينتصب فيها مسجد، وللمسيحيين الكاثوليكين قرية فيها دير للآباء البيض والأخوات يتكفلون برعاية يتامى القبائل وتنصيرهم وتلقينهم الثقافة اللاتينية التي يحسبون أن الجزائر القديمة كانت جزءا من جغرافيتها.

تناولت انعكاس الإدماج الكلي في الثقافة الغربية لأسرة قبائلية اعتنقت المسيحية تعيش بين أفراد مسلمين إخوان في الدم وغرباء في الدين واللسان. نبذ سكان القرية هذه الأسرة المنتصرة فاضطرت إلى مغادرة البلد الأم إلى بلد آخر، إلى تونس واستقرت بحي الطبالين حيث يسكن غالبية العرب. تمثل الفئة المسلمة جيدة والده الأب، العجوز القبائلية التي ترمز إلى تراث الأسلاف، وراعية الرسمية للثقافة المحلية. امرأة متمسكة بالعادات والتقاليد، لا تفهم الفرنسية ولا تتحدثها، تسمع حديث ابنها مع أسرته فتثور ثورتها ويشد غضبها، «تهوي الكلمات ثقيلة وصماء، ولكن غير مفهومة بالنسبة إليها، إذ إن شارل ووالدي [هـ] كانوا يعبرون باللغة الفرنسية، هذه اللغة التي لم تكن تتحدثها ولا تفهمها، عجوز مسكينة»¹. ولا تكاد تستوعب الاختلاف الديني بينها وبين أسرة ابنها، ولا سبب التمزق الثقافي الذي تعانيه هذه الأسرة المسيحية في وسط محافظ على تعاليم الإسلام، ولم تهضم ترك اللباس التقليدي المحتشم الذي يرتديه القبائليون لحساب الزي الأوروبي الرامز إلى الانحلال. كانت يما (كارولين) ترتدي ثيابا على الطريقة الأوروبية إذ تلقت تكوينا فرنسيا. تزوجت مواطنها المنتصر أوغسطين، والتحق الأبناء الذين أطلق عليهم أسماء فرنسية بالمدارس العلمانية الاستعمارية لتنصهر الأسرة الموعودة لحياة أخرى، «فالعودة إلى الوراء كانت تبدو غير معقولة بالنسبة لهذه الأم الشجاعة»².

تشرح كوكا أزمة الهوية التي عانت منها عائلة إيعكورن داخل الوطن وخارجه، والتذبذب الحاصل داخل عائلتها القبائلية بعد تبنيها ثقافة الاستعمار، وتطرح صعوبة مسألة اندماجها فيه ومختلف انعكاسات الإدماج على أفرادها: «ينبغي القول، إن العائلة المخالفة للأعراف التي كنا

Rue des tambourins, ibid. p.27.

Ibid. p.47.

-1

-2

نشكّلها كانت تثير الفضول: من كنا؟ من أين أتينا؟ ما كان أصلنا وديننا؟ لم هذا التعارض بين الزوجين؟ هذه الهوة بين الجدة وبقية العائلة؟ الأب يرتدي شاشية، والأم تلبس على الطريقة الأوروبية، عندما تظهر صدفة، الذكور يتحركون برؤوس عارية (يرمون الشاشية والقبعة)، لكن الجدة تلتف في رداء مخطط في شكل حايك. الوالد رغم الشاشية يذهب إلى القداس، بينما تعترض يمّا على مرافقته، لكن الجدة كانت تحمل القربات إلى المرابطين¹. وتعارض زواج حفيدها شارل من إيما الفتاة الأوروبية المتحررة وتخشى عليه الانصهار في ثقافة الآخر وتختار له زوجة قبائلية لا يريدّها، وترغب في مغادرة مدينة الشيطان تينزي (تونس) التي غيرت عادات ابنها وأحفادها، فتنصلوا من ثقافتهم وأنكروا وطنهم. ولكن يمّا كارولين تعلم يقينا أن المسيحية استأصلتهم من جذورهم وفتتهم إلى الغربية، حيث يفضلون الوحدة مع الأجانب ولا يقبلون الإحساس بها بين ذويهم، فالانتقال المكاني أيضا يوحى بعدم الاستقرار الاجتماعي والصراع النفسي لهذه العائلة المتورنية، فكانت رهينة غربتين ومنفيين.

سلطت الأضواء على الأوضاع الاجتماعية الصعبة في بلاد القبائل في ظل الاستعمار، والتي دفعت عائلة إيعكورن المتكونة إلى التشتت بسبب انتشار البطالة والفقر، الهجرة إلى تينزي، وهجرة الابن الأكبر شارل إلى فرنسا للبحث عن وظيفة، ومعاناة زوجته إيمرود (زمرد) من التهميش في غياب زوجها، وخصامها الدائم مع حماتها يمّا (كارولين) التي تعتبرها غير مناسبة لابنها شارل. وتمثل زمرد بنت الجبل الأمية، والمرأة القبائلية المحافظة على العادات الموروثة مثل جيدة، تتجرع مرارة سوء المعاملة والتهميش وعدم البوح بحبها لزوجها وفق القانون الاجتماعي. أثرت الحالة التعيسة في حياة سكان القرى الذين عاشوا والحرمان والجهل والتخلف، وعانوا الأمراض والأوبئة، تجلى سوء العيش في البيوت الضيقة والمظلمة، تتكون من غرفتين بحصائر على الأرض، والثياب رثة ومرقعة مع قلة النظافة لانعدام الماء والصابون والمال لشراء

Rue des tambourins, op.cit. p.29.

1

ثياب جديدة، والأقدام حافية دوماً ويأكلون في صحفة واحدة ويشربون من قُلة واحدة، ورغم هذه المصائب الشديدة لم يغيروا دينهم إلا قليلاً منهم.

خصت الرواية مساحة لوصف تضاريس الطبيعة الجبلية الوعرة التي تتميز بها بلاد القبائل، وصعوبة الوصول إلى القرى النائية ورؤية سكان المنطقة إلا بشق الأنفس: «في تلك الفترة كانت زمرد تعيش في أسرار بلدنا، على يوم وليلة من سكة الحديد. للوصول إليها، كان ينبغي عبور الفوضى الدامية والزرقاء لجبال مسقط رؤوسنا، والقفز على السيول، والسير جنب الهوى، واجتياز الوديان. لمباغنتها كان ينبغي التحليق فوق الحدائق المعلقة، والطواف حول بساتين أشجار الزيتون والتين، يتعرض المرء للتمزق في حواجز نبات الصبار والألوا. وللمحها في حيويتها كان ينبغي اللحاق بها في الفجر، عندما تكون الجرة على الكتف، تذهب إلى ينبوع نوار الدفلى»¹.

تتجلى الثقافة الشعبية في عادات وتقاليد منطقة القبائل التي ترفض الزوال وتقاوم زحف الحضارة الغربية، وبقيت شاهدة على خصوصيتها الثقافية المحلية. تتمظهر في الزي التقليدي، حيث تلبس المرأة جبة طويلة وجواهر فضية وتضع على رأسها لفاعا، ويرتدي الرجل الجلابة والشاشية أو العمامة. في الأفراح يعد الكسكسي، والرجال يذبحون الخرفان، وتصدح الحناجر بالأغنيات الشعبية والزغاريد ويعلو صوت البارود.

في الفصلين الأولين رسمت كوكا (كوراى) صورة الصراع الحضاري الذي عايشته في محيط العائلة، وهي صغيرة، بين سلطتين متعارضتين التقليدية والحديثة، ومن خلال شخصيتي جيدة (جدة) ويمّا (أم)، تمظهر الانشطار بين عالمين مختلفين وجيلين متناقضين. ترمز جيدة إلى الماضي الموروث المتحكم في تفكير سكان القبائل، وفضاء البلد الأم والوطن بكل حمولته الثقافية الخاصة والمشدودة إلى الشرق والإسلام، في حين ترمز يمّا إلى المستقبل والتطور

Taos Amrouche, Rue des tambourins, ibid. p.26.

¹

الفكري، والاندماج في فضاء الآخر الفرنسي من الناحية العلمية، والانفتاح على ثقافة الغرب الأوروبي، ولكن مع الاحتفاظ بشيء من الأصالة دون الانصهار التام.

2.1.2- الخطاب المقاوم لسياسة الإدماج الاستعماري

1.2.1.2- التيار القومي البربري، "إدريس" لعلي الحمّامي

نشرت رواية "إدريس" Idris في 1948¹، وصفها مؤلفها علي الحمّامي² بأنها رواية شمال إفريقيّة³. يندرج خطابها في إطار التيار القومي المغاربي الذي تنتمي إليه الجزائر تاريخيا وثقافيا وجغرافيا مقابل التيار القومي العربي الذي يقاومه الحمّامي. ويندرج الهدف من تأليفها ضمن إحياء الهوية البربرية، التي كاد يفقدها سكان شمال إفريقيا بفعل الغزوات الأوروبية الاستعمارية المتتابة، دون قطع الصلة بالدين الإسلامي المتجذر في ربوعهم، والانتماء إليه مع التمسك بتراثه العريق، وعليه اصطلح على الشمال الإفريقي "المنطقة المغاربية" حيث امتزج العنصر العربي بالعنصر البربري، يردّ الكاتب بهذه الرواية على التيار العروبي الذي أراد أن يزعج بسكان شمال إفريقيا في بوتقة القومية العربية، عندما اكتسح هذا التيار الإيديولوجي المشهد السياسي والثقافي في المشرق العربي عند أنصار الفكر العلماني والاشتراكي الذي تزعمه العرب المسيحيون بداية من ثلاثينيات القرن العشرين.

وحسب الشيخ بوعمران كاتب المقدمة، «تحتل القومية المغاربية مكانة كبيرة في الرواية. يستذكر المؤلف الحقائق الرئيسية للمقاومة المغاربية منذ الغزو الاستعماري ويعرب عن ثقته في النصر النهائي»⁴. تروي الأحداث مسيرة البطل البربري إدريس منذ ولادته إلى وفاته البطولية،

¹ * كتبت رواية إدريس بين 1941 و1942 وتأخر نشرها إلى غاية 1948. حرر مقدمتها كلا من عبد الكريم الخطيبي من المغرب الأقصى في 1948، وبوعمران الشيخ من الجزائر في 1976.

² ** علي الحمّامي 1902-1949 ولد في تيارت وأصله من قرية عين الحمام ببلاد القبائل، هاجر إلى مكة واستقر بالقاهرة في 1922 خلال الحقبة الاستعمارية.

³ Aly El Hammamy, Idris, Roman nord-africain, Entreprise nationale du livre, 2Edition, Alger, 1988.

⁴ Aly El Hammamy, Idris, Roman nord-africain, ibid. p.12.

راصدة كل المحطات الكبرى التي مرّ بها انطلاقاً من تيزيران بشمال مراكش حيث ولد، مع استعراض مستفيض لتاريخ أجداده البربر في بلاد المغرب الكبير، وعلائقها الاجتماعية الوشيحة عبر الزمن من القرطاجيين والبونيقيين، وشخصيات حنبعل وسيفاكس وماسينيسا، تربطهم الثقافة البربرية وعشقهم للحرية بسلسلة جبال تمازغا الممتدة، يبدأ الأطلس الكبير من مراكش ثم الجزائر فتونس. يعدد السارد خصائص المنطقة المغربية التي جلبت إليها أطماع الأمم الأجنبية بداية بامبراطورية روما وبيزنطة، وانتهاء بالاستعمار الفرنسي الذي يندد بوجوده ونظامه السياسي القهري، «هذا التنديد بالنظام الاستعماري يرافقه انتقاد للمجتمع المغربي ومؤسساته وتخلفه. من خلال تعليم إدريس، من المدرسة الابتدائية؛ حتى الجامعة، إن نظام التعليم التقليدي هو ما تمّ تحليله ونقده»¹.

تتموقع الجزائر في الرواية باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من المنطقة المغربية ذات الأصل البربري الموحد لجميع أقطارها والمصير الواحد، والمصالح المشتركة بينها، وتُذكر الأحداث الاستعمار الفرنسي بأن هذه الشعوب كانت دوماً تأبى الذوبان في الثقافات الأخرى التي سبقته، «بالكاد لمست الثقافة اللاتينية بضعة أجزاء منعزلة من السكان البربر الذين ظلوا، بشكل عام، يقاومون أي محاولة للاندماج. وظلت جبال الخمير والأوراس وجرجرة والونشريس والأطلس المراكشي صامدة!»².

إن الجهود التي قام بها نظام التعليم الفرنسي الاستعماري ومن ورائه رائده لويس برتران وأتباعه راندو ودوشان لتشويه تاريخ الشرق والإسلام في هذه المنطقة وإحاق البربر بالثقافة اللاتينية قد فهمت مقاصدها جيداً، ولم تزد الأهالي إلا تشبثاً بأصالتهم. كذلك كان صمود أسلافهم البربر ضد سطوة الرومان مثلما فعل يوغرطة، ودونات البربري الذي ظل أصيلاً وقاوم تعنت الكنيسة الرومانية وسياستها التعسفية. ولهذا استنسخ الكاردينال لافيغري نهج القديس

Idris, Roman nord-africain, ibid.

Ibid. p.28.

-1

-2

أوغسطين الموالي للرومان في تنصير الجزائريين، خادما المصالح الفرنسية تحت غطاء الدين، وتابع الأب شارل فوكو المسار نفسه، فامتزج الدين بالسياسة في خدمة الإمبريالية الفرنسية. كانت التجربة النموذجية الأولى للتنصير في منطقة القبائل، تبدى خلالها كيف «فضل المبشرون إغراء القبائليين. ترك هوراس فيرني لوحة قداس في منطقة القبائل يظهر فيها الأب سوشي¹، قسيس الجيوش، بالفعل مرتدياً رداء أبيض شهيراً. رمزية مبكرة لفكرة كانت ستشهد النور!»².

قارن السارد بين سياسة الرومان في إخضاع البربر وسياسة الفرنسيين مع الأهالي فوجدها متشابهة، ووجد المواقف ذاتها من سكان شمال إفريقيا ضد الاحتلال، وأن المندمجين الذين فضلوا الانحياز إلى الطغاة ضد ذويهم كانوا دوما فئة قليلة كالقديس أوغسطين والأمير يوبا الثاني، أرادوا أن يبهروا سادتهم بأنهم قادرين لبلوغ مستواه، مثلما هي الحال مع شريحة الأهالي البورجوازيين، النبلاء والمرابطين وشيوخ القبائل الموالين والقومية، ومنهم الكتاب الذين شكلوا النخبة المحلية المثقفة. ولم تفته الإشارة إلى الكتاب الفرنسيين الذين أيدوا حكومتهم في مشروع استعمار الجزائر في القرن التاسع عشر، وشجعوا على استغلال ثرواتها لإنقاذ اقتصاد فرنسا من التدهور مثل فكتور هوغو ولامارتين، فقد كان هوغو يناضل من أجل حقوق الإنسان في فرنسا وأوروبا، ولكنه لم يندد بالقمع الاستعماري ضد الجزائريين، وما فعله كبار قادته من تخريب وحرق وقتل، ولم تُجد محاولة نابليون "إمبراطور العرب والفرنسيين" آنذاك لتحسين وضع الناس. أحداث بشعة ميزت تاريخ فرنسا الأسود، فرغم تغيير الحكام ظلت سياسة فرنسا بلد شعارات حقوق الإنسان تجاه إفريقيا لم تتحرك. سادت سياسة الإقصاء والنفي والإبادة التي انتهجتها في الجزائر في كل مراحلها من 1830 ليتبين للمتلقي الفرنسي مأساة الجزائريين في العهد الاستعماري، ومعاناته بتطبيق سياسة الكيل بمكيالين: «يبجل زولا في فرنسا بينما في إفريقيا

¹* خدم الأب جاك سوشي l'abbé Suchet 1795-1870 كنيسة إفريقيا في الإقليم القسنطيني حالما بتحقيق "الرسالة العربية" الفاشلة، ورافق المارشال راندون كقسيس رئيس للجيش الإفريقي في الحملة على منطقة القبائل في 1857.

² Idris, ibid. p.311.

يضطهد مقلدوه. في فرنسا، يلهم العقد الاجتماعي عمل البرلمان الحر ذي السيادة بكامل حقوقه، بينما يقمع بصرامة السكان الأصليين في إفريقيا، على غرار قوانين العبودية التي كانت تحكم سلم روماننا. في فرنسا تُولف وتقرأ وتنتشر جرمينال. في إفريقيا، يُحظر حق التفكير والكتابة»¹.

جعل السارد من شخصية إدريس ووالده الحاج علال بطلين مغاربيين يمثلان عقلية إنسان المنطقة الحر والمتشبث بالإسلام الصحيح مبتعدا عن بدع الطريقة التي نشرها الفاطميون، ومن شمال إفريقيا أو المنطقة المغربية وطنا واحدا، ومن سكانها شعبا واحد متماسك الوشائج، متلاحما ومتزاحما أينما كانوا وحلوا، وأن ما يربطهم أقوى مما يفرقهم، فالاختلاف البسيط يمثل تنوعا لا يكرس الخلاف، ولا يفسد أواصر القرابة والمحبة بين الناس المتماثلين والمنتمين إلى الهوية نفسها والأصل ذاته. وقد تجلى هذا التصور في مشاهد تلاقي هؤلاء المغاربيين في المشرق العربي مع إخوانهم الذين هاجروا بلادهم بسبب ظلم الاستعمار، يشدهم الحنين إلى مسقط رأسهم، فتفيض عيونهم بالدموع شوقا لرؤيتها: «مدن المنطقة المغربية مغبرة وملتهبة تموج في الذكريات مثل دفقات المرح. أم الربيع، والكتبية، وسهول الحوز، وفاس ومياه سيبو المسكونة، وبساتين تلمسان، وحدائق المتيجة، وقمم جرجرة، ومدينة الجزائر البيضاء، وتونس الخضراء، وجنائن النخيل في الجنوب، وواحات بني مزاب الخمس²*: كل هذه الصورة الوطنية تدور أمام أرواح غزتها فتنة موسيقى جرفت في نواتها سيلا من الحنين العذب»³.

لقد تناولت الرواية أهم القضايا التي ميزت حكم الاستعمار الاستيطاني بالجزائر، مثل قضية تهجير الجزائريين وإبعادهم عن بلادهم بسبب الظروف المزرية، وتجنيدهم في حروب غيرهم كحرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية، راح ضحيتها كثير من الجنود الجزائريين دون تعويض أو مقابل. تجسدت في شيخ قسنطيني اضطر إلى البقاء للعمل في مصر، يستذكر

¹ Idris, Roman nord-africain, op.cit. p.279.

² * الواحات الخمس هي: غرداية، ومليكة، وبني يزغن، وبونوارة، والعطف.

³ Ibid. p.75.

بدموع حارة وهو يحن إلى مدينة قسنطينة ووادي الرمال، تجنيده في هذه الحرب، ومشاركته في هجوم ملاكوف وحفر قناة السويس، ولكنه لم يحصل على شيء. ويتذكر الحاج بشير وهو في استنبول بلاد القبائل مكان مولده الذي فقدته بكثير من الألم.

تبلورت مسألة نزع حيازة الأرض من مالكة الأصلي من خلال قصة رجل مراكشي من تافيلالت هرب من قيود التضيق في بلاده فمر بعين تموشنت واستقر بالبليدة حيث تحصل على العمل في حقول البرتقال في سهول المتيجة. كان مالكة قبائليا تعرض لمضايقات شديدة من قبل إدارة المكتب العربي، ليتم التنازل عنوة على الأراضي لصالح المستوطنين الوافدين من كل أرجاء أوروبا هروبا من القهر والفقر للاستقرار في الجزائر، وكانوا يفضلون أراضي المتيجة الخصبة التي «تعد جنة عدن شمال إفريقيا»¹. بعد مدة من العمل الشاق والكد اشترى الفيلاي بستانا متواضعا، لكن الضابط المدني وإداري المكتب العربي المنحدر من بروتانيا حاول مرارا إغراءه للحصول عليه بشتى الطرق، فأذعن تحت التهديد مقابل جواز سفر إلى بلاد المشرق.

هؤلاء المستوطنون هم فرنسيون جدد من شتى الأعراق الأوروبية، اكتسبوا الجنسية الفرنسية كشرط جوهري لتكوين عرق جزائري جديد، فحوّلهم الاستعمار الفرنسي إلى أغنياء وبورجوازيين، ومنحهم امتيازات كبيرة على حساب سكان البلاد الأصليين الذين تدنوا إلى مرتبة "الأهالي". «ولما كانت زراعة الحمضيات تعود بفائدة عظيمة على الغارسين، كان من المؤكد أن يتنازل "الأهلي" على الخطوة للمستوطن. وهذا يتأطر تماما مع سياسة الاستيطان التي تمثل ركيزة الهيمنة الفرنسية على شمال إفريقيا. وما يحدث في البليدة، يحدث أيضا في كل المنطقة المغربية»²، ولكن غالبية الأوروبيين كانوا يفضلون الجزائر كمكان للعيش. ومن نماذج المستوطنين البورجوازيين قصة عائلة فرنسية من بورغوني يشتغل الزوج موثقا، جاء إلى الجزائر

Idris, ibid. p.86.

Ibid. p.76.

_1

_2

واختار سهل المتيجة، وبين عشية وضحاها تحصلت العائلة على فيلا ومساحة من الأراضي الخصبة من أجل تأمين مستقبلها.

حضرت في رواية "إدريس" صور رائعة لتلاقي وتلاقح ثقافيين بين المغرب والمشرق من خلال الطلبة المغاربة الذين كانوا يسافرون إلى مصر للدراسة في جامع الأزهر، بحيث خصص لهم رواق سمي باسم "رواق المغاربة"، وفي حارة الفحاميين في القاهرة، حي تجاري امتداد لأسواق فاس وتلمسان، استقر به المغاربة ونشروا فيه تقاليدهم وعاداتهم المتجلية في أصناف الطبخ المعروفة مثل الكسكسي والشكشوكة والبوزلوف، وراجت الحلويات التونسية. كما سجل حضور التعانق اللساني بين البربرية واللغات الأخرى، والتعدد اللغوي الذي مزج بين اللغة الفرنسية، وبعض التعبيرات البربرية مثل أزرف(الحق)، والكلمات العربية ذات الأبعاد المختلفة الدينية كالصلاة والزكاة والحج، وغيرها من الملامح الاجتماعية.

2.2.1.2-التيار الديني المحافظ، "لبيك"، حج الفقراء "لمالك بن نبي

يعد ابن نبي كاتباً إسلامياً نهضوياً، ومن أعلام التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، إلا أن الكتابة في الفكر الديني بدأها بعمل روائي استعجالي، وبث آراءه حول مسألة الإدماج كما طرحها الاستعمار في "لبيك" Lebbeik، كأول وآخر رواية ألفها المفكر عام 1947، عقب كتابه العلمي الأول "الظاهرة القرآنية" في 1946، ثم تبلورت رؤيته إلى أحوال المجتمع الإسلامي مفصلة في كتابات أخرى فكرية وفلسفية. «يركز كتابه "لبيك" بشكل كبير على الروحانية وكيف يمكن للإسلام أن يغير حياة الرجل عندما تقترب رحلته إلى مكة. بالنسبة إلى ابن نبي، للدين مكانة مركزية، فهو ظاهرة كونية تحكم الفكر والحضارة الإنسانية»¹.

¹ - Jamel El Hamri. "L'idée religieuse" dans l'œuvre de l'intellectuel algérien Malek Bennabi (1905-1973): une injonction pour la société musulmane de faire l'Histoire. Religions. Université de Strasbourg, 2018. p.122. <https://tel.archives-ouvertes.fr/tel-02945039>

تتطلق هذه الرواية من فكرة دينية أخلاقية جوهرها ضرورة العودة إلى الإسلام الصحيح، والمبادرة بالتوبة ونبذ مغريات الحضارة الغربية التي ابتليت بها الأمة الجزائرية نتيجة الاحتلال الفرنسي، وانعكاس المدنية الحديثة على أخلاق الناس ومصائرهم تحت قبضة الآخر الأوروبي الذي بت وصال المجتمع. تجسدت الفكرة في رحلة متخيلة من عنابة إلى البقاع الإسلامية المقدسة كآخر محطة روحانية يتوقف عندها الإنسان المسلم في مسيرة ممارسة العبادة، وتتجه إليها النفس المؤمنة لتلبية نداء الله مردّدة بالقلب واللسان "لبيك اللهم لبيك". يحيل العنوان "لبيك، حج الفقراء" إلى فريضة الحج عند المسلمين، وهي آخر ركن من الأركان الخمسة التي يقوم عليها الإسلام، وتتطوي عبارة "لبيك" على حمولة دينية تقضي إلى ممارسة طقوس الخضوع والانقياد والاستسلام التام لرب السماوات والأرض في مكة في موسم الحج الأكبر، وتمثل مكة عند بن نبي الاتجاه صوب الشرق مركز الإشعاع الحضاري الإسلامي.

تدور الأحداث إبان الاستعمار الفرنسي في مدينة عنابة (بون، أو بونة)، وكانت آنذاك مدينة ذات شكل هندسي أوروبي، ونمط معيشي غربي، وقد اجتاحت مظاهرها كل المدن في القطر الجزائري. يعيش في هذه المدينة الساحلية الأهالي الجزائريون حياة اجتماعية صعبة، لا سيما بين الحريين العالميتين. تُفتتح الأحداث بالتعريف بالفلكلور الجزائري المتأثر بالتراث الشعبي الإسلامي، تعمد الكاتب وصفه وهو يستهدف القارئ الأجنبي، وورد ذلك في نص رسالته إلى ناشر الرواية، جاء ذكرها في المقدمة: «لقد أردت أن أمسّ جزءاً مهماً من الفلكلور الجزائري، لذلك بدا لي أن مقدمة قصيرة تعد ضرورية حتى نستطيع وضع القارئ الأجنبي في أجواء الحج في الإسلام، فالإنسان يقترح والله يدبر...»¹.

يتجلى في الرواية صورة عالمين متناقضين في المجتمع الجزائري المسلم، الفساد والصلاح بين مختلف شرائح الناس. وتتمظهر فئة السعداء المحافظين على الأصالة والثقافة المحلية في

¹ - مالك بن نبي، لبيك، حج الفقراء، تر: زيدان خوليف، دار الفكر، دمشق، 2006، ط1، ص26.

شخصية عمي محمد، وحجاج بيت الله، وفئة التعساء المندمجين في الحياة الغربية المعاصرة مثل إبراهيم السكير وصاحبه من متشردي المرفأ. تصف بداية الأحداث أجواء مناسبة الحج حسب تقاليد الجزائريين، تزامن موسم الحج في تلك السنة فصل الربيع وقت نضج الثمر وتفتح الزهر للدلالة على الأمل في تغير الأوضاع الذي مهد له انتشار الوعي وبوادر النهضة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. تنقل الحجيج إلى بيت الله من كل ربوع الإقليم القسنطيني إلى مدينة عنابة حيث تنتظرهم باخرة تقلهم على متنها عبر بحر المتوسط مرورا بتونس وبور سعيد المصرية إلى البحر الأحمر للولوج أخيرا إلى جدة، رفقة حجاج آخرين من أقطار شمال إفريقيا تربطهم الأخوة الإسلامية.

كانت المدينة أثناءها تعيش عرسا رائعا وحركة غير عادية ابتهاجا بالحدث الديني العظيم، إذ هبت العائلات العنابية تتنافس بسرور على استقبال ضيوف الرحمن قبل مغادرة البلاد، واستضافتهم في بيوتها. يتشرف أهلها بتقديم الطعام قبل توديعهم يحملونهم أمانة الدعاء لهم، راجين أن يكتب الله للمخلفين حجة في الموسم المقبل. «فالحاج ليس ضيفا عاديا، لذا يجب أن تحفظ أصول الضيافة معه فحتى عجائز الدار يخصصنه باستقبال حار مفعم بأجواء عائلية وكلهن حزن شديد لأنهن لم يفزن بسعادة غسل عظامهن بماء زمزم»¹. ومن العادات الشعبية الحميدة التي تشهد بتميز الجزائريين هي الذهاب إلى الحمامات لتنظيف أجسادهم من الأوساخ، فالمسلم ينبغي أن يكون طاهر البدن صافي السريرة. إلى جانب استحضر لعبة البوقالة التي تشتهر بها النساء، يجتمع حولها الفتيات في سن الزواج طلبا للفأل والتسلي وقت السهرة، وهي مظهر من مظاهر التطور الثقافي في المدن الجزائرية. وذكر أصناف الطبخ الجزائري كالبقلاوة للأغنياء، والرفيس للريفيين، والمقروض لقاطني المدينة والفقراء، حسب التفاوت الطبقي.

¹ - مالك بن نبي، لئيك، حج الفقراء، م س، ص 29.

وكانت الإشارة إلى التراتبية الاجتماعية من حيث تبدي النقص الفادح في الثقافة والعلم مقابل انتشار الجهل، وظهور مثقفين أهليين مزدوجي اللغة يدافعون عن هويتهم وشخصيتهم. وتبلور قضية الاختلاف الثقافي بين الأنا والآخر في الحوار الراقي الكاشف للقيم التسامح والتعايش، والذي عمد إليه الكاتب عبر شخصية الرجل العربي ذي الطربوش الأحمر لتصحيح التصور الذهني الخاطئ الذي ترسخ في عقل الفرنسي عن الإسلام والمسلمين، ومن ثمة تبينت العلاقة الجدلية المعقدة بين الجزائري الأهلي والمستعمر الفرنسي، وتعدت إيديولوجيا المركزية الأوروبية المتعالية على ثقافة الشرق. يصور الكاتب طبقة الأهالي البورجوازيين الذين عاشوا حياة الترف والفراغ في ظل الموالة للاستعمار، ثم انقلبت حالهم بعد الحرب العالمية الأولى. جسدت هذه الطبقة شخصية إبراهيم الفخّام ذي الملامح الكاشفة عن أصوله الحضرية، والمنتمي إلى الوسط البورجوازي الإسلامي في الجزائر، تربي على التعاليم الدينية والتراث الإسلامي والاعتزاز بالنفس، ولكن الظروف المتردية في الجزائر أثناء الحرب كانت أقوى منه. ففي خضم أجواء الاحتفاء بالذهاب إلى الحج، وفرحة الحجيج وسط صوت صفارات البواخر في الميناء، بدأ بطل الرواية إبراهيم منحرفاً عن الطريق المستقيم، يتعاطى الخمر بشكل مفرط حتى أنه كان يلقب "بوقرعة" (صاحب قارورة خمر)، ويتناول طعامه مثل المتشردين في مرفأ عنابة. يقف أمام دكانه مخموراً هو وصاحبه المستلقي على أديم الأرض من أثر السكر. دخل إبراهيم دكانه المليء بغبار الفحم لينام في ركنه على سرير حقير ثملاً متعباً، وفي نومه المضطرب رأى نفسه بلباس الإحرام ملتبياً يطوف حول الكعبة.

كان هذا الحلم المرير والليذ في الآن ذاته صيحة تحذير لإبراهيم، ونقطة روحية من حياة البؤس والرخص إلى الشعور بالخطيئة والندم على ما بدر منه من تفريط في الدين والنفس، والخجل من الوضع الذي وسمه بالانحراف فكان وصمة عار على جبينه بعد وفاة والديه الكريمين. إنه يمثل شخصية الفرد المتشرد، الفاسق وغير السويّ، الذي على «هامش مجتمعين

مسلم وآخر أوروبي»¹. هي صحوة ضمير من شخص مستعمر تبرا من التبعية للاستعمار، ولم يستطع أن يندمج في ثقافة الآخر.

من خلال سلوك زوجة إبراهيم زهرة المتدينة، التي انتهى بها الأمر إلى قرار الخلع بسبب إصراره على الانحراف، يميظ الكاتب اللثام على بعض التقاليد البدائية المتوارثة في المجتمع الجزائري المسلم، والتي كانت لصيقة في نظر الناس بالإسلام وهي غريبة عنه. ينتقد ظاهرة الشعوذة وهو ما يعرف عند الجزائريين بـ "القرّانة"²* التي تمارسها الغجريات في شمال إفريقيا، وأعمال السحر والتبرك بالأضرحة، وممارسات أخرى مستمدة من العادات الدينية المسيحية كإشعال الشمع، وكانت رواسب عملية التصيير: «كانت هادئة لأن "قرّانة" أي قارئة الحظ أنبأتها في الصباح أن معجزة ستقع في حياتها التي تتألم منها كثيرا، وأن سبب معاناتها سيزول. كان هذا شغلها الشاغل فكم من مرة كانت تنتقل إلى القبة لكي تشعل شمعة على أمل أن ينتهي سبب معاناتها: فسوق إبراهيم. فلسنوات عديدة، كانت مع (القرّانات) تجدد أملها»³ في أن يتوب زوجها ويعود إلى حياة الجد والاستقرار.

تلقى أبطال الروايات الأهلية تعليما مزدوجا في المدرسة الإسلامية التقليدية ثم في المدرسة الفرنسية الحديثة، لكن بدا تفاعلهم بالثانية سريعا وعميقا، وكان أثر الاندماج واضحا في ميل أفكارهم لصالح رسالة الاستعمار المتحضرة، ومحاولة تغيير عاداتهم البالية، والسعي لرد الجميل بإعلان الولاء والإخلاص. و«على الرغم من أن الجزائريين الذين تلقوا تعليمهم الفرنسي حاولوا جاهدين إقناع شعبهم بأن الغرض الفرنسي كان فقط توفير حياة أفضل لهم وإخراجهم من جهلهم،

¹ - لبيك، حج الفقراء، م س، ص 45.

²*القرّانة"، لفظ بالدارجة الجزائرية مأخوذ من كلمة فرنسية tzigane أي العجيرية، وتعني قراءة الكف، وقارئة الكف.

³ - لبيك، حج الفقراء، م ن، ص 47.

إلا أن جهودهم كانت محكومة عليها بالفشل، مما يعني أيضًا فشل دورهم بصفتهم الشخصية وسطاء بين "المتحضر" و"غير المتحضر"¹.

عنوان الرواية	البطل	التعليم التقليدي	التعليم الفرنسي
مامون، أو مشروع مثل أعلى	مامون	تعلم في المدرسة القرآنية اللغة العربية وحفظ القرآن	اللغة الفرنسية وآدابها وفكرها العلماني
بولنوار، فتى جزائري	بولنوار	تعلم العربية وحفظ القرآن	اللغة الفرنسية وثقافتها وفكرها العلماني
ليلي، فتاة من الجزائر	ليلي	تربت على التمسك بمبادئ الدين الإسلامي	الانفتاح على الديمقراطية الغربية والعلمانية.
عزيزة	عزيزة	التشبث بتعاليم الدين الإسلامي	الانفتاح على الديمقراطية الغربية والعلمانية.
هند، ذات النفس الزكية	ناصر	تعلم العربية وحفظ القرآن كاملا، وقراءة سور على أرواح الموتى وفقا للعادات.	الانفتاح على الحضارة الغربية ومبادئ العلمانية.

جدول رقم (12)

خلاصة هذا الفصل تتمحور حول هذه الروايات المدشنة لأدب الأهالي، مرتكزة على السياق الاجتماعي والثقافي والتاريخي. إنها صورت درجة الاحتقان التي بلغها الوضع بين الطائفتين، الجزائريين الأهالي والمستوطنين، إلا أن بواكيرها كانت شبيهة بالنماذج التي كتبها فرنسيو الجزائر لخدمة إيديولوجيا الاستعمار. طرحت مسألة الهوية بحدة بطرق مختلفة ولكن حسب توجهات الكاتب واقتناعاته، وكشفت دور المدرسة الفرنسية والتكوين العلماني في تأطير الشباب الجزائري الذي تبنى لاحقا أطروحة الإدماج التي قدمتها السلطة الاستعمارية، وتبين أن أطروحة

¹ Zahia Smaili Salhi, Themes in the Francophone Algerian Novel, op.cit. p.63.

الإدماج هذه مجرد خطاب إيديولوجي بلاغي واستعلائي، انساق وراءه بعض الاندماجين الأرسقراطيين الذين وجدوا فيه سبيلا ممهدا للحفاظ على مركزهم الاجتماعي، أو للحصول على مزيد من الامتيازات السياسية، فجاءت أعمالهم استنساخا للأدب الغرائبي. وأدرك بعضهم الآخر أن الوعود بتحقيق المساواة وهم وسراب خادع، لا صلة له بواقع الممارسات البشعة التي تتناقض مع هذا الخطاب المداهن، والمراهن على ديمومة الهيمنة. فلم يحمل مشروع الإدماج أي تغيير مدروس في الأفق، أو تطوير ملموس لوضعية الأهالي البائسة، بل كرس السيطرة الفرنسية على الجزائر بشكل آخر، فأضفى الشرعية على جشع الاستعمار الإمبريالي، وكشف عن انحطاط النزعة الإنسانية التي قام عليها الفكر الغربي المبكر من أجل ترقية الإنسان والاهتمام بتطلعاته. وعلى كل حال يمكن القول بأن أعمال الأهالي الأولى رغم المحاكاة والتقليد فقد تميزت بجمالية خاصة طبعتها الثقافة المحلية فاختلفت عن أعمال الكتاب المستوطنين.

1- من أجل إثبات الهوية الجزائرية: 1950-1957

نشط التأليف الروائي باللغة الفرنسية عند الجزائريين (الأهالي) عقب الحرب العالمية الثانية لعدة عوامل أهمها، "مدرسة الجزائر" التي فتحت منافرها للكتاب الجزائريين منذ 1946 لنشر أعمالهم والتعبير عن مواقفهم على غرار جرائد "ضفاف" 1938، و"عين" 1939، و"مسابك" 1946، و"الجزائر الجمهورية"، وبفضل كتابها الملتزمين مثل إيمانويل روبلس وجول روا الذين مدوا لهم يد العون، لا سيما أن «النقاد الفرنسيين كانوا يتحدثون عنهم بشيء من الاعتزاز أحيانا باعتبار أدبهم ما هو إلا نتاج (مدرسة الجزائر) الأدبية الفرنسية»¹. كان بعض المثقفين الفرنسيين اليساريين المعادين للاستعمار، يشجعونهم على النضال مثل جان بول سارتر وجريدته "الأزمة الحديثة"، وحامل الحقائق فرانسيس جانسون؛ وصعود التيار الوطني الذي شكل مصدر إزعاج كبير واستفزاز قوي للسلطة الاستعمارية مع الجيل الثاني الذي تحمّل مسؤولية الرد على هجومات الكتاب الاستعماريين بفضل الوعي المكتسب من المشاركة في الحرب العالمية عند احتلال باريس في 1939 والذي هزّ الفرنسيين أنفسهم فذاقوا مرارة الغزو الألماني وذل الاحتلال، الأمر الذي دفع بالمتجزئين إلى التخلي عن النزعة العنصرية، «قالنخبة المتجزئة» أصبحت في حريتها وكرامتها مهددة، بدأت أخيرا تدرك وضعية الجزائري، التي أصبحت وضعيتها. لم يعد الأدب المتجزئ مستساغا. تحولت النصوص الموجودة إلى حالة ضمير. فتراجع راندو عن الأفكار العنصرية، واعتذر»².

في خضم هذه التحولات حمل هذا الجيل لواء إثبات الذات والصراع المرير مع مكائد الإدماج، وحرص على مطلب الاعتراف بالهوية الجزائرية، والاهتمام بمختلف مشكلات الإنسان الجزائري المضطهد وتناقضات الحياة في الجزائر المستعمرة. ويختلف هذا الجيل عن الجيل الأول رواد

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، م س، ص 157.

² - Omar Mounir, Dans l'intimité de l'écriture: essais, Marsam Editions, 2007. p.25.

أدب الولاء والتطبيع في المرحلة السابقة في التركيز على مسائل مصيرية تتجلى في الهوية الوطنية والانتماء الشرعي للأرض المتنازع عليها، وبيان الخصوصية الثقافية للشعب الجزائري الذي أظهر صلابة مذهلة أمام تعنت الاستعمار الفرنسي، وتماسكا متينا جعله لم يتقبل الانصهار في الثقافة الدخيلة، ولا التنصل من ثقافته الأصيلة.

أدت تلك الظروف السياسية الملتهبة إلى نمو الوعي الوطني لدى الشباب المتعلم الذي ولد من برنوس المعاناة فهب لمقارعة الاستعمار بلغته التي لم ينجح طيلة وجوده في فرضها على الشعب الجزائري، وتحويل مساره ومصيره مثلما حدث لهنود أمريكا، ومن ثمة «يصبح الموضوع الغرائبي عندئذ هو المستوطن الفرنسي تحت أنظار ساردي الرواية الجزائريين»¹. وقد أسهمت هذه الأعمال الروائية، بلا ريب، في ترجمة أفكار الكتاب المنددة بالصدمة التي عاشوها، وإسماع أصواتهم وتأكيد مواقفهم الملتزمة إزاء قضايا الأمة الجوهريّة، ونضالهم المستمر ضد قوى الاستعباد والاستبداد، من أجل استرجاع الكرامة المهضومة. وبثت صورا رائعة لقيم الصمود والتحدي في الجزائر، وتصدي الشعب الجزائري لعمليات الإبادة الجماعية الممنهجة في أواخر العهد الاستعماري.

1.1- تصوير معاناة الأهالي مع المستعمر في سياق إثنوغرافي

مولود فرعون أحد الكتاب المنتمين إلى جماعة الشباب الجزائري "المتطورين" "évolués"، درس وتخرج من المدرسة الفرنسية. اهتم بشؤون مجتمعه الذي كان يزرع تحت نير الاستعمار، وصور وضعية قرى بلاد القبائل النائية التي تعيش على حافة اليأس وخارج مجال الحضارة، ورصد حالة الفرد القبائلي الذي كان يحيا فترة انتقالية من السبات والخمول إلى يقظة الوعي، آذنت بالخروج من دائرة التخلف والجهل في الخمسينيات من القرن العشرين في رواياته الأولى، ثلاثية القبائل "ابن الفقير" 1950، و"الأرض والدم" 1953 و"الدروب الوعرة" 1957.

Charles Bonn, Kateb Yacine: Nedjma, 1ère édition: Paris, PUF, 1990. p.22.

-1

فرعون أول كاتب جزائري يسخر قلمه للتعبير عن بؤس الأهالي في الريف الجزائري ومتاعب العيش وآلام تقلباته الفظيعة في رواية "ابن الفقير" Le fils du pauvre . وهي، حسب الناقدين ماتيو-جوب وروبير الباز، «أول رواية مؤسسة للأدب المغربي. أدب أهلي يتميز عن الكتابات الغرائبية وبالأحرى عن الكتابات الاستعمارية التي أنتجها الكتاب الفرنسيون الذين استولوا حتى الآن على المرجع المغربي»¹. وفي السياق الرد على المستوطنين بعث مولود فرعون إلى صديقه الكاتب إيمانويل روبلس موضحا موقفه من نظرة كتاب الاستعمار إلى الأهالي: «لقد كنتم أول من بادر بالقول: ها نحن من نكون، من جهتنا ها نحن نرد عليكم قائلين: ها نحن من نكون، وهكذا بدأ الحوار بيننا»².

تتموضع ابن الفقير ضمن الرواية السير ذاتية، إذ إن ملامح بطلها فورولو منراد ووضعيته الاجتماعية تتقاطع مع حياة الكاتب إلى حد بعيد. يتبدى الملمح السيري في شخصية فورولو من الفعل "إقر" باللهجة القبائلية، أي المخفي من نظرات العيون الشريرة. ويجسد البطل صورة الفتى الجزائري القبائلي الطموح، الذي يحلم بالمراتب العليا مثل أي إنسان مقبل على الحياة الكريمة، حريص على مستقبله، لكنه يسخر من طموحه الزائد لأن الاستعمار يأبى للأهلي أن يرتقي إلى مصافه، ويريده نصف أمي، أي أن يتعلم قليلا فقط ويطيع كثيرا ليكون خادما أميناً للمستعمر، لا مثقفا شجاعا يسعى لتطوير شعبه، أو مسؤولا كبيرا ينافسه في تدبير شؤون أمته. فاكتفى بأن يكون معلما بسيطا في قريته التي عمها الجهل والشقاء، ويتولى تدريس أبنائها لغة المستعمر ويلقنهم مقومات ثقافة أجنبية رغم أنه.

كان فورولو يرى نفسه محظوظا ومتميزا عن أترابه الذين فاتهم قطار التعليم، أحس بالسعادة لما دخل المدرسة الفرنسية، ليتعلم ويمحو عقدة الأمية والشعور بالدونية. مدحه المستعمر الذي

¹ Voir: Farida Boualit, « L'école française dans le fils du pauvre de Mouloud Feraoun: Rite de passage ou rite d'institution? », Multilinguales [En ligne], 1 | 2013, mis en ligne le 01 juin 2013, consulté le 22 mai 2021. URL: <http://journals.openedition.org/multilinguales/2904>; DOI: <https://doi.org/10.4000/multilinguales.2904>

² -نقلا عن أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، م س، على الهامش، ص254.

أتاح له ذلك في إطار ضيق طمعا في الحقوق، لا يؤشر في اندماجه مثل غيره من دعاة الإدماج. فلم يتنكر لأهله ولثقافته بل يركز على إبراز اختلافها وتميزها عن الآخر، وينتابه شعور عميق بالمسؤولية تجاههم. وعلى هذا الأساس يقوم الكاتب بدور المقاوم لثقافة الآخر وكسر ادعاء هيمنة الثقافة الفرنسية على بلاد القبائل، والجزائر بصفة عامة، أليس هو القائل: "أكتب بالفرنسية وأعبر بالفرنسية لأقول لفرنسا بأني لست فرنسيا"؟ يتحدث عن التقاء الثقافتين في مدرسة القرية حيث كان يدرّس معلمان قبائليان يرتديان بذلة فرنسية تحت برنوس رقيق وأبيض ناصع.

تطرقت "ابن الفقير" إلى تصوير علاقة المجتمع القبائلي بالأرض. رغم أن بعضهم عدّها رواية إثنوغرافية موجهة لإرضاء المتلقي الغربي، كُتبت لتصف مناظر الطبيعة الخلابة في منطقة القبائل، وحياة السكان اليومية، والعائلات والعلاقات المختلفة والمتشابكة، والعادات والتقاليد. اهتمت بواقع سكان قرية تيزي جمعهم الفقر والعزلة في أعالي الجبال، يعيشون من خدمة الأرض ورعي الأنعام. يكبر الأطفال على حكايات شعبية لتهديب الخلق وتنمية الخيال. يخضع السكان للنظام القبلي، ويسمى "تاجمايث أو تاجماعث"، أو مجلس العقلاء وهو بمثابة مجلس الشعب يهتم بالعلاقات الداخلية، تقض فيه النزاعات دون اللجوء إلى العدالة الفرنسية، ويُنظر في شؤون العامة، ومسجد للشؤون الدينية.

جعلت سياسة السياحة الاستعمارية من المنطقة متحفا مفتوحا للزائرين الأوروبيين، لذا ينتقد السارد نظرة السياح الذين شغلتهم أنفسهم وجذبتهم متعة اللون المحلي، والقراء الذين كان يستهويهم الجانب الغرائبي الذي حوّل الجزائر إلى مجرد فولكلور، ولم ينتبهوا إلى محنة الإنسان الأهلي المقهور، ومنه ينتقد منظور المركزية الغربية المتعالية: «نحن سكان القبائل نتفهم حينما تُمدح بلادنا. نحب أن يتستر على قبحها تحت نعوت مادحة. على الرغم من ذلك نتصور

الانطباع غير المؤثر الذي يتركه منظر قرانا الفقيرة في السائح الأكثر تعاطفا»¹. رصد معاناة الطبقات الفقيرة في المجتمع الأهلي، الذي وجد نفسه معقدا ومكبلا تحت الراية الاستعمارية، انطلاقا من وصف بيئة الكاتب المحلية التي يعرفها جيدا، وواقع بلاد القبائل والقرى الصغيرة في النصف الثاني من القرن العشرين بصفاتها منطقة متخلفة لاتزال بدائية، لا أثر للحضارة التي وعد بها المستعمِر الأهالي، ولا أثر للتقدم، لا إنارة ولا كهرباء. بيوت قديمة وضيقة، وشوارع غير معبدة، مدرسة ابتدائية واحدة لا تكفي مقاعدها لجميع الأطفال.

كان النشاط التبشيري يقوم بتنصير أهالي منطقة القبائل، ولإنجاز مهمته الدينية يهتم المبشرون بالفقراء ويستغلون ذوي الحاجة. فقد تفوق الطفل فورولو في المرحلة الإعدادية بقريته فاستقاد من منحة دراسية إلى مدينة تيزي وزو ليلتحق بمدرسة إعداد المعلمين ليصبح معلما بالمرحلة الابتدائية فقط، لأن الاستعمار لا يسمح للأهلي أن يتعدى هذا المستوى سوى لفئة قليلة منهم. ولكن أسرته الفقيرة لا تستطيع توفير مبلغ الإقامة الداخلية، فاضطر إلى أن يتوجه إلى إرسالية تبشيرية بروتستانتية قرب المدرسة، حيث المأوى والمأكل مجانا. مقابل هذا الإحسان كان المبشر "لومبر" يلقي للشبان تعاليم التوراة والعهد الجديد والترانيم المسيحية، وأدخلهم الكشافة لكسب المال عن طريق التحطيب. كان هو وصديقه عزيز لا يباليان بتلك التعاليم والترانيم، فلم تكن تمثل عندهم شيئا قيما. كان يواصلان الاجتهاد والتألق من أجل الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا بمدينة الجزائر، لمساعدة عائلتيهما.

إن الوعي العميق بالتعاسة حفزه، كمتعلم، إلى أن يحذو حذو الكبار الذين قرأ عنهم في الكتب الغربية، فجعل منهم مثالا للنضال بالقلم، وقدوة في مواجهة قوة كبرى، وهو أن يكون مثل الكاتب الفرنسي روسو والروائي الإنجليزي ديكنز، يسجل اعترافاته، وإن كان أقل منهم خيالا كما يدعي الاستعمار، ويجمع آراءه ويعبر عن مواقف فكرية في مذكراته التي أرادها أن تكون

¹ Mouloud Feraoun, Le fils du pauvre, Editions Talantikit, Béjaïa, 2016. p.14.

شاهدة على عصره المضطرب والمتسم بكثرة الصراعات والتحديات. تدون على أوراقها مأساة الجزائريين الأليمة تحت أنظار العالم المتفرج والمتواطئ على محو هوية الجزائري وتدمير ثقافته الإسلامية، ودليلا على فهمه سياسة الاستعمار الاستئصالية. «أراد ببساطة أن يكتب قصته مثل هؤلاء الرجال الكبار. ق[ال] لكم كان متواضعا! ليس في ذهنه أن يقارن نفسه بهؤلاء العباقرة، ينوي فقط أن يستعير منهم الفكرة "الفكرة الساذجة"، أن يرسم سيرته»¹، ويريد أن يحتفظ بها كوثيقة اجتماعية تصور حجم المعاناة التي عاشها هو وأمثاله ليطلع عليها الخلف من بعده.

يحيل عنوان الرواية الثانية " الأرض والدم" La Terre et le sang ، على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي، إلى الركود السائد في ريف بلاد القبائل، رغم الأسطورة التي نسجت حولها المنظومة الاستعمارية، فقد كانت تعيش ظروفًا قاسية في ثلاثينيات القرن العشرين، وكانت حبيسة التخلف المستمر وواقعها المتردي لا يحتمل، وأحوال سكانها الصعبة للغاية تنذر بالانفجار الوشيك، إما بالهجرة أو الثورة، وكان شباب القبائل أكثر من هاجر من الأهالي بعد الحرب العالمية الأولى. تجري الأحداث في عالمين مختلفين وحضارتين متناقضين، عالم الأنا في منطقة القبائل بالجزائر المستعمرة، وعالم الآخر في مركز فرنسا الاستعمارية.

اسم القرية إغيل نزمان، ويعني باللهجة المحلية التلة العتيقة أو البدائية، ويدل على المكان المغلق والمنسي من كل مشاريع التنمية. وترمز إلى شدة وطأة الاستعمار الاستيطاني على صدور الأهالي. ونتيجة لهذا الحرمان شهدت القرية على غرار المناطق المحرومة في الجزائر هجرة شبابها إلى فرنسا لغرضين البحث عن العمل والهروب من ظلم المستعمر ويعصرهم الخوف من تجنيدهم في الحرب ضد ألمانيا، وبالتالي انتظار عائلاتهم الفقيرة بشوق وحنين عودتهم غانمين، مثلما فرحت قمومة بعودة ابنها الوحيد امر بعدما فقدته سنين طويلة. اكتشف البطل الفضاء الغربي المتحضر في مدن باريس وبريباس وليل، حيث تعرفت في البداية مئات

Mouloud Feraoun, Le fils du pauvre, ibid.p.12.

-1

المهاجرين من القبائل على حياة الرخاء والرفاهية، وانغمس بعضهم في طريق الشهوات مثل رابح أو حموش، «فلا يستطيع المرء أن يكون قديسا»¹ أمام كل المغريات الحديثة، وعانوا معها عنصرية الأوروبيين الذين كانوا ينظرون إليهم نظرة عداة واحتقار. وفي أثناء اندلاع الحرب العالمية الثانية فقد كثير منهم وظيفته، وتعرضوا إلى التشرد والاعتقال، منهم من اضطرتهم الحرب إلى العودة إلى قراهم تنتظرهم قسوة البؤس. قبض على أعمار أسيرا، وأخذ إلى السجون الألمانية عند اجتياح جيوشها فرنسا، «لم يكن إلى جانبه أبداً، خلال هذه الفترة، صديق أو شخص أراد أن يُبدي بعض الشفقة نحوه، وقليل من اللطف، ولفتة، واحترام يمكن أن يشفي غليله. كان وحيداً، وسط آلاف الأشخاص الذين يتزاحمون، ويتمر بعضهم على بعض، ويتعبون، ويتظاهر بعضهم بحب بعض»².

هاجر اعمر أو قاسي الابن الوحيد لعائلة آيت العربي قريته البائسة ببلاد القبائل نحو فرنسا ليعمل في مصانعها، تاركا والديه قاسي أو العربي وقمومة أو حموش وحيدين. وهناك التقى برباح أو حموش ابن عم والدته قمومة، ساعده على إيجاد وظيفة بمناجم الفحم التي تشتهر بها قرى لانس بشمال فرنسا، وإقامة في فندق يأوي المهاجرين القبائليين، يملكه منجمي بولوني يدعى أندري ويسيره مع زوجته الفرنسية إيفون، والتي اتخذها رابح عشيقة أنجبت منه ابنتها ماري. دبر صاحب الفندق حادثة قتل عشيق زوجته في المنجم، واستعان ب "اعمر" لتضليل التحقيق. عاد اعمر إلى القرية ومعه زوجته ماري بنت رابح ليسترجع أملاك والده المتوفى بسبب الديون المتراكمة عند أبناء عمه، ويعيش في بيت العائلة القديم. ولكن اتهموه بالضلوع في جريمة رابح المغدور وتوعده سليمان أخ الضحية بالتأثر. نفذ تهديده وقتل معه في انفجار المحجر بعدما علم أن زوجته شابحة أو رمضان كانت تخونه مع اعمر. في النهاية «الحب المحرم بين اعمر

Mouloud Feraoun, La Terre et le sang, Editions Talantikit, Béjaïa, 2002. p.50.

Mouloud Feraoun, La Terre et le sang, ibid. p.59.

-1

-2

وشابحة قاد اممر وسليمان (زوج شابحة) إلى حتفهما. غسلت الأرض شرفها بدم اللذين خرّقا القانون. خرّق قانون (المرأة) ليس إلا شكلا من الاعتراف بالجميل من هذا القانون نفسه»¹.

وصف إثنوغرافي لقرية إغيل نزمان، المكان، المنازل، والروابط بين العائلات، وعاداتها وتقاليدها. ارتباط القبائلي بقرية فلا يشعر بالراحة إلا وسط أقربائه وأرومته: «القرية قبيحة للغاية، ولا بد من الاعتراف بهذا. يجب أن نتخيلها مُلتصقة على قمة تل، مثل قبعة بيضاء كبيرة ومهدبة بكومة من المساحات الخضراء. الطريق متعرجة أثناء السير قبل الوصول إلى هناك. إنها تغادر المدينة، هذه الطريق، ويستغرق الوقت ساعتين لتغطيتها عندما تكون السيارة صلبة. نَقوْدُ أولاً على جزء صخري، تم تصليحه جيّداً، ثم بعد ذلك، ينتهي الأمر...»². يتحسر على حال المكان الذي وجدته كما تركه مهمشا، لا شيء تغير في القرية، ولا في حياة الأهالي الذين دفعوا ثمن حروب فرنسا دون مقابل كونهم رعايا. «إن هذه الأوجال المتسربة من البيوت، والبراز المتجمع، الذي يتعفن في الزوايا، وهذه الجدران المنهارة إلى النصف، والمرقعة بسياج من القصب، وهذه الأكواخ الصغيرة جدا القذرة التي يكسوها الدخان، كلها تلومه على تعريتها وكشف وضعها البائس أمام هذه الأجنبية»³، التي تمثل حضور الآخر في فضاء الأنا. ماري التي تتاديه نساء القرية مدام (سيدة) ويُسمينها ثروميث، لأنها فرنسية غريبة عن مجتمع القرية، تربت في حجر ثقافة أخرى غير الثقافة القبائلية المحافظة، وبيئة لا تكثر فيها المرأة بالحشمة، ولا تتجنب مخالطة الرجال الغرباء، عكس المرأة القبائلية المطالبة بحفظ العرض وصون شرف العائلة.

أقامت الوافدة الجديدة في القرية بين الأهالي، وذهبت مع زوجها إلى البلدية المختلطة، حيث المشرف الإداري الفرنسي عليها تندمج معهم، لكنها لم تجد الراحة لا مع الأهالي ولا مع المستوطنين الفرنسيين. كان لزاما على ماري التعايش مع المجتمع الجديد بعدما تعرفت على

¹ Tassadit Yacine, Mort, Identité, Langue dans oeuvre de Mohammed Kheir-Eddine, LittéRéalité, CNRS. p.66.

² Mouloud Feraoun, La Terre et le sang, op.cit. p.3.

³ Ibid. p.5.

الأهالي عن قرب، فحاولت أن تتعلم لغتهم وتتصرف مثل نسائهم، وتتبنى عاداتهم وتفهم أعرافهم وسلوكاتهم، وتحبهم بفضل الشق الثاني من عرقها الهجين من جهة الوالد، وقررت أن تكون قبائلية، ومن ثمة جسدت هذه الشخصية ظاهرة التقارب الثقافي. لاحظت ماري الاختلاف الثقافي بين قرى القبائلية والقرى الفرنسية، في الترابط والتآخي، والتضامن بين الناس، «فالقراية وحدة اجتماعية وجغرافية في الوقت ذاته. يعيش أبناء العم أنفسهم في الشارع نفسه، وتستقر العائلات في أحيائها إلى الأبد. إذا حدث أن هاجر أحدهم إلى مدينة الجزائر، على سبيل المثال، فنادرًا ما يُقبل أن تأتي عائلة أجنبية للإقامة في القرية»¹. ولكن مع مرور الزمن وتغير الأحوال الاجتماعية والمنظومة الأخلاقية، أصبح الناس في المجتمع القبائلي يحافظون أكثر على المظاهر، ويفرطون شيئًا فشيئًا في المبادئ. بيت عائلة اممر أو قاسي الذي بدأ يتحطم بفعل تغيرات الزمن وقلة العناية، فقد رحل الوالد وبقيت الوالدة العجوز وحيدة مثقلة بالأحزان والتجارب. «الباب العتيق ليس له إلا مصراعا واحدا، لذا ينبغي إصلاحه، والساحة بدت له صغيرة، تتراكم فيها القاذورات. حال الإسطبل سيئة، ينبغي التعود عليه»². ويحتاج إلى الإصلاح على الفور حتى لا ينهار كليًا، ويعني ذلك إصلاح الذات والتصالح مع الأنا المنشطرة، والعودة من جديد إلى حضن الأصالة.

يلجأ الكاتب إلى عملية التهجين اللغوي، فيستعمل كلمات من اللهجة المحلية (القبائلية)، والكلمات العربية لوصف واقع المجتمع الأهلي في بلاد القبائل، وتصوير نمط العيش المتواضع، والعادات والتقاليد والأخلاق: كلمات نحو ثروميث (فرنسية)، وشمزيرث (مزرعة) مشمل (أرض قاحلة)، إلها (بمعنى جميل أو جيد)، وآشو (ماذا)، كسكس وبركوكس وبلبول (أطباق تقليدية)، وفلاح، وطوب، ومكتوب. بعض الأمثال المحلية المترجمة إلى الفرنسية: "قَبِلَ اليَدَ التي لا تستطيع عَضَّها"، والثقافة الدينية والاقْتباس من القرآن: النبي محمد، والصيام المتتابع،

La Terre et le sang, ibid. p.92.

Ibid. p.5.

-1

-2

والصلوات، وعبارة "الله يرزق الصابرين، إن الله مع الصابرين"، و"من يزرع خيرا يجنه". عبارات دالة على الجهل والتخلف كالاعتقاد بالسحر والشعوذة، والدالة على الإيمان بالقضاء والقدر والخضوع لله، فيما يخص قمومة، فإن العودة المفاجئة لابنها الضال تعد ببساطة قرارا إلهيا. عاد امر لينفذ إرادة السماء. وباركت الأم مكتوبها الجميل.

حلل الكاتب وضعية المرأة القبائلية في القرى الجبلية من خلال تقديم صور مختلفة تترجم حياة ومعاناة نساء إغيل نزمان المتمثلة في قضايا الشرف والمناوشات التي تصاحبها كقضية شابحة مع امر. والعمل الشاق لمساعدة أزواجهن في كسب القوت، عملهن في الحقول باستعمال أدوات تقليدية بسيطة، وتربية الأغنام، ومتاعب أشغال البيت كطحن الحبوب لإعداد الطعام، وتخزين الغلة السنوية من التين والزيتون، وجلب الماء خارج البيت من العيون. ومكان عين الماء بالنسبة للنساء في قرى القبائل مثل تاجماعث بالنسبة للرجال، يعد فضاء حيويا للاجتماع والتواصل والتعارف والتقارب، يتبادلن متعة الحديث، ويتواددن ويُبحن بالأسرار، ويتشاجرن بسبب ملء الجرار تنتهي بدفع ثمن الفوضى لتاجماعث. وقد يتعرضن أحيانا إلى سوء المعاملة من قبل أحد الأقارب مع الحرمان من الميراث مثل قمومة التي نبذها أقاربها أو حموش بسبب سلوك ابنها امر المتهم بقتل ابن عمها، وفتة التي أخذ منها ابنها الرضيع وتركها زوجها حسين من أجل ضررتها الحسناء حمامة.

أما "الدروب الصاعدة" Les chemins qui montent فقد كتبها مولود فرعون في عزّ الثورة التحريرية، واشتداد الصراع المسلح بين جبهة الثوار وجيش الاستعمار، وقد جعلها تنمة لتطور أحداث روايته الثانية "الأرض والدم" التي كانت قرية إغيل نزمان فضاء مكانيا لها. يرمز العنوان إلى شظف العيش في منطقة القبائل في ظل الحكم الاستعماري على غرار الروائيتين الأوليين لعدة عوامل، صعوبة تضاريسها الجبلية، ووعورة مسالكها الضيقة ودروبها الصاعدة، وعزلتها الخائقة لانعدام المرافق الاجتماعية والمؤسسات الضرورية، وصرامة تقاليدها التي لا تقبل

النقاش، وبؤس سكانها الذين تتضاعف معاناتهم في فصل الشتاء بسبب قساوة المناخ البارد، وتعذر الحركة والانتقال عند نزول الأمطار نظرا لقلّة الإمكانات المادية لمواجهة الظروف المعيشية التي تزداد صعوبة وسوءا يوما بعد يوم مع متغيرات الأحداث السياسية.

تتواصل الأحداث العاصفة والعنيفة عبر بطلها اعمر ناغر (اعمر بن اعمر أو قاسي) وابن ماري أو رابح (المدعوة السيدة أو ثروميث)، وكان قد مات والده اعمر أو قاسي في حادث انفجار أليم وهو بعد جنين في بطن أمه بسبب تورطه في قضية شرف. تدور الرواية حول علاقة حب نشأت بين اعمر الرجل المثقف والفتاة ذهبية الفقيرة بإغيل نزمان. عاشت البطلة ذهبية الازدواج الثقافي في مجتمع قبائلي قروي أراد له الاستعمار الاندماج في المسيحية، وهياً له مؤسسات تضطلع بهذه المهمة التبشيرية كالكنائس والإرساليات والمدارس، وتعتني بالفقراء أمثالها في آيت واضو، فاختلط الدين عند الناس بين الإسلام والمسيحية، وهذه من أخطر القضايا التي كانت عامل تفرقة بين السكان في المنطقة، أغلبية مسلمة وأقلية مسيحية غير مرغوب فيها. «في الثانية عشرة، حضرت القداس كالكبار وفهمت كل ما قاله الكاهن. شعرت أنه لا يوجد مؤمن يفهم مثلها. عندما ذهب الأب نحو أفكارها وأجاب على الأسئلة التي كانت تطرحها على نفسها، كانت ترغب في الجري وتقبيل رأسه كما يفعل المسلمون. خرجت من الكنيسة مشرقة، وذهبت إلى المنزل لتصلّي مرة أخرى»¹. رغم أن المسيحيين أقلية في آيت واضو غير أن ذهبية تراهم يذهبون كل يوم أحد للصلاة في كنيسة دير الرهبان، وهذا يشعرها بالارتياح كونها ليست الوحيدة التي تنصرت، ولكنها تمقتهم «لأنهم ليسوا مخلصين، فالكثير منهم اعتنقوا المسيحية من أجل غرض في أنفسهم. بل الأغراض المادية هي التي دفعت بهم جميعا لاعتناق المسيحية»².

Mouloud Feraoun, Les chemins qui montent, Editions Dar el Houda, Ain M'lila, Algérie, 2017. p.20.

-1

Les chemins qui montent, ibid. p.17.

-2

كانت قضية التنصير من أخطر القضايا التي واجهها الجزائريون بصفة عامة، ولكنها كانت وبالاً على القبائليين، انتهجها الاستعمار كعامل تفرقة بين السكان في المنطقة، والذين انقسموا إلى أغلبية مسلمة وأقلية مسيحية غير مرغوب فيها. وغالبا ما كان المرتدون ينظرون إلى المسلمين بازدراء وكبرياء، ويقارنون بين نشاط الرهبان ومساعداتهم للفقراء، وازدراء عدم اهتمام المرابطين بشؤونهم ولا يقدمون لهم يد العون. وبفضل هذا الارتداد عن دينهم استطاعوا التقرب إلى الإدارة الاستعمارية، فتحصلوا على وظائف صغيرة قارة يعتاشون منها، منهم من عمل في الجيش، وفي الدرك أو التمريض أو في السجون، في حين بقي إخوانهم المسلمون يقاسون مرارة الفقر، ضريبة التمسك بثقافتهم، ورفضهم الإدماج مع المستعمر.

صورت الرواية الصراع بين فرنسيي الجزائر وفرنسيي المتروبول، ويؤكد تثبيت الأقدام السود بأحقيتهم في الجزائر وحصولهم على الامتيازات: «يقولون لفرنسيي فرنسا نحن هم الجزائريون. الجزائر نحن. انظر ماذا فعلنا. اشكرونا يا سادة فرنسا ولا تجرؤوا على الحكم علينا. لسوء الحظ، هم لا يلتزمون معنا باللغة نفسها. بمجرد أن نقول لهم إننا جزائريون أيضاً، يرددون: - أنتم جزائريون؟ هذا جيد. كتلة من الأهالي، ماذا تقترض؟ نحن فرنسيون، نحن. إلى الورا، واحترسوا! تريدون أن... إلى البحر، أنتم حفنة من الكفار والجاحدين...»¹.

تُجسد روايات فرعون الثلاث الصراع الثقافي في الجزائر، توضح جدلية الانغلاق والانفتاح على المدنية الغربية في بلاد القبائل، وتتجلى في الجدول التالي ملامح التنصير وانتقاله من المدينة إلى القرية بوضوح في هذا الانفتاح الذي يسير في خط الإدماج، والتفريق العنصري القائم على الدين بين السكان لتسهيل انقيادهم.

ابن الفقير	الأرض والدم	الدروب الصاعدة
إنشاء إرسالية تبشيرية والآباء البيض في مدينة تيزي وزو.	مجيء الفرنسية ماري بنت رابح إلى قرية إغيل نزمان.	بناء دير للرهبان التبشيريين وكنيسة لإقامة شعائر المسيحية في إغيل نزمان.
محاولة كاهن الإرسالية لتصير فورولو وصديقه عزيز عبر حصص الوعظ والإنشاد الديني.	رفض السكان وجود الفرنسية المخالفة لأخلاقهم ودينهم.	انقسام السكان إلى أغلبية مسلمة مضطهدة، وأقلية مسيحية تعتر باعتراف دين وثقافة الاستعمار.

جدول رقم (13)

2.1- المجتمع القبائلي في مواجهة جريمة الثأر

بدءاً من عتبة العنوان "الحبة في الرحي"^{1*} 1956 Le Grain dans la meule لمالك واري تتمظهر في الرواية صورة الحياة الاجتماعية البدائية في بلاد القبائل ومظاهرها المتخلفة من خلال العادات السلبية المتجذرة منذ قرون، حيث تنصدر مشاهد العنف المرتبطة بالموت والانتقام يوميات القبائلي الذي كان يومذاك ما يزال يعيش العزلة الجغرافية والثقافية. وتصدت رواية مالك^{2**} واري على غرار "الأرض والدم" لفرعون لجريمة الثأر أي "الرقبة" أو "ثمفرت" بالتعبير المحلي. وقد عملت هذه العادة البدائية على تعميق مشاعر الكراهية وتدبير المكائد بين العائلات، إذ يظل المرء يشعر بالخزي والعار إن لم يأخذ بثأره من الفاعل، وكرس ذلك علاقات العداة المتشعبة والمستمرة في المجتمع الجزائري التقليدي حتى طواها الاستقلال.

يتنوع الفضاء المكاني للأحداث التي كان إيدير بطلها بين بلاد القبائل في شمال الجزائر والصحراء في جنوبها، وكل منطقة منهما تستمد جاذبيتها من ملامحها الخاصة، وتتشركان مع

^{1*} اقتبست أحداث هذه الرواية، وتحولت إلى فيلم سينمائي من إخراج محمد إفطيس عام 1983 تحت عنوان "أغصان النار".

^{2**} ولد مالك واري في قرية إغيل علي قرب أقبو (بجاية) في 27 جانفي 1916، وتوفي في فرنسا سنة 2001. تعلم بالمدرسة الاستعمارية واعتق المسيحية بعد تأسيس إرسالية تبشيرية بقرينته.

ذلك في بعض المظاهر الاجتماعية. تشتهر منطقة القبائل بتنوع الحرف التقليدية، و«يولد القبائليون متعددي الحرف، ويصبحون سادة في بعض الأعمال، إنهم صنّاع سلاح، وجواهر، وأقفال، وحدّادين، ونقّاشين، وأحياناً مزيّقي نقود، ولكن يهتمون غالباً بهذه النشاطات كلها في الوقت ذاته»¹، لكن الجزارة كانت متروكة للعبيد الزنوج باعتبارها مهنة منحطة. فالسكان يعتمدون على أنفسهم في تدبير معاشهم، ويهتمون بصناعة ما يحتاجون في تسيير شؤون حياتهم منها أواني الطين (مثل إيكوفان)، وجواهر الفضة، وحياسة البرانيس والأغطية، وعنايتهم بالزراعة خاصة القمح والشعير وأشجار الزيتون، والرعي. وفي الصحراء تتبدى الضيافة في استقبال إيدير القبائلي والإحسان إليه بتقديم شتى أنواع المساعدة، وبممارسة السحر وأعمال الكهانة واستحضار الأرواح، وقد تجسدت في شخصية المراكشي الشيخ موحا: «يختار الأب موحا أكياساً من المسحوق من طاولته، وينحني على الموقد، وينشرها على التوالي بينما يتمم بصيغ غير مفهومة. يتصاعد الدخان في شكل نيران مختلفة الألوان»².

بلور الكاتب هذه العادة السائدة في جبال القبائل ذات الخصوصية الثقافية والجغرافية في قصة درامية ترتكز على أحداث واقعية. استوعب أحداثها فضاء زمني ملتبس، قبل الاحتلال أم بعده؟ إذ لا يوجد في المتن الروائي ما يشير إلى الحقبة الزمنية، أما الكاتب فقد حدد زمنها قبل الاحتلال قائلاً: «حتى لا يجد النقاد اختراع أي "علاقة" للحضارة الفرنسية في قصة هذه الرواية، فقد حددتها بالكامل في منطقة القبائل ما قبل الاستعمار. يعتمد الإطار الكامل للحبة في الرحي على قاعدة اجتماعية أصيلة لمنطقة القبائل»³.

الفضاء المكاني يتركز في قرية "ثيغيلت"، وتمثل واحدة من قرى إغيل علي القريبة من قلعة آث عباس التاريخية حيث يرقد رمز المقاومة الشعبية محمد المقراني الذي أبلى هو ومعاونوه

¹ Malek Ouary, Le Grain dans la meule, Editions Buchet/Chastel, Correa, 1956. p.12.

² Le Grain dans la meule, ibid. p.41.

³ Ali Chibani, Malek Ouary dans la fosse aux lois, La plume Francophone, 9 Septembre 2018.

Consulté le : 2021.06.12-16. [HTTPS://LA-PLUME-FRANCOPHONE.COM/2018/09/09/MALEK-OUARY-LE-GRAIN-DANS-LA-MEULE](https://LA-PLUME-FRANCOPHONE.COM/2018/09/09/MALEK-OUARY-LE-GRAIN-DANS-LA-MEULE)

بلاء حسنا أثناء المواجهة مع الفرنسيين في ثورة 1870. في الرواية دارت المأساة بين عائلتين كانتا على وشك المصاهرة، عائلة دَا طيبُوش آث قاسي أحد وجهاء القرية مع أبناءه وعائلة آث سمار. بطل الرواية الفتى "إيدير آث سمار" خطيب جيفة ابنة طيبوش الذي أقدم في حالة تهور غير محسوبة العواقب على قتل أكلي ابن دا طيبوش بسبب إيذائه صُغير أو طبّيش خادم عائلة آث سمار المعروف بالغباء والسذاجة، بخلق نصف شاربه وتعريضه لسخرية الأطفال وأهل القرية، لأنه أهمل الماشية أثناء سِنّة أخذته وتركها تعبت في حقل آث قاسي بمكان يسمى ريحان المجاور لحقل آث سمار وتفسد الزرع، على أثر ذلك قامت القيامة واعتبرت عائلة آث سمار تصرف آكلي مع طبّيش إهانة لا تغتفر.

غادر إيدير القرية خشية على نفسه من غيلة الثأر حاملا بندقيته من بلاد الزيتون تجاه بلاد النخيل، فأقام بين أهلها ضيفا مدة ثم دفعه الشوق إلى أمه وأهله ليشد الرحال إلى "ثيغليت"، فحتمت عليه العودة المشروطة إلى قريته أن يترك بيته العائلي، ويتخلى عن أصله وفصله وهويته الذاتية. اقتضى الأمر بقبول المؤسسة المتعالية تاجماعت المُمثّلة في الشيخ محند قرار دَا طيبوش والد أكلي الذي قدم «ميثاقًا مستوحى من عمل حجر رحي الأسلاف»¹، قضى به أن يندمج القاتل اندماجا كليا في عائلة آث قاسي بالزواج مع ابنتهم جيفة، ويتقمص شخصية القتيل أكلي، فكان أشبه بالحبّة في الرحي، وبالتعبير القبائلي "أَعَقَّا قُرَّ إِيغُوراف".

إن تطرق واري أثناء ثورة التحرير بالذات لمسألة الاندماج في الآخر من خلال التعرض إلى عادة الثأر كظاهرة محلية يدل على أن الرواية تتحدد تاريخيا في زمن الاحتلال وليس قبله، وإن كانت عادة الثأر في المجتمع الجزائري قديمة العهد، كما قال ميلود لإيدير: «هذا هو القانون عندنا، أنت تعلم، الأسلاف ورثوه لنا، ولا نملك أن نغير فيه مقدار شعرة واحدة»². فكل الرموز التي وظفها الكاتب توحى بخطر الانصهار على شخصية المندمج في جماعة أخرى،

Ali Chibani, Malek Ouary dans la fosse aux lois, ibid.

Malek Ouary, Le Grain dans la meule, op.cit. p.19.

-1

-2

حيث يحول دون الشعور بهويته وانتمائه إلى أهله وثقافته، وبهذا التنديد يكون واري قد أكد عدم استعداد القبائلي/الجزائري للاندماج في الآخر باعتباره إنسانا له خصوصية ثقافية غير قابلة للذوبان والاضمحلال.

تتجلى الخصوصية الثقافية في صورة المرأة القبائلية الصبورة والمحافظة على العادات والتقاليد، وقد تجسدت في شخصية جيقة ابنة دَا طيبوش التي تقوم برعاية شؤون البيت والعائلة بعد وفاة والدتها المفاجئة حزنا على ابنها أكلي، وتواصل شغل الحياكة الذي تركته الأم، وراء النول تنسج الخيوط وتبكي وتغني بصوت أجش. وسكان القرية المتشبهين بالدين الإسلامي، ويتمثل في الشيخ محند الذي حفظ القرآن ويحكم بالشريعة الإسلامية، لكنه كان رهين العادات البالية التي أرهقت السكان.

قام المخرج محمد إفطيسن في الثمانينيات من القرن العشرين بعد اقتباس فكرة الرواية إلى فيلم سينمائي، بتحويل نهايتها كي تستجيب لذهنية القبائلي المتمسك بكرامته وشرفه، ويتماشي مع شخصيته التي ترفض التنصل من أصله مهما يكن من أمر. أضاف المخرج مشهد العنف والدم أنهى بها أطروحة الإدماج، يتمثل في عدم استساغة شابحة والدة يذير اندماج ابنها الوحيد في عائلة أخرى معادية، ولم يقدر الابن العيش غريبا بين أفراد يشعر معهم بالوحدة، فأثر الموت على أن يعيش في عباءة العدو مقتلع الجذور.

يؤكد واري في حوار صحفي تمسكه بالتراث المحلي القبائلي بحماس كغيره من أبناء منطقتة رغم محاولات الاستعمار الفرنسي لجعل المنطقة امتدادا لفرنسا، وأن الاستعمار قد ساهم من حيث لا يريد ولا يدري في بث الوعي في الناس: «بالطبع، الثقافة الفرنسية هي واحدة من أكبر وأغنى الثقافات في العالم. لكنها ليست ثقافتني. من الواضح أنه لا يوجد شيء مخز في اكتسابها. على العكس تماما! لأنه، بالإضافة إلى التعليمات التي تمكنت من الحصول عليها من خلالها، فقد سمحت لي بفتح عيني على تاريخي وثقافتي ولغتي. على عكس ما عمد إليه الاستعمار

الفرنسي، والذي لم يتغلغل فينا بلغته وثقافته، فنحن لا نُقتلع من جذورنا. أنا شخصياً، بربريتي لم تغفُ بداخلي. بدليل أنني، في سني هذه، لا زلت أشتغل بانتظام على الترجمة البربرية لأشعار منطقة القبائل وأغانيتها»¹.

وفي الفترة ذاتها يبرز مولود معمري² *بعملين هما "الربوة المنسية" La colline oubliée و"نوم العادل" 1953 Le Sommeil du Juste، فالأولى ذات طابع اجتماعي، والثانية ناقشت أمورا سياسية ذات صلة بالوعي الوطني. يصور في "الربوة المنسية" كما يدل عليها عنوانها وضعية إحدى قرى بلاد القبائل البائسة والمعزولة في آث يني بأعالي الجبال في الجزائر المستعمرة خلال الثلاثينيات، ومعاناة سكانها بعد الحرب العالمية الثانية من مشكلات اجتماعية جمة كالجهل والفقر والاضطهاد مثلما عانى جميع الشعب الجزائري المقهور تحت سلطة الاستعمار: «في أوريز، في تاسغا، في كل القرى، وكل قبائل الجبل، لم يكن الحال أفضل. قبل الحرب كان لدينا بالفعل متاعب في العيش[...] نمرّ أيضا إلى الملابس، يمكننا أن نعود إلى طريقة الأسلاف الذين كانوا يرتدون شتاء وصيفا جلابة واحدة من الصوف، ولكن للأكل ما العمل؟ توزيع القمح غير كاف والجميع لا يستطيع دفع 2500 فرنك قمح مضاعف[...] كان البؤس، البؤس الأسود، أسوأ ألف مرة من الموت، لو لم يحرم رسولنا قتل النفس سيسارع الكثير إلى طلب عفو الله»³.

لم يجد شباب "تاسغا"، وهم أمل السكان، سبل الشغل في القرية النائية سوى خدمة الأرض كمصدر وحيد لتلبية الحد الأدنى من شروط العيش، فاضطرهم البؤس إلى ترك بلاد القبائل

¹ - Algérie360, malek ouary journaliste et romancier algérien (1916 – 2001), le grain subsiste par delà tout, interview entre S. Ait hamouda et Malek Ouary. Consulté le :2021.06.11-14 :30 -<https://www.algerie360.com/malek-ouary-journaliste-et-romancier-algerien>

² *ولد مولود معمري في ثاوريرت ميمون ببلاد القبائل عام 1917 درس المرحلة الابتدائية بالجزائر والإعدادية بالرباط (المغرب الأقصى)، اشتغل بالتدريس في الجزائر وفي المغرب الأقصى أثناء الاحتلال، ثم عاد إلى الجزائر في عهد الاستقلال ليعمل أستاذا بجامعة الجزائر، عرف بأبحاثه الأنثروبولوجية حول اللغة والثقافة الأمازيغية، وتوفي في 1989.

³ - Mouloud Mammeri, La colline oubliée, Sned 10-18, Librairie Plon, 1955. Pp.174, 175.

للعمل في مناطق أخرى، فاستقر إبراهيم وزوجته سكورة في ندرومة بتلمسان، أو الهجرة إلى فرنسا للعمل في المناجم. ومنهم من تجندوا قسر في الحرب العالمية ولم يرجعوا، منهم من قتل مثل أزواو وأحسن فتركوا أهاليهم دون عائل، ومنهم من قبع في سجون ألمانيا وبولونيا. لما عصفت ريح الشدائد متواصلة على القرية عقت النساء، واجتاح مرض أصاب الأطفال الذكور في مقتل دون الإناث، واستفحل مرض التيفوس القاتل، وانتشر الجفاف أدى بالقرية إلى أزمة عطش رهيبة، واندلعت حرائق في غابات إيفران التهمت الأخضر واليابس.

قدّمت الرواية صورة عامة عن الحياة السياسية التي طبعت حقبة الحرب العالمية الثانية وانعكاساتها على تردي الوضع في الجزائر المستعمرة، وتضحية الجزائريين بدمائهم في سبيل فرنسا الاستعمارية، وخروج الشباب الجزائري الذي ترك مقاعد الدراسة من أجل التعبئة للحرب. أشارت إلى تنافس الاستعمار الأوروبي في شمال إفريقيا، وحرب المغرب الأقصى ضد الفرنسيين والإسبان في آن واحد، وسياسة الديكتاتور فرانكو من خلال شخصية إيدر الذي اختار أن يتجند في الجيش للمشاركة في وقائعها مع الريفيين الذين لا يختلفون كثيرا عن القبائليين لهجة، لكنه وقع أسيرا في يد قوات فرانكو ودخل السجن بسبب كلبه "بنيتو" الذي يحيل على الدكتاتور الإيطالي موسوليني، عاد إلى الجزائر آملا في أن يصبح طيارا لكن الاستعماريون يريدونه أن يظل خادما. ألقى الضوء، في فترة بروز الأزمة البربرية، على الخصائص الثقافية المشتركة بين بربر بلاد القبائل في الجزائر وبربر الريف في المغرب الأقصى، مما يوحي على أن البربر هم سكان شمال إفريقيا الأصليين.

تجلت ملامح الرجة العالمية وانفتاح الجزائريين على العالم الخارجي للبحث عن الخلاص من المعاناة في الهجرة كوسيلة من وسائل الهروب من الواقع المزري الذي تعيشه القرية المنسية، وتأثير الفكر الليبرالي في الشباب نتيجة للتعليم الفرنسي والمشاركة في الحرب العالمية، وأثر النهضة العربية بعد تولي بعض الجزائريين قبل المشرق. عاد المهاجرون بعد الحرب الأولى

إلى القرية المهجورة بحل جديدة: «كان هناك كل الأصناف: الذين عادوا من فرنسا حافظوا على قبعة بييري والسراويل الطويلة»[...]; من عادوا من البلدان العربية حافظوا على العمامة والسروال العريض، وكنا نرى هنا وهناك الجلابة المراكشية. لم يكن تنوع الأزياء إلا علامة على برقشة الفكر»¹. ومع كل الظروف الصعبة كانوا شديدي الارتباط بالأرض التي ولدوا فيها، يعود إليها من حين لآخر من بقي منهم على قيد الحياة.

تعكس "الربوة المنسية" ذكريات عزيزة عاشها مقران في قرية "تاسغا"، في ظل عادات وتقاليد المجتمع القبائلي المحافظ على الاعتبارات الجندرية، والتي تقف موقفا صارما إزاء علاقة الرجل بالمرأة، فتحرم علاقات الحب بين الجنسين خارج الزواج، قد يصل الأمر إلى القتل لغسل العار. وتتدخل في اختيار شريك للمقبل على الزواج خصوصا إذا ما تعلق الأمر بالفتاة أو الفصل بين الزوجين المتحابين. وتقسو على النساء العواقر اللواتي يلجأن إلى كل الطرق المشروعة والمحظورة من أجل الإنجاب، وغير المتزوجات الباقيات دون رجال، وتضيّق علاقات المرأة مع أقاربها الرجال، وتدين خروج المرأة وحدها دون سبب وجيه، ولو مع زوجها في الأيام الأولى للارتباط، وتتحكم في طريقة لباسها وتصرفاتها مع الآخرين أو يتعرض بعضهن وشيطنة المرأة.

ينتقد معمرى في الربوة المنسية تفوق السكان الفكري وتعصبهم الأعمى للعادات والتقاليد الموروثة مثل التمسك بعادة الثأر التي عالجها كلا من مولود فرعون ومالك واري في أعمالهما، ويستشنع إصرارهم على عدم التغيير والاستفادة من التطور المادي من خلال رفض شيخ طريقتهم الممثل للعلم الديني التقليدي إنجاز جسر في وادي تيسليث الذي كان يقتل كل شتاء شابا أو شيئا مسنا، بحجة أن المقتولين ماتوا قضاء وقدر وليس الوادي الذي قتلهم. وهكذا يتبدى الصراع قويا بين دعاة التعليم التقليدي الذي بدأ نجمه في الأفول وأنصار التعليم الحديث الذي بدأت ملامحه في القرية النائبة، كما تتبدى "المأساة اللسانية" بتعبير ألبير ممي، لدى

Mouloud Mammeri, La colline oubliée, op.cit. p.61.

¹

سكان القرية الواحدة بين الأميين الناطقين القبائلية فقط، والمتكلمين باللغة الفرنسية كلغة علم. ومن جهة أخرى بين المتكلمين اللهجة البربرية والمتكلمين العربية في الجزائر ككل.

2- إعلان التمرد ضد سياسة القمع الاستعمارية

عنوان الرواية الثانية "نوم العادل" أي النوم الحق، عبارة استعملها معمري في "الربوة المنسية" في مشهد تأري تعلق بقضية شرف، رسخته قوانين التقاليد البدائية في المنطقة. أما «في نوم العادل، وهو عمل محوري، فكان الصدام بين الثقافتين أكثر وضوحًا. قانون الأسلاف، الذي يفرض عادة الثأر الدموية، ولكن أيضًا التضامن مع الأفقر والأضعف، يتعارض مع العدالة الاستعمارية المزعومة. لقد هُزم التقليد، لكن ضد الاضطهاد، بدأت قوة جديدة في الظهور، وأرزقي، المنتصر طويلًا للأفكار الفرنسية، ينخرط في الكفاح من أجل الاستقلال»¹ من قبضة الاستعمار.

رسمت الرواية مواقف متباينة عبرت عن ألوان الحياة المضطربة التي عاشها الشعب الجزائري في ظل الاستعمار، وأبانت كيف تطور الوعي الوطني عند الأهالي المضطهدين أثناء الحرب العالمية الثانية من خلال الانفتاح على الأحداث المتغيرة في العالم. جسد هذا الوعي لونس الذي قال لسليمان: «منذ ثلاثة أيام نزلت الفرق الأمريكية بمدينة الجزائر. مصيرنا بحول الله سيتغير. لقد اشتغلنا في حرف متعددة بما فيه الكفاية، عملنا ليعيش غيرنا. وسنعمل الآن من أجلنا»². تسببت هذه الظروف الصعبة في صراعات حادة واشتدت بين أفراد عائلة آث وندلوس، الأب وابنيه الأوسط أرزقي، والأصغر سليمان الثائر، وابن عمه تودارت، أما الابن الأكبر محند فقد كان مغتربا بفرنسا يعمل من أجل توفير القوت لأولاده الثلاثة، بيد أنه وقع

¹ Anne Roche. Tradition et subversion dans l'œuvre de Mouloud Mammeri. In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°22, 1976. pp. 99-107. p.99.

; doi: <https://doi.org/10.3406/remmm.1976.1381> https://www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1976_num_22_1_1381

² Mouloud Mammeri, Le Sommeil du Juste, Sned 10-18, Librairie Plon, Paris, 1978. p.78.

ضحية الاستغلال بمعمل رونو بباريس فعاد إلى القرية عليلا عاجزا، يتلقى فرنكات معدودة وغير كافية من الشركة بعدما أقعده مرض السل عن العمل.

سليمان شاب غير متعلم لعدم توفر مدرسة في قريته "إغزر"، عانى شبح الأمية والبطالة وتعب المطاردة، شعر بالذل والمهانة حين عمل في مزارع المستوطن "استوفار"، وصدمة مشهد العذاب الذي لقيه طفل صغير من دون رحمة، فلم يتمالك نفسه ليخلص الطفل من الضرب ويدخل في شجار مع المستوطن الفرنسي وأعوانه. وبفضل صديقه لونس انضم إلى التيار الوطني بانخراطه في صفوف حزب الشعب الذي يعتبر في نظر الاستعمار قطاع طرق، و«كانت للونس طريقة فريدة في الإقناع، تتلخص في البساطة واستعمال السخرية، وهي طريقة لم تكن تتطلب منه أي جهد في الشرح التحليل، وبها علم سليمان عدة أمور في غاية الأهمية منها[...] فكرة الانتماء إلى الجزائر بدل الانتماء إلى العائلة أو القبيلة»¹، قائلاً "أنا جزائري"، وعن الحرب التي بدأها منذ ثلاثين سنة. وقف سليمان مع رأي الأهالي ضد الاستعمار في الحرب العالمية الثانية لأنه مرغ شرف القبائل في التراب وأهان سكان "إغزر"، لذلك فقد آن الأوان كي يسعد الفقراء.

أرزقي، في البدء علماني ملحد(أرومي) ثم موحد، تلقى تعليمه في المدرسة الابتدائية بقرية "تاسغا" بعيدة عن قريته، وتأثر بأفكار معلم القرية الفرنسي دي توش الفوضوي، وواصل دراسته الإعدادية بتيزي وزو بعدما نجح في الأولى ثم بالمدرسة العليا ببوزريعة. تطور لديه الوعي فنار على التقاليد بفضل أستاذه غوستاف بوارى، ومطالعة الكتب الأدبية والفلسفية الأوروبية المرتكزة على الأنا الغربي. أكسبته الوعي السياسي مشاركته في الحرب العالمية الثانية ضد النازية مع الجيش الفرنسي ضمن كتيبة المشاة الجزائريين، وأدرك ظلم الاستعمار الفرنسي من خلال ممارسات التمييز العنصري في المعسكر بتفضيل الجنود الأوروبيين على الأهالي الجزائريين

¹—أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، م س، ص 267.

بموجب قانون استعماري، وتعلم الكثير أثناء إقامته في باريس بعد نهاية الحرب، وخيبة أمله في الرسالة الإنسانية التي كان بوارى يوصيه بالتمسك بقيمها دفعه إلى حرق الكتب التي تعلم منها فلسفة الحضارة الغربية، وخيبة أمله في أعضاء الحزب الوطني الذين خدموا مصالحهم باسم القضية الوطنية. أرزقي وتودارت كلاهما بهرته بهرجة الحضارة الغربية وتمنى أن تكون الحرب لصالح الفرنسيين، لأنهم أدخلوا المدنية إلى القرية المعزولة التي لبثت في غياهب حياة بدائية حقبا طويلة سوداء، «الحياة في إغزر دفن من الدرجة الأولى»¹.

تمثلت الأزمة اللغوية المزدوجة لدى الشخصيات في صعوبة التواصل بلغة واحدة بسبب الإقصاء اللغوي، وإهمال الثقافة البربرية التي تمتد في جذور تاريخ شمال إفريقيا، فالقرية يغلب عليها اللسان البربري المتمثل في اللهجة القبائلية، مقابل الفرنسية لغة الإدارة الاستعمارية، وهذا ما يفسر توظيف عبارات وجمل باللهجة القبائلية في الرواية. وتتضاعف أكثر معاناة سكان القبائل مع العربية المستعملة خارج بلاد القبائل، وبالتالي أدت الأزمة إلى الشعور بالاغتراب وتعميق إشكالية الهوية في المجتمع، وعمق الهوة بين الأهالي والاستعمار. حال الفلاحين الأهالي الذين يعملون في مزارع المستوطنين الممتدة من سهول البويرة إلى سطيف في ظروف مزرية، وهم يتعرضون يوميا إلى أبشع أنواع الاستعباد والاستغلال والضرب والإهانة، والفقراء المتسولين والمتشردين الذين تغص بهم شوارع لالير وإيسلي بمدينة الجزائر، إذ كان «نوم العادل يتبع نوم العدل»² كما قال أرزقي للقاضي الفرنسي في جلسة محاكمته بتهمة قتل تودارت، والحكم عليه بالسجن.

من السرد الذاتي والإثنوغرافي المسجل في سياق الخطاب الروائي الجهوي والذي جسده أعمال الثلاثي مولود فرعون ومالك واري ومولود معمري إلى السرد الجماعي الوطني مع كاتب ياسين في عمله الروائي المميز "نجمة" Nedjma. شكلت "نجمة" التي استلهمت من واقع الجزائر

Le Sommeil du Juste, op.cit. p.202.

Ibid. p.254.

-1

-2

المير، ونهلت من قصيدة رمزية من الشعر الحر لكاتب ياسين ذاته، تحمل العنوان نفسه تقريباً "نجمة أو القصيدة أو السكين" وأخرى بعنوان "نجمة والكلوت"¹* الفرق الفاصل بين عهدين في مجال تصوير وضع الجزائر، وسرد معاناة الجزائريين المؤلمة بأسلوب واقعي تقليدي خيم على روايات مولود فرعون ومولود معمري ومالك واري، وساد تصوير عنفوان الثورة التحريرية فيما بعد. و«بين عام 1950، تاريخ نشر فرعون ابن الفقير، وعام 1956، تاريخ ظهور نجمة، أصبح هذا الأدب تدريجياً مستقلاً، مما سمح للمستعمر بالهروب من المصادرة النهائية للكائن الذي وجه للموت واللاحق بقطار التاريخ»². بعد سنتين من انطلاق الثورة الكبرى ينشر كاتب ياسين "نجمة"، وقد تحدد تأليفها حسب مقدمة جاكين أرنو قبل اندلاع ثورة التحرير: «نجمة هي رواية ما قبل 01 نوفمبر 1954 واندلاع الانتفاضة، حيث تم بالفعل نشر فقرات مهمة في عام 1953. كما يقول كاتب، يمكننا قراءة حياة الجزائر "بالكامل" فيها. 1920-1930 حتى 1946-1947»³.

لم تشر الرواية في مسارها المتشابك والمتداخل إلى أي انتفاضة مسلحة قام بها ثائرون، أو إعلان عن تمرد جزائريين ضد السلطة الاستعمارية، ما عدا ذكر مشاركة الجنود الجزائريين في الحربين العالميتين، ومظاهرات ماي الدموية في 1945 التي شارك فيها كاتب ياسين شخصياً حين كان يدرس في سطيف، قد تركت فظائعها في نفسه جرحاً عميقاً، وطورت لديه الوعي بالذات وبالآخر. «ولكنها أكثر من مجرد رواية ثورية، فإن نجمة هي ظاهرة حقبة. عنوانها يرسخها في لحظة تاريخية حاسمة في جزائر في طريق إنهاء الاستعمار»⁴.

¹* نشر كاتب ياسين قصيدة بعنوان "Nedjma ou le poème ou le couteau" في جريدة مركور دو فرانس 1948، يتحدث فيها

عن مأساة الجزائر، وقصيدة أخرى عنوانها "Keblout et Nedjma" 1951.

² Naget Khadda, Kateb Yacine, Une vie, une œuvre, Centre culturel du livre, Première édition, Casablanca, 2020. p.41.

³ Charles Bonn, Kateb Yacine: Nedjma, op.cit. p.9.

⁴ Naget Khadda, Kateb Yacine, Une vie, une œuvre, op.cit. p.63.

ركزت "نجمة" على صورة المجتمع الهجين الذي عرف إرهابات المقاومة ما قبل الثورة، مست حياة الجزائريين الأهالي البائسة بين المستوطنين كأقلية متحكمة في ظل الجزائر المستعمرة. تدور أحداثها حول شخصيات محورية تنحدر كلها من قبيلة واحدة بني كبلوت. نجمة زوجة كمال اسما، والرجال الأربعة الأقرباء، لخضر ومراد ورشيد ومصطفى في فترة صعود التيار الوطني المطالب بالاستقلال، وتعد إشكالية الهوية والانتماء الثقافي بالنسبة للمجتمع الجديد، المتعدد الجنسيات والممزق الأوصال. «وقد سئل ياسين نفسه في إحدى المقابلات عن مغزى روايته (نجمة) فأجاب بأنها هي روح الجزائر الممزقة منذ البداية بشتى التوترات الداخلية، فإذا صح هذا النقل عنه فإنه يكون قد تبنى تصور فرحات عباس للأمة الجزائرية حين قال إنه بحث عنها في التاريخ ولم يجدها، أما كاتب ياسين فقد وجدها ولكنها كانت ممزقة ومتوترة ومشوهة لا تكاد تعرف نفسها أو يهتدي إليها الناس»¹.

نجمة الفتاة الأسطورية مجهولة الأصل والنسب والأب، وابنة غير شرعية لامرأة فرنسية يهودية عاشت مدة في فندق بقسنطينة على نفقة سيدي أحمد الذي جاء بها من مارسيليا. اختطفها سي مختار وقريبه في وضح النهار، اغتصبت في إحدى المغارات التي كانت معقلا للتعذيب اقتيد إليه المعتقلون المعدَّبون، وفيها قتل عشيقها الرابع أبو رشيد ببندقيته. مغارة مليئة بالذكريات المشؤومة في تاريخ القادة الاستعماريين من اغتصاب وتعذيب، وحرق وقتل بلا رحمة، يحيا فيها آنذاك المحكوم عليهم بالموت. تبناها زوج لالة فاطمة فألحقها الناس بالعائلة بعدما سلمها سي مختار للزوجين المحرومين من الولد لتتلقى التربية في حضان أسرة غريبة عنها. هي فاتنة الذكور بجمالها المتوحش وجرأتها الشديدة التي تفوق جسارة الرجال الذين يتنافسون لكسب ودها وطلب يدها².*

¹- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، م س، ص، 173.

²*تحيل هذه الصفات بدورها إلى النص المسرحي الذي كتبه ياسين في 1959 بعد هذه الرواية عنوانه "المرأة المتوحشة" La

femme sauvage

"نجمة" «عنوان يكرم بشكل مشترك الفتاة الجميلة والرائعة - نجمة لا يمكن نهبها في نورها المبهر - والتي كشفت للمؤلف أهوال الشغف العاطفي وحزب الاستقلال الذي أيقظ ضميره السياسي»¹. فهي ترمز إلى الجزائر الجريحة في ثوب نجم شمال إفريقيا الوطني الذي التف حوله نجمة مصالي الحاج المریدون. نجمة صامته انطفأ بريقها وترید أن تسطع وتنطلق نحو الحرية. وستكشر عن أنيابها وسيصطلي بضوئها الحارق الطغيان والاستبداد. في كل نصوص كاتب الشعرية والمسرحية والروائية أسماء تتكرر، نجمة ذات الرمز الثلاثي المرأة والبيت والوطن، ولخضر الذي يرمز إلى الانعتاق والانطلاق والتألق، وكبلوت رمزا للقبيلة، النواة الأولى للأمة الممزقة التي حوّلتها خبث الاستعمار إلى شتات مقطوع الهوية، ومطموس الشخصية. يفر لخضر من السجن ليلتقي بأبناء القبيلة رشيد ومصطفى ومراد. يقتل مراد ريكار زوج سوزي ويسجن فيهرب الثلاثي رشيد ولخضر ومصطفى من القرية خوفا من الانتقام مثلما حدث لأبناء كبلوت الجد الأسطوري، ليعود لخضر وراء القضبان.

وترسم صورة الجزائر المستعمرة بكل تناقضاتها الأخلاقية وتعمقاداتها الاجتماعية، واختلافاتها الثقافية، والتيارات المتصارعة الوطنية والاستعمارية حول الأرض الموعودة. تظهر شخصية سي مختار، أبي جميع الأبناء غير الشرعيين، موسوعة من الأفكار المشوشة والمعلومات التاريخية الملتبسة والغامضة. شخصية غير متوازنة تحمل سمات دالة على الانقسام والانفصال عن القيم المجتمعية، كنتيجة لأزمة الهوية التي عانى منها الأهالي المندمجين والخاضعين، فهو ذكيّ وعيّي، وتقي وأرعن، ومؤمن وكافر، ونزيه وانتهازي، وأمين وخائن. وفي خريف عمره طفق يبحث عن توبة نصوح يكفر بها عن شروره وآثامه في حق الوطن، ويوصي رشيد بأن يهتم بقضية هذا الوطن وإشكالية هويته وهما على متن باخرة إلى الحج: «يجب أن تفكر في مصير هذا البلد الذي أتينا منه، وهو ليس مقاطعة فرنسية، وليس له باي ولا سلطان؛ ربما تفكر في أن الجزائر لا تزال محتلة، في ماضيها الذي لا ينقطع، لأننا

¹ Naget Khadda, Kateb Yacine, Une vie, une œuvre, op.cit. p.63.

لسنا أمة، لسنا بعد أعلم ذلك: نحن مجرد قبائل مهلكة. إنها ليست عودة إلى الوراء أن نشرف قبيلتنا، الرابط الوحيد الذي تركناه لنتحد ونلم شملنا، حتى لو كنا نأمل في أفضل من ذلك»¹. يطرح ياسين مسألة إشكالية الهوية الوطنية في الجزائر ومفهوم الأمة لدى الشعب الجزائري التي كانت نتيجة للمخططات التي قام بها الاستعمار الفرنسي منذ الغزو لتشويه وطمس الشخصية الجزائرية.

يؤسّر كاتب الجد كبلوت زعيما يجسد القبيلة العربية في الناظور كنظام اجتماعي متماسك عمل الاستعمار على تقنيت لحمته بقتل الأعيان الستة الذكور انتقاما على مقاومتهم الاحتلال الفرنسي، وتشتيت نسيجه بمنحهم أراضي خارج الناظور موقع القبيلة، ووظائف في مناطق شتى وتغيير ألقابهم، وتدمير دينهم من خلال هدم المسجد بحجة قتل رعيتين أوروبيتين فيه اغتالتهما قبيلة أخرى بني ذهان²، وهي نموذج للقبائل الكثيرة في الجزائر التي رفضت وجود الاستعمار فتعرضت للمصير نفسه، ونفيت إلى مناطق أخرى بعيدة عن موطنها الأصلي. إلا أن قبيلة كبلوت استطاعت لملمة نفسها وجمعت ما تفرق منها، ولكن العدو كان بالمرصاد فتحمل الأحفاد أعباء الجريمة التي لم يرتكبوها مستسلمين، وعانى عشاق نجمة الأربعة مآسي البؤس والهروب والمخدرات والنفي والسجن، وأضحوا ضحايا الوضع الصعب في الوطن المحتل الذي لم يعرفوا كيف يحموه ويخلصوه من براثن الاستعمار. ولم تسلم حتى الطبيعة المستنزفة من التهديد بالفناء.

تكثر مشاهد العنف والدم والاختطاف والسجن، وتتنوع أدوات العنف كالسكين والخنجر والسيف والسوط والبندقية والمسدس، عبرت عن التحديات الصعبة التي مرت بها الجزائر في تاريخها مع الاستعمار الفرنسي الذي أراد أن يستنسخ التجربة الرومانية في استعباد شمال إفريقيا، والصراع بين الطائفتين المتعارضتين، السكان الأصليين والمستوطنين، وما نتج عنه من

¹ Yacine Kateb, Nedjma, Editions du Seuil, 1956, s p. p.70 /<https://fr.z-lib.org>

² يشير الكاتب إلى مذبح 1852 التي ارتكبها جيش الاستعمار في الناظور بقالمة ضد بني كبلوت، أجداد كاتب ياسين بعد مقتل رجل وامرأة أوروبيين ورمي الجثتين في مغارة عين غرور.

انعكاسات على العلاقة بينهما، جريمة مقتل الفرنسيين في الناظور وإعدام الأعيان الستة في الثكنة، ومقتل والد رشيد في المغارة، ومقتل الشقيقتين زهرة ووردة في الناظور، وقتل مراد ريكار الذي قتل نادلة الحانة والزج به في السجن. طعن رشيد بالسكين سائق السيارة التي كادت تدوسه ودخوله السجن. ضربة أرست لخضر على رأسه أسالت دمه في الحظيرة، ورد لخضر الضربة لأرنست وإراقة دمه واقتياده إلى السجن، وإطلاق الزنجي النار على سي مختار على رجله أدى إلى موته. أفراد كبلوت الثلاثة ذاقوا مرارة السجن، الذي يعني الحصار المفروض على الأهالي، لأن الدافع اجتماعي والفعل فردي، بينما أعدم الستة الأولون لأن السبب كان رفض سياسة الاستعمار، والإصرار على مقاومته على المستوى الجمعي.

وقبل كاتب ياسين تبنت صورة الجزائر واضحة بفضائها الطبيعي ومشاكل مجتمعها المتعددة الأبعاد عند محمد ديب في ثلاثيته التلمسانية "الدار الكبيرة" La Grande Maison 1952 و"الحريق" L'incendie 1954 و"النول" Le Métier à tisser 1957. يعد محمد ديب من بين الكتاب القلائل الذين أجادوا تصوير الواقع المظلم الذي حاصر الجزائريين خلال الحربين العالميتين، ففي أكتوبر 1958 عبر محمد الغربي مندوب الجزائر في ندوة كتاب آسيا وإفريقيا بطشقند عاصمة أوزبكستان عن استيائه من مواقف بعض الكتاب الجزائريين من الأحداث المستجدة على الصعيد الثوري: «كتاب ما يسمى في فرنسا بمدرسة شمال إفريقيا الأدبية، باستثناء محمد ديب وعدد قليل من الأشخاص النادرين، معزولون عن شعبهم ويتفاعلون بخجل مع الواقع اليومي الدموي. وغالبا ما يكون من البورجوازيين الصغار الذين تلقوا تعليما فرنسيا على وجه التحديد مناهض للشعبية ومعاد للوطنية، وجعلوهم رجالا ممزقين بين الولاء للثقافة والولاء لوطن مجهول»¹.

¹ Voir: Zineb Ali-Benali, Mohammed Dib, Écrire. Sur les traces du signe, Centre culturel du livre, Casablanca, Première édition 2019. p.25.

ثلاثية ديب المشهورة «تخط لنا مسيرة ونشأة وتوحد وتعمق الوعي القومي لدى الشعب الجزائري»¹. ومن ناحية أخرى «يرتبط عمل محمد ديب ارتباطاً وثيقاً بالمنظر الطبيعي الجزائري، المنظر الذي تطور فيه المؤلف والذي كتب عنه عمله. الفضاء الجغرافي، والفضاء البشري، وفضاء العمل الذي تطورت فيه الشخصيات، وأخيراً فضاء اللغة الفرنسية الذي يتحقق فيه النص لتوفير فضاء حياة لمؤلف محاصر بتاريخ الجزائر الرهيب الذي يناقشه ويناضل فيه، أمام مرأى ومسمع القراء»². ففي هذه الثلاثية تطورت شخصية الطفل عمر الذي عايش في تلمسان أحداثاً قاسية ما بين نكزي مئوية احتلال الجزائر وقيام الحرب العالمية الثانية، عانى فيها الشعب الجزائري الولايات تحت سلطة الاستعمار الفرنسي، فتطور لديه الوعي السياسي تدريجياً، وأراد أن يفهم كل شيء عن ملابسات الواقع المتردي الذي مس الأهالي فقط، وعن أسباب الهوة السحيقة بين الأهالي والمستوطنين.

في "الدار الكبيرة"³ * أو دار سبيطار المبنية على الطراز العربي القديم فتح عمر عينيه البريئتين والكئيبتين على حالة الفقر المدقع التي تعيشها أسرته في غياب الوالد المتوفى أحمد دزيري السكر، فكان أفرادها يتضورون جوعاً باستمرار. يسكن الطفل مع والدته "عيني"، وأختين عويشة ومريم، وجدته ماما المشلولة في غرفة واحدة حقيرة أشبه بززانة، وكذلك كانت كل عائلة من الجيران تملك غرفة واحدة في هذه الدار الكبيرة التي تغلي كخلية نحل وتنبض بالحركة والعنف والهيّاج والاحتجاج، وتوحي بالحياة المزرية، وتغص بالفقراء الذين يتحملون البؤس والحرمان بصبر كبير، وخوف شديد تارة أخرى. هذه الدار التي تشبه سجناً في بنائها المغلق من الخارج ووضعيتها البائسة في الداخل إنما تمثل فضاء الأهالي الأشقياء في الجزائر المستعمرة التي تحملت فيها المرأة النصيب الأكبر من الشقاء والعذاب.

¹ -سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، م س، ص146.

² - Karim Nait Ouslimane, Étude de l'espace dans l'œuvre romanesque de Mohammed Dib, Thèse sous la direction de Juliette Vion-Dury, École doctorale Érasme, Université Paris 13, Décembre 2019. p.7.

³ *نالت "الدار الكبيرة" جائزة فينيون في 1953.

فشا الجوع الرهيب في كل مكان بسبب انتشار البطالة وانعدام موارد الرزق، فلم تجد عيني، مثل أغلب الأمهات الجزائريات، ما تقدمه لعائلتها، فكانت تعتمد هي والجارّة زينة إلى ملء قدر من الماء يغلي ليسكت جوع الأولاد حتى يغلبهم النعاس فيغطوا في نوم عميق. ومن أجلهم تفعل عيني كل شيء، تخطط الفساتين إلى منتصف الليل والأجزاء العليا لأحذية القماش وتخاطر بنفسها بتهريب القماش في الحدود بين تلمسان ووجدة، مقابل قليل من المال لا يكفي لسد الحاجات الضرورية. أصاب عمر ذا عشر سنوات هوس الجوع الذي هدد وجوده ومستقبله، فكان يردد عبارة "أنا جائع". لم يكن يصبر على ألمه فكان يأكل حتى أثناء الفصل الدراسي. اضطره هذا الألم الفظيع إلى أن يحارب زملاءه وينال حصته من الأكل يوميا بكل الأشكال.

وفي المدرسة المزدوجة الفرنسية- العربية بتلمسان تعلم عمر في درس الأخلاق أن «فرنسا هي الوطن الأم»¹، وعلم أن هذه المقولة كذب وافتراء، وفهم أن فرنسا ليست وطنه، هكذا قال معلمه حسن دون أن يشرح المزيد عن معنى الوطن وضرورة الدفاع عن أرض الآباء، لأنه غير مخوّل للخوض في هذه المسائل الحساسة. بدأ الحس الوطني يتسلل إلى ذهن عمر عبر زخم من تساؤلات ملحة عن وطنية المعلم حسن، وحميد سراج الذي يحمل دوما كتبا ويطالعها ليلا وأعطاه كتابا ليقراه. تساؤلات جوهرية حيرته حول ظروف الفقر، والحرب، والوطن، والوطنيين، والبلد. وما علاقة فرنسا بأمه عيني إذن؟ «فرنسا، رسم بعدة ألوان. كيف يكون هذا البلد البعيد جدا أمّه؟ أمه في البيت، عيني. ليس لديه اثنتان. عيني ليست فرنسا. لا شيء مشترك بينهما. لقد تفاجأ عمر بالكذبة. وطناً كانت أم ليست وطناً لم تكن فرنسا أمّه. يتعلمون الأكاذيب لتجنب عصا الزيتون الشهيرة. كانت هذه هي الدراسة»².

حاول الأهالي الاحتجاج مرارا ضد الواقع الحالك الذي فرضه الحكم الاستعماري، حيث اشتكى لكل محمد زوج زينة من الظلم ولقي حتفه في السجن، وانتفض العجوز بن صاري

Mohammed Dib, La Grande Maison, op.cit. p.11.

Ibid. p.11.

-1

-2

خوفا من المصير نفسه ضد فساد جهاز القضاء الداعم لهذا الحكم الاستبدادي عندما اقتحم عناصر الشرطة، أو رسل الشقاء كما وصفتهم عيني، كالعادة دار سبيطار ليلا بحثا عن حميد سراج وأمثاله في الحزب الشيوعي الذين يفكرون ويعملون من أجل سعادة الفقراء. لم تلتفت الشرطة إلى معاناة الأهالي الذين ضاق بهم المكان الذي كان في حالة كارثية لكثرة السكان، وانعدام شروط الحياة الكريمة في زواياه. قال بن صاري: «لا أريد الخضوع للعدالة. ما يسمونه عدالة هي فقط عدالتهم. إنها موجودة فقط لحمايتهم، ولضمان سلطتهم علينا، لتقليصنا وإخضاعنا. في نظر هذه العدالة، ما زلت مذنبًا. لقد أدانتي حتى قبل ولادتي. إنها تديننا دون الحاجة إلى تهمة إثمنا»¹. ففي كل مرة تعتقل الشرطة رجالا من دار سبيطار ومن كل مدينة، وتدفع بهم إلى السجن، تسلط عليهم أنواع العذاب المهين بسبب نشاطهم السياسي والحزبي، وتنتزع معلومات عن المحرضين، وتؤدب المتمردين ضد النظام الاستعماري.

اتسعت رقعة الاعتقالات لتشمل القرى حين اتحد فلاحو قرية بني بوبلان العاملين في مزارع المستوطنين منددين بالممارسات البشعة التي كانت قد طالتهم، عازمين على التخلص من هذا البؤس. كان خطيب من الناشطين السياسيين يستهض همهم ويشجعهم على المطالبة بحقوقهم، إنه صوت الناشط الوطني حميد سراج يدوي: «سيعرف العمال المتحدون كيف ينتزعون هذا النصر من المستوطنين والحكومة العامة. إنهم مستعدون للنضال»² من أجل الكرامة والعدالة.

تزامن نشر الجزء الثاني "الحريق" مع اندلاع ثورة التحرير 1954، ويحيل العنوان إلى الانفجار الذي يلي الغضب العارم والحنق الشديد ضد الطغيان الذي بلغ مداه الأقصى في الجزائر عام 1939 بسبب ظروف الحربين العالميتين اللتين خاضتهما فرنسا. عم هذا الحريق الذي مهد له

Mohammed Dib, La Grande Maison, op.cit. Pp.27,28.

La Grande Maison, ibid. p.63.

-1

-2

ختم "الدار الكبيرة" بحدث احتجاج الفلاحين في مزارع قرية بني بوبلان ضد المستوطنين الاستغاليين.

في بني بوبلان يسكن شيخ مبتور الساقين كوخا، يدعى كومندار، كسب هذا اللقب لما كان عسكريا وشارك في الحرب العالمية الأولى. تعرف عمر عليه وتعلم منه كلاما كبيرا عن الحياة الكبرى التي يعيشها العالم آنذاك، ساعده على نضج فكره، وفهم العلاقة بين سكان دار سبيطار وبني بوبلان، إنها الظلم والموت. حدثه كومندار عن الحرية وظلم الاستعمار العنيف، عن القرية وبؤس سكانها المتشبهين بأرضها التي استولى على سهولها المستوطنون، فانقلبت حياة الفلاحين الذين أصبحوا عمالا أجراء يعملون كالعبيد. وحز في نفسه إذ رأى أطفال الفلاحين في القرية أشد منه فقرا وشقاء. ومواقف عمر هذه تحيل إلى نمو الوعي لدى سليمان في "نوم العادل" الذي اكتشف ظلم الاستعمار بعد مغادرة قريته "إغزر"، وعمله في مزارع المستوطنين.

شعر الناس بالسخط والغضب من وطأة المظالم التي تسبب فيها المستوطنون والقياد الموالون في بني بوبلان، وكانت أحوالهم المضطربة تنذر بحدوث حركة تمرد وشيكة ضد حالتهم المزرية. «صارت آلاف الهكتارات من الأراضي ملكا لمستوطن واحد من الفرنسيين. وهؤلاء المستوطنون كلهم سواء. لقد وصلوا إلى هذه البلاد بأحذية مثقوبة. إن الناس هناك ما يزالون يتذكرون الحال التي كانوا عليها عندما توافدوا إلى هذه البلاد. وهاهم الآن يملكون أراضي لا تعد ولا تحصى»¹، بعدما انتزعت من أصحابها الفلاحين بقانون جردهم من أملاكهم من أجل إرساء الحضارة، ثم نعتوهم بأنهم كسالى وعاجزون عن صنع أي شيء. تحرك العالم الصغير والهادئ في بني بوبلان تغذيه خطابات حميد سراج الحماسية، ودعوته إلى التجمع والاعتصام عن الإضراب عن العمل حرّضت الفلاحين على المطالبة بالحقوق. لقد استفاق الناس البسطاء بعد سبات عميق، وفهموا أن الأمر ليس قدرا مقدورا. أدركوا أن الثروات بيد المستوطنين، والفلاحون يدفعون

Mohammed Dib, L'incendie, Éditions du Seuil, 1954. p.35. Rééd pdf

-1

الضرائب الباهظة جيلا بعد جيل. كان لأفكار حميد سراج النيرة وقع جميل في قلوبهم، فقاموا بإضراب ضد المظالم القديمة والجديدة التي ترتكب باسم فرنسا، وأصبحوا يفكرون في مستقبل الأحماد الذين سوف يحاسبونهم على عدم الاحتفاظ بالأرض والذود عنها، وشعروا أن روحا جديدة تتدفق في عروقهم.

في بني بوبلان الأعلى يعيش فلاحون كراغلة أثرياء جاؤوا من المدينة، بعضهم عملاء السلطة وقفوا ضد قرار الاحتجاج. اعتقل الدرك جراء ذلك فلاحين اثنين في الإضراب الأول، واقتيدا إلى السجن، وسط صمت الأهالي الخائفين قمع السلطات التي تترصدهم لتعتقل كل مشتبه فيه¹ * بتهمة الجرائم السياسية، أي عدم احترام تعليماتها وقراراتها. اتسع فضاء الاحتجاج إلى المدن الأخرى، فانضم العمال من مختلف القطاعات إلى الاجتماع يؤيدون إضراب الفلاحين الثاني، وتضامنت النقابات معهم لدعمهم بالتبرعات. ذات ليلة شب حريق بأكوخ العمال الفلاحين البائسة، قام به مستوطنون فرنسيون في مزارع المستوطن فيار، فوجهت أصابع الاتهام ضد المضربين لكسر إضرابهم والبطش بهم. اعتقل عدد من الفلاحين لاستجوابهم حول انتمائهم لحزب الشعب الجزائري أو الحزب الشيوعي وتعذيبهم، ونقل حميد سراج إلى أحد معسكرات الصحراء.

قامت رواية الحريق على مشاهد مختلفة، شكلت ثنائيات تقابلية تعايشت في تلمسان في الأربعينيات بين حياة المدينة والريف، والمستعمرين والأهالي، والمزارعين الأهالي في بني بوبلان الأعلى، والعمال الفلاحين في أسفلها، واختلاف مسار التعليم في المدرسة لدى الطفلين عمر اليتيم وجان بيير ابن مستوطن، واقتصار التعليم على الأطفال الذكور دون البنات في بيئة مجتمع الأهالي المحافظة، يلخصها الجدول الآتي:

¹* اعتقلت السلطات الاستعمارية العديد من المتقنين المناضلين غداة اندلاع الثورة التحريرية، منهم المناضل ياسف سعدي، والشاعر محمد العيد آل خليفة، وأحد قادة الثورة رابح بطاط.

المدينة والريف	المستعمرون والأهالي	أهالي القرية	عمر وجان بيير
تتمثل المدينة في دار سبيطار التي تسجن سكانها في مكان ضيق ومظلم، ومشاكل لا حصر لها.	الجهاز الاستعماري: يتكون من رجال الدرك والشرطة، وظيفتهم قمع الأهالي وتعذيبهم بحجة الإخلال بالسيادة الفرنسية. المستوطنون الانتهازيون: أصحاب المزارع والأموالك.	بني بوبلان الأعلى: مزارعون أثرياء من أهالي المدينة، يملكون حقول صغيرة تدر عليهم الأرباح.	عمر: طفل يتيم الأب، يعيش في دار سبيطار داخل غرفة واحدة مع أسرته التي تعاني الجوع والشقاء. التحق بالمدرسة دون أخته، ثم توقف عن الدراسة رغم نجابته ووعيه من أجل توفير الخبز.
بني بوبلان، هي القرية البائسة ذات الطبيعة الجبلية والمزارع الشاسعة.	يعيش الأهالي بصفة عامة حياة بؤس وبخس بعد انتزاع أراضيهم الخصبة وأموالهم وحرمانهم من كل الحقوق المدنية.	أسفل بني بوبلان: يعمل الفلاحون في مزارع المستوطنين بأجور زهيدة جدا، ويدفعون ضرائب باهظة جدا.	جان بيير: ابن مستوطن فرنسي، يعيش الرغد في فيلا، وقد توفرت لديه كل شروط الدراسة والتعليم.

جدول رقم (13)

يوصل الجزء الثالث "النول" رصد العنف الاستعماري وتصوير البؤس المنتشر بأرجاء تلمسان، يأتي إليها المتسولون والمنتشردون من الضواحي الفقيرة والمحرومة. ازدادت الأوضاع سوءا على الجزائريين في عهد حكومة فيشي¹ Régime de Vichy الموالية للألمان، بسبب انهيار الاقتصاد الفرنسي المنعكس على الحياة الاجتماعية. حشد من الجياع يتسكعون في كل

¹-ظهر نظام فيشي ضد النظام الجمهوري في فرنسا بعد هزيمتها أمام ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، استقرت الحكومة المتعاونة مع النازيين برئاسة المارشال فيليب بيتان بمدينة فيشي، ودامت أربع سنوات من 10ماي 1940 - 9ماي 1944.

زقاق، وينامون في كل زاوية ملتقين في أسماهم رغم البرد القارس والعواصف الشديدة. يترددون إلى المحلات والأحياء الراقية بحثاً عن الطعام، إلا أن الهلاك ملاً الشوارع بجثث الموتى كالحشرات. إنهم يستحقون هذا المصير المشؤوم، ف «بالنسبة للأوروبيين العربي، هو الفرد الذي ليس مثلاً أعلى، والمنغمس في القذارة واللامبالاة، والذي لن يتغير، مهما حاول إزالة الوحل عنه، وما إلى ذلك. و[هم]، بالنسبة إليه، جائعون بلا مثل أعلى، أقرب إلى الوحش منهم إلى الإنسان، أشخاص كسالى يدعون أنهم يعيشون بلا عمل، إلخ»¹، لذا تركوهم لمصيرهم المحتوم.

ترك عمر المدرسة في الرابعة عشر من عمره، والتحق بمعمل الحياكة. كان يتشاجر مع العمال، ويتعرض للسباب والشتم من قبل الصانعين. ومع مرور الأيام تعلم كيف يحمي نفسه من الاعتداءات، وتعلم شيئاً من الأمور عن الحياة، وفي الدين والأخلاق والسياسة، فتحت عينيه على الوضع الفاسد الذي فرضه الاستعمار على الشعب الجزائري. ومثلت مواقف العمال أهم الصراعات الثنائية والاتجاهات الدينية والتيارات الوطنية السائدة في الجزائر، كجمعية العلماء، والحزب الشيوعي، وحزب الشعب، وموقف الحياد الذي التزمت به الطبقات الكادحة المنشغلة بلقمة العيش.

في هذه الثلاثية التي تمجد قيم الكرامة والعدل، لجأ ديب إلى تضمين رواياته مقطوعات شعرية من الثقافة الشعبية الجزائرية، واكبت الحياة الشقية التي عايشها الشعب الجزائري في الحقبة الاستعمارية التي ميزت قبل وبعد اندلاع الثورة التحريرية، فجاءت أبياتها طافحة بالأمل في النصر المبين، تبشر بقروب نيل الحرية، ومشحونة بالإصرار على الكفاح لتحطيم قيود الاستعمار الفرنسي. وتستحق الإشارة إلى أن ثلاثية ديب صورت ظروف البلاد الصعبة، ومآسي الناس التي أفضت إلى أحداث التمرد التي مهدت الطريق إلى قيام الثورة الكبرى، ولم تنقل مجازر الاستعمار خلال الثورة التحريرية.

Mohammed Dib, Le Métier à tisser, Éditions du Seuil, 1957 et 1974. p.102.

-1

مالك حداد^{1*} روائي مناضل، اعتمدت رواياته على ذكر الأخبار الواردة عن طريق الصحافة أو الإذاعة أو الرسائل بين 1959-1961، "سأهديك غزالة" 1959، و"التلميذ والدرس" 1960، و"ليس في رصيف الأزهار من يجيب" 1961، بيد أنها غير بعيدة كل البعد في محتواها عن تصوير الواقع الاستعماري وأجواء الحرب العنيفة والعمل الثوري المسلح.

"التلميذ والدرس" "L'élève et la leçon" رواية وطنية رمزية إلا أن مجريات الأحداث تتسم بالصبغة الواقعية، ترمز إلى حب الوطن وعلاقة المرء بوطنه وشدة ارتباطه بهويته. ترسم العذاب النفسي الذي يعانيه المثقف الجزائري وهو غريب الوطن واللسان، ومأساة هذا الإنسان المضطهد في ديار الغربة، يعيش منفي اضطراريا بعدما استولى الأجنبي على بلاده وسلب أرضه، وبدد أمره. يشده الحنين إلى أهله ووطنه فلا يستطيع إليهما سبيلا، وترده أخبارا سيئة عنهما فلا يجد لنجدتهما حيلة. تصور حالة الشعب الجزائري عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، والصدمة القوية التي تلقاها من جلاده الذي لم يؤمن يوما بإنسانيته وشخصيته.

وفي يوم مأساوي من أيام شهر ماي، ولد السارد مع ولادة الوعي الوطني والحس الثوري. شهر الشر والشقاء في حياة الجزائري الذي اكتوى بجحيم حوادث ماي 1945 المريرة، وكانت الأوضاع القاسية قبلها وخيمة على وضعية الفلاحين المسالمين في مزارع المستوطنين الاستغلاليين، والعمال المهاجرين المستغلين في مصنع رونو قد هاجروا بسبب الحرب من أجل لقمة العيش، ومعاناة مرضى التيفوس دون علاج في دوار بن يوسف، والقرويين الأشقياء الذين يفرون مذعورين من القذائف ويتركون منازلهم وحيواناتهم، أو تتهدم عليهم أكواخهم وتحترق حقولهم كلما تساقطت على القرية قنابل الجيش الاستعماري.

^{1*} ولد مالك حداد بقسنطينة من أسرة قبائلية، بدأ تجربته الأدبية بكتابة ديوان شعر "Le malheur en danger" في 1956، كشف فيه عن نضج وعيه الوطني، وميله إلى المقاومة. لكن وجد في الرواية مجالا للتعبير عن مواقفه ضد الاستعمار.

بواسطة الحوار الداخلي الذي يشي بأزمة نفسية معقدة تتبدى مواقف المثقف الجزائري المنفي الذي «يمتطي جوادا على عصرين، وعلى حضارتين»¹. ويكشف الحوار الصريح مع ابنته فضيلة، التي تعلمت في المدارس الفرنسية وشبت متحررة تعرف الثقافة الفرنسية أكثر من ثقافة بلدها، عن صراع ثقافي بين الأجيال، وعن الثورة على التقاليد الموروثة، والثورة على الاستعمار، وعن أشجان عميقة تجاه ما يموج في الجزائر من أحداث مؤسفة في جميع الأصعدة، صنعتها حرب شريرة ومجنونة تجمد العقول وتعمي الأبصار.

يحكي البطل صالح إيدير بأسلوب شاعري يفيض حزنا وأسى قصة منفاه في فرنسا، حيث يعيش مع ابنته الوحيدة فضيلة في بلدة صغيرة. فضيلة طالبة في الطب جميلة وجريئة، تدوس على الفضائل، تدخن وتقيم علاقة عاطفية مع زميلها الطالب عمر، حملت من هذا الشاب المنحدر من تلمسان بطريقة غير شرعية، وتريد أن تجهض الجنين لأن والده منحرف في حزب جبهة التحرير، تطارده الشرطة ويبحث عن مكان يختبئ فيه. لكن والدها الطبيب الذي كان في خريف العمر اعترض على هذا الطلب، ورغب في الاحتفاظ بحفيد المستقبل الذي يأمل أن يتحدى الخطر ويصنع التاريخ، ويفعل شيئا من أجل هذا الوطن المكبل الذي أحبته فضيلة «الطفلة الطيبة التي ثارت على الريح الاستعمارية الكبرى، تجرح ولا تكسر، ظالمة ببراءة، غاضبة عن حق، حنونة، مرتجفة، عاشقة، وأكثر من كل شيء مُحبة، جزائرية، ولا غرو، جزائرية كلها»². كانت تلوم والدها على خيانة بلده ومغادرة الجزائر للاستقرار في المنفى. و«المنفى لا يولد منه غير مرارة بشعة»³.

خالد بن طوبال بطل "ليس في رصيف الأزهار من يجيب" آخر رواية لمالك حداد، صحفي وكاتب منفي، مثل صالح إيدير غادر بلاده الجزائر مطرودا من قبل الاستعمار، وعاش في

¹-مالك حداد، التلميذ والدرس تر: سامي الجندي، منشورات وزارة الثقافة، 2008، ص83.

²-مالك حداد، التلميذ والدرس، م س، ص40، 41.

³- التلميذ والدرس، م ن، ص68.

فرنسا غريبا محبطا، قد ترك زوجته وريدة وأبناءه يمسهم الضرر. المنفى الذي أثقل كاهله يفرض عليه قانونه التعسفي، فيلخص عذابه الطويل في أحياء باريس، وشقاءه الأليم في فنادقها الوضيعة بقوله: «المنفى، إنه عادة سيئة يجب أن نعتادها. والمنفى، مثلا، هو شارع مدام والنور الذي ينطفئ والليل الطويل وكآبة الفنادق الشاحبة. والمنفى، هو، الحرب، حيث تسأم باريس هذا الفالس البنفسجي الزاهي، ورحى الحرب تدور ليلا. والليل هو الذي يسوي جميع الأمور. كذلك فالليل هو الذي يضع كل شيء موضع التساؤل، من خلال السيارات البوليسية التي تنفرج نوافذها»¹.

لا يعيش خالد أزمة هوية وانتماء إذ لم يتمكن الاستعمار من صهره في بوتقته الغربية، فهو جزائري أصيل ووطني حتى النخاع، «لقد كان جزائريا وعرف نفسه جزائريا. وكان جزائريا لأنه كان جزائريا. وهو إذ يمجّد مبدأ الهوية وهذا بالتأكيد البديهي الأبله، يحتفظ لنفسه في مخيلته بصورة الطفل الوفي لطفولته»². ويحاول شاعرا ومقاوما أن يخدم وطنه بقلمه الواعي المصطدم بغطرسة الاستعمار، وبشعره الذي يقرأه الوطنيون والمعتقلون والثوار في الجبال، «فالوطني لا يصنع الوطن، لكن الوطن يتيح الوطنية للوطنيين. وما عدا هذا فإنه ادّعاء. وحرب المقاومة التي لا يُنظر إليها من هذه الزاوية ليست إلا تمرينا سهلا في بيان الأسلوب»³. غير أن الأديب في الجزائر الذي يكتب بالفرنسية يعاني من مأساة اللغة، إذ لا يستطيع أن يفهم كلامه جميع الشعب، بسبب انتشار الأمية أو عدم إتقان لغة الاستعمار.

يمجد الكاتب مبدئين هاميين تتميز بهما الأمة الجزائرية الهوية والوطنية، ولكن هذين المبدئين ينتظران من يكافح الاستعمار ومن يواليه من الأنظمة الرأسمالية في سبيلهما،

¹ - مالك حداد، ليس في رصيف الأزهار من يجيب، تر: ذوقان قرقوط، آفاق الكتابة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1999، ص 40.

² - ليس في رصيف الأزهار من يجيب، م ن، ص 35.

³ - م ن، ص 32.

وهما اللذان يبعثان الأمل في نيل الحرية، حرية الجزائر الأكيدة التي سوف تتحقق بالنضال وليس بالكلام: «عندما ترحل هذه الوحوش، الوحوش المأجورة، الوحوش كلية القدرة، الوحوش اليومية، الوحوش التي لا تشبه الوحوش، والتي تستفيد جميعها بدرجات متفاوتة وأيم الحق. تستفيد جميعها من الوحشية الاستعمارية»¹، كل أشكال الوحوش الذين صنعهم الاستعمار لنهب الجزائر.

في باريس يحن خالد بن طوبال إلى قسنطينة، مدينة سوداء بسبب الطائرات الحربية التي تحلق في سمائها، والمظليين الذين يربعون الناس، وعمليات الإرهاب تتصاعد. يتذكر الأماكن التي تمر بها الدوريات، وأسماء الأحياء والشوارع التي تحيط بها، الحامة، ووادي الرمال، وجبل الوحش، وسيدي مسيد، وسيدي راشد، وسيدي جليس.

فيما يلي جدول يلخص أهم محتويات روايات مالك حداد المركزة على المقاومة، والقاسم المشترك بينها هي أحداث الثامن ماي 1945 التي شكلت بداية الوعي الوطني عند الروائي مالك حداد كما كانت الحال عند كاتب ياسين:

المحتوى الرواية	البطل	المنفى	القيم الوطنية	الواقع الاستعماري
سأهديك غزلة" 1959	مؤلف منثقف، ملتزم بالقضية الجزائرية.	-الشعور بالوحدة والغربة والوحشة في باريس. -ألم منفى الوطن واللغة: الكتابة بلغة الآخر.	-التطلع إلى الحرية والاستقلال -الصبر والصمود والثورة. -الحب والحلم والأمل بالمستقبل الجميل. -النضال والتنديد بالاستعمار وفضحه.	الجزائر تحت الحكم الفرنسي. الظلم والاضطهاد تذكير بمجازر 8 ماي 1945

¹ - ليس في رصيف الأزهار من يجيب، م س، ص 36.

تذكير بمجازر 8 ماي 1945 قسوة وضعية الفلاحين في مزارع المستوطنين	-المقاومة من خلال ابنته فضيلة وعمر. -نشر الوعي الوطني. -التمسك بعدالة القضية الوطنية رفض الاستعمار.	-غربة الوطن واللغة: العيش في باريس والكتابة بلغة الآخر.	صالح إبيدير مؤلف مثقف ملتزم بالقضية الجزائرية.	"التلميذ والدرس" 1960
تذكير بمجازر 8 ماي 1945 قمع الأهالي وقتل الثوار. قصف المنازل والقرى بسكانها في قسنطينة.	الارتباط بالأرض التي ولد فيها. الحنين والشوق إلى الأهل والوطن والإخلاص لهما. التمسك بالعادات والثقافة	-الشعور بالوحدة والغربة والوحشة في باريس. -ألم منفى الوطن واللغة: الكتابة بلغة الآخر. -الذكريات الجميلة في الجزائر	خالد بن طوبال شاعر ملتزم بالقضية الجزائرية.	"ليس في رصيف الأزهار من يجيب" 1961
تذكير بمجازر 8 ماي 1945 تمشيط، واغتصاب، وتعذيب، واغتيال، واعتقال وسجن تعسفي.	الكفاح والجهاد مساندة الثورة التضحية والاستشهاد في سبيل الحرية.	-المنفى داخل الجزائر -شاب مندمج في الثقافة الفرنسية، -الجزائري محروم من لغته وثقافته.	سعيد، مهندس ملتزم بالقضية الجزائرية.	الانطباع الأخير

الجدول رقم (14)

سجلت المرأة الجزائرية المثقفة حضورها الأدبي أثناء الثورة وقبيل الاستقلال، فما هي آسيا جبار^{1*}، تفرض نفسها روائية من الجيل الثاني للكاتبات النسويات الجزائريات في مضمار

^{1*}اسمها الحقيقي فاطمة الزهراء إيملاحين Imalhayene، ولدت آسيا جبار عام 1936 في قرية اولاد حمو بشرشال حيث دخلت المدرسة القرآنية، ودرست الابتدائي بموزاية والثانوي بالبلدية، وتعلمت بالمدرسة العليا للمعلمات ببوزريعة. اشتغلت بالبلدية

تصوير واقع الجزائر في آخر عهدها بالاستعمار من خلال روايتي "العطش" 1957 La Soif و"المستعجلون" 1958 Les Impatients. أشاد بموهبتها في الكتابة الروائية شيخ المؤرخين الجزائريين بقوله: «كانت العطش أول رواية جلبت الشهرة لآسيا جبار ونالت بها سمعة مبكرة وتقديرا واستحسانا بين المعاصرين، كتب أحدهم عنها (وهو فرنسي يدعى F - L. Benos) مقالة نوه فيها بهذه الفتاة البالغة من العمر الثانية والعشرين، وقال إنها درست في شرشال في المدارس الابتدائية والثانوية، وشاركت في مسابقة صعبة في فرنسا، ومع ذلك نجحت فيها وهي المسابقة التي تؤدي إلى دخول مدرسة المعلمات العليا، ونعلم من هذا التنويه أن آسيا جبار كتبت القصة الأولى تحت عنوان (العطش) والثانية بعنوان (المستعجلون)، وفي العدد المذكور من المجلة تعريف روايتها (العطش)»¹.

جعلت الكاتبة المرأة الجزائرية محور أعمالها، ومن قضاياها صلب اهتمامها، ومن البيئة الجزائرية فضاء لأحداثها، فاخترت أن تتناول وضعياتها المختلفة في المجتمع الجزائري المتمدن، الذي كان يتأرجح بين التمسك بالأصالة والهوية، والسير نحو الانفتاح على الحداثة الغربية التي تبنتها سياسة الاستعمار. في "العطش" تعرضت إلى مسائل اجتماعية راهنة آنذاك عاشتها المرأة الجزائرية، تتمثل في بداية الثورة على التقاليد البالية دون التخلي عن الانتماء الثقافي، واستحالة نجاح الزواج المختلط بين المستعمر والمستعمِر، ومشاكل المترتبة عن الاختلاف الثقافي بين ثقافة الأهالي والثقافة الفرنسية، ترويتها على لسان بطلتها نادية التي ولدت من أم فرنسية وأب جزائري من عائلة بوجوازية، وعانت التمزق بين حضارتين.

ركزت الرواية على حياة فئة المندمجين من العائلات الجزائرية البورجوازية التي آمنت بالرسالة الحضارية، وكانت في منأى من عذابات البؤس والشقاء التي عرفتتها بقية الشعب

أستاذة للتعليم الثانوي، واشتغلت بالسينما والمسرح. انتخبت في 26 يونيو 2005 عضوا في أكاديمية اللغة الفرنسية. توفيت في 6 فبراير 2015.

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، م س، ص، 184، 185.

المعزول في القرى النائية، والمهمش في أزقة المدن العربية القديمة، فلم يتجل لهذه المأساة الإنسانية أي أثر في فقرات النص. بل رسمت الكاتبة مسار الأبناء المتعلمين في المدرسة الفرنسية من طبقة البورجوازية الصغيرة على شاكلتها، والذين أثرت الثقافة الغربية في لسانهم الذي يرطن بلغة المستعمر وسلوكهم المتحرر وفكرهم الليبرالي. أدت التحولات التي طرأت على نمط عيشتهم المختلف عن عادات الأسلاف إلى التفرقة في بعض القيم الاجتماعية الموروثة. فقد تقلصت مسافة التعارف بين الجنسين الرجال والنساء، وأصبحوا يستعملون اللغة الفرنسية، ويرتدون اللباس الأوروبي، ويدخنون السجائر، ويشربون الخمر علناً، ويرتادون أماكن اللهو والتسلية ويتزهون في الشواطئ، ويرضون بالعمل موظفين صغاراً في مختلف الإدارات الاستعمارية.

أما الكاتبة اللثام عن جوانب من سيرتها الذاتية فيما تعلق بنوعية التعليم الذي تلقته في شخصية نادية التي التحقت بالمدرسة الفرنسية، فتعلمت اللاتينية إضافة إلى الفرنسية، ونهلت أفكارها النسوية عن تحرير المرأة من ربة التقاليد القديمة، والتحرر من سلطة الرجل الجزائري المستبد، وأدركت مكانة المرأة في المجتمع، وأهمية العلم في تطور شخصيتها وتحقيق ذاتها: «لقد علموني تصنيف النساء إلى ثلاث فئات: نساء الرأس، ونساء القلب، والإناث، مثل مريم، ذوات الجنس النهم»¹. وفي السياق ذاته وصفت استمرار تمسك المجتمع المحافظ بالقيم الدينية كتحريم الإجهاض الذي أقدمت عليه جدلة رفضاً للأومومة. وضحت تحديات المرأة الجزائرية في ظل الاستعمار وموقفها من التطور الاجتماعي، والنظام الأبوي ووضعها بالنسبة للرجل ونظرتها إليه، ورسمت علاقاتها العاطفية به أبا، أو زوجاً، أو زوج أخت، أو صديقاً. وصفت معاناة المرأة الضحية التي تعيش شبه أسيرة لدى الرجل ومن أجله، وسلوك المرأة الفتاة التي يجب أن تحافظ على شرفها قبل الزواج، والخاضعة لزوجها مثل مريم، ومكانة التي تتجب أولاداً كثيرين، والتي لا تشعر بقيمتها الاجتماعية كعضو فعال في الأسرة إن لم تتجب، والمتطورة التي تختار

Assia Djébar, La Soif, René Julliard, éditeur, Paris, 1957. p.41.

1-

لنفسها زوجا، أو المتمردة التي تهرب مع رجل أوروبي بسبب رفض المجتمع له، والمرأة العاملة التي تساعد زوجها أو تشعر بالاستقلالية المالية مثل ليلي أخت نادية.

سارت روايتها الثانية "المستعجلون" على خط الثورة على التقاليد القديمة، وحاولت إظهار وعي الفتاة بوضعها في محيط العائلة الجزائرية البورجوازية. ترى الناقد سعاد خضر أن الكاتبة تتعرض «لتلك الأوساط بالنقد، ولكن يبدو أن الكاتبة نفسها ليست منفعة بصدق ذلك النقد. فثورة دليلة في قصتها "الجازعون" [المستعجلون] على التقاليد ليست واضحة المعالم [...] إنها صورة تقليدية للفتاة البورجوازية من شرقنا ومغربنا العربي على السواء والتي لا تستطيع مطلقا أن تحدد طريقها بل تقف مترددة بين عواطفها ورغباتها، بين ما تريد وما تفرضه عليها التقاليد. وهي مع ذلك لا يمكنها ولا تستطيع أن تكسر قيود التقاليد التي تشل قدميها»¹.

3- الالتزام بقضايا النضال الثوري والتحرر الوطني 1957 - 1962

في معرض توضيح سبب التعبير باللغة الفرنسية بدلا من اللغة الأم، قال مالك حداد: "نحن نكتب بالفرنسي، ولا نكتب بالفرنسي"²، فالغاية الأساسية في الكتابة الروائية، بالنسبة إليه، ليست في استعمال اللغة الفرنسية في حد ذاتها، وإنما في الاهتمام المنصب على وصف نظرة المستعمر إلى المستعمر بلغة الاستعمار، وتبيان واقع الشعب الجزائري، والإيديولوجيا التي رسمها الاستعمار الفرنسي حول الجزائر المستعمرة، والصورة النمطية التي صنعها عن الآخر الأهلي، وممارساته الجهنمية ضده.

ظهر على الساحة الأدبية في هذه الفترة الحاسمة من نضال الشعب الجزائري في نهاية الخمسينيات روايات ثورية زلزلت نظام الاستعمار، مستلهمة من واقع الشعب الجزائري المرير ويوميته العصبية مع احتلال استيطاني في مدن مختلفة من الأقاليم الرئيسية الثلاثة، خصت

¹-سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، م س، ص 214، 213.

²« Nous écrivons le français, nous n'écrivons pas en français».

قسنطينة وتلمسان وشرشال، وهي "الانطباع الأخير" La dernière impression 1957 لمالك حداد، تلتها رواية "صيف إفريقي" Un été africain 1959 لمحمد ديب، ونشرت آسيا جبار رواية "أبناء العالم الجديد" في أبريل 1962 Les Enfants du nouveau monde، كتبتها في جوان 1961 في سياق الصراع مع الآخر ونضج الثورة، وكانت إيذانا بدخول أبناء الجزائر عهدا جديدا ضد الاستعمار وتحرير الوطن من الغاصبين. أبطالها طلاب ثوريون ومتفنون، من الجيل الجديد الذين تخرجوا من المدرسة الاستعمارية، وتعلموا اللغة الفرنسية، وغرفوا من ثقافتها التي تعمّدت أن يتموضع الأهلي في مرتبة دنيا من السلم الاجتماعي.

في رواية "الانطباع الأخير" لمالك حداد تبرز صورة مدينة قسنطينة القاتمة، وتتعرض للدم والدمار في سنوات حرب التحرير الوطني. كانت المدينة المشهورة بعراقة تاريخها، وجسورها المعلقة التي تحمل قيمة حضارية مسرح الأحداث العنيفة، يتربص شبح الموت بالناس في جبل الوحش ووادي الرمال وفي حارة العرب...وفي كل مكان. اشتعلت الحرب بين الجيش الفرنسي والثوار الجزائريين الذين أقدموا على تخريب أحد الجسور حتى لا تمر معدات حربية ثقيلة تستعمل ضد سكان المناطق المعزولة التي يأوي إليها المجاهدون.

رائحة الحرب الشرسة بين الطرفين أحدثت تحولات جذرية في جو المدينة العام وسيطر الرعب على نفوس سكانها. فرض حظر التجول على الأهالي، بينما كان المستوطنون يسهرون في الملاهي والمقاهي إلى ساعات متأخرة من الليل، فتوزع رجال الأمن في الشوارع الرئيسية بالدبابات يفتشون المارة، وتعالق صفارات الإنذار معلنة دخول المدينة حالة الطوارئ. «كانت المدينة تحت ثقل الصمت. في الحقيقة، لم يكن هناك صمت، عربات الجيب ودبابات التنك لا تسطع بكمها. كانت الأحياء العربية تفكر وهي معلقة في مرتفعات المدينة أو متوقفة أو في المنخفضات. أنهج الأحياء الفرنسية تتوهج بكل ضوءها»¹.

¹ Malek Haddad, La dernière impression, Editions Média-Plus, Constantine, 2015. p.11.

سعيد بطل الرواية ونموذج الجزائري الواعي الذي لبي نداء الإخوان في الجبل وواجب الوطن في أحلك الأيام. ابن معلم ابتدائي كان يدرس أطفال الأهالي، طالب تعلم بالمدرسة الاستعمارية وتخرج مهندسا في الأشغال العمومية. انبهر بالحضارة الغربية وتعلق بفتاة فرنسية تدعى لوسيا ليوهم نفسه بأنه شخص متطور، ارتقى بانفتاحه وانصهاره، مثلما عاش عمه إيدير الطبيب الذي تزوج سيمون رغم رفض الجدة ما مسعودة هذا الزواج المختلط الذي يهدد كيان المجتمع المسلم، وهي توصي سعيدا على فراش الموت ألا يتزوج فرنسية، فكان كلاهما مثقفا ثقافة أوروبية والتي كانت الثقافة الرسمية والوحيدة المسموح بها في الجزائر. سوء الحال في بلاده المتجلي في العلاقة الفارقة بين المستعمر المقهور والمستعمر القاهر، جعل ضميره الوطني يستيقظ، ويتعرف على هويته وانتمائه.

كان دائم التساؤل عن أصله وشخصيته عندما يحاوره الفرنسيون، ومن خلال الحوار فهم أنه جزائري يعيش تحت نظام استعماري غاشم وليس فرنسيا قحا، رغم الجنسية التي يحملها وأدت به إلى الإسراع في الاندماج والتماهي في الآخر. شعر أنه مضاد للفرنسيين ولا بد حينئذ أن يفعل شيئا من أجل وطنه المحتل. انضم إلى صف الثورة الجزائرية ملتحقا بشقيقه بوزيد الذي انخرط منذ البداية مع الثوار، وكان له الفضل في بث الوعي في نفسه. لقد تذكر سعيد قول ألبير كامو: «أن الأوان ليلتحق كل واحد بطائفته»¹. ويتضمن هذا الاستشهاد دلالات عديدة، منها تأييد الاختلاف الثقافي واستحالة الإدماج، والتبديد بمواقف كامو التي تبين انسياق الكُتاب المستوطنين وراء أطروحات النظام الاستعماري، وتبديد أوهام الباحثين عن المساواة مع المستعمر.

وكرر فعل على عملية تفجير الجسر الذي أشرف سعيد على إنجازهِ راحت السلطات الاستعمارية تكثف من ممارساتها الفظيعة لكسر شوكة الثوار، وتستعرض هيمنتها وقوة أسلحتها

Malek Haddad, La dernière impression, op.cit. p.58.

-1

المتطورة على الأهالي من خلال القيام بمجموعة من العمليات العسكرية الانتقامية، تمثلت في «التمشيطات، والاعتصابات، والتعذيبات، والاعتقالات، والسجن التعسفي»¹. وكانت وسائل الإعلام الفرنسي في الصحف والإذاعة تنقل الأخبار المزيفة والوقائع التي ترفع معنويات المستوطنين، وتثني على جهود جيش الاستعمار للقضاء على الثوار الذين تسميهم فلاقة أو إرهابيين: «رغم سوء الأحوال الجوية فإن قوات حفظ الأمن قد نجحت في إنشاء جهاز الأمن للأهداف التي سطرته...»²، و«استطاع الإرهابيون الفرار مخلفين قتيلين على البلاط. من جانب قوات الأمن لا نتأسف عن أية ضحية»³، و«بأن لوسيا اغتيلت من قبل الفلاقة»⁴. أما الجرائد المعارضة للنظام مثل "الجزائر الجمهورية" فهي محظورة في المدارس كونها تناصر الجزائر الحرة، والجزائر الجزائرية. أدرك سعيد أن أولئك المستوطنين متمسكون بالجزائر ويحبون خيراتها، ويكرهون أهلها ويحتقرونهم، وتجسد لوسيا ومدير المدرسة ريفير هذه الإيديولوجيا الاستعمارية بكل مفاهيم العنصرية القاصدة إلغاء الآخر وإقصاء شخصيته.

كان الوضع لا يطاق مشاهد العنف والموت حاضرة في ساحة المعركة، أرمى جيش الاستعمار كل ثقله وغله ضد المجاهدين الجزائريين، طائرات تحوم في السماء وترسل القذائف وتقبل ما في الأرض. لم يكن الصراع متكافئا بين الطرفين فسقط الأبطال جرحى وموتى، ينقص كل مرة بطل، إبراهيم، ورشيد، والعيد، ورايح، وجمال وأخيرا سعيد، كما قتل جان فرانسوا الجندي الفرنسي من الطرف الآخر، وهكذا يذهب الشبان الأبرياء ضحايا الكبار من تجار الحرب.

دوريات ليلية عسكرية ودبابات تجوب المناطق المجاورة لقسنطينة، تنتقل أيضا إلى جيجل وسكيكدة ووادي الصومام وباتنة والأوراس والنامشة (اللاماشة) والأطلس الصحراوي. إنها

La dernière impression, op.cit. p.29.

Ibid. p.20.

Ibid. p.85.

Ibid. p.121.

-1

-2

-3

-4

الحرب، كما صورتها الرواية، قد عمت مدن إقليم الشرق وكل البلاد من الشمال إلى الجنوب، وعانى الإنسان والحيوان جوعاً وصل بهما البؤس إلى أقصى الجنوب الصحراوي. لقد تهيأ لها الشعب بكل شرائحه وشعروا بشيء من الكبرياء، فازداد الآباء والأمهات ثباتاً على المحن من أجل الوطن، وصبروا على غياب أبنائهم الشجعان، كما غاب من قبلهم جزائريون أثناء حرب العالمية في 1914 يدافعون عن حدود فرنسا مثل بلحسن أبي سعيد، وصهره شريف أبي مليكة، ولكنهم لم ينالوا سوى وسام الشرف دون الحقوق الإنسانية. لأن الفرنسيين، بسبب عقدهم الاستعمارية، يكرهون سكان شمال إفريقيا ولو كانوا عمالاً في فرنسا.

تطرق الكاتب إلى قضية التفريق العنصري التي اعتمدها الاستعمار بين الأهالي منذ الغزو لتمزيق صف الشعب الجزائري الذي وحده الإسلام من خلال أسطورة القبائلي الذي يختلف عن العربي ويشبه الفرنسي، وهذه الأطروحة المغذية للنعرات جعلت القبائلي شريف ابن الصومام المتعلم في المدرسة الفرنسية وحامل البكالوريا يتقرب أكثر من المستعمر لينال امتيازات مادية ورفاهية، ويتبنى ثقافة الآخر المتفوقة منبهاً ومشككاً في هويته الجزائرية، مما جعله ينبذ الحرب. «شريف البربري الصغير الذي ركض تحت أشجار الزيتون والتين القبائلية، أصبح شريف فرنسا متوسطاً. زعم أن القبائل لا يشبهون العرب. ظن أن باريس عاصمة العالم. ظن أن العشب سينمو في ساحة الحكومة فور نيل الجزائر استقلالها»¹، لكنه أدرك من خلال تصرف المستوطن رولان الذي تجلى في سلوكه مكر التاريخ الاستعماري أنه ليس فرنسياً، وأنه لا يختلف عن العرب في نظر الاستعمار. وجود قبائليين في قسنطينة المضيافة مثل عائلة سعيد وصهره شريف، وهتاف بوزيد أخي سعيد بحياة العرب يدل على تخلي الإخوة عن الإحن في أوقات المحن، ويرمز إلى قوة الوحدة بين الجزائريين القبائل والعرب على السواء ضد الاستعمار الفرنسي الذي احتل بلادهم واستولى على أرضهم.

ويواصل محمد ديب في "صيف إفريقي" اهتمامه بمعاناة الشعب الجزائري، مبدياً التزامه بقضية التحرير وتقرير المصير. فرسم يوميات الناس العادية في قرى تلمسان ومدنها بمختلف شرائحهم ومستوياتهم الاجتماعية والثقافية مثقفين وأميين، وموظفين وحرفيين وفلاحين، وطريقة تفاعلاتهم مع الوضع السياسي المقلق في الجزائر، فضاء محموم محكوم بحرقان حرارة الصيف وحرارة الحرب إبان الثورة، اجتمع فيه عدة شخصيات لدرجة يصعب معها تحديد البطل المحوري، عبرت عن هموم الإنسان الجزائري الخاصة ومأساة الاستعمار بشكل عام.

نشرت جريدة المجاهد في جوان 1960 جزءاً من رواية صيف إفريقي لمحمد ديب وسمته عنوانه "التمشيط" في ركن سمته "ركن الأدب الثوري"، صدرته بمقدمة لفتت انتباه الكتاب الجزائريين إلى ضرورة كتابة الثورة، ودعت إلى الاهتمام بأدب يصور واقع الشعب ومطامحه، بدلاً من أدب ما أطلقت عليه بالترف الفكري الذي لم يكن صالحاً في تلك الفترة من الصراع الوجودي، جاء فيها: «هو أدب القصور والطبقات المترفة البعيدة عن مشاكل الشعب، لأن العهد الذي يقتصر فيه الأدب على تصور ونقل المشاكل الغربية [...] قد انتهى، كما انتهى الترف الفكري والخيالات المريضة [...] إننا في عهد ثوري أصيل لا يجوز فيه أن يبقى الأدب بمعزل عن حياة الجماهير، لذلك يجب أن تخرج من ثورتنا تجارب تسد هذا النقص»¹.

يقدم الكاتب نماذج من الحياة اليومية لعائلات جزائرية من تلمسان يعيش بعضها في المدينة وبعضها الآخر في الريف، ويقارن بين الفضاءين المتباينين جغرافياً واجتماعياً. كان ساكنو المدينة أفضل حالاً من ناحية شروط العيش والأمن، وأقل تعرضاً لمضايقات رجال الأمن باعتبار أن المدينة تظل صغيرة المساحة وتحت الرقابة. منهم من ينعم ببيت مريح، ويتعلم في المدارس، ويعمل في الوظائف الحكومية، أو في التجارة. ينقل في النموذج الأول، يوميات ساكنة المدينة يجسده مختار راعي المثقف، مع عائلته الميسورة، يقيم في بيت ذي حديقة تقوم عليه

¹ - نقلاً عن: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، م س، ص 166.

الخادمة رحمة والطاهية أم صافية. ابنته زكية فتاة متعلمة وحاصلة على شهادة البكالوريا من المدرسة الفرنسية وترغب في التحرر من سجن العادات، وتصبح معلمة وتدرّك معنى لوجودها في الحياة، إذ ترى نفسها مختلفة عن الأخريات، وهناك هوة سحيقة بينها وبين والدتها وجدتها، لكن الوالد وفق الأصول يمنعها استجابة لأمه العجوز السيدة راعي، لالة رزية حارسة التقاليد المحافظة على عرض المرأة، وتعتبر تعليم الفتاة شراً يحق بالعائلة، وقد رفضت أن تعمل حفيدتها بل تريد تزويجها قبل فوات الأوان لابن عمها صبري الفاشل، صاحب الملمات. «فالزواج بالنسبة للمرأة، هو وظيفتها، عملها، ومسارها، ومصيرها[...] ينبغي أن تعيش المرأة لزوجها فحسب، ولبيتها وأبنائها. إنها خلقت لأجل هذا الغرض[...] ولذا فإن رأس مال الفتاة ليس تعليمها، ولا معرفتها في تدبير شؤونها، ولا جمالها أيضاً، ولكن في...براءتها! دون هذا لا تساوي ربع قرش»¹، قالت لزكية جدتها. بينما التزمت والدة زكية يامنة بنت طالب الصمت لعلمها بعدم الأخذ برأي امرأة أمية عادة ولو كان صواباً. أما الخال علال بن طالب شقيق يامنة فقد مثل جانب الدين والتمسك بالمبادئ، مقتنعاً بأنه "من يعمل الخير يره"، والإيمان بالقدرة الإلهية في تصريف الأمور خيرها وشرها، ولو أنه شق عليه تزويج زكية لصبري المذبذب الشخصية والعاطل عن العمل.

النموذج الثاني، يوميات الفلاحين الفقراء الذين يعانون عذاباً مضاعفاً من قسوة الحياة وبطش الاستعمار، فصمدوا رغم كل الاستفزات التي تعرضوا لها. عائلة مرحوم فقيرة تسكن في الريف وتكتفي بما تنتج ولو قليلاً، تتكون منه وزوجته بدة وأطفالهما. حمل الزوج عجيب الخبز على ظهر حمار إلى الفرن بالمدينة، وفي الطريق علم أن الوطنيين من بينهم ابنه قاموا بتفجير خط سكة الحديد. تعرض إلى التفتيش والإهانة ذهاباً وإياباً من قبل الجنود الفرنسيين الذين عسكروا في مدخل المدينة، ومنذ ذلك الحين أصبح متعاوناً مع الثوار.

¹ Mohammed Dib, Un été africain, Éditions du Seuil 1959, et Points 2013. p.107.

في أحد الصباحات قام جنود الاستعمار بعملية تمشيط ضد قرية مرحوم بعد وشاية أدلى بها العياشي عميل الفرنسيين بخصوص وجود الثوار في المنطقة، فقتله بإساحلي الفلاح الذي فقد ولديه بسبب الوشاية. اقتحم الجنود البيوت فأخرجوا كل السكان منها بالقوة وسط صياح النساء وبكاء الأطفال، وحشدوا الرجال الفلاحين في جهة واحدة. «خرج الفرنسيون من المنازل وأذرعهم محملة بالثياب والأغطية والرزم: أخذوا كل ما وقعت أيديهم عليه وسارعوا لتكويمه في الشاحنات. شوهوا وهم يحملون أكياس القمح، والدقيق، والزيتون ودلاء الزيت. مؤونات الفلاحين!»¹. ففي زمن قصير ارتكبوا جرائم شنعاء في حق الفلاحين، أربعوا الناس بإطلاق الرصاص، وفتشوا بيوتهم، ونهبوا أمتعتهم، وقتلوا حيواناتهم، واقتيد مرحوم إلى الشاحنة وحده.

اضطرب بابا علال للمعاملة السيئة التي تلقاها ولكنه لم يبال بالتوقيف الجماعي الذي قام به ضد الأهالي المسالمين أوروبيون مسلحون يتكونون من رجال الأمن بكل أصنافهم الشرطة، واللفيف الأجنبي، والأمن الجمهوري. فقد دفعه الشعور بالإهانة والإذلال إلى أن يصرح بالكراهية التي يكنها لهم لأنهم جبناء، ويتوعدهم بأن الثوار، ومنهم ولده بن علي، سيردون على هذه الإساءة المذلة. «وتضاف إلى هذه المشاهد الرهيبة، مشاهد التعذيب السري الذي تذاغ تفاصيله بكلام خفيّ، أو الرعب الذي تنشره "اليد الحمراء" التي تخطف الناس ليلاً»²، وتقتلهم بلا شفقة أو رحمة.

النموذج الثالث، يوميات الفقراء الذين نزحوا من الريف إلى المدينة هروبا من شظف العيش مثل الخادمة رحمة، ليس لهم أرض يأكلون منها، فالحقول من نصيب المستوطنين كالتّي استولى عليها المستوطن برنابي. يتسكع الرجال عاطلين عن العمل بسبب الحرب في الشوارع والأرصفة المكتظة بالمتسولين، ويجلسون في المقاهي دون هدف، ويستمعون في نشرات الأخبار عن نشاط الوطنيين. شعر جمال طراز أنه عديم القيمة في المجتمع لأنه غير متعلم ليشغل وظيفة

Un été africain, ibid. p.168.

Ibid. Pp.111,112.

-1

-2

محترمة بعدما تخلى عن وظيفته في مكتب الإدارة الاستعمارية بسبب عدم تحمله المظالم التي يعاني منها مواطنوه الجزائريون من قبل الإداريين الاستعماريين، ولم يتعلم حرفة تقيه الحاجة، وعلى هذا الأساس لم يجد عملاً آخر يعيل به زوجته نفيسة وولديه الصغيرين ابن وبننت، وبعد صبر أصبح يشتغل صبياً في دكان الشيخ الحاج لتأمين قوت يومه. ومصطفى والي الذي انشغل بتربية ابنته اليتيمة نورة وتعليمها الحساب، إلا أن القدر ساقه إلى الاعتقال بسبب أخيه أحمد والي المنخرط في الثورة. فكانت تلك الممارسات القمعية وكثرة الاعتقالات لأدنى سبب تدفع الناس البسطاء إلى التعاطف مع الثوار وتساندهم ضد الاستعمار.

قطعت آسيا جبار الحبل السري مع الرواية الاجتماعية ذات البعد النفسي والأخلاقي إلى حين، بعد تعرضها إلى انتقادات شديدة من قبل النقاد الجزائريين بسبب تجاهلها معاناة الشعب الجزائري في عز النضال الثوري في عملها الأولين "العطش" و"المستعجلون". و«أثناء نبشها في هذا الماضي [الجزائر المستعمرة]، تكتشف أن اللغة الفرنسية التي تكتبها ملطخة بالدماء. فعند قراءة التقارير التي قدمها الضباط والأرستقراطيون حول الاستيلاء على مدينة الجزائر، أدركت أن شهود هذا العنف قد كتبوا بلغتها: "أنا، على حد قولها، وريثة أولئك الذين يقتلون. لقد برهنت من خلال هذا الكتاب¹ * أن هناك دما في ميراث اللغة»².

التزمت الكاتبة في رواية "أبناء العالم الجديد" المكتوبة في جوان/ أوت 1961 بقضية الوطن الجوهريّة ألا وهي النضال الثوري، واتخذت من أحداث الثورة في 1956 وحادثة إضراب الطلاب الجزائريين في 19 ماي مرجعاً تاريخياً لتصوير صفحة مشرقة من كفاح أبناء الشعب المضطهد،

¹ * يشير إلى رواية آسيا جبار "الحب والفانتازيا" 1985.

Voir: Tahar Ben Jelloun, Assia Djébar dans la crue de la douleur, Publié le 10 mai 1985.

Consulté le : 10.10.2021-18 :30.

https://www.lemonde.fr/archives/article/1985/05/10/assia-djébar-dans-la-crue-de-la-douleur_

وتضحيات المرأة الجزائرية من أجل الحرية والاستقلال، ومساهمة بعض الأحرار من فرنسيي الجزائر الذين وقفوا إلى جانب الحق والعدل ضد الاستعمار أثناء الثورة التحريرية.

تتوزع فصول الرواية الثمانية على شخصيات عديدة إيجابية وسلبية تعيش حياتها في مدينة صغيرة كشرشال. تتكون من شباب رجال ونساء على درجات متفاوتة في المستوى الاجتماعي، والتعليم والثقافة، شكلت أبناء العالم الجديد الذين خاضوا تجربة الوعي السياسي الوطني في المدن، ومأساة الحرب ضد الاستعمار في الجبال، وتأثروا بمشاهدها المروعة، من هروب، ومطاردة، وسجن، واستنطاق، وتعذيب، وقتل، كما عاشوا الثورة الاجتماعية على التقاليد البالية التي جعلت المرأة سجيناً بين جدران البيت وخاضعة لأهواء الرجل، مع التمسك بالهوية الدينية المتمثلة في الشريعة الإسلامية. و«يلاحظ أن الكاتبة لم تكنف، في الواقع، بإبراز دور المرأة الجزائرية في الكفاح التحرري فحسب ولكنها تجاوزت ذلك إلى تصوير المعوقات الاجتماعية التي كانت تعترض طريق المرأة، وكانت لها آثار سلبية على دورها في الكفاح، وأهم تلك المعوقات، الأحكام المسبقة الموجودة عند الرجل عن المرأة...»¹. وعليه ظهرت المرأة في الرواية كأخر ناقص الحقوق في منظور الثقافة الذكورية المهيمنة.

شخصيات إيجابية استطاعت أن تواجه مصاعب الحياة بعزم وثبات، وتواكب الأحداث السياسية العاصفة. غادر المناضل عليّ طالب الطب إلى الجبل، بينما بقيت زوجته ليلي الثرية والوفية وحيدة تنتظر مولودها، «عليّ بمبادئه وأخلاقه الدقيقة ووطنيته المتشددة، على الرغم من محيطهما المشترك، عارض الرغبة الشديدة في التظاهر بجعل هذه الفتاة الشابة العنيفة، المرتبكة في ثروتها، امرأة مثالية»²، ونجح في توعيتها وزرع الروح الوطنية فيها. أخته الكبرى شريفة التي تولت تربيته منذ الصغر، وزوجها يوسف النجار الذي ينشط مع الثوار. وسليمة التي تعلمت في المدرسة الفرنسية لتصبح معلمة، ثم مناضلة تعرضت للاعتقال والاستجواب في مركز

¹ - أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، م س، ص 341.

² - Assia Djébar, Les Enfants du nouveau monde, René Julliard, éditeur, Paris, 1962. Pp.44,45.

الشرطة بسبب تردها إلى منزل محمود المناضل الهارب المتخفي عن أنظار الشرطة في أزقة المدينة. والتلميذ الثانوي الواعي بشير، ابن عبد الرحمن الخباز الذي رغب في أن يتعلم ابنه ويتخرج إطاراً، لكنه التحق بالثورة في الجبل وهناك أحب حسيبة الطالبة والمناضلة، وأشعل النيران في مزارع المستوطن فيران أودت بحياته. والمحامي خالد الذي كان يدافع عن مواطنيه المناضلين من التهم الملفقة مثلما وقف مع سليمة وقفه الوطني.

شخصيات أخرى أدت أدواراً سلبية إزاء الثورة، مثل حكيم الموظف في الإدارة الاستعمارية، والذي يعمل شرطياً لتوفير لقمة العيش. اتهم يوسف بتزعم مجموعة من المناضلين لذلك بات مكروهاً لأنه أقدم على سجن وتعذيب مواطنه المناضل سعيدي، تقابله زوجته آمنة المتعاونة مع إخوانها سرا. انحازت تومة إلى معسكر العدو فأقامت علاقة مع مارتيناز من أجل مصلحتها، فانتقم توفيق من هذه الأخت العميلة التي جلبت العار للمدينة. وعمر المحامي الذي يمثل الجزائري المتخاذل والخائن وطنه، وجد في السفر إلى فرنسا سبيلاً للهروب من العمل الثوري في الجزائر، بينما آمنت زوجته الفرنسية سوزان بقضية التحرر، وقررت البقاء في الجزائر لمساندة المناضلين الجزائريين ضد الظلم الاستعماري.

تعرض المناضلون الجزائريون الذين وقعوا في قبضة مساعد الأمن مارتيناز إلى جرائم التعذيب البشعة من أجل استنطاقهم. صرخات المعذبين تعلو من بعيد، مات سعيدي تحت التعذيب، وأصيب عبد الرحمن بالمرض، وتُركت سليمة في زنزانة مظلمة وباردة بلا طعام ولا ماء ولا غطاء. وتبدت صورة الحرب الهمجية في العمليات العسكرية التي يشنها الجيش الاستعماري ضد السكان العزل وقتل الأبرياء. وفي جو السماء تحلق «الطائرات، النقاط السوداء التي يمكن من خلالها التمييز بين المنحنيات ومخر الطيران الأبيض، خطوط أرابيسك سريعة

الزوال يبدو أن الصدفة تتبعتها، مثل كتابة غامضة ولكنها تقتل»¹ بلا رحمة كل ما يتحرك على الأرض.

استمرت كتابات آسيا جبار بعد الاستقلال عن الثورة الجزائرية والنضال ضد التقاليد البالية باللسان الفرنسي الذي لا تجيد غيره، حيث أعربت عن مواصلة الكتابة بلغة المستعمر مضطرة: «أكتب إذن، باللغة الفرنسية، لغة المستعمر السابق التي أصبحت مع ذلك وبلا رجعة لغة أفكار، بينما أستمر في الحب، والمعاناة، والصلاة عندما أصلي أحياناً، باللغة العربية، لغتي الأم».

السمات المشتركة في الروايات المكتوبة عشية الاستقلال، والتي صورت بشاعة الاستعمار ضد الثورة الجزائرية وبسالة الثوار الجزائريين:

الانطباع الأخير لمالك حداد	صيف إفريقي لمحمد ديب	أبناء العالم الجديد لآسيا جبار
العمل الثوري	إعلان الثورة	النضال الثوري
قيام الجيش بالعمليات العسكرية الانتقامية ضد الأهالي،	ارتكاب جرائم في حق الفلاحين، مشاهد التعذيب المروعة في السجون.	عمليات عسكرية ضد السكان العزل وقتل الأبرياء، والتعذيب في السجون.
التعاون مع الثوار بإبراز دور الشباب المتعلم.	التعاون مع الثوار	التعاون مع الثوار بإبراز دور المرأة الجزائرية.

تناول هذا المبحث صورة الجزائر عند الجزائريين أو الأهالي، عبر مساءلة النصوص المكتوبة عشية اندلاع حرب التحرير 1950 إلى غاية الاستقلال 1962، وكانت بمثابة ملحمة

¹ Les Enfants du nouveau monde, ibid. p.21.

بطولية لخصت نضال جيل ثورة نوفمبر 1954. وقد ساهم الكتاب عن طريق الرواية بحسهم الوطني في تنوير الرأي العام العالمي والفرنسي لنقل مأساة الجزائر في صراعها مع الاستعمار الفرنسي الاستيطاني. وصورت جرائم جيش المستعمرين من خلال التقاط يوميات الجزائري تحت الضغط النفسي والإرهاب العلني، ووصف جو الحرب تحت صوت صفارات الإنذار المدوي، ووقع القذائف والقنابل التي ترميها الطائرات العسكرية على السكان بلا تمييز، وعمليات المداومة والتفتيش والتمشيط الواسعة في المدن والقرى. وكشفت حجم التضحيات التي شهدتها معارك التحرير، وقدمها الجزائريون ضد الإقطاع المحلي والأهالي البورجوازيين الموالين، وفي ميادين القتال من أجل التمسك بأرضهم والمحافظة على شخصيتهم من الاضمحلال، ودحض أسطورة الجزائر الفرنسية التي أسسها النظام الاستعماري.

الخاتمة

ينتمي مبحث علم الصورة l'imagologie litteraire إلى حقل الأدب المقارن الذي يهتم بمسألة الأنا والآخر والهوية والمثاقفة، ويركز على خطاب الاختلاف والمخالفة والمغايرة، من حيث هو خطاب مزدوج ذو حدين، خطاب الاستعمار والمركزية الأوروبية (الغربية المتعالية)، وخطاب التحرر ومناهضة الاستعمار. وقد تم الاشتغال، وفق هذا الخطاب الضدي، على اتجاهين متعاكسين، صورة بلد في أدب أمة أخرى بالتوازي مع صورة بلد في أدب كتابه في سياق الرد بالكتابة.

اضطلعت هذه الدراسة برصد مغامرة المتخيل السردي الخلاق في تأسيس تصورات وهمية ومرويات عن العلاقات بين الأمم والشعوب والأفراد في تقاربها وتنافرها كالتي رسمها الصراع التقليدي بين العرب المسلمين والأوروبيين في تاريخ الشرق والغرب. فانطلقت تسجل وقوفا على ملامح الجزائر في فضاءات زمنية مختلفة ومكانية متنوعة، تستقصي لوحات فكرية ملونة، ومشاهد حياتية مركبة ومعقدة، وتكتشف تجارب إنسانية زاخرة بالألم والأمل، وتعرض فصولا جمالية ممتعة في رحاب استبطان صورتها السردية إبان الاستعمار الفرنسي وتكفيك منظومة القيم الثقافية المضمرّة في خطابي المستعمر والمستعمر.

وقد توصلت إلى نتائج متعددة أبانت عن الاستراتيجيات التي استخدمها الكُتّاب في النصوص السردية لبناء صورة الجزائر وثقافتها في الحقبة الاستعمارية، ونقلها للمتلقي المستهدف بغية الاطّلاع عليها وتوجيه تفكيره إليها.

حرصت على الاهتمام بمرحلة احتلال الجزائر التي مرت بفترتين هما القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وشهدت هذه الحقبة ظروفًا حالكة سياسيا، وخصبة في مجال الأدب خصوصا في المتخيل السردي، الأولى كانت مرحلة الغزو الفرنسي واستمرار حملات الاستعمار لاكتشاف أراضي الجزائر المترامية الأطراف، والثانية كانت مرحلة الصراع ضد الآخر/الأهلي من أجل الاستقرار والاستيطان في ربوع ترابها.

فمن ناحية التيمات السردية فقد كتبت ونشرت، خلالهما، مؤلفات غزيرة جدا باللسان الفرنسي، لا تعدّ ولا تحصى، حول الجزائر الملهمة العظيمة.

انطلقت المرحلة الأولى غداة الاحتلال في القرن التاسع عشر إلى غروبه، وتميزت بسيطرة المستعمر على الساحة الأدبية بشكل تام في إطار الغزو العسكري والثقافي من أجل تبرير التدخل وتمير إيديولوجيته الاستعمارية، أدى إلى غياب كامل لإنتاج الجزائريين (الأهالي) نتيجة سياسة التعقيم والتكميم. اعتمد الكتاب الرحالون الفرنسيون الذين دشّنوا السياحة الأدبية على السرد التخيلي في تمثيل الجزائر المستعمرة لتوجيه الجمهور الفرنسي والعالمى منذ بداية الغزو كوسيلة دعائية تروج للمشروع للتوسع الاستعماري.

اقتصرت أدب السياحة الاستعمارية على التعبير عن الانطباعات السريعة، والعواطف الذاتية الحماسية، ووصف المناظر الساحرة والفضاءات الفريدة، والتركيز على الصور الغيرية المتكئة على الاختلاف الثقافي بين الأنا والآخر والتفوق الحضاري الغربي. مع إعادة استساخ تلك الصور النمطية Les stéréotypes والأحكام الجاهزة عن تخلف الجزائر وجمود الجزائريين. وقد استلهم أدباء العبور، صورهم ومواضيعهم من وثائق رحلات الاستعماريين، والكتب الإثنوغرافية التي ألفتها الضباط الكبار والمؤرخون العسكريون والمؤرخون المختصون، سعيا إلى استعادة سياسة الإمبراطورية الرومانية في مشروعها الاستعماري بإحياء التراث الروماني واللاتيني (الرومنة واللوتنة) وربطه بماضي الجزائر وعهدها الفرنسي، وبعث المشروع الصليبي المسيحي.

امتدت المرحلة الثانية من طلوع فجر القرن العشرين إلى الاستقلال، وكانت أكثر خصوبة من حيث الإنتاج الروائي وتميزت بإحداث قطيعة مع أدب السياحة الاستعمارية الغرائبي الذي أنتجه الأدباء الرحالون الذين جاؤوا من المتروبول، وإنشاء أدب ذي جمالية خاصة مستمدة من وحي الجزائر المستقلة إداريا عن فرنسا. أدب يصور الجزائر المعاصرة استجابة لتحولات الوضع الاستعماري إلى الاستيطاني، ينتج كتاب أوروبيون فرنسيو الجنسية ولدوا في الجزائر،

أو نشأوا فيها فترة كافية فدرسوا ثقافتها وتعلموا لغتها، أو استوعبوا روح البلاد الجديدة في ظل الاستعمار. يهتم هذا الأدب بشؤون الجيل الجديد من المستوطنين (فرنسيي الجزائر) وي طرح مختلف قضاياهم، مع ممارسة سياسة الإقصاء العنصري ضد الأهالي.

ولتأسيس جمالية الجزائر هذه ظهرت تيارات أدبية وفكرية مؤيدة تارة للرؤية الاستعمارية أو عبرت عن مواقف مناهضة، أصدر بعض هذه التيارات بيانات تحدد مسارها الإيديولوجي، هي حركة التجزؤر التي أنشئت في أعقاب الحرب العالمية الأولى من قبل الكتاب المتجزئين، ومدرسة الجزائر ذات البعد المتوسطي التي أسسها عشية الحرب العالمية الثانية جماعة من الأقدام السود، بالإضافة إلى الحركة النسوية المهمة بقضايا المرأة الأهلية التي ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين.

برز نشاط النخبة الجزائرية المتعلمة في مدارس الاستعمار للرد سرديا باللغة الفرنسية على توجهات الكتاب الاستعماريين الذين ينظرون باحتقار إلى الجزائريين وثقافتهم، والاهتمام بوصف واقع الأهالي ومواقعهم ونمط عيشهم. اتسمت هذه الكتابة المضادة بانقسام كتاب الأهالي إلى أدباء أحسنوا الولاء للاستعمار، ودعوا إلى تبني ثقافته لبلوغ الرقي الحضاري الغربي، وأدباء وطنيين مناهضين لإيديولوجيا الاستعمار الإمبريالية، في إطار صراع حضاري حاد بين النخبتين الفرنسية والجزائرية حول ملكية البلاد وأحقية خلافتها. وقد شكل التعبير عن أزمة الهوية وإشكالية الانتماء إلى الجزائر قاسما مشتركا لدى كتّاب الطائفتين المستوطنين الفرنسيين والجزائريين الذين خاضوا تجربة رواية الأطروحة.

شهد الصراع الذي كان على أشده بين طوائف المجتمع وإثنياته المختلفة حول مسألة هوية الجزائر والانتساب إليها، جسدها كتاب الاستعمار الذين تبنا نزعة الجزارة والنزعة المتوسطية، تأثرا بالنزعة الدينية المسيحية لبعث المشروع الصليبي، ونزعة الرومنة واللوتنة لبعث مجد الرومان، والنزعة الدينية الإسلامية عند الكتاب الذين يؤمنون بوحدة الأمة الإسلامية،

والنزعة الإدماجية التي تنادي بالمزج بين الحضارتين العربية الإسلامية والغربية، والنزعة القومية الإقليمية عند الكتاب الذين أرادوا إحياء الانتماء إلى البعد البربري، والنزعة الوطنية والثورية عند الكتاب الجزائريين الذين تمسكوا بالشخصية الجزائرية.

كما تأثر بعضهم في حدود القرن العشرين بالحدثة الأوروبية التي تهدد المجتمعات التقليدية وتتحدى الثقافات الأصيلة، وتتضمن الدعوة إلى نشر القيم الدخيلة التي تبنتها المذاهب المعاصرة كالرأسمالية والشيوعية والعلمانية والليبرالية التي تشجع الفوضى من خلال الحرية الفردية، وتندد بالتضييق على الحريات باسم حقوق الإنسان، بينما ركز الكتاب الجزائريون على تصوير الآفات الاجتماعية مثل تحرر المرأة وتمرداها والانحلال الأخلاقي لدى الشباب، ونهبوا إلى خطورتها على الثقافة العربية الإسلامية.

تكاثرت الأعمال السردية المكتوبة عن الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، واتسمت بسمات جمالية متعددة، اختلفت باختلاف المنظورات والمراحل التاريخية وتطور الأحداث السياسية. ففي البداية قام الكتاب الرحالون باستغلال الجاذبية الاستعمارية بالمزج بين الواقعي والخيالي لتقليل الفجوة بين السرد التوثيقي الجاف الذي كتبه العسكريون والمؤرخون الأولون والسرد التخيلي الذي يدخل في إطار السياحة الأدبية، مستخدمين البلاغة والخيال في تقديم الوقائع للمتلقى الغربي الشغوف بمطالعة أخبار البلدان البعيدة في صورة جميلة مطعمة بالغرائبي والعجائبي كي تستجيب لذوق اللون المحلي.

وعلى هذا الأساس تنوعت أعمالهم السردية وتعددت أجناسها بين مذكرات الرحلة واليوميات والرسائل والأقاصيص القصيرة. ونظرا لمرونتها نجحت الروايات فاستطاعت استيعاب شتى التيمات والأشكال. وكان للرواية الحظ الأوفر بين الأجناس السردية المستخدمة التي تناولت الجزائر مادة وموضوعا، لاسيما في القرن العشرين.

تعددت موضوعات الرواية واتجاهاتها تبعا لتوجهات الكتاب وللأحداث والمراحل التاريخية، فظهرت رواية الحرب والغزو العسكري، والرواية الاستيطانية التي تشجع المستوطنين على الاستقرار وتصور ملحمتهم البطولية في التغلب على وحشية الطبيعة والإنسان الجزائريين، والرواية الواقعية الاجتماعية، والرواية الإدماجية، والرواية الوطنية والثورية، والرواية الرمزية.

ولبناء صورة الآخر استند الكتاب الفرنسيون إلى العلم الحديث وتطور التكنولوجيا خدمةً للمشروع الاستعماري، خاصة العلوم الإنسانية، التي أنشأت نظرية تفاضل الأعراق والاختلاف الثقافي. وعلوم الطبيعة كعلم الأحياء والوراثة في الرواية الطبيعية، وعلوم الجغرافيا الذي استخدم في المغامرات العلمية.

أجاد كتاب الاستعمار استخدام الصور الفولكلورية والأسطورية بإفراط، لتنميط الجزائر والجزائري في قوالب جاهزة، مع تثبيت التنميط بتكرار مبالغ للصيغ والصور الاستعارية والرموز التاريخية المعبرة عن الاختلاف الثقافي لدى المتمسكين بالأطروحة الاستعمارية.

تم توظيف تقنيات الإدهاش والإثارة والتحويل في وصف الأشياء والناس والعادات والتقاليد لشد اهتمام المتلقي في المتروبول. وضمن بلاغة الشعرية تعرض الساردون إلى التوسع فيها واستثمار شعرية الرحلة والجغرافيا والطبيعة الجميلة بمختلف أصنافها، وشعرية المكان المجازي وفضاء المدينة الشرقية والصحراء الموحشة، وشعرية الغيرية.

تمكن الأدباء الجزائريون المتطورون، الذين نهلوا الثقافة الفرنسية من المدرسة الاستعمارية من إنشاء جمالية خاصة بهم من خلال الجمع بين وسيلتين غريبتين في الرد على الكتاب الفرنسيين، هما السرد الروائي واللسان الفرنسي، واستطاعت أعمالهم تصوير الجزائر بمختلف الإثنيات من زاوية المقاومة، مقاومة الإدماج الثقافي الذي سعت إليه الدوائر الاستعمارية لخلق

هوية هجينة وطمس مقومات الأمة عند الشعب الجزائري، متشبهين بالشخصية الوطنية ومقاومة هيمنة الاستعمار بالدعوة إلى التحرر.

لعل المسألة التي صنعت الفارق في هذه الدراسة حول صورة الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، هي السردية الطباقية التي تتزامن فيها تمظهرات الأنا والآخر في الخطاب المكتوب باللسان الفرنسي عند الكتاب المستوطنين الفرنسيين (السردية الاستعمارية) من جهة، ومن جهة أخرى سردية المقاومة عند الكتاب الجزائريين الذين يعد إنتاجهم أدبا جزائريا باعتبار أن اللغة آلية، ووعاء حاملا للثقافة، يعكس صورة ذاتية عن الجزائري، ويؤكد هذا الحكم الأدب المكتوب باللسان الفرنسي بعد الاستقلال أو ما يسمى اصطلاحا بالأدب الفرانكوفوني *litterature francophone*.

تجسدت نظرة المستعمر والمستعمّر ناظرا ومنظورا إليه في سياق ثنائية الكتابة والرد بالكتابة. تصب نظرة المستوطنين الفرنسيين في ناحيتين، ناحية إيجابية هي الانبهار بجمال الجزائر ومساحتها المترامية الأطراف، والتغني بتنوع طبيعتها العذراء وأراضيها الخصبة. وناحية سلبية تمثلت في بث صور وهمية عن خطورة الجزائري العدو الأمثل المناسب للقب الأهلي، والشعور نحوه بالرهاب. والتعالي على هذا الأهلي بصفته آخر يشبه نفسه، وازدراء حضارته والتشكيك في تاريخه ونكران تراثه العريق وثقافته،

وتتبدى نظرة الجزائريين (الأهالي) إبان الاحتلال من جهتين، الجهة الأولى هي التشبث بالجزائر أرض الأجداد والآباء، والتمسك بالشخصية الجزائرية بكل مقوماتها الجوهرية وملامحها المتمثلة في الدين الإسلامي واللغة العربية والتراث البربري والعادات والتقاليد. ورفض المستعمر، واعتباره أجنبيا دخيلا يستحيل الاندماج في ثقافته الغربية. ومن جهة أخرى انبهار الذات الممزقة، التي كانت تبحث عن منفذ لأزمة الهوية المطروحة، بحضارة الغربي ومدح ثقافته

المنفتحة على العالم، ومحاولة التعايش معه، والاحتكاك به وتقليده، والاندماج فيه، وإعلان الثورة على العادات والتقاليد المحلية التي جعلت الجزائري حبيس التخلف.

وقد خرجت الدراسة بتوصيات تحث على الدعوة إلى الاهتمام أكثر بمبحث علم الصورة المقارن *L'imagologie comparée* في الأعمال الأكاديمية، والمزيد من الاشتغال في الأدب المقارن بالجزائر نظرا لأهميته بصفته ميدانا متعدد الاختصاصات *interdisciplinaire*، وتركيز البحوث باللغة العربية على النصوص السردية التي لم تتل حظها من التحليل والنقد والمقارنة، خاصة النصوص المحلية التي ظهرت قبل الاستقلال كونها تمثل مرحلة تاريخية مهمة في الأدب الجزائري.

المصادر والمراجع

باللغة العربية

- إبراهيم محمد، الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية، الحوار المتمدن، العدد 5370.
<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=541146>
- أراق بن محمد سعيد، الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014.
- أيزابجر آرثر، النقد الثقافي: تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر: إبراهيم وفاء وبسطاويسي رمضان، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2002.
- إيفرار فرانك، ألبير كامو تيمات ودراسات، تر: الزهرة رميج، النايا للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2014.
- باجو دانييل هنري، الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997.
- باشلار غاستون، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1984.
- بن داهة عدة، الاستيطان والصراع على ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي 1830-1962، المؤلفات للنشر والتوزيع، ج1، ط1، المسيلة-الجزائر، 2013.
- بن عثمان خوجة حمدان، المرأة، تع: محمد العربي الزبييري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- بن قرية صالح وآخران، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.
- بن نبي مالك، لبّيك، حج الفقراء، تر: زيدان خوليف، دار الفكر، دمشق، 2006.

- بوزيدة عبد القادر، صورة الآخر ودلالاتها في الدراسات المقارنة Limagologie ، مجلة اللغة والأدب، كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية، جامعة الجزائر2/أبو القاسم سعد الله، العدد26، ديسمبر2015.
- بيشوا كلود وروسو أندري ميشال، الأدب المقارن، ترجمة وتقديم أحمد عبد العزيز، مكتبة الأنجلو المصرية،2001.
- تاورسارجنت لايمان، اليوتوبية، مقدمة قصيرة جدا، تر: ضياء ورّاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، 2016.
- تودوروف تزفيطان، مفاهيم سردية، تر: عبد الرحمان مزيان، منشورات الاختلاف، ط1، 2005.
- جورافسكي أليسكي، الإسلام والمسيحية، تر: خلف محمد الجراد، عالم المعرفة،1996،
- جوف فانسان، أثر الشخصية في الرواية، تر وتق: حسن أحمامة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط1، سوريا، 2012.
- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1965.
- حداد مالك، التلميذ والدرس تر: سامي الجندي، منشورات وزارة الثقافة،2008.
- حداد مالك، رصيف الأزهار لا يجيب، تر: ذوقان قرقوط، آفاق الكتابة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1999.
- لحداني حميد، النقد الروائي والإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1990.
- حنون عبد المجيد، صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط2، 2013.

- الحوماني، الصورة والتصور والتصوير، مجلة الرسالة، المجلد الثاني، العدد 64، بتاريخ 24-09-1934، ص31. المكتبة الشاملة الحديثة.
- الحيمر عبد الله، ألبير كامو... مستوطن اللامعنى في رواية الطاعون، مقال منشور في القدس العربي الإلكترونية، 13 يناير 2021. [/https://www.alquds.co.uk](https://www.alquds.co.uk)
- خضر سعاد محمد، الأدب الجزائري المعاصر، منشورات الكتب العصرية، صيدا - بيروت، 1967.
- الخليل سمير، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- دوبرا آن وبيشرو إميلي، تر: محمد عبد الفتاح السباعي، مرآة الشرق، دار الصفصافة للنشر، يناير 2015.
- رحيم سعد محمد، سحر السرد، دراسات في الفنون السردية، دراسات نقدية، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2004
- سبنسر وليم، الجزائر في عهد "رياس البحر"، تع: عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006.
- ستيفنس جيمس ويلسن، الأسرى الأمريكان في الجزائر 1785 - 1797، تر: علي تابلت، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، 2007.
- سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط3، الجزائر، د.ت.
- سعيد إدوارد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، من تصدير رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.
- سعيد إدوارد، الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 2014.

- سوذرن ريتشارد، صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، تر: رضوان السيد، دار المدار الإسلامي، ط2، لبنان، 2006.
- شالر وليام، مذكرات قنصل أمريكا بالجزائر 1816-1824، تع: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- صليبا جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج1، 1982.
- عبد الحكيم شوقي، موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، مكتبة مدبولي، د.ت.
- عبيد مصطفى، الفكر الاستعماري السانسيموني في مصر والجزائر 1833-1870، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
- لعرج واسيني، ألبير كامو، موت الجزائر الأخرى؟، مقال منشور في القدس العربي الإلكترونية، 22 سبتمبر 2020. [/https://www.alquds.co.uk](https://www.alquds.co.uk)
- لعميرايو احميدة، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا)، شركة دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2003.
- غيلان حيدر محمود، الأدب المقارن ودور الأنساق الثقافية في تطور مفاهيمه واتجاهاته، مجلة دراسات يمنية، العدد 80، د.ت.
- فانون فرانز، معذبو الأرض، تر: منور، سلسلة الأنيس، موفم للنشر، 1990.
- فيرن جول، غزوة البحر، تر: آدم فتحي والهادي ثابت، مومنت كتب رقمية، 2015.
- قرياش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830)، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف أ: بوغفالة ودان، جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر، السنة الجامعية 2015-2016.
- لكلرك جيرار، الأنتروبولوجيا والاستعمار، تر: جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 1990.

- مَنُور أحمد، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياها، دار التنوير، الجزائر، 2013.

مَنُور أحمد، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، في مليانة، دار التنوير، الجزائر، 2013.

- ندا أيمن منصور، الصور الذهنية والإعلامية، المدينة برس، القاهرة، 2004.

- النملة علي بن براهيم، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1993.

- Abed El Fatah Nadia, " Ferhat, instituteur indigène de Louis Albert Truphémus, un roman « anticolonialiste » ou l'expression d'une déconvenue ", Loxias, Loxias 42, mis en ligne le 06 octobre 2013. URL: <http://revel.unice.fr/loxias/index.html?id=7570>
- Achar Paul, Salaouétches, Editions Baconnier.
- Adam Jeanne, Polémiques autour du premier Grand Prix Littéraire de l'Algérie, La situation des lettres algériennes en 1921. In Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°37, 1984. : https://www.persee.fr/doc/remmm_00351474_1984_num_37_1_2018
- Aïth Mansour Amrouche Fadhma, Histoire de ma vie, Librairie François Maspero, Paris, 1968.
- Algérie360, malek ouary journaliste et romancier algérien (1916 – 2001), le grain subsiste par-delà tout, interview entre S. Ait hamouda et Malek Ouary. <https://www.algerie360.com/malek-ouary-journaliste-et-romancier-algerien>
- Ali-Benali Zineb, Mohammed Dib, Écrire. Sur les traces du signe, Centre culturel du livre, Casablanca, Première édition 2019.
Ali-Benali Zineb, Le premier texte algérien en langue française: Texte fantôme d'un texte absent, (Université Paris 8) . <https://s-space.snu.ac.kr/bitstream/10371/88906/1/4.pdf>
- Ali-Khodja Djamel, Isabelle Eberhardt : regards, désirs et création d'une mystique, Revue Sciences Humaines, n°13, Université Mentouri, Constantine, Algérie, 2000.
- Amrouche Taos, Rue des tambourins, Editions Joelle Losfeld, Paris, 1996.
- Auclert Hubertine, Les Femmes arabes en Algérie, Société d'éditions littéraires, 1900
https://fr.wikisource.org/wiki/Les_Femmes_arabes_en_Alg%C3%A9rie/Texte_entier
- Audisio Gabriel, Héliotrope, Librairie Gallimard, 1928. Édition électronique 2016.
- Audisio Gabriel, Jeunesse de la Méditerranée, Éditions Gallimard, 1935.
Audisio Gabriel, Trois hommes et un minaret, Editions L'Harmattan, 1 nov. 2009.

-Aurousseau Patrick, le-regard-porte-sur-les-prostituees-en-algerie-un-modele-de-dominance-occidentale-l-exemple-de-l-apparition-des-ouled-nail-chez-Fromentin, Maupassant et Gide .

<http://viatica.univ-bpclermont.fr/le-carnet-de-voyage-permanence-transformations-legitimation>

-Belhalfaoui Aïcha, Entretien avec Jules Roy, Regards en septembre 1998.
<http://www.regards.fr/archives/archives-web/jules-roy>

-ben Ali Saad et Pottier René, La Tente noire, roman saharien, Les oeuvres représentatives, Paris, 1933.

-Benamara Khelifa, Le Destin d'Isabelle Eberhardt en Algérie: Amour, mystique, espionnage et mort violente, Editions Publibook, 1 août 2013.

-Ben Chérif Mohammed, Ahmed Ben Mostapha goumier, présenté et annoté par Ahmed Lanasri, Editions Publsud, 1997 .

-Ben Jelloun Tahar, Assia Djébar dans la crue de la douleur, Publié le 10 mai 1985.

https://www.lemonde.fr/archives/article/1985/05/10/assia-djébar-dans-la-crue-de-la-douleur_2745205_1819218.html

-Benkada Saddek, «La création de Médina Jdida, Oran (1845): un exemple de la politique coloniale de regroupement urbain », Insaniyat إنسانيات / [Online], 5 | 1998, Online since 31 May 2013 .

URL: <http://journals.openedition.org/insaniyat/11866>; DOI:
<https://doi.org/10.4000/insaniyat.11866>

-Benoit Pierre, L'Atlantide, Edition Ebooks libres et gratuits, Mars 2013.

-Bensaadi Fayçal, Paul Bellat, survivance de l'algérianisme et mystique de circonstance, Thèse de doctorat es sciences en Littérature, Ecole doctorale – Pôle Ouest, Sous la direction de M. Belkacem Mebarki – Université d'Oran, 2008-2009. Pdf

Bensaddi Fayçal, Paul Bellat, écrivain colonial.

<http://www.limag.com/Textes/Bensaddi/Bellat.htm>

-Berrichi Boussad, cité dans l'article : Bou-el-Nouar, le Jeune Algérien.
https://djurdjura1.rssing.com/chan-19225387/all_p2.html.

-Bertrand Louis, La Cina, Librairie Paul Ollendorff, Société d'Éditions Littéraires et Artistiques, Cinquième Edition, Paris, 1901.

Bertrand Louis, Pépète le bien-aimé, Modern-Bibliothèque Arthème Fayard et Cie, Éditeurs, Paris, 1909.

Bertrand Louis, *Le sang des races*, Librairie Paul Ollendorff, Société d'Éditions Littéraires et Artistiques, Septième Édition, Paris, Digitized by the Internet Archive in 2011 with funding from University of Toronto.

Bertrand Louis, "UNE MANIFESTATION LITTÉRAIRE 'NOTRE AFRIQUE.'" *Revue Des Deux Mondes* (1829-1971), vol. 27, no. 2, *Revue des Deux Mondes*, 1925. <http://www.jstor.org/stable/44844592>

-Beuvain Christian, *Revolutionary History*, vol. 10, n° 4, 2012, « European Revolutionaries and Algerian Independence, 1954-1962 », London, Socialist Platform Ltd – Merlin Press in « *REVUE des REVUES : Second semestre 2013* », *Dissidences [Online]*, 6 | 2013, Online since 30 December 2013.

-Boisnard Magali, *Mâadith*, Librairie Edgar Malfère, Amiens, 1921 .

-Bonn Charles, *Kateb Yacine : Nedjma*, 1ère édition : Paris, PUF, 1990.

-Bonn Charles, *La Littérature algérienne de langue française et ses lectures* Ottawa: Eds Naaman, 1974.

-Bonn Charles, *Le roman algérien de langue française*, Paris, L'Harmattan, 1985.

-Bors Edit, *Récits d'Alceste : approche(inter)textuelle*, Études, Université Catholique Pázmány Péter de Piliscsaba.

-Boualit Farida, Benchabane Yazid, *L'espace et les hommes de « Bougie » /Bejaia dans l'œuvre de G. de Maupassant*, Université A. Mira-Béjaia / Laboratoire LAILEMM, *Synergies Algérie* n° 21 – 2014.

Boualit Farida, « *L'école française dans le fils du pauvre de Mouloud Feraoun: Rite de passage ou rite d'institution?* », *Multilinguales [En ligne]*, 1 | 2013, mis en ligne le 01 juin 2013. URL:

<http://journals.openedition.org/multilinguales/2904>

- Bouchakour Walid, *Au fond des grottes, l'histoire et la littérature*, *Spéléologie de l'écrit*, 15 Novembre 2014-10:00. <https://www.elwatan.com/pages-hebdo/arts-et-lettres/speleologie-de-lecrit-15-11-2014>

- Bouju Marie-Cécile, *Lire en communiste, Les maisons d'édition du Parti communiste français 1920-1968*, Presses universitaires de Rennes, 2010. <https://books.openedition.org/pur/105734> ?

- Brahimi Denise, *Vamp saharienne* 1933. In: *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n°37, 1984 .

doi: <https://doi.org/10.3406/remmm.1984.2024>

https://www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1984_num_37_1_2024

- Branca-Rosoff Sonia, L'Institution des langues : Renée Balibar, Les Editions de la MSH, 2001.
- Bugéja Marie, Enigme musulmane: lettres à une Bretonne, Les Editions internationales Tanger et Fez, 1938.
- Bugéja Marie, in Nos collaborateurs, France-Afrique, Littéraire artistique et scientifique, 23Juin1933.
<https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k5729688f/f2.textePage>
- Buis Georges, La grotte, Éditions du Seuil, Octobre 1988.
- Caillat Jules, Le voyage d'Alphonse Daudet en Algérie (1861-1862)1, in la Revue africaine. Nos 314 et 318. Années 1923 et 1924, Iger, J. Carbonel, impr.-libr.-éditeur, 1924.
- Calmes Alain, Le roman colonial en Algérie avant 1914, L'Harmattan, Paris, 1984.
- Calargé Clara, La Danse des Représentations, tentative de peindre ce qui n'est plus. Une étude de Khadra, danseuse Ouled Naïl, French Forum / Fall 2012 / Vol. 37, No. 3. <https://muse.jhu.edu/article/505101>.
- Camus Albert, La peste, ENAG Editions, Alger,2012.
- Camus Albert, L'Étranger, version numérique, Les classiques des sciences sociales, 2010.
- Camus Albert, L'Exil et le Royaume, Collection Folio, Gallimard, 2010.
- Centre national de ressources textuelles et lexicales
<https://www.cnrtl.fr/definition/patou>
- Chaulet Achour Christiane, "Un roman d'alerte: 1962 en 1922. Berbéropolis... l'an quarante de la République berbère par Victor Trenga (Alger, 1922)", Babel [Online], 38 | 2018, Online since 01 February 2019, connection on 13 January 2021. URL: <http://journals.openedition.org/babel/5995>
- Centre national de ressources textuelles et lexicales.
<https://www.cnrtl.fr/definition/patou>
- Cheniki Ahmed, Algérie contemporaine cultures et identités, HAL Id: hal-02281109, 2019.
- Chetouani Lamria, L'étranger d'Albert Camus : une lecture à l'envers du stéréotype arabe. In : Mots, n°30, mars 1992. Images arabes en langue française .
http://www.persee.fr/doc/mots_0243-6450_1992_num_30_1_1679
- Jacques Chevallier, Nous, Algériens... CALMANN-LÉVY, 1958.
- Chibani Ali, Malek Ouary dans la fosse aux lois, La plume Francophone, 9 Septembre2018.12-16. <https://la-plume-francophone.com/2018/09/09/>

- Clot René -Jean, Empreintes dans le sel, 7ème Ed, Editions Gallimard,1950 .
- Clot René -Jean, Fantômes au soleil, 3ème Ed, Editions Gallimard,1948.
- Court Antoine, Regards populaires sur l'Anglo-saxon: drôles de types: études, Université de Saint-Etienne, 2003.
- Daudet Alphonse, Lettres de mon moulin, La Bibliothèque électronique du Québec, Jean-Yves Dupuis Collection À tous les vents, Volume 190 : version 1.01, Édition de référence : Paris, G. Charpentier, 1887.
- Daudet Alphonse, Les aventures prodigieuses de Tartarin de Tarascon, Ebooks libres et gratuits, Avril 2005.
- Daumas Eugène, Le grand désert, ou Itinéraire d'une caravane du Sahara au pays des Nègres (royaume de Haoussa) / et Ausone de Chancel, Le Sahara Algérien, Imprimerie et Librairie Centrales de Napoléon Chaix, Paris, 1848.
- Daumas Eugène, Paul-Dieudonné Fabar, La Grande Kabylie : études historiques, L. Hachette et Cie, Paris, 1847.
- Déjeux Jean, Éliissa Rhais, conteuse algérienne (1876 -1940). In : Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°37, 1984.
http://www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1984_num_37_1_2021
- Déjeux Jean, La Littérature maghrébine d'expression française, Que Sais-Je ? Presses universitaires de France, 1 édition, Paris,1992 .
- Demage G, A travers le Sahara, Aventures merveilleuses de Marius Mercurin, Librairie Hachette, Paris,1903.
- Dib Mohammed, La Grande Maison, Éditions du Seuil, 1952 et 1996, et "Points" n P225.
- Dib Mohammed, L'incendie, Éditions du Seuil, 1954.
- Dib Mohammed, Le Métier à tisser, Éditions du Seuil, 1957 et 1974.
- Dib Mohammed, Un été africain, Éditions du Seuil 1959, et Points 2013.
- Dimech Pierre, Evocation d'Annette Godin .(1958-1875)
<http://www.cerclealgerianiste.fr/index.php/le-cercle-algerianiste>
- Djebar Assia, La Soif, René Julliard, éditeur, Paris, 1957.
- Djebar Assia, Les Enfants du nouveau monde, René Julliard, éditeur, Paris, 1962.
- Djeghloul Abdelkader, Un romancier de l'identité perturbée et de l'assimilation impossible: Chukri Khodja, In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°37, 1984 .
https://www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1984_num_37_1_2022

-Djom Maurice Simo, L'hybridité dans le roman autobiographique francophone contemporain, Editions Publibook, 2017.

-Donato Marc, Laurent Ropa, écrivain bônois.

http://piednoir.net/titre_rubrique/personnages/ropa.html.

-Drohojowska (La comtesse) «l'Histoire de L'Algérie, Racontée à la jeunesse, Précédé d'une préface de Guy de Maupassant, Au Soleil, Édition reproduite Albin Michel, 1925. Édition du groupe « Ebookslibresetgratuits«

-Duchêne Ferdinand, Au pied des monts éternels, Albin Michel, Editeur, Paris,1925.

-Duchêne Ferdinand, Le berger d'Akfadou, Albin Michel, Editeur, Paris,1928.

-Duchêne Ferdinand, Mouna, Cachir et Couscous, Mercure de France, No 759, 41e Année Tome CCXVII 1er Février, 1930 .

-Dufief Anne-Simone, Tartarin, les avatars d'un disciple de Saint Hubert, In : Romantisme, 2005, n°129. L'imaginaire de la chasse dans le second XIXe siècle.

-Dugas Guy, Types et parlers, de la diaspora européenne dans la littérature de l'Afrique du Nord, Diasporas: histoire et sociétés, Presses Univ. du Mirail.

-Dugas Guy, La littérature judéo-maghrébine d'expression française (1896 - 1990)« Etudes littéraires maghrébines, Université Paris-Nord, Université d'Alger L' Harmattan.

-Dumas Alexandre, Le Véloce ou Tanger, Alger et Tunis, Éditions Le Joyeux Roger, Montréal,2006.

-Duprat Anne, La guerre de course en récits. Terrains, corpus, series Dossier réalisé par l'équipe du Projet ANR CORSO (2010) Avec la coopération du Centre de Recherches en Littérature Comparée, du Conseil scientifique de Paris-Sorbonne (Paris-IV), de l'Université de Jaén (Espagne) et de l'Agence Nationale pour la Recherche. <http://www.oroc-crlc.paris-sorbonne.fr/index.php/visiteur/Projet-Corso/Ressources/Laguerre-de-course-en-recits>

-Eberhardt Isabelle, Au pays des sables, Adapté de textes réunis par René-Louis Doyon, édité par les Bourlapapey.

-Faci Saïd, L'Algérie sous l'égide de la France contre la féodalité algérienne, cité par : Peter Dunwoodie, La rhétorique du refus dans le roman colonial algérien de l'entre-deux-guerres, January 2012.

<https://www.researchgate.net/publication/334591508>

-Favre Lucienne, Tout l'Inconnu de la Casbah d'Alger, Baconnier Frères Alger,1933 .

- Eberhardt Isabelle, Rakhil Roman inédit, édité par la bibliothèque numérique normande, 1990.
- Feraoun Mouloud, La Terre et le sang, Editions Talantikit, Béjaïa, 2002.
- Feraoun Mouloud, Le fils du pauvre, Editions Talantikit, Béjaïa, 2016.
- Feraoun Mouloud, Les chemins qui montent, Editions Dar el Houda, Aïn M'lila, Algérie,2017.
- Ferhati Barkahoum, «La danseuse prostituée dite «Ouled Naïl» , entre mythe et réalité (1830-1962). Des rapports sociaux et des pratiques concrètes. », Clío. Histoire, femmes et sociétés [Online], 17 | 2003. URL: <http://journals.openedition.org/clio/584> ; DOI : <https://doi.org/10.4000/clio.584>
- Feydeau Ernest, Le secret du bonheur, Tome premier, Michel Lévy Frères, Librairies-Editeurs, Paris, 1864.
- Feydeau Ernest, Le secret du bonheur, Tome second, Michel Lévy Frères, Librairies-Editeurs, Paris, 1864.
- Feydeau Ernest, Alger, Michel Lévy Frères, Librairie-Editeurs, Paris,1862.
- Foucher Victor, Les Bureaux arabes en Algérie, Librairie Internationale de l'Agriculture et de la Colonisation, Rue de Richelieu, 110, Paris,1858. <https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k5788713d.texteImage>
- Frémeaux Jacques, Un rêve saharien ? Armée de terre | « Inflexions » 2011/3 N° 18 . <https://www.cairn.info/revue-inflexions-2011-3-page-47.htm>
- Fromentin Eugène, Lettres de jeunesse, Biographie et notes, par Pierre Blanchon (Jacques André Mérys), Librairie Plon-Nourrit et Cie, Imprimeurs-Editeurs,8, Rue Garancière, Paris, 1909.
- Fromentin Eugène, Sahara et Sahel, in préface, Librairie Plon, Paris, 1887.
- Gautier Théophile, Loin de Paris, Michel Lévy frères, Libraires Editeurs, Paris, 1865.
- Gautier Théophile, voyage en Algérie, présentation de Denise Brahim, La Boîte à documents, Paris, 1997.
- Gide André, Amyntas, Édition du groupe «Ebooks libres et gratuits », Livres électroniques, Juillet 2008.
- Gide André, L'Immoraliste, Édition du groupe «Ebooks libres et gratuits», Livres électroniques, Juillet 2008.
- Gide André, Les Nourritures terrestres, Édition du groupe «Ebooks libres et gratuits », Livres électroniques, Septembre 2007.

-Gomes Fernando, « « Solitaire ou solidaire » dans L'Exil et le Royaume d'Albert Camus », Carnets [En ligne], Deuxième série - 4 | 2015, mis en ligne le 30 mai 2015 .

URL: <http://journals.openedition.org/carnets/1559>

-Gomot F, Guide du Voyageur en Algérie, L'Annuaire de 1844.

-Goncourt Edmond et Jules de, Journal, Fasquelle-Flammarion, s.d. (1935), t.II. Le 23 novembre 1863.

-Goncourt Edmond et Jules de, Une voiture de masques, in Une femme du Mezouar, E. Dentu, Libraire-Editeur, Palais-Royal, Galerie vitrée, 13, Paris, 1856.

-Gourdon Hubert, Henry Jean Robert, Françoise Henry- Lorcerie, Le roman colonial et l'idéologie coloniale en Algérie, Revue algérienne des sciences juridiques économiques et politiques, Faculté de droit, Alger, Volume X I, N° 1, Mars 1974.

-Gouvernement général de l'Algérie. Bureaux arabes de l'Oranie - Registres (1841/1913), Répertoire établi par Charles Uthéza, révisé et complété par Barbara Sanchez, archiviste, et Anne-Isabelle Vidal, chargée d'études documentaires.

<http://anom.archivesnationales.culture.gouv.fr/ark:/61561/jh328jdb>

-Haas Ghislaine, « Discours grivois et séduction dans une nouvelle de P. Mérimée : Djoûmane », Semen [En ligne], 2 | 1985, mis en ligne le 12 juin 2007.

-Haddad Malek, La dernière impression, Editions Média-Plus, Constantine, 2015.

-Hadj Hamou Abdelkader, Zohra, Présentation : Hadj Miliani, Editions Dar El Gharb, Oran, 2007.

-Hadouche Dris Leïla Louise, « L'œuvre algérienne d'Isabelle Eberhardt, une écriture à revisiter », Insaniyat إنسانيات / [Online], 46 | 2009, Online since 11 April 2012.

-Hajos Katalin, Variations de l'interface littéraire dans les littératures maghrébines d'expression française, Thèse Sous la direction de Charles Bonn, Université Lyon Lumière II (France) Université Catholique Pázmány Péter de Piliscsaba (Hongrie), Année universitaire 2013-2014.

-Hamri Jamel (El). " L'idée religieuse" dans l'œuvre de l'intellectuel algérien Malek Bennabi (1905-1973): une injonction pour la société musulmane de faire l'Histoire. Religions. Université de Strasbourg, 2018. <https://tel.archives-ouvertes.fr/tel-02945039>

-Hammany Aly (El), Idris, Roman nord-africain, Entreprise nationale du livre, 2^e Edition, Alger, 1988.

-Hardi Ferenc, La naissance d'une littérature: Interférences littéraires dans les premiers romans algériens de langue française, Acta Romanica Szegediensis, Tomus XXIII .

http://acta.bibl.uszeged.hu ›romanica_023_071

-Henry Jean-Robert, Résonances maghrébines, in Le Maghreb dans l'imaginaire français: la colonie, le désert, l'exil. Actes de la Journée d'études, Collection « Maghreb contemporain.» Centre de recherches et d'études sur les sociétés méditerranéennes, 1985.

-Henry Jean-Robert, Marçot Jean-Louis et Moisseron Jean-Yves, « Développer le désert: anciennes et nouvelles utopies », L'Année du Maghreb [En ligne], VII | 2011, mis en ligne le 01 janvier 2013. URL:

<http://journals.openedition.org/anneemaghreb/1167>

DOI: <https://doi.org/10.4000/anneemaghreb.1167>

-Hourant Georges-Pierre, Ils ont tant aimé l'Algérie - Dix écrivains voyageurs à l'époque française, Editions Mémoire de Notre Temps, 2003. Jules Verne, Clovis Dardentor; Editions Hetzel, 1896.

L'Echo de l'Oranie - N°356 - janvier-février 2015.

<https://exode1962.fr/exode1962/en-savoir-plus/metropole/jules-verne.html#m>

-Imbroscio Carmelina, Nadia Minerva, Patrizia Oppici, Peter Lang, Des îles en archipel ...: flottements autour du thème insulaire en hommage à Biondi Carminella, in l'archipel méditerranéen de Gabriel Audisio, par Maria Chiara Gnocchi, 2008.

-Kassoul Aicha, L'Algérie en français dans le texte, Essai d'histoire littéraire algérienne 1860-1990, Editions ANEP, 2002 .

-Kateb Yacine, Nedjma, Editions du Seuil, 1956.

-Khadda Naget, Kateb Yacine, Une vie, une œuvre, Centre culturel du livre, Première édition, Casablanca, 2020.

-Khelouz Nacer, les Colons, Article publié le 11 juillet 2008, Revue d'Art et de Littérature, Musique, Espaces d'auteurs.

<http://www.lechasseurabstrait.com/revue/spip.php?article2092>

-Khelouz Nacer, Le roman algérien de l'entre-deux-guerres en lisant Robert Randau et Abdelkader Hadj Hamou, thèse PhD, Université de Pittsburgh, 2007.

-Ahmed Khireddine, Premier Romancier de l'Algérie et du Nord Afrique Mohamed ben si Ahmed BENCHERIF. <http://www.djelfa.org/romancier.htm>

- Khodja Chukri, El-Euldj, captif des Barbaresques, Editions ANEP, 2005.
- Khodja Chukri, Mamoun ou l'ébauche d'un idéal, Collection Textes Anciens, OPU.
- Koudriatsev Dmitri, « Norma ou l'exil infini » - Le dernier roman d'Emmanuel Roblès. www.limag.com › Textes › Koudriatsev › Norma.pdf,
- Jones Christa, "La Caverne Algérienne Chez Yamina Méchakra Et Georges Buis : Lieu De Résistance, De Maternité Ou De Combat." *Nouvelles Études Francophones* 26, no. 1 (2011) : 135-49. <http://www.jstor.org/stable/41445093>
- Jouglet René, *Le mal du siècle*, éditions FeniXX réédition numérique (Éditeurs français réunis 1961).
- Juquin Pierre, André Stil: « La Douleur », *La Nouvelle critique*, juillet-août 1961, n°128 .
https://pandor.u-bourgogne.fr/img-viewer/NC/NC_1961_07-08_n128/viewer.html?
- Lalaoui-Chiali Fatima Zohra, « Stéréotypes, écrits coloniaux et postcoloniaux: le cas de l'Algérie», *Itinéraires* [En ligne], 2010-1 | 2010. mis en ligne le 01 mai 2010 .
URL:<http://journals.openedition.org/itineraires/2125>;
DOI: 10.4000/itineraires.2125
- Lanasri Ahmed, *La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres - Genèse et fonctionnement*, Edition Publisud, Paris,1995.
- Lanasri Ahmed, *La critique algérienne de l'entre-deux guerres : Le poids de l'idéologie*. In: *Horizons Maghrébins - Le droit à la mémoire*, N°17, 1991. *La perception critique du texte maghrébin de langue française* .
- Lecoq Louis et Hagel Charles, *Broumitche et le Kabyle*, *Mercure de France*, Paris, No 536, 15 Octobre,1920.
doi : <https://doi.org/10.3406/horma.1991.1095>
- littérature comparée (La), 5-voyages et voyageurs.
<https://www.universalis.fr/encyclopedie/litterature-la-litterature-comparee/5-voyages-et-voyageurs>
- Lucas Philippe, Vatin Jean-Claude, *L'Algérie des anthropologues*, François Maspero, Paris,1982.
- Maiga Aboubacar Abdoulwahidou, *L'Afrique du Nord dans les récits de voyage et l'oeuvre d'André Gide* .
https://www.academia.edu/14758186/L'Afrique_du_Nord_dans_les_récits_de_voyage_et_l'oeuvre_d'André_Gide

- Mammeri Mouloud, La colline oubliée, Sned 10-18, Librairie Plon, 1955.
- Mammeri Mouloud, Le Sommeil du Juste, Sned 10-18, Librairie Plon, Paris, 1978.
- Mangion Paul, Une approche de Louis Bertrand.
<http://www.cerclealgerianiste.fr/index.php/archives>
- Marmier Xavier, Lettres sur l'Algérie, Arthus Bertrand, Editeur, Paris, 1847.
- Martini Lucienne, Un regard de femme, Lucienne Favre: Orientale 1930.
[http://www.sielec.net/pages site/FIGURES/martini_favre.htm](http://www.sielec.net/pages_site/FIGURES/martini_favre.htm)
- Martino Pierre, l'œuvre Algérienne d'Ernest Feydeau, in Revue africaine, 3e Trimestre, N° 274, 1909.
- Masson Paul, Mémoires d'Algérie et poids du silence, mercredi 26 décembre 2018.
- Maughan Nicolas, Etangs et marais dans les Voyages Extraordinaire de Jules Verne : quel traitement littéraire pour des espaces géographiques en mutation au siècle de l'hygiénisme ? Natura in fabula: Topiques romanesques de l'environnement, Brill, 3 janv. 2019
- Maupassant Guy (de), Au Soleil, Édition reproduite, Albin Michel, 1925.
Édition du groupe « Ebookslibresetgratuits .«
- Maupassant Guy de, Bel-Ami, Bibliothèque Électronique du Québec.
- Maupassant Guy de, La vie errante, La Bibliothèque électronique du Québec
Collection À tous les vents Volume 447 : version 1.01.
- Mazel Jean, Oued Guéterini (1) - La Rencontre avec le pétrole.
<http://www.cerclealgerianiste.fr/index.php/archives/encyclopedie-algerianiste/histoire/histoire-economique/exploitation-du-sous-sol>
- Mazzella Léon, Le parler pied-noir Mots et expressions de là-bas, Éditions Payot& Rivages, Paris, 2017 .
- Merdaci Abdellali, Premier journaliste et romancier algérien de langue française, Autour de Omar Samar, Publié dans La Nouvelle République le 27 - 10 – 2008.
- Mérimée Prosper, Dernières Nouvelles, Texte établi et annoté avec une introduction par: Léon Lemonnier, Librairie Ancienne Honoré Champion, Paris, 1929.
- Messaadi Sakina, Les Romancières coloniales et la femme colonisée, Contribution à une étude de la littérature coloniale en Algérie, ANEP, Alger, 2002.
- Mille Pierre, Firmin-Didot Et Cie, 5 édition, Paris, 1931.

-Monah Roxana, Un voyage qui n'en est pas un: éléments d'une poétique du voyage chez Eugène Fromentin, *Cadernos de Literatura Comparada*, N° 30 – 6/ 2014, Instituto de Literatura Comparada Margarida Losa, Université "Al. I. Cuza" Iasi.

-Monteil Vincent, *Georges Buis : La grotte*, 1961.

<https://esprit.presse.fr/article/monteil-vincent/georges-buis-la-grotte-29666>.

-Mounir Omar, *Dans l'intimité de l'écriture : essais*, Marsam Editions, 2007.

-Musette, *Cagayous au miracle*, Imprimerie Victor Rollet, Alger, 1905.

-Musette, *Cagayous, textes recueillis par Gabriel Audisio, Collection et alors? Et oïla*, Balland, Paris, 1972.

-Nait Ouslimane Karim, *Étude de l'espace dans l'œuvre romanesque de Mohammed Dib*, Thèse sous la direction de Juliette Vion-Dury, École doctorale Érasme, Université Paris 13, Décembre 2019.

-Ouary Malek, *Le Grain dans la meule*, Editions Buchet/Chastel, Correa, 1956.

-Ould Cheikh Mohammed, *Myriem dans les palmes*, Introduction de Lanasri Ahmed, Office des publications universitaires, Alger, 1985.

-Pageaux Daniel-Henri, *la littérature générale et comparée*, Collection Coursus, série "Littérature", Armand- Colin Editeur, Paris, 1994.

-Pageaux Daniel-Henri, *Recherches sur l'imagologie: de l'histoire culturelle à la Poétique*, *Revista de Filologia Francesa*, 8. Servicio de Publicaciones. Univ. Complutense, Madrid, 1995. <https://revistas.ucm.es/index.php/THEL/index>

-Pageaux Daniel-Henri, *Un aspect des relations culturelles entre la France et la péninsule ibérique: L' exotisme*. p.464. <https://dialnet.unirioja.1223237.pdf>

-Pandolfi Paul, *Imaginaire colonial et littérature, Jules Verne chez les Touaregs*, *Ethnologies comparées*, Centre d'Études et de Recherches Comparatives en Ethnologie, *Passés Recomposés*, Automne 2002, N°5.

-Péret Hélène, Péret Jean-Claude, *Le monde extraordinaire de Jules Verne*, Editions Cheminements, 2006.

<https://books.google.dz/books?clovis+dardentor+jules+verne>

-Périer Camille, Meryem, *Scènes de la vie algérienne*. Marcel, E. Dentu, Éditeur, Paris, 1863.

-Perrier Aurélie, *Barbares mais virils, Représentations du corps indigène masculin et redéfinition des identités de genre et de race dans l'Algérie de la conquête, 1830-1870*.

<http://www.reseau-terra.eu/article1410.html>

(2004). *Pour en finir avec les "Pieds-noirs!"* - Pervillé Guy ,

- Peyré Joseph, L'escadron blanc, Bernard Grasset, Paris.
- Planche Jean-Louis. Charles Courtin, romancier de l'affrontement colonial, In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°37, 1984.
http://www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1984_num_37_1_2020
- Pouillon François, Dictionnaire des orientalistes de langue française. Nouvelle édition revue et augmentée, Karthala Editions, 21 nov. 2012.
- Prince Gerald, Guide du roman de langue française : 1901-1950, University Press of America, 2002.
- Prochaska David, History as Literature, Literature as History : Cagayous of Algiers, American Historical Review, June, 1996.
- Pujarniscl Eugène, Philoxène ou de la littérature coloniale, préface de Pierre Mille, Firmin-Didot - Paris – 1931.
- Qu'est-ce que le pataouète ? librairie-pied-noir.
<https://www.librairie-pied-noir.com/content/9>
- Randau Robert, Cassard Le Berbère, Éditions de "Belles-Lettres, Paris,1921 .
- Rhaïs Elissa, Le Café-chantant, Treizième édition, Librairie Plon, Plon-Nourrit et Cie.Paris,1920.
- Rhaïs Elissa, Noblesse arabe, Treizième édition, Librairie Plon, Plon-Nourrit et Cie.Paris,1920.
- Randau Robert, L'œil du monde, FeniXX réédition numérique (Éditions du monde moderne 1927) pdf.
- Ricoeur Paul, L'idéologie et l'utopie : deux expressions de l'imaginaire social, [article], num_2_1,1984. https://www.persee.fr/doc/chris_0753-277
- Roblès Emmanuel, Les Hauteurs de la ville, Collection Méditerranée, Editions du Seuil,1960.
- Roche Anne. Tradition et subversion dans l'œuvre de Mouloud Mammeri. In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°22, 1976. doi :
<https://doi.org/10.3406/remmm.1976.1381>
https://www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1976_num_22_1_1381
- Romand E, Ceux d'Algérie, Le Mutilé de l'Algérie: journal des mutilés, réformés et blessés de guerre de l'Afrique du Nord. 10-08-1930, Quinzième année, N 476.
- Rosensweig Gérard, Algérianisme, 2010. www.clan-r.org > pdf
- Rosfelder André, Rocade sud, Calmann – Lévy Editeurs, Paris,1953. Édition numérique. 1 mars 2012.

- Roussos Katherine, Islam et occidentalisation dans l'autofiction d'Isabelle Eberhardt,
 - Roux Hugues Le, Je deviens colon, Mœurs algériennes, 1895.
 - Roy Jules, Les chevaux du soleil I, Chronique d'Alger, Editions Bernard Grasset, Paris VI, 1967.
 - Roy Jules, Les chevaux du soleil II, Une femme au nom d'étoile, Editions Bernard Grasset, Paris VI, 1968.
 - Roy Jules, Les chevaux du soleil III, Les cerises d'Icherridène, Editions Bernard Grasset, Paris VI, 1969.
 - Roy Jules, Les chevaux du soleil X, Les âmes interdites, Editions Bernard Grasset, Paris, 1972.
 - Roy Jules, Les chevaux du soleil VI, Le tonnerre et les anges, Editions Bernard Grasset, Paris, 1975.
 - Sadiqi Fatima et autres, Des femmes écrivent l'Afrique. L'Afrique du Nord, KARTHALA Editions, 5 févr. 2013.
 - Salle Eusèbe (de la), Ali le Renard, ou la Conquête d'Alger, Édition G. Gosselin, Paris, 1832. Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France.
 - Shatnan Aieze Ala, L'image de l'Arabe et l'attitude d'Albert Camus envers la question algérienne dans sa nouvelle "L'Hôte", de son recueil "L'Exil et le Royaume" : Une étude analytique, Revue de la Faculté des Langues –Université de Bagdad, 2006.
<https://jcolang.uobaghdad.edu.iq/index.php/JCL/article/view/508/379>
 - Seillan Jean-Marie, Aux sources du roman colonial (1863-1914), Éditions Kharthala, 2006 .
 - Smaili Salhi Zahia, Themes in the Francophone Algerian Novel, University of Exeter as a Thesis for the Degree of Doctor of Philosophy in Modern Literature in the Faculty of Arts, August 1991.
 - Spenatto Alain, Livres de l'Algérie ancienne, numérisés en mode texte. Mise à jour le 31 Décembre 2009 .
 - Staszak Jean-François, Qu'est-ce que l'exotisme ? [Article]in L'exotisme, Le Globe. Revue genevoise de géographie, tome 148, 2008.
 - Stil André, Le Foudroyage, Editeurs Français Réunis, Paris,1960.
 - Tailliar Charles, L'Algérie dans la littérature française, Essai de bibliographie méthodique et raisonnée, Librairie Ancienne, Edouard Champion, Paris 1925.
- Urn: nbn: de: gbv: 3:5-13965. Visual Library

- Ternaux-Compans Henri Bibliothèque asiatique et africaine : ou, Catalogue des ouvrages relatifs à l'Asie et à l'Afrique, Arthus Bertrand Librairie, Paris, 1841.
- Tharaud Jérôme et Jean, La Fête arabe, Troisième édition, Ed Emile-Paul, Paris, 1912.
- Tournier Jacques, Arcole ou La Terre promise, <https://www.babelio.com/livres/Moussy-Arcole-ou-La-Terre-promise/961038>
- Truphémus Albert, L'Hôtel du Sersou: roman du sud algérien, L'Harmattan, 2009.
- Tuan Daniele, L'oeuvre d'Emmanuel Roblès. pdf. <https://docplayer.fr/21483461-L-oeuvre-d-emmanuel-robles.html>
- Van Tuyl Jocelyn, «Figurations du voyage dans El Hadj», Australian Journal of French Studies, 1995, 32.2, pp. 176-186. Traduit en français par Pauline-Anais Le Ven. 2020-04-28.12 :00 . http://www.gidiana.net/DOSSIERS_CRITIQUES/CRIT_EL_HADJ/J_Tuyl_El_Hadj.html
- Verne Jules, Clovis Dardentor, La Bibliothèque électronique du Québec, Collection À tous les vents, Volume 326: version 2.
- Verne Jules, Hector Servadac, La Bibliothèque électronique du Québec, Collection À tous les vents, Volume 326: version 2.0.
- Verne Jules, L'invasion de la mer, La Bibliothèque électronique du Québec, Collection À tous les vents, Volume 504: version 2.0, Édition de référence: Cérès éditions / Syros jeunesse, 2003.
- Verne Jules, Mathias Sandorf, La Bibliothèque électronique du Québec, Collection À tous les vents, Volume 326: version 2.0.
- Vittorini Valerio, L'image du monde arabe dans la littérature française et italienne du XIXe siècle: analogies, différences, possibles influences, Thèse de doctorat de IIIe cycle en co-tutelle internationale Littérature comparée, Université Nice Sophia Antipolis, 2015. <http://www.cafe.umontreal.ca/genres/n-voyage.html>
- Wolff Etienne, La Vandale (1907) de Magali Boisnard : Guri Barstad, Karen P. Knutsen, States of Decadence: On the Aesthetics of Beauty, Decline and Transgression across Time and Space, Volume 1, Cambridge Scholars Publishing, 14 déc. 2016.
- Yacine Tassadit, Mort, Identité, Langue dans l'oeuvre de Mohammed Kheir-Eddine, LittéRéalité, CNRS.

-Yahia Khabou Saadia, La poétique de l'espace et l'expérience de l'écriture dans Les Nourritures terrestres d'André Gide, 2013, Postures, Dossier «Nord/Sud», n°17, En ligne <<http://revuepostures.com/fr/articles/yahia-khabou-17>>

Yahiaoui Fadhila, Roman et société coloniale, Dans l'Algérie de l'entre-deux-guerre, E.N.A.L, Alger, 1984.

-Yahiaoui Messouda, Regards et discours sur « l'Indigène, l'Arabe » dans les Ecrits coloniaux des Européens d'Algérie 1898-1940.

-Zakad Abderrahmane, Djamilia Debèche, une écrivaine algérienne oubliée.
www.algeriepatriotique.com/2013/11/30/djamila-debèche-une-ecrivaine-algérienne-oubliee

-Zola Émile, Thérèse Raquin, La Bibliothèque électronique du Québec
Collection À tous les vents Volume 38: version 2.01.

الفهرس

إهداء/عرفان	
شكر وتقدير	
مقدمة	6
تمهيد	15
<u>المبحث الأول</u> : مفاهيم نظرية: في مفهوم الصورة المقارنية	16
<u>المبحث الثاني</u> : جذور صورة الشرق التاريخية في وعي الغرب	31

• الباب الأول "صورة الجزائر في القرن التاسع عشر من 1830-1900

سُرود فرنسيي المتروبول في سياق السّياحة الاستعمارية"

الفصل الأول: الجزائر في السرد الرحلي

-توطئة.....45

المبحث الأول: صورة الجزائر في مرآة الرحلة الاستشراقية

-الخلفية الإيديولوجية للرحلات الفرنسية.....48

-السياحة الأدبية: النخبة المثقفة في رحلة البحث عن الحلم الشرقي.....51

-الحلم بالأمصار البعيدة: البحث عن اللون المحليّ إقرار بالاختلاف الثقافي.....53

-وصف إثنوغرافي للمكان الجغرافي: خلفية استشراقية ودعاية استعمارية.....56

-الفضاء المدني: مدينة الجزائر وجدلية المفاضلة بين الطرازين العربي والغربي.....58

- 73.....ضواحي إقليم الجزائر: سهول المتيجة وما جاورها
- 81.....بايلك التيطري: المدية وضواحيها
- 81.....بايلك الشرق الجزائري: الإقليم القسنطيني
- 86.....بلاد القبائل أو الزواوة في عيون الرحّالين
- 90بايلك الغرب الجزائري: الإقليم الوهراني
- 93.....الفضاء الصحراوي: رحلة إلى بلاد الرمال والتيه والعطش
- 96.....التنوع الإثني بين الائتلاف والاختلاف

المبحث الثاني: الأبعاد الأنتروبولوجية في سرود الرحلات

- 110.....فضاء العبادات والعادات: عادات وعبادات خارج التوقعات
- 118.....فضاء الطبيعة: شعرية الطبيعة الحية والجامدة
- 123.....فضاء التراث الثقافي: اهتمام الرحالين بالتراث الثقافي الشعبي
- 132.....البحث عن الآخر وغزو الذات: غرائبية الغيرية
- 145.....غرائبية اللون المحلي
- 147.....الشخصيات المرجعية في منظور المستعمر
- 152.....فضاء الصراع الإيديولوجي والنسق العسكري الاستعماري
- 157.....استحضار صورة الأنا التاريخية: إحياء الرومنة واللوتنة

الفصل الثاني: صورة الجزائر في السرد القصصي والروائي

- 161.....توطئة
- 162.....**المبحث الأول: سرديات أدب الغزو والسياحة الاستعمارية**

- 162.....-الأدب العسكري: سردية الغزو العسكري بين الحب والرسالة الحضارية.....
- 170.....-سردية الواقع الاجتماعي الغرائبي: العشق والموت في المجتمع الاستعماري.....
- 172.....-ملحمة الجيل الأول من المستوطنين في البحث عن السعادة.....
- 179.....-نقد السحر الغرائبي: نزع ملمح السحري والأسطوري عن الجزائر.....
- 183.....-ملاحم الشراسة المتولدة عن الزواج المختلط في رواية تيريز راكين لزولا.....
- 184.....-بروسبير ميريمي: مغامرات قناص فرنسي في الغرب الجزائري.....
- 187.....-موباسان والأقاصيص الجزائرية.....

المبحث الثاني: مغامرة البحث عن الذات في الآخر والتماهي مع المكان "الهناك"

- 192-عرسية الحياة عند أندري جيد: البحث عن الذات بين الملذات.....
- 199.....-إيزابيل إبرهارد: لوحات من هواجس الحب والحرب، وهموم الحياة والموت.....
- 209.....-هوغ لورو: أسطورة المستوطن في رحلة البحث عن الاستقرار والثروة.....
- 213.....-العلم في خدمة العنصرية الغربية: مغامرات جول فارن في الجزائر.....

• الباب الثاني: صورة الجزائر المستعمرة في القرن العشرين 1900-1962

إشكالية الهوية والانتماء

الفصل الأول: الجزائر في روايات فرنسيي الجزائر، الرواية الاستيطانية/ الكولونيالية

- 230.....-توطئة.....

المبحث الأول: استيعاب الجزائر مختلف الثقافات الأوروبية الوافدة

- 233.....-الخطاب الإدماجي: أطروحة الجزائر وميلاد العرق الجزائري الجديد.....

- حركة التجزؤر algérianisme: تأييد سردي للإيديولوجيا الاستعمارية.....245
- مع الرواد، لويس برتران وروبير راندو وجان بومييه.....245
- تدجين الأهلي وجزارة المستوطن: فردينان دوشان والمتجزؤرون الآخرون.....275
- رفض أطروحة الإدماج الرامية لتكوين شعب جزائري هجين.....299
- نبوءة الجزائر المستقلة: الوطن البربري أو الجمهورية البربرية.....303
- استمرار النظرة الاستشراقية الغرائبية في مطلع القرن العشرين.....308
- الصحراء الاستعمارية: استعادة الصور الغرائبية لأسطرة الصحراء الجزائرية.....311
- المجتمع الاستعماري بقلم الأنثى: خطابات النسوية والإيديولوجيا الاستشراقية.....320

المبحث الثاني: صراع الهويات ومشكلة صناعة الثقافة في ظل النظام الاستعماري

- إشكالية الهوية في المجتمع الاستعماري من حركة التجزؤر إلى مدرسة الجزائر.....342
- مدرسة الجزائر والتراث المتوسطي 1935-1950.....342
- تصوير القمع الاستعماري والتعاطف مع الأهالي: إيمانويل روبلس وجان بيليغري.....348
- الأهلي غريب الوطن ومسلوب الوطنية في أعمال كامو الواقعية.....354
- الإقصاء العنصري في ملحمة المستوطن: ريني جان كلو، وبول بلا، ومارسيل موسي.....369
- صدى ثورة التحرير الجزائرية لدى الكتاب الفرنسيين والمواقف المتباينة.....377
- خيول الشمس لجول روا: ملحمة الشعب الجزائري أم ملحمة المستعمر الفرنسي في الجزائر.....389

الفصل الثاني: الكتابة بلغة الآخر في روايات الأهالي، صورة المستعمر بلغة المستعمر

- توطئة.....410

المبحث الأول: الرواية الإدماجية، في سياق الدعوة إلى التطبيع والولاء لإيديولوجيا

الاستعمار

- 413.....-تاريخ البدايات الأولى في ظل التحولات السياسية: 1891-1920.....
- 422.....-مرحلة الخطاب المزدوج: المداهنة والمهادنة من 1920 - 1940.....
- 444.....-الأعمال الثنائية بين مستعمر ومستعمر: خطاب المثاقفة وفكر الهيمنة.....
- 447.....-مرحلة التفاعل والتجاوب مع الانفتاح من 1940-1950.....
- 454-الكتابة النسوية وقضايا المرأة المندمجة.....
- 468.....-الخطاب المقاوم للإدماج الاستعماري.....

المبحث الثاني: الرواية الوطنية الملتزمة، بعث الوعي الوطني وإثبات الهوية الجزائرية

- 480.....-من أجل إثبات الهوية الجزائرية: 1950-1957.....
- 481.....-تصوير معاناة الأهالي مع المستعمر في سياق إثنوغرافي.....
- 499.....-إعلان التمرد على سياسة الاستعمار القمعية.....
- 521.....-الالتزام بقضايا النضال الثوري والتحرر الوطني 1957 - 1962.....
- 535الخاتمة.....
- 543.....المصادر والمراجع.....
- 565.....الفهرس.....
- 571.....الملحق.....
- 574.....الملخص.....

الملحق

مقتطفات من بيانات المبادئ النظرية التي وضعها الكتاب الاستعماريون لأدبهم

«لأول مرة يعي عرق جديد نفسه [...] هؤلاء الشباب الأفارقة [...] يبتعدون أكثر فأكثر عن الغرائبية الرومانسية القديمة [...] (التي) تبدو لنا على أنها تشويه منهجي وتشويه للواقع [...] دون إهمال ماضي [الروائيين الاستعماريين] تنازلوا لإلقاء نظرة على الحاضر [...] لقد دربوا المستوطن حيال المواطن الأهلي. المستوطن موجود في عيونهم. إن جهده يثير اهتمامهم بل ويسحروهم [...] جزائريونا [...] يريدون [...] أن يخلقوا أدبًا جزائريًا محليًا للغاية وأصليًا ومستقلًا [...] سمة مشتركة [...] تميزهم عن الكتاب الاستعماريين العاديين وأيضًا عن أنصار من الغرائبية السالفة: إنهم، في إفريقيا، أبناء الأرض، لأنهم في وطنهم هناك [...] وهكذا فإن بلادهم التي يصفونها لنا [...] بالقصص التي يروونها لنا يعرفون تمامًا كل الخفايا؛ شخصياتهم والمشاهد التي يرسمونها لنا مألوفة عندهم. لديهم رغبة كبيرة في أن يكونوا صادقين، وأن يرسموا بيئة حقيقية ليست روائية أو شعرية من وحي خيال السائح».

[لويس برتران مقدمة كتاب "إفريقيتنا 1925"]

«جزائريًا نحن جزائريون ولن يكون أي شيء أجنبي بالنسبة لنا جزائريًا. على عكس مفكري المتروبول الذين حبسوا أنفسهم، في الغالب، في علياء عصرهم المتغطرس، نعتقد أن أفضل وأغنى طريقة للعمل هو عدم إهمال أي شيء من الأوسمة والجوانب وقوى الحياة [...] فلسفة القوة والحركة [...] التي شعرنا بضرورة وضعها في مقدمة فن فرنسي الجزائر. من خلال تطبيق هذا المبدأ، فإننا نعتبر كل المجال الحراك الجزائري ملكنا: السياسة العامة، والاقتصاد السياسي، والعلاقات العرقية، والأرواح المختلطة، والشارع، والمدينة والمدينة، والإنسان، والأرض والبحر، وجزائر إيكوزيوم. والجزائر الحديثة. سوف يسعى نقدنا جاهداً لتوضيح كل الأشياء لدمج جمالها في فننا: "لا شيء جزائري أجنبي عني" "Nihil Algerum a me alienum" «... [جان بومييه "بيان حركة التجزؤ"]

«أوه! دعونا نطلب غفران اللوتة السهلة جدا...! أقيت نظرة فاحصة على عرقي ووجدت أنه لا يحتفظ بالشيء الكثير [...] لشعبي العديد من الوجوه مثل كل شيء يحيا، وتكمن أصالته، مثل كل الحقائق، في مزيج من السوابق المشبوهة [...] ليس هناك شك بالنسبة إلي في أن البحر المتوسط هو قارة، وليس بحيرة داخلية، ولكنه نوع من القارة السائلة مع أطراف صلبة. بالفعل يقول الكاتب دوهاميل إنه ليس بحرًا بل بلد. أذهب أبعد من ذلك أقول: وطن. وأنا أحدد أنه بالنسبة لشعوب هذا البحر، هناك وطن حقيقي واحد فقط، هذا البحر نفسه، البحر المتوسط. ولهذا أقول: الوطن "المتوسطي"، يعيد لهذا المؤهل القوة الجاذبة التي فقدها "البحر المتوسط" بالكامل». [غابريال أوديزيو "شباب البحر المتوسط" 1935]

في مؤتمر عقد في 8 فبراير 1937، في دار الثقافة بالجزائر العاصمة، حدد ألبير كامو ما أسماه "ثقافة البحر الأبيض المتوسط الجديدة" كما يلي: «كل الخطأ يأتي من الخلط بين البحر الأبيض المتوسط واللاتيني ودعونا نضع في روما ما بدأ في أثينا ". إن إنشاء مجلة "ضفاف" Rivages، مجلة ثقافة البحر الأبيض المتوسط تجسد هذا المشروع لتعريف "وجه ثقافة [...] "ضفاف" Rivages لا تمثل مدرسة. ولا شك في أنه من خلال التأمل دائمًا في تضخيم البحر ذاته في خليج مشابه دومًا، يستحيل على الرجال ألا يخلقوا إحساسًا مشتركًا. لكن الاختلافات بينهما ليست محدودة، وهذا الاتحاد وهذه التناقضات هي التي سيحاول ضفاف تمثيلها. من فلورنسا إلى برشلونة، ومن مرسيليا إلى الجزائر العاصمة، يعطينا الشعب الشقيق والمزدحم الدروس الأساسية في حياتنا. في قلب هذا الكائن اللامحدود لابد أنه ينام كائن سري أكثر لأنه يكفي الجميع. هذا هو الكائن الذي يتغذى من السماء والبحر، يدخل أمام البحر الأبيض المتوسط تحت أشعة الشمس، الذي نهدف إلى إحيائه [...] العقول الأكثر تنوعًا، والكتاب العظماء وغير المعروفين بالأمس، سيجدون أرضية للقاء».

المخلص

باللغة العربية

تمحور هذا العمل الموسوم "صورة الجزائر في المتخيل السردى لدى الكتاب الفرنسيين"، وكتابات الجزائريين باللسان الفرنسي بين 1830-1962" حول تمثيلات الجزائر في المتخيل السردى باللسان الفرنسي خلال الحقبة الاستعمارية، من خلال مساءلة الأعمال السردية للكشف عن الصراع الحضاري بين الأنا الآخر، ورصد الأنساق التمثل بتتبع النواحي الجغرافية والبشرية، ومختلف الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية، وانعكاساتها على المجتمع باختلاف طوائفه من منظور مزدوج ومتداخل المستعمر الفرنسي والجزائري الأهلي ناظرا ومنظورا إليه.

تنوع الإنتاج السردى بين مذكرات الرحلة واليوميات والسير الذاتية والقصص، والروايات التي حظيت بنصيب لا يستهان به عند كتاب تلك المرحلة الحرجة والمضطربة. توزع هذا الإنتاج بين سيطرة الفرنسيين على الكتابة طيلة مدة الاحتلال، ومحاولة الأهالي الجزائريين محاكاة تقاليده التعبيرية والفنية في مطلع القرن العشرين إلى غاية الاستقلال. كان الفرنسيون سابقين إلى تمثيل الجزائر منذ الغزو العسكري بكم غزير، أنتجه أدباء العبور الذين قاموا برحلات سياحية إلى الجزائر للمساهمة في المشروع الاستعماري، معتمدين على مذكرات الرحلة واليوميات والسير الذاتية، ثم جربوا الكتابة القصصية والروائية. أما الأدباء المستوطنون فهم الذين استقروا في الجزائر وأطلق عليهم فرنسيو الجزائر، اتخذوا السرد الروائي أداة لدعم إيديولوجيا للاستعمار الفرنسي، وخدمة مصالحهم الشخصية. وأما أدباء الأهالي فقد توسلوا بالسرد وباللغة الفرنسية ردا على كتابات المستوطنين الاستعماريين لسببين هما: المطالبة بحقوق مدنية وسياسية متساوية أولا. ووصف معاناة الشعب، وإثبات الهوية الجزائرية والمطالبة بالاستقلال ثانيا، وكانوا فئتين، أدباء الولاء الذين انحازوا إلى صف المستعمر يمدحون ثقافته، وأدباء العداة الذين آثروا النضال وفضحوا سياسة الاستعمار.

This thesis titled: “The Image of Algeria in the Narrative Imagination of French Writers and the Writings of Algerians in French between 1830-1962”, focuses on Algeria's representations, in the narrative imaginary in the French language writings during the colonial era, to reveal the civilizational conflict between the Self and the Other. It follows the geographical and human aspects, the various political, social and cultural conditions and their repercussions on society's life from a double and overlapping perspective.

The narrative production was various, it included travel memoirs, diaries, biographies, short stories and novels. The latter had the lion's share during that turbulent period; it was divided between the French writing domination throughout the occupation era, and the attempt of the Indigenous people to imitate its expressive and artistic traditions during the twentieth century until the independence.

The French were precursors in the representation of Algeria since their military invasion. Transit writers who visited Algeria in order to contribute to the colonial project produced that representation with their multiple and various writings.

As for The settler writers, who settled in Algeria and were called the French of Algeria, they took the narrative production as a tool to ideologically support French colonialism and serve their own interests. While the Indigenous writers used the narrative and the French language in response to the colonial settlers' writings for two reasons: firstly, to demand equal civil and political rights ; and secondly, to describe people's suffering, prove the Algerian identity and demand the independence. They were divided in two categories: the writers who sided with the colonizer praising his culture, and those who chose to struggle and expose the policy of colonialism.

Cet ouvrage intitulé: « L'image de l'Algérie dans l'imaginaire narratif Chez les écrivains français et les écrits des Algériens en français entre 1830-1962 », s'intéresse aux représentations de l'Algérie, dans l'imaginaire narratif des écrits de langue française à l'époque coloniale, pour révéler le conflit civilisationnel entre le Soi et l'Autre. Il retrace les aspects géographiques et humains, les différentes conditions politiques, sociales et culturelles et leurs répercussions sur la vie de la société dans une perspective double colonisateur/colonisé.

La production narrative était variée, elle comprenait des mémoires de voyage, des journaux intimes, des biographies, des nouvelles et des romans. Ce dernier s'est taillé la part du lion durant cette période mouvementée; il a été divisé entre la domination de l'écriture française tout au long de l'occupation et la tentative des peuples autochtones d'imiter ses traditions expressives et artistiques au cours du XXe siècle jusqu'à l'indépendance.

Les Français ont été des précurseurs dans la représentation de l'Algérie depuis leur invasion militaire. Les écrivains de l'escale qui se sont rendus en Algérie pour contribuer au projet colonial ont produit cette représentation avec leurs écrits multiples et variés.

Quant aux écrivains coloniaux, qui se sont installés en Algérie (Français d'Algérie), ils ont pris la production narrative comme un outil pour soutenir idéologiquement le colonialisme français et servir leurs propres intérêts. Alors que les écrivains autochtones ont utilisé le récit et la langue française en réponse aux écrits des coloniaux pour deux raisons: premièrement, pour revendiquer l'égalité des droits civils et politiques; et deuxièmement, décrire la souffrance du peuple, prouver l'identité algérienne et exiger l'indépendance. Ils étaient divisés en deux catégories: les écrivains qui se sont rangés du côté du colonisateur en louant sa culture, et ceux qui ont choisi de lutter et de dénoncer la politique du colonialism .